



خليل باشا

جاويز، وشيخ الإسلام خيرى أفندى يؤيدان الجامعة الإسلامية. وكان من الدعاة للجامعة الإسلامية فى الدولة كذلك الشيخ أحمد ظافر المدنى، ولكل هؤلاء مكانتهم عند بشير السعداوى. وعلى ذلك لم يزعه ما شاهده عند عودته من ريزه إلى استانبول، من اشتداد حملة دعاة الطورانية، وخصوصاً الدكتور عبد الله جودت صاحب مجلة (اجتهاد) التركية، والذي حمل على الدين الإسلامى وعلى العرب فى مجلته هذه. فقد تدخل خليل (باشا) مثلاً لوقف حملة مجلة (اجتهاد) وأمر عبد الله جودت بأن يمتنع عن الخوض فى الموضوعات الإسلامية، وكانت هذه الموضوعات قد ثار نقاش حولها بصورة تدعو إلى التفسير من الإسلام والعرب عمومًا بين مجلته، وبين مجلة أخرى اسمها (الصراط المستقيم).

وعندما جاء بشير السعداوى إلى بيروت، استطاع أن يقف على حقيقة الدعوة "المضادة" التى حاول أن يجابه بها أحرار العرب الدعوة الطورانية، ونعنى بذلك دعوة الإصلاح اللامركزية التى ترمى فى جوهرها إلى جعل كيان للولايات العربية على أساس منحها استقلالاً داخلياً فى نطاق الدولة العثمانية، وبحيث يتولى الحكم فيها العرب، وتكون اللغة العربية اللغة المعترف بها، وتتفق الإيرادات المتحصلة من هذه الولايات فيما فيه صلاح الأمور بها، وما تمس الحاجة إلى إدخاله إليهما م ضروب العمران. ولقد تألفت جملة جمعيات لترويج هذه الدعوة فى استانبول وفى بيروت وفى دمشق وفى البلاد الأخرى التى يوجد بها "عرب" أو مهاجرون من الشام خصوصاً، سواء فى مصر (القاهرة) والعراق (البصرة) أم فى أوروبا (باريس) أم فى أمريكا (نيويورك). وفى بيروت قابل بشير السعداوى أحد أعضاء هذه الجمعيات النشيطين: عبد الوهاب (بن حسين) الإنجليزى: وكان من أدباء دمشق وخيرة رجالها، وأخلص للاتحاديين بعد اتفاقهم مع عبد الحميد الزهراوى (حوالى أكتوبر ١٩١٣) على أن يتكاتف الأتراك والعرب فى خدمة الدولة، وتعين (مفتشاً ملكياً) أى إدارياً فى إحدى ولايات الأناضول. ولكنه

كان من الذين انضموا إلى (حزب اللامركزية) وإلى (الجمعية الإصلاحية البيروتية) ١٩١٣، لتنفيذ البرنامج الإصلاحي "العربي" الذي تحدثنا عنه. وقد انتهى به الأمر إلى معارضة الاتحاديين ودعوتهم الطورانية معارضة شديدة، حتى أن جمال باشا (أحمد جمال باشا) وزير البحرية في حكومة الاتحاديين وأحد أقطابهم، عندما تولى قيادة الجيش الرابع الذي كان مقره في دمشق في نوفمبر ١٩١٤، لم يلبث أن قرر إعدام عبد الوهاب الإنجليزي مع زملاء آخرين له من (حزب اللامركزية) بدعوى اشتراكهم - كما جاء في نص البلاغ الذي أصدره جمال باشا (في ٦ مايو ١٩١٦) وفي صبيحة اليوم نفسه الذي أعدموا فيه - "في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة".

وعندما قابل بشير السعداوى عبد الوهاب الإنجليزي في بيروت، كان هذا لا يزال (مفتشاً ملكياً)، وبدأت على شرح دعوته ودعوة زملائه إلى الإصلاح اللامركزي، واستمع بشير لكل ما أراد أن يقوله صاحبه، ولكن جوابه على كل الحجج التي سمعها كان واحداً، فكان البشير يجيبه دائماً؛ (نحن عرب، ونعرف تاريخ أمتنا، والمجد الذي بلغته في الماضي، والأسباب التي دعت لضعفنا؛ ونحن كذلك نريد أن تكون الخلافة عربية، وأن تستعيد الأمة العربية مجدها. تلك هي عقيدتي دائماً، وذلك ما كنت أود أن يتحقق ولو أدى إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، ولكن بعد تجربة الغزو الإيطالي لبلادى صرت لا أرى سبيلاً لإنقاذ العالم الإسلامي من خطر الاستعمار الأجنبي إلا في بقاء الدولة العثمانية. والتأزر فيما بيننا جميعاً على شد أزر هذه الدولة والعمل لتقويتها حتى تستطيع الدفاع عنا نحن الذين لا قدرة لنا وحدنا على دفع الخطر الأجنبي عن بلادنا، وبذلك يصبح لنان نحن العرب كياناً، ويصبح في وسعنا رويداً رويداً الوقوف على أقدامنا، ونتولى بأنفسنا مهمة الدفاع عن أوطاننا .."، ولم يلق قول بشير السعداوى أذناً مصغية، وكان عبد الوهاب الإنجليزي يردد دائماً أن بشيراً ومن يفكرون تفكيره من

العرب، لا يريدون أن تكون للعرب نهضة ما داموا متمسكين بالدولة العثمانية كان بشير السعداوى يرد على ذلك بقوله: "إنه يخشى إذا نجح "العرب" فى إنهاء النفوذ العثمانى من بلادهم أن يحل محله نفوذ أجنبى لدولة أو أكثر من الدول الأوروبية لا محالة.

وهكذا لم يكن لهذه التيارات "الإصلاحية" تأثير فى زحزحة بشير السعداوى عن الفكرة التى رسخت فى ذهنه دائماً وقتئذٍ، من حيث ضرورة خدمة الدولة وشد أزرها فى أى محنة قد تصيبها، ومعاونتها فى وقت الشدة. وكانت تتزايد قوة هذا الشعور لديه كلما بدا أن الغيوم قد صار يكثر تليدها فى أفق السياسة الدولية، وكلما بدا أن تركيا لا بد داخلها فى الحرب إذا وقعت.

ولقد سارت الحوادث مسرعة، منذ أن غادر السعداوى دار الخلافة، نحو دخول الدولة الحرب. فإن الاتحاديين عقدوا معاهدة تحالف سرية مع ألمانيا فى آخر يوليه سنة ١٩١٤، وفى أول أغسطس صدر أمر (النفي العام) أو التعبئة العامة (سفر برلك) كإجراء احتياطى، وفى ١١ أغسطس دخلت السفيتان الحربيتان الألمانيّتان (جوبن) و (برسلاو) المياه التركية وأعلنت الحكومة أنها اشترتهما من ألمانيا لتحل محل سفينتين تركيتين كانت إنجلترا قد صادرتهما. وأما الحرب الأوروبية فكانت قد قامت فعلاً منذ أن زحفت الجيوش النمساوية على بلغراد عاصمة الصرب فى ٢٨ يوليه، وأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وفرنسا فى ٢ أغسطس، محازة إلى جانب النمسا. وأعلنت إنجلترا بدورها الحرب على ألمانيا والنمسا فى ٤ أغسطس.

وفى أواخر سبتمبر عام ١٩١٤، كان بشير السعداوى قد وصل إلى استانبول عائداً من أجازته فى بيروت. وكان معزتماً التوجه مباشرة إلى مقر عمله فى (ريزه)، فترك حقائبه فى الجمرک، وقصد إلى خليل (بك) الذى ذكرنا أنه أصبح قومنداناً لمركز استانبول ليودعه، وكان بعض شيوخ وأعيان

(ريزه) قد كتبوا إلى خليل بك يستعجلون عودة بشير السعداوى إلى منصبه فى (ريزه) وذلك بعد أن صار متوقعاً أن تدخل الدولة الحرب، لأن البشير - كما قالوا - رجل قد عركته تجارب الحرب فى طرابلس الغرب، وسوف تفيد البلاد من وجوه بها. ولكن خليل بك، عندما جاءه بشير السعداوى ليودعه كلب إليه أن يبقى فى استانبول، ولا يذهب إلى (ريزه)، وأسر إليه أن الدولة على وشك الدخول فى الحرب، وأن مهمة أخرى سوف يعهد بها إليه، ودعاه للتزول عنده، وذلك فى بيت أنور باشا نفسه. ففعل البشير ما طلبه خليل منه.

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٤، تعجل الألمان دخول تركيا الحرب، بأن أوجد قائد الأسطول العثمانى فى البحر الأسود، وكان ألمانيا، "حالة أمر واقع"، جعلت دخول الأتراك الحرب أمراً لا مفر منه، وذلك أن القائد الألمانى هاجم فى هذا اليوم سفناً روسية فى البحر الأسود، وأطلق قنابل أسطوله على بعض الموانى الروسية، دون علم الحكومة العثمانية، ودون أن يصدر له أمر بذلك من أحد أعضاء هذه الحكومة. وحاولت الحكومة، أو بالأحرى العناصر المعتدلة بها تجنب الاصطدام مع روسيا، واقترحت الحكومة حلاً وسطاً فى ٢٩ أكتوبر على أساس إجراء تحقيق لتحديد مسئولية الذين تسببوا فى وقوع الحادث. ولكن روسيا رفضت هذا الاقتراح، وغادر سفيرها استانبول فى ٣١ أكتوبر. وصار "العسكريين" الأتراك يحبذون الدخول فى الحرب، وكثرت الاجتماعات والمشاورات بين أعضاء الحكومة. ولازم بشير السعداوى فى هذه الفترة الحاسمة فى تاريخ الدولة العثمانية، نورى بك أخا أنور باشا، فلم يفترق عنه. حتى إذا كان ليل ٤ نوفمبر، وبشير السعداوى مع نورى بك فى حجرة (الياوران) - أو مرافقى أنور باشا، شهد بشير ونورى نشاطاً غير عادى فى المكالمات (التليفونية) مع هؤلاء الياوران، أعقبه اضطراب ملحوظ. جعل السعداوى وصاحبه يسألان عن سببه، فأسر إليهما أحد الياوران "بأننا الليلة هذه قد دخلنا الحرب!" وبالفعل أعلنت روسيا الحرب

على الدولة فى ٤ نوفمبر، وفى اليوم التالى (٥ نوفمبر) أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب عليها.

٣- الحرب العظمى سنة (١٩١٤) ولجنة تشكيلات مخصوصة

وكان بعد أيام قليلة من إعلان الحرب، أن دعا سليمان عسكرى بك بشير السعداوى لمقابته فى وزارة الحرية. وكان سليمان عسكرى بك من العسكريين الأكفاء، ويشغل منصب رئيس (جمعية تشكيلات مخصوصة) وهى عبارة عن لجنة أعضاؤها يمثلون الأقطار "الإسلامية" التى تحتلها الدول المستعمرة، ويبلغون حوالى الأربعين عضواً منهم هنود، ومن القوقاز والبلقان، ومصر - ومن الأعضاء المصريين الذين يذكرهم بشير السعداوى: عبد العزيز جاویش ومحمد بك فريد، والدكتور أحمد فؤاد المصرى - وتونس (الشيخ صالح التونسى، على باشا همبا وهو زعيم تونسى كبير) .. وهكذا. وقد عهد فى ديسمبر سنة ١٩١٤ إلى سليمان عسكرى بك بالقيادة فى العراق، وأصيب بجرح من شظية قنبلة فى إحدى المعارك على ضفة دجلة اليمنى فى (المزيرة) فى يناير من العام التالى، ثم لحقت به الهزيمة فى واقعة (الشعبية) فى ٤ إبريل سنة ١٩١٥ وانتحر على أثر هذه الهزيمة.

طلب سليمان عسكرى من بشير السعداوى أن يقابله. فلما ذهب البشير إليه، وأخبره سليمان أن أنور باشا يريد الاجتماع به مع نورى بك، وخليل بك وطلعت (باشا) وتحدد موعد لهذا الاجتماع الذى ظهر الغرض منه، عندما راح أنور يوضح لبشير السعداوى ضرورة اشتراك الطرابلسيين (الليبيين) فى الحرب مع تركيا قائلًا: "أما وقد دخلنا نحن الحرب، فالواجب عليكم يا أهل طرابلس وبرقة أن تشتركوا معنا فى القتال لأنكم أمة حرب وأهل شجاعة". ثم استطرد يقول: إن الدولة تريد أن ترسل بشير السعداوى مع نورى بك (شقيق أنور باشا) إلى طرابلس، وأنه (أى أنور) سوف يكتب كتاباً إلى السيد أحمد الشريف، المجاهد الكبير، يبلغه فيه ما يلزم عمله. وانقض الاجتماع.

وعند اجتماعهم ثانية، أبرز أنور باشا كتابًا بالتركية، أعده لإرساله إلى السيد أحمد الشريف، وطلب من بشير السعداوى ترجمته إلى العربية فوجد البشير في الكتاب عبارتين تردد في ترجمتهما: فى أولاهما أنور باشا يقول: لقد دخلنا الحرب ضد الدول الإئتلافية الثلاث (إنجلترا وروسيا وفرنسا)، فأعلنوا أنتم من جانبكم الحرب على هذه الدول، وفى العبارة الثانية بعد أنور بأن الدولة سوف تمد السيد أحمد الشرف بالمعدات والذخائر. ويقول بشير السعداوى: إنه عندما قرأ هذا الكلام غلبت عليه الدهشة، كيف يستكيع الأتراك إمداد أحمد الشريف بالمعدات والذخائر وكيف يستطيع السيد أحمد الدخول فى حرب ضد الدول الثلاث الكبرى: إنجلترا وروسيا وفرنسا، وإيطاليا باقية بالبلاد. وعلى ذلك فقد حاول بشير السعداوى أن يخفف عند الترجمة من حدة عبارة "إعلان الحرب" واستبدل بها كلمات أخرى، فكتب "وعاودهم كما عديناهم" كما أنه كتب بدلا من الوعد القاطع عن إمداد الدولة للسيد أحمد الشريف، والذي جاء فى أصل الرسالة التركى: إن الدولة "سوف تمدكم بقدر الإمكان". وذكر بشير السعداوى لأنور باشا التصرف الذى جرى فى الترجمة. ولكن (أنور) اعترض على التغيير الذى أدخل على عبارته قائلا: "أما قولنا عاودهم كما عاديناهم فهذه عبارة ضعيفة. لأن فى وسعنا أن نكتب إليهم (أى إلى السيد أحمد الشريف) كتبًا لاحقة، وسوف يذهب نورى لقيادة القتال، والمطلوب أن نطمئن السيد أحمد الشريف إلى أننا سوف غده فعلا بالمعدات الحربية". ولقد بعث أنور بهذا الكتاب فعلا إلى السيد أحمد الشريف، ورآه بشير السعداوى بعد ذلك بسنوات قليلة فى حوزة السيد أحمد الشريف وهو مقيم فى بروسة، وذلك فى ظروف سوف يأتى ذكرها، وذكر البشير للسيد أحمد أنه كان قد أثار وقت إرسال الكتاب إليه مسألة الإمدادات التى وعد بها أنور فى هذا الكتاب، وكيف يمكن جلبها إلى برقة وطرابلس، بالكمية التى تكفى لتسليح جيش يقوى على دحر الائتلاف الثلاثى، ودحر الجيوش الإيطالية الرابضة فى ليبيا ذاتها.

وتحدث بشير السعداوى مع خليل بك فى هذا الاجتماع عن موضوع الحرب فى طرابلس الغرب، وكانت وجهة نظر بشير أن الحرب إذا قامت فى طرابلس الغرب (برقة وطرابلس) إنما يجب أن تكون ضد الطليان الذين يحتلون البلاد فعلا، وأن توسيع نطاق الحرب حتى تصبح طرابلس الغرب ميداناً لها، ضد إنجلترا وروسيا وفرنسا، لا يفيد الطرابلسيين فى شىء، بل يحملهم جهداً لا قدرة لهم على حمله "ومن المتوقع لذلك أن تقضى على كل أمل لديهم فى تحرير بلادهم. وأن الواجب والصالح لذلك يقضيان بأن يحارب الطرابلسيون (أهل برقة وطرابلس) الطليان فى ليبيا. (ومن المعروف أن إيطاليا ظلت محتفظة بموقف الحياد فى الحرب القائمة حتى مايو ١٩١٥ عندما دخلت الحرب إلى جانب الدول الائتلافية). فأجاب خليل على اعتراضات بشير السعداوى بأن هذا الموضوع سوف يحال على لجنة تشكيلات مخصوصة لبحثه.

وبالفعل اجتمعت لجنة تشكيلات مخصوصة لبحث (قضية طرابلس الغرب). وكان حاضراً الأهضاء الذين ذكرنا أسماءهم. وأراد بشير السعداوى أن يوضح وجهة نظره. ولكن الشيخ صالح التونسي أسرع فقاطعه، وأخذ يتحدث هو، وكان الشيخ خطيباً مقتدرًا، فتكلمل حوالى نصف ساعة فى ضرورة القتال ضد الأعداء والأجانب والجهاد فى سبيل الله الذى هو فرض على كل مسلم. ثم استطرد من ذلك قائلاً: "ولما كان معروفاً عن إخواننا الطرابلسيين أنهم أهل قوة وصلابة، فالواجب يقتضيهم أن يشاركوا الدولة فى هذا الأمر". وأخذ يقيم الحجة ويعدد الأدلة والبراهين على ضرورة اشتراك الطرابلسيين مع الدولة فى الحرب ضد إنجلترا وفرنسا وروسيا وحلفائها فيما لا يخرج عن هذا المعنى الذى ذكرناه. وعلى ذلك فإن المجتمعين بمجرد أن انتهى صالح التونسي من خطابه، أصدر قراراً "إجماعياً" بالموافقة على ما تريده الدولة، ودون أن يمكنوا بشير السعداوى من الإدلاء بوجهة نظره.

وكان حاضراً هذا الاجتماع، الزعيم المصرى محمد فريد.

وكان محمد فريد قد اضطر إلى الهجرة عن مصر منذ مارس ١٩١٢ قاصداً إلى استانبول حيث رحبت به الحكومة العثمانية فى بادئ الأمر، وصار يمد بمقالاته جريدة جلال نورى بك التى يصدرها بالفرنسية باسم (جون تورك) - أى تركيا الفتاة -، وجريدة الشيخ عبد العزيز جاويش (الهلال العثمانى). ولكن الائتلافيين الذين شكلوا (الوزارة العظيمة) فى يوليه ١٩١٢ - وهى التى سبق الكلام عنها فى موضعه - كانوا متأثرين بالنفوذ الإنجليزى، لأن الصدر الأعظم مصطفى كامل باشا كان صديقاً للإنجليز، فاضطر محمد فريد إلى مغادرة استانبول فى الشهر التالى، ولم يعد إليها إلا بعد سقوط وزارة كامل باشا بعد انقلاب ٢٣ يناير ١٩١٣ الذى أطاح بها، وأعطى الاتحاديين السلطة والحكم. وقد ظل محمد فريد يتنقل بعد بين استانبول وجنيف ولندن وليون، حتى إذا قامت الحرب العظمى (الأولى) فى أغسطس ١٩١٤ كان فى جنيف. ثم لم يلبث أن عاد إلى استانبول، وكان مما جعله يؤوب إليها أن اعتداء كان قد وقع بتدبير الصدر الأعظم سعيد حليم باشا - كما اعتقد كثيرون وقتئذ - على الخديوى عباس حلمى الثانى - آخر الخديويين فى مصر - نجا منه بأعجوبة بعد أن جرح وذلك فى ٢٥ يوليه ١٩١٤، وكان الخديوى عباس يسعى من مدة لإزالة أسباب الجفوة بينه وبين محمد فريد، وهى جفوة منشؤها رغبة الزعيم الوطنى أن يعلن الخديوى الدستور، فقبل الخديوى، وكتب إليه محمد فريد من جنيف فى ٢٢ أغسطس بنجاته، ويسدى إليه النصيح باستصدار الدستور، ثم قصد محمد فريد إلى استانبول، وأصدر الخديوى منشوراً بالفعل إلى "أبناء مصر والسودان الأعزاء" فى ١١ نوفمبر ١٩١٤ يتضمن - إلى جانب أشياء أخرى - إعلان "منح (الأمة) من الآن الدستور الكامل". ولكن (محمد فريد) وإن كان قد انضم إلى الدولة ويعمل لتأييدها ضد دول الائتلاف، ومنها إنجلترا التى تحتل جيوشها مصر، فقد ظل يدين بمبدأ واحد لا يتغير: "مصر للمصريين" فهو

لا يريد إذا خلال الإنجليز من مصر أن ييحتلها العثمانيون، ولا يريد أن يستبدل نفوذًا وتدخلًا عثمانيين، بنفوذ وتدخل إنجليزين. وأدرك محمد فريد أن الاتحاديين وأقطابهم - عدا أنور باشا وجاويد بك - إنما يطمنون غير ما يظهرون نحو مصر ومستقبلها، إذا قدر لهم النصر في الحرب، ولم يستطع محمد فريد أن يفوز من الصدر الأعظم وأقطاب الاتحاديين بما يطمئنه على مصير وطنه (مصر). فكان أثناء إقامته باستانبول في هذه الفترة - نوفمبر، ديسمبر ١٩١٤، وقد ترك استانبول في ديسمبر قاصداً إلى النمسا ثم إلى ألمانيا وسويسرا، فظل متغيياً عن استانبول حتى فبراير ١٩١٦ - يبدو مكتئباً مهموماً.

ويقول بشير السعداوى: إن (محمد فريد) وهو رجل وقور قليل الكلام في العادة، لم يبدو أنه قدر راحة ما دار في جلسة لجنة تشكيلات مخصوصة التي كان - كما عرفنا - أحد أعضائها، فلم يتكلم في هذا الاجتماع. فلما انفض المجلس. خرج بشير السعداوى معه، وجلس الاثنان في مقهى يقع أمام مبنى وزارة الحرية. وصار بشير ينقد القرار الذي اتخذته اللجنة ويصفه بأنه في غير صالح الطرابلسيين، ثم استطرد يسأل محمد فريد، كيف وهو الزعيم الوطني المصري لم يشأ أن يتكلم في هذا الاجتماع أو يبدى رأياً في الموضوع؟ فأجابه محمد فريد: لقد تكلم الشيخ صالح التونسي بما فيه الكفاية. وذلك بناء - على ما يظهر - على توجيه معين من المقامات العليا. ولم يشأ أن يزيد على ذلك حرقاً حتى لا يجرح الحديث إلى نقد سياسة الدولة، ثم أخذ هو يسأل بشير السعداوى: لماذا وهو من موظفي الدولة لا يتسلم وظيفته ويذهب إلى مقر عمله، ويترك جانباً هذه المسائل؟ فأجاب البشير: سبب ذلك أن اهتمامه بهذه المسائل يفوق اهتمامه بأي شيء آخر. ويقول البشير إن (محمد فريد) كان غير منشرج الصدر يبدو عليه القلق. ويعزو بشير السعداوى ذلك إلى أن الزعيم المصري كان قليل الاتصال بكبار الرجال المسؤولين في الحكومة وقتئذٍ، لا سيما أنور باشا. وكان مما يزعجه أن

الخديوى والاتحاديين لم يستطيعوا الاتفاق على قيادة الحملة المزمع إرسالها إلى مصر، فالخديوى يريد أن تكون قيادة هذه الحملة له نفسه، بينما أرادت الحكومة أن تكون لجمال باشا الذى عين لقيادة الجيش الرابع فى نوفمبر - على نحو ما سبق ذكره - وكان واضحاً أن الاتحاديين لا يطمثون للخديوى.

ولكن لم تطل هذه الحوادث إقامة بشير السعداوى فى استانبول. فقد اعتذر عن السفر إلى طرابلس الغرب مع نورى بك - الذى منح رتبة الباشوية الفخرية بهذه المناسبة - والسبب فى امتناع بشير السعداوى عن الذهاب إلى طرابلس الغرب اعتقاده أن الحرب هناك سوف لا تكون ضد الطليان، وإنما ضد الإنجليز والفرنسيين فقط. فتعين قائمقام لينبع البحر فى الحجاز، وكان قد تعين خليل بك (الذى صار خليل باشا) فى قيادة الجيش السادس بالعراق. فغادر الاثنان الآستانة فى وقت واحد، وركبا قطاراً خاصاً، ركب فيه فائز بك الخورى. وكان طالباً بمدرسة الحقوق باستانبول. فجند الأتراك عند قيام الحرب، وألحقوه بجيش جمال باشا فى الشام، وكذلك بكرى ظافر - وهو من أبناء الشيخ ظافر. فحملهم القطار من استانبول إلى قونية، ومنها إلى آخر مركز على الخط الحديدى، وهو بلدة (بوزنطى). وهناك افترق بشير السعداوى وفائز الخورى وبكرى ظافر عن خليل باشا، فواصل الثلاثة رحلتهم فى المركبات إلى محطة (راجو) ثم ذهبوا منها إلى حلب بطريق السكة الحديد، ومن حلب بالسكة الحديد كذلك إلى دمشق حيث أقام بها بشير السعداوى أياماً قليلة قبل أن يستأنف الرحلة بسكة حديد الحجاز إلى المدينة المنورة.

٤ - قائمقام ينبع البحر

وصل بشير السعداوى إلى المدينة المنورة فى فبراير ١٠١٥ فوجد أن الوالى على المدينة المنورة أو محافظها رجل عسكرى، معروف بحسن الإدارة والخلق الحسن، هو اللواء أركان حرب بصرى باشا. كان غلى جانب سلطاته الإدارية يتولى قيادة الجيش الموجود بالمدينة المنورة. ومنذ وصوله إلى المدينة،

بدأت صفحة جديدة في حياة بشير السعداوى ذلك أنه صادف تجارب متنوعة منذ وصوله إلى أرض الحجاز في شتاء هذا العام إلى وقت خروجه منه بعد ذلك بثلاث سنوات تقريباً، وقد كانت هذه التجارب التي صادفها مكملة من ناحية لتلك التي مرت به منذ أن غزا الطليان طرابلس الغرب قبل ذلك بأربع سنين، فاضطر إلى الهجرة من الوطن، وشهد الانقلابات الحكومية في استانبول، ثم وجد نفسه وهو مدير تحريرات في (ريزه) مقحماً في "مشكلة" سياسية مع روسيا، لا يجد الاتحاديون غضاضة في التضحية به لو أنهم تمكنوا من فعل ذلك استرضاء لحكومة القيصصر، ثم حضر وهو باستانبول دخول الدولة العثمانية الحرب التي كان مقدراً أن تجردها نهائياً من أملاكها في أوروبا وفي بلاد العرب، ومن ناحية أخرى كانت التجارب التي صادفها في الحجاز بمثابة الاختبار الذي وضع موضع الامتحان كل تلك الميزات الخلقية القائمة على الشجاعة والجد والمثابرة والإخلاص للمبدأ والعقيدة التي نشأ عليها بشير السعداوى، والتي تعاونت الأحداث التي مرت به على زيادة تأصلها في نفسه. ذلك أنه في الحجاز لم يلبث أن أضاف إلى مستودع تجاربه - التي كانت قد صارت كثيرة ومتنوعة - قدراً آخر من هذه التجارب المتنوعة والكثيرة. فهو قد شهد الأرض المقدسة التي قامت منها دعوة الإسلام ولطالما تمنى بشير السعداوى المعتز بإسلاميته اعتزازاً عظيماً أن يشهد هذه الأرض المقدسة ومهبط الرسالة. ولكن ماذا كان انفعاله بما رأى؟ قد يتضح من الحقيقة التي لم يكتف بتسجيلها وقتئذ في ذهنه، بل واجه بها السمثولين من رجال الدولة في الحجاز وفي الآستانة على السواء وهي أن جهل سواداً بادية الحجاز بالدين الحنيف يكاد يكون تاماً وأن اختلال الأمن وتعرض الحجيج لإغارات البدو للفتك بهم وسلبهم، وموت كل مغامر أو غريب عن الديار وعادات أهلها يريد السفر وحده من غير أن يلتحق بقافلة فيها مسلحون يدفعون اعتداء العربان، أو يتزود بأدلاء يعرفون رؤساء العشائر في الطريق، كل ذلك كان معروفاً مشهوراً. ولكن أن يجهل أهل بادية الحجاز تعاليم الدين الذي نبت

وترعرع فى أرضهم . ذلك ما فوجئ به بشير السعداوى مفاجأة أذهلته . ولكنها حفزته إلى أن يعمل جهد طاقته لتبصير من يستطيع من البدو حول ينبع البحر بأمر دينهم . ثم إن ما عرفه بشير السعداوى عن آراء "أحرار" العرب، سواء من قراءاته لكتاباتهم وهو فى وطنه بطرابلس الغرب، قبل إعلان الدستور العثمانى أو بعده، أم من مقابلاته مع بعض رجالاتهم - وكذلك رجالات الاتحاديين - فى استانبول أو فى بيروت لم يلبث أن رآه بشير السعداوى يخرج من نطاق الرأى والفكر، كطائفة من المبادئ "الإصلاحية اللامركزية"، إلى حيز العمل فى صورة قيام شريف مكة الحسين بن على بالثورة المسلحة على الدولة العثمانية فى الحجاز . وكانت هذه الثورة مفاجأة له . ومع الجهود التى بذلها بعض أبناء الشريف إما لقتله والتخلص منه، أو لاستمالاته وضمه إلى الثورة - كغيره من أبناء الأقطار العربية الأخرى - فقد ظل بشير السعداوى أميناً على عقيدته التى تأصلت جذورها فى نفسه منذ أن طرح ظهيرياً أية فكرة لمناوأة الدولة عند الغزو الإيطالى لبلاده - وفى الظروف التى سبق أن ذكرناها - فدافع عن (ينبع البحر) ما وسعته المدافعة، ثم حضر عهداً من حصار المدينة المنورة، ولم يقتنع بتأناً بشرعية هذه الثورة وجوازها، أو أنها صادرة عن روح قومية خالصة، وتبغى نفع العرب لأسباب سوف يأتى ذكرها فى موضعها .

وهكذا كانت فكرة إقامته بأرض الحجاز مليئة بالأحداث التى ساعدت وبالقدر الذى كان لها، فى بناء العناصر التى تألف منها خلق بشير السعداوى وشخصيته .

ولقد تأقت نفس بشير السعداوى عند وصوله إلى المدينة المنورة أن يذهب دون إمهال إلى مكان عمله . وفاتح بصرى باشا فى هذه الرغبة . وكان عتد أن علم أن أحداً لا يمكنه أن يسير من المدينة المنورة إلى ينبع البحر، إلا إذا سبق ذلك اتفاق بين الحكومة وبين أحد الشيوخ ممن لهم نفوذ عند أهل

البادية. فقد طلب بصرى باشا من بشير السعداوى أن يتمهل حتى يبحث
والى المدينة الأمر مع (باب العرب) أى وكيلهم، وكان يدعى الشيخ ناصر،
وهو صاحب مكانة، ويتصل بالعربان دائماً، ويتخذ مقامه بالمدينة المنورة ومن
عادة (الحكومة) إذا أرادت أن ينتقل أحد رجالها من مكان إلى آخر، أن تأتى
(بالباب) فتأخذ عليه التعهدات اللازمة بأن يصل موظفوها بسلام إلى المكان
الذى يقصدونه. ولكن عز على السعداوى أن يكون من الحكام، فلا يستطيع
أن يقصد إلى مقر حكومته إلا وهو فى حماية رجل من البدو، فأسرع بتهيئة
هجيئين، واتفق مع اثنين من البدو: أحدهما من حرب، والآخر من جهينة
كى يصحباها فى سفرته، الأول لأن الإقليم الذى سوف يخترقه عند مغادرته
المدينة يقع فى نطاق عشيرة حرب، والثانى لأن عشيرة جهينة هى صاحبة
النفوذ فيما وراء ذلك إلى ينبع البحر. ومع أن بصرى باشا لم يرض عن هذه
المغامرة، فقد أصر بشير السعداوى على السفر، وكان ما أراد.

وكان أول مكان حط الجماعة رحالهم فيه، محلا يسمى (بواط) بناحية
رضوى، مشهور بأن النبى ﷺ قد غزاه فى شهر ربيع الأول فى السنة الثانية
من الهجرة. ولكن لم يكد يستغرق الجماعة فى النوم حتى مر بالمكان نفر من
العسس، أيقظوا البشير. وقا لرئيسهم له: من المستحيل عليه أن يستمر فى
سيره وحده هكذا مع الرجلين اللذين يصحبانه إلى ينبع. فأجابه البشير: إنه
لم يستأذن نفى السير منه. وتعجب رئيس العسس من إصراره على المسير.
وقال السعداوى بعد ذلك: إنه لم يدرك وقتئذ مقدار الأخطار التى يتعرض لها
المسافر فى هذا الطريق وحده، ناهيك بالوحشة التى يخلفها فى النفس السفر
فى هذه الأراضى المقفرة والجبال الوعرة.

وبعد أن قطع الركب مسافة، لاحظ البشير أن البدوى الذى هو من بنى
حرب راكب على الهجين وحده بينما الجهينى يسير على قدميه، فطلب البشير
من الحربى أن يركب الجهينى معه، ولكن هذا رفض بدعوى أنه إنما يسير فى

أرضه، وما دام الحال كذلك فهو لا يجيز للآخر أن يركب معه. وتلك عادة جرى العرف عليها. ولكن لما كان البشير يرى فى جواب الحربى غطرسة لا موضع لها فى نظره، فقد أنزله من على الهجين، ودفع له أجره، وأمره بالانصراف. وعندئذ بدأت التاعب. وأولها الخوف الشديد الذى استبد بالجهينى وسرت عدوؤه إلى البشير نفسه، من أن يعمد الحربى الآن إلى تأليب عشيرته على البشير وصاحبه، "فتغزوهم" عصابة منهم، لأن الذى درج عليه القوم فى هذه الجهات أن يدفع المسافر إتاوة للعشيرة التى يمر بأرضها، حيث يعيش العشائر على هذه الإتاوات التى تؤخذ من المسافرين. فيجد الحربى لذلك ما يتقم لنفسه به من طرده والاستغناء عن خدماته. وعلى ذلك فقد انطلق الاثنان يعدوان على الهجين عدواً طول الليل حتى مطلع الشمس ولا يتكلم الجهينى فى أثناء ذلك إلا همساً. حتى دخل الخوف قلب البشير نفسه، وصار يهमे أن يخرج من أرض عشيرة حرب بكل سرعة. وبعد أن ارتاح الاثنان فى الصباح قليلاً، وأصلا السير حتى اجتازا أرض حرب إلى جهينة.

ولكن متاعب بشير السعداوى لم تنته عند ذلك. فإن صاحبه الجهينى لطول إقامته بالمدينة المنورة لم يكن معروفاً فى أرض عشيرته إلا قليلاً. ووقع للسعداوى أول حادث عند وقت العصر من ذلك اليوم، فإنه ما إن فرغ مع زميله من صلاة العصر، حتى نزل عليهما اثنان من البدو بسلاحهما، وطال النقاش بينهما وبين الجهينى، ولم ينقذ بشيراً من شرهما إلا أنه كان يرتدى (برنسا) مغريباً، فأخذه البدويان على أنه سنوسى. وكان قسم من بنى حرب وجهينة قد عرفوا السيد محمد بن على السنوسى، منشئ السنوسية، وانتشرت بينهم دعوته، ولا يزال للسنوسية تأثير عليهم إلى أيامنا هذه، فصار سهلاً على الجهينى صاحب بشير السعداوى أن يصرف البدوين عن الأذى. بل لم يلبث هذان أن أقبلتا على بشير السعداوى لثمان يده ويظهران له كل تجلة واحترام، باعتبار أنه سنوسى، وواصل السعداوى وصاحبه السير إلى أن

قرب، وقت المغرب، فمرا على بيوت الشعر هي منازل للبدو. فجاءه الجهيني ليشير عليه بالتوقف عن السير والنزول عند هؤلاء البدو وإلا لحقوا بهما وقتلوهما. فاضطر البشير إلى التوقف عندهم وكان هؤلاء في فقر مدقع، ومع ذلك فقد ذبحوا لضيافته وزميلة شاة، وأعطاهم البشير مما كان يتزود به في سفرته. وفي منتصف الليل هب الجهيني والناس نيام، يستحث البشير على "الهرب". فامطيا الهجين و "هربا". ثم انطلقا دون توقف النهار بطوله حتى بلغا (ينبع الجبل)، وهي واحة ذات مياه ونخيل، أورد البشير أن يسرع بالدخول إليها للراحة من وعناء السفر، ولكن رفيقه الجهيني لم يشأ أن يدخل الواحة في النهار لأن أهلها - كما قال - نهابون سلابون، فانتظرا حتى أرخى الليل سدوله فتسللا إليها وناما فيها ليلهما. حتى إذا طلع النهار استأنفا السير وصارا قريبين من (ينبع البحر)، ولكن لم يلبث أن وقع حادث كاد يعطل رحلتهمما وهما في هذه المرحلة الأخيرة لولا ما أظهره السعداوى من صلابة وسرعة خاطر. فقد صادفهما بدويان يركبان هجينًا، بادرا بالنزول بمجرد أن شاهدا البشير ورفيقه، ووضع كل منهما الخرطوش في (بندقيته) ووقف أحدهما يصوب بندقيته على البشير، والثاني يصوبها على الجهيني، وشعا يتكلمان بلهجة تعذر معها على البشير أن يفهم ما يريدانه. ولكنه بادر هو الآخر فشرع سلاحه في وجه الرجل الذي كان يقف أمامه، وأنذره إن هو تحرك أطلق عليه بندقته وقتله، وتأهب البشير للضرب فعلا. فتبادل البدويان بعض العبارات، وقر رأيهما بعدها على التفاهم مع البشير وصاحبه، فأنزلا سلاحهما وأقبلا على البشير يصفاحانه، ثم صحباه ورفيقه الجهيني في السير إلى (ينبع البحر). ودهش الناس عندما وقفوا على قصة السفر هذه من المدينة المنورة، كيف تسنى للبشير وصاحبه أن يصلا بسلام إلى ينبع البحر.

ووجد بشير السعداوى نظامًا غريبًا من الحكم في ينبع البحر، منشؤه الاعتراف بشريفه مكة - وكان الشريف حسين بن علي هو أمير مكة وقتئذ - في نطاق ولاية الحجاز التي تعين حكومة استانبول واليًا عثمانيًا لها، وكان

والى الحجاز فى ذلك الحين غالب باشا، وكان الشريف حسين قد أقام من قبله "للحكم" فى ينبع البحر أحد رؤساء جهينة، ومن أشرف ينبع البحر، هو الشريف أو الأمير محمد بن على بدوى شيخ عشيرة جهينة، والذى كان وهو مقيم فى وسط البلدة يحكم البادية. وأما (القائمقام) - وهو فى هذه الحالة بشير السعداوى - قائما يمثل الدولة العثمانية المعين من قبلها فى هذا المركز. وقد كان محمد بن بدوى صاحب سلطة مطلقة فى ينبع، يحصل الإتاوات والضرائب من سوق البلدة، ويقبض على "المذنبين" ويودعهم الحبس، كيف ومتى شاء دون رجوع فى ذلك كله إلى صاحب الحكم الرسمى. فكان أول ما فعله بشير السعداوى أن أوضح لابن بدوى أن استمرار هذا النظام مستحيل، فإما أن يكون بشير السعداوى "قائمقام وأميراً" وإما - كما أوضح البشير له المسألة - أن يصبح ابن بدوى قائمقام إلى جانب أنه أمير فى الوقت نفسه. ولما كان ابن بدوى يرغب فى الحياة السهلة، وأظهر بشير السعداوى أنه يريد أن يحمل عنه العبء كله، وصار يهتم بتوفير سبل الراحة له، فقد نشأت بين الاثنين صداقة وألفة عظيمة، واضطلع السعداوى بأعباء المنصب دون مزاحم على السلطة وكان الانفراد بتحمل مسئوليات الحكم ضرورياً إذا شاء القائمقام الجديد أن يعود الأهلى فى ينبع وفى البادية التى شملها نفوذه على الطاعة لمثل الحكومة حتى يستطيع إدخال ما يراه من إصلاحات ضرورية. ولقد كان (الإصلاح) هو شغل بشير السعداوى الشاغل منذ وطئت قدماه أرض ينبع البحر، إلى أن اضطر إلى الخروج منها فى ظروف سوف يأتى ذكرها.

وكان للتجربة التى مرت به سفره من المدينة المنورة إلى ينبع البحر، الأثر المباشر فى أن يستأثر بتفكيره توفير أسباب الأمن فى (قائمقاميته). فلم يكذب يستقر به المقام فى ينبع البحر حتى كتب إلى بصرى باشا أن يأذن له "بالجولة فى البلاد" أى بالخروج من ينبع البحر واستطلاع أحوال البادية. وكان خروج القائمقام أو المحافظ من البلدة التى بها مقر عمله والابتعاد من

أسوارها عملاً وقتذاك لا يمكن أن تميزه تقاليد الحكم، أو يؤذن به الكبار رجال الحكومة، خوفاً على حياتهم من جهة، وحتى لا يثير اعتداء أهل البادية به عليهم وقتلهم مشكلات عويصة مع رؤساء العشائر الذين يقع الاعتداء فى أرضهم من جهة أخرى ولذلك فقد أجاب بصرب باشا: بأن البدو سوف يرمونك بالرصاص فيقتلونك، وتنجم عن ذلك مشكلة نحن فى غنى عنها، ويتعين على القائمقام أو المحافظ ألا يخرج أحدهما من البلدة أو يتعد عن أسوارها. ولكن مثل هذا الاعتراض لم يكن ليثنى بشير السعداوى عن عزمه، فقد أصر على هذا الخروج حتى يجول فى البادية، وإزاء إصراره إذاً كتب له بصرى باشا أن يخرج من ينبع البحر كما يريد "فالمسئولية والممدوحية (طذا) عائدة عليه.

أعد البشير العدة للقيام بالجولة التى أرادها. واصطحب معه جماعة من الأشراف، أشراف ينبع البحر، من بنى جهينة، وهم موالون للشرىف حسين أمير مكة، وكان منهم عبد الكريم بن بديوى، وهو أخو الشرىف أو الأمير محمد على بن بديوى؛ وعلى خلاف أخيه كان عبد الكريم أسود سواداً حالكاً، ولكنه كان حسن المعشر، لطيف الكلام، مرحاً يحب الحياة، وجد من بشير السعداوى الاحترام لأدميته، والذى كان لا يشعر به لدى "الترك" نحوه عموماً لسواد بشرته. أعجب به (لورنس العرب) المشهور بعد ذلك، فكتب عنه فى مؤلفه (أعمدة الحكمة السبعة) وقال أنه سرعان ما نشأت بينهما ألفة وثيقة وخرج مع البشير كذلك قائد (الجندرية) أو الدرك رجب بن نحيب، ومدير البوليس سالم شوقى أفندى، وكلاهما طرابلسى، وكانوا جميعاً مسلحين.

وتعددت حوادث هذه الرحلة، أو - إن شئت - الجولة التفتيشية التى استمرت حوالى شهرين ولقد كانت هذه الجولة منشأ البرنامج الإصلاحى الذى أخذ بشير السعداوى على عاتقه أن ينجزه ما دام يحكم فى ينبع البحر،

وهو برنامج يستند إلى ضرورة تعليم أبناء البدو، ونشر تعاليم الدين الخفيف بين أهل البادية أولاً وقبل كل شيء للمحافظة على الدين الإسلامى من أن يختفى فى آخر الأمر من هذه الجهات، ولأن تعليم أهل البادية وتبصيرهم بشئون دينهم ضروريان لنشر ألوية السلام واستتباب الأمن فى البلاد.

فقد حدث فى أول يوم خرج فيه الجماعة من ينبع البحر روتوغلوا فى الجبال أن فوجئوا بالبدو يطلقون عليهم الرصاص، ولم يشأ بشير السعداوى أن يقابل هذا الرصاص بمثله، بل حاول أن يسألهم عن السبب الذى جعلهم يعتدون عليه. فأجاب هؤلاء: إنهم فعلوا ذلك لتوقعهم أن مجيء جماعة يحملون الأسلحة من جهة، وبينهم مطربشون من جهة أخرى. فهم لذلك من موظفى الحكومة وعمالها - إنما هو لكى يغزوا أهل البادية، وحتى يجمعوا منهم الضرائب "والتكاليف". وقد جرى العرف بين أهل البادية على اعتبار رجال الحكومة المطربشين حليقى الذقون غير مسلمين ويجوز قتلهم، ولذلك فهم يطلقون الرصاص عليهم. واستطاع بشير السعداوى أن يقنعهم بخطأ ما يذهبون إليه، ولما كانت تجاربه السابقة فى مثل هذه الحوادث قد أكسبته قدرة على التفاهم مع أهل البادية من طراز هؤلاء، فقد كان سهلاً عليه أن يفوز باطمئنانهم إليه، حتى إن جماعة منهم وافقوا على أن يصحبوه فى جولته ثم بقوا معهم حتى أمّتها.

على أن الذى أفرع بشير السعداوى حقيقة كان ذلك الجهل الذى راعه أن يكون متفشيًا بين أهل البادية فيما يتعلت بأمور دينهم، حتى اعتقد أن الإسلام - لا قدر الله - قد صار مهددًا بالزوال من بادية الحجاز. ويقص بشير السعداوى القصة التالية لبيان ما وصل إليه الحال فى البادية فيقول: كنا يوماً فى أثناء هذه الرحلة أو الجولة قد وقفنا على بئر نسقى منه. فإذا باثنين من البدو يطلقان علينا النار، فأرسلت من يتعقبهما حتى إذا جىء بهما رأيت أحدهما شيخاً يبلغ السبعين أو الثمانين. فسألته لماذا أطلق علينا الرصاص!

فأجاب: لأنكم دولة والدول هذه بحرهما يغرق ونارهما تحرق، ويقصد بذلك أن الاقتراب منها صعب عسير. فأخذت ألاحظه حتى هدا روعه، ثم سألته إذا كان قد زار المدينة المنورة، فأجاب بالنفى. فأعدت عليه السؤال قائلاً: أو لم تزر قبر محمد (ﷺ)، قال: لا. قلت: هل تعرف أن محمداً هذا من قريش! فأجاب مندهشاً قريش! لا والله إن محمداً ليس من قريش، ولن يكون من قريش، لأن محمداً ليس إنساناً عادياً ولا يمكن أن يكون من قريش. أما لماذا نفى هذا الشيخ أن محمداً من قريش واستبعد أن يكون منهم، فهو لأن قريشاً قد صارت قبيلة صغيرة، ولأنه يعتقد أن محمداً (ﷺ) ملاك من الملائكة وليس من البشر. فلما تلا عليه بشير السعداوى شيئاً من القرآن الكريم، ظن الشيخ أن الذى تلى عليه قصيدة شعر، فلما سأله عما إذا كان يصلى أو يصوم، قال الشيخ: إنه كان يعرف الصلاة عندما كان شاباً صغيراً، أما الآن فقد تقدم به العمر، وصار مشغولاً برعى الغنم.

ولقد عاد بشير السعداوى من هذه الجولة إلى (ينبع البحر) ويكاد قلبه ينفطر أسى لما شاهده من البؤس المنتشر فى البادية والجهل المخيم على أهلها، وضياح تعاليم الدين الحنيف بينهم، فكان أول ما فعله أن كتب تقريراً مطولاً عن جولته هذه ليبحث به إلى الدولة، وصف فيه كل مشاهداته، ثم اختتمه بقوله: وتلك حال أهل الحرمين الشريفين أو يصعد الخطباء على المنابر فى كل أيام الجمع والأعياد الإسلامية، يدعون للخليفة خدام هذين الحرمين الشريفين، بينما أنا لا أدرى وحال أهل الحرمين الشريفين ما ذكرت، أى خدمة تلك التى نؤديها نحن لهؤلاء المنكوبين. وكانت تلك "ملاحظات" لم يكن يجزئ موظفو الدولة على ذكرها، دع عنك تسجيلها فى تقرير مكتوب. فامتنع بصرى باشا - بوصفه الرئيس المباشر للسعداوى - عن إرسال هذا التقرير إلى الآستانة. وكتب إلى البشير يقول: لقد جاءنى تقريرك، ولكن لو أرسل هذا التقرير إلى استانبول فإنما يكون ذلك على مسئوليتك أنت وحدك بسبب العبارات التى وردت فيه. فبعث بشير بتقريره إلى وزارة الداخلية رأساً

وكتب إلى بصرى باشا حيث إنه قد تردد فى إرسال التقرير إلى أولى الأمر فى استانبول، فقد فعل البشير نفسه ذلك.

وعلى خلاف ما كان يتوقعه بصرى باشا، لم تغضب وزارة الداخلية على قائممقام ينبع البحر، بسبب هذا التقرير، بل لقى منهم ما ذكره بشير السعداوى كل عناية. ولذلك أسباب لعل من أهمها أن بشير السعداوى كان معروفاً من كبار رجال الدولة المسئولين، وهو الذى توطدت أواصر الصداقة بينه وبين خليل عم أنور باشا ونورى أخى أنور، وعرف أنور باشا نفسه ونزل ضيفاً فى بيته وعرف طلعت. وعرفه رجال الدولة بدورهم من حادث "فرار" الروس الثلاثة من سجن (ريزه) وعرفوا فيه صلابة العود والشجاعة فى قول الحق، كما عرفوا فيه فى الوقت نفسه من جهاده فى طرابلس الغرب، ومن نشاطه فى السنوات التى قضاها فى خدمة الدولة، شدة حرصه على صالح هذه الدولة وإيمانه القوى بضرورة بقائها وطيدة الأركان شامخة البنيان: فلم يأخذوا عليه شدة العبارة التى ضاع بها تقريره على نحو ما كان يخشاه بصرى باشا. بل إن هذا التقرير لم يكن الفريد فى نوعه وقتئذ بل تبعه تقارير أخرى فى مواضيع شتى متصلة بنشاط (القائمقام) الجديد فى (ينبع البحر) مما جعل الدولة تعجل بترقيته إلى قائممقام "صف أول" فترتفع رتبته، ويزيد راتبه.

وأقبل بشير السعداوى على تنفيذ الفكرة التى سيطرت على ذهنه نتيجة لجولته، وهى نشر العلم والمعرفة لتنوير أذهان أهل البادية حول ينبع البحر خصوصاً. وأعان السعداوى على تنفيذ فكرته هذه أن كان بالبلدة مدرسة ابتدائية عثمانية اتخذها نواة لمشروعه. فقد كان بالمدرسة معلم تركى يقوم بتدريس كل المواد المقررة فى برنامج المدارس التى من هذا الطراز فى الدولة وهى: الحساب، والجغرافيا، والقواعد العربية والتركية والصحة والتوحيد الخ... وكان المعلم التركى يدرس هذه المواد - حتى اللغة العربية - بالتركية، ولا يكاد يختلف إلى هذه المدرسة أحد من أبناء العشائر العربية. بل كانت

الحياة فيها راكدة خامدة. ولما لم يشأ المعلم التركي أن يغير شيئاً مما ألف العيش عليه. ويستجيب لرغبة السعداوى فى إحياء التعليم بهذه المدرسة فقد صرفه البشير واستبدل به معلماً آخر "عريباً" هو خليل الحوار. يذكر عنه السعداوى أنه مقيم اليوم فى سوريا ويقوم سائر أهله بالمدينة المنورة. ثم عين غيره من المعلمين وتولى بشير السعداوى نفسه تدريس بعض المواد بهذه المدرسة. فانتظم حالها وأقبل الأهلون ورؤساء العشائر على إرسال أبنائهم إليها.

وحتى ترسخ فى أذهان القوم أهمية العلم والتعليم، فيزداد إقبالهم على إرسال أبنائهم لتلقى العلم بهذه المدرسة، صار البشير يتخذ مقامه بها أكثر الوقت، ويستقبل فى مكان منها "أمراء" ورؤساء العشائر بدلا من استقبالهم فى دار الحكومة. ثم صار يأتى بتلاميذ المدرسة أمامهم، ويصفهم بأنهم رجال المستقبل والذين من المنتظر - وكما هو الواجب - أن تقوم على أكتافهم نهضة العلم والتنور فى البلاد. ثم إنه حتى يغرى المشايخ على إرسال أبنائهم إلى مدرسته جعل - البشير - للطلاب من النفوذ فى دوائر الحكومة ما ليس فى مقدور رؤساء العشائر أنفسهم أن يظفروا به للتوسط فى استعجال قضاء مصالح الأهليين وحاجاتهم. وحرص بشير السعداوى على أن يسهر بنفسه على نشاط تلاميذه فى أوقات عملهم وراحتهم. ودأب على أن يبنى أجساماً سليمة، لأصحابها ميل حقيقى للعلم والمعرفة فصار يرتب لتلاميذه (رحلة) يخرج بهم بنفسه كل يوم خميس إلى البادية والجهات المجاورة فزاد الإقبال على المدرسة، حتى إنه لم يعد ير الإنسان فى طرقات (ينبع البحر) وشوارعها أحداً من أبناء أهلها. وحتى ينفق على مدرسته، صار البشير يحصل ضريبة جمركية صغيرة لا تزيد على ما يساوى مليمًا واحدًا عن كل كيس من الحبوب التى تحملها السفن من سواكن والهند خصوصاً إلى ميناء ينبع البحر.

ولقد بلغ تقدم التلاميذ بهذه المدرسة بعد زمن قليل درجة جعلت

ميسوراً أن يقوم تلاميذ المدرسة بتمثيل رواية وضعها بشير السعداوى نفسه، وأن يدرك الذين شهدوا هذه الرواية من رؤساء العشائر والشيخ البدو، المغرى الذى قصد إليه بشير السعداوى من روايته، وقد أراد من تمثيلته التى أسماها (نهضة الإسلام) أن يقول لأهل ينبع البحر والبادية - ويبلغ تعداد هؤلاء الذين كانوا تابعين لمركز ينبع البحر حوالى الخمسين ألف نسمة - إن الترسد للحجاج والاعتداء عليهم بسلبهم وقتلهم فعل سىء ياباه الدين، وتتنكر له الشهامة والرجولة. فأراد البشير أن يتخذ من هذه التمثيلية وسيلة لنشر الدعوة، التى كان يروجها لضرورة استتباب الأمن فى البلاد. ثم إنه قصد منها إلى تعريف هؤلاء الحجازيين بأن هناك أوقاماً آخرين من العرب ومن المسلمين لهم تاريخهم ولهم أمانيتهم القومية، أكثرهم قد وقع تحت تأثير الحكم الأجنبى فقد حرته، وصار مهدداً يفقد إسلاميته على أيدي المستعمرين الأجانب، وأراد فى الوقت نفسه أن يخلص من ذلك كله إلى أن هذه البلاد (الحجاز) لم يسط نفوذ عليها "أجنبى" وهى الأرض التى بدأ يظهر فيها الإسلام، ومنها انتشر، وأهل الحجاز هم الذين ظهر من بينهم صاحب الرسالة: ﷺ فواجبهم أن يحافظوا على الدين عن طريق تعليمه لأبنائهم من جهة، والتمسك بأوامره ونواهي من جهة أخرى، مما يقتضى لتحقيق هذا كله أن يستتب الأمن، ويقف الاعتداء على إخوانهم المسلمين الذين يفدون من أنحاء العالم لتأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام.

وقد عاون بشير السعداوى فى إخراج روايته واشترك فى تمثيلها مع تلاميذ المدرسة جماعة من قوات (الدرك) الشاميين، والذين لم يكن التمثيل غريباً عليهم. وفى اليوم المعين للتمثيل دعا بشير السعداوى كل مشايخ البدو ورؤسائهم فى منطقته. فاجتمع من النظارة حوالى المائتين والخمسين. واستغرق التمثيل حوالى الثلاث ساعات. بدأت الرواية عند رفع الستار بنفر من البدو يتباحثون فيما بينهم فى رسم خطة للتربص بالحجاج فى موسم الحج المقبل وسلبهم، فيمر بهم أحد تلاميذ المدرسة، فيظنون يتناقشون. فلا يسع

التلميذ إلا أن يسمع بعض ما يقولون، فيقف على الغرض من اجتماعهم ومباحثاتهم، فلا يتردد فى أن ينهاتهم عن التآمر بحجاج بيت الله الحرام لأن ذلك فعل لا يأتیه مسلم يعرف حقيقة دينه، ولأن سلب الحجاج وقتلهم من الأسباب المنفرة من الإسلام بين الشعوب التى قد تكون الدعوة الإسلامية متشرة بينهم فيمتنعون عن الدخول فى دين الله، أو قد تصرف هذه الفعال ضعيفى الإيمان عن الدين الحنيف، وفى كلا الحالين أذى بالغ، إذ كيف يأتى الجاوى والهندي والتركي من بلاده البعيدة متحملاً المشاق ليحج، فيقابل بالرصاص والهلاك. ويتأثر المتآمرون بهذه المقابلة، ويطلبون المويذ. ولكن التلميذ عليه أن يتصرف لاستذكار دروسه. فيعدهم بالعودة إليهم، ليتم حديثه هذا معهم فى وقت آخر. فإذا رفع الستار مرة ثانية، رأينا هذا التلميذ وقد دعا إلى الجماعة وجلس بينهم، يتحدث إليهم والكل ينصتون. وقد انتقل الكلام من مجرد النصيح والإرشاد فى ضرورة أن يأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، إلى عقد مقارنة بين الحال التى عليها الحجازيون، أى هؤلاء البدو المتآمرين أنفسهم من حيث إنهم محررون من كل سيطرة أجنبية عليهم، فلا نفوذ لحكومة غير إسلامية تنتزع منهم حرياتهم، وتتهدهم فى عقائدهم، وبين ما يعانيه غيرهم من الشعوب العربية والإسلامية، التى يرون أوقاماً منهم يحضرون للحج كل موسم، من ذل الاستعباد والرضوخ للمستعمر. ومن هؤلاء أهل الهند، وجاوه والبلقان ومصر وطرابلس وتونس والجزائر الخ. فيريد (المتآمرون) أن يعرفوا شيئاً عن هذه الأمم التى أدركوا أن ثمة روابط متينة تربطهم بها بالرغم من أنهم غرباء عنهم، ولم يجدوا أية غضاضة فى الاعتداء عليهم لسلبهم وقتلهم، تلك هى يروابط الإخاء الإسلامى والاتحاد فى الإسلامية، فإذا رفع الستار مرة ثالثة كان موسم الحج قد حل، فرأينا نفس (المتآمرون) قد كفوا عن قطع الطريق على حجاج بيت الله، ثم استطاعوا بمعاونة التلميذ الذى أثمر إرشاده لهم، أن يدعوا لعقد مؤتمر يضم ممثلين عن الأقسام الذين سمعوا بهم وعرفوا شيئاً عنهم، وأرادوا الآن أن يستوثقوا مما

عرفوه من هؤلاء الممثلين أنفسهم، فينعقد المؤتمر فعلا، ويقف كل مندوب أو
عضر من أعضاء هذا المؤتمر ليشرح حال أمته. فالطرابلسى يقول: إنه إنما قد
جاءهم من ميدان القتال، لأن أهل طرابلس الغرب لم يلقوا السلاح بعد، بل
لا يزالون يجاهدون ضد المستعمرين الطليان. ويتكلم التونسى والجزائرى عن
الاستعمار الفرنسى فى بلادهما. ويتبع هؤلاء بقية "المنديوين" حتى إذا جاء
دور المصرى تكلم عن احتلال الإنجليز لبلاده، ثم أنشد قصيدة محمد حافظ
إبراهيم التى كانت قد نشرت فى يونيه ١٩٠٢ تحت عنوان: حسرة على
فائت:

لم يبق شىء من الدنيا بأيدينا	إلا بقية دمع فى مآقينا
كنا قلادة جيد الدهر فانفرطت	وفى يمين العلا كنا رياحينا
كانت منازلها فى العز شامخة	لا تشرق الشمس إلا فى مغانينا
وكان أقصى منى نهر المجرة لو	من مائة مزجت أقداح ساقينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة	لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم يزل وصروف الدهر ترمقنا	شزرا وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاء ولا نشب	ولا صديق ولا خل يواسينا

ولعل أهم ما أسفرت عنه "حكومة" بشير السعداوى فى ينبع البحر،
أن صلات وثيقة قد صارت تربط بينه وبين أهل البلاد، سوف يظهر أثرها
قريباً عندما نشبت ثورة الشريف حسين بن على، واضطر بشير السعداوى إلى
الجلء عن ينبع البحر. وقد قامت هذه الصلات على أساس من التفاهم
الكامل بينه وبين شيوخ العشائر ورؤسائهم، من ذلك أنه لم يكن على صلات
طيبة "بالأمير" محمد على بن بديوى شيخ جهينة ومع أخيه عبد الكريم
فحسب، بل عقد أواصر الصداقة مع الشيخ دخيل الله القاضى - قاضى
جهينة، والرجل الذى يلى نفوذه فى عشيرة جهينة نفوذ ابن بديوى مباشرة.

وأما أثر هذه الصلات الطيبة، فكان استتباب الأمن فى المنطقة، وإقبال المشايخ والرؤساء على تعليم أبنائهم وإرسالهم إلى "المدرسة".

واستطاع بشير السعداوى أن يقرأ كثيراً وأن يفكر كثيراً فى أثناء هذا كله. فقد وجد فى بيت آل الخطيب فى ينبع البحر - وهم تجار ومشقون - مكتبة مشحونة بالكتب ثم إنه وجد لدى أديب من أهل ينبع كان يعمل وقتئذ مراسلاً لجريدة المقطم فى مصر مكتبة أخرى. فاستطاع البشير أن يقرأ أكثر مما وقعت عليه يده من الكتب، ومن أهم قراءاته فى هذا الحين، كان وفيات الأعيان، وأنباء الزمان، لابن خلكان (شمس الدين أبى العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم)، والأعشى فى صناعة الإنشاء للقلقشندي (أبى العباس أحمد)، ثم الجداول المرضية فى تاريخ الدول الإسلامية لابن زينى دحلان (السيد أحمد). ويقول بشير السعداوى إن قراءاته لابن زينى دحلان رسمت فى ذهنه صورة عن الوهابية أنها مذهب من مذاهب الخوارج، حتى إذا استولى عبد العزيز آل سعود على الحجاز بعد ذلك بأقل من عشر سنوات (١٩٢٥)، درس بشير السعداوى الوهابية، فوجد أن الوهابيين من الحنابلة وهم سلفيون يعملون بالكتاب والسنة.

وأما ما كان يفكر فيه بشير السعداوى أثناء وجوده فى ينبع البحر، فهو أن يطول به المقام حتى يهوى من يصلح من أبنائها لتسلم الإدارة فى هذه القائمقامية عند مغادرته لها. وكان الهدوء منتشراً فى هذه البقعة من بلاد العرب بالرغم من الحرب الدائرة، ولم يكن بعد قد أعلن شريف مكة الحسين بن على ثورة العرب على تركيا. فلم يكن يدور فى خلد بشير السعداوى أنه سوف يقضى بعد قليل على كل الجهود التى بذلها لنشر ألوية الأمن والسلام، واتنوير أذهان أهل البلاد، وأنه سوف يضطر مرغماً على مغادرة ينبع البحر وقبل أن يتسنى له إعداد صفوة من أبنائها لتسلم شئون الحكم والإدارة بها.

وكان حوالى إبريل سنة ١٩١٦، أن بدأ بشير السعداوى وهو فى ينبع

البحر يشعر - فى ظروف سوف يأتى ذكرها - بأن هناك حركة معادية للدولة يدبرها شريف مكة، ولكن لم يكن أحمد جمال باشا فى الشام يدرى أن هناك ثورة على وشك الاندلاع، ثم إنه لم يكن يريد أن يصدق أن شيئاً مثل ذلك قد يقع، وكان لا يزال حتى هذا الوقت يثق فى الحسين بن على وفى ابنه الشريف فيصل (وهو فيصل الأول ملك العراق بد ذلك) الذى كان يتردد عليه بالشام. بل إن كل ما عنيت به الدولة العثمانية وقتئذٍ من شئون بلاد العرب هو أن تستمر بنجاح العمليات العسكرية فى اليمن، وهى التى يقودها على سعيد باشا القائد العثماني الذى تمكن من الاستيلاء على الحج فى يولييه سنة ١٩١٥ واضطر القوات الإنجليزية إلى الانسحاب منها إلى عدن حيث ظلوا مهددين بها، فأرسلت استانبول قوة مؤلفة من ألفين أو ثلاثة آلاف جندي لتكمل بها ملاك فيلق اليمن. وقد وصلت هذه القوة بقيادة خيرى بك إلى المدينة المنورة فى أواخر إبريل سنة ١٩١٦. ولم يمنع ذهابها إلى اليمن إلا خوف والى المدينة بصرى باشا أن يوقعها البدو "فى كمين بين مكة والمدينة على أثر الخطب المهيجة التى ألقاها الشريف حسين"، أو على الأصح بدأ "يلقيها" الشريف حسين ضد الدولة، تمهيداً للقيام بالثورة. حتى إن جمال باشا حوالى منتصف مايو، عندما أبلغه بصرى باشا مخاوفه من أن يكمن البدو لقوة خيرى بك، أبرق إليه "أن يبقى تلك القوة فى المدينة إلى أن تصدر إليه أوامر أخرى، وأن يكون على حذر واستعداد تام للدفاع عن المدينة نظراً لسلوك الشريف حسين الباعث على الريبة".

وكانت قوة خيرى بك هذه موجهة لتعمل وبالتعاون مع بعثة ألمانية مؤلفة من أربعة ضباط وعامل لاسلكى وبعض الأتباع، وهى موفدة إلى بلاد العرب لتعمل بالاتفاق مع قوة خيرى بك المرسلة إلى اليمن، لدعم سلطة الأتراك فى هذا الركن الجنوبى الغربى من جزيرة العرب. وأما رئيس هذه البعثة الألمانية فكان البارون فراير أو ثمارفون ستوتزينغن Freiherr Othmar Von Stotzingen ومهمته أن ينشئ مركزاً للاستعلامات بجوار الحديدة للاتصال بالجند الألمانين

فى إفريقية الشرقى الألمانية . وعلى أن تستخدم البعثة جهاز اللاسلكى الذى معها كذلك فى الدعاية ضد الإنجليز والخلفاء فى السودان والصومال والحبشة . وقد أصدرت الحكومة العثمانية أوامرها إلى السلطات العسكرية والمدنية لتبذل كل جهودها فى مساعدة البعثة الألمانية التى سوف تستخدم القيادة العامة العثمانية جهازها اللاسلكى (أى جهاز البعثة) فى إبلاغ أوامرها أو ما تريد إيصاله من معلومات إلى ضباطها ورجالها . وقد قابلت هذه البعثة فى دمشق عند مرورها بها فى طريقها إلى الحجاز الشريف فيصل . وقد أسر إليه (ستوتز ينغن) أن غرض البعثة " هو إرسال السلاح والعتاد عبر البحر الأحمر إلى الحبشة بقصد تحريك الفتن فى أرتريا والصومات والسودان " . وقد غادرت البعثة دمشق مع قوة خيرى بك قاصدة إلى الحجاز بطريق السكة الحديد الحجازية . فلما وصلوا إلى (العلا) ، وهى المحطة التى لا يسمح لغير المسلمين بالسفر بعدها ، غادرت البعثة القطار ، وتوجهت غرباً نحو (الوجه) لكى تسير منه بطريق الساحل إلى جدة والقنفذة ؛ وكان المتفق عليه أن يتلاقى الألمان مع خيرى بك فى القنفذة ، حتى يسيروا منها جميعاً إلى اليمن . ومثلما حدث لقوة خيرى بك التى لم تستطع الذهاب إلى اليمن وبقيت بالمدينة المنورة ، تعذر على بعثة (ستوتز ينغن) الوصول إلى اليمن . واضطرت إلى البقاء فى ينبع البحر مدة شهر تقريباً قبل أن تعود أدراجها إلى دمشق وتستطيع الإفلات من أخطار الثورة العربية ، وذلك على يد قائم مقام ينبع البحر بشير السعداوى .

ذلك أن جمال باشا كان قد أصدر أوامره لكل من قائم مقام ينبع البحر ، وقائم مقام الوجه بأن يستعدوا لاستقبال البعثة الألمانية وأن يبدلوا قصارى جهدهم لتسهيل مهمتها وإمدادها بكل معونة تلزمها ، وأن يبلغوه فوراً بتحركاتها من عندهم . وعلى ذلك فقد استقبل بشير السعداوى البعثة الألمانية فى ينبع البحر . وقد وصلت هذه فى قافلة كبيرة ، حيث حمل عتادهم حوالى ستين جملاً ، ومن جملة العتاد كان الجهاز اللاسلكى .

وقد لفت نظر بشير السعداوى أن أحد أعضاء هذه البعثة كان شيخاً يبدو أنه يبلغ السبعين أو يزيد قليلاً، يقول إنه ألماني مسلم، وهو رجل وثيق البنية متعمم بعمامة كبيرة، ويضع على عينيه نظارة رزقاء، وله لحية حمراء، صار يقص قصصاً كثيرة عن أهل السودان؛ لم يكن فى حقيقة الأمر إلا أسير الخليفة عبد الله التعايشى فى أم درمان، التاجر والجاسوس الألمانى (شارل توفيلد) Carl Nenfeld صاحب كتاب "سجين فى أسر الخليفة مدة اثنتى عشرة سنة فى أم درمان"، وهذا كتاب صدر أصلاً بالألمانية سنة ١٨٩٩ وبالإجليزية فى السنة نفسها، وذلك بعد أن خلصه (كتشنر) من الأسر عقب واقعة أم درمان (فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨) وعاد بعد استرجاع السودان ليعيش فى هذه البلاد مرة أخرى. ثم إنه أقام فى أسوان بعد ذلك، يعمل "كوكيل للسياحة". وعند بداية الحرب عاد إلى ألمانيا، وعينته حكومتها (الآن) ضمن بعثة (ستوترينغن).

وعكف أعضاء البعثة على خرائطهم يدرسونها، وعرف بشير السعداوى أنهم يريدون أن يواصلوا سيرهم إلى جدة، ومنها إلى الحديدة، وأن قسمًا منهم يريد الذهاب بعدئذٍ إلى السودان. وعدا (شارل توفيلد) الذى يتكلم العربية، استخدمت البعثة ترجمانًا هنديًا يعرف هذه اللغة، كما وجد بشير السعداوى مع البعثة رجالاً نشأ فى فلسطين يتكلم العربية فهم أن مهمته العبور إلى إفريقيا، واسمه (المسيو هال) اعتقد بشير السعداوى أنه يهودى وقد أكرمهم البشير إكرامًا كبيرًا، واعتبرهم ضيوفًا عنده. ويقص فى ذلك حكاية لطيفة فحواها أن الترجمان الهندى بعد مضى الأسبوع الأول على مجيئهم إلى ينبع البحر، جاءه موفدًا من رئيس البعثة يطلب "حساب" المدة التى قضاهما، فأجاب البشير أنه لم يكن فندقياً ولكن الجماعة يتزلون على الرحب والسعة ضيوفًا على "الحكومة". فتعجب الألمان من ذلك، وهم يحملون معهم صناديق ملأى بآلاف الريالات النمساوية (ماريا تريزا).

ولكن من أول الأمر لم يرتح بشير السعداوى لنوع النشاط الذى صار يقوم به (شارل نوفيلد) ذلك أن "الشيخ" لم يلبث أن صار يترك المبني الذى استقر به أعضاء البعثة، ويتجول فى أنحاء البلدة، ويتصل بأهلها، ويردد أنه "لولا ألمانيا لما قامت للدولة العثمانية قائمة" وأن الدولة مقضى عليها لولا مؤازرة الألمان. فطلب منه بشير السعداوى أن يقف هذا النشاط وأن يمتنع عن الاختلاط بالناس، فلم يشأ (نوفيلد) أن يذعن لهذا الطب، وأجاب بأنه مسلم، وله بحق إسلاميته أن يختلك بإخوته المسلمين وإن يتزاور معهم. فسأله بشير السعداوى: منذ كم سنة صار مسلماً! فلما أجاب: من ثلاث سنوات قال له البشير: لقد بقيت حياتك بأكملها لا تعرف الإسلام، وعلى دين غير هذا الدين فكيف تسنى لك أن تعرف مزايا الإسلام حتى تعتنقه بعد أن صرت كهلاً.

وشكا (نوفيلد) إلى رئيس البعثة من مؤاخذه بشير السعداوى له على اتصاله بالأهلين فى ينبع البحر. وأراد (ستوتزينغن) أن يبحث المسألة مع البشير، وأراد البشير أن يصرفه عن غايته، حتى يتمكن من وقف نشاط (نوفيلد)، فقال لرئيس البعثة: إن الشريف عبد الله مسلم، وهو الاسم الذى تسمى به نوفيلد، ونحن مسلمون، فلا شأن لك بما يحدث بيننا.

وحوالى منتصف مايو ١٩١٦ تهيأت البعثة الألمانية لمغادرة ينبع البحر، واستئناف رحلتها إلى الجنوب، وكان فى هذا الوقت أن بدأت تجتمع لدى بشير السعداوى الأدلة على أن الثورة فى الحجاز لا بد مندلعة، فلم يشأ أن يترك البعثة تواصل سفرها إلى الجنوب، خشية أن يقع لها حادث يودى بأعضائها. وعبثاً حاول رئيس البعثة إقناع بشير بأن يتركه يذهب حتى يتم العمل الذى حضر إلى الحجاز من أجله. وأراد (ستوتزينغن) أن يتصل بحكومته أو أن يتصل بجمال باشا. فعارض بشير السعداوى فى ذلك على اعتبار أنه صاحب السلطة الكاملة فى منطقته، وله أن يسلك الطريق الذى

يرى فى صالحه أن يسلكه وكان مبعث هذا التشدد من جانب بشير السعداوى توقعه حتمًا إذا هو سمح للبعثة بمغادرة ينبع البحر، والسفر إلى جدة أن تتعرض لهلاك محقق، لأن الثورة على الأبواب من ناحية، ولن يدع الشريف حسين حليف الإنجليز البعثة الألمانية تصل إلى اليمن، وقد ثبت أن الشريف كان قد أوصى أبناءه فعلا بالألا يدعو بحال من الأحوال لا قوات خيرى بك، ولا البعثة الألمانية تبلغ مقصدها. ومن ناحية أخرى، كان لدى البعثة حوالى خمسين صندوقًا، فى كل منها عشرة آلاف ريال نمساوية - وهى العملة الفضية المتداولة وقتئذ فى هذه الجهات، وتعرف بريالات مارياتريزا - ووجود هذا المال معها حافز فى حد ذاته على أن يعتدى البدو عليها وعندئذ تعتبر الدولة بشير السعداوى مسئولًا عن هلاك البعثة، لتفريطه فى السماح لها بالرحلة والثورة على وشك أن تهب فى أية لحظة.

وكان غرض بشير السعداوى أن يعجل بإعادة البعثة الألمانية إلى دمشق سالمة قبل أن تقوم الثورة، واقتنع فى آخر الأمر (ستوتزينغن) بجدية الأسباب التى يدع بها قائم مقام ينبع البحر لمنع البعثة من السفر إلى جدة ومنها إلى اليمن، ونصحه لها بأن تعود بطريق السكة الحديد (الحجازية) إلى دمشق. فلما تهيأت البعثة لمغادرة المكان، طلب بشير السعداوى أن يتركوا خلفهم صناديق المال، مما أثار دهشة (ستوتزينغن) الذى عجب كيف يمنعه القائم مقام من تأدية مهمته، ثم يستولى على مال البعثة. ولكنه لم يلبث أن رضخ فى هذه المرة أيضًا. فتسلم بشير السعداوى الصناديق فى حضور القائد العسكرى ورئيس الشرطة. وسلم المال بدوره للخزينة. وفى الليل أركب أعضاء البعثة، كى يسيروا برًا بحذاء الساحل إلى (الوجه)، ثم يتجهوا منها شرقًا إلى محطة (العلا) فيركبوا القطار إلى دمشق.

وأما عتاد البعثة، فقد تكفل به الترجمان الهندى، على أن ينقله بحرًا إلى الوجه، ثم يلحق بالبعثة فى دمشق. وكان من رأى بشير السعداوى أن

يتركوا هذا العتاد وراءهم ولكنهم أصرروا على حمله . فلم تبعد المركب مقدار ثلاث كيلو مترات فى البحر حتى انقض عليها قرصان البدو، وغرقت المركب بعد أن نهب منها القرصان ما نهب:

وغرقت البعثة بعد نجاتها لبشير السعداوى حسن صنيعة معها، فأثنت عليه ثناء جميلاً، وكتب إليه جمال يشكره على لسانها، كما سئرى أن الحكومة الألمانية لم تلبث أن كافأته على رعايته لهذه البعثة بأن منحته وساماً ألمانياً، تسلمه من حكومته (العثمانية) بعد خروجه من الحجاز .

وكان بعد وصول البعثة الألمانية سالمة إلى دمشق أن بدأت الثورة العربية فى أوائل يونيو ١٩١٦ .

٥ - ثورة الحسين بن على

ويرى فريق ممن عاصروا حوادث الثورة التى حركها فى الحجاز الحسين بن على شريف مكة أن هذه الثورة كانت نهضة قومية أراد العرب بها التحرر من النير العثمانى، وإقامة الدولة العربية المستقلة التى يتم على يدها إحياء المجد الإسلامى . ولكن فريقاً آخر كان ينظر وقتئذٍ بعين الشك لهذه الثورة التى يعرف أنها قامت مستندة على تأييد دولة أجنبية - هى إنجلترا فى هذه الحالة - وأن الحسين بن على لولا اعتماده على مؤازرة الإنجليز له مالياً وعسكرياً لما قدم على إعلان الثورة، وأن شريف مكة لم يكن يبغى من هذه الثورة إلا تأسيس ملك يضم جزيرة العرب، لو أنه استطاع أن يأخذ نجداً من صاحبها عبد العزيز آل سعود، أو يقنع من الجزيرة بالحجاز إذا تعذر عليه ذلك . وعلى أن يضم هذا الملك العراق، والشام وفلسطين، ويقصد إلى تأسيس خلافة عربية فى بيته بعد أن تنهد هذه الثورة لانتزاع الخلافة الإسلامية من آل عثمان، ومهما يكن من أمر فإن أحداً من رجال الحكومة العثمانية فى استانبول، أو رؤساء جيوشها فى الشام والجزيرة العربية والعراق، أو ولائها وعمالها فى الحجاز، عند نشوب الحرب العظيمة (أو العالمية الأولى) ولمدة

طويلة بعد نشوبها، وحتى أوشك بركان الثورة رعلى الانفجار فعلا، لم يكن يدري شيئاً من أمر هذه الثورة التي كانت تجرى في الخفاء بين الحسين بن على وبين الإنجليز التدابير لإشعالها، وذلك لأن شريف مكة كان قد بالغ في كتمان اتصالاته ومباحثاته بعد أن بدأت هذه بواسطة ولده الشريف عبد الله (الملك عبد الله ملك الأردن فيما بعد) في القاهرة مع المعتمد البريطاني في مصر اللورد كرومر كتشتر في فبراير ١٩١٤ إلى أن أسفرت عن الاتفاق الذي تضمنته المكاتبات السرية التي جرت بين الحسين بن على والسير هنرى مكماهون المعتمد البريطاني في مصر بين ١٤ يولييه ١٩١٥ و ٣٠ يناير ١٩١٦، وهو اتفاق لا يعنينا من شأنه النزاع الذي أثير فيما بعد حول تفسير ما جاء في المكاتبات خاصاً (بفلسطين)، وإذا كان قد كفل تحقيق ما يريده شريف مكة، أو أن الإنجليز لم ينظروا إليه إلا كتدبير من التدابير التي تمخضت عنها ضرورات الحرب، والذي كان يكمله من هذه الناحية (أولا) عقد اتفاقية (سايكس - بيكو) Sykes - Picot السرية المشهورة - نسبة إلى موقعيها: سير مارك ستايكس عن الحكومة الإنجليزية، وجورج بيكو عن الحكومة الفرنسية - في ١٦ مايو ١٩١٦ أى بعد الاتفاق مع الشريف حسين بشهور قليلة، وهو اتفاق يقوم على أساس مساومة تمت بين فرنسا وروسيا، وأقرها عن الأولى السفير الفرنسي في بطرسبرج (بالولوج) Paleologue وعن الثانية وزير خارجية روسيا (زازونوف) Zazonov وذلك في ٢٦ إبريل من السنة نفسها، وبمقتضى اتفاق (سايكس - بيكو) هذا قسمت أملاك الدولة العثمانية في الأناضول، وبلاد العرب، وبحيث تنال فرنسا سوريا، وبريطانيا العراق، وتقتسم كلتاهما النفوذ السياسى في منطقة حددت معالمها بين سوريا والعراق، أما فلسطين فمنطقة ذات نظام دولى. ثم يكمله (ثانياً) بتصريح اللورد (بلفور) Balfour وزير خارجية بريطانيا الذي صدر في صورة خطاب بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٧ إلى لورد روتشلد، يشمل موافقة الحكومة الإنجليزية على أن يتأسس لليهود وطن قومى في فلسطين. وهذان الإجراءان الأخيران: معاهدة سايكس

- بيكو السرية وتصريح بلفور، ينسفان - من أساسه كما هو واضح - الاتفاق الذى تضمنته مراسلات الحسين - مكماهون. والذى يعيننا مباشرة منه، أنه كان العامل الأول فى إقدام شريف مكة على إعلان الثورة.

وعدا تكتم أمر هذه المفاوضات السرية بين الحسين بن على والإنجليز، فلم يعرف عنها شيئاً رجال الحكومة فى استانبول، أو جمال باشا فى الشام، أو والى الحجاز أو غير هؤلاء، فإنه ما كان يخطر ببال الاتحاديين بتأتاً أن الحسين بن على الذى يعود الفضل إلى الاتحاديين أنفسهم فى تنصيبه أميراً على مكة وإعادة (الشرافة) إليه سوف تحدّثه نفسه يوماً بالخروج على الدولة والتكر لهم. فقد كان الحسين بن على يقيم مع أسرته وأبنائه الثلاثة على وعبد الله ويفصل فى استانبول منذ عام ١٨٩٣، بناء على دعوة الحكومة العثمانية له بسبب الخصومة التى كانت بينه وبين أمير مكة عون الرقيق لتنازعهما على الإمارة، أو كان عون الرقيق قد تسلم (الشرافة) سنة ١٨٨٢، فلما توفى فى سنة ١٩٠٥ تعين أحد أقربائه على ابن عبد الله بن محمد الذى ترك الحجاز ليعيش فى مصر بعد الانقلاب العثمانى فى سنة ١٩٠٨، وعين العثمانيون بدلاً منه فى (شرافة) مكة، الشريف عبد الإله باشا، وهو أخ لعون الرقيق. ولكنه كان مستأناً، وتوفى استانبول قبل أن يتسلم الشرافة فعلاً.

وعندئذ بذل قصارى جهدها فى المسعى لدى الباب العالى للظفر بمنصب شريف مكة، كل من الحسين بن على وهو من ذوى عون، والشريف على حيدر وهو من ذوى زيد الذين كانت لهم الشرافة من منتصف القرن الثامن عشر الميلادى إلى منتصف القرن التاسع عشر عندما انتقلت الشرافة منهم إلى ذوى عون، إلى الشريف عبد الله (١٨٥٨ - ١٨٧٦) ثم إلى الشريف حسين (١٨٧٦ - ١٩٧٩). ثم أخيراً إلى عون الرقيق الذى تحدّثنا عنه. ولقد اعتبر الشريف على حيدر، وهو حفيد الشريف عبد المكلب أمير مكة فى فترات متقطعة بين عامى ١٨١٥، ١٨٨٢، والذى توفى عام ١٨٨٤، أنه أحق

بالشرافة من الحسين بن على، وجدير به أن يرجعها إلى ذوى زيد، ولكن زواج الشريف على حيدر من إنجليزية (منذ ١٩٠٢)، كان من العوامل التى ساعدت على نجاح مسعى الشريف حسين بن على (من مذوى عون) بالرغم من ماضيه "الثورى". وبالرغم من أن السلطان عبد الحميد المخلوع كان يقول لمن يشيرون عليه بتعيينه بدلا من الشريف عون الرفيق لإمارة مكة: "إنى راضى بتعيينه أميراً على مكة المكرمة إذا اكتفى الشريف حسين باشا بذلك فقط. بل إنى أعتقد أن المشار إليه لا يكتفى ببالإمارة فحسب، بل يطمع فى أكثر من ذلك، ويهدد يوماً ما عرشى". على أن الاتحاديين بعد انقلاب إبريل ١٩٠٩ وخلع السلطان عبد الحميد عينوا الشريف حسين أميراً لمكة. وما يجدر ذكره أن عبد الحميد عندما سمع بتعيينه للشرافة قال: "لقد خرجت الحجاز من يدنا واستقل العرب، وتشتت ملك آل عثمان بتعيين هذا الرجل للإمارة. ويا ليت أنه يكتفى بإمارة مكة وباستقلال العرب فقط. ولكنه سوف يعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة العظمى نفسه" ولكن الاتحاديين وثقوا به. وأدى الحسين للدولة خدمات عديدة أثناء فتن وحروب اليمن وعسير. ويقول جمال باشا فى مذكراته إن الاتحاديين قد ندموا بعد ذلك من تعيين الحسين بن على فى إمارة مكة فتشبثوا مراراً بإيجاد وسيلة لعزله أو تنكيله، ولكن لم يفلحوا". ثم استطرد يقول: "ولما شعر الشريف بسوء نية الاتحاديين.. أخذ ينفر منهم، وازداد نفوره تدريجياً كلما طغى اتحاديو الأتراك، فأضمر لهم ما أمضر فى قلبه، وفكر بوجوب القيام ضد الاتحاديين، والتشبيث باستقلال العرب، متفقاً مع الأحزاب العربية السياسية التى كان يحتك بها سراً وبالوساطة". ولما كان يعتقد "أن فلاح العرب من دون معاضدة دولة أجنبية فقد رجح أن يفاوض الإنجليز بما يخالف ضميره، فكانت نم ثم تلك المباحثات والاتفاقات التى أشرنا إليها.

وثمة سبب آخر جعل رجال الدولة العثمانية لا يعرفون شيئاً عن نوايا الشريف حسين واستعانه بدولة أجنبية على تنفيذ خطته الثورية، هو أن

الحسين بن على حرص فى الوقت الذى كانت تدور فيه مفاوضاته مع السير هنرى مكماهون من ناحية ويتصل ابنه الشريف فيصل بالسوريين من أعضاء الجمعيات العربية (جمعية العربية الفتاة، والعهد، والإصلاح اللامركزى) مثل الدكتور أحمد قدرى، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وياسين الهاشمى، وعلى رضا لركابى وغيرهم، من ناحية أخرى؛ - تقول إنه حرص على أن لا يساور الأتراك أية شكوى من جهته، فصار الشريف فيصل يكثر من التردد على جمال باشا فى دمشق، ويطلق مكثه معه، وجعل الحسين ولده الأكبر علياً يقيم مع والى المدينة المنورة بصرى باشا.

ولقد كان بصرى باشا أول من تنبه إلى أن شيئاً ضد الدولة يدبر فى الخفاء بين شريف مكة الحسين بن على وأبنائه. ولا جدال فى أن الذى نبهه إلى ذلك، اجترأ الشريف على المقيم معه بالمدينة المنورة على تأليب العربان ضد الدولة، وكان حينئذ قد تم الاتفاق بين الحسين وبين الإنجليز. وبتنهياً الحسين لإعلان الثورة فى اليوم الذى يقع عليه الاختيار لتحديده موعداً لها. ولقد شكّا بصرى باشا كثيراً من الشريف على إلى جمال باشا، وصار ينادى بوجوب اتخاذ سياسة الحزم والشدة مع الحسين وأبنائه. ولكن جمال باشا الذى ظل حتى أوائل عام ١٩١٦ يعتقد أن الحسين وأبنائه متمسكون بولائهم الصادق للدولة لم يشأ أن يستمع إلى نصيح والى المدينة المنورة أو يتخذ إجراء ما، ولو من باب الحيلة ضد شريف مكة.

وأما خارج المدينة المنورة، فى أرض الحجاز، فقد كان بشير السعداوى قائم مقام ينبع البحر، أول من تنبه للخطر، واستطاع أن يجمع من المعلومات الوافية عن نشاط الحسين وأبنائه المعادى للدولة ما جعله يبادر بتحذير المسؤولين - بصرى باشا والى المدينة، رئيسه فى الحجاز، وأحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع فى الشام - حتى يتداركوا هذا الخطر:

فقد كان من أثر نشاط الشريف على فى المدينة المنورة، أن صار يأتى

إليه شيوخ العشائر لتلقى التعليمات والإمدادات المالية، استعداداً لليوم الذى يعلن فيه قيام الثورة. وكان من الذين ذهبوا لمقابلة على بن الحسين: الشيخ حسين جبارة من أهل ينبع البحر. والشيخ دخيل الله القاضى، قاضى عشيرة جهينة الذى سبق أن ذكرنا أنه كان صديقاً لقائم مقام ينبع البحر بشير السعداوى. فقد اجتمع هذان بالشريف على فى المدينة المنور، وتلقيا تعليماته. ثم عدداً من الجنيهات الذهب الإنجليزية. ولكنهما عند عودتهما من المدينة، بادر بإخبار بشير السعداوى بما حدث وأرياه الجنيهات الذهب الإنجليزية. وأكد له أن الشريف حسيناً يتهاً لإشعال الثورة ضد الدولة بمساعدة إنجلترا. ولم يتردد بشير السعداوى لحظة فى واجبه. فأبلغ بدوره بصرى باشا بما وقع.

ولم يكن متظراً أن يؤيد بشير السعداوى ثورة الشريف حسين أو يرضى عنها، فهو - كما رأينا - كان من مدة طويلة قد صار يدين بمبادئ معينة فيما يجب أن تقوم عليه العلاقة بين الدولة موئل الخلافة الإسلامية وبين الشعوب العربية، خصوصاً التى تتألف منها ولاياتها، وهى علاقة ينبغى أن تقوم على الولاء والإخلاص نحو الدولة، والعمل بكل الوسائل لعل تقويتها وشد أزرها، حتى تتمكن من صد اعتداءات الدول المستعمرة التى دأبت على انتهاز فرصة ضعف الدولة وعجزها لتقتطع من جثمانها ولاية بعد أخرى، وكانت طرابلس الغرب موطن بشير السعداوى من آخر الولايات العربية الإسلامية التى اغتصبها المستعمر الأجنبى من الدولة. ولقد ظل بشير السعداوى يدين بعقيدته هذه بالرغم مما وقف عليه من الآراء "الإصلاحية" التى تروج لها الجمعيات العلنية أو السرية التى ألفها، "أحرار العرب" واعتبر - كما رأينا من مساجلته مع عبد الوهاب الإنجليزي فى بيروت قبل دخول الدولة الحرب - أن بقاء هذه الدولة والمحافظة على كيانه ضروريان حتى تتولى مهمة الدفاع عن العرب، إلى أن يحين الوقت الذى يستطيع هؤلاء فيه بجهدهم الخالص أن يؤسسوا كياناً لهم، وأن يذودوا وحدهم عن حياضهم. وأما الاستعانة

بالأمم الأجنبية على دولة الخلافة الإسلامية لتقويض عروشها، فذلك ما يعتبره بشير السعداوى مروءًا لا يقره بحال من الأحوال، بل إن بشير السعداوى بعد أن رأى الطليان يحتلون بلاده، ويهدرون حريات أهلها، ويهددون بإفنائهم، صار يخشى إذا استعان العرب بالدول الألهانية "للتحرر" من سلطان العثمانيين، ونجحوا فى إنهاء سلطان هؤلاء، دون أن تكون لهم القدرة أنفسهم على ملء الفراغ الذى يحدث من انسحاب العثمانيين من الأقطار العربية - صار يخشى أن يفسح المجال أمام هذه الدول الأجنبية لملء الفراغ الذى ينشأ. وذلك باحتلال الأقطار العربية "المحررة" أو بتحويلها إلى مناطق نفوذ سياسى لها، وفى كلا الحالين إضعاف لشوكة الإسلام عمومًا، وقضاء على أمانى العرب التى كان كل ما يريده بشير السعداوى لها أن تتحقق بالصورة التى يحيا بها الشعور الصحيح الخالص بالعزة القومية العربية. وكانت الجنيهاات الذهب الإنجليزية، الدليل الدامغ - فى نظر بشير السعداوى - على أن الثورة التى يعتزم الحسين بن على إشعالها، معتمدة على مؤازرة إحدى الدول الأجنبية. الأمر الذى سوف يترتب عليه حتمًا إذا عجزت الدولة (العثمانية) عن إخمادها، أن يجد النفوذ الأجنبى - وفى ذيله الاستعمار الأجنبى - الشغرة التى ينفذ منها إلى شبه الجزيرة العربية، أو الأقطار التى ظلت بها حتى هذا الحين بفضل بقائها فى نطاق الإمبراطورية العثمانية، بعيدة عن نفوذ الدول الأجنبية الاستعمارية.

وأبلغ بصرى باشا بدوره الأخبار التى جاءته من بشير السعداوى إلى أحمد جمال باشا فى دمشق. ولكن فى هذا الوقت - فى إبريل ١٩١٦ - كان جمال باشا لا يدرى شيئًا عن المخابرات التى جرت بين شريف مكة والمعمد البريطانى فى مصر (هنرى مكماهون). حقيقة كان الحسين بن على قد أبرق إلى أنور باشا فى استانبول - وذلك بعد أن اطمأن إلى اتفاق الإنجليز معه - يقول. "إذا كنت حقًا ترغب فى التزامى جانب الهدوء والسكينة فينبغى الاعتراف باستقلالى فى سائر أنحاء الحجاز من (تبوك) إلى (مكة)

المكرمة) وجعلى أميراً وراثياً فيه، كما ينبغي أيضاً العدول عن محاكمة العرب المتهمين وإعلان العفو العام فى سورية والعراق". والعرب المتهمون الذين ذكرهم الحسين فى هذه البرقية هم الذين أشرنا سابقاً إلى أن جمال باشا أعدمهم بعد ذلك فى ٦ مايو ١٩١٦. وقد أبلغ أنور باشا هذه البرقية إلى جمال باشا فى دمشق. ولكن (فيصلاً) استطاع أن يكسر من غضب جمال باشا على أبيه. وأجاب جمال باشا الحسين فى برقية مطولة على مطلبه بما فحواه أن المتهمين الذين يطلب الشريف الصفح عنهم مذبونون بفضل ما اكتشف من وثائق تدينهم. وأن "الفرصة ليست مناسبة الآن" - لأسباب عديدة - للمطالبة بجعل الإمارة وراثية فى أسرة الشريف وكان جمال باشا - وبناء على تصديقه تأكيدات فيصل لولاء والده - يعتقد أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، وأن فى وسعه الركون إلى شريف مكة. ولذلك فقد أضجره أن يأتيه تحذير بشير السعداوى عن طريق بصرى باشا، من نشاط الشريف على المعادى للدولة. فأبرق جمال باشا إلى بشير السعداوى أن هذه المسائل التى ذكرها تخرج عن نطاق عمله وليست من شئون وظيفته وأن الأجدى به أن يتوفر لأمال الوظيفة التى يشغلها!

وقد يكون من الممكن أن تفت مثل هذه البرقية فى عضد "موظف" عادى من موظفى الدولة من طرازات متنوعة، ولكن قائم مقام ينبع البحر لم يكن "موظفًا" عادياً. عليه أن يقوم بتصريف شئون "وظيفته"، فحسب. بل يرى نفسه أمام عقيدته وضميره مسئولاً عن الدولة مسئولية رؤسائه، وكبار رجالها، فلم يصرفه هذا "التأنيب" عن متابعة البحث والتحري، واستطاع بعد قليل أن يجمع معلومات أوفى لا تدع مجالاً للشك فى أن الحسين ابن على يدبر الثورة، وأنه قد تحدد يوم قريب لإعلانها.

فقد حدث حوالى منتصف رجب ١٣٣٤ هـ. أى حوالى ١٨ مايو ١٩١٦، أن جاء بشير السعداوى الخبر من أمير (أو شيخ) رابغ، حسين بن ميريك - وكان ضالعاً مع الترك ميالا لهم - أن سفناً إنجليزية تأتى إلى ميناء

رايع وغيره بالأسلحة والمال والذخائر لحساب شريف مكة. نقل هذه الرسالة إلى بشير السعداوى أحد شيوخ ينبع البحر الذى كان فى مكة ثم قصد إلى جدة ومن هناك ذهب إلى رايع. وتمكن الشيخ من معرفة اليوم الذى حدد للثورة وهو ٧ شعبان ١٣٣٤، أى ٨ يونيه ١٩١٦. وتلك كانت معلومات خطيرة حقًا؛ بادر بشير السعداوى بإبلاغها فورًا إلى بصرى باشا لتحذيره بأن "الخطر بات ملموسًا". وفى هذه المرة لم "يؤنب" جمال باشا قائم مقام ينبع البحر على تدخله فى غير "وظيفته" والسبب فى ذلك أنه فى حوالى منتصف مايو كان قد بدأ جمال باشا يستريب فعلا فى نوايا الحسين بن على وأبنائه، ولو أنه لم يكن حتى هذا الوقت يعلم باتفاق الحسين مع الإنجليز، وقد سمح لفیصل أن يغادر دمشق فى ١٦ مايو. وكان وعد بإحضار أخيه على لمقابلة جمال باشا بعد تسوية الخلاف بينه وبين بصرى باشا والى المدينة الذى لا ينفك يشكو منه. وكان مقصد جمال باشا من السماح لفیصل بمغادرة دمشق إعطاء الحسين بن على وأبنائه الفرصة لإظهار نواياهم الحقيقية نحو الدولة، فيقطع الشك باليقين نهائيا. وكان جمال باشا يعلم أن فیصلا يريد أن يخدعه - كما كتب جمال باشا فى مذكراته - بوسيلة الذهاب إلى المدينة ليحجى بأخيه على إلى القدس حتى ينضم إلى جيش سيناء، ولكنه "أثر أن يكون الغالب" فأذن له بالذهاب. وما كاد يفعل ذلك حتى تملك الفرع فیصلا لجواز حيلته على جمال باشا واعتقاده أنه نجا من الشرك الذى لا مناص أن يجد نفسه فيه إذا قامت الثورة، وقد صار مفهوماً له من أبيه أن مواعدها صار قريباً، وهو لا يزال فى دمشق مع جمال باشا. ويقول هذا الأخير فى مذكراته إنه ما كاد يفرغ من الإذن لفیصل بالذهاب إلى المدينة "حتى لمعت أسارير وجهه وكاد فؤاده يطير فرحاً، فتجلت إلى الحقيقة كلها وتشكفت حتى لقد التفت إلى على فؤاد بك رئيس أركان حربى قائلاً: إننى واثق بأن الثورة سيشب ضرامها فى الحجاز قريباً، فإننى قد رأيت فیصلا قد فرح أشد الفرع بدرجة لم يتمكن من إخفاء شعوره".

وهكذا عندما بلغت جمال باشا الأخبار الأخيرة التى بعث بها بشير السعداوى إلى بصرى باشا عن تهيب الشريف حسين لإعلان الثورة يوم ٨ يونيه، لم يسعه إلا أن يطلب إلى بصرى باشا أن يبلغ السعداوى "شكره" وقد جاء فى رسالة بصرى باشا إلى بشير السعداوى، أن جمال باشا قد أمر كذلك بأن يتسع سلطان قائممقامية ينبع البحر حتى يشمل فى الجنوب (رابغ) إلى حدود جدة، وأن يحرص قائممقام ينبع البحر على تزويدهم بالمعلومات.

وأخذ بشير السعداوى يستعد لمقابلة الثورة التى علم "يقيناً" أنه محدد لقيامها يوم ٨ يونيه. وكان من الإجراءات التى اتخذها تدير تموين البلاد، بحيث إذا حوصرت ينبع البحر يجد الأهليون المؤن التى تكفيهم حتى تأتيهم النجدة. فأمر بالاستيلاء على كل "الأرزاق" التى تدخل البلدة، ومنع أن تخرج منها هذه الأرزاق إلا بقدر معين. ثم فتش مستودعات الأسلحة القديمة، حتى عثر بها على بعض السلاح القديم فوزعه على الأهالى، وألف "جيشاً" من هؤلاء للدفاع تطوع فيه حوالى المائتين. ثم كلف مهندساً تركياً، كان عمله فى ينبع البحر تقطير ماء البحر لجعله صالحاً للشرب، فكلفه أن يهئ للاستعمال عدداً من القنابر البحرية السود التى كانت بالبلدة من أيام محمد على والحرب الوهابية منذ قرن مضى. وقد رصد بشير السعداوى جنيتها ذهباً مكافأة قنبرة ينجح المهندس التركى فى إصلاحها. وكذلك أمكن العثور فى قلعة قديمة من أيام محمد على كذلك على مدافع قديمة مما كان يستخدمه المصريون وقتذاك. فاستطاع المهندس أن يصلح واحداً منها. وساعد على تحصين البلدة أنها مسورة. واطمأن بشير السعداوى إلى ولاء جهينة، ولكنه كان يخشى من عشيرة حرب، ويتوقع أن يحاول هؤلاء اقتحام البلدة. وطلب السعداوى من بصرى باشا أن يمدد بالجنود والسلاح ولكن بصرى باشا اعتذر بحاجته إلى كل ما لديه من عسكر وأسلحة. ووجب على بشير السعداوى أن يعتمد على ما لديه من إمكانيات فحسب للدفاع عن موقعه إذا نشبت الثورة.

أما الثورة فقد بدأت صباح يوم ٩ شعبان ١٣٣٤ و ١٠ يونيه بأن أطلق الحسين رصاصة من قصره فى مكة على ثكنة الجيش التركى بها. وأما القتال فكان قد بدأ فعلا يوم ٩ يونيه فى مكان بين محطتى المنورة والمحيط على السكة الحديد. وكان الذى عجل بقيام الثورة، مع أنه كان أصلا محددا لها تاريخ بعد هذا التاريخ، (أولا) تعجيل جمال باشا بإعدام (الأحرار) السوريين فى ٦ مايو ١٩١٦، وكان الخوف شديداً من أن يكشف التحقيق عما كان هنالك من اتصالات بين "المتأمرين" وشريف مكة وولده فيصل، أو أن ينكشف أمر الاتفاق الذى وصل إليه الشريف حسين مع السير هنرى مكماهون. و (ثانياً) إرسال القوة التى أتت بقيادة خيرى بك إلى المدينة المنورة، وما ظهر من عزم جمال باشا على إرسال إمدادات أخرى إلى الحجاز. و (ثالثاً) أن جمال باشا بعد سفر فيصل من دمشق أرسل قائداً جديداً "مشهوراً بوطنيته وثباته" هو فخري باشا، إلى المدينة المنورة لتولى القيادة العسكرية عند نشوب الثورة.

والذى يعنينا من أمر هذه الثورة والمعارك التى دارت بين عسكر الحسين بن على وحلفائه الإنجليز وبين القوات التركية فى الحجاز، ذكر الوقائع المتصلة بالموقف فى ينبع البحر، التى مكث بشير السعداوى يضطلع بمهمة الدفاع عنها من وقت قيام الثورة فى ١٠ يونيه إلى حين سقوط ينبع البحر ذاتها فى ٢٩ يوليه ١٩١٦. فقد وصلت فى أوائل يونيه باخرة إنجليزية إلى ينبع البحر، وكانت تقل المستر كورنواليس Cornwallis الذى صار مستشاره لوزارة الداخلية بالعراق بعد ذلك، ومحمد شريف أفندى العمرى الفاروقى الذى عمل وسيطاً بين شريف مكة والإنجليز، ثم صار مندوب الحجاز فى القاهرة، وذلك إلى جانب آخرين - وكانت مهمة هذه الباخرة استدعاء (أمير) أو شيخ ينبع البحر لتسليمه بعض "الأوراق السرية الإنجليزية التى يجب إيصالها إلى سيادة الشريف حسين" على أن يأتى بالجواب منه سريعاً "وإيصاله إلى الباخرة" حتى إذا وافق الشريف حسين على محتويات هذه الأوراق السرية، ووافق

الإنجليز بدورهم على ما يكون قد اشتمل عليه جوابه، إلى جانب هذه الموافقة، أطلقت الباخرة بضع طلقات مدفعية إشارة إلى موافقة الإنجليز فيما اشترطه". وبالفعل "ورد جواب الموافقة من سيادة الشريف حسين، فأطلقت الباخرة المدافع، وبعد ذلك نشبت الثورة الحجازية". وكان إطلاق المدافع هذا يوم ٧ يونيه ١٩١٦.

وكان أول آثار نشوب الثورة، أن وجد بشير السعداوى نفسه محاصراً فى ينبع البحر ومعزولاً عن مواقع القوات العثمانية فى مكة والمدينة وجدة، فالمعارك تدور فى مكة، حيث سلمت الثكنات العثمانية بها أخيراً فى ٩ يوليه، ثم فى جدة التى تضافرت قوات الحسين من جهة البر مع الأسطول الإنجليزى من جهة البحر على إطلاق النار على حاميتها العثمانية حتى سقطت فى ١٦ يونيه بعد حرب دامت ستة أيام فى الليث وأملج على ساحل البحر الأحمر وقد صققتا فى يد الشوار فى ١١ أغسطس، ثم فى الطائف التى سقطت هى الأخرى فى ٢٢ سبتمبر، ثم فى المدينة المنورة التى استمرت الحرب دائرة حولها، ولم تسلم حاميتها العثمانية إلا بعد عقد هدنة مدروس Mudros التى أوقفت الحرب بين الحلفاء والعثمانيين فى (٣١ أكتوبر ١٩١٨).

ولكن الخطر المباشر الذى تعرض له بشير السعداوى عند بداية الثورة، لم يكن مصدره توقع هجوم قوات الشريف فيصل على ينبع البحر فى أى وقت بعد أن صارت له قيادة أكثر العمليات العسكرية فى الشمال، بل مبعثه الاجتراء على اغتياله. ذلك أن (فيصل) بعد إعلان الثورة كتب إلى بعض شيوخ القبائل لقتل "الضباط" الأتراك فى قائممقامية ينبع البحر، وقد نجح العربان فى اغتيال ضابط (أو ملج) التركى. واحتاط بشير السعداوى لنفسه، وساعده أنه عربى ومحجوب من أهل ينبع وعشائر البادية على أن يكشف المؤامرة التى تحاك لاغتياله، فأراه بعض خاصته من شيوخ ينبع كتاباً من الشريف فيصل إلى أحد مشايخ جهينة، لا يزال بشير السعداوى يذكر نص

العبارة التي وردت فيه وكانت موجزة ولكنها نافذة إلى الغرض. وفحواها: "إن ذبح قائمقام الينبع مستوجب لمنونية سيدنا (أى للشريف حسين) فأجروا الإيجاب وعرفونا".

ولم يسع بشير السعداوى إلا أن يرد على فيصل بكتاب جاء فيه: "اطلعت على الكتاب الذى أرسلتموه إلى الجهينى، وإنى أجيكم بأن الله عز وجل لم يخلق قائمقام ينبع البحر ليذبح ذبح الشاة مرضاة لسيدك، وأنا رجل مسلم سبق أن جاهدت فى بلادى قبل أن أعين فى منصبى وأوفد إلى هذه الأراضى المقدسة، وقد بقيت أؤدى عملى على خير وجه حتى قمتم أنتم بحركتكم هذه ضد الدولة، واعتقادت أن هذه الحركة خروج على السلطان، والنبى ﷺ يقول: من خرج على السلطان شبراً واحداً فقد مات ميتة جاهلية والبارى عز وجل يقول: "ومن يتولهم منكم فإنه منهم". وأنتم قبلتم تولية الإنجليز، وفى حديث. إن صحت نسبته إلى رسول الله: "إذا أنت بايعت رجلاً ومددت له صفحة يدك، ثم خرج آخر ينازعه فاقتلوا ذاك الآخر كائناً من كان.. ولذلك فإنى أعتبركم قد واليتم الأجنبى المحارب. وفى هذا خروج من الإسلام، ومع ذلك فإذا كنتم تعتقدون أنفسكم على حق فى حركتكم هذه، فلماذا لا تبينوا لى وجهة نظركم، حتى إذا اقتنعت بأنها صحيحة صرت من أعوانكم. وأما إذا كنتم انقلبتم على الدولة لتقتلوا المسلمين فى سبيل شهواتكم وتنفيذ مآربكم، فلا يسعنى إلا أن أبشركم بالخذلان وسوء المصير".

وقد كلف بشير السعداوى الشيخ دخیل الله القاضى بحمل هذا الكتاب إلى فيصل، فلما قرأ فيصل الكتاب تأثر كثيراً، وسأل دخیل الله إذا كان ممكناً استمالة بشير السعداوى إلى جانب الثورة، فأكد له دخیل الله - مما يعرفه عن صديقه - أن ذلك مستحيل، وأن دخیل الله نفسه وأهل الينبع أصدقاء لبشير السعداوى ويؤيدونه.

وأوفد بشير السعداوى الشيخ دخیل الله وبعض مشايخ جبهة إلى المدينة المنورة لياتوا منها ببعض المال اللازم لسد نفقات الإدارة، وتهيئة وسائل الدفاع فى ينبع البحر ولكن قبل وصول دخیل الله وزملائه من هذه المهمة، كانت قد جرت حوادث كثيرة فى ينبع البحر.

من ذلك أن باخرة إنجليزية كانت قريبة من ينبع البحر، قيل إنها تحمل على ظهرها عزيز بك على المصرى الذى يعرف بشير السعداوى الشىء الكثير عن اشتراكه فى الحرب الطرابلسية - فى ميدان برقة - ثم تحقيق الاتحاديين معه فى استانبول، فى مارس ١٩١٤ بعد أن ألقى القبض عليه فى الشهر السابق. وغرضهم التخلص منه. فلم ينقذه سوى الضجة التى أثارها إخوانه أحرار العرب، ومساعيمهم لدى إنجلترا خصوصاً للإفراج عنه، وقد جاءوا إلى بشير السعداوى بكتاب من هذه الباخرة الإنجليزية، قالوا إنه من عزيز المصرى يدعو فيه بشير إلى تسليم نفسه له على أن يتعهد (عزيز) بالمحافظة على حياته فأجاب بشير السعداوى على ذلك بقوله: "إنه لا قيمة للحياة عنده، ولذلك فهو لا يسلم نفسه لأجنبى أبداً، بل سيدافع عن الأراضى المقدسة إلى أن يلقى ربه".

ويذكر بشير السعداوى أنه قدر له مقابلة عزيز على المصرى فى القاهرة فى غضون عام ١٩٣٧، أى بعد هذه الحوادث التى ذكرناها بعشرين سنة تقريباً، فنفى عزيز المصرى أنه أرسل كتاباً إليه نفيّاً باتاً. وهناك من الأدلة ما ينهض دليلاً على أن هذا الكتاب كان مدسوساً على عزيز المصرى. فمن المعروف أن قاضى القضاة للحكومة الحجازية، الشيخ عبد الله سراج، اقترح على الشريف حسين بن على استقدام عزيز المصرى - وكان يقيم فى مصر منذ إطلاق سراحه (فى إبريل ١٩١٤) - وذلك ليقوم بإنشاء جيش عربى نظامى فغادر عزيز القاهرة فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر ١٩١٦ قاصداً إلى مكة المكرمة. ثم ذهب إلى (رابغ) لوضع الخطط اللازمة لتشكيل الجيش

النظامى . وكان تحرك هذا القائد من مصر (فى ٦ سبتمبر) أى بعد أسبوع من سقوط ينبع البحر فعلا .

وكان قد بدأ يدخل فى مرحلته الأخيرة الدفاع عن ينبع البحر، من أواخر رمضان ١٣٣٤ (وأواخر يوليه ١٩١٦) . عندما وصلت دارعة إنجليزية وألقت مراسيها أمام ينبع البحر فى ذلك التاريخ . فإنه لم يمض قليل حتى وصلت فى ٢٦ رمضان و ٢٧ يوليه باخرة صغيرة من سفن النقل، تحمل جنوداً من الهنود والسودان الذين بالحجاز، فأخذت فى إنزال الجنود إلى البر تحت حماية الدارعة، وذلك فى مكان بعيد عن الميناء، يوم ٢٨ رمضان و ٢٩ يوليه، فتهياً بشير السعداوى بالقوة التى معه لمقابلتهم . ولما أراد أن يكتب بعض الوقت حتى يتم استعداده فقد بعث بريول يستفسر من هؤلاء العسكر عن السبب فى مجيئهم . وجعل بشير السعداوى يراقب سير الرجل إلى العدو من الثكنة العسكرية بالمنظار المعظم، فوجدهم يطلقون الرصاص على رسوله، وشرعوا فى التو والساعة يطلقون قنابلهم على البلدة، فلم يكذب بشير السعداوى ببرح موضعه حتى أصاب المكان الذى كان به قنبلة هدمته . وقصد بشير إلى القلعة . ليشرف على نشاط الكدفعيين الذين بها . ولكن الإنجليز لم يلبثوا أن أصابوا القلعة بقنابلهم "الهائلة" ، وهدموا موقع المدفعية، وكان يعتقد السعداوى أن القوة العسكرية التى فى ينبع البحر سوف تستطيع الصمود للقوات المهاجمة، ولكن هؤلاء المغيرين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة، ففوجئ بشير السعداوى بواحد من الجند يأتیه ليلغيه أن (الجيش قد دخلت البلدة وأن العسكر قد سلموا أنفسهم مع ضابطهم إلى العدو) . وكان بالقلعة مع بشير وقتئذ سالم شوقى قومندان البوليس، وتابع حجازى وشاهد بعد لحظة الجنود الهنود يتجولون فى البلدة ويقتربون رويداً رويداً من القلعة والثكنة العسكرية . فغادر المكان فى التو والساعة، حتى لا يقع فى أسر العدو .

ومن يوم ٢٩ إلى يوم ٣١ يوليه بقى بشير السعداوى مخفياً فى أحد

بيوت ينبع البحر وظهر مقدار ولاء الأهلين له وتعلقهم به فى هذه المحنة، فتولى شيخ إمداده بالطعام، وبعث إليه الشريف عبد الكريم بن بديوى يؤكد له أنهم جميعاً يريدون المحافظة على حياته المهددة. وفى ليل ٣٠ رمضان و ٣١ يولييه، وصل دخيل الله القاضى من المهمة التى كان موفداً بها على المدينة المنورة فوجد ينبع البحر تحتلها جنود الشريف حسين بن على، فسأل عن بشير السعداوى وعرف مكمنه، فجاءه ومعه ثلاثة من الشيوخ، ليدبروا وسيلة لخروجه سالماً من ينبع البحر، وقد أحضر الشيخ دخيل الله معه من المدينة المنورة حوالى الستمائة جنيه ذهباً، وقدر بشير السعداوى هذه الأمانة وهذا الوفاء تقديرًا عظيمًا.

وفى نفس الليلة خرج بشير السعداوى من ينبع البحر ومعه الشيخ دخيل الله القاضى وأعوانه وقومندان البوليس سالم شوقى والخادم الحجازى. ولم يتوقفوا عن السير حتى وصلوا فى الصباح إلى (ينبع النخل)، وأراد بشير السعداوى أن يواصل السير، ولكن دخيل الله وأعوانه أصرّوا على تمضية اليوم - أول أغسطس سنة ١٩١٦ - فى هذا المكان. وفى الليل بلغ السعداوى أن نفرًا من قبيلة (عروة)، من قبائل ينبع البحر التى خرجت على حكم الدولة يريدون أن يسدوا الطريق بعد ينبع النخل ويتربصون للقبض على بشير السعداوى. ووجد البشير من الحكمة أن يؤجل السفر إلى نهار اليوم التالى، بالرغم من إصرار دخيل الله على عدم التريث. وبالفعل رأى بشير السعداوى وإخوانه عندما نزلوا فى اليوم التالى (٢ أغسطس) إلى وادى ينبع النخل نفرًا من (عروة) يتجولون فى الوادى للبحث عنه، وكانوا يبلغون العشرة أو الاثنى عشر شخصاً فذهب دخيل الله القاضى للتفاهم معهم ولكن دون جدوى. فلما شعر بشير بأنهم مصممون على أخذه، انبطح هو وسالم شوقى أفندى والتابع الحجازى، واتخذوا موقعًا يستطيعون منه إطلاق رصاص بنادقهم التى كانت من نوع (الموزر) الحديث على العربان دون أن يتمكن هؤلاء من إصابتهم إذا أطلقوا عليهم نادقهم التى كانت كذلك من النوع اليونانى القديم،

وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص، فقتل من العدو اثنان وفر الباقون بعد ضرب استمر حوالى الثلاثين دقيقة، فصاح فى البشير وجماعته أحد الشيوخ الذين صحبوهم مع دخيل الله القاضى، وهو الشيخ سلمان من عشيرة جهينة: "انهزموا يا عرب، انهزموا" يريد بذلك أن يقول: أسرعوا واهربوا. وبالفعل ركب الجماعة الهجن، ونزلوا إلى الوادى، وعجز أعداؤهم عن اللحاق بهم، حيث بقى فريق من جماعة بشير السعداوى يحمون ظهورهم بإطلاق الرصاص فى الجو لتخويف العدو.

وواصل البشير وجماعته السير ركضاً على الهجين النهار بطوله دون توقف ودون مأكّل أو مشرب، حتى إذا جاء الليل (ليل ٢ أغسطس) احتموا فى مكان خفيف إلى فجر اليوم التالى (٣ أغسطس) فاستأنفوا السير فى منطقة جبلية قبل أن ينفرج الطريق أمامهم فى سهل منبسط يصلون منه إلى محطة (بواط) - التى سبق أن عرفنا أنها على خط السكة الحديد - فلما كان بعد ظهر اليوم نفسه وصل الجماعة إلى مسافة قريبة من محطة السكة الحديد وانتعشت آمالهم فى النجاة بعد كل هذه المتاعب والأخطار عندما سمعوا ضجة قطار يمر على السكة الحديد. ولكن سرعان ما فاجأهم الترك بمجرد أن ظهرت لهم أشباحهم على الخط بإلقاء القنابل عليهم يجسّونهم من الثوار العرب. ولم يكن للجماعة بد من الاعتماد على رحمة الله بهم فى النجاة من هذا الوابل الذى لم يكونوا يتوقعونه، لا سيما وقد كانوا فى سهل مكشوف، ولا وسيلة للاحتماء من الضرب التصل عليهم. وظلّوا يصيحون ويشيرون بأيديهم وملابسهم حتى نجحوا بعد لآى وعناء فى استرعاء نظر الترك لوقف الضرب بعد أن تبين لهم أن لا خطر من الاستماع لما يريد أن يقوله هذا العدد القليل من العدو الذين لاحظوا أنهم كانوا حقيقة فى حالة يرثى لها. وعلى ذلك فقد تمكّن بشير السعداوى من إرسال من يشرح لهم الموقف، فسمحوا لهم بالتقدم، ودخلوا (بواط).

ولما وصلوا إلى المركز طلب قائد المحطة - وهو عثمانى - أن يدخل لمقابلته القائمقام - قائمقام ينبع البحر - فقط. فدخل بشير السعداوى، وكانت دهشة القائد عظيمة، ولم يشأ أن يصدق أن قائمقام يأتي إليه عارى الرأس حافى القدمين أشعث أغبر. واتصل بشير السعداوى بوالى المدينة بصرى باشا الذى أذن له بالمجئ إلى المدينة المنورة، فترك بشير إخوانه فى (بواط) ولم يصحب معه غير سالم شوقى وتابعه، وركب السكة الحديد من (بواط) إلى المدينة المنورة.

٦ - مغادرة الحجاز

ولقد استقبل بصرى باشا فى المدينة المنورة بشير السعداوى فور وصوله، وهو فى نفس الحال التى يرثى لها، وبينما يشرح له بشير الموقف فى ينبع البحر، إذا بفخرى باشا - الذى ذكرنا أن جمال باشا أوفده إلى المدينة المنورة عقب مغادرة الشريف فيصل لدمشق فى مايو ١٩١٦ - يحضر لزيارة بصرى باشا فيقدم له هذا الأخير بشير السعداوى، قائمقام ينبع البحر، ودهش فخرى باشا لقصة نجاة بشير السعداوى: واستمر يصغى لتفاصيل هرب القائمقام واجتيازه المسافة بين ينبع البحر وبواط سالماً. ثم عاد فخرى باشا غلى مقر قيادته - وكان قد اختار التكية المصرية فى المدينة المنورة لهذا الغرض - وقصد بشير السعداوى بعد انتهاء المقابلة إلى منزل أحد أصدقائه (خليل الحوار) الذى نزل ضيفاً عنده.

ولكن ما كاد بشير السعداوى يصل إلى بيت (خليل الحوار) حتى وجد فى انتظاره أحد الجنود من قبل فخرى باشا لسؤال بشير السعداوى أن يذهب لمقابلة الباشا فوراً، ودون إمهاله ليستبدل ثياباً نظيفة بثيابه الرثة. وأبدى فخرى باشا مرة أخرى دهشته من أن يستطيع قائمقام ينبع البحر الخروج من البلدة التى ضرب عليها الحصار الشديد من جهتي البر والبحر، وأطلقت عليها - لاحتلالها - قوات العدو الكثيرة. وذلك "مأزق" لا يتسنى للمرء - كما قال

فخرى باشا - أن ينجو منه بسهولة. فكان جواب بشير السعداوى أن الذى أعانه على الخروج من ينبع البحر والنجاة من هذا "المأزق" أن الأهلين يكون له الحب، وأن "البادية" معه. ثم اسطرد قائلا: إنه إنما جاء إلى المدينة المنورة كى يعمل بفضل معاونة "البادية" له على استرجاع ينبع البحر والعودة إلى مقره مرة أخرى. فأظهر فخرى باشا ارتياحه فى أن للسعداوى نفوذاً على أهل البادية، وسأله إذا كان يستطيع فعلاً استقدام بعض المشايخ من هذه الناحية لمقابلة (أى مقابلة فخرى باشا). فوعد بشير السعداوى أن يستقدم لمقابلته مشايخ جهيئة جميعهم.

وأرسل بشير السعداوى إلى الشيخ دخيل الله القاضى وسائر أصدقائه، أن يجمعوا مشايخ جهيئة ويأتوا بهم إلى المدينة المنورة، فلم يمض أسبوعان حتى كان قد جاء إلى المدينة (فى أواخر أغسطس سنة ١٩١٦) ما يزيد على المائة شيخ؛ راكبين على السهجين. فأخذهم بشير السعداوى إلى بصرى باشا على اعتبار أنه رئيسه المباشر، ولكن هذا لم يشأ التدخل وطلب من السعداوى أن يذهب بهم إلى فخرى باشا وإلى الشريف على حيدر الذى كان قد تعين لشرافة مكة وقتئذ فى ظروف سيأتى ذكرها. فلم صحب السعداوى منهم وفداً اختاره لمقابلة فخرى باشا، ورأى هذا الأخير بعينى رأسه الدليل على لصدق قائم مقام ينبع البحر فيما ذهب إليه من أن أهل البادية معه، لم يستطع كتمان شعوره، فأخذ البشير إلى حجرة مجاورة، وانكب يعانقه ويقول فى تأثر بالغ: سامحنى الله، لقد ظننتك جتى هذه اللحزة جاسوساً، ولم أصدق روايتك، ولكن الآن زهر لى خطئى، وتأكد لى صدقك وإخلاصك.

وألم بشير السعداوى أن يشك إنسان فى إخلاصه وولائه للدولة، وهو الذى تحول إسلاميته دون الخروج على طاعة الخليفة. وكان عذر فخرى باشا فى الشكوك التى ساورته أنه - كما قال - عسكرى، وتوجب عليه الحيلة والحذر التشكك فى كل ما يرى ويسمع حتى يحسم سيف البرهان الساطع هذه الشكوك.

وأمر فخرى باشا بإكرام المشايخ، وإعطائهم الهدايا والعطايا، واستبقى منهم جماعة - ربما اثني عشر شيخاً أو عشرة فقط - "للاستشارة". وكان من هؤلاء الشيخ دخيل الله القاضي. وقبل سفرهم إلى مظاعنهم، اصطحبهم بشير السعداوى لمقابلة الشريف على حيدر.

والشريف على حيدر - كما سبقت الإشارة إليه - من ذوى زيد الذين انتقلت من بيتهم الشرافة - الإمارة على مكة المكرمة - نهائياً منذ عام ١٨٨٢، إلى ذوى عون. وكان لعبد المطلب آخر أمراء مكة من ذوى زيد والذي تسلم الشرافة من بعده عون الرفيق ابن هو الشريف على جابر، أنجب الشريف على حيدر فى سنة ١٨٦٦ فى استانبول، وفى حادثته زار على حيدر مكة زيارة قصيرة، ولكنه نشأ وترعرع فى استانبول، التى صارت منفى للمدعى الشرافة من ذوى زيد طالما بقى عون الرفيق أميراً على مكة المكرمة: وقد سبق أن ذكرنا ما وقع من حوادث متصلة بالشرافة بعد وفاة عون الرفيق فى سنة ١٩٠٥، إلى أن اختار الاتحاديون لإمارة مكة الشريف حسين بن على سنة ١٩٠٩، وكان الشريف على حيدر قد نافسه على هذا المنصب، ولكن دون طائل، للأسباب التى سبق أن ذكرناها.

ولكن آمال على حيدر لم تلبث أن انتعشت عندما أعلن الشريف حسين الثورة فى الحجاز على الدولة فى أوائل يونيه ١٩١٦. وصار بهم الاتحاديين (طلعت وأنور) للقضاء على حركة الحسين وبذر بذور التفرقة بين صفوف الحجازيين أن يقيموا شرافة منافسة لشرافة الحسين بن على. وكان طبعياً أن يقع اختيارهم على الشريف على حيدر، فحصلوا له على إرادة سنية بتعيينه أميراً على مكة المكرمة. وفى ٢٩ شعبان ١٣٣٤ وأول يولييه ١٩١٦، قابل الخليفة العثمانى محمد رشاد ليتلقى منه الأمر الشاهانى شفوياً بحضور الصدر الأعظم البرنس سعيد حلیم باشا وبحضور أنور باشا، وعندما ذهب إلى الباب العالى، قرئ هناك الخط الهمايونى القاضى بتعيينه فى منصب الإمارة ومنحه

رتبة الوزارة. ويحمل لهذا الخط الهمانوني ٣٠ شعبان ١٣٣٤ و ٢٨ حزيران ١٣٣٢ رومية (أى ٢ يوليه ١٩١٦) تاريخًا لصدوره وهو بتوقيع السلطان. وقد جاء فيه: "حسب الإيجاب وبناء على وقوع انفصال الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة ولتأمين وظيفة خدمة الحرمين الشريفين، هذه الوظيفة المقدسة التى هى أسمى الوظائف الأساسية لدينا، قد وجهنا إمارة مكة المكرمة مع رتبة الوزارة السامية إلى عهده الشريف على حيدر بك الوكيل الأول لرياسة مجلس الأعيان، وذلك لما توفر فيه من اللياقة والكمال الذاتى واتصافه بحسن السلوك والسيرة والتجارب وكفايته لهذه الوظيفة المقدسة. وقد أرسلنا بأمرنا هذا إلى بابنا العالى. نسأل الله سبحانه وتعالى متوسلين بالمصطفى ﷺ أن يكون التوفيق لنا رائدًا فى كل زمان آمين".

ويقول كاتب سيرته (جورج ستيت) George Stitt إن الشريف على حيدر قد غادر استانبول "فى احتفال فخم" قاصدًا إلى المدينة المنورة فى ١٥ يونيه ١٩١٦، وهو تاريخ مغلوط - كما هو واضح - ويبدو أن السبب فى ذلك عدم وقوف (جورج ستيت) على وثيقة (الخط الهمايونى) التى نشرناها، والتى صدرت - كما رأينا - فى ٢ يوليه، ولو أن الخط الهمايونى نفسه قد قرئ فى الباب العالى يوم أول يوليه، ويذكر العارفون التفاصيل تعيين الشريف على حيدر لإمارة مكة المكرمة، أن الاتحاديين أعطوه مبلغًا عظيمًا من المال، حوالى "نصف مليون ليرة ذهب، وبعض الهدايا لصرفها عن المخصصات المنشورة لاستمالة القبائل" حيث كان الغرض من إيفاده إلى المدينة المنورة - كما ألعنا - "استمالة العشائر والقبائل إلى جانب تركيا، فيعاون هؤلاء حامية الدولة العثمانية المرابطة فى المدينة ليخدموا الثورة العربية، ويستأصلوا الشريف حسين باشا".

وقد وصل على حيدر إلى دمشق بالسكة الحديدية بعد أربعة أيام من مغادرته استانبول ثم أمضى العيد الصغير - على حد قوله - فى دمشق.

ويوافق أول أيام العيد ٢ أغسطس ١٩١٦، ثم استأنف السير بسكة حديد الحجاز إلى المدينة المنورة، فبلغها - قطعاً - بعد يوم ٢ أغسطس.

ولم يوفق على حيدر في المهمة التي أرسل إلى المدينة المنورة من أجلها. ولذلك أسباب عدة، لعل أهمها - كما يذكر كاتب سيرته والذي يعطف عليه دائماً - أن على حيدر لم يلبث أن رأى نفسه عند وصوله إلى المدينة ولا حول ولا طول له. فلا القائد العسكري فخرى باشا ولا محافظ المدينة المنورة بصرى باشا، ولا جمال باشا نفسه في دمشق، يريدون أن ينفذوا شيئاً من المشاريع التي اقترحها عليهم لمواجهة الثورة، لا كان في وسع جمال باشا أو من رأيه أن يبعث بالإمدادات الكافية من الرجال والسلاح والذخائر إلى المدينة التي سرعان ما استطاع الثوار العرب أن يضربوا نطاً من الحصار عليها، ولعل من أهم أسباب إخفائه في مهمته كذلك، أن على حيدر - على نحو ما يأخذه عليه الذين عاصروا هذه الحوادث وأرخوا لها - لم يشأ أن ينفق من المال الذي أعطى له شيئاً في ائتمالة القبائل بل ائتموه بأنه "أخذ يتاجر" (بهذه الأموال) بشراء الأوراق النقدية وبيعها "وكل ما فعله أنه "اكتفى بنشر منشور أذاعه على أطل الحجاز في أوائل شهر أيلول (سبتمبر) ١٩١٦، وهكذا لو أن الشريف على حيدر قد أنفق من "ذلك الأصفى الذي خزن منه نصف مليون في مخزنه الخاص" لكان من المحتمل كثيراً أن ينجح في غرضه.

ومع ذلك فإن بشير السعداوى عندما ذهب لمقابلته مع الشيوخ الذين استقدمهم إلى المدينة المنورة حسب رغبة فخرى باشا، ما كان يعرف عن الشريف على حيدر أكثر مما يعرفه سواد الناس في الحجاز وقتئذ، من أنه أمير مكة الذي عينته الدولة بعد انشقاق الحسين بن على، وعقدت عليه الآمال في استمالة القبائل إلى التخلي عن الحسين بن على ومؤازرة الدولة. وكان بشير السعداوى يتوقع - وتلك أهمية هذه الشرافة الجديدة - أن يلقي رجلاً من أفاضال الرجال. ولكن كانت دهشته عظيمة عندما طلب إليه على حيدر بعد

انقضااض الجمع، أن يعود وحده لزيارته فى الغد ليتحدث إليه فى موضوع خطير. ثم اتضح عندما ذهب إليه بشير السعداوى فى الغد، أن هذه المهمة الخطيرة، هى أن يكلف بشير السعداوى جماعة من البدو - وقد اقتنع على حيدر أن له نفوذاً بينهم - باختطاف الشريف فيصل وإحضاره إليه. وحاول بشير السعداوى أن يبين للشريف على حيدر استحالة هذا العمل، ولكن دون جدوى. وأصر على حيدر على أن يقوم بشير السعداوى بتنفيذ هذه المهمة. ويقول السعداوى: إنه شعر بالأسى يملأ قلبه، عندما خطر فى ذهنه أن الدولة لن تبلغ مقصدها على يد مثل هذا الشريف الذى خيل إليه أن اختطاف (فيصل) أحد الدعامات التى تقوم عليها الثورة، من السهولة بحيث يستطيع بشير السعداوى تدبيره، بينما قد جندت الدولة جيشها، وأوفدت قائداً كبيراً من قوادها المشهورين هو فخرى باشا، لمحاربة الحسين وأبنائه، ثم رأت ضرورياً كذلك أن تعين الشريف على حيدر نفسه أميراً على مكة وتبعث به إلى المدينة المنورة.

فلو أن الأمر كان بالسهولة التى تخيلها الشريف على حيدر لما كان هناك ما يدعو لكل هذه الجهود التى تبذلها الدولة، ولا كتفت بجهد قائم مقام ينبع البحر وحده! وخرج بشير السعداوى من عند الشريف على حيدر مكتئباً. ثم رجع إليه بعد أيام ليبلغه أنه لم يعثر على أحد يرضى القيام بهذه المحاولة.

ولقد بقى الشريف على حيدر بالمدينة المنورة يختلف مع فخرى باشا تارة ويتفق معه تارة أخرى. وتتحد كلمتهما على كل الأحوال فى وجوب التمسك بالمدينة المنورة والدفاع عنها إلى النهاية، حتى أبرق إليه أنور باشا بأن يغادر المدينة إلى دمشق، فترك المدينة المنورة فى أوائل شهر مايو ١٩١٧، لقيم فى دمشق بضعة شهور، يقصد بعدها إلى لبنان للإقامة فى عالية، فبقى بها إلى أن غادرها إلى استانبول فى سبتمبر ١٩١٨.

ووجد بشير السعداوى منفذاً لنشاطه، بعد قليل من وصوله إلى المدينة

المنورة، عندما تعين بصرى باشا محافظاً للسواحل، علاوة على محافظة المدينة، فامتدت ولايته من الأوملج أو الينبع إلى العقبة. وذلك أن بصرى باشا لم يلبث أن اعتزم القيام برحلة "ساحلية" بعد هذا التعيين، وأراد أن يصحبه فى هذه الرحلة بشير السعداوى وأصدقائه: دخيل الله القاضى والمشايخ الذين بقوا معه. وخرج فى هذه الرحلة كذلك سالم شوقى، وكانت "الحملة" تتألف من ألف من العسكر الهجانة بقيادة قائد الدرك أحمد وفاق، وهو تركى. وقد خرجوا من المدينة المنورة قاصدين إلى (الوجه)، فنزلوا فى مكان قريب من (الوجه)، بقوا به مدة طويلة قبل أن يدخلوا المكان الذى كانلا يزال فى أيدي العثمانيين ثم قفلوا راجعين إلى المدينة فى نوفمبر ١٩١٦، وقد استغرقت هذه الرحلة الثلاثة شهور. واستعد دخيل الله القاضى والشيخو الذين معه للعودة إلى مظاعنهم. ورأى بشير السعداوى أن تكافئهم "الحكومة" على خدماتهم. واقترح بصرى باشا - وكان معروفاً بالتقدير - أن يعطى كل واحد منهم عشرة جنيهات. فغضب بشير السعداوى لضآلة هذه الهبة وصار يشتد فى مناقشة لبصرى باشا، حتى أن أحمد توفيق وهو جالس معهما، أخذ يركل البشير بقدمه خفية حتى يكبح جماح نفسه. وغادر بشير السعداوى المكان وهو حائق، فلحق به أحمد وفاق ينصحه: بأن لا يكون رجلاً "مغفلاً" يسعى لإغضاب رئيسه منه من أجل حفنة من البدو لا قيمة - فى نظره - لهم. فصاح فيه بشير السعداوى: إن الدولة التى تستخدمك أنت "قومنداناًط - أى رئيساً عسكرياً - محال أن يكون النجاح حليفها. فلم يغضب أحمد وفاق ولم يتأثر، بل صار يسأل البشير: هل هو وزير الحربية أو وزير الخارجية أو وزير المالية؟ حتى يعد نفسه مسؤولاً عن مصير الدولة. إن هو إلا قائمقام بسيط لا أكثر، لا موطن له حيث قد ضاعت بلاده واستولى عليها الطليان. ومن صالحه أن يتجنب إثارة الخصومة مع رئيسه، وأن لا يفعل ما يستوجب غضبه منه. وغنى عن البيان أن هذه "النصيحة" لم تهدئ شيئاً من سورة بشير السعداوى، هذا من جهة، بينما هى قد زادت تشيئاً بعقيدته

التي آمن بها دائماً، من حيث الإخلاص في العمل وفي الإرشاد والتوجيه في أي ميدان يقدر للمرء أن يتحمل مسئولية العمل فيه، صغرت هذه المسئولية أو كانت جسيمة.

ومع ذلك فإن بصرى باشا لم يلبث بعد هذه المشادة أن جاء بنفسه إلى بشير السعداوى يحمل كيساً يحوى ألفين من الجنيهات، وضعه أمام بشير السعداوى وهو يقول: إليك هذا المبلغ الكبير، لك أن تفعل به ما تشاء "واخرب بيت الدولة" كما تريد. ولكنك عليك أنت وحدك أن تقدم حساباً عن هذا المبلغ، فوزع بشير السعداوى المال على المشايخ فأخذ كل منهم القدر الذي يتفق مع مكانته. ورفض بصرى باشا أن يوقع على الحساب بعد توزيع المبلغ، حتى يتحمل البشير كل المسئولية وحده، وهي المسئولية التي رحب بها بشير السعداوى ما دام قد استطاع إرضاء المشايخ الذين غادروا المدينة بعد ذلك.

وكان بعد هذه الحوادث بقليل وفي أوائل ديسمبر ١٩١٦، أن استطاع الشيخ أحمد البلوى أحد قواد جيش الشريف فيصل، أن يقطع المواصلات بين (العلا) و (الوجه). ومما يحذر ذكره، أن الجيوش "الثوار" بقيادة فيصل وعبد الله، كانت تتزايد قوتها المعنوية والمادية كلما طال أمد القتال. وقد عجز الأتراك في المدينة المنورة عن القيام بعمليات عسكرية ناجحة سواء للاستيلاء على مكة أو لاسترجاع ينبع البحر بالرغم من الانتصارات "الوقتية" التي كان ينالها فخرى باشا في اشتباكات مع جيش فيصل خصوصاً، منذ سبتمبر ١٩١٦، حتى صار بعض الضباط "الترك" في المواقع التي لم تسقط بعد في أيدي العرب يوجسون خيفة من قرب انهيار المقاومة العثمانية بأسرع مما تتوقع القيادة العامة في المدينة المنورة أو في دمشق. وكان من هؤلاء الذين توقعوا قرب النهاية قائمقام الوجه الذي انتهز فرصة وجود بصرى باشا في زيارته التي ذكرناها وأراد أن يأذن بنقله إلى القدس - مسقط رأسه - وأن يحل بشير

السعداوى محله. ولكن بشيراً رفض أن يترك مكان العمليات الرئيسية (المدينة المنورة) وفي ٢٥ يناير ١٩١٧ دخل فيصل و (لورنس) - أو "لورنس العرب" T. Lawrence صاحب الشهرة المزيفة - الوجه.

وطلب جمال باشا بصرى باشا وبشير السعداوى إلى الشام، لبحث الموقف في الحجاز ما يلزم من إمدادات الجند والسلاح والذخيرة. فغادر المدينة المنورة إلى دمشق. وكان في دمشق أن التقى بشير السعداوى بالترجمان الهندى الذى صحب بعثة البارون فون ستوتزينغن - التى سبق ذكرها - فى ينبع البحر. فأبلغه رغبة القنصلية الألمانية فى مقابلته فلم يشأ بشير الذهاب قبل أن يسأل رأى المسؤولين حتى لا تثار الشكوك حول زيارته، ولو أن الألمان حلفاء الدولة العثمانية. وكان غرض هؤلاء - كما عرف بشير السعداوى من الترجمان الهندى - أن يشكروه على تصرفه الطيب مع البعثة الألمانية فى ينبع البحر ومعاونته على نجاتها قبل قيام الثورة. فسأل بشير السعداوى رأى أحد المسؤولين، عزيز بك الكردى وهو أصلاً من رفاق أنور باشا، فأشار هذا بالذهاب إلى جمال باشا لاستثذانه، لا سيما وأن جمال باشا - كما قال - يريد على كل حال مقابلة بشير السعداوى فذهب الاثنان إلى جمال باشا الذى ابتدر السعداوى بسؤاله: كيف تسنى له أن يسلم ينبع البحر؟ فلم يسع بشير السعداوى إلا أن يجيب: إنى لم أسلم ينبع، ولو كنتم زودتمونى بالإمدادات التى طلبتها لاستطعت الدفاع عنها، وليست المسئولية مسئوليتى. وتوقع بشير السعداوى أن يناقشه جمال باشا فيما قاله. ولكنه بدلاً من ذلك. انتقل الباشا إلى الموضوع الذى أراد مقابلة السعداوى من أجله، وهو تكليف هذا الأخير بمهمة خاصة، لم يشأ أن يذكر له عنها شيئاً، ولكنه قال: سأبعث بك إلى مكان، ليس الموت نفسه شقيقاً فى عدم الوصول إليه وتأدية المهمة المكلف أنت بها فى هذا المكان. ثم استطرد جمال باشا يقول: إنه مسافر فى هذين اليومين إلى استانبول وعلى بشير السعداوى أن يتهياً من الآن لرحلة طويلة سوف يبدؤها عقب عودة جمال باشا مباشرة. وانتهت المقابلة. واستطاع بشير

السعداوى أن يعرف من عزيز بك الكردي أن المهمة المكلف بها هى حمل مبلغ من المال لإيصاله بطريق (نجد) إلى القوات العثمانية بقيادة على سعيد باشا فى اليمن. وتلك مهمة خطيرة، فلما ينجو منها إنسان. فالأسطول الإنجليزى يضرب الحصار من البحر على اليمن، ويسد الطريق عسكر الحسين بن على من جهة الحجاز، وكان الطريق الذى يمكن أن يسلكه الرسل هو طريق نجد، أو وسط الجزيرة. ولقد أقام حاكم نجد عبد العزيز آل سعود فى ذلك الوقت على الحياد فلم يحارب الحسين كما أراد الترك، ولم يشترك فى محاربة الترك فى العراق كما أراد الإنجليز، ولم يكن يمنع رسل الدولة من المرور بنجد وهم حاملون المال إلى إخوانهم الأتراك فى اليمن ولكن أحد الضباط العثمانيين كان قد أوفد فى هذه المهمة أخيراً، فسلبه البدو الأموال التى معه. ونجا من القتل بصعوبة، ولجأ إلى (عبد العزيز) فأجاروه وأرجعه سالمًا. وحاول العثمانيون إرسال بعض المال إلى اليمن عن طريق الحجاز، فعهدوا بهذه المهمة إلى أحد ضباطهم أسرف بك، الذى خرج من استانبول لهذه الغاية. وكانت "عصابتة" تتألف من حوالى خمسة وعشرين ضابطًا وجنديًا غير رئيسها، وتحمل من الليرات الذهب العثمانية حوالى العشرين أو الخمسة والعشرين ألفًا، وتحمل كذلك شيئًا كثيرًا من العتاد، ولكن جيش الشريف عبد الله بن الحسين، وزحفه نحو شرق المدينة المنورة لتهديد جيش فخرى باشا الزاحف على ينبع البحر لتأديب الثوار الملتفين حول الشريف على وفيصل لم يلبث أن التقى بهذه العصابة بعد أن عرف مكانها من أحد أفرادها الذى وقع مصادفة فى أسر الشريف عبد الله. فدارت معركة شديدة بين الجانبين انتهت بانهزام أشرف بك و "عصابتة" ووقوعهم فى الأسر، واستيلاء الثوار العرب على الأموال والعتاد الذى معهم، وكان ذلك فى ١٣ يناير ١٩١٧. ولقد كان بعد هذا الحادث أن قرر الأتراك إرسال إمدادات جديدة إلى اليمن عن طريق نجد، ووقع اختيار جمال باشا على بشير السعداوى للقيام بهذه المهمة.

ويعترف بشير السعداوى أنه شعر بالخوف عندما عرف من عزيز الكردي المهمة التي يريد جمال باشا أن يكلفه بها. وعلى ذلك فإنه بدلا من انتظار أوبة جمال باشا من استانبول يادر بالعودة إلى المدينة المنورة، حتى يوسط بصرى باشا فى الأمر. وبصرى باشا رئيسه المباشر، ولكن هذا رفض أن يتدخل فى شىء، وكانت حجته أن جمال باشا رجل لا يخاف الله ومن لا يخاف الله يجب على المرء أن يخشاه. وعندئذ قصد بشير السعداوى إلى فخرى باشا يرجو وساطته، فأرسل هذا إلى جمال باشا أنه يريد أن يظل معه بالمدينة المنورة بشير السعداوى، ويرجوه أن يعفيه من المهمة التي يريد تكليفه بها. وبقي بشير السعداوى بالمدينة المنورة. وكان آخر المعارك التي التحمت فيها قوات فخرى باشا بجيش الشريف على فى أثناء وجود بشير السعداوى بالمدينة المنورة، عند (أبى وهيبة) و (بيار على) فى ديسمبر ١٩١٧.

ولما كانت جيوش على وعبد الله قد بدأت تحاول محاصرة المدينة المنورة، ويلقى العثمانيون صعوبات كثيرة فى تموين المدينة من دمشق، ورأت القيادة أن تعالج المشكلة بإنقاص عدد السكان بها. ولما كان بصرى باشا متوليا لقيادة فى منطقة العلا، لم يعد هناك حيثئذ يستوجب بقاء بشير السعداوى بالمدينة المنورة. فأذن فخرى باشا بالذهاب إلى دمشق مقر القيادة الرئيسى.

٧ - قائم مقام جزيين (فى لبنان)

ولم يطل مكث بشير السعداوى بدمشق حتى دعاه حسن تحسين بك وإلى دمشق لمقابلته ليلغى أن متصرف جبل لبنان، إسماعيل حقى بك. يريده أن يعمل معه، وكان إسماعيل بك يعتزم تعيين بشير السعداوى (مدير تحريريات) بمتصرفية الجبل. ولكن القائم مقام السابق لينبج البحر رفض أن يشغل منصباً أقل مما كان يشغله، وأبدى استعدادة للعمل مع إسماعيل حقيق إذا شاء هذا أن يعينه قائم مقام فى متصرفية الجبل. ونقل إلى دمشق جواب بشير السعداوى إلى إسماعيل حقى بك. ولما كان هذا يعمل على إنشاء إدارة طيبة

فى الجبل على أنقاض الإدارة السيئة السابقة، فقد حرص على أن يكون بشير السعداوى معه، فصدرت الإدارة الملكية بتعيينه قائمقام لقضاء جزين فى متصرفية جبل لبنان فى حوالى يناير ١٩١٨.

وكانت أحداث كبيرة قد مرت بجبل لبنان منذ نشوب الحرب، أهمها إلغاء امتيازات لبنان التى كان يتمتع بها منذ (بروتوكول سنة ١٨٦٤) واعتبرته الدولة كسائر الولايات العثمانية، فكان أوهانس قيومجيان باشا الذى اعتزل منصبه فى يونيه ١٩١٥. "فكانت به خاتمة متصرفى لبنان المستقلين" حسب النظام المعمول به منذ ١٨٦٠. وخلفه (على منيف) وهو من جماعة الاتحاد والترقى. ولكن شهد معاصروه أنه كان رجلاً "طيباً"، استطاع جبل لبنان فى عهده الذى امتد من أغسطس ١٩١٥ إلى فبراير ١٩١٧، أن يتذوق شيئاً من الهدوء النسبى القائم على قدر من العدالة والتسامح، ولو أن على منيف بك - على حد قول (مرجريت ما كجيلفاوى) McGilvary وهى أمريكية عاصرت هذه الحوادث فى بيروت وكتب عنها بعد ذلك - ما كان يمكنه فعل شيء لتخفيف ويلات اللبنانيين أمام إصرار جمال باشا صاحب السلطة العليا فى كل بلاد الشام. ووالى بيروت عزمى بك - وولاية بيروت غير متصرفية الجبل كما هو معروف - على إجماعة لبنان. وكان أقصى ما يشكو منه اللبنانيون فى ذلك الحين هو انتشار المجاعة فى بلادهم، وذلك منذ أن بدأت الحكومة بعد اشتعال الحرب؛ تطلب (الإعانات) من اللبنانيين، وغزو أرجال الجراد للجبل فى غضون ١٩١٥، وانتشر (التيفوس) فى العام التالى؛ وكان شتاء ١٩١٦ - ١٩١٧، أسوأ ما شهدته سوريا. وزاد سوءاً شتاء العام التالى - أى فى الوقت الذى جاء فيه بشير السعداوى إلى جبل لبنان. فكانت (مطابخ الحساء) فى بيروت وغيرها من المدن لا تكاد تكفى لتغذية جزء من الفقراء اللاجئين إلى الساحل من الدواخل. بينما كانت شوارع (عالية) مثلاً القرية من مقر المتصرفية (بعبدًا) مكدسة بجث الموتى من الجوع والبرد. ويقدر (جورج حداد) عدد ضحايا المجاعة فى لبنان. نتيجة - على وجه الخصوص -

"للحصار الذي ضربه الأتراك عليه" وفي رأى آخرين بسبب أن الإنجليز كذلك قد أوقفوا فى يناير ١٩١٧ بالإسكندرية باخرة كانت تحمل الإمدادات لإغاثة النكويين، بعث بها المهاجرون اللبنانيون فى أمريكا لنجدة مواطنيهم - نقول إن عدد هؤلاء الضحايا قد قدر بمائة وخمسين ألف نسمة.

وفى ١٥ مايو ١٩١٧ تعين إسماعيل حقيق متصرفاً للجبل خلقاً لعلى منيف. وإسماعيل حقى شيعى، كان أحد أعضاء مجلس الأعيان (العثمانى)؛ ومن رجال الدولة المعروفين من أيام السلطان عبد الحميد، كان مستشاراً - أو باشكاتباً - عند الغازى. محتار باشا القومسيير العثمانى فى مصر، وعرف غبطة البطريرك مار إلياس الحويك، بطريرك الطائفة المارونية عند زيارته استانبول فى سنة ١٩٠٥. وانتظر كثيرون أن تتحسن الأحوال فى الجبل على يديه. بالفعل شهد اللبنانيون فى حقه شهادة طيبة. من ذلك ما ذكره عنه الدكتور يوسف مزهر فى كتابه عن (تاريخ لبنان العام) من أنه قد أظهر "حناناً غريباً نحو اللبنانيون، وسكت عن أمور كثيرة كان يعرفها عن الاتصال بالفرنسيين فى جزيرة أرواد واستلام المساعدات التى كانت تأتى من المهاجرين"، إلى أن قال: "إن هذا الباشا الشهم (ويقصد إسماعيل حقى) قد أظهر عطفه على لبنان ما يظهره كل لبنانى صميم، وكانت بينه وبين البطريرك مودة عظيمة". وهو الذى كلف جماعة من أفضل وأقدر الكتاب اللبنانيين بوضع تاريخ لبنان، فظهر هذا الكتاب تحت إشرافه". وقد شهد غير اللبنانيين أن إسماعيل حقى كان عادلاً، وأنه "لم يخش التجديد فى إدارته"، بل شجن نفرًا من الموظفين الذين ساءت سمعتهم" وأراد أن يستبدل بهم غيرهم من الذين كان يجب فى نظره أن تتوفر فيهم صفات أساسية لاغنى عنها حتى يستقيم تصريف الأمور فى وقت اشتدت فيه - كما رأينا - محنة لبنان أثناء الحرب بسبب انتشار المجاعة والأوبئة، للظروف التى ذكرناها. أما هذه الشروط فكانت النزاهة والتسامح والشعور بالعطف والشفقة على الأقوام الذين تسيطر عليهم حكومة المتصرفية فى الجبل، وكان بعد حوالى ستة شهور

من تعيينه متصرفاً للجبيل، أن جرت تلك المخابرات التي أشرنا إليها بين إسماعيل حقي، وحسن تحسين بك بشأن استخدام بشير السعداوى قائمقام لقضاء جزين.

وقابل بشير السعداوى فى (بعدا)، إسماعيل حقي، قبل أن يذهب لمقر قائمقاميته، حتى يسمع منه "توجيهات" الحكومة بشأن سياستها فى الجبل. ووجد بشير السعداوى أن هذه "التوجيهات" مطابقة لما ترضاه نفسه، ولما قامت عليه دائماً العلاقات بينه وبين أهل الجهات التى عهد إليه بالحكم فيها، من حيث تبادل الود والمحبة والثقة والتعاون على ما فيه خير المجتمع بينه وبينهم. ذلك أن إسماعيل حقي ذكر فى هذه المقابلة أن غرض الدولة استمالة صوت الجبل إلى جانبها عندما "يجلس السياسيون على مائدة الصلح"، يبحثون فى شروطه فلا يطلب أهل الجبل الانفصال من الدولة، وأما ضمان هذا "الربح" - على حد قول إسماعيل حقي - فلا يتأتى إلا باتاع سياسة العدل وإنصاف الأهلىن، ومراعاة شعورهم:

وكان بشير السعداوى أول قائمقام مسلم يعين فى قضاء جزين، حيث كان الحكام فى هذا الإقليم، قبل إلغاء امتيازات الجبل - فى أثناء هذه الحرب العظمى (الأولى) من المسيحيين المارونيين كأهله، وكان طبيعياً أن ينظر أهل جزين فى أول الأمر إلى بشير السعداوى بشىء من الحذر المشوب بالخوف. ولكن سرعان ما اطمأنت نفوسهم إليه زایلهم "الخوف" منه بعد أيام قليلة من وصوله. عندما مرت جزين بأول "تجربة إدارية" فى عهد هذا القائمقام "المسلم". كشفت عن إنسانية هذا الحاكم الجددى، وشعوره الحقيقى نحوهم وعطفه الصحيح عليهم. وكانت التجربة متعلقة بتموين جيش جمال باشا ونصيب قضاء جزين من هذا التموين الذى كانت تصدر من أجله فى كل أنحاء البلاد محاصيلها الزراعية والحيوانية "ليشتريها الجيش بالأثمان التى يحددها لها".

فقد طلبت القيادة العامة للجيش الرابع من بشير السعداوى أن "يشترى" نصف المحصول فى قضاء جزين، من الزيت، والزيتون والتين و (الدبس) للجيش وتركت له حرية التصرف فى جمع هذه المطلوبات وتقدير قيمة نصف المحصول. ولم يكن منتظراً أن يسلك بشير السعداوى الطريق الذى كان يسلكه كثيرون من موظفى الدولة "وحكامها" فى هذا الحين عند تكليفهم بمهمة جمع الأرزاق للجيش، وهو المسلك الذى جعل متصرف الجبل إسماعيل حقى، لا يكتفى بعزل فريق منهم بل جعله يحسبهم كذلك، ولم يكن منتظراً علاوة على ذلك، أن يركن بشير السعداوى إلى رأيه وتقديره الشخصى، وهو واثق من نزاهته الشخصية، وعدم انحرافه عن الحق والعدل. وذلك فى مطلب وإن اقتضى الواجب دائماً تلبية لتزويد الجيوش المقاتلة ضد أعداء الدولة بحاجاتها، فإنه متصل كذلك بحياة أقوام لا يزال شبح المجاعة يتهدهدهم. ولابد من إشراك هؤلاء فى "تقدير" النصيب الذى يمكنهم أن يساهموا به فى تموين جيوش الدولة دون تعريض البلاد ذاتها لخطر المجاعة والأوبئة.

وعلى ذلك فقد شكل بشير السعداوى لجنة من الخبراء الزراعيين، لتزويده بالمعلومات الدقيقة عن محصول البلاد، ولتقدير قيمة نصف المحصول تقديراً صحيحاً، وتحديد الأثمان العادلة التى يتقرر شراء المحصول بها. فصارت هذه اللجنة تحصى المحاصيل - من الزيت وخلافه - فى كل قرية، وتعين مقدار المطلوب من كل منها. ثم قدمت قرارها النهائى؛ ولكن بشير السعداوى الذى صار من ناحيته يعمل لإخراج تقدير لنصف المحصول فى ضوء البيانات والمعلومات التى قدمت إليه، وجد أن تقدير اللجنة يزيد زيادة فاحشة عن النصف المطلوب. فجمع عمد القرى (أو مختاريتها) ولقت نظرهم إلى هذه الزيادة المفتعلة، وأن الواجب يقتضيهم مراعاة مصلحة الشعب، وأنه إذا كان يصفح هذه المرة عنهم فسوف يأخذهم بالشدة إذا فعلوا ذلك ثانية، ودهش أهل جزين، ثم رسخ لديهم أن هذا القائم مقام "المسلم" يريد بهم خيراً

عنها صار يتكرر تقدير المحصول فى المرات التالية، التقدير الصحيح،
ويأخذون عنه الأثمان التى يحددونها له .

ثم إن بشير السعداوى، خوفاً من خطر المجاعة، صار لا يكتفى بمراعاة
الدقة فى تقدير المحاصيل - ولم يكن هناك مناص من تلبية مطالب الجيش
دائماً - بل إنه بادر بإبلاغ المسؤولين فى (بعبداء) أن المجاعة تهدد فعلاً قضاء
جزين - ويشمل أكثر من ثلاثين قرية أو بلدة - وطلب من المتصرف إسماعيل
حقى جلب الحبوب من الأقاليم الزراعية المجاورة مثل مرجعيون وحصية
وغيرهما. وقد أجابه المتصرف إلى رغبته، وبعث إليه بائنى عشر ألف ليرة
تركية لهذا الغرض. وشكل بشير السعداوى لجنة برئاسة (فيليب ناصيف) -
وهو من أعيان البلاد - وأشرك معه (سليم المعوينى) وهو من رجال القانون،
وكذلك (فؤاد العزورى) عضو مجلس الإدارة فى المتصرفية. ومهمة هذه
اللجنة استلام الإعانة وصرفها وتوزيعها. ثم سعى بشير السعداوى - إلى
جانب ذلك - إلى إنشاء جمعيات فى كل قرى جزين، أسماها (جمعيات
التعاون والإعاشة)، وغرضه من هذا كله أن يحول دون حدوث مجاعة فى
البلاد، وقد نجح بشير السعداوى فيما أراده.

ومن الأسباب التى ساعدت على هذا النجاح، أن بشير السعداوى لم
يكن من طراز الحكام الذين يقنعون بإصدار الأوامر والتعليمات وهم قابعون
فى دواوينهم، فقد شاهدنا كيف كان كثير الحركة جم النشاط فى كل الأدوار
التي مرت بنا من تاريخ حياته. وفى جزين، فى ظروف الحرب والمجاعة
والمرض وغير ذلك من الويلات التى نزلت بالجبل فى ذلك الحين، لم يكن
منتظراً أن يلزم بشير السعداوى دار القائمقامية، فلا يجوب البلاد ليقف بنفسه
على حال أهلها. وبالفعل لم يفتر لحظة عن زيارة القرى واحدة بعد واحدة،
ومرة أخرى حتى وقت مغادرته جزين.

وقد اصطفى بشير السعداوى صديقاً يرافقه فى جولاته وزياراته هذه

أحد رهبان البلاد هو الخورى بطرس أو كيم . وقد أعجب الخورى بطرس أو طيم إعجاباً شديداً بهذا القائمقام "المسلم" الذى أدهشه منه عطفه القوى على أهل جزين . ولقد حدث فى إحدى جولاتهما - وكانا كما ذكرنا يترافقان دائماً فى زيارة أهل القرى - أن خاطب الخورى بطرس أبو كيم بشير السعداوى فى ذلك الأمر الذى يعتمل فى نفسه؛ فقال "يا فلان أنت رجل مسلم . ونحن نراك تبدى عطفًا قويًا على هذا الشعب المسيحى وتبذل جهودًا جبارة للترقية عنه . وإنى يوأيـم الحق مندهش من هذا . فأجاب البشير : لا سبب للدهشة ، وذلك لأننى مسلم . فالإسلامى يفرض على أن أكون عطوفًا . ودعنى أذكرك بما قاله عمر بن الخطاب الذى هو قدوتنا ، فإنه (رضى الله عنه) كان يتفقد إبل الصدقة ويخرج منها الحشرات وهو يقول : أخاف أن يسألنى ربي عنها . فإذا كان عمر يخرج الحشرات من إبل الصدقة ويخاف أن يسأل عن هذه الإبل ، فهل لا أخاف أنا يومًا أن يسألنى الله سبحانه عن هذا الشعب الذى وليت أمره؟ وكان الذى جعل بشير السعداوى يذكر عمر بن الخطاب أن عمر يحتل - لعدله - مكانة رفيعة فى قلوب مسيحي هذه البلاد .

ذلك إذا كان نوع "الحكومة" الأبوية التى أقامها بشير السعداوى فى جزين . وغنى عن البيان أن صلات المودة والصدقة سرعان ما قد صارت تربط بين هذا القائمقام وأهل قائمقاميته ، وعلى غرار ما حدث عندما قبل ذلك فى (ريزه) وفى (ينبع البحر) . فلم يختلف طابع حكومته فى الأقوام المختلفة أجناسهم أو دياناتهم ومذاهبهم الذين قامت هذه الحكومة بينهم . ولقد حدث عند زيارة بشير السعداوى لأحد الأديرة الهامة فى جهة جزين ، وهو (دير المخلص) الذى أقام به وقتذاك حوالى الألف راهب ، أن احتفى به الرهبان ، فأقاموا له مأدبة كبيرة ، وقف أثناءها الخورى بطرس أبو كيم ليلقى قصيدة طويلة يمدح فيها هذا "الحاكم" الذى أدخل الطمأنينة إلى قلوب أهل جزين ، وحماهم من المجاعة ، ودفع عنهم الكثير من أذى "عسكرية" جمال

باشا الصارمة، وأنشأ حكماً عنوانه العدل والإنصاف والتسامح. فكان مطلع هذه القصيدة:

أعاد لنا من رسم مرقده عمر؟ أم اشتبه الاثنان في الذكر والأثر؟

٨ - مغادرة لبنان:

ولكن جزيين التي عاشت تحت "حكومة" بشير السعداوى العادلة والمتسامحة، في شبه عزله عن الأحداث التي كانت تقع في ولاية بيروت أو في سائر أنحاء متصرفية الجبل، سرعان ما انتزعت من هذا الهدوء الذي عاشت فيه عندما دخلت الحرب في هذه البقاع في مرحلتها الأخيرة وصارت جيوش الجنرال (اللنبي) Allenby من فلسطين، وقوات الأمير فيصل من العقبة تهدد بالزحف كل لبنان وسوريا. فقد كان دخول فيصل العقبة في شهر يوليو من العام السابق، بينما دخل (اللنبي) القدس في أواخر شهور ذلك العام (١٩١٧)، وفي الوقت الذي كان كل من فيصل و (اللنبي) يتأهب فيه للزحف من جهته على دمشق، أي حوالى منتصف عام ١٩١٨، كان أهم حادث وقع في ولاية بيروت ومتصرفية الجبل هو عزل عزمى بك عن ولاية بيروت وتعيين إسماعيل حقى خلفاً له في يونيه ١٩١٨. ولقد حاول إسماعيل حقى أن يحتفظ بمتصرفية الجبل إلى جانب الولاية على بيروت، خوفاً من أن يتولى على لبنان "من يشدد الخناق كما حصل في الماضي"، وأراد أن يوسط في ذلك البطريك مع الصدارة العظمى في استانبول. وكان غبطة الخويك "لشدة اعتباره لإسماعيل حقى قد سبق وأرسل تلغرافاً للآستانة بهذا الخصوص" قبل أن تصله رغبة إسماعيل حقى. ولكن هذه المساعي أخفقت فأقالته الدولة من متصرفية الجبل في شهر يونيه وعينت مكانه متصرفاً آخر هو ممتاز بك بينما أبقى إسماعيل حقى في ولاية بيروت. وكان وصول ممتاز بك إلى (بعدا) مقر المتصرفية في أوائل يوليو ١٩١٨.

ولكن في يوليو ١٩١٨ كانت قد صارت أيام الحكم العثماني عموماً في

سوريا ولبنان معدودة حيث لم تمض شهور قلائل حتى صار على بشير السعداوى أن يقطع برأى فيما إذا كان من حقه أن يستمر فى منصبه بين هؤلاء الأقوام الذين أحبهم وأحبوه وأخلصوا له أو أن الواجب عليه التخلي عن منصبه ومغادرة البلاد مع الدولة التى غربت شمسها عنها. وكان هو أحد خدامها، فانتقلت السلطة عند زوال عهدها إلى الإنجليز والفرنسيين الذين وإن اعتبر سواد الأهلىن دخولهم بلاد الشام مع "حلفائهم" العرب بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، مؤذناً بتحررهم من الاستعباد العثمانى الطويل؛ خصوصاً بعد مأسى جمال باشا المشهورة؛ فقد كانوا وظلوا دائماً فى نظر البشير السعداوى "أجانب" لا مقصد لهم إلا استعمار الأمم العربية وإذلالها؛ وذلك كان الأثر الذى خلفه الغزو الإيطالى لبلاده؛ والذى كان لا يمحى بتأناً من نفسه.

فقد بدأ الأتراك ينسحبون من لبنان فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ وانسحب ممتاز بك من (بعبدا) عائداً إلى بلاده، وكان فى آخر الشهر السابق (٣١ أغسطس ١٩١٨) أن غادرت قوات الأمير فيصل (أبا اللسل) قاصدة الأزرق فى زحفها على دمشق، وفى ٢٣ سبتمبر جلا العثمانيون عن معان فاحتلها العرب، وفى الشهر نفسه كان البريطانيون بقيادة (النبى) قد أحرزوا انتصاراً حاسماً على الأتراك فى (مجدو) فى ١٨ سبتمبر أخضع لهم فلسطين بأسرها، وفتح أمامهم الطريق إلى دمشق. وقد التقى الجيش العربى بالجيش البريطانى فى (درعا) التى استؤنفت الزحف منها على دمشق، ودخلت الجيوش العربية والبريطانية دمشق فى يوم أول أكتوبر ١٩١٨.

وفى ٢ أكتوبر بلغ فيصل نفسه دمشق. وفى ٥ منه أذاع بلاغاً بتشكيل الحكومة العربية المستقلة "استقلال مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية". وقد تلا ذلك احتلال حمص ثم حماه، ثم حلب. وقد دخلت قوات فيصل هذه الأخيرة بعد قتال فى ٢٥ أكتوبر

١٩١٨، وفى أثناء ذلك كان البريطانيون من جانبهم يتقدم زحفهم صوب بيروت وجبل لبنان بسرعة عظيمة. وقد ذكرنا أن متصرف الجبل ممتاز بك غادر (بعيداً) منذ ٣٠ سبتمبر. وفى بيروت حاول يوم أول أكتوبر رئيس بلديتها عمر بك الداعوق عندما علم بتقدم البريطانيين السريع، أن يقف من والى بيروت إسماعيل حقيق على الإجراءات التى يجب اتخاذها فى حال وصول البريطانيين إلى بيروت، وتقرير رجال الحكم والإدارة العثمانيين، من الحكمة أن يتركوا حينئذ بيروت إلى مصيرها وصمم إسماعيل حقيق على انقاء كل موجب للقلق والخوف، وأنكر أن هناك تقدماً فى زحف البريطانيين على بيروت، وعبثاً حاول عمر الدعواق أن ينتزع من إسماعيل حقى أية تعليمات قد تلقى ضوءاً على ما ينتوى العثمانيون فعله، حتى أن الإشاعات لم تلبث أن تطايرت بأن الأتراك مصممون على تخريب المدينة (بيروت) قبل هروبهم منها. ولكن ما إن عاد عمر الدعواق من مقابلته للوالى، حتى وجد بمنزله برقية من دمشق تحمل إليه خبر تأسيس "الحكومة العربية الهاشمية" فعاد أدراجه لمقابلة إسماعيل حقى مرة ثانية فى نفس اليوم (أول أكتوبر)، وحتى ينهى إليه الأخبار التى وصلتته، واصطحب عمر الدعواق معه فى هذه المرة قوة من البوليس، وأبلغ إسماعيل حقى أنه إذا ظل بالمدينة حتى الصباح "فسوف يكون واجب البلدية المؤلم أن تسجنه وتسمله إلى جيش الاحتلال عندما يدخل المدينة". وعلى ذلك فقد غادر إسماعيل حقى بيروت فى مساء اليوم نفسه قاصداً إلى (رياق) - محطة سكة الحديد الهامة - فى طريقه إلى استانبول، فقطع المسافة بطريق البر بالعربة من بيروت إلى رياق ووصلها قبل أن يستولى الإنجليز عليها بثلاثة أيام فقط، وقد استولى هؤلاء على رياق فى ٥ أكتوبر.

وفى ٢ أكتوبر رفعت البلدية فى بيروت "علم الحجاز" على السراى ومباني الحكومة وفى خلال اليومين التاليين، شغلت بيروت بتأسيس "الحكومة الإسلامية" وتفصيل ذلك أنه بمجرد أن تألفت حكومة عربية

"مؤقتة" في دمشق برئاسة الأمير سعيد الجزائري تألفت حكومة عربية "مؤقتة" أخرى في بيروت أقيم عليها حاكماً رئيس البلدية عمر الدعواق وأبرق سعيد الجزائري إلى غبطة البطريرك إلياس الحويك، يطلب منه "باسم العروبة والوطنية (تأسيس) الحكومة العربية (عندهم) في جبل لبنان". ولما كان متصرف الجبل ممتاز بك قد غادر (بعيدا) - على نحو ما ذكرنا - في ٣٠ سبتمبر، فقد تسلم الإدارة رئيس البلدية بها حبيب فياض، وانتخب موظفو الحكومة في (بعيدا) الأمير بن مالك شهاب وعادل "لإدارة الحكومة المؤقتة"، هو ترتيب وافق عليه غبطة البطريرك (في ٥ أكتوبر ١٩١٨). ولكن ما أن تألفت حكومة دمشق الرسمية برئاسة على رضا باشا الركانى - تحت إشراف الأمير فيصل بطبيعة الحال - حتى أوفد إلى بيروت شكرى باشا الأيوبي "حاكماً عاماً على بيروت ولبنان"، وقد وصل شكرى باشا الأيوبي، ورئيس أركان حرب جميل الألشى، وحوالى مائة جندي - وهى القوة التى جاءت معه، وصلوا جميعاً بيروت يوم ٦ أكتوبر، فأعلن شكرى باشا دخول البلاد فى حوزة الحكومة العربية، ثم عين لرئاسة حكومة لبنان حبيب باشا السعد، مكان الأميرين مالك شهاب وعادل أرسلان، "فأقسم حبيب باشا يمين الطاعة للملك حسين ولحكومة فيصل العربية". وبادر حبيب السعد بالعمل لإرساء قواعد حكومته الجديدة - بالرغم من شعور عدم الرضا السائد بين معظم اللبنانيين عن هذه الحكومة، وذلك بمحاولة الاتفاق على التعاون بينه وبين "الحكام" فى مختلف الأقضية، ومنها قضاء جزين.

ولكن ما إذا كان موقف بشير السعداوى من هذا كله؟

من الثابت أنه لم ينظر بعين الارتياح لتغيير متصرف الجبل، واستبدال ممتاز بك به. وقد اعتقد المعاصرون فى ممتاز بك هذا "سوء النية" حتى قال المؤرخون اللبنانيون: إنه كان من نعم المولى أن مدته لم تطل - لأنه كما قالوا - "لو فسح له الوقت مع ما كان أبداه من سوء النية لأنزل باللبنانيين كثيراً

من البلايا والويلات". ولم يكن ممتاز بك - على كل حال - من طراز إسماعيل حقي. والذي يبدو أن الحوادث قد جرت مسرعة في الأيام التي سبقت انسحاب ممتاز بك من بعدا حتى إن بشير السعداوى لا يذكر أن اتصالا قد حدث بين بعدا وجزين - أو سائر الأقضية - للاتفاق بين المتصرف والقائم مقام وزملائه الآخرين، على الموقف الذى يجب عليهم أن يقفوه من زوال الحكم التركى المنتظر أمام زحف البريطانيين خصوصا على الجبل. وليس مستغربا - فى واقع الأمر - أن ينصرف ممتاز بك عن التفكير فى شيء من هذا، عندما كان كل ما يشغله وقتئذ هو الخروج من بعدا بالأموال التى فى خزانة الحكومة. فيقول الدكتور يوسف مزهر صاحب تاريخ لبنان العام فى ذلك: ولما شرع الأتراك فى مغادرة هذه البلاد فى ٣٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨، انسحب ممتاز بك عائداً إلى بلاده فقام من بعدا برفقة ياوره سعيد بك حماده ودعا إليه أمين صندوق الخزانة وطلب منه أن يسلمه ما فى بيت المال من النقود. فبلغت خمسين ألف ليرة عثمانية ورقا، فوضعها فى حقيته ونقلها إلى سيارته. ولما طلب منه أمين الصندوق وصلا بالمبلغ أشهر عليه مسدسه وانصرف".

وكان - كما عرفنا فى الأيام الأولى من شهر أكتوبر - أن شكلت الحكومة العربية فى بيروت برئاسة شكرى باشا الأيوبي وقد ذهب شكرى الأيوبي إلى بعيدا ليعلن إرجاع الامتيازات الخاصة التى كانت للجبل إليه، وذلك بعد ما كان العثمانيون قد ألغوا هذه الامتيازات - على نحو ما سبقت إليه - وطلبوا من حلفائهم الألمان والنماسويين فى نوفمبر سنة ١٩١٦ الموافقة على إلغائها، وصادق هؤلاء على ذلك ولقد ذكرنا أن شكرى الأيوبي عين لرئاسة حكومة لبنان حبيب باشا السعد. وأن حبيب السعد قد بدأ يتصل "بالقائم مقامين" فى مختلف الأقضية بمجرد استقراره فى مركز المتصرفية القديم، بعدا.

وطلب حبيب باشا السعد من بشير السعداوى أن يستمر فى منصبه، لأن بشير السعداوى - كما ذكر حبيب باشا السعد - عربى، وحيث إن الحكومة التى تأسست فى لبنان عريية، فالواجب عليه أن يتعاون مع هذه الحكومة بالبقاء فى جزين. ولكن الحكومة التى تألفت وقتئذٍ باسم الأمير فيصل سواء فى دمشق أو فى بيروت إنما كانت حكومة "شريفية" ويرفر علم الحجاز. ومن المعروف أن بشير السعداوى كان صادق الولاء للدولة، فلم يعترف "بالثورة العريية"، بل حاربها. وزيادة على ذلك لم تكن الحكومة التى أشتت فى دمشق وبيروت من وجهة نظر بشير السعداوى "عريية"، لأنها مستندة على تأييد الإنجليز والفرنسيين، ولأن بقاءها رهن بموافقة هاتين الدولتين على قيامها، ولم يكن من المتوقع أن تستطيع هذه الحكومة "العريية" المزعومة فى نظر بشير السعداوى العيش والاستمرار، إذا تخلت واحدة من هاتين الدولتين عن تأييدها. وعلى ذلك "فقد أبت عليه نفسه - على حد قوله - أن يبقى تحت حكم اعتبر أنه حكم أجنبى وغير إسلامى، بسبب دخول فرنسا وإنجلترا إلى أرض سوريا ولبنان"؛ وأعتقد - وقد أظهرت الأيام بأنه كان محققاً فى اعتقاده - أن هذه البلاد مقدمة على تجربة جديدة من الحكم الأجنبى، بالرغم من المظاهر التى أحاطت بتأسيس حكومة شكرى باشا الأيوبي "الفيصلية" فى لبنان. فلم يكن منتظراً إذا أن يقبل بشير السعداوى الاستمرار فى عمله بقضاء جزين. وعبئاً حاول حبيب باشا السعد أن يثنيه عن عزمه. وكان الرجل معروفاً بصفاء السريرة والوداعة، ويتصف بالأنفة والإباء، ويشتهر بالنزاهة، ولكن السعداوى لم يلبث أن ذهب لمقابلته فى بعبدا حتى يشرح له لماذا فى منصبه. وأصر على أن يعفيه حبيب باشا السعد من العمل لأنه يعتبر - كما ذكرنا - أن الحكم قد صار فى البلاد بيد الأجنبى، ولأنه - كما قال - "إذا أراد أن يخدم الأجنبى؛ ليسهل عليه أن يخدم هذا الأجنبى فى بلاده، بدلا من التغرب عن الأوطان، والعيش فى المهجر، فأحرى به حينئذٍ أن يخدم إيطاليا".

ولقد صح ما توقعه بشير السعداوى؛ بل إن الحوادث سرعان ما صارت تتلاحق فى إثر بعضها بعضاً أثناء هذه المباحثة بينه وبين حبيب السعد بصورة كان يستحيل معها على بشير السعداوى أن يبقى فى جزين مهما حاول حبيب السعد أن يقنعه بضرورة البقاء. ذلك أنه لم يمض يوم على رفع العلم "الحجازى" فى بيروت حتى دخلت إلى البلدة فى ٤ أكتوبر سيارة إنجليزية مصفحة قوبلت من الأهلى بترحاب وحماس عظمين، حتى إنه لم لم تصل غيرها أو قوات بريطانية أو فرنسية أخرى فى اليوم التالى - على خلاف ما كان يتوقع المسئولون - بادر عمر الدعواق - الذى ذكرنا أنه رئيس بلدية بيروت، ثم رئيس "الحكومة العربية المؤقتة" التى تألفت بها يوم ٢ أكتوبر - بادر بالاتصال بالإنجليز فى حيفا يستعجلهم بالحضور، خوفاً من حدوث اضطرابات بالمدينة أو أن يعود الأتراك لاحتلالها. وحدث ذلك فى نفس اليوم الذى وصل فيه شكرى باشا الأيوبى إلى بيروت (٦ أكتوبر) لتأسيس "الحكومة العربية الرسمية" وفى ٧ أكتوبر وصل من بورسعيد - التى غادرها قبل ذلك بيومين - مع قسم من الأسطول الفرنسى، قاصداً إلى بيروت، الأدميرال (فارنى) Varney وكان الفرنسيون بسبيل الاتفاق مع الإنجليز على تنظيم توزيع مناطق النفوذ بين الفرريقين فى سوريا ولبنان حسب المعاهدة السرية التى أبرمها فى القاهرة فى ١٦ مايو ١٩١٦ كل من السير مارك سايكس Mark Sykes عن الإنجليز، والمسيو جورج بيكو Georges Picot عن الفرنسيين. وبالفعل وصل إلى بيروت يوم ٨ أكتوبر (١٩١٨) مع أول قسم من القوات المتحالفة الكولونيل يباب Piepape ليتسلم الحكم فى بيروت. وفى اليوم التالى (٩ أكتوبر) تم الاتفاق بين المسيو كولوندر Coulondre والأمير فيصل على إنزال العلم العربى (الحجازى) فى لبنان. وبالفعل أنزل العلم فى اليوم نفسه (٩ أكتوبر)، وغادر شكرى باشا الأيوبى والقوة التى معه بيروت فى طريقه إلى دمشق. وفى اليوم نفسه انتهت كذلك حكومة حبيب باشا السعد "العربية" فى بعدا. ولكن الفرنسيين والإنجليز أبقوه فى متصرفية

الجليل ريثما يتم بينهم الاتفاق النهائي بشأن الحكم والإدارة فلى سوريا ولبنان عموماً. وقد ظل حبيب السعد يشغل منصبه حتى تعيين فى مكانه ضابط فرنسى فى ٢ نوفمبر ١٩١٨.

ولكن فى هذا التاريخ، كان بشير السعداوى قد غادر جزين، من مدة طويلة، فقصده إلى بيروت، حيث كان بها أخوه نورى السعداوى وسائر الأسرة، ثم قصد إلى حلب، ليشهد الحكومة العربية التى صار تأسيسها على يد فيصل فى ولاية سوريا القديمة. وكان فيصل قد دخل حلب يوم ٦ نوفمبر ١٩١٨، وبعد يومين من هذا التاريخ، وقع الإنجليز مع الفرنسيين اتفاقاً جديداً فى ٨ نوفمبر ١٩١٨ لتنظيم الحكم فى بلاد الشام. فقسمت هذه بمقتضى الاتفاق: إلى منطقة جنوبية شملت فلسطين عموماً، تولت السلطات الإنجليزية إدارتها مباشرة وتعين الجنرال (بولز) Bols حاكماً عليها. ومنطقة غربية. تضم متصرفية جبل لبنان ولواء بيروت ولواء طرابلس واللاذقية من ولاية بيروت قديماً وقضاء أنطاكية وإسكندرونة من ولاية حلب، ووضعت تحت النفوذ الفرنسى مباشرة. وأما حاكمها فكان الكولونيل يباباب السالف الذكر، وأخيراً منطقة شرقية، تشمل ولاية سوريا القديمة من معان جنوباً والفرات شرقاً، وقد جعلت هذه منطقة عربية يتولى إدارتها الأمير فيصل. وقد بقى فيصل فى حلب أن بعث إليه والده الملك حسين يطلب منه السفر إلى باريس ليعرض قضية العرب على مؤتمر الصلح الذى تقرر عقده بها. فقصده فيصل إلى بيروت، ثم غادرها على ظهر طراد بريطانى يوم ٢٢ نوفمبر إلى مرسيليا. وقد صاحبه ف يهذه السفارة كل من نورى السعيد والدكتور أحمد قدرى وأخيه تحسين قدرى ورستم حيدر وفايز الغصين. ولم يمكث بشير السعداوى طويلاً فى حلب، بل رجع إلى بيروت، وقد اختمرت فى ذهنه فكرة المسعى كذلك لعرض قضية طرابلس الغرب على مؤتمر الصلح فى باريس. فصاح عزمه على الذهاب إلى استانبول، والاتصال برجال الحكومة العثمانية لعله يظفر يجعلهم يهتمون بقضية بلاده - طرابلس الغرب (أو ليبيا)

- عند بحث شروط الصلح النهائي بينهم وبين دول التحالف، وكانت الدولة قد وقعت مع الحلفاء الهدنة فى جزيرة (مدروس) Mudros أمام الدردنيل فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨.

مع السيد أحمد الشريف؛

قصد بشير السعداوى عند وصوله استانبول إلى وزارة الداخلية ليقابل "مدير المأمورين" شريف بك، وكان صديقاً له، ليقف منه على حقيقة الحال. وقد وجد بشير السعداوى استانبول محتلة بالحلفاء، ويهتم أهلها والعثمانيون جميعاً بمصيرهم، وقد شرع الحلفاء ينظرون فى شروط الصلح، ففقدوا لهذا الغرض مؤتمراً فى باريس كان قد بدأ أعماله رسمياً منذ ١٨ يناير ١٩١٨.

ومن التفاصيل التى وقف عليها بشير السعداوى، أن وزارة المشير أحمد عزت باشا التى تألفت فى ٩ أكتوبر ١٩١٨ هى التى وافقت على هدنة (مدروس)، ثم استقالت، وأن الحلفاء بدأوا يدخلون استانبول لاحتلالها منذ أواسط نوفمبر ١٩١٨، وأن المشير أحمد عزت باشا كان يشير على السيد أحمد الشريف قبل توقيع الهدنة بالسفر خفية والذهاب إلى طرابلس، وأنه أشار على السيد بعد عقد الهدنة بالخروج من استانبول إلى (بروسة)، وكان هذا أيضاً رأى السلطان العثمانى محمد السادس وحد الدين. فانتقل السيد أحمد عندئذ إلى بروسة. كما علم بشير السعداوى أن أنور باشا وطلعت وجمال وجماعة من رفاقهم الاتحاديين قد "هاجروا" - أو غادروا الآستانة فراراً من بطش الحلفاء المنتصرين بهم - إلى ألمانيا، ومن المعروف أن أنور باشا انفصل عن زملائه وقصد إلى القرم فى طريقه إلى القوقاز، فلما أخفق فى غرضه قصد إلى برلين، ثم غادرها بعد ذلك إلى روسيا. ون المعروف كذلك أن أحمد عزت باشا هو الذى عاون أنور وطلعت وزملاءهما على الفور قبل وصول الأعداء واحتلالهم الآستانة.

وقصد بشير السعداوى إلى بروسة لمقابلة السيد أحمد الشريف - ووجد معه "اليوزباشى" محمد صالح حرب، الذى كان قومنداناً لمنطقة مرسى مطروح وسيوة. وقت العمليات العسكرية التى قام بها العثمانيون والسنوسيون ضد الحدود المصرية (والإنجليز) سنة ١٩١٥، ثم انضم إلى السنوسيين منذ شهر نوفمبر من هذا العام، واشترك فى القتال ضد الإنجليز طوال العام التالى، ثم انتقل مع السيد أحمد الجغبوب، ثم إلى الجفرة، ثم إلى العقيلة، وأخيراً خرج معه فى أغسطس ١٩١٨ إلى استانبول فى غواصة نقلتها إلى (تريستا) بالنمسا. ثم سافرا بالسكة الحديد إلى فيينا، ومنها إلى استانبول. وقد انتقل صالح حرب مع السيد أحمد الشريف إلى (بروسة).

وكان غرض بشير السعداوى من هذه الزيارة، الاتفاق مع السيد أحمد الشريف على أفضل الوسائل التى يمكن بها خدمة القضية الطرابلسية، واستنفاد الوطن من قبضة الطليان واعتقد بشير السعداوى أن فى وسع الطرابلسيين إذا وصل صوتهم إلى مؤتمر الصلح فى باريس، أن يثيروا اهتمام المؤتمر لبحث من جديد مصير بلادهم استناداً إلى (النقاط الأربع عشرة) التى أعلنها الرئيس الأمريكى (ودرو ولسون) فى رسالته إلى الكونغرس فى ٨ يناير ١٩١٨ لبيان الأغراض التى تتوخى أميركاً تحقيقها من دخولها الحرب إلى جانب الحلفاء ضد دول الوسط (فى الحرب العالمية الأولى). وكان مما تضمنته هذه النقاط أو الشروط البت فى مصير شعوب الإمبراطورية العثمانية على قاعدة "حق تقرير المصير". وكان فى رأى بشير السعداوى أن الاحتلال الإيطالى لبلاده لم يحطم علاقة التبعية لدولة الخلافة الإسلامية، تركيا، لأن احتلال الطليان لطرابلس الغرب (ليبيا) حدث نتيجة لعدوان عسكرى، ولأن الدولة العثمانية عندما عقدت صلح (أوشى - لوزان) فى أكتوبر ١٩١٢، لم تستشير الطرابلسيين فى مصير بلادهم، ولأن السلطان العثمانى أصدر منشوراً - كواحد من الملاحق الثلاثة المتصلة بالمعاهدة - إلى سكان طرابلس وبرقة

يمنحهم فيه "بما له من حقوق السيادة استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً". ولأن المقاومة ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا لا تزال قائمة ولم يستطع الطليان بالرغم من خروج السيد أحمد الشريف من برقة، واستفحال النزاعات الداخلية في إقليم طرابلس، أن يسيطروا سلطانهم على البلاد كلها أو يوطدوا أقدامهم بها.

ولا جدال في أنه فات بشير السعداوى أن مبدأ (تقرير المصير) الذي نودى به ضمن شروط الرئيس الأمريكى ولسون، كان لا يكفى وحده مبرر لأن يبحث الحلفاء في مؤتمر الصلح (المسألة الطرابلسية) إذا جاز لنا أن نقول بقيام هذه (المسألة) وقتئذٍ لسبب جوهرى. وهو أن الهدنة التي وقعها العثمانيون في (مدورس) في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨، تناولت مسألة طرابلس الغرب بصورة تقطع نهائياً بتنازل العثمانيين عن أية ادعاءات قد تكون بقيت لهم عليها، وباستقرار "السيادة" الإيطالية بها، وذلك عندما نصت المادة السابعة عشرة من مواد الهدنة على أن يقوم جميع الضباط الترك سواء في برقة أو في طرابلس بتسليم أنفسهم إلى أقرب مركز من مراكز الحاميات الإيطالية، وأن تتعهد تركيا بوقف إرسال أية إمدادات إلى هؤلاء الضباط إذا رفضوا تسليم أنفسهم، وأن تمنع كل اتصال بينها وبينهم. بينما نصت المادة الثامنة عشرة على أن تسليم الموانئ التي لا يزال الأتراك يحتلونها في برقة وفي طرابلس بما في ذلك مصراته إلى أقرب حامية من حاميات الحلفاء في هذه الموانئ. ومعنى ذلك أن "مصير" طرابلس الغرب كان قد "تقرر" في هدنة مدورس ومن المعروف أن موضوع طرابلس الغرب لم يكن من الموضوعات التي ذكرتها معاهدة الصلح التي أبرمت بعد ذلك في فرساي في ٢٨ يونيو ١٩١٩، وأن تركيا في معاهدة (سيفر) Sevres المبرمة في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ تنازلت نهائياً بمقتضى المادة (١٢١) عن كل حقوق وامتيازات كان السلطان العثماني قد احتفظ بها لنفسه في ليبيا في معاهدة أوشي لوزان المبرمة في ١٨ أكتوبر ١٩١٢، وأن هذا التنازل قد تضمنته أخيراً معاهدة لوزان التي حلت

محل معاهدة سيفر التي لم تنفذ. وجاء هذا التنازل في المادة الثانية والعشرين من المعاهدة التي أبرمت في ٢٤ يوليو ١٩٢٣.

وكان الرأي الذي عرضه بشير السعداوى على السيد أحمد الشريف فى (بروسة) أن يتألف وفد طرابلسى - أى لىبى - يذهب إلى باريس ليطالب بحقوق الطرابلسيين. ووافق السيد أحمد الشريف على أن يذهب بشير السعداوى نفسه إلى باريس لإثارة مسألة طرابلس الغرب أمام مؤتمر الصلح. ولكنه رأى قبل كل شىء ضرورة عرض هذا الموضوع على رجال الحكومة العثمانية فى استانبول. واستقر رأى على أن يعد السيد أحمد كتب توصية "لأصدقائه" من رجال الدولة المسئولين، يحملها بشير السعداوى معه إلى الآستانة فكتب السيد أحمد فى هذا الشأن إلى كل من ولى العهد عبد المجيد أفندى (فيما بعد، آخر خلفاء بنى عثمان)، والدأمد خالد باشا درويش، وكان على صلات طيبة بالسنوسية، ووالده إبراهيم درويش باشا، صاحب العلاقات المعروفة مع الشيد أحمد المهدي السنوسى على أيام السلطان عبد الحميد.

وعندما جاء بشير السعداوى إلى استانبول يحمل كتب التوصية هذه، كان على رأس الحكومة القائمة أحد رجال السلطان عبد الحميد السابقين، توفيق باشا وهو معروف بصداقته للإنجليز، ثم إنه تسلم الحكم بعد استقالة أحمد عزت باشا "لتنفيذ أوامر الأعداء"، ولكن بشير السعداوى لقي كل اهتمام من خالد درويش الذى صحبه لقمابلة ولى العهد عبد المجيد أفندى، وتقديمه له. ووعد عبد المجيد أن يتحدث فى موضوع طرابلس الغرب مع الصدر الأعظم، أى رئيس الوزراء توفيق باشا.

وأشار خالد درويش على بشير السعداوى بأن يقابل الصدر السابق، أحمد عزت باشا حيث فى وضعه أن ينصح بشير السعداوى ويدله على ما يجب عليه فعله، وأن ييسر له مقابلة الصدر.

ولما قابل بشير السعداوى المشير عزت باشا، نصحه بأن يسعى لمقابلة

وزير الحربية جمال باشا الصغير، حيث إن الصدر - كما قالوا عزت باشا - مشغول، ومن المتعذر الحديث معه الآن. وبناء على ذلك فقد بسط السعداوى مهمته لجمال باشا الصغير، وأظهر هذا اقتناعاً بفكرة سفر بشير السعداوى إلى باريس لإثارة مسألة طرابلس الغرب واعترف بأن "مشاغل" الدولة الكثيرة قد "ألهمت" حكومتها عن "كل شيء" ولكنه قال إن وفد الحكومة العثمانية يتفاوض الآن فى باريس، ولديه من المعلومات ما لا يجعله يتوقع أن يبحث مؤتمر الصلح فى قضية برقة - طرابلس، لأن الساسة مشغولون الآن بالمسائل الدولية الرئيسية. وطلب جمال باشا الصغير من بشير السعداوى أن يترك للحكومة وقتاً للتفكير.

وفى الشهور القليلة التالية ظل بشير السعداوى يتردد بين (بروسة) و (استانبول) يقصد العاصمة، ليقنع رجال الدولة بوجوب إثارة (القضية الطرابلسية) فى مؤتمر الصلح. وتسنى له أثناء ذلك، ولهذا الغرض نفسه، أن يقابل كثيرين من المسؤولين، وكبار رجال الأتراك، مثل وزير العدل، الداماد عارف حكمت باشا، ووزير الداخلية الداماد فريد باشا، ثم الداماد جلال باشا. وغير هؤلاء. وقد لقى منهم جميعاً اهتماماً بالغاً بقضية طرابلس الغرب. ولكن هذا "الاهتمام البالغ" لم يكن يعنى فى واقع الأمر أن فى وسعهم التأثير على مجرى الحوادث بالصورة التى كان يرجوها بشير السعداوى. وكان من أسباب ذلك ما وقع من أحداث طغت أهميتها على أهمية قضية برقة - طرابلس.

فقد سقطت حكومة توفيق باشا وتألقت فى مارس ١٩١٩ حكومة برئاسة الداماد فريد باشا "والداماد معناه صهر السلطان"، واحتل اليونانيون أزمير فى ١٤ مايو ١٩١٩، وترك مصطفى كمال العاصمة فى ١٧ مايو بوصفه مفتشاً للجيش فى الأقاليم الشرقية (الأناضول) ثم ما لبث أن استعفى من منصبه وبدأ يعد خطط المقاومة، فأعلنت حكومة الآستانة أنه خارج على

القانون فى ١١ يونيو. وفى ٢٣ يوليو جمع مصطفى كمال مؤتمراً وطنياً فى أرضوم لتنظيم المقاومة الوطنية، ويعنى ذلك تأسيس حكومة معارضة لحكومة السلطان فى استانبول وفى ٤ سبتمبر جمع مصطفى كمال فى (سيواس) مؤتمراً وطنياً أنشأ هيئة دائمة للدفاع ولجنة تنفيذية صارت الحكومة الفعلية فى آسيا الصغرى. وفى ٥ أكتوبر استقالت وزارة فريد باشا وحلت محلها وزارة من المستقلين أشرفت على إجراء انتخابات جديدة. نجح فيها الوطنيون حتى فى استانبول ذاتها " واجتمع البرلمان فى استانبول فى ١١ يناير ١٩٢٠ بالرغم من محاولة حكومة مصطفى كمال الفعلية أن ينعقد هذا البرلمان فى مكان داخل الأراضى التركية غير المحتلة. ثم لم يلبث أن أصدر هذا البرلمان ميثاقاً وطنياً فى ٢٨ يناير ١٩٢٠. وفى ٦ إبريل شكل الداماد فريد باشا وزارته الثانية. وبعد ستة أيام أمر السلطان محمد وحيد الدين السادس بحل البرلمان، فترتب على هذا الحل أن صار الانفصال تاماً بين حكومة الآستانة والحكومة الفعلية التى أسسها مصطفى كمال فى الأناضول. وأصدر مصطفى كمال أمراً بإجراء انتخابات لمجلس جديد ينعقد فى أنقرة. وبدأ هذا (المجلس الوطنى الكبير) جلساته يوم ٢٣ إبريل ١٩٢٠.

وفى الوقت الذى ضاع فيه كل أمل لإمكان إثارة اهتمام رجال الدولة والساسة العثمانيين بأمر طرابلس - برقة بصورة جدية، كانت قد أخذت تبدو فى الأفق " قضية " جديدة، سوف تستأثر بنشاط بشير السعداوى طوال المدة التالية حتى وقت خروجه من استانبول ومغادرة تركيا نهائياً. وأما هذه القضية الجديدة فمنشؤها رغبة خديوى مصر السابق عباس حلمى الثانى، الذى أفقده الإنجليز عرشه فى بداية الحرب (١٩١٤) فى أن ينشئ لنفسه ملكاً جديداً على أساس تكوين حلف تحت رئاسته، ويتمويله من أمراء وشيوخ شبه جزيرة العرب، مهمته طرد الاستعمار الفرنسى - الإنجليزى من البلاد الإسلامية. على أن يساعد السيد أحمد الشريف الخديوى بنفوذه الدينى والأدبى مع الأمراء المسلمين على بلوغه مقصده.

واختار الخديوى لنقل فكرته إلى السيد أحمد الشيف واستمالته إلى مؤازرته. أحد رجاله الشيخ محمود شويل المصرى الذى تحدث على لسان الخديوى إلى السيد أحمد الشريف حتى يجمع شتات الأمراء العرب بشبه الجزيرة كى يتكتلوا ضد الاستعمار الأجنبى الأوروبى "الذى طغى على البلاد العربية". وطلب الخديوى من السيد أحمد أن يقوم بالدعوة بين الأمراء العرب لهذه الغاية، حتى إذا وافق هؤلاء على الوقوف فى وجه الاستعمار، تولى الخديوى الترتيبات اللازمة للعمل الذى تعهد بأن ينفق عليه كل ما يلزم من مال لاستئصال الاستعمار من البلاد العربية.

ومن المعروف فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩) أن شبه الجزيرة العربية كانت تخضع "للاستعمار" الإنجليزى فى العراق وفلسطين، والفرنسى فى سوريا ولبنان، بينما كان الشريف حسين بن على فى الحجاز واقعاً هو الآخر تحت نفوذ الإنجليز. فطلب الخديوى إذا لقيت الفكرة قبولا لدى السيد أحمد الشريف، ان يوفد هذا من قبله مندوباً يبحث معه الخديوى تفصيلات هذا المشروع الخطير. وانتدب السيد أحمد الشريف لهذه المباحثة بشير السعداوى.

ويذكر بشير السعداوى كيف كان الخديوى عباس حلمس حذراً فى "مباحثاته"، ولم يشأ أن يدخل فى تفاصيل المشروع مع مندوب السيد أحمد الشريف قبل أن يستوثق بنفسه من "المندوب" الذى يتحدث معه. فيذكر بشير السعداوى كيف أن الخديوى عند مقابلتهما الأولى فى استانبول صرف الوقت يسأل بشير السعداوى عن بلده وأهله، وعند المقابلة الثانية بعد أسبوع من الأولى صار يسأله عن أمراء جزيرة العرب واتجاهاتهم، وانقضى المجلس دون أن يذكر الخديوى شيئاً عن الموضوع الذى حضر بشير السعداوى من أجله، حتى كاد هذا ييأس من مهمته، وكاد لا يذهب فى موعد اللقاء الثالث الذى حدده له الخديوى لولا أنه مكلف بمهمة يجب أن يتذرع بالصبر وطول الأناة

حتى يتمكن من إتمامها. ولكن فى المرة الثالثة تبدلت أساليب الخديوى. فدعا بشير السعداوى إلى الغداء، وبعد المائدة شرع يتحدث إليه عن المشروع الذى يريد به هدم الاستعمار الأجنبى، الإنجليزى - الفرنسى فى شبه جزيرة العرب على أساس أن يتمكن من جمع كلمة الأمراء العرب على مقاومة هذا الاستعمار. وأكد الخديوى أنه مستعد لإنفاق مليون من الجنيهات الذهب لتحقيق هذه المسألة. وأما ما يريده من السيد أحمد الشريف فهو أن يكتب للأمراء شبه الجزيرة: ابن السعود أمير نجد، وابن الرشيد أمير حائل، وابن الصباح صاحب الكويت، وأمير المتفق، وأمير صبيا وأطرافها (السيد الإدريسى)، والإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، وذلك حتى إذا نجحت الدعوة فى استئثارهم ضد الاستعمار، أمكن بواسطة الحلف الذى سوف ينشأ منهم تحرير العراق والشام ومصر من نير الاستعمارين: الإنجليزى والفرنسى.

وبسط السعداوى للسيد أحمد الشريف فى بروسة المشروع الضى يدعو له الخديوى، وبدأ بشير السعداوى يكتب الكتب المطلوبة للأمراء شبه الجزيرة. وبينما السيد أحمد الشريف فى فعل شغل شاغل بهذا الأمر إذ جاء يطلب مقابلته أحد الأتراك، قال إنه قائد عسكري اسمه صفوت بك ويريد أن يستشير السيد فى أى الميادين من الناحية الروحية والوجدانية يجب عليه أن يعمل، وقد صار هناك الآن ميادين ثلاثة للعمل: مع الخليفة والبقاء فى الآستانة، أم مع مصطفى كمال والذهاب إلى الأناضول، أم مع أنور باشا الذى أذيع أنه صار فى بلاد القافقاس؟ وعجب بشير السعداوى كيف أن رجلاً عسكرياً ذا دراية بشئون الحرب والسياسة يأتى ليسأل السيد رأيه فى هذه المسائل، وخشى بشير السعداوى أن يكون الرجل من الجواسيس بعثت به حكومة الآستانة لمعرفة ميول السيد. وكان على السيد أحمد الشريف فى بروسة، بعد حوادث إنشاء حكومة أنقرة، وخروج أنور باشا إلى القوقاز، أن يحرص على أن يسود الوداد علاقته سواء مع حكومة أنقرة أو حكومة استانبول. وإن كان فى أعماق نفسه فى هذه الآونة يميل إلى أنور باشا، وأما

بروسة فكانت حينذاك تخضع لسيطرة مشتركة، حيث أقام بها إلى جانب الوالى المعين من قبل الخلافة فى استانبول، بكير صدقى، والآخر من قبل حكومة مصطفى كمال، الأول يعمل لتنظيم جيش من أبناء بروسه، بينما يهتم الثانى بالمحافظة على الأمن، وكانت حكومة الآستانه تستريب فى أن للسيد اتجاهاً لا ينطوى على الولاء لمركز الخلافة، وأنه يتجه بميوله إما نحو مصطفى كمال وإما نحو أنور باشا، وبالفعل فإنه عندما أبلغ بشير السعداوى السيد مطلب (صفوت بك) كان جواب السيد أحمد الشريف: "ليذهب إلى أنور!" ولكن السعداوى لم يلق مشقة فى إقناع السيد للسبب الذى ذكرناه بأن يتخلص من هذا السائل بنصحه أن يتبع فى اختياره الميدان الذى يشير عليه به "قلبه" فيجد فى هذا الاتجاه التوفيق.

ولم يظفر صفوت بك من السيد أحمد الشريف بغير هذا الجواب بالرغم من إلحاحه الذى جعل بشير السعداوى يشير على السيد بالعربية أن يقرأ الفاتحة حتى يذهب. وقراءة الفاتحة عند السادة السنوسية إشارة لانتهاه الحديث والمقابلة. وتبين أن الرجل يعرف اللغة العربية، وأنه أقام بمصر مدة طويلة، كما علم بشير السعداوى بعد ذلك أن صفوت بك هذا كان أحد الذين استركوا فى قتل محمود شوكت باشا الصدر الأعظم فى حوادث الانقلاب الذى سبقت الإشارة إليه (١٩١٣).

ولما فرغ بشير السعداوى من إعداد الرسائل المطلوبة، وذهب بها لاطلاع الخديوى عليها فى استانبول، وجد نفسه الرجل، صفوت بك، ينتظر على ميناء استانبول، وكان البحر طريق بشير السعداوى من بروسه إلى العاصمة العثمانية. وفى هذه المرة كان صفوت بك يتزى بالزى العسكرى، ويحمل شارة الياوران، وعلم بشير السعداوى أنه "مرافق" للصدر الأعظم الداماد فريد باشا. ويادر صفوت بك بملاقاة السعداوى عند نزوله إلى البر، وصافحه. وتأكد لدى السعداوى أنه موضع تحت المراقبة. وزادت هواجسه

عندما بادره الرجل بسؤاله: هل التحق السيد أحمد الشريف بمصطفى كمال؟ فأجاب بشير السعداوى: إنه ترك اليوم السيد أحمد فى بروسة. ولازم الرجل بشير السعداوى طول الطريق إلى الفندق الذى اختار النزول فيه، واستمر يطره بوابل من الأسئلة، وكان السعداوى قد احتاط للأمر فأخفى الرسائل التى معه فى كتب فقه ودين أودعها صندوقًا تظاهر بعدم الاهتمام به، وأصر الرجل بعد الوصول إلى لافندق على أن يصحبه بشير السعداوى إلى وزير الداخلية رشيد باشا. ولم يجد السعداوى بداً من الذهاب معه، وقدمه الرجل إلى وزير الداخلية بوصفه سكرتيراً للسيد أحمد الشريف. ومع أن السعداوى نفى هذه الصفة عنه، وأكد أنه يزور السيد فحسب، فقد سأله الوزير إذا كان السيد أحمد الشريف التحق حقيقة بمصطفى كمال على نحو ما تذكره الصحف عنه. فأكد بشير السعداوى مرة أخرى أن السيد لا يزال مقيمًا فى بروسة وأنه ثابت الولاء للخلافة. وعندئذ تحدث الوزير فى (التليفون) مع وزير المطبوعات ليبلغه أن السيد أحد الشريف لم يغادر بروسة وأنه باق على ولائه للخلافة. واستطاع بشير السعداوى بعد ذلك أن يفرغ لما حضر للآستانة من أجله. وبلغ من حرصه أنه حفظ عن ظهر قلب صورة الرسائل المعدة، لأمرء العرب، وكانت كلها مكتوبة بأسلوب واحد، وذلك حتى يقرأها من الذاكرة على الخديوى بدلا من المجازفة بحمل الرسائل ذاتها إليه، وسأل الخديوى إذا كان السعداوى يعرف من يمكنه السفر بهذه الرسائل إلى الأمراء العرب، فأشار السعداوى باستخدام أحد العسكريين المعروفين لهذه الغاية، هو (البكباشى) عزيز بك الكردى، كان أنور باشا يستخدمه فى البلاد العربية، وكان معتمداً من قبل الدولة لدى سعود بن عبد العزيز من آل الرشيد فى حائل. فقال الخديوى إنه سمع باسم هذا الرجل، ولا يرى بأساً فى أن يتصل السعداوى به، حتى إذا قبل عهد إليه الخديوى بهذه المهمة. وقبل عزيز الكردى وأخذ بتهيأ للسفر، وكان ينوى الذهاب إلى جزيرة العرب عن طريق سوريا، فلما حذره بشير السعداوى من أه هذه البلاد محتلة، وقد يتعذر عليه دخولها

لأنه "رجل معروف"، لم يأبه عزيز الكردي لهذا التحذير بل راح يطمئن بشير السعداوى أن ذهنه سوف يتفتق عن حيلة تمكنه من الدخول إلى سوريا ثم مغادرتها بسلام بعد ذلك.

ولكن كل هذه التدابير وكل هذه الجهود لم تلبث أن انتهت إلى غير نتيجة، فيروى بشير السعداوى: أنه فوجئ ذات ليلة بعزيز الكردي يدخل عليه في حجرته بالفندق هارباً من بيته حيث كان البوليس الإنجليزى قد هاجم البيت يبغى القبض عليه. وكانت استانبول محتلة آنئذ بعسكر الحلفاء. ويبدو أن عزيز الكردي كان ضالماً في واحدة من المؤامرات والدسائس الكثيرة التى كانت تحاك خيوطها في هذه الفترة ضد الاحتلال الأجنبى عموماً، وإما ضد دولة معينة من دول الحلفاء التى يحتل جنودها الآستانة. وقال عزيز الكردي إنه سوف يلجأ إلى مكان أعطى البشير عنوانه ليتصل به فيه، وذهب فى الصباح بعد أن بات ليلته فى الفندق. وبحث بشير السعداوى عن المكان الذى أعطاه عزيز الكردي عنوانه فوجده بيتاً خاصاً يتبع السفارة الفرنسية، فتردد بشير السعداوى طويلاً قبل أن يسأل عنه فى هذا المنزل، فلما فعل أشاروا عليه أن يسأل عن عزيز فى السفارة الفرنسية ذاتها. وهناك أدخلوه على شاهين الحازن، وهو لبنانى يحتل مكانة ظاهرة فى هذه السفارة. لم يلبث بعد أن زال عنه الارتياح فى أمر بشير السعداوى أن أدخله على صاحبه، وطلب من عزيز الكردي أن يأتيه بشير السعداوى بالرسائل، وأن ييسط له الخطة التى يريد الخديوى تنفيذها. وعندما اتصل بالخديوى، وأبلغه أن عزيز الكردي التجأ إلى الفرنسيين حبيذ الخديوى ما فعله عزيز الكردي. ثم طلب من بشير السعداوى أن يأتيه بالرسائل ليطلع عليها، وعندئذ ذكر له السعداوى أنه لما كان يخشى التفتيش فى أى وقت لأنه مراقب، فقد حفظ مضمون الرسائل غيباً، ثم تلا على الخديوى نص الرسالة. ونشط الخديوى وبشير السعداوى وعزيز الكردي يعدون العدة لإرسال الأخير فى مهمته؛ حتى حدث ذات يوم أن ذهب بشير السعداوى إلى قصر الخديوى فى حى البيك، فوجده مغلقاً، ويقف أمامه

حرس من الأتراك شاكى السلاح. فعاد بشير السعداوى أدراجه إلى استانبول. ثم لم يلبث أن قرأ فى صحف العاصمة أن الخديوى استأجر سفينة يونانية "هرب" على ظهرها من العاصمة العثمانية، و "يهرب" الخديوى على هذه الصورة تحطم مشروع حلف أمراء الجزيرة العربية للقضاء على الاستعمار الإنجليزي الفرنسى فى مصر والشام والعراق إلى جانب سائر الأقطار العربية.

وخشى بشير السعداوى أن يكون المسئولون قد اشتبهوا فى أمره، فحرص على أن يظل مختفياً عن الأنظار أكثر من شهر من الزمان، حتى إذا عاوده الاطمئنان شيئاً، بادر بالسفر من استانبول، ولكن إلى بيروت رأساً، حيث كان أخوه نورى السعداوى وكل أسرته، وليس إلى بروسة. وكان ذلك فى أوائل شهر يوليو ١٩٢٠.

ولم يمض أسبوع واحد على خروج بشير السعداوى من استانبول، حتى كان السيد أحمد الشريف قد خرج هو الآخر من بروسة. وسبب ذلك أن اليونانيين بعد أن احتلوا أزمير فى مايو من العام السابق أخذوا يوسعون منطقة احتلالهم، حتى صار الخطر يهدد بروسة التى احتلوها أخيراً فى نهاية شهر يوليو من عام ١٩٢٠. وكان انتقال السيد أحمد الشريف إلى قونيه.

ومما يرويه بشير السعداوى عن السيد أحمد الشريف وهو فى بروسة، أنه علم عند عودته ذات مرة من استانبول إلى بروسة أن الإيطاليين أرادوا استمالة السيد أحمد والإنفاق معه، فأوفدوا ضابطاً إيطالياً لمفاوضته واسترضائه، وذلك لحوفهم من أن يقيم السيد أحمد العالم الإسلامى عليهم، فلما سأل الضابط الإيطالى عن مطالبه، كان جواب السيد أحمد إن لديه مجموعة من الكتب محفوظة فى صناديق بواحة الجغبوب، يريد من من الطليان أن يأتوه بها، وإن لديه علاوة على ذلك إحدى الجوارى أم أحد أبنائه يريد منهم أن يأتوه بها كذلك. وانتهت "المفاوضة" فلما بلغ بشير السعداوى ذلك غضب من ضياع الفرصة، ودخل على السيد أحمد الشريف يستفسر عن

صحة ما بلغه، فكان جواب السيد: "صحيح يا ابن الحلال لقد حضروا، ولكن هؤلاء لا يرجى أى خير منهم، فالأحسن أن يأتوا لنا بالكتب لئلا تضيع!"

وفى يوليو ١٩٢٠ كان بشير السعداوى فى بيروت، ولكنه لم يمكث بها طويلا. ذلك أنه قرر وأخوه نورى السعداوى أن ميدان العمل صار الآن فى طرابلس الغرب ذاتها. بعد أن نفضت الدولة يدها من مؤازرة القضية الطرابلسية وفشلت جهود بشير السعداوى فى استثارة رجال الحكم والسياسة العثمانيين إلى الاهتمام بقضية بلاده وقت انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس، وقر الأئ على أن تقوم الدعوة فى طرابلس الغرب ذاتها للسيد أحمد الشريف، وكان السيد أحمد نفسه من هذا الرأى، وكذلك كان السيد صالح حرب الذى يرافق السيد فى بروسة وتركيا منذ خروجهما من ليبيا سوياً. وفضلا عن ذلك فقد كان الموقف فى طرابلس الغرب ذاتها يدعو لأن تنشط قيادة رشيدة تستطيع أن تقضى على الخلافات والتزاعات الداخلية بين المجاهدين العرب أنفسهم، حتى يجمع "الزعماء" الطرابلسيون كلهم على قتال الطليان ويوحدوا صفوفهم من أجل طرد العدو الغاصب من أوطانهم. وكان حوالى أسبوع أو عشرة أيام فقط من وفاة رمضان السويحلى الذى لقى حتفه فى ٢٤ أغسطس ١٩٢٠، أن وصل بشير السعداوى وأخوه نورى إلى القطر الطرابلسى فى أوائل سبتمبر من العام نفسه.

استئناف الجهاد فى طرابلس الغرب:

من الأسباب القاطعة فى تقرير بشير السعداوى وأخيه نورى السعداوى العودة إلى طرابلس، أن مواطنيهم فى طرابلس الغرب بعثوا لهما بعدة كتب يدعونهما للعودة إلى أرض الوطن. وكانت أكبر حجج هؤلاء لإقناعهما بذلك أن بلاد الشام قد صار يحتلها المستعمرون الآن، فالسعداوى وأخوه يقيمان الآن فى بلاد محتلة، ولذلك يتساوى استمرارهما فى سوريا مع

عودتهما للعيش فى وطنهما، فكلا البلدين يحتله الأجنبى . ولكن وجودهما بطرابلس الغرب، سوف يمكنهما ولا شك من خدمة وطنهما الذى كادت تمزقه النزاعات الداخلية بين الزعماء المحليين خصوصاً . وكان رمضان السويحلى صاحب السيطرة الفعلية فى هذه الآونة فى البلاد التى لم يستطع الطليان وقتذاك احتلالها أو إخضاعهما لنوفذهم فى القطر الطرابلسى، أحد الذين كتبوا للأخوين بشير ونورى السعداوى بهذا المعنى . ويذكر نورى السعداوى من الآخرين التهامى قليصه وهو مصراتى .

ولما كان فى عزم بشير السعداوى أن ينشر الدعوة فى طرابلس الغرب للسيد أحمد الشريف قد عقد الآمال الكبيرة على إمكان الاتفاق مع أهل البلاد، ومع رمضان السويحلى على وجه الخصوص على أخذ البيعة بالإمارة للسيد أحمد الشريف . وحفزه هذا الأمل على الإسراع بالعودة إلى طرابلس الغرب . ولكن هذه الآمال سرعان ما تحطمت عندما كان أول خبر بلغ بشير السعداوى وأخاه عند وصولهما إلى سرت، أن رمضان السويحلى قد قضى مقتولا فى ورفلة وأن الاضطرابات والنزاعات الداخلية تسود البلاد، وأدرك السيد بشير السعداوى أن المهمة التى عليه أن يقوم بها ليست نشر الدعوة لإمارة السيد أحمد الشريف كوسيلة لإنشاء جبهة متحدة فى القطر البرقاوى الطرابلسى ضد الطليان، ولكن العمل لإزالة الخلافات بين الرؤساء المحليين للحيلولة دون انهيار الجبهة الداخلية فى القطر الطرابلسى نفسه . وأما كيف نشأت هذه الحالة (فى وسط وأواخر سنة ١٩٢٠) التى جعلت بشير السعداوى يترك نهائياً التفكير فى الدعوة لإمارة السيد أحمد الشريف، والتى رسمت لنشاطه الطريق الذى تحتم عليه قسراً أن يسر فيه أثناء الأعوام القليلة التالية، حتى خروجه "مهاجراً" من طرابلس مرة ثانية فى سنة ١٩٢٤، فذلك ما تفسره معرفة ما وقع من حوادث بعد أن وقع الأتراك الهدنة فى (مدروس) فى أكتوبر عام ١٩١٨، وتقرر انسحاب الأتراك من طرابلس الغرب على النحو الذى سبق توضيحه .

ولعل أهم هذه الوقائع إنشاء (الجمهورية الطرابلسية) على اعتبار أنها "النظام" الذى يقوم فى القطر الطرابلسى - بعد جلاء الأتراك عنه، للاضطلاع بمهمة الحكم فى البلاد التى ظل أكثرها فى قبضة الوطنيين - فلم يكن الطليان يحتلون إلا مدينة طرابلس، والخمس وزواره - والتهيو لوقف العدوان الإيطالى سواء بطريق القوة، إذا كان فى مقدور المجاهدين التغلب على العسكر الإيطالى، أو التفاهم مع العدو على أساس اعتراف الطليان بالحكومة الوطنية وحقوق الوطنيين.

ولقد سبق أن أوضحنا بالتفصيل فى كتابنا (السوسية دين ودولة) الخطوات التى أدت إلى تأسيس (الجمهورية الطرابلسية) وكان من العوامل الظاهرة فى تأخير تأسيسها ما كان هنالك من خلافات مستحكمة بين مصراته وترهونة وروفلة، وهى النزاعات التى جعلت الرؤساء يكتبون إلى بشير ونورى السعداوى حتى يعودا إلى البلاد. على أن التشاور فى إنشاء هذه الجمهورية لم يلبث أن اتجه وجهة علنية عندما صار أكثر الزعماء المحليين يوافقون على فكرة إنشائها. فانعقد فى البويرات فى يوم ١٥ نوفمبر ١٩١٨ اجتماع كبير حضره رمضان السويحلى وعبد النبى بلخير (ابن خير) وأحمد المريض - وجاء مع أحمد المريض أربعة آخرون من زعماء ترهونة - ثم الشيخ محمد سوف وسليمان البارونى واسحاق باشا الحاكم العثمانى الذى جاء مع الأمير عثمان فؤاد الذى حضر إلى طرابلس فى مايو من العام نفسه ليتسلم القيادة العامة فى إفريقية الشمالية - وكان ذلك قبل عقد هدنة (مدروس) المعروفة. وحضر الاجتماع كذلك عبد القادر باشا الغناى، وكان هذا قد وصل إلى مصراته فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى يتسلم القيادة من الأمير عثمان فؤاد. والغناى أصله من بنغازى، وكان الغناى لا يؤيد فكرة الجمهورية. ولكنه أذعن كما أذعن كثيرون من الرؤساء المحليين أمام إصرار

رمضان السويحلى وعبد النبی بلخير، وسليمان البارونى ومختار كعبار وغيرهم، وفى ١٦ نوفمبر استؤنف البحث فى اجتماع آخر عقد فى القصبات (مسلاته) وأعلنت فى ذلك اليوم (١٦ نوفمبر) نتيجة انتخابات مجلس شورى الحكومة ومجلس جمهوريتها. وأسفرت اجتماعات الزعماء فى مسلاته عن إنشاء الجمهورية بصورتها النهائية. وفى يوم ١٨ نوفمبر أصدر مجلس الجمهورية بلاغاً أذاعه فى أنحاء البلاد يعلن تأسيس الجمهورية. وتقرر إرسال هذا البلاغ إلى الحكومات: الإيطالية والإنجليزية والفرنسية والرئيس ويلسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية صاحب (النقاط الأربع عشرة) التى مهدت لإنهاء الحرب العالمية الأولى والتى عقد عليها الأحرار فى الشعوب المسلوقة حرياتهما كل الآمال فى تحقيق أمانها الوطنية.

وعرضت "الحكومة" الجديدة على اسحاق باشا أن يبقى قائداً عاماً، ولكنه رفض لأن الدولة أمرته بالانسحاب. فعهدت "الحكومة" بالقيادة إلى عبد القادر الغناى فتسلم قيادة الجيش ومهامه من اسحاق باشا. وكان مقر القيادة العامة فى الزاوية الغربية، ولكن الغناى لم يلبث أن خيبت آمال الوطنيين فيه خيبة كبيرة. وذلك أنه وقع فريسة للأعيب الاستعمار الإيطالى. حيث استطاع أحمد بن المنتصر - والد محمود المنتصر - وكان يعيش مع الطليان فى طرابلس، أن يتراسل سرّاً مع الغناى للاتفاق على تسليم القيادة والجيش فى البلاد بأسرها للطليان. وادعى الغناى زوراً وبهتاناً أنه متفق مع حكومة الجمهورية على تسليم الزاوية للطليان. وبالفعل احتل هؤلاء الزاوية فى يناير ١٩١٩.

وعندما وقعت هذه الكارثة - لأن الزاوية كما وصفها المعاصرون كانت أمتع من عقاب الجو على الطليان - لم يكن يجتمع أعضاء الحكومة الجمهورية مكان رئيسى واحد. فكان أحمد المريض مقيماً فى تزهونة، ورمضان السويحلى فى مصراته، وسليمان البارونى فى العزيزية، وعبد النبی بلخير فى

ورفلة، ويسودهم جميعاً الشعور بالاطمئنان إلى أن جبهتهم قوية وإلى أن القيادة - ومركزها في الزاوية - في أيد أمينة فلما بلغ هؤلاء الخبر طلب أحمد المريض من رمضان السويحلى الحضور بسرعة. وبادر هو بالخروج من ترهونة في مائة وخمسين فارساً والتحق بسليمان البارونى في العزيزية. وكان مما زاد في خطورة الموقف أن العسكر الطليان عندما احتلوا الزاوية اختلطوا بالجيش العربى - جيش المجاهدين - بها، وصاروا يتبادلون الهدايا مع جند المجاهدين. وكل ذلك نتيجة للادعاء بأن التسليم بموافقة حكومة الجمهورية. ولذلك فقد أسرع أحمد المريض وسليمان البارونى بإرسال جماعة من العزيزية للاتصال بالضباط والعسكر في الزاوية وتبصيرهم بحقيقة الموقف وبأن تسليم الزاوية خيانة من عبد القادر الغناى. ولينفوا أن أعضاء الجمهورية قد عقدوا صلحاً مع الطليان، وكان على رأس جيش المجاهدين بالزاوية عبد العاطى الجرم - وهو من الحسون - لم يلبث عندما عرف الحقيقة أن انسحب بالجيش ومهماته بأكملها من الزاوية إلى العزيزية. ثم حضر إلى العزيزية سائر أعضاء حكومة الجمهورية واتخذوا من هذا البلد مركزاً ثابتاً لهم.

ولما فشلت حركة الغناى، استأنف الطليان القتال. وكان من رأى الوالى الإيطالى فى طرابلس (غاربونى) لنجاح العسكرية، أن يكون هدفها احتلال العزيزية وسرت ومصراته، كما رأى أن تنشئ الحكومة المحلية فى طرابلس علاقات وثيقة مع عبد الجليل سيف النصر لتنظيم واحات الجفرة وفزان. ولكن هذا البرنامج السياسى والعسكرى كان برنامجاً واسعاً عجزت الحكومة المركزية فى رومة عن إرسال القوات والنجادات اللازمة لتنفيذه لأنها كانت منهوكة القوى بعد خروجها من الحرب الأوروبية، فاقترصت أعمال الحكومة المحلية فى طرابلس على بعض مناقشات قليلة الشأن كان آخرها اشتباك الطليان مع المجاهدين فى معركة غير حاسمة فى يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٩، وقفت بعدها العمليات العسكرية، ولم يجد (غاربونى) سائلاً من استئناف المفاوضات مع زعماء الجمهورية.

وأسفرت المفاوضات عن موافقة المجاهدين فى آخر اجتماع للمفاوضين من الجانبين فى خلة الزيتونة فى ٢١ إبريل سنة ١٩١٩ عن الصلح الذى صار يعرف من ذلك الحين باسم صلح بنيادم على أساس قرار الحكومة (الإيطالية) الذى أبلغه الوالى (غارىونى) إلى الزعماء الطرابلسيين، وكان بلاغ الحكومة هذا يحمل تاريخ ٤ مارس من نفس العام. ودخل زعماء المجاهدين مدينة طرابلس فى يوم ٣٠ مايو ١٩١٩ وسط مظاهر الفرح والابتهاج وكان من الذين دخلوا: أحمد المريض، وسليمان البارونى، وعلى الشنطة، وفى ٣١ مايو صدق الملك فكتور عمانويل الثالث على القانون الأساسى، وأذيع النبأ فى منشور صدر فى أول يونيه. وكان من المبادئ التى تقررت اشتراك جميع المواطنين فى أعمال الإدارة العامة. وإجراء انتخابات لتأليف مجلس نواب محلى. فقرر الزعماء العرب إنشاء استشارية أو (مجلس عام) من ثمانية من العرب برئاسة الوالى الإيطالى مهمتها، أثناء فترة الانتقال ولحين قيام الحكومة أو (الإدارة المختارة) - وذلك تغيير يقصد به الحكومة الذاتية التى نص عليها القانون الأساسى فى فصله الثالث عشر، الاضطلاع بمهمة تعيين الإداريين كالمصرفين والقائمقامين ومن إليهم، وذلك تنفيذاً لما جاء فى القانون الأساسى السالف الذكر والصادر فى أول يونيه ١٩١٩ فى فصليه الثالث والعشرين والرابع والعشرين. وقد وافق بالفعل الوالى الجديد (متزنجر) فى ٤ سبتمبر على تعيين الأعضاء الثمانية حسب قائمة تقدم بها أحمد المريض إلى الحكومة فى اليوم السابق، وبموافقة رمضان السويحلى (شتيوى). وهؤلاء الثمانية كانوا: عمر بودوس وأحمد السويحلى (شتيوى) وعلى الشنطة وأحمد الفساطوى ومحمد فكينى. ومحمد الصويعى الخيتونى ومحمد مختار كعبار ومحمد بن الفقيه حسن.

وكان العرب قد بدأوا يستأنفون نشاطهم السياسى منذ أن غادر (غارىونى) البلاد وجاء الوالى الجديد (متزنجر) فأكثر أعضاء (مجلس الحكومة) الثمانية من الاجتماع ببعضهم بعضاً. وذلك فى الوقت الذى بدأت

حكومة رومه لأسباب عدة تظهر تمللها من عقد الصلح مع العرب. ولم ينفذ الطليان شيئاً من الوعود التى تضمنها القانون الأساسى، ولم يفعلوا شيئاً لإجراء الانتخابات النيابية أو إنشاء الحكومة (الذاتية) التى تم الاتفاق على تأسيسها. وأنشأ الزعماء المؤيدون لسيطرة رمضان السويحلى منظمة جديدة سموها (حزب الإصلاح الوطنى). فكان من أعضاء هذا الحزب عبد الرحمن عزام وكان وثيق الصلة برمضان السويحلى (شتيوى) وخالد القرقرنى وعثمان القيزانى مدير جريدة (اللواء الطرابلسى)، ثم رمضان السويحلى نفسه الذى سمى رئيس شرف للحزب، بينما أعطيت الرئاسة العاملة لصاحب ترهونة أحمد المريض. وفى ٣٠ سبتمبر ١٩١٩ نشر الحزب برنامجه. وكان برنامجاً فحماً يقوم على ضرورة تنفيذ القانون الأساسى للمحافظة على حقوق العرب كاملة غير متقصة، والتفاهم المنتج بين العرب والطيالان، وإصلاح أحوال الأهليين العرب أنفسهم والعمل على إسعادهم على أساس توزيع الثروة نوزيعة عادلا بين أفراد الشعب، والمحافظة على حقوق الضعفاء فى ظل أحوة شاملة. ولكن كل تلك الآمال العريضة كان مقتضياً عليها بالانهايار من البداية، ليس لتنكر الطليان لوعودهم وتحلم من موائيقهم، بقدر ما ساد بين الزعماء من ضروب النزاعات والخلافات الشخصية. وكان لحسم هذه الخلافات التى زادت دسائس الطليان من حدتها، ولتوحيد الجهود أمام الطليان لوقف مراوغاتهم ولإنشاء الحكومة الوطنية أن قرر الزعماء عقد مؤتمر يضم الرؤساء والشيوخ لبحث هذه المسائل. وكان من المنتظر عند نجاح الدعوة لهذا المؤتمر أن تكون رئاسة الحكومة الوطنية المزمع تأسيسها من نصيب رمضان السويحلى غير أن الخلافات الداخلية عطلت انعقاد المؤتمر فترة من الزمن، كانت كافية لأن يقضى فى أثنائها على رمضان السويحلى نفسه.

فقد استحكم الخلاف بين رمضان السويحلى، وعبد البى بن خير (بلخير)، وسبب هذا الخلاف أن الأخير مدين ببات مركزه فى رفلة بلده إلى رمضان السويحلى، ولذلك يأنف رمضان من مأن يعتبر عبد النبى نفسه نداءً

له . بينما يرى عبد النبي أنه مسيطر على بلده ورفله ، ولا يجوز لرمضان أن يعتبره ند له . واتسعت هوة الخلاف بين الرجلين بسبب تدخل (الكعابة) آل كعبار الذين كان يهمهم لسبب أو لآخر أن يزيد الشقاق بين السويحلي (مصراته) وابن خير (ورفله) . والكعابة أنفسهم من (غريان) . وحاول بعض الرؤساء التوسط لإزالة الخلاف بين رمضان وعبد النبي ، عندما شعروا أن الطليان الذين يذلون قصارى جهدهم لبذر بذور الخلاف بين الززعماؤ المحليين ، قد استبشروا خيراً باتساع شقة الخلاف بين هذين الزعيمين ، فحضر من مدينة طرابلس إلى ترهونة لمقابلة أحمد المريض رئيس (عمل) حزب الإصلاح الوكني جماعة كان من بينهم محمد فرحات الزاوي ومحمد بن الفقيه حسن ، وغرضهم التوسط بين مصراته (رمضان السويحلي) ورفله (عبد النبي بلخير) . ثم استأنفوا السير بالسيارات إلى ورفله ولكن مهمتهم كان مقتضياً عليها بالفشل لأنهم لم يستطيعوا أولاً استمالة رمضان إلى الصلح ، فلم يعبأ بمساعيهم عبد النبي ، ورجعوا ترهونة فاشلين . وكان من رأيهم الذي أفصحوا عنه لأحمد المريض أن البلاد لا ريب مآلها للضياع إذا لم يتدخل أحمد المريض لحسم هذا الخلاف . فبعث هذا وفداً إلى ورفله كان أعضاؤه عبد الصمد النعاس والحاج صالح بن سلطان وعبد السلام المريض بن محمد المريض (الصغير) أخى أحمد المريض ، وذلك لإحضار عبد النبي بلخير رالى ترهونة حيث يقابلونه بها برمضان السويحلي . ووجد الوفد عند وصوله إلى ورفله البلاد فى اضطراب وتهيأ أهلها للدفاع عن أنفسهم ، حيث تبين أن أخباراً وصلت عبد النبي بأن السويحلي على وشك أن يأتيه من طريق غريان للهجوم على ورفله واحتلالها . فكذب الوفد هذه الأخبار وأكدوا لعبد النبي أن رمضان مقيم فى سوانى بن يادم وأنه لم يتحرك منها ولا ينوى بتاتاً أى هجوم على ورفله ، ثم أوضحوا له الغرض من مجيئهم إلى ورفله ، فقال عبد البين إن وفداً من مدينة طرابلس - هو الوفد الذى سبقت الإشارة إليه - قد جاء لهذه الغاية ولكنه لم يعبأ به ، ولكن الآن وقد جاء هؤلاء الثلاثة من

ترهونة فإنه لا يجد ندحة عن تلبية رغبتهم والإصارت ترهونة ضده أو على حد تعبيره "هصا وفي رأسها دبوس" وقبل عبد النبي الدعوة وذهب معهم إلى ترهونة، على أن تبعث ترهونة في طلب رمضان السويحلي من سوانى بن يادم.

وبمجرد أن وصل الجماعة إلى ترهونة قام بنفس السيارة التى أتوا بها وقد آخر إلى سوانى بن يادم لدعوة رمضان. وكان الوفد يتألف من محمد المريض (الصغير) والمبروك بن المنتصر (الترهونى)، وفشل الوفد فى مهمته. فقد وعد رمضان عندما تحدثوا إليه عقب وصولهم فى مساء اليوم نفسه فى الغاية التى حضروا لها بأن يذهب معهم فى الصباح إلى ترهونه. ولكنه رجع عن قراره الأول فى الصباح ورفض الذهاب معهم بدعوى أنه هو الذى "صور" عبد النبي بالخير ونفخ فيه وجعله شيئاً مذكوراً. وأنه لذلك أعرف به من غيره ولما كانت ترهونة قد تدخبت على هذه الصورة، فهو مجاملة لزعمائها يعد (بأن لا يخاصمه، وبأن لا يصافحه).

ولما لم تسفر هذه الوساطة عن نتيجة، رجع عبد النبي إلى ورفله، وانتقل رمضان من سوانى بن يادم إلى القصبات (مسلاته)، وأخذ كل من الرجلين يعد العدة فى الخفاء للانقضاض على الآخر. وصارت (ترهونة) ذاتها تتهياً هى الأخرى للدفاع عن نفسها، لخوفها أن يلحق بها الأذى إذا وقع الصدام بين رمضان وعبد النبي.

وانتهز الطليان كما كان دأبهم - هذه الفرصة المواتية لإشعال نار الحرب الأهلية. فيقول المعاصرون إنهم بعثوا بأحد صنائعهم عبد القادر بن المنتصر وهو أخ لسالم وأحمد المنتصر، عن طريق العزيزية وغريان إلى ورفله محمد بالمال، ليعمل على استغلال هذا الخلاف. وكان يهم عائلة المنتصر أن يستحكم الخلاف بين ورفله ومصراته، ويريدون تقوية ورفله على حساب مصراته التى يتزعمها رمضان السويحلي. فلما بلغ عبد القادر ابن المنتصر ورفله، لم يشأ

عبد النبي بلخير أن يرحب به أو أن يخرج من البلاد، ولو أنه وجد في مسعى عبد القادر وسيلة تحميه من شر مضراته، فاتفق معه على أن يأذن له باتخاذ مكانه في (وادي سوف الجبل) الذي يبعد حوالي العشرين كيلو مترًا من ورفله، وهناك يستطيع بفضل الأموال التي معه أن يؤلف (الجيش) الذي يريده ممن يشاءون اللحاق به، ودون أن يتعرض له عبد النبي بشيء. وبالفعل استطاع عبد القادر بن المنتصر أن يشكل جيشًا من حوالي الخمسمائة أو الستمائة من حثالة القوم في ورفله حيث رفض أبناء القبائل الانضواء تحت لوائه. وكان يعاون عبد القادر بن المنتصر في هذه المهمة جيهان فورية وكان يعمل ضد رمضان السويحلي، وهو من مصراتة كذلك، اضطر إلى الهرب منها والالتجاء إلى الطليان في طرابلس.

وبدأت المناوشات بأن أغار عبد القادر المنتصر على (تاورغاء) واستولى على إبل أهلها فصمم رمضان على الاقتصاص منه ومن ورفله، فألف جيشين أحدهما برئاسة أخيه أحمد السويحلي يقوم من مصراتة، والآخر برئاسة يقوم من مسلاته، ويضم جنودًا عن مسلاته وزلطين وسوف الخميس. أما جيش أحمد السويحلي فقد سار إلى (تاورغاء) وتقدم حتى وصل إلى سوق الجبل واشتلك مع عبد القادر بن المنتصر في واقعة انهزم فيها عبد القادر شر هزيمة يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٠ وانحسب من (سوف الجبل) إلى بني الوليد مركز ورفله. أما جيش رمضان وكان حوالي مائتي مسلح فقد قصد رأسًا إلى بني الوليد فبلغها صباح يوم عيد الأضحى، ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٠، واحتل البلدة، وكان عبد النبي عندما وقع الاحتلال لا يزال نائمًا في غرفته في (قصر الحكومة). وقصة إيقاظ عبد النبي ووقوعه في الأسر ثم انفكاكه منه والاشتباك في معركة حامية مع رمضان ووقوع هذا الأخير بدوره في الأسر ثم إطلاق الرصاص عليه معروفة مشهورة. لعل أظهر نفاصيلها أن (عمر العوراني) الرجل الذي دخل على عبد النبي بلخير في غرفته لإيقاظه فإنه أن ينزع بندقيته رمضان وكانت هذه معلقة على الحائط، بينما هو كان يحمل

بندقيته معلقة على كتفه، فاستطاع رمضان أن يتتزع بندقيته وأن يهدد بها (عمر العورافي) الذي أسرع بالفرار. ثم عمد رمضان إلى إطلاق سراح المساجين في (قصر الحكومة) وكانوا حوالي الثلاثين أو الأربعين وأعطاهم السلاح، فتبادلوا الرصاص مع جماعة بلخير وسمع الأهليون في القرى المجاورة إطلاق النار، وكانوا يتوقعون أن يهجم على البلدة رمضان فأسرعوا بالحضور لنجدة عبد النبي واستولوا على آبار البلدة، واستمر القتال إلى المساء وفي اليوم التالي (٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠) اشتد العطش برجال رمضان، ووقع هذا في أسر أعدائه، وطلب أن يأخذوه إلى عبد النبي، ولكن عبد النبي كان قد حذر جماعته: "إذا أحضرتم رمضان فإنه لا يموت"، ومعنى ذلك أن يقضوا عليه إذا وقع في أيديهم حيًّا. وبالفعل ما لبثوا أن أطلقوا عليه الرصاص وهو في الطريق في لمقابلة غريمه. وكان مقتله شرقي قصر ورقله بالقرب من شعبة ابن فايد.

وكان لمقتل رمضان السويحلي (شتيوى) ضجة كبيرة في البلاد بأسرها. وتناثرت الأقوال عن أسباب هذه المحنة؛ وكان واضحًا أن لدسائس الطليان ضد رمضان أكبر الأثر في إنهاء حياته. واعتقد كثيرون أن رمضان السويحلي في تدابير الأخريرة كان خاضعًا إلى حد كبير لمشورة عبد الرحمن عزام الذي انتقل من طرابلس إلى سوانى بن يادم حتى يكون إلى جوار رمضان بعد يوم أو يومين من مقابلة وفد ترهونة لرمضان (وهو الوفد المؤلف - كما عرفنا - من محمد المريض والمبروك بن المنتصر الترهوني). ولأزم عزام رمضان السويحلي عند انتقاله من سوانى بن يادم إلى القصبات. وبقي على اتصال مستمر به وهو بمسلاته ما يزيد على شهرين من الزمان. وخرج رمضان من مسلاتة وبدأ الجيش زحفه في ٢٠ أغسطس من (دوقان). وهى بئر مشهورة بين ورقله ومصراتة وزليطن. صوب ورقله، بينما بقى عبد الرحمن عزام فى مسلاته. وبلغ من شدة اعتقاده الناس بأنه كان فى وسع عبد الرحمن عزام الحيلولة دون وقوع هذه الكارثة، لو أنه أشار على رمضان أن يخفف من

علوائه، ويحسم خلافاته مع عبد النبي بلخير، ولو أنه لم يكن هو نفسه يريد تعظيم قوة رمضان السوحيلى حتى يحتمى وراء سيطرته، فيتمتع "بالحكم" من وراء ستار - نقول بلغ من شدة بعض الرؤساء على عزام أن الحاج محمد النعاس لم يستطع إلا أن يجلبه بقوله عندما أتى عزام إلى ترهونة بعد حوالى العشرين يومًا من وفاة رمضان السوحيلى: "ما الذى يأتى بك إلى هنا؟ ألم يكفك أنك تسببت فى خراب مصراته؟ وهل تريد أن تتسبب كذلك فى خراب ترهونة؟" ولا جدال فى أن الحاج محمد النعاس ومن تأثيره بهذه الآراء من قومه كان مخطئًا فى هذا الاتهام، ولعل السبب فى هذا التغيير على عزام اعتقاد أهل ترهونة كذلك أن عزامًا وفد فقد القوة التى كانت تحميه وتسند به وفاة رمضان السوحيلى، أراد الآن أن ينضوى تحت لواء الرجل الذى خلصت له الزعامة وهو صاحب ترهونة أحمد المريض، وعلى أى الأحوال فالذى لاشك فيه ان عبد الرحمن عزام لم يلبث أن ذهب إلى مصراته ليؤلف وفداً أتى به إلى ترهونة، من أعضائه عمر بودبوس، وتهاى قليصة، والحاج محمد بن حموده، والحاج عبد السلام الجدائمي (وهذا من زليطن) وذلك لتوثيق العلاقات بين ترهونه ومصراته، وبقي عبد الرحمن عزام فى ترهونة واشترك فى المباحثات التى كانت تدور وقتئذ حول عقد المؤتمر الذى كان تعطل بسبب الخلاف بين رمضان السوحيلى وعبد النبي بلخير.

٢ - بشير السعداوى فى طرابلس:

تلك كانت الحال عند وصول بشير السعداوى إلى القطر الطرابلسى، وكان واضحًا أن الخلافات والتزاعات الداخلية بين الزعماء والرؤساء الطرابلسيين أكثر الأخطار المهددة بالقضاء على أية مقاومة جديّة من جانب الوطنيين ضد الطليان. ولم يكن مبعث هذه الخلافات الداخلية سوى الأحقاد والخصومات الشخصية وتطاحن الزعماء فيما بينهم حول مكان الصدارة والرئاسة، فضلاً عن التعصب للمذهب والجنس مما أحال "المجاهدين" العرب والبربر من أهل البلاد إلى عصابات تلتف حول الزعماء المتنازعين، وتقاتل

فيما بينها، حتى نشأ في طرابلس الغرب ما يشبه فوضى الأقطاع الأوروبي المعروف في العصور الوسطى على أن هذه الفوضى الداخلية كانت أكبر ما انتفع الطليان به في توطيد أقدامهم في المراكز - القليلة أولاً - التي احتلوها، ثم نشر نفوذهم وسلطانهم في بقية المناطق واحدة بعد أخرى بعد ذلك، ولم يكن مسعى "عقلاء" المجاهدين لعقد مؤتمر غريان - وهو المؤتمر الذي عطلت انعقاده وفاة رمضان السويحلي - إلا لمحاولة القضاء على هذه النزاعات الداخلية وتوحيد الصفوف في ظل حكومة وطنية رشيدة وحازمة قتود الجهاد ضد الطليان للاتفاق بالطريق "الشياعية" معهم على ما فيه دعم الحكومة الذاتية في إقليم طرابلس أو انتزاع هذا الحق - الذي يكفل سائر حقوق المواطن العربي وحرياته - انتزاعاً بقوة المقاومة والنضال المبرر ضد الاحتلال الإيطالي ولذلك فقد تحتم أن يسير نشاط المجاهدين في الوقت الذي وطئت فيه أقدام بشير السعداوي أرض الوطن في اتجاهين: أحدهما محلي صرف الغرض منه تسوية المشكلات وحسم النزاعات بين مختلف "المدن" أو الرؤساء الذين شغلتهم المنافسة على الرئاسة عن مقاومة الاستعمار، والآخر سياسى، لتقرير نوع العلاقات التي يجب أن يكفل قيامها بين المحتل والبلاد تحقيق أمانى الوطنيين المشروعة. ويتدرج في هذين النوعين من النشاط، كل ما كان أو صار يبذل وقتئذ من جهود لإنشاء جبهة متحدة للمقاومة الوطنية ضد الطليان، تشمل برقة وعلى رأسها أميرها السيد محمد إدريس السنوسي وطرابلس الغرب. وسوف نرى أن بلوغ هذه الغايات الثلاث كان مقصد بشير السعداوي ومناذرها ما صار يبذل من جهود متصلة منذ أوبته إلى الوطن في عام ١٩٢٠ إلى أن اضطر أسفاً إلى مغادرة البلاد والهجرة مرة ثانية بعد ذلك بأربع سنوات تقريباً.

ولقد وقف السعداوي على تفاصيل حادث رمضان السويحلي عند وصوله إلى مدينة طرابلس، واستطاع أن يعرف الشيء الكثير عن نزاعات الرؤساء الوطنيين الداخلية، كما أنه استطاع أن يلمس وهو بمدينة طرابلس

مدى خضوع تلك الفئة من مواطنيه الذين آثروا من هذا الوقت المبكر أن يكونوا "عمليين" فلم يكتفوا بمهادنة الطليان بل صاروا يبذلون كل جهد لمعاونتهم على تحقيق مآربهم الاستعمارية وتوطيد أقدامهم فى البلاد. ومن المعروف - كما ذكرنا - أن بشير السعداوى وأخاه نورى وصلا إلى القطر الطرابلسى فى أوائل شهر سبتمبر ١٩٢٠ بعد وفاة رمضان السويحلى (فى ٢٤ أغسطس) بأسبوع أو أكثر قليلا. وكانا قد غادرا بحر الإسكندرية إلى سرت، وفى سرت كان أول سماعهما يخبر وفاة رمضان، ويقول نورى السعداوى: إن يهوديًا ركب البحر معهم من سرت إلى طرابلس أبلغهما أن رمضان قتل فى أرفلة ثانى أيام عيد الأضحى لعام ١٣٣٨ هـ. وفى مدينة طرابلس مكث بشير السعداوى حوالى الأسبوع قبل السفر إلى الخمس. وكان عند وصولهما إلى مدينة طرابلس أن جاءهما الهاشمى بورخيصى ليلغهما أن الوالى الإيطالى الجديد (مركاتلى) الذى وصل إلى مدينة طرابلس لتسلم مهام منصبه بعد وفاة رمضان السويحلى بتسعة أيام فحسب - دهش لأن بشير السعداوى وأخاه لم يقوما بزيارته وهو لذلك يسأل عنهما، وكان من رأى الهاشمى بورخيصى أن الواجب على بشير السعداوى ونورى السعداوى أن يبادرا بزيارة الوالى. ولكنهما أيا أن يزوراه، فلا علاقة بينهما وبين الرجل، ولا يجدان سببًا لزيارته وأنهما إنما عادا إلى وطنهما، وشأنهما فى ذلك شأن أى مواطن يعود إلى بلده. ورأيا من الحكمة عدم البقاء طويلا بالمدينة فلم يلبثا أن غادراهما إلى الخمس، وكان وصولهما إلى الخمس مؤذنًا ببداية ذلك النشاط الذى تميزت به إقامة بشير السعداوى فى البلاد خلال السنوات الأربع التالية، والذى جعل منه رسول سلام بين الجماعات والقبائل المتخاصمة تارة والرؤساء المتنافسين تارة أخرى، أو لإزالة الخلافات بين الرقاوين والطرابلسيين وجمع كلمة أهل الوطن بأسره على محاولة استنقاذ البلاد من قبضة الطليان وإنشاء الحكومة الوطنية التى تحفظ مصالح أبناء الوطن وتذود عن كرامتهم.

وتفصيل ذلك أن بشير السعداوى لم تلبث أن جاءته بعد أيام قليلة من وصوله إلى الخمس دعوة من أهل مسلاتة ليجتمع بجماعة منهم فى مكان يدعى (شقراڻ) أو شجران خارج بلدة الخمس، حتى يسأله التوسط لإنهاء الخلاف بينهم وبين أهل مصراتة. وكان أهل مصراتة يعتبرون أنفسهم أصحاب السيطرة والسلطان على أهل مسلاتة، بينما يعتبر هؤلاء الآخرون أنفسهم على قدم المساواة مع سائر المجاهدين. ولا يصح لأهل مصراتة أن يفرضوا سلطانهم عليهم. ولو يلبث أحمد السويحلى الذى يحاول أن يملأ المكان الذى خلا فى مصراتة بقتل أخيه رمضان، أن جاء إلى (شقراڻ) مع عمر بودبوس، يطلب هو الآخر من بشير السعداوى أن يسعى مع أهل مسلاتة لإنهاء الخلاف. وبالفعل قام السعداوى بالوساطة. ولما كان مقتل رمضان السويحلى قد ترك فراغاً فى مصراتة نجم منه اضطراب الأحوال فى مصراتة ذاتها، فقد انعقد الراى على أن يذهب بشير السعداوى إلى مصراتة لمعالجة الموقف هناك. فأجاب السعداوى هذه الرغبة واجتمع بجماعة من أهل مصراتة - زليطن كانوا فى طريقهم إلى شقراڻ، حيث بقى بها نوري السعداوى وأهل مسلاتة، ثم استأنف البشير سيره حتى وصل إلى مصراتة. ولكنه لم يمكث بهذه البلدة أقل من أسبوع حتى جاء خبر رمن (سرت) بأن عبد الجليل سيف النصر يشن الهجوم على قصر سرت ويريد احتلالها. وكان سبب هذا الهجوم أن على المنقوش قائمقام سرت وهو من مصراتة - وكان لمصراتة نفوذ على قصر سرت - كان قد عمد إلى جمع الضرائب وأموال الزكاة من أهل سرت؛ وعارض عبد الجليل سيف النصر فى ذلك بدعوى أن هذه البلاد ملك لأجداده من قديم الزمن، ويجد لذلك غضاضة كبيرة فى دفع العشور والضرائب كائى فرد عادى إلى على المنقوش، فاصطحب بشير السعداوى فى سفرته إلى سرت، عبد الله بن مليطان، من أعيان مصراتة وكبار تجارها، وكانت لابن مليطان تجارة واسعة فى سرت، كما كان له نفوذ قوى بها. وعند وصول السعداوى إلى قصر سرت، وجد على المنقوش فى خوف شديد من

هجوم عبد الجليل المرتقب عليه . فقصده بشير السعداوى وعبد الله بن مليطان إلى قصر بوهادى حيث كان عبد الجليل يجمع قواته به ويهدد بالزحف منه على قصر سرت . فلما سأله بشير - وتربطه بعبد الجليل صلة القرابة - عن سبب مجيئه إلى القرب من قصر سرت ، أعلن عبد الجليل عن غضبه من على المنقوش الذى جرؤ على أخذ العشور منه ومن قبيلة القذاذقة التى اعتبرها عبد الجليل تحت حمايته ، وصمم على الزحف على قصر سرت وطرد على المنقوش منه . ولكن السعداوى استطاع إقناعه بالعودة إلى مكانه - وكانت النوفلية مركز عبد الجليل سيف النصر - فى نظير أن يسترد الشعير الذى أخذه المنقوش عشوراً . ورجع بشير السعداوى وهو يتوق لدرس الموقف السياسى فى البلاد ، وقد رأينا أن الفرصة لم تنح له ليدرس فى هدوء الموقف ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان توافاً لأن يعرف ما حدث فى (شقران) حيث ترك أخاه ونورى السعداوى يحاول حسم الخلافات بين مصراته ومسلاته . وقد طلب بشير من "حكومة مصراته" عند وصوله أن تقيل على المنقوش من منصبه ، فتم له ما أراد .

وعرف السعداوى أن الاستعدادات تجرى لعقد اجتماع تمهيدى فى (العزيزية) لاختيار هيئة من الزعماء تسعى فى سبيل الاستعداد لانعقاد المؤتمر المنتظر فى غريان . فغادر بشير السعداوى مصراته يقصد إلى العزيزية لحضور هذا الاجتماع التمهيدى فى أكتوبر ١٩٢٠ ، ولكنه ما وصل إلى الساحل ، حتى جاء نبأ (بالتليفون) من مصراته بأن عبد القادر ابن المتصر صاحب القصة المعروفة ، قد وصل إلى (سيلين) بالقرب من (شقران) ، ونزل فى بيت (ابن هنىدى) ، وتلك أسرة طيبة كريمة ، فخشى بشير أن يكون غرض عبد القادر إشعال الفتنة فى هذه الجهات بعد ما أشعلها فى ورفلة - على نحو ما عرفناه - فصيح عزمه على الخروج من الساحل فى حوالى المائتى مسلح يسير بهم فى أول الليل كى يفاجئ عند الفجر عبد القادر بن المتصر فى بيت (ابن هنىدى) . وفى نفس الوقت طلب بشير السعداوى من الحاج فرحات القاضى أن يوافيه مع

جماعة أخرى من مسلاتة "لدرء هذا الخطر" وقبل الفجر كان بشير والقوة الحاضرة من مسلاتة قد وصلوا جميعاً إلى (شقران) لمقابلة مديرها إبراهيم بن عباد، الذى أخبر مصراتة بوجود عبد القادر بن المنتصر فى بيت الهندى. وأسفر تشاورهم فى الأمر عن الذهاب بأنفسهم إلى بيت الهندى كى يتأكدوا من وجود عبد القادر عند هذه الأسرة قبل مقاتلتها. ولم يجد بشير والقوة الصغيرة التى اصطحبها معه أثراً لعبد القادر فى بيت ابن هندى حيث استقبل رئيساه: الشيخان محمد وعبد السلام بشير السعداوى بترحيب كبير، وخولاه أن يفتش بنفسه فى بيوت الأسرة عن عبد القادر. وأدرك بشير وصحبه أن تلك كانت وشاية فى حق بيت ابن هندى من إبراهيم بن عباد النكاية بهم. وعاد بشير إلى (شقران)؛ كان من المنتظر أن يجرى بها اجتماع آخر بين أهل مصراتة وأهل مسلاتة فى اليوم التالى، وكان أحمد السويحلى وعمر بودبوس فى طريقهما من مصراتة إليها. وحضر مشايخ بيت الهندى وهما الشيخان الجليلان اللذان سبق ذكرهما للسلام على أحمد السويحلى. ولكن هذا كان لا يزال يعتقد أن هذين الشيخين ضالعان مع عبد القادر بن المنتصر، ولم يكن قد ذكر له أحد بعد أن تلك وشاية كاذبة من ابن عباد فى حق هذا البيت الكريم، ولذلك فإن هذين الشيخين ما خلا للسلام عليه حتى هب أحمد السويحلى لينتزع سوطاً أخذ يضربهما به ضرباً مبرحاً بالرغم من تقدمهما فى السن، وأيهما من أعيان البلاد. وهب بدوره بشير السعداوى ليوقف هذا الاعتداء، وليوضح لأحمد السويحلى أن لا صحة للخبر القائل بوجود ابن المنتصر فى بيت الهندى. ولكن أحمد السويحلى كان قد بلغه كذلك أن الصادق بن الشيخ محمد بن هندى توجه إلى ترهونة، واعتقد السويحلى أنه إنما فعل ذلك للفتنة، لأن مصراتة وترهونة كانتا مختلفتين كذلك، وسبب النزاع الرئيسى تنافسهما على "امتلاك" مسلاتة. وكان من أثر حادث هذا الاعتداء أن غضب أهل مسلاتة، وعادروا المكان عائدين إلى بلدهم.

وقعت هذه الحوادث فى الوقت الذى انعقد فيه اجتماع (العزيرية) فى

أكتوبر ١٩٢٠، وهو الاجتماع الذى استمر حوالى أسبوع، ولم يتمكن بشير السعداوى - كما رأينا - من حضوره. وكان من القرارات التى اتخذها المجتمعون فى العزيزية، الشروع فى انتخاب أعضاء مؤتمر غريان، وأخذت البلاد تستعد لهذا المؤتمر الذى انعقد فى شهر نوفمبر من السنة نفسه، ولم يكن كذلك مقدراً أن يحضره بشير السعداوى، ولو أنه انتخب مع نورى السعداوى أعضاء فى هذا المؤتمر على نحو ما سوف ذكره بعد بيان الأسباب التى حالت دون حضور بشير السعداوى مؤتمر غريان.

وأما هذه الأسباب فأهمها نفس المسعى الذى أخذه على نفسه دائماً منذ عودته من المهجر، لإزالة بواعث الخلافات والانقسامات الداخلية، حتى يدرك الرؤساء الزعماء المحليون ضرورة إغراق نزواتهم وأطماعهم الشخصية فى سبيل المصلحة الوطنية، لتأليف جبهة متحدة قوية فى وسعها أن تصمد فى مقاومة الطليان حتى ترغمهم على إنشاء الحكومة الوطنية الذاتية التى تصون حقوق أهل البلاد. ذلك أنه لم تنقضى أيام معدودات على حادث بيت ابن هنىدى حتى جاءت بشير السعداوى الأخبار عن قيام حركة استعداد كبيرة فى مسلاته، يتهى للدفاع عن أنفسهم ضد مصراتة التى بلغهم أنها على أهبة الزحف على بلدهم. ثم إنهم استنجدوا بترهونة منافسة مصراتة القديمة على الزعامة. فلبت ترهونة الدعوة، وشرعت تتهى للقتال هى الأخرى، وحضر إلى مسلاتة لبحث الموقف مع أهلها محمد المريض (الصغير) أخو أحمد المريض صاحب ترهونة، وعلى ذلك أسرع بشير بالذهاب إلى مسلاتة، فوجد أسواقها مغلقة وخواطر أهلها فى هياج كثير.

واجتمع بشير السعداوى بأعيان مسلاتة وشيوخهم ونفى بشدة أن مصراتة تعتزم الهجوم على مسلاتة كما يعتقد أهلها، وعلى هؤلاء أن يصدقوا ما يقوله هو لهم لأنه حاضر من مصراتة، فلا يتأثروا بالشائعات والأنباء الكاذبة، واطمأن المسلطيون إلى تأكيدات بشير السعداوى. ولكنهم راحوا

يشكون من القوة التى كانت برئاسة عبد العاطى الجرم قائد جيش مصراته،
والذى ضج المسلاتيون من "جوره" ويطلبون خروجه بجيشه من البلدة.
والسبب فى ذلك أن عبد العاطى الجرم أصلاً من أتباع رمضان السويحلى
ووجوده يعتبر رمزاً لسيطرة وحكومة السويحلى - وقد حل السويحلى
(شتيوى) فى الزعامة محل أخيه المتوفى. والمسلاتيون لا يريدون بحال من
الأحوال (حكم السويحلى) ويطلبون إبعاد من يرمز وجوده لهذا الحكم.

ونمى إلى بشير السعداوى أن محمد المريض (الصغير) الذى حضر من
ترهونة - كما ذكرنا - مقيم فى قرية وادنة بالقرب من القصبات. فاعترم بشير
الذهاب إليه، ليس فقط لإقناعه بالعودة إلى ترهونة حيث لا أساس لاعتقاد
المسلاتين أن مصراته تريد الإارة عليهم، بل ولحسم أسباب النزاع كذلك بين
ترهونة ومصراته، والنزاع بينهما قديم، ومن أسبابه - كما عرفنا - التنافس
على امتلاك مسلاتة نفسها أو التمتع بالنفوذ المتفوق عليها، ولما كان المسلاتيون
يدركون خطورة هذا النزاع بين ترهونة ومصراته أكثر من بشير السعداوى الذى
عاد قريباً إلى الوطن بعد غيبة طويلة، فقد نجحوا فى منعه من الذهاب إلى
(وادته) بعد أن أكدوا له أن الأمر رجد خطير وأن أهل ترهونة الذين مع
محمد المريض، من المحتمل كثيراً أن يعجز هذا الأخير عن عودتهم، بالرغم
من أنه أحد زعمائهم، فلا يتركون بشير السعداوى حتى يقتلوه. وأقسم الحاج
مفتاح البريكى يميناً مغلظة أن لا يذهب بشير إلى (وادته) حتى لا يقتله
الترهونيون.

وتسكيناً لخطوط أهل مسلاتة إذاً، وطلب من العسكر الموجودين فى
(شقران) إرسال قافلة من الإبل لحمل القوة التى مع عبد العاطى الجرم والعودة
بها إلى مصراته.

ولكن حدث أن أغارت على هذه الإبل فى طريقها من (شقران) عصابة
من أفراد مجهولين استطاعوا نهب الإبل بعد أن قتلوا اثنين من الجند.

فهاجت الخواطر فى مسلاتة ومصراتة هياجاً كبيراً . وقطعت المواصلات بين مسلاتة وشقران ، وتبعد هذه الأخيرة عن مسلاتة مسيرة إثنى عشر يوماً . وتجمعت قوات من مسلاتة وترهونة فى (وادة) وفى القرى المجاورة حتى بلغوا حوالى الأربعة أو الخمسة آلاف ، ومنهم من نزل بالقرب من (شقران) وتخرج الموقف ، حتى بات واضحاً أن إطلاق رصاصة واحدة ولو بطريق الخطأ كاف لإثارة الحرب . وبذل بشير السعداوى قصارى جهده لتهدئة النفوس وتسكين الخواطر . ونجح بعد لئى وعناء فى أن يجمع عدداً من الإبل يكفى لحمل عبد العاطى الجرم والعسكر الذين معه إلى (شقران) .

وعند وصوله إلى شقران وجد بشير السعداوى أن مصراتة من ناحيتها قد جمعت هى كذلك جموعها ، وحشدت فى (شقران) ألوفاً من مصراتة وزليطن والساحل ، وأنشأوا خطأ للنار . فكان معنى ذلك أن الحرب الأهلية سوف تشتعل لتفنى أبناء الأمة فى تطاحن سوف يمكن بدوره للطلليان أن يوطدوا أقدامهم فى البلاد . فلم يلبث بشير السعداوى عند ما التقى بأعيان المصراتيين ورؤسائهم أن أخذ يصيح فيهم مستفسراً إذا كان لا يكفى لإرضائهم ما وقع من فتن فى ورفله ، بل يريدون أن تتكرر المأساة ، بينما يقف الطليان الأعداء من هذه المأسى موقف المتفرج الشامت ؛ تفرحهم هذه الخلافات والتزاعات الداخلية . ونجح بشير السعداوى فى إقناع هذه الحشود بالتفرق والعودة إلى محلاتها .

ويادر السعداوى بعد هذا النجاح مع أهل مصراتة بالاجتماع مع أحد رؤساء ترهونة وهو الشيخ محمد بن عبد الرحمن فى (وادي بوغالية) ويعد مسيرة ساعة من (شقران) .

واستطاع بعد أن أوضح له حقيقة الموقف أن يقنعه بضرورة نبذ الخلاف . وفى الحال أخذ أهل ترهونة ينسحبون من (وادة) والقرى المجاورة ليعودوا إلى مظاعنهم .

وكان بعد انتهاء هذه المسألة أن جاءت الأخبار إلى بشير السعداوى بأن المؤتمر الذى اتخذت الاستعدادات لعقده من مدة قد انعقد فعلا فى غريان، وأن هذا المؤتمر قد انتخب حكومة وطنية سميت هيئة الإصلاح المركزية، برئاسة أحمد المريض، وأن وفداً مؤلفاً من محمد فرحات الزاوى ومحمد نورى السعداوى وخالد القرقي والصادق بلحاج (ابن الحاج) وعبد السلام البوصيرى، قد تقرر إرساله إلى رومة ليطالب الحكومة الإيطالية بتنفيذ قرارات المؤتمر، وأن أحمد المريض قد عاد إلى ترهونة يعد العدة للاجتماع الهيئة - هيئة الإصلاح المركزية - التى انتخب المؤتمر أعضائها.

٣ - مؤتمر غريان وما بعده:

وانتخب المؤتمر بشير السعداوى عضواً فى الحكومة الوطنية التى أنشأها تحت اسم (هيئة الإصلاح المركزية). كما انتخب المؤتمر أخاه نورى السعداوى - كما رأينا - عضواً فى الوفد المسافر إلى رومه. وأما "مطالب" المؤتمر التى كان على الحكومة الوطنية من جهة تحقيقها بالعمل فى داخل البلاد، وعلى الوفد المسافر إلى رومه من جهة أخرى السعى لنيل موافقة الحكومة الإيطالية عليها فقد صدر بها قرار المؤتمر بعد انتهاء جلساته "بأن الحالة التى آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامى من الأصول بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة.

والذى نود أن نلاحظه على أعمال المؤتمر وقراراته أولاً: أنه قد تبين - وعلى خلاف ما سبق للمؤلف أن ذكره فى كتابه السابق عن (السنوسية دين ودولة) - أن أحداً من المؤتمرين سواء الذين حضروا هذا المؤتمر أن تغيبوا عنه بحكم انشغالهم فى ميادين أخرى، مل يفكر بتأثراً عند وضع صيغة القرار

السالف الذكر فى أن (الرجل المسلم المنتخب) يقصد به أمير برقة السيد محمد إدريس السنوسى، بل كان المقصود بهذا القرار إنشاء حكومة ذاتية فى القطر الطرابلسى وفق الأسس التى جاء بها القانون الأساسى لهذا القطر والصادر منذ أول يونيه ١٩١٩، والذى لم ينفذ الطليان شيئاً منه. ومن المعروف - وكما سبق توضيحه - أن هذا القانون الأساسى قد كفل إنشاء الحكومة الذاتية. وعلاوة على ذلك حدد القانون الأساسى شكل هذه الحكومة الذاتية بأن تكون برلمانية، ولذلك نص قرار المؤتمر على استصدار دستور تقره الأمة بواسطة نوابها. وحرص المؤتمر على أن تأتى هذه الحكومة الوطنية محاطة بسياسج من الاستقرار فى صورة الاشتراك أن لا يعزل هذا الزعيم والرجل المسلم المنتخب من الأمة إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، فلا يخضع بقاؤه أو عزله لمشىئة سلطات الاحتلال الإيطالية. ويؤكد المعاصرون لهذه الحوادث أن الأمير السيد محمد إدريس عندما علم بقرار المؤتمر غريان أوفد إلى طرابلس مفتاح الفيل يحمله كتاباً إلى رئيس هيئة الإصلاح أحمد المريض يرجو فيه أن يسود "التفاهم" بين أهل برقة وأهل طرابلس - وكانت تحدث الإغارة من الجانبين على بعضهم بعضاً فى الأراضى المتاخمة لنهب الإبل وتدور المعارك فى أحيان كثيرة بين القبائل الضاربة بين القطرين - والتمهيد لجمع الكلمة فى وجه المستعمر. وقرأ أحمد المريض رسالة الأمير على نفر من أعيان طرابلس. ولقيت "دعوة" الأمير ترحيباً. ويقول العارفون إن سبب الترحيب بدعوته أن مؤتمر غريان - كما رأينا - كان قدر قرر إرسال وفد إلى رومه للسعى لدى حكومتها كى توافق على قرارات المؤتمر من حيث إنشاء الحكومة الوطنية فى إقليم طرابلس الغرب. ولكن الوفد أخفق فى مهمته بسبب موقف الطليان - على نحو ما سنفضله. فوجد الزعماء الطرابلسيون فى دعوة الأمير السنوسى، ليس فقط وسيلة لإعادة الاستقرار والهدوء فى منطقة "الحدود" بين الإقليمين، بل ولمحاولة إقناع البرقاويين كذلك بالوقوف إلى جانب الطرابلسيين فى جبهة متحدة ضد الاحتلال الإيطالى. ولذلك

لجاءت المفاوضات التي جرت في (سرت) بين البرقاويين والطرابلسيين لتوحيد الكلمة بعد يفر الوفد الذاهب إلى رومه وذيوع نبأ فشله الأول.

أما الوفد الذاهب إلى رومه فقد اجتمع في ترهونة، وقر الرأي على أن يزور مراكز المجاهدين الهامة ليضوح للأهلين المهمة التي انتدب للسفر من أجلها إلى رومة، فقصد إلى مسلاتة، حيث كان بشير السعداوى الذى صحب الوفد إلى زليطن ثم إلى مصراتة، ثم قصد الوفد إلى مدينة طرابلس ليتهيأ للسفر إلى إيطاليا. وكان المؤتمر (مؤتمر غريان) قد أبلغ بعد انقضاؤه قراراته إلى الحاكم الإيطالى فى طرابلس (مركاتللى) وطلب الوفد مقابلة هذا الأخير. ورفض (مركاتللى) أن يسمح للوفد بالسفر إلى إيطاليا بدعوى أنه - أى (مركاتللى) - إنما يمثل حكومته فى هذه البلاد، وعلى الوفد أن يتقدم إليه بالمطالب أو المسائل التى يريد عرضها على ولاية الأمور فى الحكومة المركزية فى رومة. فكان جواب الوفد إن القضية المثارة الآن مما يراه (مركاتللى) ويمارسه، لأن لديهم مطالب لا يستطيع أن يبت الحاكم المحلى فيها برأى دون الرجوع إلى رومة. فاحتج (مركاتللى) بأنه لا يستطيع السماح لهم بالذهاب إلى رومة طالما أن لديهم أسرى من الضباط والأفراد الطليان فى مصراتة، وأكد أن الحكومة سوف ترفض مقابلتهم لهذا السبب لا محالة إذا لم يطلقوا سراح هؤلاء الأسرى قبل محاولة السفر إلى رومة. أما هؤلاء الأسرى فكان رمضان السويحلى قد أسرههم أثناء الاضطرابات بين ترهونة ومصراتة وظلوا فى الأسر من ذلك الحين، ويسعى الطليان لفك إسارهم. وسأل (مركاتللى) عمن يمثل الجبهة الشرقية (مصراتة) من أعضاء الوفد، فعرف أن نورى السعداوى يمثل هذه الجهة. فطلب إليه أن يسعى جهده مع هيئة الإصلاح المركزية لإخلاء سبيل هؤلاء الأسرى الذين قال عنهم إن العرب (أو رمضان السويحلى) قبضوا عليهم واحتجزوهم دون وجه حق، وصارت حريتهم مسلوبة من غير وجه حق. فأجاب نورى السعداوى: إن الوفد لا دخل له فى مثل هذه الموضوعات، وأنه مكلف بمهمة معينة هى مقابلة الحكومة الإيطالية

والمفاوضة معها فى المسألة التى يقصد الوفد إلى رومة من أجلها. فأثار هذا الجواب غضب (مركاتللى) الذى اعتبر مجيء أعضاء الوفد إله جرأة ما بعدها جرأة ولا يزال أبناء الطليان أسرى بغير وجه حق؛ ثم هدد بسجنهم أو إرسالهم إلى المتقى بإحدى الجزر الإيطالية. فلم يأبه نورى السعداوى لهذا التهديد، وأجاب عليه بأن أعضاء الوفد كرسل موفدين للمفاوضة، تكفل لهم القوانين الدولية حياتهم وحرّياتهم. فعاد (مركاتللى) ينذر بأنه لن يسمح للوفد بالسفر إلى إيطاليا قبل إطلاق سراح الأسرى. وقال إنه سيكتب إلى حكومته المركزية فى رومة؛ ولكن إذا أذنت حكومته بسفر الوفد فإنه يستقبل من منصبه. ولم يشأ نورى السعداوى أن يترك الكلمة الأخيرة للوالى بعد هذا التهديد، فقال: لقد سمعنا ما شئت أنت أن تقوله، ولكننا نريد أن نسمع رفض رغبتنا فى الذهاب إلى رومة يأتى من الحكومة المركزية، لأننا موفدون إلى الحكومة المركزية. فأعّظ هذا الكلام (مركاتللى)، وانتهى الحديث بينه وبين الوفد وانتهت المقابلة.

وعرف الوفد بعد أيام قليلة أن (مركاتللى) ركب الباخرة على أهبة السفر إلى إيطاليا، فبادر الأعضاء بالذهاب على الباخرة لتوديعه "من باب المجاملة" ولمعاودة الحديث معه فى مهمتهم. ولكن (مركاتللى) فاجأهم عند استقباله لهم بأن بادّهم بقوله: إنهم أعداء إيطاليا، فلم ير الوفد فائدة فى الجواب عليه. وغادروا الباخرة. وقضوا الأيام التالية يقابلون وكيل الوالى والسكرتير العام، فكان الجواب الذى يتلقونه دائماً إن الحكومة المركزية لم تبعث بردها على مطالبهم. وأخيراً قرروا العودة إلى ترهونة لإبلاغ هيئة الإصلاح النتيجة، ثم صاروا يتجولون بين ترهونة ومسلّاتة وزليطن ومصرّاتة ليعرفوا الناس بمبالغة الحكومة الإيطالية فى سفرهم إلى رومة.

وعلق الوفد آمالاً كبيرة فى أن يوافق الطليان على سفرهم إلى رومة أخيراً على بقاء الأسرى من الضباط والأفراد الإيطاليين فى أير المجاهدين

العرب، حيث يستطيع الوفد المساومة على إطلاق سراحهم فى نظير أن تأذن لهم السلطات الإيطالية بالذهاب إلى رومة وعرض مطالبهم الوطنية على الحكومة المركزية. ولكن حدث والوفد لا يزال ينتظر الإذن له بالسفر، أن بادر أحمد السويحلى - الذى تولى الزعامة فى مصراته بعد مقتل أخيه رمضان - بإطلاق سراح الأسرى الأفراد (من غير الضباط) الذين فى مصراته دون الرجوع فيذ ذلك إلى الوفد أو استشارته، ويبلغون المائة والثمانين أسيراً. وكانت حجة أحمد السويحلى أنه وأهل مصراته "غير مكلفين بالإنفاق على هؤلاء الأسرى"!! وصمم نوري السعداوى على الاستقالة من الوفد. ولم يشنه عن عزمه غير تدخل أحمد المريض الذى أقنع أعضاء الوفد بأن مهمتهم أعظم من أن تتأثر بمثل هذا المسلك من جانب أحمد السويحلى.

ثم لم تمض أيام حتى دعا وكيل الوالى الوفد إلى مركز الولاية (طرابلس) ليلغهم أن حكومته وافقت على سفر الوفد إلى رومة، وكان خالد القرقرنى - من أعضاء الوفد - مقيماً للتجارة فى إيطاليا، وينشط فى رومة لمعرفة مدى استعداد الحكومة الإيطالية لتيسير مهمة الوفد، ويبدو أنه كان متفائلاً بالنتيجة. ذلك أنه أبرق من أوتيل بوستون فى رومة قس ٢٧ يناير ١٩٢١ إلى رئيس الهيئة أحمد المريض بما نصه: "أرجوكم إرسال زملائي الوفد. قانع بالفائدة، والغاية والكيانة. عرفوا تلغرافياً. سلام قلبى". فأبرق أحمد المريض جوابه على هذه الرسالة بما نصه: "لما لقي الوفد من الحكومة المحلية إعراضاً انسحب إلى الدواخل بنداء الرؤساء والأمة، وحيث إنكم (قائمين) بالمنفعة والغاية فسيوجهون إليكم بالسرعة الممكنة. تقبل تحية قلبية من هيئة الإصلاح والوفد".

وبقى الوفد فى إيطاليا مدة طويلة، رجع فى أثنائها إلى طرابلس من رجع وتخلف بعض الوقت من تخلف، فكانت عودة نوري السعداوى وصادق بن الحاج فى يناير ١٩٢٢. أما تاريخ نشاط هذا الوفد فى رومة،

فيتلخص فى أنه أخفق فى مسعاه إخفاقاً تاماً. فقد بادرت الحكومة الإيطالية بإرسال أحمد ضياء الدين المنتصر إلى إيطاليا، وهو من عملائها، وحاول هذا أن يجتمع بأعضاء الوفد، وكان ذلك عقب وصولهم مباشرة إلى إيطاليا، ولكن هؤلاء رفضوا مقابلته. ولأحمد ضياء الدين هذا قصة معروفة فى طرابلس قبل سفر الوفد، هى بإيجاز أن إسماعيل بن محمد القره ما نلى صدى له وهو خارج من مقابلة الوالى الإيطالى، فأطلق عليه ثلاث رصاصات لم تصبه منها إلا واحدة استقرت فى كتفه فنجأ من الموت. وسبب الاعتداء عليه اعتقاد إسماعيل القره ما نلى وغيره فى ذلك الحين أنه لا يرعى صالح الوطن فى اتصالاته بسلطات الاحتلال الأجنبى. وعند سفر أحمد المنتصر هذا إلى إيطاليا بعد الاعتداء عليه، نزل فى طريقه إلى رومة بمدينة سيراكوزة فى جزيرة صقلية (على شاطئها الشرقى)، وأدلى بتصريحات لمراسل إحدى صحفها تحدث فيها عن أسباب الاعتداء عليه، وزعم أن إسماعيل القره مانلى كان مدفوعاً من أحمد السويحلى أخى رمضان السويحلى (أشتيوى) الذى قال أحمد المنتصر فى حديثه هذا إنه لقى حتفه فى ورفله نتيجة لاتفاق عبد القادر المنتصر - أحد إخوانه - مع أعداء رمضان. وكان رمضان قد قتل أخاً آخر لأحمد المنتصر "بالاتفاق مع الجون ترك (أى تركيا الفتاة) فألقى عليه القبض ولكن حكومة استانبول أمرت بترك سبيله وبذلك بقى أخى رحمه الله بدون ثأر". ولما كان رمضان على عهد الحكومة الجمهورية التى أنشأها الوطنيون فى سنة ١٩١٨ قد صادر أملاك أحمد المنتصر فى مصراته وسرت. ولم تفلح مساعى أحمد المنتصر لدى الحكومة المحلية فى طرابلس أو الحكومة المركزية فى رومة فى استرداد هذه الممتلكات، فقد أرسل أخاه عبد القادر للتأمر مع ورفله ضد رمضان، وقتل هذا الأخير فى أغسطس ١٩٢٠. وإلى جانب هذا الحادث أجاب أحمد المنتصر على عدد من الأسئلة التى وجهها إليه المراسل بصورة تنال من الوطنيين ونشاطهم وتطعن فى مؤتمر غريان ورجال الحكومة الوطنية، وقد حرصت هيئة الإصلاح على نقل هذا المقال إلى العربية

بقلم محمد على بك ظافر، واحتفظت به ضمن وثائقها. وفيما يلى بعض ما ذكره أحمد المنتصر الذى كتب المراسل أنه كان مصحوبًا بابنيه المهدي ومحمود ونعته "بالرجل العظيم" وهو النعت الذى اتخذته الجريدة عنوانًا لمقالها.

المحرر (أى المراسل الصحفى) - ما هى الحالة السياسية فى طرابلس؟

أحمد (المنتصر) - لم يكن فى طرابلس حزب من الأحزاب ولكنهم (أربع أو سبع) مصريين وأتراك وإيطاليين يزرعون الهيجان ويعملون لأرباحهم الشخصية وهم المتسبيون فى إسقاط شرف الحكومة لأنها سلمت لهم زمام أمورها فنصبوا لها شباك الحيل المختلفة حتى فازوا بعظيم أرباحهم الشخصية وهم أعداء الحكومة. ويعتقد بعض المبعوثين فى رومة أن الهيجان الذى يقع فى طرابلس من حين إلى آخر صادر عن إحساسات وطنية ولا يعلمون أن المهيجين لا يعملون إلا لإرهاب الحكومة حتى يتمكنوا من سلب أموالها وهى لحد الآن لم تتخذ السبيل السوى ولا زالت تسير أولئك المهيجين الذين لم يكن لهم فى البلاد أقل قيمة وأقل تابع.

المحرر - كم تبلغ عددهم تقريبًا؟

أحمد - ستة أو سبعة، ومن الغريب أن بينهم حتى من الإيطاليين.

المحرر - من هم الرؤساء (المهيجين)!

أحمد - تعرفهم كل طرابلس ولا تجهلهم الحكومة وقد نفت منهم مخبر جريدة الأوانتى. وغيره عبد الرحمن عزام المصرى ومحمد نورى السعداوى. ومن الإيطاليين الأفوكات مارتينى فهؤلاء كانت علائقهم مع رمضان شتيوى المشهور بأنه يعمل على حساب الأتراك فى غاية المربوطية وبعد سقوط الأتراك تعلق المهيجون (الآنفى) الذكر بالحزب الاشتراكى التليانى. وقد اتصلوا منه بمقدار يربو عن ١٢ مليون من الفرنكات (كذا). وأكرر بأن هذا من المعلوم فى طرابلس. فحركات هؤلاء الأشخاص من عار العار على الحكومة يدفعون

النقود ويسعون أن يكون لهم أتباع فى كل الجهات. فلا يمر يوم إلا وفيه تزداد الضيافات والاحتفالات والاجتماعات. ومن الألم المؤلم بأن هذه الخزعبله هى التى تحكم وتأمّر وتصبح بطلب الحرية ولكنها لا تعمل إلا على السلب والنهب والقتل والسبى، فإن كان رجال وزارة المستعمرات يتدبرون ويعلقون أوّمل جمع هؤلاء فى طرابلس وتأديبهم ...

المحرر - وما تخبرنا عن أهمية مؤتمر غريان الذى طلب من إيطاليا دستوراً مثل ما منح إلى بنغازى؟

أحمد - إن أهمية مؤتمر غريان قليلة جداً لأنه مجتمع من المهيجين الذين حدثتكم عنهم (فيشيخوا) وجود حركات قومية فى القطر الطرابلسى ليجبروا الحكومة على الرضا بأمر تحت سيطرتهم حالة أن الأمة تريد (أمير حقيقى) مثل أمراء تونس ولا تكون له صفة الحاكمية المطلقة بل (يريدوا) أن يكون له ومعه وزير إيطالى وقائد جيش إيطالى ورؤساء كل المحاكم (إيطاليين) وكل المأمورين (ليريدوهم) أن يحكموا طرابلس مع العرب. هذا ما (يريدوه) ونريده نحن. وأما المهيجون العاملون على حساب تركيا أولاً وعلى حساب الحزب الاشتراكى الإيطالى ثانياً يريدون (أمير اسمى) لا (فعلى)^(١) وهذا من أعظم المصائب لأنه ليس من مصالح القطر الطرابلسى ولكن بلایاه الكبرى .

وكان أحمد ضياء الدين المنتصر هذا هو الذى بعث به الطليان لمقابلة الوفد عند وصوله إلى رومة. ورفض الوفد مقابله.

وعبثاً حاول الوفد مقابلة المسئولين الذين حضروا إلى رومة لمقابلتهم. فقد أصرت الحكومة الإيطالية على إطلاق سراح الأسرى الضباط الذين بقوا بمصراته فى الأسر بعد أن سرح أحمد السويحلى المائة والثمانين أسيراً، وذلك قبل الدخول فى أية مباحثات مع الوفد الذى أصر بدوره على أن النظر فلى

(١) ما ورد فى هذا المقال موضوعاً بين قوسين فهو خطأ لغوى كما هو بدون تصحيح لأنه نص .

مسألة الأسرى هذه من عمل هيئة الإصلاح المركزية، ولا يملك الوفد حق الكلام فيها. وتحايل الطليان على الوفد، فعرض بعض أعضاء الحزب الاشتراكي الإيطالي وساطتهم بين الوفد والحكومة على شريطة أن يسعى الوفد لدى هيئة الإصلاح المركزية بطرابلس لإطلاق سراح الأسرى المضباط، حتى إذا فعلت هيئة الإصلاح ذلك، استطاع هؤلاء الوسطاء أن يجمعوا الوفد بالمسؤولين في حكومة رومة. ولما أظهر الوفد عدم اطمئنانه إلى نوايا الحكومة تعهد الوسطاء الاشتراكيون إذا امتنعت الحكومة عن الوفاء بعهودها، بأن يتصدوا لمعارضة الحكومة في المجلس وفي البلاد حتى يمنعوها من إرسال أى جنود من الطليان إلى طرابلس لمحاربة أهلها.

واطمأن الوفد لوساطة هؤلاء الاشتراكيين، فأرسل صادق بن الحاج إلى طرابلس ليبلغ الهيئة المركزية رغبة الوفد، وبالفعل أطلقت الهيئة سراح المضباط الأسرى وكانوا أربعة عشر ضابطاً، وكان إطلاقهم فى مايو ١٩٢١، ويات من المنتظر لذلك أن يطلب المسؤولون فى رومة مقابلة الوفد، وكان أعضاء الوفد أثناء غياب صادق بن الحاج فى طرابلس قد بارحوا رومة: نورى السعداوى، وفرحات الزاوى، وعبد السلام البوصيرى. فركبوا السكة الحديد ووجهتهم تورينو. فصاروا ينزلون فى كل المدن الهامة التى يمرون بها مثل فلورنسة وبيزا ليمكثوا يوماً أو اثنين. فيعقدوا مؤتمراً صحفياً يشرحون فيه قضية طرابلس. أما فى تورين فقد مكثوا شهراً. وكان عبد السلام البوصيرى من المتخرجين فى مدرسة الحقوق بها.

وقبل ذلك كله قد حضر إلى العاصمة الإيطالية وفد "حكومى" بعثت به الحكومة المحلية فى طرابلس إلى رومة حتى يقاوم مساعى الوفد الوطنى، وفد هيئة الإصلاح المركزية؛ وليدعى أن هذا الوفد لا يمثل البلاد، وأن السادة الذين بعصت بهم الحكومة "الإيطالية" هم الممثلون الحقيقيون للبلاد والذين يذودون عن مصالحها ويقدرّون نفع الأمة وصيانة مصالحها فى تأييد الاحتلال

الإيطالى لبلادهم، وماقومة إنشاء الحكومة الوطنية الذاتية والبرلمانية التى وعد الطليان فى القانون الأساسى المعروف بإنشائها. وأما هذا الوفد الحكومى فكان برئاسة حسن باشا القره مانلى رئيس البلدية، وأعضاؤه الشيخ محمد أبو الإسعاد العالم والحاج مصطفى بن قدارة عم السيد منصور قبارة. ويوسف خريشة وموسى قرادة. وبصحبتهم أحد الإيطاليين من رؤساء الشركات الإيطالية بطرابلس. ورحبت بهم الحكومة فى رومة واستقبلتهم استقبالا رسمياً، واحتفلت بهم، وأنزلتهم فى أفخم فنادق العاصمة وقتئذ (جراند أوتيل)، وقابلوا رئيس الوزارة، قابلوا ملك إيطاليا، وكان قيام هذا الوفد الحكومى من طرابلس بعد وصول الصادق بن الحاج إليها موفداً من إخوانه فى رومة لإقناع هيئة الإصلاح بإطلاق سراح الأسرى.

وبعد أن أدى الوفد الحكومى مهمته. رجع أدراجه إلى طرابلس. وكان أكثر نشاطه منحصراً فى محاولة إبطال دعوى وفد مؤتمر غريان - على صدقها وصحتها - أنهم حقيقة يمثلون الأمة، وحرص وفد المؤتمر أثناء رحلته السالفة الذكر من رومة إلى تورينو أن يهدم هو الآخر فى المؤتمرات الصحفية التى عقدها ادعاءات الوفد الحكومى الباطلة. فكان نوري السعداوى وزميلاه يقولون فى كل مكان نزلوا فيه: "إن الحكومة بإحضارها هذا الوفد من طرابلس قد كلفت نفسها نفقات ما كانت فى حاجة إلى صرفها، حيث فى إمكانها أن تؤلف وفداً من وزارة مستمراتها ليقول إنه الوفد الذى يمثل طرابلس".

وعرف وفد المؤتمر إلى جانب ذلك كله بمقدار الحفاوة البالغة التى كانت من نصيب الأمير السنوسى السيد محمد إدريس عند زيارته لرومة منذ نوفمبر ١٩٢٠ عقب أن عقد الطليان معه اتفاق الترجمة المشهور (فى أكتوبر من العام نفسه) والذى اعترف الطليان بمقتضاه بإمارة السيد إدريس على الواحات الداخلية: أو جلّه وجالو والكفرة والجغبوب وفى وسع القارئ إذا شاء أن يقرأ

تحليلاً لهذا الاتفاق في كتابنا (السوسية دين ودولة). فاستقبلته الحكومة الإيطالية استقبالاتاً رسمياً، وكرمه ملك إيطاليا، وزار المدن الهامة، وكانت عودته إلى بنغازى فى أول فبراير ١٩٢٢.

وأما وفد مؤتمر غريان فقد رجع إلى رومة بعد أن كان قد غادرها الوفد الحكومى، وعند رجوعه دعاه وزير المستعمرات للمقابلة، ولكن لم يسفر الحديث عن نتيجة؛ ثم إن الوفد لم يستطع مقابلة الوزير مرة أخرى، وأذاعت الحكومة المحلية فى طرابلس نبأ فشل الوفد فى مهمته، فى نشره أصدرتها (حكومة القطر الطرابلسى) بعنوان: (ورقة الأوامر) بإمضاء والى طرابلس (لويجى مركاتيللى) وتحمل تاريخ ٢ مايو ١٩٢١ جاء فيها ما نصه:

قد قابل دولة وزير المستعمرات مندوبى مؤتمر غريان ولمنع كل سوء تفاهم رد لهم هذا الجواب تحريراً. أنتم يا محمد فرهاد (كذا) ونورى السعداوى وصادق بن الحاج وخالد القرقرنى وعبد السلام البوصيرى قد طلبتم منى أن أقابلكم فأجبت إلى طلبكم بحسن الرضى وقد فتحتم كلامكم بالبيان أنكم المجتمعون فى غريان إلى الحكومة المركزية لأجل تبليغها تمنيات أهالى القطر الطرابلسى. وزدتم أنكم قبل المباشرة فى أى مذاكرة كانت تطلبون من الحكومة الاعتراف الرسمى بكونكم ممثلين للأكثرية العظمى من أهالى القطر الطرابلسى.

فأجيب بآننى لا يمكننى أن آتيكم بهذا الاعتراف لسبب قانونى أصلى وهو أن الحكومة الإيطالية لا يجوز لها أن تعترف أحداً بكونه ممثلاً مشروعاً للبلاد إلا مجلس نوابها المنتخبين وفقاً لمنطوق القوانين الجارية وبمراعاة الأصول التى تضمن إصدار إرادة الشعب الطرابلسى بحرية. فبناء عليه التفحص الآن عن هل يكون اجتماع اختياري بين الأهالى ممثلاً لأكثرية البلاد أم لا نو أمر بلا فائدة وأيضاً غير ممكن.

ثم بعد ذلك يلزم ألاحظ أن الحكومة إذا أتتكم بالاعتراف المطلوب

تكون هي الأولى ناقضة لحرمة القانون الأساسى الذى يريد مراعاته كما هو واجب عليها.

وحيث إنكم مع دعوتى المتكررة لكم لتبينوا تمنياتكم وأفكاركم على مصالح القطر الطرابلسى - وهى مصالح إيطالية أيضاً - استمررتم على طلب حل هذه المسألة قبل كل شئ وصرحتم أنكم لا تروا مناسبة فى المداومة على الكلام إن لم تحصلوا على الاعتراف المذكور بل تريدون الاعتزال عن المذاكرة فبناء عليه لا يبقى لى بعد ذلك إلا أن أبين لكم ما فى قلبى من التمدر على ما رجحتموه من التوقف على مسألة غير جوهرية ولا اخترتم المذاكرة معى بكل ثقة فإنى كنت مستعداً للإضغاء إلى كلامكم بكل رضا .

وعبئاً حاول الوفد الاعتماد على جماعة الاشتراكيين الذين توسطوا بين الفريقين فى إقناع الحكومة بالمباحثة معه ، وتبين لأعضائه أن الاشتراكيين خدعوه ، فقرروا إرسال نورى السعداوى والصادق بن الحاج إلى طرابلس لعرض الأمر على هيئة الإصلاح المركزية واستصدار التعليمات اللازمة لهم فيما يجب أن يفعلوه . وعاد نورى السعداوى والصادق بن الحاج إلى طرابلس ، بينما بقى فى رومة فرحات الزاوى وخالد القرفنى وعبد السلام البوصيرى . على أنه عندما وصل نورى وصاحبه إلى طرابلس ، كانت العلاقات قد ساءت بين هيئة الإصلاح والحكومة المحلية ، فلم يمض قليل على وصولهما حتى بدأ الطليان هجومهم على قصر حمد فى مصراتة وقامت الحرب بينهم وبين المجاهدين فى يناير ١٩٢٢ . وفيما يلى ذكر أسباب ذلك .

٤ - السعداوى وتهدة الخلافات الداخلية:

اجتمعت هيئة الإصلاح المركزية فى ترهونة بعد سفر الوفد إلى رومة فى فبراير ١٩٢١ ، وقررت الذهاب غلى (رأس بو عرقوب) فى النواحي الأربعة لتوالى اجتماعاتها بهذا المكان الأخير ، ومن ذلك الحين إلى نشوب الحرب بين الهيئة والطليان بعد ذلك بعام تقريباً ، واجهت الهيئة إلى جانب ضرورة النظر



بشیر السعداوی (۱۹۲۱)

فى علاقاتها مع سلطات الاحتلال من جهة، والسيد إدريس السنوسى أمير برقة، مهمة على جانب عظيم من الخطورة هى واجب إخماد الفتن والاضطرابات فى داخل الإقليم الطرابلسى ومنع اشتعال الحرب الأهلية به. وكان واضحاً أنه استمرت الفتن والقلاقل الداخلية، عجز الوطنيون أصحاب حكومة هيئة الإصلاح المركزية فى طرابلس عن معالجة المسألة الوطنية ذاتها، أى تنظيم علاقاتهم مع سلطات الاحتلال الإيطالى على أساس إنشاء الحكومة الذاتية الوطنية، ثم عن معالجة العلاقات بينهم وبين أهل برقى الذين يمثلهم الأمير السيد محمد إدريس السنوسى، لتأليف جبهة متحدة فى مقدورها الصمود أمام الطليان. وكان من نصيب بشير السعداوى أن يحمل أكثر العبء فى هذه الأمور جميعها.

وكان عند اجتماع هيئة الإصلاح فى (رأس بوعرقوب) أن بلغ أعضاءها أن قبيلة العمامرة من أهل مسلاتة قد ثارت على قائمقام مسلاتة - من قبل الهيئة - فرحات الاقضى، الذى أرسل قوة لتأديبها. فخشيت الهيئة أن يتسع الخرق على الراقق. وانتدبت بشير السعداوى ليقصد إلى مسلاتة مع زميلين هما الشيخ صالح بن سلطان ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن للنظر فى أسباب هذا الخلاف.

وكان الخلاف الثانى فى غريان بين مختار كعبار عضو الهيئة والهادى كعبار أخيه، وبين المبروك القعود ونافع الغريانى وعاكف أمسيك وهؤلاء منضمون للطليان الذين يمدون بالمال خصوصاً المبروك القعود، وجاء مختار كعبار إلى الهيئة فى (رأس بوعرقوب) يشكو من أن خصومة على وشك التغلب عليه ويستنجد بالهيئة. فقررت هذه الانتقال إلى غريان وعقد اجتماعاتها بها. وأفاد اتخاذ غريان مقررًا للهيئة فى تقوية عائلة كعبار واستتباب الأمن فى البلاد.

وأخذت الهيئة - هيئة الإصلاح المركزية - تفكر فى أمر سليمان

البارونى المعتصم فى جبل نفوسة. فقد أبى البارونى من قبل حضور مؤتمر غريان، بدعوى أنه عضو فى مجلس الشيوخ العثمانى ولا يستطيع لذلك حضور المؤتمر، وعرض أحمد المريض بعد انتخابه رئيساً للمؤتمر أن يتنازل له عن الرئاسة، ولكن البارونى رفض ذلك أيضاً. وحقيقة الأمر أن سليمان البارونى كان يفضل الاحتفاظ بنفوذ الإقطاعى فى منطقة الجبل وككلة مستنداً إلى تأييد قبيلة الأصابعة وهم من الأباضية، وتأييد خليفة عسكر فى القسم الغربى من الجبل، وهو أباضى كذلك. ويعزو كثيرون موقف البارونى هذا إلى تأثيره من الحرب التى وقعت بين الزنتان والبربر فى سنة ١٩١٦، وهى الحرب التى ما لبثت أن تجددت فى سنتى ١٩٢٠، ١٩٢١، وكانت هيئة الإصلاح تبذل قصارى جهدها لإقناع البارونى بالانضمام إلى صفوف الأمة، ولذلك فقد صارت تكثر من الكتابة إليه من غربان فى هذا المعنى. وحرص البارونى على أن تأتى ردوده على رسائل الهيئة فى قالب ينبئ بالتوايا الحسنة الطيبة. ولكن البارونى كان يبطن غير ما يظهر، وذلك لأنه كان يسعى فى الخفاء لجمع شمل الأباضية وإنشاء جبهة متحدة منفردة فى الجبل - جبل نفوسة - تحت نفوذه وحده. وكان بتحريض البارونى أن انقض أهل الأصابعة على مفرزة بعثت لها هيئة الإصلاح بقيادة عبد العاطى الجزم بناء على طلب قائمقام ككلة - من جانب الهيئة - على بن عبد الرحيم، فقتل المهاجمون ثمانية من العسكر، ونهبوا أرزاق القوة وحيواناتها. واضطرت الهيئة إلى إرسال قوة كبيرة لتأديب الأصابعة، وكان درساً قاسياً، اضطرب بعده أكثر أهل الأصابعة إلى مغادرة مظاعنهم والالتجاء إلى الجبل الغربى تحت نفوذ البارونى.

وفى أثناء ذلك قامت فتنة أخرى بين الحاج محمد فكينى وجماعة البربر الأباضية، وكان هؤلاء قد اشتبكوا مع الفكينى - وهو من الرجبان - فى قتال وقتلوا ابنه. فجمع الفكينى جموعاً عظيمة من الرجبان والزنتان واشتبك مع البربر فى حروب طاحنة، ولم يناصر البربر من العرب سوى (أولاد بوسيف)

الذين كانت تربط بينهم وبين الأباضية مخالفة قديمة. ورأى أولاد (بوسيف) أن يتوسطوا لوقف هذه الحروب. فجاء منهم وفد إلى الغرب من غربان ييغى الاجتماع بالهيئة المركزية يطلب منها التوسط لإجراء الصلح بين الأصابع (الأباضية) والهيئة المركزية. فاندبت الهيئة بشير السعداوى لمقابلة هذا الوفد الذى كان يتألف من حوالى الأربعين شخصاً من أعيان (بوسيف) وكبارهم. فاجتمع بهم بشير السعداوى فى مكان يدعى (تشه): وأوضح لهم أن كل ما يهم الهيئة هو جمع الكلمة وتوحيد الصفوف للصمود فى جبهة متحدة أمام الاستعمار الإيطالى. وأكد لهم أن قضية الأصابع من الميسور حلها إذا اختاروا من بينهم وفداً بعثوا به إلى غربان لبحث هذه المسألة. وبالفعل تألف الوفد اليوسيفى برئاسة محمد بن بشير، ومن أعضائه أبو بكر البصير أخو أحمد فرزة.

واجتمع الوفد بأعضاء هيئة الإصلاح المركزية فى غربان، وذكر لهم بشير السعداوى أن الهيئة منشغلة بأشياء كثيرة. فهناك مشكلة الخلاف بين الأباضية (الأصابع) والزنتان، ثم مشكلة الخلاف بين الأصابع والهيئة، وأخيراً المشكلة الكبرى: رسم سياسة البلاد إزاء الاحتلال الإيطالى. وعندما أكدوا الوفد أن مقصدهم الذى جاءوا من أجله إلى غربان هو الصلح بين الهيئة والأصابع، وعد بشير السعداوى عن الهيئة أنها سوف تستجيب لبلوغ هذه الغاية، لأية مقترحات يقترحها الوفد على الهيئة وأنها سوف تقبل نصيحتهم وإرشادهم، فطلبوا أن ترد إلى الأصابع الأموال الكثيرة والحيوانات وغيرها التى نهبت منهم، ورأى بشير السعداوى إذا أجيبت هذه الرغبة وانضم الأصابع إلى الهيئة فى الكفاح ضد الاستعمار كان ذلك كسباً ومغتماً للقضية الوطنية. وعلى ذلك فقد راح ييسط وجهة نظره لأعضاء الهيئة. ثم وجه خطابه إلى الوفد اليوسيفى قائلاً: قضية الأصابع من الأمور الهينة. فإذا كنتم أنتم أولاً بوسيف والأصابع معنا فى الكفاح ضد الاستعمار الإيطالى فنحن مستعدون لإعادة المنهوبات التى نهبت من الأصابع إليهم.

ولكن قضية الأصابعة لم يكن حلها بالسهولة التي اعتتدها بشير السعداوى. ذلك أن الهادى كعبار - وهو من أعضاء هيئة الإصلاح كذلك - لم يلبث أن اعترض على "الحل" الذى ارتآه بشير السعداوى قائلاً وهو يوجه الكلام إليه: إذا كنت أنت يا بشير السعداوى مستعداً لأن تعوض الأصابعة من مالك فأنت حر. ولكن هؤلاء انقضوا على رجالات البلاد، فلا يجوز أن تعوضهم بشيء. ولم يكن ما أصابهم إلا نتيجة الفتنة التي أثارها ضد الهيئة. وفي الأيام التالية استمر النقاش يدور حول قضية الأصابعة هذه دون الوصول إلى نتيجة. ويذكر بشير السعداوى أن عبد الرحمن عزام كان فى غريان وقتئذٍ، وحضر هذه الاجتماعات، وأسدى معونة كبيرة له فى تأييد وجهة نظره.

وحدث وسط هذه المباحثات غير المجدية أن وصل إلى غريان فجأة سالم بن عبد النبى وهو أحد رؤساء الزنتان الشجعان يبلغ الهيئة أن انتزاع دائر بشدة بين الزنتان والأصابعة، وأن الزنتان على وشك إهاء هذه الفتنة، وطلب سالم بن عبد النبى أن تمده الهيئة بمدفعين، وحينئذٍ قرأ رأى رئيس الهيئة أحمد المريض على إجابة سالم إلى طلبه. فخرج معه إلى الجبل عبد الله تمسكت القائد العسكرى - وكان تركى الأصل - وحمل المدفعين إلى (يفرن) لوضع الحصار عليها.

وترتب على هذه الحركة أن سليمان البارونى عندما رأى الزنتان يحاصر يفرن فى قوات كبيرة، ويضعون الحصار عليها بفضل المدفعية التى معهم، لم يلبث أن ترك الجبل وقصد إلى مدينة طرابلس لا جيتاً تحت نفوذ الطليان، ثم إن قسماً من البربر (الأباضية) سرعان ما قصد إلى الريانة لاجئاً إليهم، وقضى على قوة الأباضية فى يفرن. وحاصر الزنتان مركز الريانة بمام فيه من فلول الأباضية، وكان مع الريانة أحمد قرزة البوسيفى. فلما تخرج الموقف بهذه الصورة، قرر وفد المفاوضة البوسيفى فى غريان أن يترك لهيئة الإصلاح

قضية الأصابعة تتصرف فيها بحكمتها، وطلب من الهيئة أن تعمل لتلافي قضية الريانة.

فاختارت هيئة الإصلاح لحسم القتال بين الريانة والأباضية وبين الزنتان وإجراء الصلح بينهم وفداً يتألف من بشير السعداوى ومختار كعبار والصويعى الخيتونى، ووقع الاختيار على عبد الله الشريف يكرتيراً له. وقصد الوفد إلى الريانة، واصطحب السعداوى معه أحد أعضاء الوفد البوسيفى محمد بن بشير، ونزل الأربعة فى ظاهر الريانة بين الصفين المتقاتلين. وأوصوا الزنتان بأن يكفوا عن القتال وأن لا يقع منهم اعتداء على خصومهم حتى يتصل الوفد - وفد الهيئة - بجماعة الأباضية، لأجل عقد الصلح بين الفريقين. وبالفعل اتصل الوفد برؤساء الريانة وشيوخهم. فاختار هؤلاء من بينهم جماعة للمفاوضة منهم محمد بن حسن المشاى، والمبروك عويدات. وأمكن إجراء الصلح بين الزنتان والريانة على أساس العفو عما مضى وتناسى الخلافات السابقة، والترحم على أرواح الذين ذهبوا ضحية لهذه الفتنة بين الفريقين. وأولم أهل الزنتان وليمة كبيرة للريانة. وتصافح الفريقان وتعانقا وبكى ايلجميع فرحاً بإنهاء هذا الخلاف الذى طال أمده بينهم. وجرت هذه الحوادث حوالى منتصف عام ١٩٢١.

على أنه ما انتهت هذه الخلافات حتى جاء محمد فكينى يطلب من بشير السعداوى الاجتماع على انفراد. والفكينى من الرجبان الذين هم متحالفون مع الزنتان وغيرهم من أهل السنة فى الجبل الغربى. وكان غرض الفكينى من الانفراد ببشير السعداوى أن يحمله ويحمل هيئة الإصلاح المركزية على إمداد الرجبان والزنتان بالمهمات والمدافع والرشاشات. ليذودوا عن أنفسهم بها - كما ادعى محمد فكينى - ضد البربر الذين قال عنهم إنهم يهددون العرب دائماً فى الجبل الغربى. ومعنى إجابة الفكينى إلى طلبه اشتعال نار الحرب الأهلية من جديد. ولذلك كان جواب بشير السعداوى

عليه: إن هذه المعدات التي تطلبها إنما تخرص هيئة الإصلاح على إعدادها لمواجهة الطليان بها إذا تعذر الوصول إلى تفاهم معهم (الطليان) على مطالب وفد الهيئة الموجود في رومة، وسوف يجد محمد فكيني وفرة هذه المدافع والمهمات في الوقت المناسب في ميدان القتال للدفاع عن صالح الوطن.

رجع بشير السعداوى وصحبه إلى غريان، وكان عيد الأضحى لسنة ١٢٣٩ (أواسط أغسطس ١٩٢١) قد قرب. ورأت الهيئة بمناسبة العيد أن يبرح أعضاؤها غريان إلى بلدانهم إلى حيث أسراتهم. وذهب بشير السعداوى من غريان إلى ترهونة حيث وصلها أول أيام العيد، ثم قصد إلى مصراتة فبقى بها، حتى إذا انتهى العبد وبعد أيام قلائل منه، طلب رئيس الهيئة أحمد المريض من الأعضاء الاجتماع في ترهونة للنظر في مسألة عاجلة. هي أن وفد الهيئة في رومة أبلغها أن (أمبرتو) ولي عهد إيطاليا مزع زيارة طرابلس. ولذلك ينبغي أن تؤلف الهيئة وفداً لمقابلته عند وصوله للتحديث إليه في مطلب البلاد.

وقررت الهيئة تأليف وفد كبير لهذه الغاية، كان من حوالى الثلاثين أو الأربعين، على رأسهم بشير السعداوى وصالح بن سلطان (من ترهونة) وفرج بن إبراهيم من مسلاتة، والمبروك المنتصر الترهوني، والحاج سالم البجباح من زليطن، وعلى الشنطة (من الزنتان) وراسم كعبار (من غريان)، وأبلغت الهيئة الحكومة المحلية بمدينة طرابلس رغبتها في أن يقابل وفدها ولي العهد، فرافق الوالى الإيطالى - وكان الكونت وولبي أو فولبي Volpi - وتحدد موعد للمقابلة.

وحضر الوفد في اليوم التالى لوصوله إلى مدينة طرابلس، استعراضاً عسكرياً كبيراً احتفاء بولى العهد، وشهد أعضاؤه هذا الغرض العسكرى من شرفة قصر العزيزية، وهو قصر الحكومة - وفد أزيل هذا النصر فيما بعد - وكان واقفاً إلى جوار بشير السعداوى ساعة العرض رئيس بلدية طرابلس،

حسن باشا (حسنونة) القره مانلى، وأراد الرجل أن يظهر اغتباطه بما يجرى زيادة فى الزلفى للسلطات الحاكمة، فصار يتلفت حوله وهو يقول لمن وقف بجانبه من العرب. وكان - لسوء حظه - الواقف إلى جانبه وقتئذ بشير السعداوى: ما لكم لا تركبون خيولكم وتفرحون وتبتهجون بهذا اليوم؟ فتلقى جواباً على سؤاله ما كان يدور فى خلدته أن أحداً من "العرب" الواقفين حوله يجرؤ على قوله. أجاب بشير السعداوى: فى يوم غير هذا اليوم تركب الخيل! فسأل حسن باشا متعجباً: وهل يوجد يوم أعظم من هذا اليوم الذى نستقبل فيه ولد الرى - ورى Re معناها الملك بالإيطالية. فأجابه بشير: أعظم منه اليوم الذى نحتفى بأمر مسلم فى هذه البلاد؛ عندئذ تركب خيولنا فى هذا اليوم المبارك ونفرح ونبتهج. فسكت حسنونة باشا وصار ينظر إلى البشير شزراً، ثم يدير نظريه حوله ليتأكدوا أن أحداً من صنائع الطليان أو عيونهم لم يسمع هذه المحاوره.

ودعى بشير السعداوى وإخوانه للقاء ولى العهد الإيطالى فى نفس اليوم بعد انتهاء العرض، ويذكر بشير السعداوى عند مقابلتهم لولى العهد، كان موجوداً فى الشرفه - شرفه قصر العزيزية - معهم سليمان البارونى وعبد العظيم المنتصر، ابن عم محمود المنتصر، والشيخ محمود أبو رخيص. ولكن الطليان بادروا بإخراج هؤلاء الثلاثة من الشرفه حتى لا يحضروا المقابلة. فالتفت بشير السعداوى إلى الشيخ محمود أبو رخيص يقول له "معزياً": "لا تألم يا شيخ فالיום دورنا حيث يبغى الطليان أن ينصبوا لنا الشرك. وبدأت المقابلة بعد أن صافح الجماعة ولى العهد وعندئذ قال (أمبرتو): إن لدينا الليلة فى القصر حفلة ساهرة ندعوكم إليها. فأجاب بشير السعداوى: إنه وإخوانه فى حزن لا يجعلهم قادرين على حضور الحفلات الساهرة. وامتنع الترجمان، ويدعى إسماعيل الأرناؤوطى عن نقل هذا الجواب، فطلب بشير السعداوى من عبد الله الشريف، وكان يرافق الوفد، أن ينقل عبارته إلى ولى العهد، ففعل، وعندئذ سكت ولى العهد. وكان بشير السعداوى قد أعد خطاباً لتلقيه

عند مقابلة ولى العهد مطالب البلاد كـرغبة وفد هيئة الإصلاح فى رومة، واستعد بشير (الآن) لإلقاءه، ولكن الوالى الكونت وولبى (أوفولبى) تدخل ليمنع إلقاءه واعدًا بشير السعداوى فى الوقت نفسه بأن يحدد موعدًا آخر قريبًا لمقابلة الأمير أمبرتو، وعندئذ يستطيع بشير السعداوى إلقاء خطابه، وبر (فولبى) بوعده، فتمت المقابلة فى اليوم التالى فى قصر العزيزية نفسه (مقر الحكومة)، ويقول بشير السعداوى: إن أحدًا من العرب إلى جانب أعضاء الوفد لم يحضر هذه المقابلة سوى الشيخ محمود بن موسى، صاحب جريدة الرقيب (وهى ذات ميول حكومية).

فى هذه المقابلة ألقى بشير السعداوى خطابه. وموجزه الشكوى المرة من الاستعمار المرهق الذى يدوس البلاد وأهلها، وكان مما قاله بشير السعداوى موجهاً الخطاب إلى ولى العهد: إن حكومة والدكم تدعى أنها إنما تنقذنا من فظاعة حكم الأتراك وتسير بنا نحو المدينة الأوروبية، ولكن واقع السياسة المتبعة فى البلاد ينبئ بخلاف ما تدعيه الحكومة، حيث تسير هذه فى سياسة مناقضة لما تعرفه المدينة. ذلك أنه كان موجودًا بالبلاد فى عهد الأتراك مدارس كثيرة لنشر العلوم والمعرفة، واليوم صارت هذه المدارس مرابط لخيول المستعمرين.

أجاب الكونت فولبى على خطاب بشير السعداوى بأن ليس فى مقدور ولى العهد أن يرد على خطابه - أى خطاب بشير - إذ ليس من شأنه البحث فى سياسة البلاد. وبما أن الوالى هو الذى يقوم بالحكم فيها، فالوالى يعد بأن يجتمع مع بشير وإخوانه للحديث معهم فيما يتعلق بصالح البلاد. وبالفعل اجتمع به وإخوانه فى غد ذلك اليوم. وأدلى فولبى بحديث طويل، فحواه أن مقاصد إيطاليا إنما هى فى صالح هذه البلاد بدليل أن المسئولين - الطليان - يعدون العدة لإنشاء محاكم يشترك فى إدارتها أهل طرابلس، وهذا عدا أشياء أخرى لاشك فى أن إنجازها يعود على الأهلىين بالنفع والخير العميم.

بشير السعداوى وزعماء طرابلس فى زيارة ولى عهد إيطاليا بمدينة طرابلس (١٩٢١)



وشعر الجماعة أن فولبي يريد جرهم إلى بحث قضية الوكن معهم، فاعترض بشير السعداوى على ذلك، ونفى أن البحث فى هذه القضية من شأنه هو وزملائه، بل على المنشورين الطليان إذ شاءوا هذا البحث أن يفعلوا ذلك مع الوفد الذى اختارته البلاد ويبعث به إلى رومة لهذا الغرض ذاته. وعلى حكومة رومه أن تدعو الوفد وتفتح باب البحث معه هناك وحاول فولبي أن يشيهم عن عزمهم بتساؤله إذا لم يكونوا هم أيضاً متتخين من قبل أهل البلاد ويمثلون هيئة الإصلاح المركزية، ويحق لهم لذلك المفاوضة والبحث. فقال الوفد إنه منتخب فقط لمقابلة ولى العهد ولإلقاء الخطاب الذى يعرض مطالب الأمة الطرابلسية. وعند هذا الحد انتهى الاجتماع.

وخشى الوفد - وفد المقابلة - أن ينشر أو يذاع شىء محرف عن هذه المقابلة مع ولى العهد أو مع الكونت فولبي. فحرص أعضاؤه على وضع (بيان) بكل ما جرى، أثبتوا فيه نص الكلمة التى ألقاها بشير السعداوى. وكان مبعث حرصهم على تسجيل ذلك الخوف من أن يروج الأعداء الشائعات المغرضة بأن هيئة الإصلاح المركزية سلمت فى مطالب البلاد للطليان، وكان (فولبي) قد طلب من بشير السعداوى ألا يقابل أحداً من الصحفيين حتى لا يذاع شىء عن هذه الاجتماعات ولكن السعداوى رفض أن يعد بشىء. وحرص الوفد على أن يذيع ما دار. فاجتمع بشير السعداوى مع صحفى إيطالى طلب مقابله، ودامت هذه المقابلة ثلاث ساعات بطولها. وأدرجت جريدة (اللواء الطرابلسى) بيان الوفد الذى سلفت الإشارة إليه. ووزع الوفد هذا البيان على الصحف الإيطالية فى طرابلس. وعلى الأهلين، ومما يذكر أن جريدة اللواء الطرابلسى كانت تصدر أسبوعية، وتعمل لتأييد هيئة الإصلاح المركزية وكانت لسان حالها. وعندما جاء الوفد إلى مدينة طرابلس لمقابلة ولى العهد رفض أن تضيفه الحكومة، ونزل بدلا من ذلك فى ضيافة عثمان القيزانى صاحب اللواء. وقد أغلقت الجريدة بعد ذلك عندما ساءت العلاقات بين سلطات الاحتلال وهيئة الإصلاح، واستؤنفت الحرب بينهما.

عاد الوفد إلى ترهونة حيث والت الهيئة اجتماعاتها.

وفى أكتوبر ١٩٢١ هاجم الزنتان والرجبان البربر فى (يفرن) وأجلوهم عنها إلى فساطو. وجاءت الأنباء إلى الهيئة فى ترهونة بأن الصلح الذى أجراه بشير السعداوى ومندوبوها فى الريانة بين الزنتان والأباضية قد تحطم وأن الزنتان يتهاون لمهاجمة الأباضية فى فساطو. فاتخذت الهيئة تدابير سريعة لمحاولة وقف القتال. من ذلك أنها عينت بشير السعداوى متصرفاً للجبل الغربى فى يفرن، وأمدته بقوة من العسكر النظاميين بقيادة محمد ابن بشير الترهونى، لتثبيت المركز والمحافظة على الأمن، وكان على بشير السعداوى، أن يبذل قصارى جهده لإجراء الصلح من جديد بين بقية الأباضية (البربر) فى (فساطو) وبين الزنتان.

وأسرع السعداوى فى الذهاب إلى يفرن التى وجد بها كذلك عبد العاطى الجرم مع قوة نظامية أخرى مستقرًا فى يفرن منذ الصلح الأول لحفظ الأمن. وكان مع بشير السعداوى من الفرسان خمسون فارسًا من مصراتة والنواحي الأربع وزليطن. ولكن الزنتان ما أن سمعوا بأن الصلح هو مقصد هيئة الإصلاح المركزية، حتى قرر هؤلاء أن يشنوا هجومهم على فساطو قبل أن يستطيع مندوب الهيئة التدخل. وبالفعل رفض محمد فكيني أن يصحب بشير السعداوى إلى يفرن، وكان هذا أمر بالزنتان فى طريقه إليها. ورافقه من الزنتان الشيخ أحمد البدوى الأزهرى، ولكن عند وصوله إلى يفرن وجد أن الزنتان شنوا هجومهم على فساطو واحتلوها واحتلوا كثيرًا من القرى فى الجبل حتى وصلوا فى احتلالهم إلى (طمزين) فقصد بشير السعداوى وبصحبة الشيخ أحمد البدوى إلى "طمزين". وبلغها ليعلم أن معركة حامية قد وقعت بين الفريقين ومات فيها خلق كثير.

قابل بشير السعداوى فى "طمزين" السيد أحمد السنى الذى كان يتزعم جماعة الزنتان وأبلغه أن القصد من مجيئه إجراء الصلح بين المتقاتلين، وهو

لذلك يريد أن يبعث كتابًا إلى زعيم الأباضية خليفة بن عسكر الذى كان الزنتان أجلوه عن يفرن إلى فساطو، ثم أجلوه كذلك عن فساطو إلى (نالوت) واتخذ (كباو) مركز قيادته. فوافق الشيخ أحمد السنى. فكتب بشير السعداوى إلى ابن عسكر يطلب الاجتماع به لإنهاء الخصومات السائدة، ولإجراء الصلح كخطوة ضرورية لتوحيد الجهود فى الكفاح ضد الطليان. وخليفة بن عسكر من رجالات المجاهدين الذين أبلوا بلاء حسنًا فى الحرب ضد الطليان، وكان بشير السعداوى يتوقع أن يصغى لنداء الصالح الوطنى.

ولكن بدلا من أن يأتيه جواب على كتابه إلى ابن عسكر. فوجئ بشير السعداوى وأهل (طمزين) بهجوم شديد يشنه عليهم فى ستر الظلام وأهل طمزين نيام. خليفة بن عسكر. وكانت المباغطة محكمة التدبير لدرجة أن كاد المهاجمون يدخلون عليهم بيوتهم. ففزع شجعان الزنتان ورجال القوة الموجودة يصدون هذا الهجوم المفاجئ. وحمى وطيس القتال. ولكن لم ينقض بعض الوقت حتى لحقت الهزيمة بجند ابن عساكر، وانكسر جيش الأباضية. وتقدم الزنتان والجنود والذين جاءوا إلى طمزين مع بشير السعداوى، حتى احتلوا (كباو).

وتشتت خليفة بن عسكر وجنده، وكان ذلك فى الأسبوع الأول م شهر ديسمبر سنة ١٩٢١. وبعد أن احتل الزنتان (كباو) - وأقام بها بشير السعداوى مدة - رجع بشير إلى يفرن. وفى يفرن ترك مع عبد العاطى الجرم وتحت قيادته القوة التى كانت معه، وغادرها ومعه الفرسان الذين جاء بهم أول الأمر إلى يفرن. وأما خليفة بن عسكر فقد خرج من (كباو) بمجرد أن علم بانسكار جيشه، وشاهده بمنظار المقرب بشير السعداوى من خارج طمزين وهو يجد السير على حصانه الأدهم. وقد نزل خليفة بن عسكر إلى (زواره) وهى من المراكز التى يحكمها الطليان فسلم لهم، ولكن هؤلاء لم يشقوا به لمواقفه السابقة فى الجهاد ضدهم، فظلوا يراوغونه حتى قبضوا عليه (فى أواخر مايو ١٩٢٢).

وتعجب بشير السعداوى بعد حادث (طمزين) كيف ينبذ خليفة بن عسكر عروض الصلح، ويأبى التفاهم الذى عرضه السعداوى عليه فى كتابه، مما أفضى إلى كل هذه الحوادث المحزنة فى الجبل من جهة وتسلم ابن عسكر الطليان من جهة أخرى. وظل السبب فى مسلك ابن عساكر سرّاً مطوّياً حوالى الثلاثين عاماً، حتى اجتمع بشير السعداوى بالسيد أحمد البدوى فى طرابلس الغرب خلال عام ١٩٤٩ وسأله: كيف تسنى لخليفة بن عسكر أن يهاجمنا فى (طمزين) ونحن نطلب الصلح والسلام. فأتضح أن الكتاب الذى بعث به بشير السعداوى إليه بواسطة السيد أحمد السنّى لم يصل صاحبه أصلاً بل احتفظ به أحمد السنّى لأنه يؤيد الزنتان فى ميولهم العدائية ويتوقع أن يحصل على خمس الغنيمة من أسلاب الحرب عند قيامها.

وقبل مغادرته يفرن، كتب بشير السعداوى إلى الشيخين أحمد البدوى وأحمد السنّى والى "عموم أعيان ومشايخ الزنتان والرجبان) يدعوهم إلى إنهاء الخلافات والحروب التى نالت من قوة الأمة وصرفت المجاهدين عن التفرغ لمنازلة الأعداء المستعمرين، ويطلب منهم أن يبادروا بإرسال الوفد الذى قرروا إرساله إلى هيئة الإصلاح المركزية - أو الحكومة الوطنية - "لأجل بيان حالة الجبل"، وهو الوفد الذى أراد الزنتان والرجبان إرساله. فكتب بشير السعداوى يقول:

إلى فضيلة الشيخ سيدى أحمد البدوى، وفضيلة الشيخ سيدى أحمد السنّى وعموم أعيان ومشايخ الزنتان والرجبان.

تحية وسلاماً، وبعد فإنه لا يخفاكم أن الهيئة المركزية يهملها سعادة هذه البلاد، والتوصل إلى ما تم به راحتها كما يهمنى ذلك بصورة خاصة، حيث إنى قد تجولت فى ربوعها وعرفت نخبة أبنائها وما هم عليه من الحمية الدينية والغيرة الوطنية وإنى سأكون بعون الله تعالى فى كل الأدوار بأى صفة كانت من الساعين لخدمتها بكل جهدى سواء أكنت مقيماً بها أم خارجاً عنها.

وحيث إنكم قد قررتم إرسال ذوات للاجتماع بالهيئة لأجل بيان حالة الجبل وما تم به راحته فهذا أمر ضرورى لا بد منه . وبما أنى قد ظهر لى أن أتوجه هذه الأيام إلى مركز الهيئة لهذه الغاية ، فأرجوكم أن تبادروا بتوجيه الذوات الذين ترون إرسالهم بوجه السرعة لأن حالة البلاد ومصالحها الداخلية والخارجية لا تحتمل التأخير ولا الإهمال .

واعلموا أن الحرب التى قامت بها الأمة فى هذه البلاد إلى الآن لم تنته ، بل إن التقيظ والتبصر مستلزم فى المستقبل أكثر من الماضى ، إننا بالسعى والجد والاجتهاد والمثابرة على العمل سنذل كل صعب ونرقى لأسنى مقعد بعون الله تعالى . وليس قولى هذا مجرد خيال ولا مثلاً مضروباً . كلا فإن للرقى أسباباً وللانحطاط أسباباً ، وإننا منذ سنة ونيف بحول الله آخذون فى أسباب الرقى والنجاح وكل أعمالنا قد تكللت بالتوفيق حيث إننا أخلصنا فى العمل لله ولهذا الوكن الشاخص نحونا بأبصاره والماد إلينا أكفة يستنجد بنا أن نتشله من الحضيض وتخلصه من مخالب الذل والهوان وما ذلك على الأمة الطرابلسية بعزیز إذا أحكمت بينها علائق الإخاء ومكنت روابط العلاء ونبذت الشهوات النفسانية والغايات الوقتية . وإنى لا أظن بل ولا أعتقد أن فرداً من أفراد هذه الأمة تخيل له نفسه اليوم تلك الغايات بعد أن مرت علينا أدوار تجربة ةشاهدنا فيها الحلو والمر وعلمنا أن لا نجاح إلا فى الإخلاص . فهذا المبدأ القويم الذى سلكنا سبيله فأصبحنا بفضل الله كتلة واحدة على مبدأ واحد . وإننا قريباً سنجنى ثمار هذا التعاضد والتعاون لعموم هذه الأمة ، لأن سعادة المرء بسعادة أمته ، وبقاءه . وما السعادة الفردية والمنفعة الشخصية إلا (كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وكفانا عبرة وتنبهاً قوله تعالى " ما خلفكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " هذا لتحذر الأمم ضياع بلدانها وفقدانها ولدانها ، وما سطرت هذه الكلمات لأزيدنكم علماً بل إنها من قبيل التذكير والله على ما أقول شهيد .

وقصد بشير السعداوى إلى مصراتة، وبصحبه الفرسان الذين ذكرنا أنهم كانوا من ترهونة ومصراتة والنواحي الأربع وزليطن.

وفى فجر يوم ٢٦ يناير ١٩٢٢ وصل مع جماعته إلى زاوية المحجوب فى مصراتة فأرادوا بها صلاة الصبح، ثم لم يكادوا يسيرون قليلا حتى سمعوا الطبول تدق، علامة الاستنفار للجهاد فاستفسروا من أحد الأشخاص عن السبب، فعرفوا أن الطليان نزلوا فى (قصر حمد) على مسير ساعتين إلى الغرب من زاوية المحجوب. فلجأ أعنة خيولهم رأساً صوب قصر حمد ولم يعرجوا على بيوتهم أصلا. ذلك أن "الهدنة" التى توقفت القتال فى أثنائها وجعلت ممكناً ذهاب وفد مؤتمر غريان أو هيئة الإصلاح المركزية إلى رومة كان الكونت فولبى والى طرابلس قد أفلح فى تحطيمها، وشن هجوماً شديداً على مصراتة، وانغمس بشير السعداوى فى هذا القتال الدائر فى التو والساعة. وكان إنهاء (الهدنة) بعد فشل وفد الهيئة فى رومة من العوامل التى أوجدت البيعة بالإمارة على القطر الطرابلسى البرقاوى للسيد محمد إدريس المهدي السنوسى أمير برقة.

٥ - بيعة الإمارة؛

وكان الهجوم على (قصر حمد) بعد خمسة أيام فقط من انتهاء أعمال مؤتمر سرت الذى انعقد بقصر سرت لإنهاء الاعتداءات التى كان يقوم بها البرقاويون والطرابلسيون على بعضهم بعضاً فى هذه المنطقة الواقعة بين الإقليمين البرقاوى والطرابلسى. وكان إنهاء هذه الحالة من المسائل التى واجهتها هيئة الإصلاح المركزية عند انتقالها إلى: (رأس بوعرقوب) بعد سفر وفد الهيئة إلى رومة (فى ديسمبر ١٩٢٠). وقد ذكرنا كيف أوفد الأمير السيد إدريس السنوسى عندما علم بقرار مؤتمر غريان، الشيخ مفتاح الفيل إلى أحمد المريض يطلب أن يسود التفاهم بين أهل برقة وأهل طرابلس. كما ذكرنا أن مقصد هيئة الإصلاح من الاستجابة لهذه الدعوة كان تأليف جبهة متحدة من

البرقاويين الطرابلسيين فى النضال ضد إيطاليا بعد أن تلاشى الأمل نهائياً فى غضون العام التالى فى نجاح الوفد فى مهمته فى رومة .

وفى ديسمبر ١٩٢١ بدأت اجتماعات قصر سرت بين المندوبين البرقاويين عن الأمير السيد إدريس ، وهم صالح الأطيوش ونصر الأعمى وخالد القيصة وصالح بن عبد الهادى البرانى ، وبين المندوبين الطرابلسيين عن هيئة الإصلاح المركزية وهم أحمد السويحلى ، وعمر بودبوس ، ونورى السعداوى والشتيوى بن سالم والصويعى الخيتونى وصالح بن سلطان وكان معهم عبد الرحمن عزام . ومع أن الغرض الظاهر والمباشر من اجتماع الفريقين تسوية الخلافات القائمة بين قبيلة المغاربة ورئيسها الشيخ صالح الأطيوش وبين بعض القبائل الأخرى الضاربة فى منطقة الحدود هذه ، فقد اعتقد الطليان أن الغرض الحقيقى والأهم من هذا الاجتماع إنما هو تقوية روح العداء المنتشر ضد إيطاليا فى برقة وطرابلس معاً ، والتمهيد لإعطاء السنوسية وأميرها الزعامة على الأقطاء الليبية بأجمعها . ولا ينكر أحد من المعاصرين أن بحثاً دار فى اجتماع سرت حول موضوع الإمارة سواء لم يخرج الكلام فى هذه المسألة عن حد إبداء الملاحظة كما يدعى البعض أم كان الكلام فيها جدياً . وأيا كان الحال فقد وضع المؤتمرون (ميثاقاً) وقعه الفريقان المتفاوضان فى قصر سرت فى ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٠ و ٢١ يناير ١٩٢٢ ؛ أهم ما يلاحظ فيه أنه أيد القرار الذى اتخذه مؤتمر غربان من قبل والذى جاء فيه أن مصلحة الوطن تقتضى "إنشاء حكومة قادرة بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة ، فى استطاعته أن ينقذ البلاد من الحالة التى آلت إليها ويعمل على تحقيق أهدافها الوطنية . فنص اتفاق سرت فى المادة الخامسة على أن الطرفين يريان "أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقتضى بتوحيد الزعامة فى البلاد ، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة " . ولا جدال فى أن هذا النص حقق ما كان يرجوه مندوبو الأمير عن الاجتماع بإخوانهم الطرابلسيين ،

ولا شك فى أن أهل برقة ما كانوا يرضون بغير زعامة أو إمارة السيد محمد إدريس بديلا لتوحيد صفوف المجاهدين فى برقة وطرابلس ضد الاحتلال الإيطالى. ومن ناحية أخرى حقق المندوبون الطرابلسيون فى الميثاق الغاية التى ذهبوا إلى سرت للمفاوضة من أجلها وهى ربط إخوانهم البرقاويين فى الجهاد معهم فيدخل الفريقان الحرب متحدين ضد إيطاليا، ولا يعقد فريق منهما الصلح مع العدو من غير موافقة واشتراك الآخر. فنص الميثاق فى مادته الثامنة على تعهد الطرفين "بألا يعترفوا للعدو بسلطة، وأن يمنعوه من بسط نفوذه خارج الأماكن المتحصن فيها الآن. وفى حالة وقوع حرب يتضافر الفريقان على حرب العدو والا يعقدوا صلحا أو هدنة إلا بموافقة الفريقين". وفى مدته التاسعة: "إذا خرج العدو من حصونة مهاجما جهة من الجهات وجب على الجهة الأخرى أن تمد المهاجم بالمهمات الحربية والمال والرجال، وأن تنذر العدو بالكف عن التجاوز، وإذا لم ينكف تهاجمه هى بدورها".

وكبان فى اجتماع سرت كذلك أن وضع الأساس الذى تقوم عليه الإمارة، أو حكومة الأمير المسلم المنتخب، وهو أن تكون هذه الحكومة دستورية وألا ينفرد بالحكم الأمير الذى إنما يمارس سلطاته، بإرادة الأمة. وكان وجوب قيام الحكومة الدستورية الشرط الذى تمسك به الطرابلسيون فى جميع مراحل علاقاتهم مع إخوانهم البرقاويين كلما طرحت مسألة الإمارة السنوسية على بساط البحث بين الفريقين وفى ؟ الظروف والمناسبات منذ أن نبت التفكير فى هذه الإمارة فى اجتماع سرت (١٩٢١ - ١٩٢٢) إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية على النحو الذى شاهدناه فى الفصول السابقة، وحتى تم تنصيب السيد محمد إدريس ملكا على ليبيا بعد الحوادث التى نذكرها بنيف وثلاثين عاما. فبعد أن تقرر فى المادة الخامسة من ميثاق سرت - كما رأينا - أن يجعل الطرفان غايتهما انتخاب "أمير مسلم" نصت المادة السادسة على أن "يتخذ الطرفان الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الغاية... وأن تكون تولية الأمير بإرادة الأمة". ثم جاء فى المادة السابعة: ومتى تحققت الغاية المذكورة

فى المادة الخامسة؁ يجب انتخاب مجلس تأسيسى من الفريقين لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لإدارة البلاد.

وتنفىذ لاتفاق سرت؁ نصت المادة السابعة كذلك على أن من واجب الفريقين قبل انتخاب الأمير المسلم؁ وقبل انتخاب المجلس التأسيسى؁ "وتمهيداً لهذه الأعمال . . أن يرسل كل منهما مندوباً للبلدين لأجل أن يشتركا فى سياسة البلاد والتدابير المقتضاة للدفاع عن الوطن" : وعلاوة على ذلك نصت المادة العاشرة على أن "تجتمع هيئة منتخبة من أهالى طرابلس وبرقة مرتين فى كل سنة فى شهرى المحرم ورجب للنظر فى مصالح البلاد" وجاء فى المادة الثانية عشرة والأخيرة أن: "مهمة الهيئة المذكورة تأييد العلائق الودية بين الطرفين وتأييد هذه الاتفاقية".

أما لماذا أراد الأمير السيد محمد إدريس الاتفاق لتوحيد الجهود على أساس الإمارة التى كان كبير الرجاء فى الظفر بها على القطرين كليهما: برقة وطرابلس؁ فقد يكون إصرار الطليان على ضرورة تنفيذ اتفاق الرجمة الذى عقده مع السيد إدريس - كما عرفنا - فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠؁ وعجز السيد إدريس لسبب أو لآخر عن تنفيذه؁ جعلاه يلتمس تقوية موقفة إزاهم. ومن المعروف أن اتفاق الرجمة إلى جانب أنه أنشأ الإمارة فى برقة بالحدود التى رسمها؁ نص على ضرورة نزع الأسلحة من الأهلىن؁ ونص (الأدوار) أو معسكرات المجاهدين. فجاء فى المادة السادسة أن الأمير سيلغى بصورة دائمة الأدوار وقرقولاته وكل التشكيلات السياسية والإدارية أيا كانت من الجهات التى تعهد إدارتها إليه ويكون إجراء ما ذكر . . فى مدة لا تزيد عن ثمانية أشهر من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق". ولكن أحداً من رؤساء القبائل لم يذعن لهذه الرغبة. واعترف الطليان أنفسهم بهذه الحقيقة فى اتفاق جديد مع السيد إدريس عرف باسم اتفاق (بومريم) فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢١. وبمقتضاه أنشئت (أدوار) أو معسكرات مختلطة من الإيطاليين والسنوسيين؁ وحقق كذلك الأمير أغراضه من حيث تقييد تدخل الحكومة الإيطالية فى

شئون القبائل العربية بدعوى العمل على تنظيمها، وذلك ما كان يجيزه لها اتفاق الرجمة بحكم تقرير مسئولية رؤساء القبائل أمام الحكومة" عن حفظ النظام والأمن فى الأراضى القاطنة فيها قبائلهم". ولكن الطليان كانوا مستائين من اتفاق (بومريم)، لأنه أرجأ مرة أخرى نزع الأسلحة وفض المعسكرات، وأظهر الأمير بمظهر المدافع عن حقوق الأهلىن وحرىاتهم - وأهم هذه عدم نزع السلاح منهم ووقف تدخل الطليان فى شئونهم. ولم يمنع الطليان من قتال الأمير فى حرب حاسمة بدلا من المفاوضة بعقد الاتفاقات الوهمية فى نظرهم إلا سوء الحالة فى إيطاليا فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى، وعدم استعداد الطليان العسكرى.

ولم يكن من ناحية أخرى فى مقدور الأمير نفسه أن يكون خالص النية فى اتفاق (بو مريم) بعد أن تأكد أن من المتعذر إطلاقاً نزع الأسلحة وفض الأدوار أو معسكرات المجاهدين، وهما الأمران اللذان ما كان يهدأ للطليان بال إلا إذا نالوا بغيتهم منهما. ووجد الطليان الأمير يتخذ - بعد الاتفاق الأخير - موقف المدافع عن حقوق البلاد ويسعى لإقامة الدليل على أن الحكومة الإيطالية هى التى لم تنفذ العهود التى قطعتها على نفسها بخصوص إنشاء الحكم أو الاستقلال الذاتى، وأنه - أى الأمير - قد وجد نفسه مضطراً بسبب ذلك إلى إبقاء بعض الأدوار ضمناً لا غنى عنه لتنفيذ تعهدات الحكومة الإيطالية والتزاماتها تنفيذاً كاملاً طبقاً لاتفاق الرجمة، وما تضمنه القانون الأساسى الصادر بقرار برقة منذ أول مايو ١٩١٩ لتنظيم شئون الحكم فى برقة، والذى تضمن اتفاق الرجمة المبادئ والقواعد التى أتى بها. ومنذ أكتوبر ١٩٢١ تزايد ضغط الطليان على الأمير السيد محمد إدريس. فكان فى ديسمبر من العام نفسه أن بدأ ينعقد اجتماع قصر سرت. ولا جدال فى أن عقد هذا الاجتماع كان فى حد ذاته كافياً لأن يهدد الطليان تهديداً خطيراً بالآثار التى سوف تترتب على اتفاق كلمة البرقراوين والطرابلسيين على الجهاد تحت لواء زعامة واحدة ضد الاستعمار الإيطالى. فإذا أسفر الاجتماع

عن القرارات التي سوف تجعل إنشاء هذه الجبهة المتحدة حقيقة واقعة، أرغم الطليان إرغاماً على اختيار أحد طريقين في تحديد علاقاتهم بالأمير السنوسي كلاهما مرجو في تحطيم جبهة المجاهدين؛ أن يرفعوا ضغطهم عن الأمير. فيتركون الأدوار ولا يصرفون على نزع الأسلحة من القبائل ويوسعون من "امتيازات" الإمارة و "حقوقها" ثمناً لكسب الأمير إلى نبذ اتفاقه مع الطرابلسيين أو على الأقل التهاون المتعمد في تنفيذ هذا الاتفاق، أو أنهم يحاربون الأمير ويقاثلونه، وعندئذ لا يقف البرقاويون في الميدان منفردين، بل يحارب إلى جانبهم إخوانهم الطرابلسيون. وكان الراجح أن يخشى الطليان لضعفهم وقتئذ من التورط في القتال في ميدانين في وقت واحد. وبالفعل استمر والى طرابلس الكونت فولبي ييذل قصارى جهده مستنداً إلى كل وسائل الإقناع كي يظفر من حكومته بالموافقة على نقض (الهدنة) مع الطرابلسيين، وبدء العمليات العسكرية، وكان بعد لأي أن وافقت حكومته على ذلك، فكان ذلك الهجوم الذي ذكرنا أنه وقع على (قصر حمد) في يناير ١٩٢٢. ترى هل توافق حكومة رومة على عمليات عسكرية مشابهة لهذه في برقة؟ سوف نرى أن الحكومة الإيطالية اعتمدت على الطرق الدبلوماسية للتفاهم مع أمير برقة من ذلك الحين، وأن الأمير السيد إدريس استمر يعتمد على اتفاق سرت بينه وبين الطرابلسيين لتهديد الإيطاليين من ناحية، ولدعم إمارته بين القبائل البرقاوية ذاتها حتى يتسنى إنشاء الإمارة البرقاوية السنوسية على دعائم قوية. ولم يغير من هذه "السياسة" سوى حدوث الانقلاب الفاشستي في إيطاليا في أكتوبر ١٩٢٢، وهو الانقلاب الذي يوضع (بيتو موسيليني) على رأس الحكومة في رومه، وبعد شهرين (ديسمبر ١٩٢٢) خرج السيد إدريس من اجحداية مقر إمارته قاصداً إلى القطر المصري.

وكان الهجوم على (قصر حمد) في ٢٦ يناير بعد أيام قليلة من اجتماع سرت الذي أنهى أعماله يوم ٢١ يناير. وكان عند عودة الوفد الطرابلسي من سرت إلى مصراته، أن عرف وهو يمر (بثمدحسان) أن الطليان احتلوا (قصر

حمد). فكتب أحمد السويحلى إلى قائم مقام سرت، على بن المنقوش أن يبعث فى أثر الوفد البرقاوى بما وقع، ويطلب من البرقاريين تنفيذ ما جاء فى المادة التساعة من ميثاق سرت، وتقول - كما سبق أن ذكرنا - "إذا خرج العدو من حصونه مهاجمًا جهة من الجهات وجب على الجهة الأخرى أن تمد المهاجم بالمهمات الحربية والمال والرجال .. الخ". وقام المنقوش بما أمر به. ولكن إمدادات ما لم تأت من برقة طوال هذه الحرب التى اشتهرت باسم حرب السبعة عشر يومًا.

انغمس فى هذه الحرب السعداوى والفرسان الذين رجعوا معه من يفرن. فقد عموا وجوههم شطر قصر حمد، بمجرد أن بلغهم خبر نزول الطليان هناك، ووجدوا أن الناس فى مصراتة لا يكادون يعرفون شيئًا عن احتلال الطليان لقصر حمد. فلم يخرج منهم للجهاد غير جماعة قليلة من قصر حمد نفسه ومن (قرارة)، فتألفت من هؤلاء وبشير السعداوى وفرسانه قوة استطاعت الاشتباك مع الطليان عند (بيوت ابن مليطان). وزحف الطليان بدون أن يستخدموا المدافع حتى لا يسمع الأهليون دويها فتأتى النجادات من كل مكان. وتمكن المجاهدون من وقف تقدم العدو فى نفس (قصر حمد) وأرغموا الطليان على الارتداد إلى الميناء. وتوقف القتال عندما أرخى الليل سدوله.

وفى اليوم التالى (٢٧ يناير) كتب بشير السعداوى والمجاهدين إلى رئيس هيئة الإصلاح المركزية، أحمد المريض، ليبلغوه ما حدث، وأعلن أحمد المريض الجهاد، وصار يجمع الجيوش من ترهونة والجفارة والنواحي الأربع ومسلاتة، ويبعث بها إلى أطراف مدينة طرابلس. ثم إن المجاهدين لم يلبثوا أن حاصروا العزيزية التى كان الطليان يحتلونها فقطعوا خط السكة الحديد الذى يصلها بطرابلس (٩ فبراير). ودارت معركة عند الرأس الأحمر فى الزاوية الغربية وانتصر المجاهدون وأسروا عديدين من الطليان .. واستمر

القتال فى كل الجهات مدة سبعة عشر يوماً بلياليها وكان ممن استشهدوا خلال هذه المدة فى جهة قصر حمد، عبد العاطى الجرم. ويذكر بشير السعداوى أن عبد العال كان فى قتال سنة ١٩١١، أصيب بجرح بليغ فى حرب الحفير بالقرب من ليدة، وخشى عليه من الموت، ولكنه طمأن البشير أنه عندما وقع لم ير حوراً ولا عيتاً. فلا بد أن تكون قد مد فى أجله، وبالفعل لم يلبث أن شفى ونجا من خطر عظيم. ولكن هذه المرة أصيب بجرح فى رقبته، فلما وقف بشير السعداوى يخفف من آلامه، وكان بجواره عبد الرحمن عزام، تلفت عبد العاطى إلى البشير يطلب منه ان يغطيه (بالبرنوس) الذى كان معه، لأن الحياة انتهت. وفى النهار توفى عبد العاطى الجرم.

وفى آخر أيام هذه الحرب التى دامت - كما ذكرنا - سبعة عشر يوماً، أى فى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٢ نشبت معركة هائلة فى قصر حمد، تكبد الطرفان فيها خسائر فى الأرواح جسيمة. فكانت هزيمة حلت بالمجاهدين والطلبان على حد سواء. حتى إن أحمد السويحلى - رئيس حكومة مصراتة - تكلم من مركز حكومته (بالمواطنين) يسأل (بالتليفون) من بشير السعداوى عما إذا كان لا أمل فى المقاومة إطلاقاً وباتت الهزيمة تامة حتى تجلو الحكومة من المواطنين وتخلى البلاد. ولكن وقد رأى البشير جموع المجاهدين تتدفق من كل ناحية لإنشاء خط قتال جديد وتسلم السلاح الذى استشهد أصحابه أو جرحوا فى المعركة السابقة، لم يسعه إلا أن يطمئن خيراً أحمد السويحلى ورؤساء البلاد الذين معه بالمواطنين وهم: عمر بودبوس، ونورى السعداوى، وتهامى قليصة، وعلى جليل. ولم ترزغ شمس يوم ١٢ فبراير حتى صار خط القتال مملوءاً بالمجاهدين. وتأثر لذلك أحد الرؤساء فى خط القتال، شتىوى الكريك، خال أحمد السويحلى، فصار يبكى ويردد الحمد والشكر لله - سبحانه وتعالى - الذى نصرهم بعد أن كبدهم خسارة جسيمة. ورجع الطليان إلى قصر حمد، ميناء مصراتة.

وكان مع بشير فى جبهة القتال من الرؤساء محمد سعدون السويحلى.

أخو رمضان وأحمد السويحلى، ويتردد من (المواطنين) على خط القتال من وقت لآخر عبد الرحمن عزام. وكان يوم معركة ١١ فبراير لا يفتأ يسأل بشير السعداوى عما إذا كان الواجب أن يموتا كلاهما فى هذا اليوم، أو أنهما ربما استطاعا المحافظة على حياتهما، وذلك من هول المعركة. فكان البشير يؤكد أن الموت ضرورى اليوم، فالحياة سوف تكون طويلة مليئة بصنوف الجهاد من ربة الاستعمار الإيطالى، وذلك على حد تعبير بشير السعداوى "مشوار طويل".

بعد هذه المعركة الشديدة - معركة ١١ فبراير - ظهر فى عرض البحر يقصد إلى الميناء زورق يحمل علمًا أبيض. فلما وصل الزورق إلى الميناء (قصر حمد)، تقدم حامل العلم الأبيض جهة (المواطنين). فلم يطلق هؤلاء عليه الرصاص حتى إذا وصل إليهم، تبين أنه (عثمان القيزاتى) صاحب اللواء الطرابلسى، والمحامى الإيطالى (مارتينى)، وكان هذا يناصر قضية العرب ضد جور حكومته فى البلاد. بعض بهما السوالى (جوزيبى فولبى) للعمل على وقف القتال وطلب المافوضة للصالح مع المجاهدين. وعلم المجاهدون أن السوالى بعث فى الوقت نفسه إلى أحمد المريض رئيس الهيئة رسولين لهذا الغرض نفسه، هما: السنيور (بيلا) أحد أعيان الطليان وتجاربهم، والمستشرق الإيطالى (رابكس) ترجمان وسكرتير السوالى، فاتصل بشير السعداوى وزملاؤه برئيس الهيئة أحمد المريض، وأسفرت المخابرة عن وقف القتال فى جميع الجهات، وتهيأ اتلطرفان للمفاوضة.

ويذكر المعاصرون شيئاً من تفصيل الحوادث التى صحبت وقف القتال. من ذلك: ما أوضح عثمان القيزانى مهمته فى المواطنين، حتى بادر عبد الرحمن عزام يكتب على لسان أحمد السويحلى، ودون استشارة سائر الرؤساء فى المواطنين، كتاباً إلى (فولبى) يطلب منه إذا أراد وقف القتال أن يسحب جيوشه من (قصر حمد) بلا قيد ولا شرط. فلما نعى إلى الرؤساء ما فعله أحمد السويحلى وصاحبه غضبوا، ورأى نورى السعداوى أن انفراد

أحمد السويحلى وصاحبه بالرأى دونهم فى هذه المسألة لا يجعل فائدة لوجودهم، وأصر على أن يعاد النظر فى الكتاب، الذى يجب إرساله إلى والى الطرابلسى، جواباً على طلبه وقف القتال. وبالفعل أعيد بحث الموضوع من جديد، وتقررت صيغة أخرى للرد أكثر ملاءمة للموقف، فحواها أن المجاهدين فى المواطنين قبلوا وقف القتال بناء على أن الفريقين سوف يبدأ المذاكرة فى الموقف بأسره مباشرة. فبعث الكونت فولبى إليهم بصيغة الهدنة المزمعة على أن يوقعها رئيس الهيئة أحمد المريض من جانب، والإيطاليون من جانب آخر فاتصل بشير السعداوى وصحبه بأحمد المريض. وأبلغوه ما حدث وبعثوا إليه باتفاق الهدنة، فوقعه وأعاده. وبعث هؤلاء بالاتفاق إلى الطليان. وفى اليوم التالى بعث فولبى برسالة إلى الرؤساء المجاهدين فى المواطنين فهو هؤلاء منا أن حكومته لم ترض أن يبرم اتفاق على الهدنة بين الطرفين على أنهما ند لند، ومع ذلك يشرف إيطاليا - كما قال - أنه قبل الموافقة على وقف القتال. فأجابه هؤلاء أنه كذلك يشرف العرب أن يقبلوا وقف القتال والدخول فى مذاكرة، وحيث إن لهم رئيساً هو أحمد المريض، فقد طلبوا إليه من الآن فصاعداً أن تكون مخابراته مع هذا الرئيس وحده. وكان غرض بشير السعداوى وصحبه من عدم الدخول فى مفاوضات أو مذكرات مباشرة مع الطليان، أن يقيموا لهؤلاء الدليل على أن بالبلاد حكومة واحدة، هى حكومة هيئة الإصلاح المركزية، وأن القتال فى مصراتة لا يمكن بحال أن يكون حرباً محلية فحسب. ولم يشذ عن إجماع هذا الرأى غير أحمد السويحلى الذى اعتبر أن مصراتة (بلاده) ومن حق أهل مصراتة ان يقرروا الهدنة ووقف القتال إذا شاءوا وبالشروط التى يرونها. ولكن معارضة أحمد السويحلى ذهبت هباء.

وأما المفاوضات أو المذكرات المنتظرة فقد جرى الاتفاق على أن تكون فى (فندق الشريف)، فلم يلبث أحمد المريض أن دعا بشير السعداوى وسائر إخوانه من المواطنين لحضورها فى فندق الشريف، فحضر هذه المفاوضات التى

بدأت في شهر مارس سنة ١٩٢٢ إلى جانب أحمد المريض وبشير السعداوى، كل أعضاء الهيئة وكثيرون من الرؤساء. وحضرها كذلك عثمان القزاتى. وأما عبد الرحمن عزام فقد بقى فى مصراته. وبقي بها كذلك نورى السعداوى. وكان من الذين حضروا المفاوضة أعضاء الوفد الذين رجعوا من رومة: فرحات الزاوى، والصادق بن الحاج، وخالد القرقي. ووقف بشير السعداوى من فرحات الزاوى والصادق بن الحاج على الكثير من أخبار الوفد عندما كان برومة. وأما مندوبيا الطليان فكانا السنيور (بيلا) والمستشرق (رباكس) وجاء هذان يحملان مذكرة شفوية، فحواها أن الحكومة الإيطالية بطرابلس تريد التفاهم لإنهاء هذا النزاع الذى لا يؤدى إلى نتيجة طيبة، لا لأهل البلاد ولا لإيطاليا، وليس غرض الحكومة الإيطالية إلا إسعاد البلاد وتقديمها وعمارها. وتركت هذه المذكرة الشفوية أثراً فى أذهان المجاهدين، أنها محشوة بالعبارات "السياسية المطاطة". ومع ذلك أظهر هؤلاء استعدادهم للتفاهم وإسعاد البلاد؛ وحرصوا على أن يذكروا للمندوبين أن الطليان هم الذين اعتدوا عليهم وهاجموهم فى بلادهم. وأنهم لا يقدرّون إلا أن يتمسكوا بقوميتهم وأن يحافظوا عليها. و انتهوا إلى أن السلطات الإيطالية إذا كانت تريد المفاوضة والبحث، فما عليها إلا أن تعين وفداً رسمياً لهذه المفاوضة مع وفدهم على استعداد لأن يعينوه من جانبهم كذلك لهذا الغرض.

واستمر (بيلا) و(رباكس) يترددان على فندق الشريف مدة طويلة؛ ولا رجاء فى الوصول إلى تفاهم يحسم ماالنزاع بين الفريقين حول القضية الطرابلسية التى أثّرت بحذافيرها فى هذه الاجتماعات، حتى كشف الطليان القناع عن نواياهم، ووضح الغرض من مساعيهم فى المفاوضة، وذلك عندما تحدث مندوباهم عن الاتفاق الذى وصل إليه الطرابلسيون مع إخوانهم البرقاويين فى قصر سرت، قبل ذلك بشهرين. فقال (بيلا) و (رباكس): لقد اتفقتم مع إدريس على توحيد أعمالكم. فلماذا لا تتركون برقة؟ فإذا فعلتم تفاهمنا نحن معكم. فوجئ المفاوضون العرب بهذا العرض الذى جعلهم

يدركون أن غرض الطليان من الهدنة والمفاوضة كان كسب الوقت بإنجاز استعداداتهم العسكرية من جهة، وبذر بذور التفرقة بين لطرابلسيين والبرقاويين، حتى يتسنى تحطيم الجبهة المتحدة التي نجح الطرفان فى إنشاءها فى قصر سرت من جهة أخرى. ومما زاد فى تخرج الموقف، أن الأمير السيد إدريس السنوسى لم يكن حتى هذا التاريخ قد بعث يبلغ الهيئة المركزية موافقته على اتفاق سرت. ثم كان عرض الطليان مغرياً. لقد وعدوا بأن يعترفوا بحكمة طرابلس، وبالدخول فى مباحثات معها على أساس هذا الاعتراف، وأن يشكل الطرابلسيون هذه الحكومة حسب مشيئتهم؛ ولهم إذا أرادوا أن يكون أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح المركزية، رئيساً لهذه الحكومة. ترى على عرض الطليان على الأمير السنوسى أن ينسوا خلافاتهم معه وأن يتركوه يدعم إمارته البرقاوية إذا تخلى هو الآخر عن المجاهدين الطرابلسيين وهدم اتفاق سرت؟ ولماذا أبطأ الأمير فى اعتماد هذا الاتفاق؟

من الذين انخدعوا بهذه الأمانى التى لوح بها الطليان لإنشاء الحكومة الطرابلسية المزعومة التى وعد هؤلاء بالاعتراف بها، كان مختار كعبار الذى رأى أن تترك الهيئة المركزية الأمير إدريساً وشأنه، وأن تترك كذلك الاتفاق مع برقة - أى تهدم اتفاق قصر سرت - وتبرم غيره مع الطليان بختص بطرابلس وحدها. ولكن انبرى لمقاومة هذا رأى أكثر أعضاء هيئة الإصلاح. فهم قدرها لهم أن ينكثوا العهد مع رجل مسلم اتفقوا وإياه على مصلحة وطنية، وأن ينفذوا أيديهم من إخوان لهم فى الوطن فلا يفكرون إلا فى أنفسهم وفى بلادهم فقط. فهم جميعاً فى برقة وطرابلس أمة واحدة وشعب واحد ووطن واحد فلا معدى عن اتفاقهم جميعاً على الحرب أو السلم.

وبينما هم يتشاورون فى ذلك، جاء كتاب من السيد الأمير بالموافقة على اتفاقية سرت. فقرر رأى على أن ترفض الهيئة عروض الطليان ونؤكد لمدوبيهم أنها لا يمكنها التخلي عن برقة والدخول مع الطليان فى مفاوضات

منفردة ومن غير إشراك مندوبى السيد إدريس فى كل مباحثه لحسم الخلاف بين العرب والحكومة الإيطالية. وجاءهم (رابكس) مرة أخرى يحمل معه - على عادته التى درج عليها فى المقابلات الأخيرة - مذكرة مطولة مكتوبة. هذه المرة كانت المذكرة صادرة عن رئيس الحكومة الإيطالية السنيور (فاكتا) الذى يؤكد حسن نوايا إيطاليا نحو أهل طرابلس، ورغبته فى التفاهم معهم حتى يقضى على الحروب والفتن ويسود السلام. وكان المطلب فى هذه المرة أن يسلم المجاهدون أسلحتهم فى نظير أن تعترف بها إيطاليا كحكومة. ولكن على أن يتم تسليم الأسلحة قبل الدخول فى أى بحث فى ذلك. ولم يشر المفاوضات الإيطاليان مسألة التخلي عن برقة. وتزايدت شكوك المجاهدين فى نوايا الطليان الذين صاروا يطلبون تسليم الأسلحة على نحو ما كانوا يفعلون فى برقة، ويضغطون على أميرها السيد إدريس من أجل ذلك. ويذكر الذين شهدوا هذا الاجتماع الذى قدم فيه (رابكس) مذكرة رئيس حكومته (فاكتا) فى مفاوضات فندق الشريف، أن الغضب كان شديداً من هذه (المفاجأة) الأخيرة. واستبد هذا الغضب برئيس الهيئة أحمد المريض. فبدأ يرد على المذكرة فى حديث طويل، والكل فى صمت وسكون حتى فرغ من مقالته.

أوضح أحمد المريض مطالب الأمة التى هى مطالب حققة مشروعة. فالطرابلسيون الذين يرغبى الإيطاليون الفتح والاتفاق معهم كما يؤكدون هم أصحاب البلاد، ومن حقهم أن يعيشوا، وأن يعيشوا فى حرية. وعدد أحمد المريض أنواع المظالم التى أوقعها الطليان بالأهلين منذ أن اعتدوا على أوطانهم. ثم قال: أنتم تطلبون أن تجمع لكم السلاح الذى فى أيدي المجاهدين. إنى أسأل: من ذا الذى فى وسعه أن يفعل هذا؟ فالبلاد بأسرها لا يوجد بها رئيس أو شيخ فى مقدوره أن يطلب من مجاهد واحد أن يعطيه سلاحه حتى يسلمه لإيطاليا ويترك هو الجهاد. ذلك أن الشعب إنما يقاتل عن عقيدة وإيمان، فالذى يدعو لتسليم سلاحه، يدعو للتنازل عن عقيدته وإيمانه. وليس ما تطلبون إلا المحال. أما إذا شئتم أن نصل إلى تفاهم

معكم، فنحن مستعدون للدخول معكم في مباحثات لهذه الغاية، حتى إذا اتفقنا وإياكم على ما فيه صالح الوطن وسلامته، ويحقق في الوقت نفسه مصالحكم، قبلت الأمة هذا التفاهم، فإن أحداً لا يريد أن يبقى مجنداً يحمل السلاح طوال حياته، أو أن تستمر التضحية بالأرواح أبد الدهر، وديننا يقول: "وإن جنحوا للسلم باجئنا لها".

يقول المعاصرون لهذه الحوادث: إن أحمد المريض ظل يتكلم ساعة، وهو في غاية من التأثر، واعتاد (رابكس) في كل رحلاته السابقة إلى فندق الشريف أو إلى غيره من الأمكنة، العودة إلى طرابلس في اليوم نفسه. وفي هذه المرة أثر (رابكس) أن يبيت ليلته في فندق الشريف. وغرضه أن يتصل بسائر أعضاء الهيئة الذين لم يتكلم منهم أحد حتى يلمس ما إذا كانت الروح التي تكلم بها أحمد المريض هي روح الجماعة. وبالفعل تقضى الليل وهو يجتمع بهم واحداً بعد آخر، ويؤكد له جميعهم أن ما تكلم به أحمد المريض إنه هو إلا ترجمة صحيحة لما يجول في أذهان أهل البلاد قاطبة.

رحل (رابكس) في صبيحة الغد إلى طرابلس، ولكنه عاد في اليوم التالي. ولم يتحدث في هذه المرة عن نزع الأسلحة، كما لم يتحدث بطبيعة الحال عن نبذ الإنفاق مع برقة. وإنما صار يتحدث في أن المجاهدين ضيقوا الخناق على البلاد بالرغم من قيام الهدنة. وشكا من أنهم نهبوا شركة (التناره) - أو سمك التونه الموجودة في قرقارش - وعندئذ استيقن الجميع أن ليس القصد من هذه المفاوضات إلا إطالة المباحثات لكسب الوقت إلى أن يفرغ الطليان من استكمال استعداداتهم العسكرية وتجهيز الجيوش لاستئناف القتال. وذكر المفاوضات العرب لمندوب الحكومة (رابكس) أنهم يلحظون انتقال المباحثات من الأمور ذات الشأن إلى المسائل الثانوية. وانقطعت المفاوضات في ١٠ إبريل ١٩٢٢ وبالفعل لم يمض أقل من أسبوع حتى كانت الحرب قد استؤنفت في (الزاوية). ودارت معارك حامية في ٢٤ و ٢٥ إبريل، وسقطت الزاوية في يد الطليان. واستمرت الحرب في أماكن أخرى.

ومنذ أن توقعت هيئة الإصلاح المركزية نشوب الحرب قريباً بين العرب والطيالان فى طرابلس بسبب مراوغة هؤلاء الأخيرين فى مفاوضات فندق الشريف، اتجه تفكيرها إلى ضرورة عدم الإبطاء فى دعم اتفاقية سرت بتنفيذ نصوصها على الأقل من جانب الطرابلسيين أولاً بإرسال "المندوب" الذى نصت الاتفاقية على إرساله من جانب الهيئة المركزية إلى إجدابية، فى نظير أن يأتى مندوب عن برقة إلى مقر الهيئة فى طرابلس، وثانياً بإرسال وفد من قبل هيئة الإصلاح يدعو الأمير السيد إدريس لزيارة طرابلس. فاتفاقية سرت تنص على تبادل التمثيل لوحدة البلاد. ثم إن الهيئة خشيت فى الظروف العصيبة التى صارت تمر بها طرابلس، ولم يتلق أهلها أية نجيدات من إخوانهم البرقاويين منذ أن بدأ هجوم الطيالان على (قصر حمد) واحتلالهم له فى يناير من هذا العام (١٩٢٢)، وبالرغم من طلب النجدة منهم تنفيذاً لنصوص اتفاقية سرت ورحها، نقول خشيت الهيئة أن تنفرد برقة بالاتفاق مع الطيالان الذين يسعهم حيثئذ أن يتفرغوا لهزيمة المجاهدين فى طرابلس.

وقع اختيار هيئة الإصلاح على بشير السعداوى ليمثلها لدى حكومة الأمير السيد إدريس السنوسى فى إجدابية. واختارت وفداً من المشايخ: محمود المسلاتى وطاهر الزاوى ومحمد بن حسن بن عبد الملك، يذهب إلى إجدابية ليدعو السيد إدريس للزيارة وكان هذه المرة الأمير السيد إدريس أسبق فى تنفيذ تبادل التمثيل لدى الحكومتين، فوصل الشيخ عبد العزيز العيساوى إلى مصراتة مندوباً عن الأمير لدى هيئة الإصلاح المركزية، وذلك قبل أن يبدأ المندوب الطرابلسى بشير السعداوى، والوفد الذى سعى بوفد الدعوة رحلتها. أما لماذا بكر الشيخ العيساوى بالحضور إلى مصراتة. فيبدو أن الأمير السيد إدريس كان حريصاً على أن يدرك الطرابلسيون أن من العبث مطالبة برقة بتنفيذ اتفاقية سرت ما لم يسبق ذلك مبايعة صريحة بإمارة السيد إدريس على كل من برقة وطرابلس. ولقد أكد الشيخ عبد العزيز العيساوى هذا المعنى عندما حذر المندوب والوفد الطرابلسيين، أن الأمير السيد إدريس سوف يتمتع

عن الحضور للزيارة والقيام بأى عمل حربى، إذا لم يسبق ذلك مبايعته بالإمارة. ترى إذا أخض المندوب الطرابلسى ووفد الدعوة هذه البيعة معهما، أكان يغير هذا شيئاً من موقف الأمير من مسألة الدخول فى الحرب إلى جانب الطرابلسيين ضد الطليان؟ إن ما وقع فعلاً من حوادث بعد ذلك سوف يبين إلى أى حد كان الجانب البرقاوى فى مفاوضات سرت مجداً فى محاولته الوصول إلى إبرام هذه الاتفاقية التى عقد الجانب الطرابلسى عليها آمالاً كبيراً فى توحيد القتال فى جبهة ممتدة من آخر حدود برقة إلى آخر حدود طرابلس ضد الاحتلال الإيطالى.

غادر المندوب بشير السعداوى ووفد الدعوة الطرابلسى مصراتة حوالى منتصف مايو سنة ١٩٢٢، وبلغ إجدابية فى أوائل الشهر التالى، فاستقبلهم الأمير استقبالا حافلا. ولم يفت بشير السعداوى أن يلحظ اشتراك عدد كبير من رؤساء ومشايخ القبائل فى برقة فى هذا الاحتفال، وعرف بشير السعداوى أن الأمير دعا هؤلاء من المغاربة والعواكير وقبائل الجبل فى ظاهر الأمر للمداولة فيما يجب اتخاذه من وسائل للدفاع عن مصالح البلاد، وفى الحقيقة لتهديد القبائل التى لم تكن ترضخ لسلطانه رضوخاً تاماً وقتئذ بأن فى وسعه أن يتركها وشأنها أمام الطليان وجهاً لوجه، وأن يذهب إلى طرابلس التى أتى مندوبها ووفدها يدعونه للذهاب إليها. ترى أكان القصد من حشد هؤلاء الرؤساء البرقاويين فى استقبال المندوب الطرابلسى ووفد الدعوة "تهديد" السلطات الإيطالية من جانب آخر بأن جبهة قتال متحدة سوف تنشأ حتماً إذا لم يخف ضغط الطليان على حكومة الأمير الوطنية، ويبادر هؤلاء إلى تنفيذ ما تعهدوا به لهذه الإمارة التى أوجدها وذيولها انفاقا الرجمة وبو مريم؟

الذى حدث هو أن أعوان الأمير: على العابدية وصالح الأطيوش والفضيل المشهش وغيرهم أسسوا دعوة القبائل للحضور إلى إجدابية لمقابلة المندوب والوفد الطرابلسى على أن هؤلاء قد جاءوا ببيعة الإمارة للسيد محمد

إدريس السنوسى، وأن أهل طرابلس انضوا جميعاً تحت لوائه. ويعلل الذين شهدوا هذه الحوادث السبب فى ذلك بأن ضغط سلطات الاحتلال الإيطالى على الأمير لتجريد القبائل من الأسلحة وحل المعسكرات، من جهة، وتعمدهم إغفال تنفيذ اتفاق الرجمة فيما يتعلق بتصوير الإمارة ذاتها من جهة أخرى، ثم انكماش الإمارة البرقاوية لهذين السببين والتهديد بأن يستمر هذا الانكماش حتى يضيق نفوذها وسلطانها سريعاً فلا يعود وجود للإمارة أخيراً. قد جعل ذلك كله هؤلاء يجمعون كلمة القبائل البرقاوية متحدة على الإمارة قبل كل شىء حتى تستطيع هذه أن تصمد فى النضال عن كيائها أمام الطليان. ذلك الصمود الذى يحمل هؤلاء على تنفيذ تعهداتهم التى ارتبطوا بها فى اتفاقاتهم مع الأمير السيد إدريس السنوسى، ليس فى اتفاق الرجمة وحده، بل منذ أن صح عزمه على مهادنتهم ووقف القتال معهم فى الاتفاق الذى وصل إليه الفريقان قبل ذلك بثلاث سنوات فى (عكرمة) جهة طبرق فى إبريل ١٩١٧ وكان هذا أول اتفاق من نوعه بين السنوسية والطليان.

سأل مشايخ القبائل الذين جمعهم الأمير إذاً بشير السعداوى عما إذا كان قد جاء هو والوفد الذى حضر إلى إجدابية، بالبيعة للأمير السنوسى. ولم يكن بشير السعداوى ولا وفد الدعوة قد جاء بالبيعة. لقد كانت هذه البيعة فى الأذهان منذ اتفاق سرت. ومع أن هذا الجانب وجوانب كثيرة غيره - مر بنا ذكر أهمها - لم توضع بعد موضع التنفيذ خصوصاً من ناحية أهل برقة، فلم تخرج مهمة المندوب أو الوفد الطرابلسى فى جوهرها عن عدم تنفيذ البرقاويين. بل العمل على إقناعهم بوجوب تنفيذ الاتفاقية ليشاركوا إخوانهم الطرابلسيين فى الجهاد ضد الطليان. ولم يكن سهلاً ولا مطلوباً أن يصدم بشير السعداوى الرؤساء والمشايخ بجواب ينفى أن إخوانهم الطرابلسيين عندما أبرموا معهم اتفاق سرت كانوا يفكرون فى مبايعة السيد إدريس السنوسى بالإمارة. وسواء لم يكن مقصد الطرابلسيين - كما يؤكد كثيرون - مبايعة الأمير أم أن مسألة المبايعة هذه ما كانت تعدو مجرد فكرة جالت فى أذهان

فريق منهم وداعبت خيال فريق آخر. فالثابت باستقراء الحوادث من ناحية. ومما أجمع عليه كثيرون آخرون من ناحية ثانية. أن وجوب مبايعة السيد إدريس بالإمارة من جانب الطرابلسيين كان قد تقرر فى الأذهان بصورة حاسمة منذ أن تبين لهيئة الإصلاح المركزية أن وفدها - أو وفد مؤتمر غريان - إلى رومة سوف يفشل فى مهمته. ولقد كان واضحاً من تطور الحوادث بعد ذلك وبالصورة التى رسمناها أن لا معدى عن توحيد الجهود فى النضال ضد الاحتلال الإيطالى لاستنفاذ طرابلس بل والبلاد بأسرها من براثنه. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمبايعة للسيد إدريس السنوسى بالإمارة.

ماذا كان جواب بشير السعداوى على سؤال هؤلاء الرؤساء والمشايخ؟ أكد لهم أن أهل طرابلس مصممون قطعاً على مبايعة السيد بالإمارة، ولا وجود لاتجاه آخر فى البلاد بأسرها. وأما لماذا لم يحضر السعداوى البيعة إذاً؟ فذلك لأنه - كما قال - إنما جاء إلى إجدابية نزولاً على أحكام اتفاقية سرت التى نصت على تبادل التمثيل بين الهيئتين الحاكميتين فى برقة وطرابلس. لا جدال فى أن بشير السعداوى إما كان ييغى بكل وسيلة أن يطمئن خواطر البرقاويين حتى يسهل إقناعهم بالانضمام إلى الطرابلسيين فى القتال ضد العدو؛ فى هذا أيضاً تنفيذ للاتفاقية. وزيادة فى تطمينهم طلب بشير السعداوى من على باشا العابدية، من كبار أعوان الأمير ومتصرف إجدابية كذلك، وكان حاضراً الاجتماع أن يسأل الأمير تحديد موعد لمقابلته. وطمأن بشير السعداوى المشايخ أنه سوف يبلغهم ما يسرهم عقب هذه المقابلة. وكان يقصد "ألا يتطرق اليأس إلى قلوبهم" !.

وتحدث بشير السعداوى عند مقابلته للأمير عن المهمة التى حضر من أجلها إلى إجدابية وهى تنفيذ اتفاقية سرت من ناحية تبادل التمثيل بين الطرفين، كما يعرف ذلك الأمير نفسه. ومع هذا فقد سأله الرؤساء والمشايخ عما إذا كان أتى ببيعة أم أنه لم يفعل. وجوابه على هذا السؤال: أنه سيكتب

فى ذلك دون إهمال إلى إخوانه أعضاء هيئة الإصلاح المركزية فى طرابلس .
ويؤكد فى الوقت نفسه للسيد الأمير أنهم جميعاً مصممون - إن شاء الله -
على مبايعته بالإمارة . ويذكر بشير السعداوى أن الأمير السيد إدريس كان قليل
الكلام فى هذه المقابلة ، وحاول على العابدية الذى كان حاضراً كذلك أن
ينفض الاجتماع بعد مقالة بشير السعداوى . وقبل أن يرد الأمير عليل مقالته .
فرفع العابدية يديه يطلب قراءة الفاتحة على نحو ما يفعل السنوسيون عندما
يريدون إنهاء الحديث أو المقابلة . فغضب السعداوى لهذا الأسلوب فى
تصريف الأمور ذات الخطورة الظاهرة ، ومنع العابدية من قراءة الفاتحة حتى
يسمع الجميع جواب الأمير فى مسألة تتصل بصالح الوطن .

وقد بعث بشير السعداوى من أجدابية بكتابين إلى أحمد المريض رئيس
هيئة الإصلاح المركزية يبلغه فى أحدهما بتاريخ ١٩ يونيه سنة ١٩٢٢ وصوله
ووفد الدعوة إلى أجدابية ويذكر فى كتابه الثانى بتاريخ ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٢ ،
الموافق ٢٦ شوال سنة ١٣٤٠ مقابلته للأمير والحديث الذى دار بينهما
بحضور نورى السعداوى . وإليك نص ما جاء فى هذه الرسالة :

بعد إهداء السلام واشوق التام : أعرض أنى بعد ثلاثة أيام من تاريخه
عرفتكم بوصولنا إلى أجدابية ومقابلتنا الأولى لسمو الأمير . وقيل يومين
تقابلنا مع سموه وتجادبنا أطراف الحديث فى المسألة الطرابلسية ، وبيننا له
الحوادث التى حدثت بعد مؤتمر غريان وذلك بصورة إجمالية . وكان يصغى
للحديث بكل دقة واعتناء . وفى آخر الجلسة بينت له أن الأمة الطرابلسية قد
أوفدت هذه الهيئة لتدعوكم لأن تشرفوا القطر ، وأنها ترغب فى ذلك بفارغ
الصبر . وكان الأخ نورى معنا فى هذا الاجتماع فشرح له الوضع الحاضر
وبين له ضرورة تلبية الدعوة انجازاً للوعد وتحكيماً لعلائق الود المتأسس بين
القطرين . فأجاب بأنه يرغب فى ذلك : وإنما قد سبق أنه قد خاطب ملك
إيطاليا ورئيس النظار وناظر المستعمرات بما قاله (بناء على النضابط المقدمة من

مشايخ وأعيان برقة بأن الاتفاق المتعقد بينهم وبين أهالى القطر الطرابلسى قد أصبحوا نفساً واحدة. وعليه فإما أن الحكومة تلبى دعوة الطرابلسيين وتدخل معهم فى المفاوضة وإلا فلا يمكنهم أن يقفوا فى هذه الظروف موقف الحياد وعليه فسموه ينتظر الجواب عن هذا الخطاب. وأفادنا أيضاً أنه من المحتمل أن ناظر المستعمرات يأتى إلى بنى غازى فى هذه المدة القريبة. ولذلك يرى ضرورة الانتظار فى هذه الأيام. فخرجنا من عنده وهو يتمنى تكرار مقابلتنا والبحث معه فى مسائل البلاد. والله يوفق الجميع لما فيه النجاح".

وفى يوم الاثنين ٨ ذى القعدة (الموافق ٣ يوليه ١٩٢٢) كتب بشير السعداوى إلي الرئيس الهيئة المركزية من أجداية الكتاب الآتى:

تحية وسلاماً: وبعد فإنه عقب إشعارى المؤرخ فى ٢٦ شوال ١٣٤٠، اجتمع نخبة من مشايخ القطر وأتو إلينا ليذاكروا معنا ويفهموا الوضع الحاضر بالغرب. فشرحنا لهم ذلك فأظهروا استياءهم من تجاوز الحكومة وقالوا إن الأمر الذى حل بكم لا شك أنه يحيط بنا إذا ائتمر هذا الحال وخرجوا من عندنا. وفى الحال نظموا مضبطة يخاطبون بها سمو الأمير فحواها: (أنهم اجتمعوا بالوفد القادم من الجهة الغربية وعلموا استمرار تجاوز الحكومة على أهالى القطر الطرابلسى وأن هذه الحالة قد أساءتهم أشد الاستياء. وعليه فإما أن تكف الحكومة عن هذا التجاوز وإلا أصبحوا فى حالة حرب بصورة قطعية). وعقب أن قدموا هذه المضبطة اجتمعنا بسمو الأمير وبين لنا أن ناظر المستعمرات قادم إلى بنى غازى يوم الأحد الموافق ٧ ذى القعدة ١٣٤٠ (٢ يوليه ١٩٢٢) وأنه سيتقابل معه فى جهة الجبل الأخضر وبين له تهيج الفكر العام ضد حركات الحكومة. وعليه فإما أن يكفوا عن القتال ويدخلوا مع الأمة فى المفاوضة. وإما أن تصبح البلاد فى حالة حرب فى هذه المدة القريبة ويوجه المسئولية على الحكومة. وقد توجه سمو الأمير يوم السبت الموافق ٦ ذى القعدة ١٣٤٠ (أول يوليه) إلى جهة الجبل لمقابلة الناظر واستصحب معه

مشايخ القبائل ليظهروا استيائهم من أفعال الحكومة أمام الناظر ويؤيدوا من درجات ما قدموه من المضابط . وبالجملّة فإن كل من اجتمعنا به من المشايخ لا نشاهد منه إلا الحماس والثبات على تنفيذ الاتفاقية (اتفاقية سرت) وسمو الأمير عندما ودعناه أفادنا أيضاً أن مقابله مع الناظر هي التي ستكون فصل الخطاب: إما وقف القتال على أساس متين إما الحرب . وقد توجه العموم ووعدنا سمو الأمير بأنه عقب هذا الاجتماع سيعرفنا فوراً بما يحدث بصورة مفصلة . وفق الله الجميع لما فيه الخير .

حضر إلى برقة (أمندولا) وزير المستعمرات الإيطالية ، وطلب مقابلة الأمير . ولاشك في أن التقرب الذي حصل بين الطرابلسيين والبرقاويين منذ اتفاقية سرت في بداية هذا العام (١٩٢٢) أقض مضاجع الإيطاليين ، ولما كانت الحرب دائرة في القطر الطرابلسي فقد اهتموا بانتزاع الأمير من "المحالفة" التي وضعت أسسها في قصر سرت ، والتي لم تكن وضعت موضع التنفيذ مع جانب الأمير حتى هذا التاريخ . واشترط (أمندولا) لمقابلة السيد إدريس والمباحثة معه أن يغادر بشير السعداوى ووفد الدعوة الطرابلسي أجدابية . وقبل الأمير هذا الشرط بغية الوصول إلى اتفاق مع الحكومة الإيطالية بشأن الخلافات السائدة بينه وبينهم حول تنفيذ الطليان وعودهم وما التزموا به في اتفاق الرجمة وبو مريم فمن جهة ، ولإنهاء الخصومة والحرب بينهم وبين الطرابلسيين ، على نحو ما أخذ الأمير على عاتقه أن يتوسط في تحقيقه من جهة أخرى . وتحدد (غوط الساس) مكاناً للمقابلة . وأبلغ السيد صفى الدين ابن عم الأمير بشير السعداوى والوفد الطرابلسي بوجوب الانتقال من أجدابية إلى (الطيل) حتى تنجح المقابلة المنتظرة .

اعتقد بشير السعداوى أول الأمر أن السيد محمد إدريس سوف يصحبه ليحضر معه المباحثات المتظرة مع وزير المستعمرات الإيطالي ، أو ليكون على الأقل قريباً من الأمير في أنوائها حتى يتسنى التشاور مع مندوب هيئة

الإصلاح أو الحكومة الوطنية الطرابلسية قبل القطع برأى مع الوزير الإيطالي نزولا على أحكام اتفاقية سرت المعروفة التى تأسست عليها قاعدة التعاون الكامل بين الفريقين فى كل ما يتصل بعلاقاتهما مع الحكومة الإيطالية. ولكن بشير السعداوى خشى فى هذه الظروف الدقيقة أن يجد الأمير السيد إدريس ما يزيد فى إغرائه على الاتفاق منفرداً مع الطليان، إذا نقد المندوب الطرابلسى أو وفد الدعوة مسلك الأمير الذى ذهب وحده لمقابلة (أمنولا). ولم يلبث بعد أيام قليلة أن حضر السيد صفى الدين ليبلغهم رغبة الأمير فى الانتقال إلى (الطيل).

أما عن اجتماع (غوط الساس) بين السيد إدريس و (أمندولا)، فقد أوفد الأمير صالح الأطيوش والفضيل المشهش وأحد أبناء الكزة يحملون إلى بشير السعداوى كتاباً من الأمير. وكذلك إلى الوفد الطرابلسى كتاباً آخر منه، بنتيجة مباحثاته مع (أمندولا) فى شأن وقف الحرب فى طرابلس. وفى كتابه إلى بشير السعداوى يشير الأمير إلى أنه مرسل إليه كتاباً ثانياً إلى أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح، كى يبعث به إليه، بينما يبقى هو - أى بشير السعداوى - فى أجدابية، ويطلب إليه أن يبلغ الوفد الذى جاء لدعوته لزيارة طرابلس بالعودة إلى بلده، ويعتذر عن تلبية الدعوة، ويعد بالزيارة فى فرصة أخرى، وفيما يتعلق بوقف الحرب فى طرابلس، كادت تكون العبارة واحدة فى الكتب الثلاثة للمندوب وللوفد ولرئيس الهيئة المركزية. ومفادها "أنه لا يمكن توقيف الحرب إلا بعد أن أهل طرابلس يخبروا الحكومة هناك بأنهم أوقفوا الحرب ومستعدون لحسن التفاهم مع الحكومة، فحينئذٍ الحكومة مستعدة لتوقيف الحرب من جهتها".

من الثابت أن أحداً لم يكلف السيد محمد إدريس بالمباحثة مع الطليان فى وقف القتال فى طرابلس. فلا المندول الذى ذهب إلى أجدابية لتمثيل هيئة الإصلاح لدى حكومة الأمير ولا الوفد الذى جاء لدعوة الأمير فعل ذلك

فماذا يكون الدافع على هذه المباحثة؟ فسرّها كثيرون وقتئذٍ بأنها قد تكون برهاناً ناصعاً على إيمان المسؤولين في برقة باتحاد المصلحة الوطنية. الأمر الذي جعلهم لا يقصرون مباحثاتهم مع وزير المستعمرات الإيطالي على ما يتعلق بشئون الإمارة السنوسية فقط. وكان واضحاً على كل الأحوال أن مهمة الوفد انتهت. وقرر السعداوى هو الآخر العودة إلى طرابلس. وكتب إلى الأمير: "إنه قد أخذ كتابه وفهم مضمونه. ثم سمع أن الرغبة هي أن يبادر أهل طرابلس بمبايعة الأمير حتى يتسنى إنهاء الخلاف بين الحكومة الإيطالية والطرابلسيين، وإنه صمم على العودة بنفسه إلى طرابلس حتى يعود منها قريباً - إن شاء الله - وهو يحمل البيعة للأمير".

والذي جعل بشير السعداوى يذكر ما سمعه في هذا الكتاب، أن وفد الأمير: من الفضيل المشهش وإخوانه الذي حمل الأمير إلى (الطليل) كان قد أنهى إلى بشير السعداوى رسالة شفوية، غير ما جاء في هذه الكتب: "أن الأمير اتفق هو والظليان على كل شيء فيه خير البلاد بشرط أنكم - أي الطرابلسيين - تبايعون الأمير".

وبالفعل عاد بشير السعداوى وأعضاء وفد الدعوة إلى مصراته، وبمجرد وصولهم إليها في يوليو ١٩٢٢ نادى السعداوى بالبيعة للأمير السيد إدريس السنوسى، مستنداً في ذلك إلى أنه لا سبيل إلى الخلاص البتة إلا بالنفاق والتعاون مع برقة، وانحياز برقة إلى جانب طرابلس في القتال ضد العدو الإيطالي. وكتب بشير السعداوى البيعة بنفسه ثم ذهب مسرعاً من مصراته إلى مسلاتة، ثم غلى غريان. وهناك كانت هيئة الإصلاح المركزية مجتمعة برئاسة أحمد المريض، فقرأ عليهم البيعة، ووافق عليها هؤلاء بالإجماع ودون مناقشة.

وبلغ من حرص بشير السعداوى على نجاح هذه الخطوة، أن راح يسعى من جهة لإقناع اولاد بوسيف بقبول مبايعة الأمير السنوسى، ولإطفاء نار

الفتنة التى جعلت قبيلة المشاشية بنصرفون عن قتال الطليان من جهة أخرى .
فكتب إلى مشايخ أولاد بوسيف الرسالة الآتية :

تحية للأماجد الفضلاء ، والسادة النبلاء ، سيدى الشيخ أبى بكر البصير ،
وسيدى محمد بن بشير وعموم أعيان مشايخ أولاد بوسيف حفظهم الله
ورعاهم .

تحية وسلاماً : وبعد فإنه لا يخفاكم أن الهيئة المركزية كانت قد أوفدتنى
إلى برقة لمقابلة سمو مولانا الأمير سيدى محمد إدريس نصره الله ، فحصل
لى الشرف العظيم بمقابلته ولقيت منه كل ما يشرح الخاطر ويسر الفؤاد ،
خصوصاً وأنى قد وجدته الرجل الوحيد الساهر على مصالح المسلمين ، المهتم
بما فيه نصرة الدين وراحة الوطن . وإنى قد رجعت منه بمصلحة مهمة تتعلق
بسعادة المسلمين . وبما أن الهيئة المركزية وعموم القطر قد اتفق ولله الحمد -
على بيعه مولانا الأمير سيدى إدريس - فقد أصبحت فى عتقنا بيعة شرعية
لهذا الرجل العظيم . وإن الهيئة كانت قد خاطبتكم لأجل القدوم إليها
بغريان . وإنى أكرر الرجاء إليكم أنكم تلبون هذه الدعوة التى تتم بها سعادة
هذه الأمة ويحفظ بها ديننا وشرفنا ومجدنا القديم . ويكون قدومكم أما
لطرفنا أو إلى الهيئة بغريان . وإنى لما سمعت بالفتنة القائمة بين المسلمين وأن
إخواننا المشاشية قد أوقفوا قوة عظيمة عن قتال الكفار أرسلتني الهيئة أنا
والأخ عمر بك بودبوس لإطفاء هذه الفتنة حتى لا ترجع ويسمع الأمير بهذا
الخلاف الحاصل بين المسلمين " .

أما نص كتاب البيعة ، وهو مؤرخ فى ٣ ذى الحجة ١٣٤٠ و ٢٨ يوليو

: ١٩٢٢

إلى سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس حفظه الله ورعاه .
تحية تليق بالمقام الرفيع والجناب الأسنى المنيع . وبعد فإنه غير خاف على
سموكم أن الخلاف لم يزل قائماً بيننا وبين الحكومة الإيطالية . وذلك لأنها

وجهت عزمها إلى العتب بجميع حقوقنا شرعيها وسياسيها وإداريها. وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية. ونحن خير أمة أخرجت للناس لا نتحمل ضيماً، ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم كائناً ما كان. معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمتينا القومية ألا وهي تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية، مع مجلس نيابي تنتخب الأمة أعضاءه. وبهذا يسلم وطننا ويتم أمر ديننا وتصلح أحكام قضائنا ويحفظ شرعنا وعننة تاريخنا الباهر. وهذا لا يتنافى ما تدعيه إيطاليا وما دأبت عليه في خطب رجالها من أنها لم تحتل ديارنا بنية الاستعمار، وإنما ساقتها دواعي السياسة الدولية في البحر المتوسط. ولو كانت صادقة في دعواها هذه لما عرضت بلادنا للخراب بتوالى الهجمات واستعمال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى وقد حاولت فصل الأمة بعضها عن بعض بطرق مختلفة وأبى الله إلا أن يجمع القطرين الشقيقين بأن يلتقا حول أمير واحد يرضيانه. وحيث كان سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما متجمع في ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن (هيئة الإصلاح المركزية) الحائزة للوكالة المطلقة من (مؤتمر غريان) الذي يمثل الأمة الطرابلسية بانتخاب واقع منها، قد وجدت في سموكم أميراً حازماً قادراً على جمع الأمة حائزاً للثقة العامة محبوباً، فهي لذلك تباع سموكم أميراً للقطرين: طرابلس وبرقة على أن تقودها إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنوه عنها. على أن مبايعتكم كانت مضمرة في كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبي القطرين في (سرت)، وكان السبب في تأخير تحقيقها طوارئ الحرب التي طوحت بكل واحد من أعضاء الهيئة ورجال القطر في منطقة شاسعة من المناطق الحربية. وبهذه المبايعة - إن شاء الله - أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين. ومتى سنحت الفرصة عند تشريفكم إيانا حسب رغبة الأمة تقام لكم مظاهر هذه البيعة في موكب لائق بسموكم. والله - سبحانه

وتعالى - يمدكم بروح من عنده ويجعل البركة فى البيت السنوسى المؤسس على التقوى والصلاح.

وحمل البيعة إلى جانب بشير السعداوى عبد الرحمن عزام، مستشار هيئة الإصلاح المركزية الذى وقع على كتاب البيعة بهذه الصيغة، والصادق بن الحاج. ووصلوا إلى أجدابية فى نوفمبر ١٩٢٢. وكان واضحاً أن قبول للأمير البيعة معناه إنشاء جبهة متحدة فى الحرب ضد الطليان تشمل برقة وطرابلس معاً. وذلك ما يغضب الطليان ويزعجهم ويقضى لا محالة إلى تغييرهم على الأمير ومناصبته العداء وقتاله، وكان مؤيدو سياسة التفاهم مع الطليان فى برقة جماعة أشفقوا أن ينقطع ما بين الأمير والحكومة الإيطالية بسبب قبول البيعة، وصار همهم الأكبر أن يوقفوا فى مسعاهم لدى الطليان والأمير إلى إيجاد الوسيلة التى يمكن بها قبول البيعة مع تفادى الاصطدام بالطليان. ولقد ساء هؤلاء الأخيرين أن يحضر المندوب الطرابلسى ووفد الدعوة إلى أجدابية، حتى هددوا وقتلوا بمهاجمة أجدابية ذاتها إذا لم يغادرها الطرابلسيون. فأشار السيد فى الدين مندوباً من الأمير على هؤلاء أن ينتقلوا إلى (الطليل). وبلغ غضب الطليان أشده عندما رأوا بشير السعداوى وزملاءه يحملون البيعة إلى الأمير فى أجدابية. ترى أيرضى الأمير بقطع صلاته بالحكومة الإيطالية والانضمام إلى الطرابلسيين فى الحرب ضد الطليان. أم يحاول التوفيق بين قبول البيعة وعدم استعداد الطليان على إمارته. فى نوفمبر ١٩٢٢، لم تكن تقضت أيام قلائل على زحف الفاشست المعروف على رومة بزعامه موسوليني ووصول هذا إلى رومة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ ليتسلم زمام الحكم؛ ولم يكن بدأ فى هذه اللحظة من جانب سلطات الاحتلال فى برقة ما يشير إلى أن انقلاباً فى سياسة الحكومة سوف يحدث لإلغاء الإمارة وإخضاع ليبيا بأسرها وليست برقة وحدها بقوة الحديد والنار.

وأيا كان الأمر، فقد كتب بشير السعداوى غداة وصوله إلى أجدابية

ومقابلته مع الأمير السيد إدريس، يشرح الموقف لرئيس هيئة الإصلاح أحمد المريض، ويبدى قدراً كبيراً من التفاؤل فى إقبال الأمير بموافقته على البيعة، على قبول وجهة النظر الطرابلسية التى مدارها تساند الأمير وأهل برقة تبعاً لذلك مهم فى الجهاد ضد الطليان أعداء البرقاويين والطرابلسيين على السواء. وفى هذا الكتاب يقول بشير السعداوى ما نصه:

تحية وسلاماً: وبعد فإننا يوم الخميس الموافق ٢٨ صفر ١٣٤١ (٣ أكتوبر ١٩٢٢) وصلنا لأجداية وقد قبولنا بقبول حسن. وكان قبل وصولنا بيوم يوجد بالزوتينة ضابط طليانى قصد إحراق البركة (عشة صغيرة) المقيم بها وأسند ذلك إلى العربان المجاورين وخابر حكومته واستدعى (طريد) ليذهب فيه لبنى غازى فأتاه وركبه وبقي فيه خمس ساعات لم يفارق المرسى فأوجبت هذه الحال شبهة الحامية السنوسية المقيمة بذلك المركز فأرسلت ضابطاً ومعه نفر واثنان بحارة ليفهم الحقيقة. فما كاد يصل الزورق إلى (الطريد) حتى ألقى عليهم الرصاص فاستشهد الضابط والنفر والبحارة، فبسبب هذه الحركة التى لم يفعلها حتى اللصوص العاديون تهيجت الفكرة العامة واحتشد العربان خصوصاً وأنهم قبل هذه الفعلة قد ألقوا القبض على أحد الإخوان (بدور) الأبيار فثارت النفوس وأصبحت الحرب على الأبواب. وبعد وصولنا لأجداية بيومين قدم مولانا الأمير من جهة الجبل الأخضر فاستدعانا لحضوره، وقدمنا له مضبطة البيعة وقبلها بكلام موجز مؤداه (لولا أن الغرض خدمة المسلمين وخلاص القطرين لما كان تقبل على عاتقه هذا الحمل الثقيل) فقابلناه بما يلزم وخرجنا من عنده ويوم التاريخ دعانا وبين لنا فكرة بكل صراحة وأنه سيقوم بإعلاء ما عهدت به الأمة إليه، وأنه سيدافع عن هذا المبدأ مع البلاء بكل جهده. وقد بين أن مراده أن يكتب للحكومة الإيطالية بأنه اتفق مع ناظر المستعمرات عند مقابلته له على وقف القتال. وكتب بذلك للأهالى بطرابلس وقد امثلوا ذلك وخاطبوا الحكومة ولم تكثر الحكومة بذلك. وهذا الخطاب سيكون مقدمة الجدال، فإذا جنحوا للسلم مع الاعتراف بالإمارة فنعم المطلوب

وإلا فيتسع الخرق. ولا يخفاكم أن الحرب أوله كلام. وفي أثناء هذه المخابرة ستتخذ كل التدابير والاستعداد لما وراء هذا الجدل القلمى. والخلاصة يمكننى أن أبشرك أن أميرنا المحبوب سيخدم هذه البلاد الخدمة التى تسمناها، فاهناً وطب نفساً أيها الصديق، وإن ما قسيته من الشدائد والمتاعب لم يذهب أدراج الرياح ولعلمى أنك متعطش لهذا الخير السار أعلمتك حتى تشد أزرك، وقفك مولاك لما أولاك لقد أخبرنا سمو الأمير أن حكومة (فاكتا) سقطت قبل خمسة أيام ولم تتشكل حكومة إلى الآن".

ومن الذين سعوا للتوفيق بين قبول البيعة وعدم إغضاب الطليان، كان عمر منصور الكخيا الذى جاء إلى أجداية وقتئذ. فأراد السيد إدريس أن يقابله بشير السعداوى وصحبه. ولكن هؤلاء رفضوا مقابلة الرجل لما وقر فى أذهانهم عن نشاطه، واعتقادهم أن هذا النشاط فى غير مصلحة الوطن، بل يخدم صالح الطليان. ولما كان بشير السعداوى وصحبه من الذين يعلمون لإنقاذ بلادهم من مخالب الاستعمار فلا يستطيع الكخيا أن يسايرهم فيما يقصدون إليه، ولا يستطيعون هم أن يسايروه فى طريقه أو أن ينحرفوا عن المبادئ التى اعتنقوها. واستشهد بشير السعداوى فى هذه المناسبة بقول الزعيم المصرى مصطفى كامل: "إن من يتساهل فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة، يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة. سقيم الوجدان". أنكر بعد ذلك الصادق بن الحاج هذا القول على بشير السعداوى خوفاً من أنه يكون فيما قاله مساس بالأمير نفسه.

أما الأمير السيد محمد إدريس فإنه لم يتوان - كما كان منتظراً - فى قبول البيعة، فوقع كتاباً بذلك فى ٢٢ ربيع الأول ١٣٤١ (١٢ نوفمبر ١٩٢٢)، إليك نصه:

من خدام الملة الإسلامية محمد إدريس المهدي السنوسى إلى أصحاب السعادة رئيس هيئة الإصلاح المركزية وأعضائها وعموم الموظفين ورؤساء الجيوش وكافة الأعيان والأهالى الطرابلسيين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التى أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة فى تحقيق غايتكم التى أجمعتم عليها فى مؤتمر غريان وجاهدتم لها جهادًا صادقًا بالأنفس والثمرات فى شخصى فأخذتها داعيًا الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكمل مساعيها كلها بالنجاح . ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التى طالما سعت إليها وجدت من واجبي أن أتلقى طلبكم بالقبول ، وأن أتحمل المسؤولية العظمى التى رأت الأمة تكليفى بها ، فعلى إذاً أن أعمل بجهد معكم . ولك نلا تنسوا أننى بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لى على شىء : إنى أعلم أن الحياة الخالدة هى للأمم لا للأفراد . وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هى التى تنصرف إلى صالح الجميع ؛ فلذلك أدعوه - سبحانه وتعالى - أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة . إن من حق كل شعب أن يسطر على شئونه ، والناس منذ نشأوا أحراراً ، وقد أظهر شعبنا فى كل أدواره محبته للحرية فدفع مهوراً غالية . فلا يصح لأحد أن يطمع فى ايتعباده والاستبداد بشئونه . لقد اشترطتم على الشورى . وهى أساس ديننا وسأعمل على قاعدتها . هذا وقد رأيت أن أقر الأمور على ما هى عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد . ولذلك أكل إلى الهيئة المركزية - لما أبدت من الحمية والعدل والدراية - أن تستمر على إدارة شئون القطر الطرابلسى ، ولى الثقة العظيمة فى حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أبدوا مساعى الهيئة المالية أن يتحملوا مشاق المسؤولية بصير لتثبيت دعائم البناء الوطنى الذى شيدوه . وأسأله تعالى أن يمد الجميع بعنايته ، وان يثبت الأقدام وبقهر الأعداء ويمن بالنصر الموعود إنه على ما يشاء قدير .

عند قبول البيعة ، كانت مدة كافية قد تقصت لتبدو واضحة المعالم سياسة إيطاليا الجديدة إزاء طرابلس - برقة بعد الزحف الفاشستى على رومة . وصار واضحاً أن الطليان سوف لا يوفون بوعودهم لصاحب الإمارة فى برقة ، وأنهم سوف يمشون فى عملياتهم العسكرية للقضاء على المقاومة الوطنية

نهائياً في طرابلس، بل قبل الانقلاب الفاشستي بشهر تقريباً كانت قد بدأت المصادمات بين العرب والطلّيان في برقة فوَقعت حادثة الشيخ صالح العوامي وإلقاء القبض عليه في سبتمبر ١٩٢٢ والتهديد بإلقاء القبض على السيد صفى الدين ثم وقع الصدام مع الطّليان في أكثر من مكان. ولقد وقفت مساعى الطّليان من أجل تنفيذ اتفاق الرجمة من جانبهم - وهى المساعى التى قام بها الوالى الجديد (بكارى) الذى وصل إلى ينغازى في أكتوبر من العام نفسه - وكان سبب وقفها الانقلاب الفاشستي؛ فقد عزل الفاشست (بكارى)، وعينوا (بونجيوفانى) لتنفيذ سياسة الصرامة والشدة الجديدة وأخذ الأمير السيد إدريس يعد العدة لمغايرة برقة إلى القطر المصرى "للتداوى" ومن المعروف أن الأمير كان يشكو المرض منذ ١٩٢٠، وأن الطّليان حاولوا أن "يسقوه السم" فأنقذه المولى، ولكن اشتدت به العلة تدريجاً حتى صار يلزم فراشه عندما جاء الوفد الطرابلسى بالبيعة، وأخذ الأمير يتهيأ للسفر إلى مصر ومعه عبد الرحمن عزام.

واقترح بشير السعداوى على الأمير السيد إدريس إنشاء هيئة مركزية في برقة من رؤساء القبائل تضطلع بأعباء الإدارة وتكون على غرار هيئة الإصلاح المركزية في طرابلس، فتتصل الهيئتان بعضهما ببعض، وتبذلان قصارى الجهد لتوحيد المسعى في معالجة قضية البلاد. فوافق الأمير. وتألّفت الهيئة البرقاوية تحت رئاسة الشيخ مختار الغدامسى، وكان قاضياً في أجداية، ومن العلماء المعروفين. ولما صار الأمير يتأهب للسفر إلى مصر اقترح عليه بشير السعداوى أن ينيب عنه السيد صفى الدين في زيارة طرابلس، حيث صارت متعذرة زيارة الأمير نفسه. ومعنى ذهاب السيد صفى الدين إلى طرابلس، توحيد النضال ضد إيطاليا في جبهة ممتدة من أقصى القطر البرقاوى، إلى أقصى القطر الطرابلسى، ثم ظفر الطرابلسيين بالمعونة من إخوانهم البرقاوين، وهى المعونة التى ظلوا ينتظرونها دون جدوى منذ اتفاق سرت. ووافق الأمير على ذهاب صفى الدين إلى طرابلس مع بشير السعداوى وإخوانه.

وفى ٢١ ديسمبر ١٩٢٢، خرج السيد محمد إدريس من أجدابية فى طريقه إلى مصر، وخرج معه السيد عبد الرحمن عزام. ومن المعروف، أن السيد وصل إلى القاهرة فى ٢٧ يناير ١٩٢٣..

وجاءت الأخبار إلى أجدابية، أن الحرب اشتدت رحالها فى طرابلس. فاجتمع بشير السعداوى بالهيئة البرقاوية - ومن أعضائها: عبد السلام الكزة، والفضيل المشهش، وصالح الأطيوش، وعلى العابدية. وكان غرض بشير السعداوى أن تتألف فجبهة متحدة فى برقة وطرابلس لمتابعة الجهاد ضد إيطاليا دون إبطاء، فصار يوضح للهيئة أن الطرابلسيين والبرقاويين صاروا منذ بيعة الأولين للأمير السيد إدريس، صاروا يربطهم رباط واحد، وتحت إمارة واحدة. ولما كان لهم - أى البرقاويين - إخوان يجاهدون ويقاتلون فى طرابلس، فإن الواجب يقتضيهم أن يشاركوا هؤلاء فى الجهاد والعمل للتخفيف من حدة الكوارث التى نزلت بهم. وأخذ بشير السعداوى يستثير شعورهم الإسلامى، فاحتج الشيخ الغدامسى، رئيس الهيئة، بأن البرقاويين لا يمكنهم دخول الحرب دون إذن من ولى الأمر حسبما تنص عليه الشريعة الغراء، وولى الأمر قد سافر من البلاد. فكان جواب السعداوى أن الشريعة إنما تطلب هذا إذا كان ذلك لغزو، أما العدو هو الذى يفاجئ البلاد ويغزوها، فالجهاد فى هذه الحالة محتم على كل فرد من أفراد الأمة فسكت الغدامسى. وعندئذ سأل عبد السلام الكزة: وماذا تريد يا سعداوى؟ فقال: نريد أن نكون كما قال البارى عز وجل: (إنما المؤمنون إخوان). نحن اليوم إخوان. والطلبيان الذين تتجنبون قتالهم يقاتلون اليوم إخواناً لكم فى طرابلس، يحملون فى أعناقهم بيعة للأمير السيد محمد إدريس. فقال الكزة: هذا صحيح. ونحن مستعدون لأن نشارك إخواننا فى السراء والضراء. وراحوا يتذكرون.

وأسفرت المذاكرة عن اتخاذ قرار بإعلان الحرب ضد إيطاليا. فكتبت

الهيئة صيغة القرار، ووقع الأعضاء عليه، وحمله السعداوى وعبد السلام الكزة للسيد محمد الرضا الذى أنابه الأمير عنه: ومما شجع بشير السعداوى على انتظار نجاح مسعاه أن أحد قواد السنوسية المشهورين من السودان، واسمه عبد الله قجة، كان يكثر من مقابلة بشير السعداوى، ويردد فى كل مرة أن البلاد لا ينقذها إلا السلاح، سواء وافقت الهيئة (البرقاوية) أم لا توافق.

وانزعج السيد محمد الرضا انزعاجاً كبيراً من قرار الحرب الذى قال: إن فى اتخاذه - لخطورته - "خراباً لبيوتهم" فتلا عليه السعداوى قوله تعالى: "قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين". ووافق السيد الرضا.

وأخذ السيد السعداوى ووفد الدعوة يتهيئان للسفر إلى طرابلس، وقد يشرح الموقف قبل مغادرة السعداوى أجداوية، ما حاء فى رسالته إلى هيئة الإصلاح المركزية، بتاريخ ٢٥ جمادى الثانى ١٣٤١ الموافق ١٢ فبراير ١٩٢٣ حيث يقول:

بعد السلام: أخذنا كتبكم المؤرخة فى ١٣، ١٤ جمادى الثانى سنة ١٣٤١ المتضمنة بيان الوضع، والحث على قدوم السيد صفى الدين، وإنا قد سبق عرفناكم، أنه توجه لجالو ورفع عائلته وجميع أثقاله من أجداوية. ليفرغ للخدمة باطمئنان بال. ونحن إلى الآن فى انتظاره بفارغ الصبر، خصوصاً وأن الإبل المعدة لسفره متهيئة وحاضرة من مدة. ولما أن أخذنا إشعاركم، راجعنا سيادة وكيل الأمير السيد الرضا، فاهتم للأمر وأرسل فى الحين ساعياً مخصوصاً، وكتب إلى السيد المشار إليه، بسرعة القدوم إنجازاً لأمر سمو الأمير، وتلافياً لمصلحة البلاد. وقبل هذا بيومين، ورد من جهة جالو، أخو المتصرف على باشا العابدية، وأفاد أنه تركه على وشك الحركة، والمأمول

وصوله فى خلال هذين اليومين وبعد وصوله لا ترون محلا للتأخير بحول الله وقوته. وقد شرفنا السيد عبد العزيز العيساوى، وشرح لنا وضع البلاد، وأخذ يستنهض الهمم، ويدعو إلى الجهد والعمل بكل ما فى وسعه، والله ولى التوفيق. وفى الأسبوع الماضى، وصل والى بنغازى الجديد (بونجيو فاني) وهو رجل عسكرى وكان وقت الاحتلال رئيس أركان حرية بنى غازى وقد أذاع منشورًا بين فيه خطته. ومن ضمن ذلك يتمنى اجتماع المجلس فى القريب العاجل لسمع من أعضائه اقتراحًا بلزوم تطبيق القانون الأساسى فى عموم قطر برقة، وبين أنه يميل للتودد مع السنوسية إذا شاهد منهم الإخلاص وأثبتوه بتطبيق المعاهدات المبرمة سابقًا. وهذه لهجة يريد أن يخدر بها الأعصاب، ريثما يصلون إلى غايتهم فى الغرب - لا سمح الله - وقد اصدروا قانونًا جديدًا بالتشديد على عدم إخراج البضاعة للغرب، ولكن البضاعة لا زالت ترد إلى الآن بصورة التهريب كالعادة. وجاءت الأخبار بأن سمو الأمير وصل إلى مصر فى ٢٠ من الشهر الماضى واستقبل بكل حفاوة وتكريم، وكان لوصوله القطر المصرى بغتة فى هذه الأونة وقع عظيم فى نفوس الإيطاليين. وفقه الله لمال فيه نجاح البلاد والعياد. قبل أسبوعين جاءت إلى مرسى الزويتنية مدرعتان، فاهتم لها الخلق، واحتشد العربان من كل جانب، وبعد أن أقامتا يومين، ذهبتا إلى حيث ألفت .. .".

وفى ٩ مارس ١٩٢٣ غادر بشير السعداوى أجدابية وبصحبه صفى الدين السنوسى وأحمد سيف النصر وعمر سيف النصر ووجهتهم جميعًا طرابلس، وكان أحمد وأخوه عمر من أعضاء الوفد السنوسى.

ولكن فى هذا الوقت كانت المقاومة الوطنية فى طرابلس بدأت تتحطم أمام انتصارات الإيطاليين فى عملياتهم العسكرية الكبيرة، حتى إذا انقضى عام واحد فقط أو أقل من العام الواحد كان الطليان قد قضوا نهائيا على كل مقاومة فى طرابلس الغرب، واضطر زعمائها المجاهدون الذين بقوا على قيد

الحياة بعد هذا النضال المرير إلى مغادرة أوطانهم . إما إلى القطر المصرى وإما إلى جهات أخرى . وكان من بين الذين اضطروا إلى الخروج من طرابلس بشير السعداوى نفسه فى الظروف التالية .

٦ - قائم مقامية سرت:

استمر القتال بين الطليان وحكومة المجاهدين - هيئة الإصلاح المركزية - بعد سقوط الزاوية الغربية فى ٢٤ ، ٢٥ إبريل ١٩٢٢ واحتلال الطليان لها . وكان أول ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ ؛ ومهد استيلاء الطليان عليها ، لانهازم الوطنيين فى ترهونة ، ثم فى مصراتة فى فبراير من العام التالى ، وسقوط ورفلة فى ديسمبر ١٩٢٣ ، وانتهاء مقاومة الوطنيين فى طرابلس الغرب . ولذلك وجب أن نقف قليلا عند هزيمة هيئة الإصلاح المركزية فى غريان وانسحابها منها .

فلقد ذكرنا كيف أن المنافسة الشخصية سببت النزاعات بين المتصدرن فى غريان ، ولجأ إلى الهيئة - هيئة الإصلاح المركزية - مختار كعبار يشكو من خصومه : مبروك القعود وعاطف إمسيك ، ونافع الغريانى . ويطلب إلى هيئة الإصلاح أن تؤازره باتخاذها غريان مقراً لها وانتقالها إليها واستجابت الهيئة لهذه الرغبة فانتقلت (من بوعرقوب) إلى (غريان) فى أوائل عام ١٩٢١ . وذكرنا أن انتقال مقر الهيئة إلى غريان ، أفاد فى تقوية عائلة كعبار ، واستتباب الأمن فى البلاد وقتئذ . وكان مشهوراً أن خصوم كعبار على صلات وثيقة بالطليان ، ويأخذون منهم أموالا كثيرة . وفى ذلك يقول المجاهدون عنهم :

عاكف ونافع والقعود رفاقه طليان أراهم صرف يا فلاقه

و (الرفاقة) هم الصحاب ، و (طليان أراهم صرف) معناها نحذرهم من مأنهم متطلينون تماماً . و (فلاقه) معناها النهاية ، وهو اسم يطلقه الإيطاليون على المجاهدين ، والكلمة مأخوذة من (التفليق) أى كسر الأبواب والصناديق .. الخ للنهب .

وكان هؤلاء الثلاثة: عاكف إمسيك (مسيكة) ومبروك القعود ونافع الغرياني يضيقون بالسيطرة التي كانتن لأسرة مختار والهادى كعبار فى غريان. فنشأت بين الفريقين خصومة شديدة. وأمد الطليان جماعة عاكف ونافع والقعود فتقووا حتى حاصروا الهادى كعبار فى بيته وكادوا يقبضون عليه، وجاء أخوه مختار إلى رئيس الهيئة، أحمد المريض، فى ترهونة يطلب نجدة الهيئة ضد القعود وجماعته الذين ما استطاعوا مناوئته إلا بمؤازرة الطليان لهم. ولذلك فسوف يجد آل كعبار أنفسهم كذلك مضطرين إلى مد أيديهم لإيطاليا إذا تقاعست الهيئة عن نجاتهم. فأجاب أحمد المريض بأن بعث بقوة من الجاهدين إلى غريان، ألقت القبض على مبروك القعود وأنصاره. أما عاكف إمسيك ونافع الغرياني فاستطاعا الفرار إلى مدينة طرابلس، وانتقلت الهيئة بأسرها من (بو عرقوب) إلى غريان بعد ذلك واسترد الهادى كعبار نفوذه.

وبدأ الهادى يستبد بالسلطة والنفوذ فى غريان حتى ضج الأهلون من عسفه بهم وكثرت شكاياهم إلى الهيئة منه، أنه أرهق كاهل البلاد بظلمه واستبداده، وملاً السجون بالذين أراد أن ينتقم منهم لحسابه، وليس للذنب أتوه. فكلّف أحمد المريض بشير السعداوى بحث هذه الشكاوى، ووجد السعداوى السجون مكتظة بالفعل، وعندما سئل الهادى كعبار عن الذنب الذى حبس من أجله كل هذا العدد الكبير من الأهالى، لم يستطع أن يهتم أى فرد من هم بارتكاب جريمة أو ذنب، لا فى حق الوطن ولا فى حق أى إنسان. ووعدت الهيئة - هيئة الإصلاح المركزية - أن تطلق سراحهم، ولكن الهادى غضب لإطلاق سبيلهم غضباً شديداً، واعتقد أن الهيئة إنما جاءت إلى غريان "لتحطم نفوذه"، وصارح الهيئة برأيه هذا فيها. وانعقدت جلسات كثيرة لبحث موقفه. وكان حواب بشير السعداوى على هذا الاتهام، أن الهيئة لم تحضر لتحطيم نفوذه، وأن الهادى نسى أنه كان محاصراً فى بيته. وأن الهيئة هى التى أنقذته من خصومه، وصار الهادى بفضل تدخل الهيئة يتمتع

بنفوذ كبير فى غريان. واستمر بشير السعداوى يقول: ولكن الهيئة لا يمكن أن تصبح الأداة التى تنشر الطغيان، وتمكن للجبروت. لا سيما وأنها تبذل قصارى جهدها لجمع الصفوف وائتلاف القلوب، ليقف الجميع متساندين متحدين أمام الطليان أعداء الوطن.

لم يفد هذا المنطق فى استلال السخيمة من نفس الهادى كعبار. ويقول المعاصرون من المجاهدين: إن الهادى كعبار بدا من هذا الحين يضمّر الخيانة. وبيت الشر للوطنيين. وكان الطليان فى هذه الأثناء، قد استطاعوا الزحف على الجبل الغربى واحتلاله، وذلك بعد الحوادث التى اشترك فيها بشير السعداوى، فى أواخر عام ١٩٢٢ وأول العام التالى - على نحو ما ذكرناه فى موضعه - فإنه بعد هزيمة البربر وخروج خليفة بن عسكر من كباو، انسحب هؤلاء إلى (الوطية). وبعد شهور قليلة (مايو ١٩٢٢) استطاع الطليان القبض على خليفة بن عسكر. وبعد معارك فى الجبل احتل الطليان (كباو) فى يونيو. وكان أحد البربر، يوسف خريش، الذى استماله الطليان إليهم، يصحب الحملة التى فتحت (كباو). وفى الأيام التالية دانت للعدو (فساطو)، و (نالوت). وفى آخر أكتوبر احتل الطليان (ويوسف خريش) يفرن. وانتهز الهادى كعبار وجود الطليان فى يفرن، فأخذ يتصل بهم سرا. ووقف على هذه الحقائق بشير السعداوى، عند عودته من برقة، بصدد بيعه الإمارة، واجتمعه بإخوانه أعضاء الهيئة لهذا الغرض فى غريان، وقبل عودته إلى أجدابية بهذه البيعة، فقد أكد له زملاؤه، أن الهادى كعبار يتصل تمام الاتصال بالطليان. وأن فكرة خيانة الوطن، صارت مختمرة فى ذهنه، ويذكر بشير السعداوى: أن الهادى جاءه ذات يوم يشكو من ظلم هيئة الإصلاح له، التى تتهمه بالخيانة، ويحاول التأثير على بشير السعداوى للاعتقاد بوطنيته وأمانته. فبعد أن دافع عن نفسه ضد هذه التهمة، ما شاء أن يفعل، قص على سامعه أنه رأى فى منامه النبى ﷺ. وتأثر بشير السعداوى بدفاع الهادى كعبار، حتى أنه أقنع نفسه، بأن رجلا يرى فى نومه الرسول الكريم، يستحيل عليه خيانة

الوطن، ولما كانت أكثرية أعضاء الهيئة المركزية يرون إعدام الهادى. فقد تدخل بشير السعداوى ليستبدل بالإعدام قراراً بنفى الهادى وإبعاده عن غريان. وكان من الحيلة والحذر، الإصرار على إقصاء الهادى من غريان. لما كان لهذه البلدة من القيمة الاستراتيجية، خوفاً من أن يؤدى بقاء الهادى بها بصورة أو بأخرى، ورغم يقظة الهيئة وانتباهها لمساعيه، إلى احتلال الطليان لها، ولكن لم تتح الفرصة لتنفيذ قرار الهادى من غريان. فقد ذهب بشير السعداوى إلى برقة، وشغل أعضاء الهيئة بأمر الدفاع عن غريان، التى توقعوا لها ضمها للطليان بعد أن احتلوا يفرن، وشغلوا كذلك بالدفاع عن البلاد من جهة الساحل؛ أضف إلى هذا مسألة بيعه الإمارة والعلاقات مع برقة. فلم تهتم بتنفيذ قرارها وبقي الهادى كعبار فى غريان. وارتكبت الهيئة خطأ جسيماً بإجارتها له البقاء، ذلك أن الهادى صار يستحث الطليان على مهاجمة غريان، ييغى من ذلك تخليصه من الخطر الذى بات يهدده من جانب الهيئة، منذ أن وجهت الاتهام ضده، ولم تعلن تبرئته من تهمة الخيانة، بالرغم من سماحها له بالبقاء. وعرف الهادى أن انشغال الهيئة بتصريف شئون الدفاع وغيرها، قد صرفها عنه مؤقتاً، وأنها لا تلبث أن تعود للنظر فى أمره، وربما قررت إعدامه من جديد، بمجرد أن تفرغ من مشاغلها الضاغطة عليها. وكاد إهمال الهيئة لأمره يودى بها. وذلك أن الطليان بدأوا زحفهم على غريان بعد قليل، وكاد أعضاء الهيئة جميعاً يقعون فى أيديهم، لولا أنهم بادروا بإخلاء غريان قبل وصول الطليان الذين احتلوها فى ١٧ نوفمبر ١٩٢٢.

ويقول الذين شهدوا هذه الوقائع: إن الطائرات قبل وصول الجيش كانت تحوم فوق غريان، وتتن بصورة مزعجة ومخيفة. وخرج كثيرون من الأهالى طلباً للنجاة، ولكن الهادى كعبار بقى فى بيته يهين طعاماً لقواد الحملة عند وصولهم. فلما اشتد أزيز الطائرات استبد الخوف بأطفاله، وهرعوا إليه يحتمون به. فصار يهدئ من روعهم بقوله: "لا تخافوا يا أبنائى، فهذه طائراتنا!" وقد سلم الهادى للطليان بعد دخولهم غريان حوالى

السة آلاف بندقية. ومن المعروف أن الهادى كعبار كان ضمن "المستشارين" العرب الذين استخدمهم الطليان عند فتحهم البلاد، من طراز حسونة (حسن) باشا القره مانلى وأحمد المنتصر. ومن المعروف أن الهادى كعبار جهز فى هذا الحين "قوة" بقيادة أخيه راسم كعبار لمقاومة المجاهدين العرب فى جهة مزدة والقريات (فى أواخر عام ١٩١٣). ولم تكن فى وسع هيئة الإصلاح الدفاع عن غريان بسبب المفاجأة فى وقت كان فريق من المجاهدين يصد هجوم الطليان فى جهة يفرن، وفريق آخر يحاول وقف زحفهم من جهة العزيزية. والسلاح الذى سلمه الهادى كعبار إلى الطليان كان فى مقدور أهل غريان لو أنهم تسلحوا به أن يدافعوا عنها إلى حين. وظاهر أن الذى كان فى وسعه أن يسلم للعدو حوالى ٦٠٠٠ بندقية لم يكن جاداً إذا ادعى أنه طلب من الهيئة النجدة للدفاع عن غريان، وأن الهيئة أغفلت نداءه، ولا وجه لأن يحاول آخرون، تسويغ خيانة الهادى كعبار بانتحال هذا العذر له.

استهدفت ترهونة بعد سقوط غريان لهجوم العدو عليها. وكان أحمد المريض والقوات التى معه قد انتقلوا من ترهونة إلى وادى (ويف) ويقع بين غريان وترهونة. وكانت القوة التى سيرها الطليان إلى غريان، تشمل قسماً من المرتزقة العرب، تضم يوسف خريش وعاكف إمسيك ومبروك القعود، وجلبان، وهذا من الريانة، وقد زحفت هذه القوة على ترهونة بعد أربعة شهور من سقوط غريان. وذلك بينما زحفت قوة أخرى مختلطة من الطليان والعرب كذلك، وبرئاسة محمود عزيز، وهو من طراز يوسف خريش وسائر العاملين مع الطليان، من طرابلس إلى القربوللى وقصر خيار واشتبكوا مع المجاهدين فى (وادى غزال) بين هذين المكانين فى واقعة شديدة استشهد فيها خلق كثير من العرب كما تكبد الطليان خسائر فادحة فى ٢٩ يناير ١٩٢٣. وفى الوقت نفسه خرجت قوة ثالثة من الطليان فقط هذه المرة، من العزيزية تزحف على (بو عرقوب)، حيث احتلتها فى آخر يناير من السنة نفسها، ثم تقدمت إلى (ملغه) ثم زحف الطليان من هذه على ترهونة. ووقف عبد

السلام المريض مع المجاهدين عند (بوعيشة) لصدد الجيش الزاحف من (ملغة) فى الوقت الذى فصل المجاهدون قسمًا منهم لمؤازرة إخوانهم من (قماطة) الذين اصطدموا. مع العدو فى وادى غزال. ولكن المجاهدين فى (بوعيشة) لم يكونوا يعرفون شيئًا عن الجيش الزاحف عليهم من غريان. وسقط (وادى ويف) وانسحب المجاهدون منه، وصدر الأمر للواقفين عند (بو عيشة) بالتقهقر خوفًا من أن يقطع عليهم العدو خط الرجعة، ففعلوا. واشتبك محمد سعدون السويحلى على رأس جيش مصراتة - وهو أخو رمضان وأحمد السويحلى (أو شتيوى) - مع الطليان الزاحفين على مسلاتة بعد انسحاب قوات المجاهدين من وادى ويف وبو عيشة، ودارت معركة شديدة فى أول فبراير، أوقفت زحف الطليان فترة من الوقت، كانت كافية لأن يخلى الأهليون مسلاتة، ولأن يجلسوا أسراتهم منها. واحتل العدو القصبات. وقصصد إلى ترهونة واحتل مشارفها وكاد يطوقها، فانسحب المجاهدون منها قبل سقوطها فى ٢٦ فبراير ١٩٢٣.

وبعد أيام من سقوط ترهونة شرع الطليان يزحفون على الساحل وزليطن ومصراتة ووقعت معركة شديدة فى ٢٣ فبراير انهزم فيها المجاهدون بسبب تفوق الطليان فى عددهم ومعداتهم، واحتل هؤلاء زليطن والساحل. وفى ٢٦ فبراير أخلت حكومة مصراتة مركزها فى (المواطنين) واحتل الطليان هذا المركز فى اليوم نفسه، وأما حكومة مصراتة فقد اتخذت مقرها الجديد فى (وادى نفد).

وبلغت بشير السعداوى وهو لا يزال فى طريقه من أجدابية إلى طرابلس أخبار سقوط ترهونة ومصراتة ولكنه حبس هذه الأنباء عن السيد صفى الدين وسائر أعضاء الهيئة (البرقاوية) الذين معه، حتى لا تفت هذه الأنباء فى عضدهم، ولكن حدث عند وصول الجماعة إلى مكان يعرف باسم (مقار النسر) فى أرض سرت أن صادفوا رجلا قد حمل أسرته على دابة يغذ بها السير، فأوقفه السيد صفى الدين ليسأله عن سبب سرعته، فقال الرجل أنه

من (ككله) من الجبل الغربى، وأن "البلاد ناضت) أى انهزمت فى الحرب. فتأثر صفى الدين وسائر الجماعة بهذه الأخبار وأمر رجاله أن يحطوا رجالهم فى هذا المكان، وأن ينصبوا الخيام به ففعلوا. وسرعان ما بلغهم أن عدداً من الطرابلسيين وصلوا إلى سرت هاربين من البلاد يقصدون إلى برقة للاحتماء بها من عدوان الطليان.

أراد بشير السعداوى أن يطمئن هؤلاء الفارين ويطلب منهم الثبات والبقاء فى أماكنهم حتى يصل هو وصحبه إليهم. فسأل عبد الله بن عامر الذى ذكرنا أنه رافق السيد صفى الدين سكرتيراً له، أن يكتب لهؤلاء رسالة فى هذا المعنى، واستهل بشير السعداوى هذا الكتاب بقوله: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا" فبعد أن كتب السيد عبد الله بن عامر الآية سكت قليلاً، ثم أخذ يقول موجهاً الخطاب إلى بشير السعداوى: "يا فلان، لماذا لا تترك الناس يهربون؟ وأين النصر الذى لا تراه ولا يراه أحد؟ فلندع الناس إذاً يا ولدى - ينجون بأنفسهم، ولكن عبد الله بن عامر ألحز كتابة الرسالة التى أرسلت إلى هؤلاء الطرابلسيين فى سرت. ثم ارتحل الجماعة من (متقار النسر)، فلما وصلوا إلى (القرضابية) استقبلهم بها أحمد المريض رئيس الهيئة المركزية وإخوانه. وجاء عبد الجليل سيف النصر، وعمر بودبوس الذى كان قائمقام فى سرت، ثم جاءوا إلى (قصر بوهادى) الذى اتخذوه مقراً للسيد صفى الدين ويبعد عن مدينة سرت (الواقعة على البحر) حوالى خمسين كيلومتراً.

وإلى جانب أن البلاد بأسرها كانت فى اضطراب كبير بسبب الهزائم الأخيرة التى أصابت المجاهدين، كان الانقسام يسود سرت، فهى يتنازع النفوذ بها قبيلة (معدان) وهذه تتبع مصراتة، وقبيلة الفرغان وتتبع ترهونة وقبيلة القدادفة وتتبع سيف النصر. ولكن هذه القبائل الثلاث الكبيرة كانت تشكو جميعها من قائمقام سرت، عمر بودبوس، فتشاور فى الأمر السيد صفى

الدين وأحمد المريض وأحمد سيف النصر. واتفقت كلمتهم على أن يعهدوا إلى بشير السعداوى بتولى قائممقامية سرت. وعندئذ انتقل عمر بودبوس إلى (السداة) وتقع هذه في أرض زليطن، بين هذه الأخيرة وبين ورفلة، وكان مقيماً بها أحمد السويحلى والنازحون من زليطن والمجاهدين الذين نزحوا من الجهة الغربية. وذهب صفى الدين إلى (السداة) لقيم بها مدة قبل أن يعود إلى (قصر بوهادى).

وكان السبب فى ترك سرت واختيار قصر بوهادى، أن الأولى بوقوعها على البحر معرضة لضرب أساطيل الطليان وغزوهم. وأنشأ بشير السعداوى فى قصر بوهادى ثكنات للعسكر. وسرعان ما تجمعت جموع النازحين حول هذا المكان حتى بلغوا العشرين أو الثلاثين ألف نسمة ونجح بشير السعداوى فى جعل الأمن والسلام مستتبين فى هذه المنطقة لرضاء القبائل الثلاث الكبيرة بها عن تولية القائمقامية. فالسعداوى مصراتى، وقبيلة معدان مصراتية. وهو متفق مع أحمد المريض صاحب ترهونة، وقبيلة الفرجان ترهونية، ثم هو يمت بصلة القرابة إلى سيف النصر، وقبيلة القدادقة أخواله.

وفى سرت (قصر بوهادى)، لم يلبث أن لحق "بحكومة أو قائممقامية" بشير السعداوى. كل من: فرحات الزاوى، وعثمان القيزانى، وخالد القربنى، ومختار كعبار، وغير هؤلاء من أعضاء هيئة الإصلاح المركزية. وكثيراً ما صارت الهيئة تعقد اجتماعاتها برئاسة أحمد المريض. ولكن عثمان القيزانى وفرحات الزاوى ومختار كعبار، لما جاءوا إلى سرت صاروا يتهمون أحمد المريض بالخيانة، ويروجون لهذا الاتهام بقولهم: إنه لم يدافع عن ترهونة وغيرها من المواقع التى سقطت فى أيدى الطليان. ولقد تمادوا فى هذا الاتهام الذى ما كان - فى نظر بشير السعداوى وكثيرين - يستند على أساس صحيح، حتى إن هؤلاء الثلاثة تدخلوا ليمنعوا صفى الدين من زيارة أحمد المريض، وكان هذا الأخير قد دعاه لزيارته فى خيامه. فلم يسع بشير

السعداوى إلا أن يعنفهم تعنيفاً شديداً على توجيه اتهام بالخيانة للمجاهد الكبير الذى استطاع أن يسود البلاد بحكمة وصبر وطول أناة، فجمع بنفوذه الطيب شمل البلاد حوله. وبالفعل زار السيد صفى الدين أحمد المريض، وخفت الاتهامات ضد أحمد المريض. وتفرغ الناس لما هو أجدى وأنفع فى الظروف القائمة التى تقتضى الزعماء والقادة أن يبذلوا قصارى جهدهم لثبيت قلوب الأهلين، وتشجيع المجاهدين على استئناف نشاطهم.

وبالفعل عادت الطمأنينة إلى النفوس، وبدأ الأهليون يعودون إلى ديارهم حتى وصلوا إلى مصراتة. ووصل المجاهدون إلى القرب من (مواطين) واحتلوا قسماً كبيراً من زاوية المحجوب.

التي بها أسرات المريض سوى عشرة كيلومترات. فقر رأى على خروج أحمد المريض والقوة التى معه، لإنقاذ أهليهم من خطر محقق. واتفق خروجهم لهذه الغاية مع زحف العدو من وادى زمزم إلى القداحية. فكان لا يفصل الطريق الذى اتجهوا منه عن طريق زحف العدو سوى نصف كيلومتر، وزيادة على ذلك فإن هذا الطريق يفضى إلى القداحية التى يحتلها الطليان، فأشار عبد الصمد النعاس على أحمد المريض أن يتركوا هذا الطريق. ولكن الأخير رفض وصمم على المضى فى سيره ولو أدى ذلك إلى الاشتباك مع الطليان فى معركة لم يكن هو ولا رفاقه مستعدين لخوض غمارها. وبوصولهم إلى (الوشكة) وجدوا أسراتهم قد انتقلت منها إلى مكان أكثر أمناً بمجرد أن شعروا بالخطر. وواصل الجميع سيرهم من (الوشكة) إلى سرت. وقبل وصولهم إلى هذه الأخيرة علموا أن ورقلة - بنى وليد - سقطت فى يد الطليان دون مقاومة.

فقد بدأ الهجوم على ورقلة فى أواخر شهر ديسمبر ١٩٢٣، واحتل العدو بنى وليد فى ٢٧ ديسمبر، وخرج عبد النبى بن الخير من ورقلة إلى جهة وادى بى، أو الوادى الكبير فى القبلة.

ويسقوط ورفلة يمكن القول بأن المقاومة في طرابلس قد انتهت، وكان أول آثار الهزيمة في ورفلة أن قرر السيد صفى الدين العودة إلى برقة. ولكن في هذه المرحلة الحاسمة من مراحل الجهاد ضد الطليان في القطر الطرابلسي كان قد ضاع كل أمل لدى المجاهدين الطرابلسيين في أن تأتيهم نجدة من برقة، أو أن تصدر من السيد محمد إدريس السنوسي أميرها الذى لجأ إلى مصر منذ ديسمبر من العام السابق (١٩٢٢) أية تعليمات بشأن تكاتف البرقاويين مع المجاهدين الطرابلسيين فى القتال ضد الطليان. وإنشاء تلك الجبهة المتحدة التى تشمل برقة وطرابلس، والتى ظل يرجو إنشاءها الزعماء الطرابلسيون منذ دارت مفاوضات سرت فى يناير ١٩٢٢ إلى مبايعة السيد إدريس بالإمارة فى يوليو من السنة نفسها دون نتيجة. وتجدد الأمل فى تحقيق هذا الغرض عند وصول السيد صفى الدين إلى وادى نفد فى يوليو ١٩٢٣ واشتداد محنة المجاهدين بعد الهزائم التى لحقت بهم، فقر رأى على إرسال وفد إلى السيد إدريس فى مصر، ليوقفه على مجرى الأمور فى البلاد، وحال المجاهدين، ويدعوه إلى المجيء إليهم، كما كان الغرض من إرسال الوفد، القيام بدعاية كبيرة فى مصر للقضية الطرابلسية تلفت نظر العالم العربى لها وتقفه على الحالة التى كان عليها المجاهدون فى طرابلس. وتألف الوفد من عثمان القيزانى وخالد القرزى ومصطفى الترجمان وعمر المجول ومحمد التركى، وغادر (السداة) فى غضون شهر سبتمبر ١٩٢٣.

ولكن عند وصول الوفد إلى الحمام فى الأراضى المصرية، احتجت الحكومة الإيطالية على دخولهم وطلبت تسليمهم باعتبارهم طرابلسيين، وحدثت أزمة، واكتفت الحكومة المصرية بإخراجهم من البلاد، فارتحلوا إلى تركيا.

٧ - الخروج من طرابلس:

عانت قائممقامية سرت شذائد كثيرة، مبعثها نفاذ المال من يد هذه

"الحكومة" وقلة الأقوات والأرزاق. وتعذر على بشير السعداوى قائم مقام أو حاكم سرت أن يجد فى أحياء كثيرة ما يكفى من القوات لأهل المنطقة، ومع أنه لم يتردد عن إمداد السيد صفى الدين بالأرزاق من الشعير وغيره، فقد رفض هذا الأخير عند وجوده فى سرت بعد ذلك وقد صار لديه من الأقوات ما يزيد على حاجته، أن يمد حاكم سرت ببعض الدقيق يسد به رمق نفر من إخوانه حتى اضطر بشير السعداوى إلى أن يبيع ما لديه من أسلحة يملكها هو، كما باع حصانه فى نظير الحصول على الأقوات الضرورية. وزاد اضطراب الأحوال عندما توالى انتصارات الطليان وأخذوا يستولون على البلاد، وصاروا قريبين من سرت. حتى إذا كانت الهزيمة الأخيرة بسقوط ورفلة، وتفرق المجاهدون، اتفق بشير السعداوى مع السيد صفى الدين على تسليم قائم مقامية سرت إلى أحمد سيف النصر، وأن يغادر البلاد. وسبق صفى الدين فى الخروج من سرت، فارتحل إلى جالو، وبعث إلى السيد إدريس فى مصر ينبئه بكل ما وقع، فأجابه السيد إدريس بأن له أن يختار إما البقاء فى جالو وإما الذهاب إلى جغبوب، فارتحل صفى الدين إلى الجغبوب فى صفر ١٣٤٢ (سبتمبر ١٩٢٣).

وأما بشير السعداوى فقد غادر سرت بعد أسبوع من ارتحال صفى الدين يقصد إلى جالو، ومنها إلى جغبوب، ومن هذه الأخيرة إلى سيوة. ويذكر بشير السعداوى قصة وصوله سيوة، ثم دخوله إلى القطر المصرى، وسفره إلى بيروت، فيقول:

عند وصولي إلى سيوة، وكنت ادعى التجارة وأسير فى القافلة التى وصلت إلى سيوة، أوقفنى مأمور سيوة (على عبد الوهاب) مع القافلة أمام القصر، وقال: أُنذرك إذا وجدت معك أشياء ممنوعة، فإنك (تروح فى داهية) أنت وجمالك. فأكدت أنى لا أحمل أشياء ممنوعة قط. وفى اليوم التالى طلبنى المأمور وإخوانى لمقابلته، وكان جالساً على كرسى فى الحديقة التى أمام القصر. فأمر أن نجلس أمامه على الأرض. ثم سأل: من رئيس القافلة؟

فأجبت: أنا. فسألني عن اسمي، فقلت: بشير المصراتي. قال: هل تعرف القراءة والكتابة؟ قلت: أقرأ اسمي. فأحضر دفترًا ناولني إياه بعد أن فتحه في مكان مكتوب فيه أسماء الأشخاص الممنوعين من دخول القطر المصري. ومن هؤلاء: أحمد المريض وأحمد السويحلي وغيرهما كثيرون من إخواني، ووجدت اسمي بين هؤلاء. فسألني المأمور: هل وجدت اسمك؟ فأجبت بالنفي، فطلب مني أن أتأمل، فقلت: لقد وجدت اسم بشير، ولكن الكلمة التالية بعد الاسم لم أعرقها لأن اسمي بشير المصراتي: فأمر المأمور الجماعة بالذهاب واستبقائي جالسًا أمامه، ثم سألتني: لماذا تأتي إلى مصر؟ وما صناعتك؟ فقلت: إني بدوي، جئت أبيع بعض الإبل وأشتري بضاعة ثم أعود. وأكثر المأمور سؤالاً، فكنت أجيبه موجزاً، حتى انتهى الحديث وأمرني بالذهاب. وبعد يومين جاء لزيارتي الشيخ أحمد ظافر المدني وله أتباع كثيرون في سيوة لأن قسماً من أهلها سنوسيون، والقسم الآخر مدنيون ظافيرون: وأصل الرجل من مصراته وهو ابن الشيخ محمد ظافر المدني الذي كان مقرباً من السلطان عبد الحميد. وجاء الشيخ أحمد لزيارتي ومعه جماعة كبيرة من أهل سيوة. فلما رأى المأمور هذه الجموع، وسار معها ودخل هو كذلك عندي. فوقف الشيخ أحمد ظافر فجأة ليعرفه "بشير السعداوي المجاهد". فكانت مباغته لي. وبعد أن شرب المأمور قدحاً من الشاي غادر المكان بعد أن وضع الشرطة أمام البيت. وبعد انتهاء زيارة الشيخ أحمد، أبلغني البوليس أن المأمور يأمرني بالذهاب إليه: فذهبت لمقابلته. لكن ليس في شخص بشير المصراتي، وإنما في شخصي الحقيقي. فدخلت على المأمور وصافحته قائلاً: إن الذي يصفحك الآن هو بشير السعداوي المصراتي وإني أنا نفسي الشخص الموجود اسمه في دفتركم على أنه ممنوع من الدخول إلى مصر. ولكن ثق أنه لا توجد هناك قوة في العالم تمنعني من الدخول إلى مصر، لأن هذه بلادى بوصفى عربياً ومسلماً وهذه بلاد عربية وإسلامية. وتكلمت في حماس كلاهما طويلاً حتى تأثر الرجل فأجلسني بجانبه وقال: "إنه مأمور لا يسعه

إلا أن ينفذ أوامر حكومته. وأخيراً اتفقنا على أن يكتب إلى رؤسائه يستأذن لدخولي باسم بشير المصراتى. وكان لا مندوحة من الاستئذان فى ذلك الحين، لا سيما وأنى ما كنت أحمل جواز سفر أو غيره من الأوراق المطلوبة".

ويستمر بشير السعداوى، فيقول: إن الجواب لم يلبث أن أتى بالسماح له بالدخول إلى مصر، ولا يدرى بشير السعداوى إذا كان الرجل كتب يطلب الإذن لبشير السعداوى نفسه أو لبشير المصراتى. فغادر سيوة، وكانت وجهته (الحمام) - حمام مريوط - فبلغها مع قافلته بعد مسيرة أكثر من ثمانية عشر يوماً، ووصلوها وهم فى حالة من التعب والنصب لقلة الماء الذى كان معهم خصوصاً. ثم قصد بشير السعداوى إلى الإسكندرية.

وأقام السعداوى بالإسكندرية شهراً، حوالى مارس أو إبريل ١٩٢٤، كان فى أثنائه مراقباً مراقبة شديدة، بسبب ضغط الحكومة الإيطالية على السلطات المسؤولة، فكان بعد لآى وعناء أن استطاع فى آخر الأمر، أن يحصل على وثيقة، تخوله مغادرة الأراضى المصرية، فارتحل من الإسكندرية إلى بيروت، حيث كان قد سبقه إليها من مدة أخوه نورى السعداوى.

وإلى مصر لجأ فريق آخر من المجاهدين الطرابلسيين، على رأسهم أحمد المريض؛ منهم أحمد السويحلى والتهامى قليصة وعمر بودبوس، وعبد الصمد النعاس، والمبروك المتنصر النعاس، ومحمد سوف، ولجأ فريق آخر إلى فزان، وفريق ثالث إلى تونس.

ولكن قبل الانتقال إلى تاريخ الهجرة الشنائية يجدر بنا أن نذكر ناحية أخرى من نواحي نشاط بشير السعداوى متصلة بجهود الوطنيين وحكومتهم لنشر الدعوة لحركتهم الوطنية وتنوير الأذهان فيما يتعلق بمطالبهم القومية. ولقد ذكرنا كيف أن حزب الإصلاح الوطنى الذى تأسس برئاسة أحمد المريض فى سبتمبر ١٩١٦، أنشأ صحيفة أو (جريدة سياسية أدبية اجتماعية

اقتصادية) سميت (اللواء الطرابلسي) عرفت بأنها (لسان حال حزب الإصلاح الوطني) عهد بإصدارها إلى عثمان القيزاني الذي صار مديرها المسئول. وكانت من أربع صفحات، في الصحيفة الأولى مقال افتتاحي ييسط مبادئ الحزب ومطالب الأمة السياسية التي تولى الوطنيون المدافعة عنها سواء في عهد حزب الإصلاح أو هيئة الإصلاح المركزية المنبثقة من مؤتمر غريان. وكان بشير السعداوي وعبد الرحمن عزام على وجه الخصوص ممن تولوا كتابة هذا المقال في أكثر الأحيان. واستمرت تصدر أسبوعية حتى أوائل عام ١٩٢٢. فقد مر بنا كيف أن عثمان القيزاني جاء مع المحامي مارتيني للمفاوضة مع المجاهدين في (المواطنين) لوقف القتال بعد معركة ١١ فبراير ١٩٢٢. ولقد بقي عثمان القيزاني بعد ذلك مع الحكومة الوطنية. ولم تلبث أن عطلت الحكومة المحلية في طرابلس (اللواء الطرابلسي) بعد إخفاق مفاوضات فندق الشريف حوالى إبريل من العام نفسه. وكان حينئذ أن أرادت هيئة الإصلاح المركزية إصدار صحيفة جديدة تحل محل (اللواء الطرابلسي). ولما لم تكن لدى الوطنيين مطبعة، فقد عولوا على إصدار الجريدة الجديدة مطبوعة على (البالوظة)، وتلك إمكانياتها محدودة، فصارت تصدر أسبوعية ومن صفحة واحدة مقسمة إلى أعمدة على غرار الصحف العادية. تولى بشير السعداوي تحريرها والإشراف عليها. وتشمل موادها إلى جانب المقال الافتتاحي، أخبار اجتماعات هيئة الإصلاح ونص القرارات التي تصدرها. ويدور الكلام في المقال الافتتاحي دائماً حول بيان سياسة الهيئة والمكالبة بالحرية، والتعجيل بتنفيذ القانون الأساسي والمطالبة بتنفيذ قرارات مؤتمر غريان. أما هذه الصحيفة الجديدة فسميت (البلاغ) تصدر كل أسبوع مرة طالما بقي بشير السعداوي في مسلاتة، مكان صدورها، ولكن لم تمض خمسة أو ستة أسابيع، حتى شغلت الحكومة وشغل بشير السعداوي بشتى الأمور، حتى تهيأ بشير السعداوي لمغادرة مصراته - مع وفد الدعوة المعروف - إلى إجدابية في مايو ١٩٢٢، فانقطع (البلاغ) عن الصدور نهائياً.

ومع أنه تعذر علينا العثور على أعداد من (البلاغ)، أو من (اللواء الطرابلسي) غير عددين من اللواء: رقم ٨٣، الصادر في يوم الخميس ٩ ربيع الأول سنة ١٣٤٠. الموافق ١٠ نوفمبر ١٩٢١ ورقم ٩٠ الصادر في يوم الخميس ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ الموافق ١٢ يناير ١٩٢٢، لم يشملا مقالا لبشير السعداوى - قد عثرنا على أصل لمقال كتبه بشير السعداوى وهو بأجدابية بعد سفر الأمير السيد إدريس إلى مصر، وعندما كان بشير السعداوى نفسه يستعد للعودة مع السيد صفى الدين فى الظروف التى عرفناها إلى طرابلس. وغرض السعداوى من كتابة هذا المقال الذى طلبه منه أحد مراسلى الصحف المصرية فى ذلك الحين، إقامة الحجة على جدية الحركة الوطنية فى طرابلس الغرب ليدحض مفتريات الطليان الذين كانوا يقللون من أهمية هذه الحركة، ويظهرون استخفافهم بها حتى يصرفوا رأى العام العربى عن تأييدها، وقصد بشير السعداوى من كتابة المقال، تنوير رأى العام فى العالم العربى خصوصاً بشأن المقاومة الوطنية فى طرابلس ضد الاحتلال الإيطالى - نفس الغرض الذى قصد الوطنيون تحقيقه عندما ذهب وفدهم إلى مصر بعد ذلك فى سبتمبر ١٩٢٣ لمقابلة السيد محمد إدريس والدعابة للقضية الوطنية، وحالت مساعى الطليان لدى الحكومة المصرية دون أن يبلغ مقصده على نحو ما ذكرنا سابقاً - وفى إثبات أصل هذا المقال ما يساعد على توضيح تطور التفكير السياسى عند بشير السعداوى، وهو التطور الذى حرصنا دائماً على تتبع مراحلها منذ نشأته. ولا يزال السعداوى تلميذاً يتلقى العلم فى مكتب الرشدية بالخمس، وتاريخ المقال ٢٥ جمادى الثانية ١٣٤١ الموافق ١٢ فبراير ١٩٢٣. وإليك نصه تحت عنوان: (الحالة فى طرابلس الغرب فليقل أنصار الاستعمار ما شاءوا فإن إرادتنا ثابتة).

أذاع ناظر مستعمرات الحكومة الإيطالية للصحف حديثاً قال فيه: إن الحركة القائمة فى طرابلس لا أهمية لها وما هى إلا نتيجة النهضة المنعطس صداها فى العالم الشرقى.

استخف دولة الناظر بالنهضة القائمة فى الشرق ونظر إليها بعدم الأهمية، ولم يعلم دولته أن الأمة إذا دب فى شرايينها دم الحياة ونهضت وطلبت مقعداً يليق بها فى هذا المعترك، فممن الصعب بل ومن المحال أن يقف أمامها حائل يحول دون ما اشرأبت إليه من العروج إلى سماء العز والسعادة.

لقد غاب من ذهن دولة الوزير أننا معشر العرب لنا تاريخ مجيد زينت صحائفه بالمفاخر وجلال الأعمال التى شهد بها ظهر البسيطة من منتهى الشرق إلى أقصى الغرب. وإننا لعاملون بمآثر آبائنا وأجدادنا أولئك الأبطال العظام الذين دوخوا البلاد ودانت لهم الأقوام. إذاً فلعل عجب إذا قمنا وأتينا بشيمة آبائنا الأولين.

يريد دولة الناظر أن يستخف بالحركة القائمة فى طرابلس ولم يجعل لها محلاً من الأهمية لينسج بذلك غشاء على أعين أمته ويقول: إنه ليس هناك ما يستوجب القلق ويدعو إلى الاهتمام، غير بعض عصابات لا يتعذر على الحكومة إخضاعها - كلا فإنكم لن تستطيعوا ولن تجدوا لذلك سيلاً ولو كان بعضكم لبعض ظهيراً. ولو أنصفتنا وأنصفت قومك - يا دولة الوزير - لقلت الحق والحق أحق أن يتبع. إذا لحق الذى لا مزية فيه أن الحركة القائمة فى طرابلس وبرقة هى حركة ملية قائمة على أساس متين لا ترحزه عظمة الأساطيل ولا قوة المدافع. ولا إخالكم تجهلون أن إرادة الأمة حصن لا تسخره القنابل. وما أنت ببعيد العهد عن مشاهدة تأثير إرادة أمتك التى أسقطت الحكومة السابقة وأقعدتك فى هذا المقام. وأسرع تناسيك تأثير إرادة الأمة. إنك عبرت عنا بالعصابات! أجل إننا لم نلبس ثوب العصيان، بل لبسنا ثوب الموت فى سبيل حريتنا، فى سبيل سعادة بلادنا، فى نيل حقوقنا التى رمت أن تدوسوها بالغرور والكبرياء. إننا لا نعاذكم فى العدد والعدد، ولكن لنا عقيدة راسخة ليست هى أكبر من قوتكم فقط بل هى أعظم من المملكة الإيطالية بما حوته من عدد وعدد.

إنكم تستخفون بنا يا دولة الوزير - ولم تصغوا لندائنا ولرغباتنا التي هي زهيدة بالنسبة لما نالته الأمة المصرية وأهل العراق والأردن والبلاد السورية التي لم توافق حكومتهم على الانتداب فيها لفرنسا حتى الآن وترون لها الاستقلال، فما لكم لا تبدأون بأفسكم وتورجعون عن فكرة الاستعمار في طرابلس وقد أفرغتم كل ما في وسعكم وبؤتم بالفشل والخيبة.

إن عدوى اليقظة والانتباه - يا أنصار المدنية - التي تعشون سريانها قد انتشرت ونادى منادى الفلاح والنهوض والنجاح في الأمة الطرابلسية. فقولوا ما شئتم عنا، عصاة أو طلاب حق وحياة، فإن إرادتنا ثابتة.

عندما نهضتم وقلبتكم شكل حكومتكم بإرادة الأمة ظننا أنكم تقدرون إرادة الأمم. ولكن يا للأسف! ما كدت تتربع على دست منصبك الحالى حتى لبست الثوب الذى كان يرتديه أسلافك ووصمتنا بوصمة العصيان ولم تفكر يوماً أن تسمع لنا نداء، نراكم تحلون إرادة أمتكم وتحسنونها وتفتخرون بها أمام الأمم، وتحرمون إرادة الأمة الطرابلسية وتقبحونها. وقصارى القول أن إرادة الأمة الطرابلسية أو صلتها إلى قاعدة ذات قرار مكين وهى توحيد القطرين: طرابلس وبرقة ومبايعة سمو الأمير الجليل السيد محمد إدريس السنوسى أميراً على القطرين. وهذا أمر قد حتمه الشرع الإسلامى، فإن قلتم لنا انكثوا العهد وارفضوا البيعة وألقوا السلاح وأطيعونا بلا قيد ولا شرط، فكأنكم تقولون لنا اهدموا أساسات دينكم وامزقوا عن معتقداتكم وتعاليمكم.

أن تمسكنا بأحكام كتبنا السماوية وشعائنا الدينية جعلنا فى نظركم عصاة. أتريدون أن نطيع سنن الاستعمار ونعصى أوامر كتبنا السماوية؟ أهذه هى المدنية الغربية التى ترومون أن نسلك سبيلها. فسحقاً لها من مدنية ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب.

فإن كان فى عرف المدنية الغربية من يطالب بحق يخول له الحياة يقال له عاص، فاللهم إننا لبسنا ثوب العصيان ووجهنا إرادتنا ووطننا العزم على

طلب هذا الحق، وعاهدنا الله أن نموت في هذا السبيل، فقولوا عنا ما شئتم فإن إرادتنا ثابتة.

انتهى المقال. والذي نلاحظه تمسك بشير السعداوى بإمارة السيد محمد إدريس السنوسى ذلكل التمسك القوى الذى ظهر من هذا المقال، والذي كان يبدو من نشاط بشير السعداوى منذ أن جاء إلى مصراتة بعد سفرته الأولى إلى أجدابية تنفيذاً لاتفاق سرت، يدعو للإمارة وينادى بالبيعة للأمير السنوسى حتى كانت البيعة (فى شهر يوليو ١٩٢٣). وأما الانقلاب الذى أشار إليه فى مقاله أنه حدث فى إيطاليا فجعل وزير المستعمرات وصحبه يتربعون فى دست الأحكام، فظاهر أنه الانقلاب الفاشستى الذى وقع فى أكتوبر ١٩٢٢. وكانت قد مضت شهور أربعة فقط منذ حدوثه عندما كتب بشير السعداوى مقاله.

الهجرة الثانية

الدفاع عن طرابلس - برقة

١٩٢٤ - ١٩٣٧

بدأ دور جديد فى كفاح بشير السعداوى من أجل حرية بلاده وحقوق مواطنيه، منذ أن اضطر إلى مغادرة طرابلس الغرب فى الظروف التى عرفناها. ويمتاز هذا الدور بالنشاط الجسيم الذى بدأ من جانب بشير السعداوى. لإنشاء الصلات المتعددة، التى من شأنها أن تنير الوعى العام فى العالمين. العربى والإسلامى نحو القضية الطرابلسية حتى يتسنى ربط هذه القضية بسائر قضايا الشعوب العربية، المناضلة ضد الاستعمار الأوروبى برباط وثيق. ذلك أنه أدرك انقضاء المقاومة الوطنية فى منطقة طرابلس الغرب، وتعثرها قبل القضاء عليها كلية، فى منطقة برقة، أن الليبيين وحدهم، ودون أن يؤازرهم العرب والمسلمون فى أنحاء العالم، لن يستطيعوا الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا الفاشيستية، يهىء لإقامة الحكومة الوطنية فى القطر الليبى الموحد على أساس قرارات مؤتمر غريان (١٩٢٠) واتفاق سرت (١٩٢٢).

واعتمد بشير السعداوى، فى إثارة اهتمام العرب والمسلمين بالقضية الطرابلسية البرقاوية (قضية ليبيا) على أمرين: المساهمة بنشاط فعال فى القضايا العربية الإسلامية. غير القضية الطرابلسية، فتقوى الصلات بين الرؤساء الطرابلسيين فى المهجر - واتخذ بشير السعداوى مقره فى بيروت ثم فى دمشق - وبين الزعماء الوطنيين من جهة، والقادة السياسيين فى العالم الإسلامى من جهة أخرى. والغرض من إحكام هذه الصلات مع هؤلاء الزعماء والقادة أن تتعدد الأصوات المرتفعة فى الدفاع عن طرابلس - برقة بالقوة التى يرجوها بشير السعداوى، والتى قد تنجح فى إقناع (موسوليني) رئيس حكومة إيطاليا الذى أراد يوماً أن يكسب ثقة العالم الإسلامى بضرورة التخلي عن سياسة العنف والصرامة، والكف عن إبادة الليبيين وإفنائهم. والتفاهم معهم، بدلا من ذلك على قاعدة احترام حقوقهم المشروعة فى الحياة الآبية الكريمة وإقامة صرح الحكومة الوطنية فى بلادهم. وأما الدعاية الثانية فكانت (النشر) بكل ما يملك من جهد وحيلة، حتى يسطر أمام العالم الفظائع التى يرتكبها الحكام الإيطاليون فى طرابلس - برقة، ليعرف النأى حقيقة الاستعمار الإيطالى. وكان لا معدى عن حملة (النشر) الواسعة والقوية هذه إذا شاء صاحبها أن يكسب إلى جانبه رأى العام العربى والإسلامى، وأن يظفر بمؤازرة قادة هذا الرأى للقضية الطرابلسية البرقاوية. وكان من المنتظر فى أثناء هذا كله أن يظل موضوع العلاقات بين إيطاليا وطرابلس - برقة، يستأثر بكل اهتمام الزعيم الليبى. وسوف نرى أن النشر والدعاية ضد إيطاليا، لم يكونوا فى اعتبار بشير السعداوى مقصداً لذاته. بل نجد أن الغرض الذى سعى لتحقيقه، فى كل النشاط الكبير، هو الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا بتنفيذ قرارات مؤتمر غريان، أى إنشاء الحكومة الوطنية فى صورة الإمارة الإسلامية التى تشمل ليبيا بأسرها، وعلى أن يكون السيد محمد إدريس السنوسى هو رئيسها. ولم تكن وسائل بشير السعداوى فى بلوغ غرضه كلها مدارها النشر والدعاية فحسب، أو على الأصح لم يكن يرضى أن تظل هذه كذلك إذا تبين أن زعيم إيطاليا

(موسوليني) لا يأبه لتأليب العالم الإسلامى ضده، ولا يزال ماضيًا فى سياسة الإفتاء والإبادة فى ليبيا، وأن هناك بصيصًا من الأمل فى إمكان الاستفادة من ظروف السياسة الدولية لنيل مؤازرة إحدى الدول المناوئة لإيطاليا الفاشستية. فلقد أدخل بشير السعداوى فى حسابه التهيؤ لتحريك الثورة، والانتقاض على الحكم الإيطالى فى ليبيا، وكان إجلاء الطليان عن ليبيا واستقلال هذه الأخيرة وتحررها من كل سيطرة أجنبية هو "البرنامج العملى" الذى عول حيثئذ على تنفيذه. وقد خيل للسعداوى، ان الفرصة صارت مواتية لتنفيذ هذا "البرنامج العملى" فى غضون سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٥. ولكن الظروف الدولية أضاعت الفرصة وقتئذ، لم تلبث أن هيات للقطر الطرابلسى البرقاوى التخلص من سلطان الإيطاليين عندما انهزمت جيوش المحور (الألماني - الإيطالى) فى الحرب العالمية الأخيرة (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وجلت إيطاليا عن ليبيا. وعندما تضمنت الصلح فى باريس فى فبراير ١٩٤٧ أن يترك لشعوب المستعمرات السابقة الحق فى تقرير مصيرها، كانت الخبرة السياسية الطويلة، أثناء هذه الهجرة الثانية، ومدتها أربع وعشرون عامًا إلى جانب سابقتها أثناء عجزته الأولى ومدتها ثمان سنوات قميئة بأن تبوئة مركز الزعامة ليفوز ببلاده باستقلالها فى النهاية.

١ - الوصول إلى بيروت:

وصل بشير السعداوى إلى بيروت فى مايو ١٩٢٤، ولم يكد يمضى على وصوله قليل، حتى تسلم من عبد الرحمن عزام كتابًا مؤرخًا من مصر فى ١٢ مايو ١٩٢٤، يطيب فيه نفسه، فيقول: "أخى المحترم ذو الهجرتين، بشير بك. تحية وسلامًا، والحمد لله على السلامة. وبعد فقد استعصى القلم عن الفيض، فلا أجد بين آلام غربتك وسرور أوبتك مجالًا، أسأله تعالى أن يسر الأمور، وأن يجعل عودتك الثالثة ثابتة وسريعة بتوفيق المسلمين. أخى: لقد طغى السيل حتى غمرنى فلا أجد الطريق لواجبى نحو الجميع، ولكننى

أجد في شفقتكم ومحبتكم مسلياً عن التقصير . وأرجو قريباً اللقاء، ودمتم
لأخيك عبد الرحمن عزام " وكان لهذا الوفاء أحسن الأثر .

ولكن من الحق أن نذكر أن شيئاً من الكآبة والحزن قد استولياً على
نفسه . فهو قد اضطر إلى الخروج من وطنه، وعدته الحكومة الإيطالية مسئولاً
عن استمرار المقاومة في طرابلس الغرب، وعن تحريكها في برقة بسبب (بيعة
الإمارة) التي كانت له اليد الطولى في إنقاذها، فأصدرت عليه حكماً
بالإعدام، وبذلك صار لا معدى عن تغربه عن الوطن، ولا معدى عن بقائه
في المهجر وعدم العودة إليه طالما بقي هذا الحكم قائماً ضده . ولم يبق بالبلاد
من يتولى القيادة الفعالة، فأكثر الزعماء الطرابلسيين غادروا طرابلس الغرب
كما عرفنا، وأمير البلاد المبايع له بالإمارة على القطرين قد غادر برقة هو
كذلك . ولقى بشير السعداوى عتناً وإرهاقاً في القطر المصري منذ وصوله إلى
الحدود الغربية في سيوة إلى يوم خروجه من الإسكندرية، فكان لفشل
المقاومة الوطنية في طرابلس الغرب، إلى جانب هذه التجارب القاسية أثر
صعب انمحاؤه من نفسه . ولعل أقسى ما ألمه أن يجد - كما وجد كثيرون غيره
من مواطنيه الطرابلسيين - في "تقاعس" إخوانهم البرقاويين عن نجدتهم
وإشعال الحرب في برقة في الوقت الذي يقاتلون هم فيه الطليان في طرابلس،
السبب كل السبب في انتصار العدو عليهم، وذلك بالرغم من (بيعة الإمارة)
وتعاهد الفريقين في اتفاق سرت على العمل يداً واحدة ضد الغاصب
المستعمر .

ويكشف عن هذا الحزن، للحال التي صار إليها المجاهدون الذين
أرغموا على الهجرة وترك أوطانهم، كتاب بعث به بشير السعداوى من بيروت
إلى أحمد المريض رئيس هيئة الإصلاح المركزية أو الحكومة الطرابلسية الوطنية
المنحلة، عندما علم بوصوله لاجئاً إلى مصر . فكتب السعداوى إليه يقول :

سلام الله عليك، بقدر ما لدى من الشوق إليك . وبعد فإنني قد تركتك

بهايتك الديار بين سف وانتقال، وتحول وارتحال، ولم أزل من ذلك الحين في شوق إلى تنشق أخبارك، إلى أن ورد لى فى هذا الأسبوع كتاب من الشيخ عبد الرحمن أفندى الزقلعى يفيدنى فيه بمجيئك إلى الديار المصرية، فسررت من جهة حيث سلمك الله من هاتيك المهالك، وأسفت إذ أن البلاد قد فقدت شبلا من أشبالها وعضداً قوياً من أنجالها. ولكن الأمر بيد الله، وهو وارث الأرض من عليها، وهو خير الوارثين. هذا وإن شوقى إليك - أيها الأخ - يعجز القلم عن وصفه ويقصرون تصويره وتعريفه. فالحنين إلى الأوطان والشوق إلى الإخوان أمر أن ليس لهما سلوان. ولم أنس - وربك - تلك الأيام التى قضيناها ومن ذلك الوقت العصيب اختلسناها رغم ما كان يحيط بنا من القلاقل والבלابل، ونحن خلال ذلك نتجاذب أطراف الحديث التى لم يبق من اللذات إلا هى. ولذلك أقول: الحمد لله الذى نجاكم وأوصلكم سالمين من ذلك السفر الطويل المحفوف بالمهالك والأخطار، ومن سلمت له نفسه التى هى رأس ماله وعياله وأطفاله الذين هم من أعز آماله ووجد سبيلا للخلاص بعد ما ظن كل الظن أن لا نجاة ولا اخلاص، فما أحقه حينئذ وأولاه أن يشكر خالقه ومولاه على ما أسداه إليه من خيره ومغافاته مما ابتلى به غيره، لأن الدهر غرار. والدنيا دار مشحونة بالأكدار. وإن كل ما ركبناه من الأخطار واقتحمناه من الأسفار هو فى سبيل غاية شريفة، وقد بذلنا ما فى الجهد لإنقاذ بلادنا، وأن نظفر بحقنا ممن أراد هضمه ومحقتنا، ولكن خذلنا من علقنا عليه الآمال، ومن أخذ على عاتقه مسئولية مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال. فيا لله العجب العجيب، هلا يفتكر ذلك الرجل تلك البلاد التى قضى عليها، وجر البلاء والويلات إليها. وقد ترك أهلها حيارى سكارى لا ناصر لهم ولا دليل، وأصواتهم قد ملأت الفضاء بالبكاء والعويل، هلا يذوب قلبه، عندما يتذكر بلاداً، قد جاءته بخيرها، وربته بنعمتها، وأوصلته إلى ما وصل إليه، أن يتركها للأعدى تجوب خلالها، وتقطع أوصالها، وهو فى قصورة العالية، على سرر مرفوعة، ونمارق

مصفوفة، وزرابى مبوثة، وأولئك القوم فى حالة تذيب الفؤاد وتفتت الأكباد.

فسبحان الله، ما أقسى هذه القلوب، أهى من حجارة؟ لا، بل: "وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله". ألا يخشى الله ويتقى يوماً كان شره مستطيراً، ويخاف من ربه يوماً عبوساً قمطريراً؟. إن يسأله عن بلاد أضاعها فى سبيل هواه، وكيف يكون موقفه أمام مولاه، "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً. وما عملت من سوء تود لو أن بينه وبينها أنداً بعيداً...".

ولا جدال فى أن هذه المبالغة فى التعبير، إنما ترسم صورة لتلك الكآبة التى استولت وقتئذ على بشير السعداوى، ولكن سرعان ما زالت هذه الكآبة وانحى أثرها بعد قليل، عندما بدأ بشير السعداوى ينشط من جديد. وسوف يبين لنا أن صلته بأمر البلاد السيد محمد إدريس السنوسى لم تنقطع يوماً، وأنه دأب على تعريفه بكل خطوة يتخذها فى قضية الوطن، ويستشير فيه، وأنه ظل مسترشداً فى نشاطه بالقرارات التى اتخذت فى مؤتمر غريان، والتى تأكدت فى اتفاق سرت، لإنشاء الإمارة الإسلامية، وبإيع الطرابلسيون بمقتضاها السيد محمد إدريس السنوسى بالإمارة على القطرين: طرابلس وبرقة.

وثمة مظهر آخر لهذه الحالة النفسية، هو ابتعاد بشير السعداوى عن الثورة التى اشتعلت فى سوريا ضد الانتداب الفرنسى وقتئذ. فقد كان من قواد هذه الثورة، فوزى القاوقجى الذى أقام زمناً فى طرابلس الغرب على عهد الأتراك، وعرف بشير السعداوى وأخاه نورى. فأرسل إلى نورى - وكان بعد ذهابه إلى بيروت قد استطاع أن يتولى فى بعلبك منصب محاسب للمالية - يدعوهُ للاشتراك فى الثورة، فكتب هذا بدوره إلى بشير الذى رفض هذه الدعوة، ولما يمض زمن على فراغهم من قتال الطليان والالتجاء إلى بلاد

واقعة تحت السلطان الأجنبي حتى يبدأ بقتال هذه الدولة الجديدة "فرنسا". ومع ذلك فقد كانت هناك أسباب كثيرة، تجعل من الحكمة وأصالة الرأي، عدم الاندفاع في تيار هذه الثورة. لعل أهمها أن الفرنسيين بالرغم من الحشية التي أظهروها في إخمادها، حتى إنهم ضربوا دمشق بالمدافع في صبيحة يوم ٩ أكتوبر ١٩٢٥ إلى صبيحة اليوم التالي، كانوا يسعون لتهدئة الحالة بإنشاء حكومة تستطيع كسب ثقة الوطنيين وتأييدهم. ولعل من الأسباب الهامة الأخرى أن مباحثات لم تلبث أن بدأت بعد وصول السعداوى إلى بيروت بأشهر معدودة أثارها أحد وكلاء الطليان للنظر في إمكان الوصول إلى "تفاهم" مع الوطنيين الطرابلسيين في المهجر، وعلى أى أساس يكون.

عرف بشير السعداوى في بيروت صديقاً قديماً هو الدكتور رجب فردى تقسيم أسرة والدته - وهى من أصل جزئى - فى طرابلس الغرب، وتربط أواصر القرابة بينها وبين بيت الشيخ ظافر المدنى. عرفه السعداوى قبل ذلك فى استانبول، وتجددت المعرفة بينهما الآن. وكان الدكتور رجب فردى، هو الذى عرف بشير السعداوى بالداماد أحمد نامى بك الرجل الذى سوف يكون للسعداوى معه شأن "كـمستشار" لحكومته - كما سنبينه بعد قليل - وسرعان ما توطدت الصداقة بين بشير وأحمد نامى، وكثرت زيارات كل منهما للآخر. وكان عن طريق الداماد، أن بدأ الطليان اتصالاتهم، من أجل الاتفاق مع الطرابلسيين - أى الليبيين فى المهجر، وشرعوا يتباحثون مع بشير السعداوى فى الأسس التى يقوم عليها هذا الاتفاق.

وتمسك السعداوى طوال هذه المباحثات، التى استمرت من أواخر عام ١٩٢٤ إلى أواخر العام التالى، بضرورة أن ينسى كل اتفاق مع الطليان، على أساس القرارات التى اتخذها الطرابلسيون فى مؤتمر غريان منذ أربع سنوات مضت، من حيث إنشاء الحكومة الوطنية، والاعتراف بالإمارة التى بويع بها السيد محمد إدريس السنوسى على كل ليبيا منذ يوليو ١٩٢٢، وهى القرارات

التي فسر مضمونها السعداوى فى مباحثاته بأية إقامة الحكم الذاتى فى البلاد تحت الإمارة. وكان الوكيل الإيطالى قد سأل السعداوى إذا كان الطرابلسيون - أى أهل طرابلس وبرقة - قد اتفقت كلمتهم على هذا المطلب، بعد ما وقع من أحداث أقصتهم عن أوطانهم. فأكد له أن الوطنيين - سواء منهم الذين فى المهجر، أو الذين لم يغادروا أوطانهم - متمسكون جميعاً بقرارات مؤتمر غريان، ولم يلبث السعداوى أن أعد مذكرة بهذا المطلب ليحملها الوكيل إلى حكومته.

ولم يشأ السعداوى أن ينفرد برأيه فى هذه المسألة، ولو أنه كان يعبر فيما يفعل عن مقاصد إخوانه، فأبلغ لاسيد محمد إدريس كل ما حدث، وكتب السيد إليه بالموافقة، ثم أبلغ بشير سائر زملائه فى القطر المصرى، وخصوصاً أحمد المريض والشيخ عبد الرحمن الزقلعى. ومع أنه تعذر علينا العثور على الرسائل المتبادلة، فى هذه المسألة، بين بشير السعداوى والسيد محمد إدريس، فقد أمكن العثور على بعض الرسائل التى بعث بها عبد الرحمن الزقلعى رداً على مكاتبات بشير السعداوى من جهة. ثم العثور على رسالة من هذا الأخير إلى أحمد المريض فى الموضوع نفسه.

ويتبين من هذه الرسائل، أن الاتفاق كان تاماً بين الطرفين فى المهجر، سواء منهم الموجودون فى القطر المصرى أو فى الشام. على الأسس التى يقوم عليها التفاهم مع إيطاليا من حيث إنشاء الحكومة الوطنية أو الحكم الذاتى والاعتراف بالإمارة السينوسية على كل لىبيا. وليس لدينا فى هذه المرحلة المبكرة ما يدل على أن فريقاً من المهاجرين الطرابلسيين فى القطر المصرى يناوئون فكرة الإمارة. وإن كان من المقطوع به أن مثل هؤلاء المعارضين للإمارة السينوسية قد وجدوا فعلاً فى المراحل التالية. ثم إن هؤلاء الذين أرادوا الاتفاق والتفاهم مع إيطاليا، تعذر عليهم أن يصدقوا ادعاء الطليان أنهم يريدون التفاهم والاتفاق مع الوطنيين فعلاً، بعد كل الذى لقيه هؤلاء على

أيديهم، وتلك الشدة التي لا زالت الحكومة الإيطالية تأخذ بها الوطنيين، أو على الأصح بقاياهم في ليبيا. ومع ذلك اعتقد جماعة من هؤلاء أن من الميسور التفاهم مع الطليان. وراحوا لذلك يحاولون الاتصال بهم في نفس الوقت الذي كان هؤلاء عن طريق عميلهم (الإيطالي) يتباحثون في بيروت مع بشير السعداوى.

ففي الرسالة الأولى، وهى من الشيخ عبد الرحمن الزقلعى بالإسكندرية فى ٧ يناير ١٩٢٥: يذكر صاحبها الأسباب التى تجعله يشك فى نوايا الإيطاليين من محاولتهم الاتفاق والتفاهم مع الوطنيين، وكان السعداوى قد أنبأه بمباحثاته مع الوكيل الإيطالى. وأخبره أن "المطالب قدمت"، وينتظر أن تكون مقبولة من الحكومة الإيطالية. ويؤخذ من جواب الشيخ عبد الرحمن أن الشيخ قبل كتابه هذا كان قد بعث بكتابين آخرين إلى بشير السعداوى فى نفس هذا الموضوع، الذى يعالجه فى كتابيه السابقين. فهو إذ يقول:

سابقاً أرسلت لجنابكم مكتوبين أتمنى أن يكونا واصلين، وقرأتموها وأنتم بكامل الصحة، وقد جنيت لكم منهما ما تذكرت، ولا أعلم اختصرت أم أفدت. وأصبت أم أخطأت. إنما لكونى أُميئاً من المخاطب فما خطر لى سطرته، وتركت لجنابكم حق الاختيار لأنهم يقولون فى معنى المثل السائر. إن الغائب لا يرى ما يراه الحاضر.

ثم إن جنابكم قلتم فى مكتوبكم الأول إن المطالب قدمت. وقد قبلت الخ. فتعجبت من ذلك. وفى الحقيقة إنهم يريدون من الطرابلسيين أن يقدموا مطالبهم إليهم مقرونة بالاسترحام. وهم يمنحونهم (إذا اقتضت مصلحتهم) ما تجود به مكارمهم حسب ما تقتضيه مصالحهم. لأنهم لا يريدون لفظة (مذاكرة) لأنها عندهم لا تقع إلا بين الند ونديدته، لا بين السيد وعبيده. وعلى كل حال لا يمكننى أن أبين ملاحظاتى الآن فى هذا الموضوع إلا بعد اطلاعى على المطالب التى قدمت. وعسى أن تكونوا قد سمحتم بها وهى

الآن فى الطريق. ولا زلت مصراً على ان الأحسن أن تكون المسألة مقصورة على ذوات محدودة حتى تتضح الحالة لأنى غير مطمئن بأنهم يريدون الاتفاق حقيقة مع الطرابلسيين الآن لأنهم لا يخفاكم أن هذه الأمة محكوم عليها قديماً بالطيش، فهى لا ثبات لها. ولا تستقر على حالة واعية. وخذ لك شاهداً قريباً على ذلك. تقلبات خططهم المتناقضة فى طرابلس وبرقة مدة الـ ١٤ سنة الماضية.

نعم ليس ما بيته لجنايبكم، هو بقصد إضعاف قوتكم المعنوية، أو يأساً منى، لا هذا ولا ذاك. وإنما بينت لجنايبكم ما أعتقد فىهم. مما علمته بالتجربة، وقد يكون الصواب خلاف ذلك.

وعلى كل حال إن السعى فى هذه المسألة واجب بجهد واجتهاد ما وجدنا لذلك سبيلاً إلى النتيجة. والله الموفق . . .

وفى ١٤ فبراير ١٩٢٥، عاد الشيخ محمد الزقلعى، يكتب إلى بشير السعداوى رداً على كتاب وصله منه، أبدى فيه هذا الأخير "استغرابه" كذلك من هذا "التناقض والانقلاب" الذى جعل الطليان يحاولون الاتفاق مع الوطنيين، وفى رسالته هذه يحاول الشيخ الزقلعى تفسير هذا "التناقض والانقلاب" فى سياسة الحكومة الفاشستية فيقول:

بعد السلام العاطر: وافانى كتابكم اليوم فسررت به جداً حيث كتابى وصل . . . نعم قد ذكرت فى خطابك أنه قد جد فى هذا الأمر ما هو أهم الخ. فيا جناب الأخ إنى من مدة وأنا فى انتظار شىء مثل هذا. بل لابد أن ترى أكثر وتطلع على ما هو أغرب . . . وقد أظهرتم فى مكتوبكم الاستغراب من هذا "التناقض والانقلاب". فلا استغراب ولا غرابة. لأن القوم أمام عدة أمور واقعية لا أقدر على سردها الآن، إنما أبين لك بعضها وإن كان وراء الأكمة ما وراءها. منها داخليتهم فى ارتباك. وتعددت أمامهم الأحزاب والمشارب، وهم يخافون منها أكثر من كل شىء، لأنهم يخافون سقوط

حزبهم، وسقوطه سقوطهم. ولا يرضى بالموت من هو أضعف منهم. فلربما يريدون يعملون عملاً ولو ظاهرياً لتهدة الفكر العام. أولاً أقل (من) تهدة بعض أفكار يقصدونها. حتى تختل صفوف معارضهم ليطعنوهم طعنة مميتة فيستريحوا منهم ولو مدة من الزمان. ومنها تقرب حكومتى تركيا وفرنسا الباطنى . . وتقرب فرنسا لبعض أمراء العرب بالجزيرة، مقابل تقرب الإنجليز لشريف مكة وأولاده. وزد على ذلك ذهاب السنوسى (السيد الشريف السنوسى) إلى الحجاز. وضم إلى ذلك انتظار عبد الكريم (الأمير الخطابى) وانسحاب أسبانيا من أرضه مع ميل الإنجليز إليه وصمت فرنسا عنه ولو مؤقتاً وغير ذلك. وليست هذه الأمور فى نظرهم كنظرنا بل عندهم يحسبون لها أدق حساب. وأزيدك أيضاً أنهم ربما يريدون أن يظهروا أمام العالم الإنسانى الموهوم، أنهم أرباب عاطفة شريفة، حتى أنهم تنازلوا ورضوا بالصلح، مع من رفع السلاح فى وجوههم بضع عشرة سنة. ويقصدون بذلك، من قريب الأمة المصرية المجاورة. لأمر يحلمون بها الآن، عى تتحقق فى اليقظة ولو بعد حين.

ولربما طالت المدة وهم يسرفون باجتناء ثمرات ما غرسته يد قوتهم الغاشمة فيريدون أن يحققوا هذا التسوية ولو بمدة مؤقتة.

ولربما أن أغلب الزعماء (ليسوا) تحت أيديهم، فالبعض لا يزال فى الصحار والبعض فر من وطنه لأماكن أخرى وهذا فى نظر المستعمرين لا يريح استعمارهم وإن طالت الأيام لأن الزمان لا تؤمن غائلته.

ولربما أنهم يدخلون فى مذاكرة صلح، حتى إذا لم يتوقفوا، أو لم يحصل اتفاق ينسبون ذلك من الطرابلسيين لأمتهم، لأنهم لا يريدون لهم إلا الخير وهم لا يريدونه أو لا يدركونه. ليعذروا فيما ينقذوه على تلك القطعة التعيسة، من الإجراءات المقررة عندهم من مدة طائلة.

ولربما بعد ما احتلوا كافة الحدود الغربية التونسية ووطدوا أنفسهم فى

أغلب الحدود الشرقية المصرية. حيث جعلوا نقطة فى الصحراء قرب الجغبوب بمحل يقال له (المشقق) حرى الجغبوب بيوم تقريباً وجعلوا داورية بالكرهيب (السيارات) من نقطة السليم إلى هناك، ناسب أن تفتح المذاكرة حتى إذا رأوا تأثير هذا الاحتلال وذلك بأن يرضى الطرابلسيون بأقل من مطالبهم الماضية رجعوا يطوون هذه المسألة لفرصة أتم.

ولربما تكون أنها قعدت لا تفتح المذاكرة وهى متقهقرة تشيهاً بالدول، خوفاً من أن تمس كرامتها الموهومة فرأت أن هذا الوقت أكثر ملاءمة من قبل. وفى الواقع إنهم لا يكرهون الاتفاق مع الطرابلسيين، إنما يكون كاتفاق السيد مع عبده على الطريق الذى يريد الذهاب منها سيده.

غنى لا يغيب عن ذهنك السليم أن رجالهم القليضين على الحكم فى تلك الأصقاع دائماً لا يروق إلا أن تكون تلك الأراضى فى حالة حرب لأمر .. ورجالهم فى روما مع طول هذه المدة، وتقلب الأحزاب لم يتوقفوا لإدراك هذه النقطة، أو لم يريدوا إدراكها. وهى حقيقة واقعية. يدركها كل من احتك "بوضعيتهم" فى تلك الأراضى.

ولربما، ولربما، ولربما إلى ما لا نهاية .. (إنى) أسألك سؤالاً وهو - بعد تمام المذاكرة والاتفاق - هل مذاكرتكم مع الرجل كانت على قاعدة مخاطبة السيد أم لا. وعلى كلا الحالتين هل التوجه إلى تلك الديار يكون من طريق برقة أم لا. بينوا لنا الطريقة التى يريدون منها ولوج هذا الباب لأنه أهم الموضوع.

وفى ١٤ مارس ١٩٢٥ نقل عبد الرحمن الزقلعى إلى بشير السعداوى كثيراً من الأخبار التى وصلته عن مقتل إبراهيم بن رمضان السويحلى الذى "بعد ما ضاقت عليه المعيشة فى جهة سرت قرر التوجه إلى فران لينضم إلى قوتها تحت قيادة" (خليفة الزاوى). ولكن عبد الجليل سيف النصر ترصد له وقتله. وكان تعليق الشيخ عبد الرحمن على هذا الحادث أن هؤلاء إنما

"يخدمون الطليان وهم لا يشعرون". وفى هذا الكتاب نقل صاحبه ملخصاً لمقال عن التحام الطليان بالمجاهدين بقيادة السيد عمر المختار فى مكان يسمى (حقفة أبو فروة) نشرته جريدة "وادی النيل" بعددها الصادر فى ١١ مارس ١٩٢٥. وفى هذه الرسالة كتب عبد الرحمن الزقلعى: "بلغنى أن السيد إدريس ساع فى فتح مذاكرة مع الطليان. ولكن الطليان لا يزالون يتعززون عليه". وفى نفس الرسالة أبلغ الزقلعى صاحبه قدوم أحمد المريض إلى القطر المصرى.

وفى ٢١ مارس، عاد عبد الرحمن الزقلعى يذكر فى كتاب جديد إلى بشير السعداوى أن "مكتوباً أتاه اليوم من مصر يؤكد أنه قد فتحت المخابرة مع سمو الأمير فى مسألة الوطن، ثم استطرد يقول: "ولكن بأى طريقة وعلى أى قاعدة لم نعلم ذلك". واختتم الزقلعى رسالته بإظهار الأمل فى أن يرد من روما سريعاً جواب الحكومة الإيطالية على المذكرة التى سلمها بشير السعداوى إلى عميلها فى بيروت. متضمنة مطالب الوطنين على أساس قرارات مؤتمر غريان المعروفة.

وكان الذى ذكره الشيخ الزقلعى عن هذه المباحثات بين السيد محمد إدريس والطليان فى مصر صحيحاً. ومع أنه لم يستطع معرفة الأسس التى قامت عليها، فإن هذه المباحثات فى القاهرة كانت تقوم فى واقع الأمر على غير الأسس التى جرت عليها المباحثات مع بشير السعداوى فى بيروت. ذلك أن المذاكرة فى بيروت استهدفت - على ما يبدو - من جانب الإيطاليين غرضين: أولهما، معرفة ما إذا كان هناك اتحاد فى النشاط بين الطرابلسيين فى المهجر وبين السيد محمد إدريس السنوسى الذى اعترف الإيطاليين بإمارته المحدودة فى برقة بمقتضى اتفاق الترجمة المبرم فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠. وهو الاتفاق الذى أعلن الإيطاليون إلغاؤه مع كل الاتفاقات التى عقدها مع الأمير عقب خروج الأمير من أجداية والتجائه إلى مصر، ثم أبلغه ذلك الوزير الإيطالى فى مصر (الدروفاندى) فى ٣ مايو ١٩٢٣. وثانيهما معرفة البرنامج

الذى تجتمع عليه كلمة الوطنيين فى المهجر - بالاتحاد مع الأمير السنوسى . إذ تبين أن اتحاداً يقوم حقيقة بينه وبينهم . وأما فى القاهرة، فقد حاول الإيطاليون، بذر التفرقة بين الأمير والوطنيين الذين يتفاوض باسمهم بشير السعداوى فى المهجر . وذلك أنه بينما يتشبث بشير السعداوى بضرورة تنفيذ قرارات مؤتمر غريان، أى إنشاء الإمارة الإسلامية التى جعلتها (بيعة الإمارة) بعد ذلك "سنوسية" صريحة على قطرى برقة وطرابلس - وفزان جزء من طرابلس - أى على ليبيا بأسرها، والمحافظة بفضل ذلك على وحدة الوطن، انحصر غرض الطليان فى مباحثاتهم مع السيد إدريس فى إنهاء كل مقاومة فى برقة، حتى يتم لهم "تهدئة" كل ليبيا بعد أن أحمدوا المقاومة فى القطر الطرابلسى، ولذلك فإنه بدلا من المذاكرة مع السيد إدريس فى الأس التى يجب أن يقوم عليها اتفاق شامل واسع، على غرار ما جرت عليه المذاكرة مع بشير السعداوى فى بيروت وبالصورة التى أرادها هذا الزعيم الذى هدف إلى إيجاد حل للقضية الطرابلسية البرقاوية "الليبية" برمتها؛ سارت المباحثات فى القاهرة على قاعدة تحديد العروض التى يمكن بها ائتمالة السيد محمد إدريس إلى قبول الحكم تحت سلطان إيطاليا فى نظير الاعتراف له من جديد بإمارته التى أعلنوه بإلغائها حديثاً، والتى لم يريدوا فى وضعها الجديد - إذا حصل اتفاق بينهم وبين السيد إدريس - أن تتعدى ولايتها المقيدة الواحات الجنوبية فى برقة وكفى وهى عروض تقل فى قيمتها من الناحيتين العملية والأدبية عما جاء فى اتفاق الرجمة، ولا يمكن بحال أن تقاس بجانب الإمارة الإسلامية السنوسية التى يتمسك بشير السعداوى بوجود أن يشمل أى اتفاق أو تفاهم مع الطليان النص على ضرورة إنشائها.

وفى كتابنا "السنوسية دين ودولة" تفسير للأسباب التى جعلت الطليان يحاولون الاتفاق مع السيد إدريس . ولقد ذكرنا كذلك خبر هذه المحاولة وفشلها . وكنا استيقنا معلوماتنا فى ذلك من السيد إدريس نفسه . وفيما يلى نص العبارات الواردة فى صفحة ٣٦٥ من الكتاب عن هذا الموضوع :

وقد وجد الطليان إزاء اشتداد مقاومة المجاهدين فى الجبل الأخضر عقب عودة السيد عمر المختار من مصر إلى برقة (وكان المختار حضر لمقابلة السيد إدريس فى منتصف عام ١٩٢٣ لتلقى التعليمات منه). وبسبب فشلهم فى منع السيد إدريس من مساعدة المجاهدين وإيواء اللاجئين وتبوير الحملات ضد الطليان بالنشر والكتابة فى الصحف المصرية يكشف عن نواياهم ويفضح للملأ أساليبهم. رأى الطليان أن يحاولوا الاتفاق مع سموه بالطرق الودية على إنهاء النضال فى برقة. فبعث وزير المستعمرات الإيطالى إلى مصر فى غضون عام ١٩٢٥ مستشرقاً إيطالياً هو الأستاذ الكومندا تورماريو مورينو حتى يجتمع بسمو السيد إدريس للمقاوضة معه. وكانت عروض مارينو مورينو تتلخص فى أن تتعهد إيطاليا بكل ما يضمن أسباب الراحة والرفاهية لسمو السيد ولأفراد الأسرة السنوسية لقاء أن يقبل سموه الإمارة على الواحات الجنوبية فى برقة فحسب. فلم تلق هذه العروض إقبالا من سموه أو موافقة عليها".

ومع ذلك فإنه حتى نهاية عام ١٩٢٥ كان الإيطاليون لا يزالون يلوحون أمام بشير السعداوى بإمكان الاتفاق معهم على الأسس التى تضمنتها مذكرته لهم منذ أواخر العام السابق. ولذلك فإنه بمجرد أن تأكد لديه وصول أحمد المريض إلى مصر، ووقف على عنوانه فى الفيوم، بادر يكتب إليه ثانية من بيروت فى ٨ جمادى الثانية ١٣٤٤ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥، عن المحاولات التى جرت "منذ خمسة عشر شهراً" لمعالجة القضية الوطنية، ويذكر أن هذه "وصلت فى هذا الأسبوع إلى غاية ونتيجة بفضل الله"، ويريد أن يتأكد من وصول رسالته هذه إلى أحمد المريض حتى يبعث إليه بالتفاصيل. فيقول:

سلام الله عليك بقدر شوقى واحترامى لك. وبعد فإنى أرجو الله أن تكون مع جملة الأهل والأقارب بأكمل الصحة وأتم العافية. كنت قبل هذا

قد أرسلت إليك كتاباً ومضت مدة تنوف عن الخمسة أشهر وأنا فى انتظار الجواب ولم يسعدنى الحظ بنيله وإنى حتى الآن لا أجد لهذا التعويق تأويلاً غير حسن الظن بخالص مودتك . ولذا فإنى بهذا العامل وحفظاً للمودة ووفاء بالعهد وقياماً بواجب الإخاء والولاء جئت بكتابى هذا مكرراً رجائى التعريب عن وصوله مع التطمين عن صحة لفيف الأهل كما وأن لدى مسألة ذات أهمية كبرى تتعلق بسعادة الوطن وحياته الأبدية، ما فتئت منذ خمسة عشر شهراً أحاول معالجتها حتى وصلت فى هذا الأسبوع إلى غاية ونتيجة بفضل الله . وأن الذى يمنعنى من التصريح هو انتظارى لإشعاركم المتضمن وصول كتابى هذا . ولذلك أرجوك التعريف مع كتم هذه الإشارة بالكلية لأن أدنى إفشاء يذهب بثمرة سعى ومجهودات دامت مدة طويلة وتكون النتيجة الفشل - لا سمح الله - وإنى لفى اطمئنان عظيم من سعة صدرك لمهام الأمور . هذا وأرجو أن تبلغ سلامى .

ولكن لم يلبث أن انقطع العميل الإيطالى عن التردد على بشير السعداوى، فلم تأت مباحثات بيروت بأية نتيجة مثلها فى ذلك مثل المباحثات التى جرت فى القاهرة مع الأمير السيد إدريس السنوسى .

٢ - المستشار لحكومة الداماد أحمد نامى :

لم يكن بشير السعداوى غريباً عن الشام . فقد عرفناه قائمقام لقضاء جزين فترة من الزمن أثناء الحرب العالمية الأولى . وشاهدناه يتردد بين بيروت ودمشق وحلب قبل ذهابه إلى ينبع البحر، وبعد عودته من الحجاز، وحينما ذهب ليعمل مع السيد أحمد الشريف . وذكرنا أنه رجع من استانبول إلى بيروت قبل مبارحته هذه الأخيرة إلى طرابلس الغرب . وكان منتظراً لذلك أن تستأثر باهتمامه دراسة الأحوال السياسية فى سوريا ولبنان أثناء الفترة التى قضاهما بعيداً عن البلاد فى أعقاب الحرب الماضية . ومن أول الأمر تبينت له جملة حقائق كان لها أكبر الأثر فى توجيه نشاطه كل المدة التى قضاهما متغرباً



المرحوم بشير السعداوى مع المرحوم أحمد المريض

فى مصر (١٩٣٦)

عن بلاده هذه المرة؛ أهمها ان الانتداب الفرنسى الذى أعلن على سوريا ولبنان "رسمياً" منذ شهر سبتمبر ١٩٢٣ ووافقت عليه "عصبة الأمم"، قد فرص سيطرة أجنبية على البلاد، تشبه من وجوه كثيرة السيطرة التى فرضها الغزو الإيطالى على طرابلس الغرب منذ سنوات عدة سابقة، من حيث إن كلا هاتين السيطرتين بمحاولتهما إهدار كل حقوق الوطنيين المشروعة فى العيش فى بلادهم فى حرية وكرامة غيشاً يكفل إطاراد التقدم والرقى فى ظل الحكومة الوطنية الرشيدة، حتى تتحرر أوطانهم من الاستعمار وتظفر باستقلالها قد تسببتا فى ذبوع القلاقل والاضطرابات. بدرجة سوف تجعل الاستقرار متعذراً إلا إذا أذعن (الانتداب) فى بلاد الشام فاعترف بحقوق الوطنيين، واستجاب لرغائبهم فى هذه المرحلة، من حيث إقامة الحكومة الوطنية، التى يطمئن الأهليون إلى أنها سوف ترعى مصالحهم وتسهر على تحقيق أمانهم. وإلا إذا تمكنت المقاومة الوطنية فى طرابلس وبرقة - أو على الأصح فى برقة وحدها لانفصالها عن طرابلس الغرب - من الانتصار على جيوش إيطاليا وعددها الحديثة وأسلحتها الفاتكة، وذلك ما كان يتضاءل الأمل تدريجياً فى إمكان حدوثه، أو استطاعت (الدعاية) النشيطة فى المهجر تجنيد رأى العام فى العالم الإسلامى عموماً والعرب خصوصاً للضغط على رعيم إيطاليا (الدوتشى) حتى يذعن هو الآخر، فيعترف بحقوق الوطنيين، ويقيم فى ليبيا الحكومة الوطنية التى ترعى مصالح أهل البلاد وتذود عن حرياتهم. وأما الحقيقة الهامة الأخرى التى استقرأها بشير السعداوى، من الحوادث فى بلاد الشام، فهى "أن الوطنيين" وحدهم الذين لم يخضعوا لإغراء (الواقعية) وبريقها، لينشدوا التعاون مع المستعمر على الأسس التى يريد هذا المستعمر نفسه، هم الذين فى قدرتهم وزن صوالح الوطن وإنشاء نوع من التعاون المثمر مع سلطات الاحتلال، أو إعلان الحرب عليها من غير هوادة إذا قدروا أى هاتين السياستين فى صالح الوطن، وهم الذين إذا تعاونوا مع سلطات الاحتلال، لم يكن هدفهم من هذا التعاون، إلا قيادة البلاد، والسير بها على

الطريق الموصل إلى استقلالها وتحريرها فى النهاية من كل سيطرة أجنبية عليها. وأما الحقيقة الثالثة، التى عرفها بشير السعداوى، من تجاربه السابقة فى نضاله مع الطليان فى طرابلس الغرب ثم عرفها (الآن) من مدرسته للموقف ومن مشاهداته فى سوريا ولبنان. فهى أن المستعمر، حتى تستتب له الأمور فى البلاد ويطمئن إلى تفرق كلمة أهلها، إنما يعتمد على سلاح التجزئة والتقسيم، يقطع به أوصال الوطن الواحد، إلى مقاطعات، أو ولايات أو دول منفصل بعضها عن بعض، حتى ينوء كل جزء من هذه الأجزاء تحت أعباءها يقتضيه هذا الانفصال من إنشاء للإدارات المالية والقضائية والسياسية وغيرها مما يبهظ كواهل هذه المقاطعات، أو الولايات أو الدول، فلا تجد مناصباً من الاعتماد على معونة الدولة المستعمرة لها حتى تحفظ كيائها، فتظل أبداً مستعبدة، وتظل أبداً متأخرة. ولذلك كان شديداً - كما رأينا - تمسك بشير السعداوى بسيعة الإمارة للسيد محمد القائمة. وعندما جاء بشير السعداوى إلى بيروت كان الشريف عبد المجدى قد اتخذ مقره بها من شهور مضت، ولم يلبثما جاء بشير السعداوى إلى بيروت كان الشريف عبد المجدى قد اتخذ مقره بها من شهور مضت، ولم يلبث الشريف على حيدر والده أن غادر استانبول ليقیم هو كذلك مع ولده فى بيروت فبلغها فى مارس ١٩٢٦. ويظهر مبلغ اعتماد الفرنسيين على إمكان التعاون مع على حيدر وولده، من الحفاوة الكبيرة التى استقبل بها الشريف، من جانب السلطات الفرنسية. وتردد بشير السعداوى على الشريفين عبد المجيد وعلى حيدر، وقد تقدم أنه عرف الشريف على حيدر فى المدينة المنورة عندما عينه الأتراك أميراً على مكة فى الظروف التى ذكرناها. وأما الداماد أحمد نامى فقد عرفه عن طريق الدكتور رجب فردى طبيب الداماد الخاص. وتوثقت عرا الصداقة بين بشير السعداوى وأحمد نامى، ثم إنهما كثيراً ما صارا يزوران سوياً الشريف عبد المجيد الذى كان أصهر هو الآخر من بت آل عثمان.

وأما الحوادث التى راقبها بشير السعداوى، فكانت حوادث الثورة

الكبرى التى بدأت فى جبل الدروز ثم انتشرت إلى غوطة دمشق وإلى القلمون وحماه وضواحي حمص. ويادر المفوض السامى (سراى) بإرسال القائد (ميشو) Michaud على رأس قوة كبيرة لإنقاذ حامية السويداء، ولكن الدروز اشتبكوا مع هذه القوة فى معارك متعددة، ثم أوقعوا بالفرنسيين الهزيمة فى معركة المزرعة فى أول أغسطس ١٩٢٥. ونجح الفرنسيون للتفاهم ولكن زعماء الدروز وزعماء حزب الشعب الذى أسسه الوطنيون فى دمشق برئاسة الدكتور عبد الرحمن شهنبر فى فبراير من العام نفسه. اتفقوا على مواصلة القتال ضد الفرنسيين، فلما علم هؤلاء بهذه التدابير، صادروا أوراق الحزب وأغلقوا ناديه وقبضوا على ؟ من أعضاء هيئته الإدارية. ولكن عبد الرحمن شهنبر وآخرون، استطاعوا الإفلات والذهاب إلى جبل الدروز. وفى ٢٤ أغسطس، هاجم سلطان باشا الأطرش دمشق دون نجاح، ولو أن هذا الحادث كان كافياً لتحريك أهل دمشق على الثورة. وخلف قائد جديد هو (غاملان) Gamelin الجنرال (ميشو). ولكن الثوار ألحقوا بالفرنسيين الهزيمة فى معركة المسيفرة (١٧ سبتمبر) وكادوا يفتكون بهم لولا أن الطائرات الفرنسية وصلت فى الوقت المناسب لإنقاذهم. ويمكن (غاملان) من الزحف على السويداء ورفع الحصار عن قلعتها (٢٤ سبتمبر)، واضطر الثوار فى قطاع آخر إلى الارتداد بعد زحفهم فى لبنان الجنوبي للوصول إلى الساحل، وحصارهم لقلعة (راشيا) التى كادت تسقط فى أيديهم (٢٠ - ٢٤ نوفمبر). وكان سبب الارتداد أن الثوار قرروا الاشتباك مع الفرنسيين فى معارك فى الغوطة بالقرب من دمشق حتى يخففوا من حدة القتال الدائر فى الجبل بصرف القوات الفرنسية إلى ميادين أخرى. وبالفعل دارت معارك عديدة فى الغوطة، أهمها معركتا (زوربالا) اللتان عجز فيهما الفرنسيون عن زحزة الثوار من الغوطة، وكان بطل هذه المعارك حسن الخراط "الذى قتل بعد ذلك فى معركة (يلدا) يوم ٢١ ديسمبر ١٩٢٥"، وفى حماة كان قائد الثورة فوزى القاوقجي الذى هاجم حماه يوم ٤ أكتوبر ١٩٢٥ واحتل دار الحكومة بعد مقاومة عنيفة.

ولكنه اضطر إلى الارتداد بعد ثلاثة أيام فقط عندما استعصى عليه الاستيلاء على الثكنات أو مقر القيادة العسكرية. وفي ١٨ أكتوبر دخل الثوار دمشق واحتلوا بعض أحيائها، وكان غرضهم القبض على الجنرال (سراي) الذي وصل دمشق في اليوم نفسه من بيروت. ولكن (سراي) تمكن من الهرب إلى بيروت وأمر بإطلاق القنابل على العاصمة، فضربها الفرنسيون بالمدافع، ومن الجو مدة أربع وعشرين ساعة، (١٩ - ٢٠ أكتوبر ١٩٢٥)، فتهدمت مبان عديدة وأصيبت أحياء كثيرة بأضرار جسيمة، واستشهد عديدون. ولم يقف إطلاق المدافع إلا عندما وافقت المدينة أن تدفع تعويضاً مائة ألف من الجنيحات الذهبية وتسلم الفرنسيين ثلاثة آلاف بندقية. وكان لهذه الكارثة آثار عميقة، ليس بين العرب والمسلمين وحدهم وكفى، بل في جميع أنحاء العالم لتدمير عاصمة الأمويين التاريخية القديمة. وفي باريس كان صدى هذه الكارثة استدعاء (سراي) في الشهر التالي (نوفمبر) وإسناد منصب المندوب السامي إلى (مدني) للمرة الأولى في تاريخ الانتداب الفرنسي في بلاد الشام هو (هنري دي جوفنيل) De Jovenel الذي دل اختياره بعد سلسلة القواد العسكريين على أن عهداً جديداً سوف يبدأ على أساس اتخاذ أساليب (سياسية) لتسوية الخلاف بين سلطات الانتداب والوطنيين. وبالفعل كان (جوفنيل) قبل مقدمة قد تباحث في باريس، ثم عن طريق الوزير المفوض الفرنسي في القاهرة، مع ممثلي اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، ثم مع رؤساء الثورة، ومع الأمير شكيب أرسلان، الذي جاءه إلى باريس لبحث مطالب الوطنيين، كما أنه تباحث في ذلك مع رئيس وأعضاء اللجنة التنفيذية عند مروره بالإسكندرية والقاهرة (٣٠ نوفمبر) في طريقه إلى بيروت التي وصلها في أول ديسمبر. ثم إنه استمع في بيروت لمطالب الوفود التي حضرت من المدن السورية، وفد الأمير أمين أرسلان، الذي حمل مطالب زعماء الثورة في جبل الدروز، ووفد دمشق. وتلخصت مطالب الوطنيين في وجوب، أن يستبدل بالانتداب، معاهدة تعين العلاقات بين فرنسا وسوريا على أساس إنشاء الحكومة الوطنية ذات الاستقلال الكامل، على أن ينعقد

مجلس تأسيسى منتخب انتخاباً حرّاً لوضع دستور البلاد، ثم إعادة الوحدة السورية بحدودها الطبيعية، فيما عدا جبل لبنان بصورته الأصلية، واستقبال صبحى بركات رئيس الحكومة السورية فى (٢٢ ديسمبر ١٩٢٥). وجرى بحث سلطات الانتداب فيمن يخلفه. وذلك أيضاً فى الوقت الذى أراد فيه المندوب السامى إدخال "اصطلاحات دستورية" على زعمه فى سوريا، فأمر فى ٢٣ ديسمبر بإجراء انتخابات للانتام مجلس تمثلى يتعرف بواسطته على "أفكار وآراء ممثلى البلاد". وقاطع الشعب هذه الانتخابات، وقامت الاضطرابات فى كل مكان، وصار واضحاً أن التعجيل باختيار رئيس جديد للحكومة ضرورى لعله يستطيع استمالة العناصر الوطنية إلى التعاون معه فتخف حدة هذه الاضطرابات، ويتهىأ الجو لحسم الخلافات القائمة. وكان المرشحون لهذا المنصب ثلاثة: الشيخ تاج الدين الحسنى، والشريف عبد المجيد بن الشريف على حيدر، والداماد أحمد نامى. ووضع الأول برنامجاً واسعاً اشتراط العمل بمقتضاه لقبوله مهمة الحكم، فلم يوافق عليه الفرنسيون، وانحصر الاختيار بين عبد المجيد وأحمد نامى.

وكان بشير السعداوى الذى ظل صديقاً للشريف عبد المجيد وللداماد أحمد نامى ويتردد عليهما كثيراً أثناء "مفاوضة" الفرنسيين لهما - وهى مفاوضة كان يعلم كل منهما أنها تجرى مع الآخر فى الوقت الذى يتباحث الفرنسيون فيه معه - نقول إن السعداوى ظل طوال مدة المفاوضة يخلص النصيح للفريقين على السواء؛ غرضه من إسداء النصيحة أن يشترط كلاهما لقبول الحكم، برنامجاً يقوم على إنشاء الحكومة الوطنية التى تحكم حكماً دستورياً صحيحاً، وعلى أن يكون فى وسعها، إنهاء الانتداب، وإبداله بمعاهدة بين فرنسا وسوريا على نمط المعاهدة العراقية الإنجليزية التى أبرمت حديثاً (فى ١٣ يناير ١٩٢٦)، لتحل محل معاهدة ١٠ أكتوبر ١٩٢٢). وذلك فى جوهره كان برنامج الوطنيين الذين عمل السعداوى على توثيق صلاته بهم.

ولم تثمر مباحثات الفرنسيين مع الشريف عبد المجيد. ولو أن "جوفنيل" لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يشعر على حيدر بأن ولده هو المرشح لرئاسة حكومة سوريا، ثم هيا للشريف عبد المجيد الفرصة بأن أرسله إلى دمشق في أوائل يناير ١٩٢٦ ليحاول كسب تأييد الوطنيين، وبالفعل الفرنسيون في الحفاوة به وتكريمه، ولكنه فشل في مهمته. ولذلك أراد "جوفنيل" مرة أخرى إقناع الشيخ الحسنى بقبول الرئاسة، ولكن الشيخ تاج أصر على تنفيذ برنامجه. وأخفق "جوفنيل" كذلك في إقناع هاشم الأتاسى أو إبراهيم هنانو في تولي هذا المنصب. وكان الوطنيون في أثناء ذلك كله يدأبون على الاتصال بالداماد أحمد نامى على اعتباره أنه قد يكون خير من يصلح لتولى رئاسة الدولة وتأليف حكومة تشرف على إجراء انتخابات حرة تمهد لوصول الوطنيين إلى الحكم بالاتفاق مع الدولة المتدبة "فرنسا". وجرت مباحثات في ذلك بين أحمد نامى وبين رجال الكتلة الوطنية - وهو الاسم الذى صار يطلق عليهم بعدئذ - سواء من كانوا في بيروت وقتئذ أو مع الثوار في الغوطة وضواحي دمشق، مثل: فارس الخورى وشكرى القوتلى وحسنى البرازى وعفيف الصلح وفوزى الغزى وعبد الرحمن الشهبندر. وعاون بشير السعداوى في هذه المباحثات التى أسفرت عن الاتفاق على ان يقبل الداماد الحكم ببرنامج وطنى اشترك الطرفان فى وضعه لإنهاء الحركة الثورية على أساس إجراء الانتخابات التى تمكن الوطنيين من تولي الحكم. ولما كان هذا البرنامج قد نال موافقة "جوفنيل" فقد اصدر هذا قراراً فى ٢٦ إبريل ١٩٢٦ بتعيين أحمد نامى "رئيساً للدولة سوريا". وفى ٢٨ إبريل أصدر الداماد بياناً أجمل فيه برنامجه من حيث ضرورة إنهاء الثورة التى "كلف ألوفاً من الضحايا البشرية" والمخاطبة مع "الدولة المتدبة لإعطاء الانتداب شكل معاهدة مستمدة من المعاهدة المعقودة بين إنكلترا والعراق" والتعجيل "بانتخاب جمعية تأسيسية يعترف بواسطتها بحقوق السوريين فى استعمال الحرية والاستقلال".

وإذ عرف أحمد نامى فى صديقه السعداوى المستشار والناصح الأمين،

فقد أراد أن يقيه إلى جنبه يستأنس برأيه ومشورته في معالجة الأمور عند انتقاله إلى دمشق لتسلم مهام منصبه. ففي اليوم الذي صدر فيه قرار تعيينه طلب الداماد من بشير السعداوى أن يصحبه إلى دمشق. فوعد السعداوى أن يوافيه في دمشق بعد أن يكون الداماد قد استقر به القمام هناك مدة كافية لهدوء الحالة واعتقد الداماد أن صديقه لا يود الذهاب معه، فأوفد إليه بعد منتصف الليل الدكتور رجب فردى يسأله الحضور لمقابلته فوراً. وأبلغ الطبيب بشير السعداوى أن الداماد مستاء من جوابه واعتذاره عن مصاحبته لأنه إنما يعول على صداقته ويكن له حباً كبيراً. وعاتب الداماد بشير السعداوى الذي ما كان يعتقد أن يرفض التعاون معه في موقف مثل هذا الموقف. فكان جواب بشير السعداوى أن الذي دفعه إلى الاعتذار رغبته في أن يجتمع حول الداماد رجالات البلاد من أهلها حتى يتسنى له أن يفيد من خبرتهم وصداقتهم، بينما لا يعدو بشير السعداوى نفسه أن يكون غريباً عن البلاد، لا يجوز له أن يحتل مكاناً ليس من حقه إلى جانب رئيس الدولة، ولذلك آثر أكد للسعداوى، أن بلاد العرب بأسرها، هي كذلك بلاده لسبب واحد، هو: عروبتة. وأصر الداماد على أن يسبق السعداوى بالسفر إلى دمشق، فأجابه هذا إلى رغبته.

وحرص بشير السعداوى قبل سفره إلى دمشق على زيارة الشرفين على حيدر وابنه عبد المجيد، وصارح الثاني بأنه وقد صار الآن يعمل إلى جانب أحمد نامى، ويشعر بوجود جفوة بين الشرفين والداماد، فإنه يعتذر لذلك عن عدم قدرته على التردد عليهما حاي لا يتسبب عن زيارته لهما ما قد يؤول عن قصد أو عن سوء فهم بأنه انحراف عن الجادة في علاقته مع أحمد نامى. وأكد السعداوى للشريف عبد المجيد أنه لا يزال على وده وصداقته له ولوالده. وامتنع بشير السعداوى عن زيارتهما، طول المدة التي بقيها أحمد نامى في رئاسة الدولة. أما الشريف على حيدر فقد غادر بيروت يوم ٢ مايو، يقصد زيارة الحجاز، فبلغ صيدا ثم القدس في اليوم نفسه، وغادر الأخيرة إلى مصر، ومن هذه إلى الحجاز، ولكنه ما وصل إلى ينبع حتى جاءته برقية

من الملك عبد العزيز آل سعود يمنعه من النزول في الحجاز، فقصده إلى بور
سودان ومنها إلى السويس في طريق عودته إلى بيروت التي وصلها في ٢٧
مايو.

وأما الداماد أحمد نامي فقد وصل إلى دمشق في ٣٠ إبريل ومعه المسيو
"دي جوفنيل" ولقى صعوبات كثيرة في تأليف وزارته، فلم تتألف هذه إلا
يوم ٤ مايو، من: فارس الخوري للمعارف، وشاكر نعمت الشعباني للمالية،
ولطفي الحفار للزراعة والرى. وحسنى البرازي للداخلية. ويوسف الحكيم
للحقانية، ووائق المؤيد للأشغال العامة. وأذاعت الحكومة بياناً عن ظروف
تشكيلها وبرنامجاً اعتمدت تنفيذه يقوم على قواعد أساسية ثلاث: دعوة
جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد، وتحويل الانتداب إلى معاهدة بين فرنسا
وسوريا لمدة ثلاثين سنة، وتحقيق الوحدة السورية. وذلك خلاف إصلاحات
تناول تنظيم القضاء والجيش - الذي يحل محل القوات الفرنسية عندما يبدأ
جلاؤها تدريجياً عن البلاد - واستصدار العفو العام عن جميع أصحاب
الجرائم السياسية، وتعويض منكوبي الثورة، وإلغاء الغرامات العسكرية المقررة
على دمشق وغيرها وإدخال سوريا في عصبة الأمم وإعطائها حق التمثيل
الخارجي أسوة بالعراق.

ولقد وافق المندوب الفرنسي "جوفنيل" على بيان الحكومة وبرنامجها،
كما وافق على ضرورة الوحدة السورية تعهد بتحقيقها. وذلك بسلخ الأقضية
الأربعة وطرابلس وعكا من لبنان وإعادتها إلى سوريا. وانتظر الوزراء
"الوطنيون" الثلاثة خصوصاً: فارس الخوري ولطفي الحفار، وحسنى
البرازي، أن توافق حكومة باريس، على ما سبق أن وافق عليه مندوبيها
السامي في بيروت ودمشق، وأن يرتبط "جوفنيل" نفسه بما تعهد به، وأن
يطلب إلى القوات العسكرية الفرنسية وقف القتال - لأن الثورة لا زالت
مشتعلة - ولكن بدلا من ذلك كله استمرت الأعمال العسكرية، وتكررت

إغارات الفرنسيين على حى الميدان، وهو من أكبر أحياء دمشق، وفى ٢٥ مايو وافق (جوفيل) على دستور "جمهورية" لبنان الذى أعلن فى اليوم التالى ونص على أن أراضى لبنان وحدة لا تتجزأ ولا يجوز التنازل عن شىء منها. فكان معنى هذا استحالة تحقيق الوحدة السورية التى وافق عليها (جوفيل)، وقبل الوزراء الوطنيين الحكم على أساسها، ولم يقف جلب العسكر الفرنسيين إلى سوريا. ولم يكن من ناحية أخرى فى وسع الوزارة أن تطلب من الثوار والمجاهدين الكف عن الثورة. ولما كانت هذه الوزارة "ائتلافية" تتكون إلى جانب (الوطنيين) من عناصر ترى استمرار التعاون مع الانتداب بالرغم مما حصل، فقد دب الانقسام إلى الوزارة، وطلب الوزراء الثلاثة "الوطنيون" من رئيس الدولة أن يقطع برأى فيما إذا كان يعتزم مطالبة سلطات الانتداب بتنفيذ ما تعهدوا له به فينضم إلى صفوف الوزراء الوطنيين. أم أنه يريد التعاون مع هذه السلطات بالرغم من نقضها لعهداتها. ولما كان أحمد نامى لا يريد مناوأة سلطات الانتداب، ولا يزال يرى إمكان التعاون معها فقد استقال الوزراء الثلاثة. وتدخل الفرنسيون فأصدر الداماد قراراً بحل الوزارة فى ١٢ يونيه ١٩٢٦. ولم يقف تدخل لالفرنسيين عند هذا الحد، بل ألقوا القبض فى منتصف ليل ١٢ - ١٣ يونيه على الوزراء الثلاثة: لطفى الحفار، وفارس الخورى، وحسنى البرازى. وفى صبيحة يوم ١٣ يونيه بعثت بالمعتقلين إلى حلب ومنها إلى الحسجة بالقرب من دير الزور فى الجزيرة.

وكان اعتقال الوزراء الثلاثة مفاجأة للداماد أحمد نامى نفسه، واضطرب هذا الحادث اضطراباً شديداً حتى أنه بادر باستدعاء "مستشاره" بشير السعداوى بمجرد أن علم بالحادث عقب وقوعه مباشرة، يسأله النصيحة فيما يجب عليه أن يفعله.

ولم يتردد بشير السعداوى لحظة واحدة فى الإشارة على الداماد بالاستقالة لسبب جوهرى هو أن فرنسا بإقدامها على اعتقال وزرائه دون علمه

إنما تريد التدليل على أنها فى الحقيقة لا تبغى التعاون معه على أساس البرنامج الذى وضعه بالاتفاق مع مندوبها السامى ونال رضاء هذا الأخير عنه . وبعبارة أخرى لا تريد فرنسا خيراً للبلاد . وفعله السلطات الفرنسية هذه الأخيرة إنما ينطوى على مساس بكرامته الوطنية .

ولكن النصيح بالتخلى عن الحكم ، لم يلق هوى من نفس أحمد نامى الذى ظل حائراً فى أمره . وراح يسأل السعداوى إذا كان ممكناً تلافى هذا "التحدى" لسلطات الانتداب - تحدى الاستقالة - والنظر فى وسيلة أخرى غير الاستعفاء طالما أن الغاية من بقائه فى الحكم أو انتقال رئاسة الدولة إلى شخص آخر ، ليست سوى العمل على إنهاء الثورة ، وتحقيق أمانى البلاد . ولم يتزحزح بشير السعداوى عن موقفه . ثم تبين له أن من أسباب تمسك الداماد بالبقاء فى منصبه وتهوين مسألة القبض على وزرائه واعتقالهم - وهم على كل حال كانوا قد أعلنوا استقالتهم - أن الفرنسيين أقنعوه أن هؤلاء "المتطرفين" نظموا مؤامرة بالاتفاق مع "عصابات الثوار" للإحاطة بحكومته . وثمة سبب آخر هو أن الفرنسيين كانوا كذلك يمتنون بالاستقرار فى منصبه ، إذ من المعروف أن حكومة الداماد كانت وقتية لأن القرار الذى أصدره (جوفنيل) بتعبدته فى ٢٦ إبريل نص على أن يبقى "رئيساً لدولة سوريا إلى أن ياتم البرلمان المنتخب قانوناً ويعين بنفسه رئيس الدولة" .

ويقول بشير السعداوى : ولم تمر ليلتان على اعتقال الوزراء وحل الوزارة حتى جمع الداماد عدداً من أصدقائه ، أخذ يتذاكر معهم فى تأليف وزارته الجديدة ، ولم يشأ السعداوى حضور هذا الاجتماع فظل بعيداً عنه . ولكن لم يلبث أن استدعاه الداماد ، فوجد الحاضرين يبحثون أسماء الذين يرشحونهم للوزارة فنظر السعداوى فى وجوه هؤلاء الأصدقاء : فلم يجد واحداً منهم من مأهل البلاد الذين يعينهم الأمر قبل غيرهم . فالحاضرون كانوا : الدكتور رجب فردى ، طبيب الداماد الخاص ، وأصله طرابلسى جزائرى ، والدكتور حسن الأسير وهو طبيب لبنانى . وطه المدور صاحب جريدة الرأى العام ، وهو من

بيروت، والمحامي عزيز هاشم وهو لبناني كذلك. فلما سأله الداماد لماذا لا يتكلم ويدلى برأيه؟ كان جواب بشير السعداوى: "نحن في الحقيقة غرباء، وهذا الموضوع إنما يجب البحث فيه مع أهل البلاد أنفسهم، فعليك بالتشاور مع أعيان دمشق والتشاور معهم فتشركهم معك في الرأي وفي المسؤولية، لأن حكم البلاد في هذه الظروف أمر جد خطير لا يستطيع الحاضرون أن يقطعوا فيه برأى ويتحملوا أية مسؤولية".

لم يرق هذا الرأي الحاضرين راحوا يهدمونه بقولهم: إن الداماد وهو رئيس دولة، في وسعه ومن حقه أن يختار من يشاء من الوزراء للتعاون معه. وعبثًا حاول بشير السعداوى إقناعهم برأيه. وراحوا يرشحون الوزراء الذين سوف تتألف منهم الوزارة الجديدة. وفي اليوم التالي اقترح بشير السعداوى تعيين وزير للمعارف، هو شاكِر الحنبلى. كان أستاذًا للقانون والإدارة بجامعة دمشق، سبق له أن تقلب في وظائف الحكم على أيام الدولة العثمانية. فتألفت الوزارة منه ومن واثق المؤيد للداخلية - وكان متزوجًا من فرنسية، ومعروفًا بنزغته الفرنسية، وحمدي أبو النصر للمالية، ويوسف الحكيم، وكان مستقلا، استبقى للحقانية. وبقيت هذه الوزارة تنتظر موافقة الحكومة الفرنسية على (برنامج الداماد) الذى أعلنه عقب تأليف وزارته الأولى في ٤ مايو. وطال انتظارها دون نتيجة، حتى وجد الداماد نفسه مرغما على التخلي عن رئاسة الدولة بعد ذلك بستين تقريبًا في ظروف سيأتى ذكرها.

فقد شغلت حكومة الداماد، بحوادث الثورة من جهة وهى ظلت مشتعلة ولم تخف حدثها، عندما وجد الوطنيون أن المفوض السامى نقض كل ما تعهد به. وإن كان لا يزال لدى فريق من ذوى الرأي، ولدى حكومة الداماد، كذلك بعض الأمل فى أن (جوفيل) قد يستطيع تحقيق بعض الأمنى الوطنية. وأما مبعث هذا الأمل، فكان اتصال (جوفيل) باللجنة التنفيذية للمؤتمر السورية الفلسطينى ووفدها (أو الوفد السورى) لدى عصبة الأمم فى

جنيف لحضور لجنة الانتدابات الدائمة، التى لها أن تبحث المسائل المتعلقة بالانتدابات ومنها الانتداب الفرنسى فى سوريا ولبنان. وكان فى رومة أن عقدت لجنة الانتدابات الدائمة هذه اجتماعاً علته خاصاً يبحث المسألة السورية، قدمت له اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى تقريرها عن "مسئولية عمال الانتداب فى إثارة ثورة جبل الدروز" وعن مطالب الوطنيين وهى إرسال لجنة تحقيق" تضع قراراً عن الموقف وتعيد إلى سورية السكينة والسلام وغلى جمعية الأمم سمعتها الحسنة". ثم إعادة النظر فى قرار عصبة الأمم الذى أعطى فرنسا حق الانتداب على سوريا حيث إن هذه الدولة "فشلت فى القيام بانتدابها". وأن تقرر العصبة إعطاء سوريا "استقلالها التام".

هذا التقرير قدم إلى لجنة الانتدابات فى ٤ فبراير ١٩٢٦ وفى ١٦ منه بدأت هذه أعمالها فى جنيف، وعندما فرغت من عملها فى ٦ مارس قدمت تقريرها إلى عصبة الأمم بعد يومين ولم يسفر ذلك كله عن شىء ينال من الأوضاع السائدة فى سوريا والتى يشكو منها الوطنيون السوريون. ثم اجتمعت لجنة الانتدابات اجتماعها العادى فى جنيف فى ١٧ يونيه ١٩٢٦، أى بعد تشكيل وزارة الداماد الثانية بايام معدودة، وحضر الوفد السورى الاجتماع، وحضره كذلك المفوض أو المندوب السامى الفرنسى (دى جوفنيل) الذى قدم تقريره عن الحالة يف سوريا. ولا يزال من عاصروا هذه الحوادث يذكرون كيف أن (جوفنيل) أثناء مناقشة لجنة الانتدابات له لم يتورع عن وصف رئيس الدولة السابق صبحى بركات بأنه كان مدفوعاً فى تصرفاته وأعماله "بشعور رئيس عصابة قديم"؛ ثم إنه كان فى هذه الجلسة، أن فسر (جوفنيل) حادث القبض على الوزراء الثلاثة الوطنيين واعتقالهم، وحل الوزارة التى شكلها أحمد نامى بعد شعر تقريراً من تأليفها، بأن رئيس الحكومة كان قد تمسك بتعيين هؤلاء "المتطرفين" فى وزارته "فنظم هؤلاء بالاتفاق مع العصابات" أى الثوار مؤامرة ضده.

أما هؤلاء "الثوار" فقد انتهزوا فرصة مرور الملك فيصل الأول ملك العراق في طريقه إلى أوروبا، وعزمه التوسط بين الثوار وفرنسا لحل القضية السورية، ورغبته - لذلك - في أن يتفق الزعماء الوطنيون على برنامج يتخذه الملك أساساً لوساطته - تقول: إن "الثوار" انتهزوا هذه الفرصة، فوضعوا ما صار يعرف باسم (الميثاق الوطني) في ٢٧ يونيو ١٩٢٦، يتضمن مطالب البلاد، وكانت عشرًا، تتلخص في اعتراف الحكومة الفرنسية باستقلال سوريا التام وبحقوقها في التمثيل الخارجي، وإنشاء الحكومة الوطنية المستندة على دستور تضعه جمعية تأسيسية منتخبة انتخاباً مباشراً بالاقتراع العام، وتحقيق الوحدة السورية، وإدخال الإصلاحات اللازمة في القضاء ونظام النقد، وإعلان العفو العام عن الجرائم السياسية، وإلغاء الغرامات الحربية، وتعويض منكوبي الثورة، وتحويل الانتداب إلى معاهدة بين فرنسا وسورية لمدة خمسة عشر عاماً، وإدخال سورية في عصبة الأمم.

ولقد كان هذا (الميثاق الوطني) هو الأساس الذي اجتمعت كلمة الزعماء الوطنيين على أن تقوم عليه المفاوضات مع الحكومة الفرنسية عندما سمحت هذه للوفد السوري بالحضور إلى باريس لهذه الغاية. وذلك أن (دي جوفنيل) كان أثناء إقامته في جنيف يتصل بالوفد السوري، وصار يعقد الفريقان الاجتماعات لبحث القضية السورية، فأذنت الحكومة الفرنسية للوفد بالمباحثة في العاصمة فقصد إلى باريس في يوليو، ثم طلب تعليمات من اللجنة التنفيذية، فاتصلت هذه بالزعماء السوريين الذين وافقوا جميعاً على (برنامج) يلتزم الوفد به في مفاوضاته، يتفق تماماً مع ما جاء في (الميثاق الوطني).

ولازم التوفيق المفاوضات حتى كاد يتم الاتفاق. ولكن لم تلبث أن غيرت فرنسا سياستها. فأوقفت المفاوضات، بدعوى إرجائها إلى حين يذهب إلى سورية مندوب سام جديد ليقوم بتحقيق شامل تبنى عليه حيثئذ الحكومة

الفرنسية قرارها. وبالفعل عين المسيو (هنرى بونسو) Poncot مندوباً سامياً سورية فى ١٤ أغسطس ١٩٢٦. وكذبت الحكومة الفرنسية فى بلاغ رسمى وجود مفاوضات أو مباحثات بينها وبين الوفد السورى. وبادر الوفد السورى من جانبه - وكان قد وصل إلى جنيف - بإرسال بلاغ إلى الصحف المصرية فى ٥ سبتمبر "يشفع هذا التكذيب بتكذيب آخر" ينفى فيه ادعاء الحكومة الفرنسية أن مفاوضات ما لم تقم بينها وبين الوفد السورى.

وعندما عقدت عصبة الأمم اجتماعها السنوى العام فى سبتمبر ١٩٢٦، قدم الوفد السورى (استغاثة) بسببها فيها بإيجاز الخطوات التى قام بها الوفد لتوفير عصبة الأمم فى مسألة الانتداب الفرنسى على سوريا، حتى أظهر المندوب السامى (دى جوفنيل) روحاً من "المسألة" جعل الأمل كبيراً فى إنكان الوصول إلى اتفاق أثناء المفاوضات الأخيرة فى باريس لولا أن "وقعت أمور غامضة" أوقفت المفاوضات "بغية" ويعزو الثورة الناشبة فى البلاد إلى سياسة الانتداب الفرنسى القائمة على "أعمال العنف والشدة وإحداث الفرقة بين طوائف الأهلىن والقضاء على كل حرية"، ويطلب إجراء تحقيق. وذلك حتى تضع العصبة حداً لسفك الدماء التى لا ترضى أن تظل هذه تسفك باسمها. واحتج الوفد لدى عصبة الأمم فى ٢ أكتوبر على قرار مجلسها فى اجتماعه الأخير إمهال فرنسا فترة من الزمن لتقدم مشروع دستور لسوريا.

فى ١١ أكتوبر ١٩٢٦ وصل (بونسو) المندوب السامى الجديد إلى بيروت، ثم قصد إلى دمشق. وظن كثيرون أن تغيير المندوب السامى سوف يصحبه تغيير فى سياسة الانتداب، قد يؤدى إلى التفاهم مع الوطنىين. على أساس استجابة سلطات الانتداب لمطالب أهل البلاد وإنشاء الحكومة الوطنىة التى تشرف على إجراء انتخابات تمهيداً لوضع الدستور. إلى غير ذلك من سائر بنود (الميثاق الوطنى) المعروفة.

ولكن (بونسو) لم يتعرض بشىء لحكومة الداماد أحمد نامى، وبدلاً من

إدخال أى من التغييرات المطلوبة، عمد إلى اتباع ساسية "التأمل" والبحث والدرس، فتلقى رغبات اللجنة التنفيذية للوفد السوري الفلسطيني فى ٢ ديسمبر ١٩٢٦، وتسلم مطالب الدمشقيين فى ١٧ منه، وقضى الوقت متنقلاً بين بيروت وباريس بحثاً وراء حل للقضية السورية كما يقول. وانتهى بعد عشرة شهور إلى إصدار تصريح أو بيان فى يوليو ١٩٢٧ عن السياسة التى ينتوى اتباعها فى تنفيذ الانتداب، قضى على كل أمل فى التفاهم بين حكومة الانتداب والوطنيين. كان من أثره أن عقد الوطنيون (مؤتمراً) فى بيروت من ٢٣ إلى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٧ برئاسة هاشم الأناسى أصدر بياناً نقد فيه تصريح أو بيان المندوب السامى، من حيث إنه لم يحقق شيئاً من آمال الأمة التى انتظرت أن تنال مطالبها سريعاً فى الوحدة والدستور والاستقلال، واستبداد معاهدة بين البلدين بنظام الانتداب.

وكان بعد صدور هذا البيان عن (المؤتمر) الذى انعقد فى بيروت أن أخذ (بونسو) الذى التزم خطة المماثلة والتسويق زمناً طويلاً يسعى لإجراء تغيير. لا يقصد به - فى واقع الأمر - حل القضية السورية على أساس مطالب الوطنيين. بل إيجاد ثغرة فى صفوف الوطنيين إذا استطاع ذلك، وإنشاء حكومة قد يرضى عنها فريق منهم أو أخرى قد تكون أكثر حزمًا وأشدّ دهاء من حكومة الداماد أحمد نامى فى تعاونها مع سلطات الانتداب لصالح هذه السلطات ذاتها. فشرع (بونسو) يتفاوض مع الوطنيين عن طريق هاشم الأناسى وإبراهيم هنانو، ومع الشيخ تاج الدين الحسنى. وأذنت هذه المباحثات بانتهاء عهد حكومة أحمد نامى.

أما هذه الأحداث، فلا شك أنها تركت أثراً كبيراً فى نفس بشير السعداوى "مستشار" رئيس الدولة، الداماد أحمد نامى؛ وصديق الوطنيين الذى كان يرى فى بقاء حكومة الداماد إيذاء للقضية الوطنية، طالما أن الداماد عاجز عن الاتفاق مع الحكومة الفرنسية على تنفيذ ذلك البرنامج الذى تضمنه بيان حكومته إلى (الشعب السوري الكريم) غداة تأليف وزارته الأولى فى

مايو ١٩٢٦. وهو البرنامج الذى وافق عليه الوطنيون - كما ذكرنا - وكان يتضمن كل المطالب الوطنية، على النحو الذى ذكره كذلك (الميثاق الوطنى) فى ٢٧ يونيه من السنة نفسها، ولقد سعى كثيراً بشير السعداوى بعد اعتقال الوزراء الثلاثة لمعروفين وغيرهم من الوطنيين لدى الداماد لحمل سلطات الانتداب على الإفراج عنهم، ولكن كل مساعيه ذهبت سدى، وبقي هؤلاء فى الحبس أكثر من ستة حتى انتهت الثورة. واعتقد بشير السعداوى، سواء فى عهد (جوفيل) أو فى عهد (بونسو) أى الفرنسيين وقتئذ لا يريدون بحال من الأحوال إنهاء الانتداب على سورية أو التخلّى عن سلطاتهم التى خولها لهم صك الانتداب، أو تلك التى اغتصبوها اغتصاباً لأنفسهم ضد قواعد الانتداب المقررة ذاتها، وود بشير السعداوى لو أن صديقه أحمد نامى كان أقل تشيياً بالبقاء فى الحكم أو أقل تصديقاً لوعود الفرنسيين أو بمنأى عن التأثير بإغرائهم. ومن هذا الإغراء سؤال المندوب السامى (بونسو) له أن يضع برنامجاً لتشكيل حكومة فى المستقبل، على أنه يختار لها بين الملكية والجمهورية النظام الذى يؤثره هو - أى الداماد نفسه - فأشار عليه بشير السعداوى أن يمتنع عن إبداء أى رأى فى الموضوع الذى يجب أن يأل الفرنسيون فيه أهل البلاد أنفسهم، لأنهم وحدهم أصحاب الحق فى اختيار نوع الحكم الذى يريدونه ملكياً كان أم جمهورياً، وذكر بشير السعداوى أن غرض الفرنسيين من سؤاله إنما هو زيادة إغراء الداماد على الاستمرار فى التعاون معهم، وقد يكون من ناحية ثانية مجرد رغبتهم فى استطلاع رأيهم ليعرفوا مدى أطماعه. لأن الفرنسيين لا يبدو أنهم يريدون حقيقة استبدال الملكية أو الجمهورية بالانتداب، والتخلّى عن سلطاتهم فى سورية. ولكن الداماد لم يستمع لنصح صديقه، وأصر على بيان رأيه لهم، وهو إنشاء (إمارة) سورية.

وخيل إلى أصدقاء أحمد نامى والملتفين حوله أنهم إذا استطاعوا إنشاء حزب يناصر حكومة الداماد، قويت هذه الحكومة وضمن لها البقاء

والاستمرار، فسعوا بعد تأليف الوزارة الثانية لتأليف هذا الحزب. وكان القائمون على ذلك: واثق المؤيد وزير الداخلية، ثم طه المدور ورشدي باشا الصفدي وكان من كبار رجلا الجيش العثماني قديماً، ومختار الجزائرى وكان معروفاً بنزعة الفرنسية المتطرفة. وقد طلب هؤلاء بشير السعداوى للاجتماع بهم، وبينوا له غرضهم وهو - كما قالوا - تأليف حزب للتفاهم فى قضية البلاد ثم أخرج واثق المؤيد برنامجاً مكتوباً للحزب المزمع تأسيسه، جال فى خاطر بشير السعداوى أنه كان بالاتفاق مع سلطات الانتداب الفرنسى. وحرص أصحاب هذا البرنامج على أن يشمل جوهر المطالب الوطنية، حتى يبدو الحزب أميناً على مصلحة البلاد. ولذلك لم يجد بشير السعداوى لأول وهلة ما يعترض عليه فى هذا البرنامج. حتى إذا قال الحاضرون إنهم يعتبرون أنفسهم مؤسسين للحزب، وطلبوا توقيع السعداوى على البرنامج المعروض بوصفه من مؤسسى الحزب كذلك لم يججد بأساً من التوقيع عليه. وكاد يطمئن إلى أن العمل لإنشاء هذا الحزب لم يكن من وحي الفرنسيين. ولكن لم يلبث أن حدث ما بدد هذه الأوهام نهائياً، وأظهر السعداوى على الغرض الحقيقى من مسعى واثق المؤيد وصحبه ذلك أن الأمير مختار الجزائرى جاءه فى اليوم التالى ليقول له: إن مدير الاستعلامات الفرنسى فى دمشق ويدعى "القومندان مترو"، ينتوى زيارته ليشكره على الفكرة التى قال إن السعداوى دعا إليها لتأليف الحزب. فكانت مفاجأة للسعداوى الذى لم يفكر أو ينشط لتأسيسه والذى لم يكن يخدم الداماد لأنه "فرنسيّ بل لاعتقاده أن فى ذلك خدمة للبلاد ورعاية لمصالحها، والذى تيقن الآن أن الفرنسيين هم الذى أرادوا تأسيس الحزب وأوحوا بالفكرة لصنائعهم. ولم يتصور بشير السعداوى يوماً أن قيامه بدور المستشار لرئيس الدولة وهو صديقه، سوف يجعله من عداد صنائع الفرنسيين أو عملائهم.

وقضى بشير السعداوى ليله مؤرقاً يرقب طلوع النهار حتى يتلافى ما صنع، فما كادت تشرق الشمس حتى أسرع إلى شكرى باشا الصفدي فى

بيته، فأثار دهشة الرجل بتبكره، ثم تزايدت هذه الدهشة عندما اندفع السعداوى بلا مقدمات يتوسل إليه أن يعفيه من عضوية الحزب، ويلغى إمضاءه، فاعتذر الصفدى بعدم وجود البرنامج الذى يحمل الإمضاءات معه، ولكنه وعد أن يأتى به. وبالفعل بر الصفدى بوعد فاحضر للسعداوى وريقة ملفوفة بها إمضاءه، متزعة من البرنامج، وقال إنه يريد قبل إعطائه هذه الوريقة أن يقص عليه قصة صغيرة: جاء إنجليزى إلى باريس ثم دخل مطعمًا ليأكل وكان عابس الوجه، فلاحظ عبوسه جماعة من الفرنسيين على مائدة مجاورة وأراد أحدهم أن يلهو، فاقتطع من الخبز لقيمة كورها ثم رمى بها الإنجليزى فأصابت رجله، فتناولها هذا ووضعها فى طبقه، فكرر الفرنسى عبثه، فأصابته اللقمة الثانية فى يده وتناولها الإنجليزى ووضعها فى الطبق كذلك، وكرر الفرنسى للمرة الثالثة هذه الفعلة، ووضع الإنجليزى قطعة الخبز فى "صحنه" بعد أن أصابت صدره. فلما انتهى لهو الفرنسى، سأل الإنجليزى واحدًا من النادل عن اسمه وعنوانه، ورجع إلى بلاده. وأخذ يتعلم الرماية حتى أتقنها. وعندئذ عاد إلى باريس، وطلب الفرنسى للمبارزة وأصابه فى رجله. ثم جاء باريس مرة ثانية وطلبه للمبارزة فأصابه فى يده، ثم جاء باريس مرة ثالثة، فوجد الفرنسى يتهاى للزواج ولكن ذلك لم يمنعه من طلبه للمبارزة، وتوسط أصدقاء الفرنسى ليصفح الإنجليزى عنه لأن إصابة صديقهم فى صدره هذه المرة لا بد أن تكون قاتلة، فقبل الإنجليزى رجاءهم كما لى دعوتهم لحضور زواج صديقهم. وأخذ المدعوون فى حفلة العرس يقدمون الهدايا الثمينة للعروسين، وعندئذ تقدم الإنجليزى بقطعة الخبز الباقية موضوعة فى طبق وقال: هذه هى هديتى! واستطرد شكرى الصفدى يقول: فكأن الإنجليزى قد أهدى الحياة لهذا الفرنسى. وإنى بتقديمى هذا "الإمضاء" الذى هو بمثابة الحياة لك، إنما أهديك أنا الآخر هذه الحياة.

على أن فشل حكومة الداماد فى إقناع الفرنسيين بتنفيذ مطالب الوطنيين، وفشلها بالتأليل فى إرضاء هؤلاء واستمالتهم إلى مؤازرتها؛ ثم

استمرار الثورة التي استبسل في آخر معاركها في الغوطة سعيد العاصي والأمير عز الدين الجزائري (في أغسطس ١٩٢٧)، أوجد اضطراباً وبلبله في الأفكار نتيجة للشعور القوي بعدم استقرار الموقف في سوريا. ولقد كان من مظاهر هذا الاضطراب الذهني أن الأمير خالد الجزائري وهو أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، وكان ضابطاً في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى " صار يفكر في إجراء انقلاب يودى بسلطان الفرنسيين ويعطيه الحكم في البلاد. وكان ظاهراً أن انقلاباً كهذا لو حدث لكان نصيبه الفشل بالنظر للقوات العسكرية التي يحتفظ بها الفرنسيون في سوريا، فضلاً عن إلحاق الأذى البالغ بأهل البلاد، الذين من المتوقع أن يتهمهم الفرنسيون بالتآمر مع مدبري الانقلاب عليهم. ولكن الانقلاب لم يحدث. والسبب في ذلك أن صاحبه أراد أن يستميل إلى معاونته في هذه الحركة بشير السعداوى الذي اتضح له خطورة هذه الخطوة وعدم جدواها. فحال دون وقوع الانقلاب.

ويروى بشير السعداوى قصة ما حدث، فيقول: إن الأمير خالد الجزائري جاء ذات يوم يسأله أن يصحبه إلى المسجد الأقصى بدمشق لبتحدث إليه في موضوع خطير؛ فلما صارا في المسجد، أخذ خالد الجزائري يميظ اللثام عن تدبير يريد به القضاء على الجيش الفرنسي في سوريا وإنهاء مقاومة الفرنسيين على أساس أنه حفيد للأمير عبد القادر الجزائري ولأسرته نفوذ عظيم في الجزائر، وفي وسعه لذلك أن يستميل إلى خطته الجنود والضباط المغاربة في الجيش الفرنسي الرابض في سوريا، ونسبة هؤلاء لا تقل عن سبعين في المائة من مجموع الجيش، وأنه متصل اتصالاً وثيقاً بالضباط المغاربة ولا يتوقع أن يخالف هؤلاء أو جنودهم له أمراً. واندعش بشير السعداوى لهذا التدبير الذي سر له سروراً عظيماً لأنه صادف هوى في نفسه. ولكنه لم يشأ أن يقطع برأى في التو والساعة. وكان خالد الجزائري قد سأله رأيه وهل هو موافق على مشاركته في العمل. وطلب بشير السعداوى - نظراً لخطورة المسألة - أن يمهل صاحبه أربعاً وعشرين ساعة، وفي نفس المكان في اليوم

التالى وبعد صلاة الظهر، أبدى بشير السعداوى موافقته على المشروع ولكن بشرط واحد، هو أن يعرف قبل كل شىء، ما إذا كان الأمير بعد القيام بهذه الحركة بالاشتراك مع صاحبه، سوف يسلم زمام الأمر لأهل البلاد الذين يحاربون الآن لإنقاذ الوطن من الانتداب أم أنه إذا نجح الانقلاب لا يعود يرضى بالتخلي عن السلطة ويحرص على أن يتولى هو الأمر، أى أن يكون الحكم له وحده. فأجاب الأمير: إنه وصاحبه يتوليان الأمر. وعندئذ قال بشير السعداوى: إن هؤلاء المجاهدين الذين يقاتلون الآن من أجل حرية بلادهم يبذلون تضحية جسيمة من أنفسهم ومالهم لبلوغ هذه الغاية، فهل يدور فى خلد إنسان أنهم سوف يرضون بأن يتولى الأمر فيهم خالد الجزائرى وبشير السعداوى؟ وإذا كان الأمر كذلك، فسوف يقف حتماً خالد الجزائرى وصاحبه موقف الخصومة من أهل البلاد. وهل فى وسع الأمير حينئذ بالاستناد على تلك الحفنة من الجنود المغاربة أن يصمد أمام مقاومة أهل البلاد الذين كانوا يحاربون فرنسا؟ وثمة مسألة أخرى، هل يعتقد الأمير أن فرنسا بعد هذا الانقلاب الذى يقضى على جيشها سوف تقف مكتوفة الأيدي وتقنع بالانسحاب وعدم العودة إلا البلاد؟ أو من المتوقع أن تبعث بجيوشها للانتقام ولاسترداد سلطانتها، وحينئذ يجد الأمير الجزائرى نفسه بين شقى الرحى: أهل البلاد من ناحية، وجيوش الفرنسيين من ناحية أخرى. أما الأمير فقد راح ينفى أن فى وسع فرنسا إرسال أية جيوش إلى الشام. ودعواه فى ذلك أنه متصل بجماعة الاشتراكيين فى فرنسا وقد أكد له هؤلاء أنهم سوف يحولون دون إرسال هذه الجيوش ورد الأمير على اعتراض السعداوى الآخر بضرورة أن يتولى الوطنيون أهل البلاد الحكم، بأنه - أى الأمير - وبشير السعداوى " وطنيان " كذلك لأنهما عربيان ومسلمان. فكرر السعداوى اعتراضه بأن هذه مسألة تتناول فى الواقع حقوق أهل البلاد ولا يمكن لذلك أن يصل الإنسان إلى أمر قاطع فيها بسرعة. ويجدر لذلك إرجاء تنمة الحديث بشأنها إلى فرصة أخرى.

وعرف بشير السعداوى أن الأمير خالد الجزائري، إنما يعول في هذه الحركة على ضابط جزائري في الجيش الفرنسي يدعى (عطاف)، من المترددين على أحد كبار الجزائريين الوطنيين في دمشق، عمر فرحات، الذى كان يتصل في هذا الحين بالثوار السوريين الذين يكتبون إليه لإمدادهم بما يحتاجون إليه من متجره (بسوق الحميدى)، وعرفه بشير السعداوى معرفة طيبة، حتى أنه كان يتسلم منه هذه الكتب لإخراجها سرّاً من محل تجارته حتى يأتى عمر فرحات ليتسلمها من السعداوى فى بيت الداماد، فلا يتعرض لتفتيش أو مراقبة ولكن بشير السعداوى بالرغم من هذه الصداقة لم يستطع مفاتحة عمر فرحات فى مسألة الأمير خالد الجزائري.

وأسرف خالد الجزائري فى الإلحاح على بشير السعداوى أن يساعده على إبراز فكرة الانقلاب إلى حيز الوجود، وبقي ساتناده قوياً على جماعة الاشتراكيين فى فرنسا الذين يزعمون أنهم ضد الاستعمار. وفى آخر الأمر، عرض عليه بشير السعداوى أن يذهب سويّاً إلى شمال إفريقية إذا كان لا يزال مصمماً على الجهاد وتخليص الأوطان من شرور الاستعمار. فالشمال الأفريقى هو منطقة نفوذ الأمير الجزائري. وفى وسعهما هناك أن يعملوا، إما ضد إيطاليا وإما ضد فرنسا فلا يقاتلان إلا دولة واحدة فى وقت واحد حتى لا تتعثر جهودهما، على أن يطلبوا من الاشتراكيين الفرنسيين نجدة منهما بمجرد دخولهما إلى الصحراء. واقتنع الأمير خالد بالفكرة، وبالفعل غادر دمشق إلى فرنسا للاتصال بأصدقائه الاشتراكيين هناك، وبقي بها مدة، وبعد حوالى شهرين جاء إل دمشق "بلا نتيجة". ذلك أن الاشتراكيين قالوا إنهم سيدرسون هذه المسألة الجديدة حتى إذا وصلوا إلى قرار كتبوا إليه بنتيجة بحثهم. وبهذه الصورة أسدل الستار على مشروع الانقلاب "الجزائري".

وكان عمر فرحات وغيره من الجزائريين، وعلى وجه الخصوص إبراهيم مجاهد، من الذين استأثرت القضية الوطنية - قضية سوريا - بكل تفكيرهم ونشاطهم، فكانوا من رجال الكتلة الوطنية المعروفين. ولقد عقد هؤلاء من

زملائهم الموجودين بدمشق: عفيف الصلاح، وفائز الخورى، اجتماعات كثيرة. وحضر بشير السعداوى هذه الاجتماعات التى كان البحث يدور فيها دائماً حول أجدى الطرق لإقناع المندوب السامى الفرنسى الجديد (هنرى بونسو) بإجابة رغبات الوطنيين المعروفة، واستطلع السعداوى رأى عفيف الصلح فى الموقف، واشتهر عفيف الصلح بإصالة رأى بين إخوانه، ولرأيه وزن بينهم. فكان من قوله: إن الداماد أحمد نامى معترف له بأنه شخصية نظيفة ووطنية، ولكن تنقصه الخبرة، ومعرفة أساليب المستعمرين. ولقد كنا عضدناه على أساس البرنامج الذى تقدم به إلى الحكومة الفرنسية، ولكن شيئاً من هذا البرنامج لم ينفذ وأما الحكومة التى تألفت بعد ذهاب حكومته الأولى: فليست فى نظرنا أهلاً لأن تسعى فى تحقيق آمال البلاد، وفى غير مقدورنا فعل ذلك، ونحن ككتلة وطنية كنا قد اتفقنا مع الداماد على أن يتولى هو رئاسة الدولة، ونحن اليوم نظل على اتفاق معه إذا ارتضى تعيين وزراء فى حكومته نشير عليه نحن بتعيينهم لمعاونته. وارتاح بشير السعداوى لهذا رأى، باعتبار أنه الحل الذى علاوة على إرضائه الكتلة الوطنية، فتتخلى هذه عن معارضتها لحكومة الداماد، وتعمل بدلاً من ذلك على التعاون معه ومؤازرته، فإنه يفسح الطريق لرجال الكتلة عند تأليفهم الوزارة ليعالجوا مسألة تنظيم العلاقات مع فرنسا على أساس المطالب الوطنية. وفى وسعهم بفضل ما أتورا من حنكة سياسية وخبرة عملية من ناحية، وما تمتعوا به من سمعة ونفوذ بين مواطنيهم بسبب جهادهم الوطنى الطويل، أن يظفروا من فرنسا بما تعجز حكومة من العناصر "المعتدلة" أو التى تدين "بواقعية" الوضع المستمد من الانتداب الفرنسى عن أن تظفر به. أضف إلى هذا كله أن الداماد أحمد نامى، وهو رجل شركسى، غريب عن البلاد، ولا يجوز لذلك - فى نظر بشير السعداوى - أن ينفرد بالسيطرة على الأمة السورية، بل من واجبه أن تتحمل مسئولية الحكم وتقرير المصير وزارة من زعماء البلاد السياسيين المشهود لهم بالوطنية الخالصة.

وذهب بشير السعداوى مع عفيف الصلح يعرضان الفكرة التى صرح بها الأخير، على الأمير طاهر الجزائرى - ابن عم الأمير خالد وكان معروفاً بالاتزان ورجاحة العقل - ولقيت الفكرة تعصيماً منه. وعندئذ اعتقد بشير السعداوى أن الفرصة قد صارت مواتية لإنقاذ صديقه الداماد أحمد نامى من الحرج الذى تزايد شعوره به أخيراً عندما أخفقت كل المساعى لإقناع المندوب السامى الفرنسى بتحقيق شىء من برنامجيه القديم ليتمكن جذب الوطنيين إلى جانبه. وتلك فكرة - كما ذكرنا - يخدم تحقيقها المصلحة الوطنية.

ولذلك بلغ من حماس السعداوى لفكرة تأليف وزارة من الوطنيين، أنه عندما قابل الداماد فى نفس الليلة - وكان السعداوى ينزل مع الداماد فى مكان واحد، ويسأل الداماد لماذا تأخر صديقه وأين كان - باغته بأنه جاءه ينبأ عظيم. ذلك أن الداماد يعلم - كما استمر السعداوى يقول - أن الكتلة الوطنية تقف موقف الخصومة منه فى البلاد، ويعلم أن الصحافة كذلك ضده، وأن أكثر الرأى العام ضد حكومته. ولكن هناك مخرجاً من هذا كله، لأنه - أى بشير السعداوى - عرف من مباحثاته مع بعض الشخصيات من رجال الكتلة، أن هؤلاء يؤيدون الداماد ويكونون معه، ويجذبون لتأييده الرأى العام فى البلاد، إذا هو وافق على تغيير وزارته، والإتيان بوزارة يشيرون عليه بها، تعاونه على تحقيق برنامجيه.

ولكن الداماد لم يتلق هذا "النبأ" بالاهتمام الذى توقع بشير السعداوى أن يتلقاه به فسأله فى صبيحة اليوم التالى عن السبب فى عدم مبالاته بما أبلغه إياه مع علمه أنه يستحيل عليه أن يستمر فى حكم البلاد بغير أهلها. فكان جواب الداماد: إن رجال الكتلة الوطنية هؤلاء قد أظهروا خصومتهم لفرنسا، وفرنسا لا يمكن - لذلك - أن تتعاون معهم، ولكن هى تؤيدنى وأنت تعلم أنى رجل وطنى وأنى أسعى لما فيه خير البلاد. فحذره السعداوى من أن فرنسا لا يمكن أن تساعد على تحقيق ما يتمناه هو - أى الداماد - من الخير

للبلاد وخصوصاً إذا كانت ترى أن الرأي العام منصرف عنه. ولكن الداماد تمسك برأيه. فسأله السعداوى أن يحفظ ما دار سرّاً بينهما فلا يطلع عليه أحداً من وزرائه حتى تحين الفرصة للقطع فى هذا الموضوع برأى نهائى، إما سلباً وإما إيجاباً.

ولم يحفظ الداماد السر، فكان أول من عرف باتجاه الوطنيين الجديد الفرنسيون أنفسهم. وعلى غير ما ينتظر الداماد لم يقف هؤلاء إلى جانبه، ولم يرفضوا المباحثة مع الوطنيين، بل إنهم لم يلبثوا بعد طول الممثلة والتسويق منذ تعيين المندوب السامى الجديد (هنرى بونسو)، أن رأاهم على إجراء تغيير يخرج من الحكم بسببه الداماد نفسه فى الظروف التالية.

فيذكر بشير السعداوى أنه لم ينقض يومان أو ثلاثة على حديثه مع الداماد حتى وجد مدعواً على الغداء الجنرال كاترو Catroux مدير الاستعلامات الذى بادر بمصافحة بشير السعداوى ومناداته باسمه، الأمر الذى أدهش هذا الأخير لأنه كان بعيداً دائماً عن الاتصال بالفرنسيين ولا يحضر اجتماعاتهم أو حفلاتهم. ثم انفراد الداماد بالجنرال كاترو بعد الغداء فى غرفته. وبعد بعض الوقت طلب الداماد بشير السعداوى، ثم فوجئ السعداوى بطلب الداماد منه أن يقص عليهم قصة أولئك الجماعة من رجال الكتلة الوطنية الذين اجتمعوا به، وأن يذكر رأى الذى أبدوه له. فلما ذهبت الدهشة، ذكر بشير السعداوى فى إيجاز أن رأى العام ضد الحكومة وأن الكتلة الوطنية تريد حكومة وطنية فى وسعها التفاهم معهم على ما فيه مصلحة البلاد "وذلك هو ما أبلغته الداماد أحمد نامى رئيس الدولة". وعندئذ انبرى (كاترو) يقول وكان يعرف العربية: نحن لا يهمنا أمر الكتلة، فهؤلاء أناس يدأبون على المعارضة وإثارة الشغب فقط، ونحن إنما نعتمد على شخصية الداماد وتأييده بكل قوانا. لم يشأ بشير السعداوى مناقشة الرجل، ولكن بعد ذهاب كاترو أخذ بشير السعداوى يلوم الداماد على إفشائه السر

وإبلاغه فكرة الوطنيين إلى الفرنسيين الذين لا يريدون إقامة حكومة في البلاد تتألف من عناصر وطنية مخلصة. فأجاب الداماد: إنه مع محبته لبلاده فقد تعهد للفرنسيين كذلك بأن يسر إلى جانبهم مع المحافظة على وطنيته. فحذره بشير السعداوى من مغبة الاعتماد على كلام (كاترو) وهو فرنسى محب لبلاده ولدولته الاستعمارية. والذى - إذا صح أنه يؤيد حقيقة - قد يأتى يوم ينقل من سوريا، أو أن سياسة فرنسا قد تتغير تجاه الداماد.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تكلم الداماد فى هذا الموضوع نفسه مع وزرائه. ففوجئ بشير السعداوى بوزير الحقانية يوسف الحكيم يتحدث إليه فى الفكرة التى أبدأها رجال الكتلة الوطنية، فقال: إذا كان هؤلاء يريدون بقاء الداماد كما يدعون، فالواجب يقتضيهم أن يعلنوا تأييدهم لحكومته على أساس البرنامج الذى قبل الداماد رئاسة الدولة بناء على موافقة المندوب السامى الفرنسى (دى جوفيل) عليه. فكان جواب بشير السعداوى حاسماً إذ قال: إنى لست سوريا ومع ذلك فلو أنك طلبت منى الآن أن أؤيد حكومة الداماد على ما هى عليه لما فعلت. وتألم بشير السعداوى من إنشاء الداماد للسر الذى ائتمنه عليه. فلما راح يلومه مرة ثانية على إذاعة فكرة الوطنيين بين وزرائه، قال الداماد: هذا وزير من وزرائى لا يمكن كتمان أى أمر عنه.

ولما كان يسأل كل من عفيف الصلح والأمير طاهر الجزائرى عن نتيجة "العرض" الذى أبلغته الكتلة الوطنية بطريق بشير السعداوى إلى الداماد أحمد نامى، فقد اضطر السعداوى فى آخر الأمر إلى إبلاغهما أنه لم يصل إلى نتيجة ما فى هذه المسألة.

ثم لم تلبث الأيام أن حققت ما كان يتوقعه بشير السعداوى. فقد استدعى الجنرال كاترو إلى باريس، وجاء سكرتير جديد للمسيو (بونسو)، ثم سرعان ما دارت مباحثات الفرنسيين مع رجال الكتلة الوطنية بين (بونسو) وبين هاشم الأتاسى وإبراهيم هنانو، فى الوقت الذى باحث فيه المندوب

السامى، كذلك الشيخ تاج الدين الحسنى من "المستقلين" وعرف بشير السعداوى بهذه المفاوضات التى كانت تدور سرًا، وعلم من رجال الكتلة أنهم وجدوا من الجانب الفرنسى ما قد يمهد للاتفاق معهم حيث اعترف الفرنسيون بضرورة إنشاء حكومة تشرف على إجراء انتخابات لجمعية تأسيسية مهمتها وضع دستور للبلاد.

ومرة أخرى أشار بشير السعداوى على الداماد أحمد نامى بالاستقالة قبل أن يجبر عليها إجبارًا. ووافق الداماد على هذا رأى. ولكن كان قد سبق السيف العزل حيث أشار عليه (بونسو) بوجوب الاستقالة قبل أن يتهاى الداماد لتقديمها، فاستقال فى ٨ فبراير ١٩٢٨. وبعد أربعة أيام كان قد اتضح أن محاولات الاتفاق مع الوطنيين أخفقت. فعين الفرنسيون لرئاسة الدولة الشيخ تاج الدين الحسنى، وعهدوا إليه بإنشاء حكومة مؤقتة تتولى إدارة شئون البلاد وتشرف على إجراء الانتخابات المنتظرة. ورجع الداماد أحمد نامى إلى بيروت، أما بشير السعداوى فقد بقى فى دمشق.

وكان الفرنسيون قبل أن يعهدوا بالحكومة إلى الشيخ تاج، قد صاروا يترددون على الشريف على حيدر، ويلوحون له بتولى رئاسة الدولة هذه المرة. وكان الفرنسيون - كما عرفنا - قبل تولية الداماد أحمد نامى يلوحون بهذا المنصب لولده الشريف عبد المجيد. ولقد اعتقد الشريف على حيدر أن الفرنسيين صادقون فى وعودهم، وقوى أمله فى أن الحكم صار قاب قوسين أو أدنى، حتى أنه وولده الشريف عبد المجيد أخذوا يفكران فى اختيار الذين يصح الاعتماد عليهم فى الحكومة المنتظرة. وعرف بشير السعداوى ذلك من الشريف عبد المجيد نفسه الذى أخبره أن والده الشريف على حيدر ذكر اسم السعداوى من بين الذين يرجى تعاونهم معه، وأن الشريف على حيدر أصر على التمسك به بالرغم من اعتراض ولده بسبب انتماء السعداوى إلى الداماد أحمد نامى، لأن هذه الصلة التى بينه وبين هذا الأخير، لا يجب أن تحول

دون إخلاص السعداوى للشريف على حيدر فى الوقت الذى يخلص فيه الود لصديقه أحمد نامى . وينفى هذا الاهتمام باختيار معاونيه ما صار يدعيه أصدقائه من أن الشريف على حيدر لم يكن ليأبه بهذه العروض من جانب فرنسا لأسباب عدة منها اضطراب الموقف السياسى فى سوريا وما كان يبدو من عجز الفرنسيين الظاهر عن الوصول إلى رأى حاسم فى النزاع السورى الفرنسى، بينما تميز عهدهم من بداية الانتداب إلى الوقت الحاضر بقيام سلسلة من الثورات الخطيرة. على أن أسباباً أخرى كانت كفيلة بإقناع الشريف على حيدر بأن الفرنسيين جادون هذه المرة فى عروضهم التى لا مناص من أن تستأثر ببعض اهتمامه إن لم يكن به كله، من ذلك أن المندوب السامى (بونسو) أجاز فى أوائل نوفمبر ١٩٢٦ نشر تقرير جاء فيه أن العلاج الوحيد لكل هذه الأدواء التى تشكو البلاد منها إنما يكون فى إدخال نظام الحكم الملكى، لأن الملكية - على نحو ما ذكر التقرير - هى وحدها النظام الذى يتفق والعقلية الإسلامية ويتلاءم مع الخلق العربى. وإلى جانب ذلك راح المسئولون الفرنسيون يؤكدون أن عودة الرخاء إلى سوريا مرتين باختيار أحد الأشراف من سلالة الرسول ﷺ لرئاسة الدولة. وليس غير الشريف على حيدر نفسه من هو أنسب لهذا المنصب. أضف إلى هذا كله أن تركيا كثيراً ما عمدت إلى التدخل فى صالحه لدى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس، حتى صار معروفاً فى كل مرة يذاع اسم الشريف على حيدر كأحد المرشحين لرئاسة الدولة السورية، أن النفوذ التركى فى الدوائر الفرنسية هو المسئول إلى حد كبير عن هذا الترشيح والثابت أن الفرنسيين عرضوا رئاسة على الشريف على حيدر عندما صح عزمهم على تغيير حكومة الداماد أحمد نامى. وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٢٧. وسواء اعتذر الشريف على حيدر عن قبول هذا المنصب واقترح اختيار ولده الشريف عبد المجيد بدلاً منه أم أن الفرنسيين كانوا ييغون من عروضهم المتكررة هذه الاحتفاظ "بصدقة" الشريفين على حيدر وعبد المجيد و "ولائهما" لهم حتى إذا قر الرأى على إنشاء الملكية فى سوريا

اختاروا أحدهما ملكاً لها - ومن المعروف أن الفرنسيين ظلوا يلوحون للشريفين "بعرش" سوريا أو رئاسة الدولة، حتى انتهى الأمر إلى إقامة الجمهورية في سوريا في عام ١٩٣٢ - فالذى حدث هو أن الفرنسيين عهدوا - كما عرفنا - إلى الشيخ تاج الدين الحسنى في ١٢ فبراير ١٩٢٨ بتشكيل الحكومة الجديدة.

والشيخ تاج من دمشق، والده المحدث المشهور الشيخ بدر الدين، وهو مغربي الأصل عرفه بشير السعداوى وإن كان قليل الصلة به. ولم يلبث أن انقطع عن زيارته كلية بعد أن ترك الداماد أحمد نامى الحكم. وكان من المنتظر بعد ذهاب أحمد نامى إلى بيروت وبقاء بشير السعداوى في دمشق، أن ينصرف السعداوى إلى الاهتمام بقضية طرابلس - برقة وكفى، لا سيما وأن السعداوى لم يلبث بعد خروج أحمد نامى أن أسس الدفاع عن القضية الطرابلسية البرقاوية (اللجنة التنفيذية) المشهورة في ظروف سوف يأتى الكلام عنها في موضعه. ولكن الانشغال بالقضية الطرابلسية البرقاوية لم يكن ليصرف بحال بشير السعداوى عن متابعة نشاطه مع الوطنيين في سوريا الذين عرفوا رسمياً من هذا الحين باسم الكتلة الوطنية. ولذلك من الحقائق البارزة في تاريخ هذه الحقبة من سيرة هذا الزعيم الليبي - ولقد كانت هذه الحقبة مليئة بالأحداث التى أفاد منها السعداوى خبرة وتجربة أضافهما إلى تجاربه السابقة - أن بشير السعداوى زل يسهم بقسط وافر فى الحركة القومية السورية وذلك بسبب عقيدته الراسخة بأن ربط القضية الطرابلسية البرقاوية بسائر القضايا العربية ضرورى ليس لإثارة العالم بمصير القطر الطرابلسى البرقاوى فحسب، بل ولأنه كان يرى - كما ذكرنا - أن من المتعذر على الليبيين وحدهم ودون مؤازرة الشعوب العربية والإسلامية لهم أن يتحرروا من نير الفاشية المستبدة وأن يضعوا حداً لطغيان حكومة موسوليني التى بدأت تنفذ فى ليبيا خطة استعمارية لحمتها وسداها إفناء الليبيين وإبادتهم.

وعلى ذلك فقد استمر بشير السعداوى يحرص على توثيق صلاته بالوطنيين فى سوريا وهم رجال الكتلة الوطنية، ومما تجب ملاحظته أن عقيدة هؤلاء الوطنية فى وجوب استنفاد حقوق البلاد والذود عن حرياتهما، وإنهاء الاستعمار والاستغلال الأجنبى، على أساس تحرير الوكن من كل سيطرة أجنبية، أو استبدال تحديد العلاقات مع الدولة المحتلة بالانتداب أو بأشكال السلطان والنفوذ الأخرى، إذا كان الاستقلال الكامل وإجلاء العدو من أرض الوطن مستعصياً - نقول إن عقيدة هؤلاء كانت تتفق وعقيدة بشير السعداوى نفسه.

أما المسألة الأولى التى واجهت الوطنيين فى سوريا، فكانت تقرير الدخول فى الانتخابات التى أعلنت حكومة الشيخ تاج إجراءها بالاتفاق مع المندوب السامى الفرنسى عقب تشكيلها فأذع الوطنيون فى ٢٨ مارس ١٩٢٨ منشوراً بقبولهم الدخول فى الانتخابات ولو أنهم لا يطمثون إلى سلامة هذه الانتخابات، لأن "الأوضاع الحاضرة ليست فى حالة تبعث على الاطمئنان" لسلامتها، ولأن أحكام قانون الانتخاب فى حاجة إلى التعديل. وفى الانتخابات التى جرت يوم ٢٤ إبريل ١٩٢٨ فاز الوطنيون فوزاً كبيراً أعطاهم الأكرية فى (الجمعية التأسيسية) التى كانت مهمتها وضع "القانون الأساسى النهائى للبلاد السورية" وهو القانون الذى قال عنه المندوب السامى الفرنسى فى البيان الذى أصدره قبل ذلك بمناسبة تشكيل الحكومة الجديدة، فى ١٥ فبراير، من الواجب أن يكون "ضمن نطاق الاتفاقات الدولية والصكوك المسئولة عنها فرنسا تجاه جمعية الأمم" على أساس "احترام الحقوق والواجبات المتبادلة الناشئة عن صك الانتداب (وتحديد هذه الحقوق والواجبات المتبادلة) باتفاقات تعقد فيما بعد"، أى فى معاهدة تحمل محل الانتداب.

وفى يوم ٩ يونيه من السنة نفسها انتخبت الجمعية التأسيسية، واختار أعضاؤها السيد هاشم الأناسى - من كبار رجال الكتلة الوطنية - لرئاسة

الجمعية، ثم شرعت تختار لجنة لوضع الدستور كان من أعضائها البارزين، إبراهيم هنانو الذى تولى رئاستها، وفوزى الغزى. وأعدت اللجنة مشروع الدستور وكان يتألف من ١١٥ مادة، نص على إنشاء الجمهورية البرلمانية التى تنتخب لها الجمعية التأسيسية أول رؤسائها، والتى تكون لها وزارة للاضطلاع بالمهام التنفيذية، وهيئة تشريعية من مجلس واحد لنواب الأمة. ومما يجدر ذكره أن اللجنة لم تنفرد بوضع مشروع الدستور، بل اتصل أعضاءها بسلطات الانتداب الفرنسى فى كل مرحلة، دفعاً لكل خلاف قد ينشأ مع الفرنسيين حول الدستور. وقد وافق هؤلاء فعلاً على مشروع الدستور حتى تحدد يو ٢٧ أغسطس لعرضه على الجمعية التأسيسية لمناقشته وإقراره.

ولكن الفرنسيين سرعان ما غيروا رأيهم فى هذا الدستور عندما وجدوا أنه يضيع السلطة من أيدي الفرنسيين الذين إلى جانب ذلك كانوا يتوقعون أصلاً أن يظفر الوطنيون فى الانتخاب بهذه الأثرية الكبيرة. ولذلك فوجئ المجلس فى اليوم التالى (٨ أغسطس) بصدر بلاغ فرنسى بأمر حذف ست مواد من الدستور، هى المواد ٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ١١٠، ١١٢، ترى السلطات الفرنسية أنها متعارضة مع مسئوليات فرنسا الدولية المتمثلة فى ضرورة تنفيذ الانتداب. وأما هذه المواد الست فكانت تتضمن النص على وحدة سوريا وإعطاء رئيس الجمهورية حق العفو الخاص، ثم حق عقد المعاهدات الدولية. "أما المعاهدات التى تنطوى على شروط تتعلق بسلامة البلاد. أو بمالية الدولة، أو المعاهدات التجارية أو سائر المعاهدات التى لا يجوز فسخها سنة فسة فلا تعد نافذة إلا بعد موافقة المجلس عليها"، وإعطائه حق اختيار رئيس الوزراء وتعيين الوزراء "بناء على اقتراح رئيسهم" وقبول استقالتهم، ثم حق استقبال الممثلين السياسيين، وتعيين الموظفين الملكيين والقضاة "ضمن حدود القانون". وهو الذى يرأس الحفلات الرسمية، وله كذلك أن يعلن بناء على اقتراح الوزارة الأحكام العرفية عند

حصول اضطرابات، " ويجب أن يعلم المجلس النيابى بإعلان الأحكام فوراً وإذا لم يكن المجلس مجتمعاً فيدعى على وجه السرعة.

ناقش المجلس البلاغ الفرنسى. وحمل الوطنيون حملة شديدة على هذا البلاغ، وكان خطبائهم فارس الخورى، وفائز الخورى وهما أخوان، وسعد الله الجابرى وفوزى الغزى وعابوا على الفرنسيين تدخلهم فى شئون الدستور الذى يجب أن يقرره أهل البلاد أنفسهم. وانبرى الشيخ تاج وجماعته - وكانوا قلة - يدافعون عن مقترحات الفرنسيين، وكان هؤلاء أرادوا إدخال اثنتى عشرة مادة على الدستور بدلاً من المواد المحذوفة، تقضى فى الحقيقة على نشاط المجلس النيابى المنتظر وتسلبه كل صلاحياته وتجعل النفوذ كله فى إدارة شئون البلاد من نصيب المندوب السامى الفرنسى وحده. وكان الشيخ نورى الشعلان أمير الدولة من أنصار حكومة الشيخ تاج، فلما اشتدت حملة الوطنييين على التدخل الفرنسى قام يؤيد المقترحات الفرنسية بدعوى أن الدستور يشمل مواد كثيرة تزيد على المواد التى يقترحها الفرنسيون، فإذا وافق المجلس على هذه المواد الاثنى عشرة، بقيت له المواد الأخرى الكثيرة، وتحققت الاكثية للوطنيين! أما المجلس فقد رفض البلاغ الفرنسى بأغلبية ساحقة، ولم يشذ من أعضائه سوى ستة فقط، فأصدر المندوب السامى الفرنسى أمره بوقف الجمعية التأسيسية مدة ثلاثة شهور تبدأ من يوم ١١ أغسطس ١٩٢٨. ومع أن مباحثات جديدة قامت بين الوطنيين من أعضاء الجمعية التأسيسية والمندوبين السامى، فقد ظل لاختلاف قائماً. وأصدر المندوب أو المفوض السامى قراره فى ٧ فبراير ١٩٢٩، بتأجيل الجمعية التأسيسية إلى أجل غير مسمى. وفى ٢٢ مايو ١٩٣٠ فاجأ (بونسو) البلاد بإعلان دستور جديد لها، أضاف إلى مواده المائة والخمس عشرة، (مادة) جديدة هى المادة (١٦٦) ألغت فى الحقيقة مفعول المواد الست التى أراد الفرنسيون حذفها، والتى بقيت على حالها فى الدستور الجديد.

أثار هذا العمل التعسفى من جانب المفوض السامى الاحتجاج من كل أنحاء البلاد، ولكن حكومة الشيخ تاج بقيت بالرغم من ذلك متربعة فى دست الحكم إلى شهر نوفمبر من العام التالى (١٩٣١) وهى التى قد جاءت أصلا فى فبراير ١٩٢٨ على أنها حكومة "مؤقتة" فقط.

وغنى عن البيان أن هذه الحكومة التى بدأت عند تأسيسها والإنفاق ظاهر بينها وبين الوطنيين لم تلبث أن صارت موضع معارضة هؤلاء وحملتهم الشديدة عليها منذ نجاحهم فى انتخاب الجمعية التأسيسية بعد شهور قليلة، وتفاهم الخلاف بين رجال الكتلة الوطنية والشيخ تاج الذى شهد له خصومه وأصدقاؤه على السواء بأنه كان رجل دهاء وصبر وحيلة يتلقى بهدوء منقطع النظر أية ضربات يوجهها له خصومه.

وأراد الشيخ تاج أن يجذب إليه بشير السعداوى الذى توثقت الصلات بينه وبين رجال الكتلة الوطنية، وصار معروفا عنه لدى الكثيرين أنه لا ينفك يتعاون مع هؤلاء فى إثارة المعارضة ضد حكومة الشيخ تاج منذ أن بدأ الخلاف بينهم وبين هذه الحكومة. فطلب الشيخ تاج من أصدقاء بشير السعداوى، خصوصا الأمير طاهر الجزائرى وعزيز هاشم الذى كان صديقا للدوام أحمد نامى، أن ينقلوا للسعداوى رغبة رئيس الحكومة فى مقابلته. ولكن بشير السعداوى رفض الذهاب إليه. ولجأ الشيخ تاج إلى الضغط على السعداوى لعله يذهب إليه، فأخرج من خدمة قصر رئيس الدولة ابن عم لبشير السعداوى يدعى (خليل) كان قد التحق بالخدمة على عهد الداماد أحمد نامى واستبقاه الشيخ تاج فى أول الأمر، ففصله الآن من الخدمة بعد أن ذكر له صراحة أن ابن عمه (بشير السعداوى) هو المسئول عن فصله، وبقي خليل السعداوى متعطلا وقتا طويلا دون أن يغير السعداوى شيئا من موقفه. ولم يفقد الشيخ تاج الأمل بعد هذا كله فى استمالته إلى تأييده فبعث إليه الأمير طاهر الجزائرى ليقنعه بأن الشيخ تاج إنما يريد مقابلته لمجرد التزاور فقط ولا يبغي منه شيئا. بينما قد تسبب السعداوى فى تعطل ابن عمه، وجنى عليه

لتشبهه بموقفه . وأراد بشير السعداوى أن يبين للأمير طاهر أنه لا تربطه بالشيخ تاج أية علاقة حتى يتردد عليه، فلا هو من الذين يطلبون التوظيف فى مصالح الحكومة أو يشتغلون فى السياسة، ولكن إزاء إصرار الأمير ذهب بشير السعداوى لمقابلة الشيخ تاج فى بيته، ورحب به الشيخ تاج ترحيباً كبيراً، ثم أخذ يلومه على عدم زيارته له . وأراد السعداوى أن يفسر عدن الزيارة بأن لا حاجة له يسعى لقضاها حتى يأتى لمقابلة رئيس الدولة، ولا سبب يبعث على الزيارة، وأنه غريب عن هذه الديار، ويقيم بها كواحد من المهاجرين، فلا قيمة لزيارته أو عدم زيارته له . ولم تفد هذه الدعاوى شيئاً فى إقناع الشيخ تاج الذى ذكر أن السعداوى كان ذا مكانة مرموقة مع الداماد أحمد نامى، وهو لذلك يريد الاستفادة من خبرته وتجاربه، وطلب من السعداوى أن يعده بالتردد عليه، وأصر على ذلك، ثم إنه لم يفته أن يذكر له أنه أعاد إلى الخدمة ابن عمه خليل السعداوى .

لم يتردد بشير السعداوى على الشيخ تاج كما كان ينتظر الشيخ . وبدلاً من مهادنة حكومته على الأقل إن لم يشأ الانحياز إلى صفوف مؤيديها، استمر بشير السعداوى يعمل مع رجال الكتلة الوطنية، وينغمس فى تدابيرهم لإثارة المعارضة القوية ضد هذه الحكومة وعندئذ وبعد نحوالى الثمانية أو العشرة شهور لم يجد الشيخ تاج بدا من معاودة الكرة معه بنفس أساليبه السابقة . ففصل خليل السعداوى من الخدمة، وأرسل أحد أصدقاء السعداوى إليه وهو نجيب آغا البرازى وكان من الوطنيين المعروفين من أهل حماة ويتردد على الشيخ تاج، وذلك حتى يحمل بشير السعداوى على الذهاب إلى الشيخ . وفاجأ نجيب آغا صيدقه بحلفه يميناً مغلظة يلزم بها السعداوى أن ينفذ ما يريد اقتراحه عليه وهو أن يذهب لزيارة الشيخ تاج لأنه وعد الشيخ أنه سوف يكلف السعداوى بتأدية هذه الزيارة . وأمام هذه اليمين المغلظة لم يجد السعداوى مناصاً من الذهاب إلى الشيخ تاج الذى ابتدره بسؤاله لماذا يصر على مقاطعته له، وطلب منه أن يفسر له سبب هذه المقاطعة .

وكان حديث طويل بين الرجلين، قال بشير السعداوى أن ليست لديه أسباب يفسر بها الانقطاع عن الزيارة أو المقاطعة كما يسميها الشيخ تاج، كما أنه ليست هناك أسباب تسوغ الاتصال والتردد على الشيخ وزيارته. فأكد الشيخ تاج أنه يريد أن ينحاز السعداوى إليه وأن يكون معه، حتى يشركه فى المسائل التى تعرض له، ثم استدرك قائلاً: ولكنك تتردد دائماً على رجال الكتلة الوطنية. ولم ينف السعداوى أنه يتردد على هؤلاء وأنه يجتمع كثيراً بهم. أما سبب ذلك - كما قال - فهو أن العقيدة الوطنية هى الرباط الذى يربطه بهم. ووضح أن هذه الملاحظة الأخيرة تنطوى على تعريض بعقيدة الشيخ تاج الوطنية. ولقد كان معروفاً عن الشيخ أنه يدين "بالواقعية" لدرجة بعيدة، حتى أنه انحاز بكل ميوله و "عقيدته" إلى جانب الفرنسيين، ينفذ أوامره ونواياهم ويؤيد سياستهم. ولذلك فقد استشاط الشيخ غضباً. وكانت هذه من المرات القليلة أو النادرة التى فقد فيها الشيخ تاج السيطرة على نفسه، فصاح بالسعداوى يهدده إن لم يكف عن خطته التى يسير فيها ألحق به الأذى والضرر. ولكن ثورة الشيخ سرعان ما هدأت أمام سورة غضب أشد وأعنف، فقد ضرب بشير السعداوى بيده على النضدة ليدكر الشيخ أنه أعجز من أن يلحق بشخص السعداوى أى أذى أو ضرر، وإنما هو قد ملكه غرور المنصب واعتماده على من أجلسوه على كرسى الرئاسة الذى يشغله، ولكن السعداوى لا يقيم وزناً للجالس على هذا الكرسى ولا لمن أجلسوه عليه. وليحاول الشيخ تاج - إذا أراد أن يتيقن من أنه عاجز عن إلحاق الأذى بأى مخلوق بله بشير السعداوى - أن ينفذ وعيده.

وعندئذ انفجر الشيخ تاج مقهقهة قهقهة طويلة، حتى إذا هدا قال يخاطب السعداوى: أشهد بالله أنك لا زلت مغربياً! ولباقتة المعهودة حول الشيخ تاج الحديث إلى موضوع آخر، فسأل بشير السعداوى إذا كان فى قدرته أن يؤلف بينه وبين شكرى القوتلى. وأكد السعداوى أن هذا ممكن؛ فلما استفسر تاج الدين الحسنى: كيف يكون ذلك؟ قال السعداوى إن هذا ممكن

وإمنا بشرط واحد، أن يتخلى الشيخ تاج عن الخطة التى يسير فيها وأن يندمج فى الكتلة الوطنية قال الشيخ: يبدو أنك إقصائي عن هذا الكرسي بهذه النصيحة التى تضحى بها، إن الطيران من على الكرسي أمر سهل حين لا يحتاج إلى وساطة، بل يكفى إذا شئت أنا التخلي عن الحكم أن أترك كرسيه وأمشى فى سبيلي. وعندئذ قال السعداوى: أما أنت متمسك بكرسي الحكم والسير مع الفرنسيين فى سياستهم، وشكرى القوتلى متمسك بعقيدته الوطنية، فلا سبيل حينئذ لاتفاقكما.

بعد هذه المقابلة أعاد الشيخ تاج خليل السعداوى إلى منصبه، وأمر بأن تصرف له مرتباته المتأخرة.

ومع أن بشير السعداوى اضطر بعد هذه الحوادث إلى التردد على الشيخ تاج كى يظفر منه بتعيين زميله فى اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة، (ونعنى به عمر فائق شبيب) فى إحدى الوظائف الحكومية، ليستعين بمرتبه منها فى زيادة دخله المحدود، فإنه ظل يتصل برجال الكتلة الوطنية ويعمل معهم، حتى إن الشيخ تاج - على ما يبدو - لم يشأ إسداء هذا الصنيع إلى زميل السعداوى ومواطنه، لعدم تعاون البشير معه. ويروى بشير السعداوى أن الشيخ تاج حتى يتخلص من وعده له، اتصل تليفونيا بمدير المالية آنئذ ويدعى جورج عزيز يوصيه خيراً بعمر فائق شبيب، وطلب من بشير السعداوى أن يذهب إلى مدير المالية الذى سوف يبذل قصارى جهده لتعيين صديقه. فلما ذهب السعداوى إلى جورج عزيز، وكانت بينهما مودة من أيام الداماد أحمد نامى، بادر جورج عزيز حتى يوفر على صديقه الجهد والوقت بمصارحته القول فى أساليب الشيخ تاج الذى يستبقى دائماً إلى جانبه تليفونيا معطلا، يتظاهر أمام أصحاب الحاجات أنه يخاطب به المسئولين فى إنجاز مطالبهم حتى يتخلص هو منهم. فإذا حضر هؤلاء إلى جورج عزيز فعلا وهو المشرف على الشؤون المالية فى الدولة، عند إلى مسائرتهم ومماطلتهم حتى يأسوا. وهكذا استمر الشيخ تاج يعد ثم يخلف حتى سقطت حكومته.

وكان معروفًا عن تاج الدين الحسنى أنه لا يسدى صنيعةً إلا لمن يثق أنهم سوف يؤدون خدمات نافعة لحكومته، ولذلك انعدم اهتمامه بمسألة عمر فائق شنيب. الراجح أنمبعث إبقائه خليل السعداوى فى الخدمة بعد أن فصله منها مرتين، كان رجاءه استمالة بشير السعداوى إلى مؤازرته أو على الأقل إلى تخفيف نشاطه ضده. ولعل المرة الوحيدة التى شذ فيها الشيخ تاج عن خطته المعهودة كانت موافقته على إلى إعانة أحد طلاب العلم فى دمشق، الشيخ خالد الخوجة فيروى بشير السعداوى أن هذا الشيخ الذى درس فى الأزهر الشريف فى مصر، كان طلق اللسان فصيح العبارة حصل تحصيلًا عاليًا، حتى أنه كان يلقى دروسًا فى الجامع الأموى صار يحضرها كثيرون، كان منهم فارس الخورى، ولكنه كان محدود الموارد. وعبئًا ما حاول بشير السعداوى بترده على الشيخ تاج أن يظفر له بمرتب من الحكومة، حتى إذا اشتدت به الضائقة، جاء إلى السعداوى أنه وقد ضاقت به الحيلة فى أمر معاشه اعترم الالتحاق بالماوسونية حيث إن له صديقًا صاحب نفوذ فى الماسونية وعد إذا فعل ذلك أن يساعده إخوانه الماسونيون. وتأثر بشير السعداوى، لأن الشيخ - كان هو ظاهر - يطلب الرزق من غير الاتكال على الله، وذكر السعداوى للشيخ خالد بعض الأحاديث الشريفة التى منها قوله ﷺ: (لو توكلتم حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تروح خماصًا وتعود بطانًا) ثم قوله كذلك - ﷺ - (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها ورزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب).

واستمر السعداوى يقول: وأنت ولا شك أدرى من غيرك بمعانى هذه الأحاديث، والله يعلم فيك عدم اتكالك عليه اتكالا صحيحًا. فإذا قويت عزيمتك وتوكلت أنت على ربك يرزقك الله وتزول ضائقتك. وفى اليوم التالى قصد خالد الخوجة إلى الشيخ تاج - وكان يتردد عليه ليسأله المساعدة - فدخل عليه هذه المرة بعزيمة قوية، وابتدرة صائحًا: يا شيخ تاج، أنت اليوم رئيس دولة، وأنا من أهل العلم، ولكنى لا أستطيع الظفر بوظيفة أتعيش

منها، فكيف يحدث هذا فى حكومتك؟ فوقف الشيخ تاج واستقبله استقبالا حافلا وأجلسه إلى جانبه ثم أخرج مبلغاً من الجنيهات السورية أعطاه له وقال له: أنت إن شاء الله تكون ابنى ولا تهتم بالحياة. فخرج الشيخ خالد الخوجة من عند رئيس الحكومة وقصد إلى بشير السعداوى مباشرة، ليلغى أن الدرس الذى ألقاه عليه قد أثمر ثمرته المرجوة، وأخرج من جيبه الليرات السورية. ونصحه السعداوى بأن لا يتخذ من قوة العزيمة هذه وسيلة للحصول على المال، بل يجب أن يصدر عمله عن إيمان ثابت وعزيمة قوية بأن الرزق من عند الله. ويذكر بشير السعداوى أنه استمع ذات ليلة من ليالى شهر فبراير ١٩٤٩ وهو بمدينة طرابلس (الغرب) إلى إذاعة من دمشق، فإذا بالشيخ خالد الخوجة يحاضر فى موضوع (التوكل على الله).

انتهت حكومة الشيخ تاج الحسنى فى نوفمبر ١٩٣١، وأقام المفوض السامى (بونسو) حكومة انتقالية برئاسة مندوبه فى سوريا (شالوميك) لتشرف على إجراء الانتخابات وتنفيذ الدستور، وعقد الوطنيون (مؤتمراً) فى دمشق قرروا فيه الدخول فى الانتخابات التى لم تلبث أن بدأت يوم ٢٠ ديسمبر من العام نفسه. ولكن وقعت حوادث دامية بسبب محاولة السلطة التدخل لصالح مرشحها فى دمشق ودوما وحماه. تقرر وقف الانتخابات حتى يهدأ الشعب، ثم أعيدت فى إبريل ١٩٣٢، وفاز الوطنيون فيها. واجتمع البرلمان الجديد فى ٧ يونيه لانتخاب رئيس الجمهورية. وكانت الجمهورية النظام الذى نص عليه الدستور، وعلى نحو ما أخذت به الجمعية التأسيسية فى عام ١٩٢٨.

ولم يفز مرشح الوطنيين لرئاسة الجمهورية، وهو زعيمهم هاشم الأتاسى. أو مرشحاً الفرنسيين، صبحى بركات وحقى العظم، ولكن وقع الاختيار على محمد على العابد وذلك بموافقة الوطنيين، حتى لا يتولاها صبحى بركات، كما وافقوا على أن يؤلف حقى العظم الوزارة. واشترك اثنان من الوطنيين فى الوزارة، هما جميل مردم ومظهر رسلان.

ولكن الوزراء الوطنيين لم يمكثوا طويلا فى الحكم حيث تبين لهم أن المعاهدة التى تبغى فرنسا عقدها مع سوريا لا تحقق مطالب البلاد وأمانيتها القومية، فاستقال الوزيران فى ١٨ إبريل ١٩٣٣. وبفشل المفاوضات من أجل المعاهدة، استدعت الحكومة الفرنسية مفوضها السامى من سوريا فى يوليه ١٩٣٣. وقد عين بدلا منه الكونت دومارتيل De Martel الذى وصل إلى بيروت فى ١٤ أكتوبر من السنة نفسها. وبمجرد وصوله إلى دمشق بذل قصارى جهده لإعداد مشروع معاهدة جديدة تبادل التوقيع عليه مع رئيس الحكومة حقيق العظم فى ١٦ نوفمبر. ولم ترض البلاد عن المعاهدة التى لا تحقق الوحدة بينما تقرر الأوضاع القائمة. واستقال سليم جنبرت وزير المعارف وقامت المظاهرات فى شوارع دمشق. وصمم الفرنسيون على أن تعرض هذه المعاهدة على المجلس النيابى، وكان لهم ذلك ولكن الوطنيين عند انعقاد المجلس يوم ٢١ نوفمبر ١٩٣٣ قدموا مضبطة وقع عليها أكثرية أعضاء المجلس برفض المعاهدة. وحاصر الفرنسيون المجلس بالجند يوم ٢٥ نوفمبر حتى يمنعوا اجتماع النواب وأعلنوا تعطيل البرلمان "سحابة الدورة البرلمانية القائمة" وشهدت دمشق نشاطاً كبيراً فى الاحتجاج ضد الحكومة: حيث صارت تعقد الاجتماعات فى المساكن الخاصة ويندد الخطباء فى عنف وشدة بمسلك الحكومة وفى مارس ١٩٣٤ أقال (دومارتيل) وزارة حقى العظم. وفى ١٦ مارس شكل الشيخ تاج الدين الحسنى الوزارة الجديدة. وغنى عن البيان أن هذه الحكومة قوبلت بنفور شديد، ووقعت الاضطرابات الكبيرة بين الشعب وهذه الحكومة، فتعددت المظاهرات والاضطرابات فى أنحاء سوريا. وفى أوائل يناير ١٩٣٦ أقيم احتفال ضخم فى ذكرى وفاة الزعيم إبراهيم هنانو وأذاعت الكتلة الوطنية (١٠ يناير) بياناً بمطالب الأمة فى الوحدة والاستقلال، وانتشر الإضراب العام فى جميع أنحاء سوريا. وحاول الفرنسيون قمع هذه الثورة بالعنف والصرامة ولكن دون جدوى. فلم يمه الإضراب الذى ائتمر ستين يوماً غير استقالة حكومة الشيخ تاج من جهة واتفاق الفرنسيين مع الوطنيين على

القواعد التي يجب أن يقوم عليها عقد معاهدة مقبولة من الوطنيين بين سوريا وفرنسا، وقع هذا الاتفاق في أول مارس ١٩٣٦ كل من (دومارتيل) وهاشم الأناسي، وأهم ما جاء فيه الاعتراف باستقلال سوريا ووحدتها في معاهدة سعتها وفد سورى مع ممثلى الحكومة الفرنسية فى باريس . أما حكومة الشيخ تاج فقد استقالت منذ ٢٤ فبراير، وألف عطا الأيوبي حكومة انتقالية .

وفى ٢١ مارس ١٩٣٦ سافر الوفد السورى إلى باريس، وكان يتألف من الرئيس هاشم الأناسي، وفارس الخورى وسعد الله الجابري وجميل مردم يصحبهم عضوان من الوزارة هما إدمون حمصى ومصطفى الشهابى، ويقوم بالسكرتارية أحد الوطنيين، المحامى نعيم أنطاكي، بينما رافقهم نائب الزعيم أحمد اللحام خبيراً عسكرياً . وفى ٩ سبتمبر ١٩٣٦ وقعت المعاهدة الفرنسية السروية فى وزارة الخارجية بباريس . وحضر التوقيع (ليون بلوم) رئيس الوزارة الفرنسية . وعاد الوفد إلى دمشق يحمل معاهدة انعقد الرأى وقتئذ على أنها خطوة كبيرة فى طريق الاستقلال الكامل حيث إنها قد حققت قدراً لا يستهان به من الأمنى القومية . كانت مدة هذه المعاهدة خمساً وعشرين سنة قابلة لأن تتجدد، ومع أنها أجازت لفرنسا إنشاء ثلاث قواعد جوية وتعهدت سوريا ببذل كل تسهيلات ممكنة لها فى داخل أراضيها عند قيام حرب، بينما صار على فرنسا أن تمد سوريا بالخبراء والفنيين لتدريب الجيش السورى، إلى جانب أن المعاهدة نصت على أن يتشاور الطرفان فى كل ما يمس مصالحهما المشتركة من شئون السياسة الخارجية، فقد أصبحت سوريا معدودة بفضل هذه المعاهدة - وفيما عدا ما ذكرنا - بلداً مستقبلاً ذا سيادة . وفضلاً عن ذلك عاجلت المعاهدة مسألة الوحدة . ولئن كانت هذه المعالجة غير شافية ولا وافية، فقد تقرر على كل حال أن تنال سوريا شطراً من الأقاليم التى فصلت عنها، وذلك بضم اللاذقية - وهى التى كانت تعرف باسم دولة العلويين - وجبل الدروز أو دولته إلى سوريا، على أن تتمتع هذه الأراضى بنظام إدارى ومالى خاص، بينما احتفظ سنجق الإسكندرونة بوضعه الذاتى ولذلك لقيت المعاهدة ترحاباً

سرعان ما ظهر أثره عندما قامت الانتخابات وأيد الشعب الوطنيين الذين فازوا بالأكثرية الساحقة في المجلس النيابي الجديد في ديسمبر ١٩٣٦ .

وأمام هذا الفوز الذى ناله الوطنيون لم ير رئيس الجمهورية السيد محمد على العابد مفراً من الاستقالة، وفى ٢١ ديسمبر ١٩٣٦ انتخب لرئاسة الجمهورية السيد هاشم الأناسى . وفى اليوم التالى تألفت أول حكومة "وطنية" برئاسة جميل مردم، ووزراؤها سعد الله الجابرى، وشكرى القوتلى، وعبد الرحمن الكيالى، وقد استمرت هذه الحكومة حوالى سنتين، فقدمت استقالتها فى ١٨ فبراير ١٩٣٩ وكان أحد أعضائها شكرى القوتلى قد سبق بتقديم استقالته من الوزارة منذ ٢٢ مارس ١٩٣٨ . وكان واضحاً أن المشكلة الهامة التى واجهتها حكومة جميل مردم، كانت إقناع الفرنسيين بتنفيذ المعاهدة التى ظلت فيما يتعلق بهم حبراً على ورق حيث لم يصدق عليها برلمانهم، وحيث صار مقطوعاً به أن الفرنسيين لن يتخلوا بتاتاً عن سلطاتهم وامتيازاتهم لصالح الحكومة الوطنية. بل عمد الضباط والوكلاء الفرنسيون إلى إثارة الاضطرابات فى مختلف الجهات. وانتهى الأمر بأن قررت الحكومة الفرنسية تحت ضغط السلطات العسكرية إلى استئناف نظام الانتداب فى سوريا. ولتنفيذ هذه السياسة إذاً قررت سحب (دومارتيل) - "رجل الانتداب" الذى عين بدلا منه (غبريل بيو) Gabriel Puaux فى ٥ يناير ١٩٣٩ . ولقد ظل الفرنسيون يعينون فى الوظائف من يختارونه لها، ويستصدرون المرسومات والقوانين دون مبالاة بوجود البرلمان السورى أو الحكومة حتى قدم جميل مردم استقالته. ولم تنجح الحكومتان اللتان تألفتا بعد ذلك وإحداهما برئاسة لطفى الحفار، وقد استقالت هذه بعد عشرين يوماً فى ١٥ مارس، والأخرى برئاسة نصوحى البخارى وقد استقالت هذه كذلك بعد مدة قصيرة فى ١٥ مايو. وكان فى أثناء هذا كله أن شهدت سوريا فى مرارة لواء الإسكندرونة يقتكع من جثمانها نتيجة للمعاهدة الفرنسية التركية فى ٢٢ يونيو ١٩٣٩ ثم ينضم نهائياً إلى تركيا فى ٣٠ يونيو. وأخيراً استقال

رئيس الجمهورية فى ٧ يوليو، وباستقالته انتهت تجربة الحكومة الوطنية فى سوريا على عهد الفرنسيين الذين صاروا يحكمونها من الآن فصاعداً بمجلس من المديرين يالف من كبار الموظفين، يعين من المفوض السامى نفسه، وبرئاسة بهيج الخطيب. وأما إقليمى اللاذقية وجبل الدروز فصارا يحكمان منفصلين عن بقية سوريا. وكان عندئذٍ أن قامت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر ١٩٣٩.

إن هذا العرض السريع للتقلبات السياسية فى سوريا فى هذه الحقبة ضرورى لمعرفة البيئة السياسية و "الوطنية" التى عاش فيها بشير السعداوى فى دمشق كل هذه الأعوام الطويلة منذ أن بدأت صلاته برجال الكتلة الوطنية وغيرهم من السياسيين فى سوريا، وهى كذلك ضرورية، لأن بشير السعداوى نفسه بحكم اشتغاله فى قضية بلاده: طرابلس - برقة، وارتباط هذه القضية - فى نظره - بالقضايا العربية الأخرى، ومنها هذه القضية السورية التى عاش فى أجوائها، لم يكن من الذين يقنعون بمشاهدة الأحداث تمر من أمامهم، أو يرضون بدور الملاحظ والرقيب الذى قد يلتزم من أحداث السياسة والحكم موقفاً سلبياً لا يعدو محاولة الاستفادة من تجربة الغير وكفى. بل لقد ساهم بشير السعداوى نفسه فى قدر ملحوظ من هذه الأحداث بفضل صلته بالوطنيين الذين تشاوروا معه ووثقوا به واعتمدوا عليه فى مهمات كثيرة سواء لتنقية الجو الداخلى من الشوائب التى قد تحدث عند استفحالها الفرقة فى الصفوف، أو لتأييد حكومة الوطنيين ذاتها فى المسائل القومية أو القضايا العربية العامة التى قد تعرض لها أو تتصدى لمعالجتها. ثم إن هناك ضرورة أخرى لهذا الغرض السريع، مبعثها أننا إذا تركنا جانباً دور الجهاد الأول من حياة بشير السعداوى فى بلاده ضد الغزو الإيطالى، ثم استئناف هذا الجهاد بعد تقلبه فى وظائف الدولة العثمانية وعودته إلى بلاده، كانت السنوات التى قضاهما بشير السعداوى فى سوريا من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٨ وهى السنة التى التحق فيها بخدمة المملكة العربية السعودية مستشاراً للمغفور له الملك عبد

العزیز آل سعود - نقول كانت هذه السنوات الأربع عشرة مليئة بالتجارب التي تأثر بها وأفاد منها بشير السعداوی فی أساليب كفاحه ضد الطليان لحل قضية بلاده. ولقد كان الكفاح فی المهجر كفاحاً "سیاسياً" يعتمد - كما ذكرنا مراراً - على تنوير الرأى العربى والإسلامى فی القضية الطرابلسية البرقاوية وكسب الشعوب العربية والإسلامية إلى مؤازرة هذه القضية، حتى إذا تزايد ضغط العالمين العربى والإسلامى على الحكومة الإيطالية، أوقف (موسولینى) خطة الإبادة والعنف التي يتبعها فی طرابلس - برقة، ورضى بفتح باب التفاهم مع العناصر الوطنية لإنشاء الحكومة "الوطنية". فی هذا الكفاح "السیاسى" استعان بشير السعداوی بقسم كبير من الوسائل التي أعانت (الكتلة الوطنية) فی كفاحها ضد الانتداب الفرنسى. ولقد كانت هناك وجوه للشبه كثيرة بین ما يقصده رجال الكتلة الوطنية فی سوريا، وما يريد بشير السعداوی تحقيقه لبلاده. ذلك أن قرارات مؤتمر غريان واتفاقات سرت المعروفة، رسمت أمانى الشعب الطرابلسى البرقاوى (أى الليبى) القومية فی نطاق الحكومة الوطنية والدستورية على أساس الوحدة الشاملة التي يكفلها قيام الإمارة السنوسية وذلك فی معاهدة بین ليبيا وإيطاليا تنهى وضع طرابلس - برقة كمستعمرة إيطالية وتبدأ عهداً جديداً فی العلاقات الودية بينهما، ولم يكن رجال الكتلة الوطنية فی أغراضهم المباشرة من كفاحهم ضد الانتداب الفرنسى فی سوريا يريدون إلا أن يحققوا وحدة الوطن القومى السورى وأن ينشئوا الحكومة الوطنية الدستورية، وإلا أن يستبدلوا بهذا الانتداب معاهدة تبدأ هى الأخرى عهداً جديداً من الود والاصداقة والتعاون بین فرنسا وسوريا. ولقد شاهدنا كيف كان من أساليب الوطنيين فی نضالهم السیاسى فی سوريا إذاعة البيانات، وعمل الاحتجاجات وتنظيم المظاهرات، وعقد المؤتمرات، وإصدار الاستغاثات، وطبع المنشورات، واللجوء لكل وسائل النشر لتجنيد الرأى العام لمؤازرة القضية الوطنية. وإذا كان متعذراً على بشير السعداوی أن يحرك "مظاهرات" الاحتجاج فی بلاده، لأنه كان بعيداً عنها ونفياً منها، فقد

استطاع إثارة شعور أهل سوريا ضد فظائع الطليان حتى صارت تقوم المظاهرات عند كل مناسبة. أما وسائل "العمل" الأخرى فسوف يرى القارئ مبلغ ما وصل إليه حذق بشير السعداوى فى الاعتماد عليها فى كفاحه ضد إيطاليا: إيطاليا الفاشية ذات السطوة فى المحيط الدولى، وضد طاغيتها (موسولينى).

ولكن قبل الانتقال إلى الكلام عن هذا الكفاح ووسائله، قد يكفى للتدليل عن مبلغ اندماج بشير السعداوى فى الكتلة الوطنية ذكر مثالين: أولهما يبين كذلك ثقة أعضاء الكتلة فى كفاءته الإدارية وقدرته على حكم أهل البادية وهؤلاء فى العادة لا يسلس قيادهم لحاكم عادى، وثانيهما يبين أيضاً ثقتهم فى قدرته كمفاوض ووسيط لتسوية الخلافات وإنهاؤها. أما فيما يتعلق بالأمر الأول فقد طلب إليه الوطنيون غداة توليهم الحكم فى ديسمبر ١٩٣٦ أن يبحث معهم مشروعاً لإنشاء محافظة لبادية الشام، وطلب إليه رئيس الحكومة جميل مردم أن يتولى هو هذه الإدارة لأنه خير من يصلح لها. وامتنع بشير السعداوى عن قبول هذا العرض، لأنه وقد رأى جهود الوطنيين تتكلى بإنشاء حكومتهم ويعتبر السعداوى هذا نصراً له لأنه منهم، فقد أراد أن يزيد مركز الحكومة متانة بأن تعرض هذا المنصب الجديد على شخصية تختار من بيوت الشام الكبيرة بدلاً من اختياره هو لها. وذكر لرئيس الحكومة أسماء معروفة ليختار منها، ولكن جميل مردم رفض هذه المشورة. وكان جوابه أن الوطنيين عندما يكافحون الأجنى، سار بشير السعداوى إلى جانبيهم، ووضع رأسه على كفه معهم، ورافقهم فى الطريق المهلكة التى مشوا فيها، بينما التزم هؤلاء الذين يقترحهم السعداوى ببيوتهم. وعلاوة على هذا كله فمن الذى قال: إن رجال الكتلة وأهل البلاد لا يعدون السعداوى واحداً منهم؟ وطلب الرئيس من وزير الداخلية سعد الله الجابرى أن يحاول إقناعه بالقبول. وكان جميل مردم قد زاد السعداوى ثم اصطحبه معه إلى سراى الحكومة حيث جرى هذا الحديث. وأعاد سعد الله الجابرى الكرة ولكن دون جدوى. ويذكر

بشير السعداوى أن صديقه وهو يتحدث إليه فى هذا الموضوع وهما يتناولان الغذاء فى (أوريان بالاس) أشار عليه أن يلتفت خلفه، فشهد رجلاً جالساً، فقال سعد الله الجابرى: هذا ابن عمى، وهو يطلب هذه الوظيفة فأنت ترفض ما يتهافت عليه كثيرون، ولعل الغفلة هى التى تفعل هذا! وتعين آخر لهذا المنصب.

وأما الحادث الآخر، فكان سؤال رجال الكتلة الوطنية البشير السعداوى أن يحاول إزالة الخلاف بينهم وبين الزعيم الغفور له الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وهو مقيم وقتئذ بالقاهرة (مصر)، وصار يتردد على الشهبندر كثيراً فى غضون شهر نوفمبر ١٩٣٦، وكان الوطنيون الذين انتظروا الفوز فى الانتخابات، وتأليف الحكومة الوطنية الجديدة بعد استقالة حكومة تاج الدين الحسنى، يريدون أن يشترك الدكتور الشهبندر معهم فى الوزارة.

وكان الشهبندر أحد ثلاثة من المبعدين الذين لقيت الحكومة الوطنية مشقة كبيرة فى إقناع الفرنسيين بالسماح لهم بالعودة إلى أوطانهم. وكان الاثنان الآخران: سلطان الأطرش وعادل أرسلان. وقد ظل بشير السعداوى يتردد على الشهبندر بعد زيارته لسوريا. ولكن إزالة أسباب الخلاف بين الفريقين لعوامل متعددة ظلت مستعصية، بل أخذت العلاقات بينهما تزيد سوءاً.

أما كلمة الشهبندر الماثورة عن خصومه، فكانت: أن هؤلاء إنما يريدون أن يستأثروا بالوطنية وحدهم. ولقد حاول بشير السعداوى أن يرد على ذلك، بأن الوطنية إيمان وعقيدة لا يستطيع مخلوق أن ينزعها من آخر أو أن يستأثر بها وحده.

ومن المعروف أن استمرار النزاع أدى إلى الانقسام فى صفوف الوطنيين، وهى خصومة لم يضع حداً لها سوى وفاة الشهبندر نفسه الذى اغتاله يوم ٦ يوليو ١٩٤٠ أحد الشبان المتأثرين بفكرة القضاء على عوامل الانقسام فى

الأمة باقضاء على المسئولين - فى نظرهم - عن هذه التفرقة، ومنهم إلى جانب الشهبندر: جميل مردم وغيره. ولعل لفكرة "التطهير" المزعومة هذه صلة بحركة بعث دينى، قام عليها أحد المشايخ المعروفين من المغرب الأقصى ويقيم بدمشق الشيخ الكنانى، وكذلك بشير السعداوى نفسه، وغرضهما أن يتغلغل فى نفوس الشباب الروح الدينية بفضل القراءات الكثيرة فى تاريخ الفتوح الإسلامية وغزوات الرسول ﷺ، مع تلاوة القرآن الكريم، والمثابرة على تأدية الفروض الدينية، باعتبار أن هذا البعث يزيد فى تغذية الروح الوطنية فيتهيا الشباب لتحرير الأوطان العربية المغلوبة على أمرها من السطان الأجنبى. ولم يدر فى خلد إنسان بعد سنوات من قيام حركة البعث هذه - وكانت قد بدأت فى عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ - أن ينحرف جماعة من الشبان إلى تدبير جرائم اغتيال على الصورة التى راح ضحيتها هذا الزعيم الوطنى، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر.

ذلك عرض سريع للأوضاع السياسية فى سوريا، والذي نريد أن نذكره أن هذه الأحداث، لم تصرف بشير السعداوى لحظة واحدة، بالرغم من ذلك القدر الهام الذى ساهم به هو نفسه فيها، عن الغرض الأعلى من نشاطه كله الدفاع عن قضية طرابلس - برقة.

٣ - اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس - برقة:

عند استقالة حكومة الداماد أحمد نامى فى فبراير ١٩٢٨، كانت انقضت أربع سنوات تقريباً منذ مجيء بشير السعداوى إلى لبنان وسوريا، قضى منها حوالى العامين فى دمشق ولقد شاهدنا كيف أنه كان دائب النشاط طوال هذه السنوات الأربع، فتعرف فى خلالها بزعماء البلاد وقادة الرأى فيها، وكان وثيق الصلة - كما ذكرنا - بالوطنيين. واكتسب من هذا النشاط وهذه الصلة خبرة سياسية لا شك أنها كانت جديدة، ومن طراز غير الطراز الذى عرفه فى صدر جهاده. سواء فى بلاده أم أثناء هجرته الأولى. ولقد كان من أثر هذا النشاط الذى قام به وهذه الصلات التى أنشأها مع رجال

سوريا، أن تهيأت الفرصة لأن يحتضن السوريون القضية الطرابلسية البرقاوية، الأمر الذى جعل ممكناً أن يتخذ بشير السعداوى من دمشق مركزاً لدعاية واسعة للقضية الطرابلسية البرقاوية، وللقيام بحملة شديدة على الاستعمار الإيطالى فى ليبيا.

لذلك نشط بشير السعداوى بعد انتهاء عمله مع الداماد أحمد نامى لتأسيس هيئة تقوم على خدمة القضية الوطنية بصورة منظمة. وفى نفس العام (١٩٢٨) تأسست (اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية) وقد ضمت هذه إليها رئاسة بشير السعداوى نفسه أكثر المهاجرين الليبيين فى سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والبلاد العربية الأخرى. تألفت اللجنة التنفيذية. من: فوزى النعاس وعبد الغنى الباجقنى والدكتور كامل عياد، وهم الذين اشتركوا من بادئ الأمر فى تأسيسها، ثم انضم إليهم المرحوم عمر فائق شبيب سكرتير اللجنة.

ووضعت اللجنة التنفيذية برنامجاً للعمل، يتضمن المبادئ التى تقررت فى مؤتمر غريان وفى اتفاق سرت. والتى أشرنا إليها كثيراً.

وفضلاً عن ذلك فقد تضمن البرنامج المطالبة بتنفيذ الضمانات التى نص عليها القانونان الأساسيان اللذان أصدرهما الطليان لقطرى برقة وطرابلس فى غضون عام ١٩١٩، والتى تضمنتها كذلك معاهدة الرجمة التى وقعها الأمير السيد محمد إدريس بعد ذلك مع الحكومة الإيطالية، ولم ينفذ الطليان شيئاً منها، بينما كان الغرض من هذه الضمانات تأمين الليبيين (أهل طرابلس برقة) على شعائهم الدينية، وعلى أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. وقد أضاف البرنامج عقد معاهدة مع إيطاليا "لتحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية".

وفى أوائل العام التالى (١٩٢٩) أعدت اللجنة (ميثاقاً قومياً للشعب الطرابلسى البرقاوى كانت بنوده ثمانية هى:

١ - تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس - برقة، يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.

٢ - دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.

٣ - انتخاب الأمة مجلساً نيابياً حائزاً على الصلاحية التي يخوله إياها الدستور.

٤ - اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم.

٥ - المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليده القطر فى جميع أرجائه.

٦ - العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية منتخبة.

٧ - العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.

٨ - تحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة خاصة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى.

وقدمت اللجنة التنفيذية هذا الميثاق القومى ببناء خاطبت فيه مواطنيها فى الأقطار العربية جاء فيه:

أيها الإخوان الأعزاء: إن الواجب عليكم، أن تعملوا لخير بلادكم، وذلك بتنظيم صفوفكم وجمع كلمتكم، وأن تؤلفوا فى كل قطر تسكنونه (جمعية) تلم شعثكم وتجمع شملكم وأن توطنوا نفوسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطنى. وأن لا تحتقروا عمل عامل منكم، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وارفعوا أصواتكم بالشكوى مما تلاقىه أمتكم البائسة من مظالم الإيطاليين، واملأوا الصحف بالمقالات والقضاء بالاحتجاجات وانشروا النشرات وقفوا للحوادث بالمرصاد، وانتهزوا الفرص، وفكروا فيما يعود على وطنكم بالنفع، فالفكرة الناضجة تكون الأمم وتبعث فيها روح اليقظة والانتباه، ثم ربوا ناشئتم على (حب الوطن والحرية والاستقلال)،

أرضعوه هذه المبادئ مع اللبان، وأنفثوها فى صدورهم، منذ عهد الصبا ونعومة الأظفار. علموهم مناقب السلف الصالح وأبطال التاريخ والفتح الإسلامى، فإنها تثبت فى نفوسهم علو الهمة وروح الشهامة والمبادئ الوطنية.

وليكن شعاركم (الاستقلال) وتخليص وطنكم من الأغلال وفكروا فى الوسائل التى تقربكم من هذه الغاية الشريفة.

فإن الدولة الإيطالية مهما اشتد الصلف والغرور، إذا رأتنا أمامها أمة ناهضة متشرة فى الآفاق واقفة لها بالمرصاد تحارب الظلم والاستبداد، ولا تدين لسنن الاستعمار والاستعباد لابد أن تدعن لمطالبنا الحققة وليثاقنا القومى الذى عاهدنا الله على تحقيقه ببذل النفس والنفيس والله مع الصابرين".

وواضح أن هذا (الميثاق) كان يقوم على مبادئ ثلاثة: إنشاء الإمارة (الإسلامية) وإقامة الحكم النيابى، وإبرام معاهدة مع إيطاليا، تنظم العلاقات بين الإمارة الجديدة وبين الدولة صاحبة السلطان، بالصورة التى تجعل ممكناً تحقيق الغرضين السالفين، مع الاحتفاظ بما لهذه الدولة - أى إيطاليا - من "مصالح"، يتعذر على أهل البلاد إقناعها "بالتخلى" عنها. وذلك كان معنى "الاستقلال" الذى طالب النداء الموجه للمواطنين اللبانيين فى مختلف الأقطار، أن يكون "شعار" العاملين الذين يريدون تخليص (الوطن) من الأغلال.

ويقول آخر - وعلى نحو ما سوف يتضح عند تناول أعمال اللجنة التنفيذية هذه للدفاع عن طرابلس برقة، بشىء من التفصيل - لم يكن معنى "الاستقلال" فى نظر أصحاب الميثاق، التمتع بكامل حقوق السيادة، فى الداخل والخارج - أى الانفصال النهائى من إيطاليا - وإنشاء الوطن القومى اللبى (أو الطرابلسى البرقاوى).

ولقد كنا ذكرنا أنه كان لإقامة بشير السعداوى بالشام واشتراكه فى

الحركة الوطنية بها، واتصاله بزعماء هذه الحركة السوريين والمشتغلين بها أكبر الأثر في اكتسابه خبرات جديدة في حقل العمل السياسي القومي، ولا جدال في أن مدلول "الاستقلال" الذي نادى به أصحاب الميثاق، كان نفس ما أخذ به هؤلاء القائمون على الحركة الوطنية السورية وقتئذ. وقد اتضح من ذلك الشيء اليسير الذي سبق أن أثبتناه عن تاريخ هذه الحركة في هذا الفصل، أن مطالب الوطنيين السوريين في هذه الحقبة كانت تدور حول إقامة الحكومة الوطنية القومية، المستندة على الحكم الدستوري، وتنظيم علاقات البلاد مع فرنسا في معاهدة بين الطرفين، تحفظ "الدستور" أو نظام الحكم الذي يتم الاتفاق عليه مع الدولة المتدبة، وتستبقى العلاقات مع هذه الدولة، بعد انتهاء الانتداب، وذلك في صورة صداقة "وتحالف". ولم يكن ما يدور في ذهن بشير السعداوى وزملائه المشتغلين بقضية طرابلس - برقة، يختلف في جوهره عن معنى هذا الاستقلال نفسه، مطلب السوريين الوطنيين.

ولعل مما ينهض دليلا على هذه الحقيقة، نوع ذلك المطلب الذي تمسك به بشير السعداوى أثناء ما وقع من اتصالات في الفترة التالية مباشرة لإصدار (الميثاق القومي)، بينه وبين المسؤولين الطليان، الذين أرادوا التفاهم على مطالب البلاد مع الوطنيين "المبعدين" في المهجر والذين أرغموا على مغادرة أوطانهم بعد فشل حركة المقاومة الأهلية في مرحلتها الأولى في غضون سنة ١٩٢٣.

والسبب في أن الطليان أرادوا هذا التفاهم، أن المقاومة الأهلية في برقة كانت قد تجددت ابتداء من سنتي ١٩٢٤، ١٩٢٥ بقيادة السيد عمر المختار، وكان الطليان بعد أن استولوا على الجغبوب بعد الاتفاق الذي أبرموه مع مصر بتاريخ ٦ ديسمبر ١٩٢٥، قد عولوا على بدء العمليات العسكرية الكبيرة لإخضاع برقة، ومحاولة تفريق كلمة المجاهدين في الوقت نفسه بالدخول في مفاوضات معهم لكسب الوقت، ولبذر بذور الشقاق بينهم، على نحو ما

يجد القارئ ذلك كله مفصلاً في كتابنا عن (السنوسية دين ودول) في الفصل المعقود لذكر (كفاح العرب في برقة وطرابلس). وقد استمرت الحرب سجالاً بين الفريقين، واستمرت مناورات ومداورات الطليان لتحطيم جبهة المقاومة الأهلية، ولكن من غير نتيجة، حتى إذا تعين (بادوليو) حاكماً عاماً على طرابلس وبرقة، في بداية عام ١٩٢٩، قرر المفاوضة مع السيد المختار نفسه، رئيس المجاهدين في برقة، لعله يستطيع الوصول إلى اتفاق معه، على أساس التخلي عن مطالب المجاهدين الأساسية، بشأن إقامة الإمارة السنوسية، أو إذا تعذر الاتفاق، تكون إيطاليا قد نالت فسحة من الوقت تمكنها من إنجاز استعداداتها وإرسال الجند والعتاد إلى ليبيا لمواصلة العمليات العسكرية بنشاط أكبر وفي نطاق أوسع، ومما يكفل القضاء على المقاومة الوطنية نهائياً. وكان في هذه الظروف إذًا، أن اتصل الطليان للمفاوضة مع بشير السعداوى في دمشق في مطالب الوطنيين.

فقد بدأ القنصل الإيطالي في دمشق، ويدعى (إسبرانسا) بزيارته في داره، وتوقع بشير السعداوى أن يحدثه (إسبرانسا) في قضية البلاد، وبخاصة أن هذه الزيارة جاءت عقب إصدار الميثاق القومي الطرابلسي البرقاوى. ولكن (إسبرانسا) لم يكن يبغى من مهذه الزيارة، إلا التمهيد لرئيسه المباشر، القنصل الجنرال الإيطالي في بيروت، ليتباحث مع رئيس اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس - برقة.

وبالفعل حضر هذا القنصل العام من بيروت. وحدد بشير السعداوى مطالب الوطنيين بأنها إقامة الحكم الذاتى، على أساس ما تضمنه الميثاق القومى، ووعد الطرف الآخر بالكتابة إلى رومه. وسأل في الوقت نفسه إذا كان بشير السعداوى يوافق على الذهاب إلى رومه إذا دعت حكومتها للمباحثة معه هناك. واعتقد السعداوى أن الطليان يريدون الاتفاق حقيقة في هذه المرة، فوعد بتلبية الدعوة إذا جاءت، ولكنه اشترط مع ذلك أن يكون الاتفاق قد تم على الأسس التى يقوم عليها حل القضية الطرابلسية - البرقاوية، فى

مباحثات تجرى إما فى سوريا وإما فى مصر، وذلك قبل الذهاب إلى رومة، وبعد أسبوع سافر (إسبرانسا) إلى رومة.

ولكن حدث قبل سفره أن قابل - (إسبرانسا) - الدكتور رجب فردى فى بيروت، وهو صديق السعداوى، من أيام حكومة الداماد أحمد نامى، فذكر له أن السعداوى ربما تأتية الدعوة للذهاب إلى رومة، فإذا حصل هذا فنصيحتى له أن يمتنع عن الذهاب، وطلب (إسبرانسا) من رجب فردى أن يبلغ صديقه السعداوى ذلك، وسلمه بطاقته كى يبعث بها إلى الأخير، ليتأكد من مصدر هذه الرسالة.

مضت الأيام دون أن يترتب أن يترتب شىء على هذا الاتصال الأول. وكانت سياسة المفاوضة التى بدأها (بادوليو) فى برقة قد بدأ ينكشف ويريداً رويداً، الغرض الذى كان يرمى إليه الطليان منها، وهو المراوغة والمخائلة وكسب الوقت، حتى اقتضح مستور هذه المفاوضة، وتأكدت لدى عمر المختار نوايا الطليان الصحيحة، فأصدر نداءه المشهور إلى أبناء وطنه وسكان برقة وطرابلس، فى ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٨ (٢٠ أكتوبر ١٩٢٩) يسرد فيه قصة المفاوضات. ويدعو مواطنيه إلى المضى فى جهادهم والكفاح عن كيانهم، "بأذلين دماءهم الزكية فداء للوطن وفى سبيل الوصول إلى غايتهم المنشودة".

غير أن نبأ فشل المفاوضات هذه، لم يبلغ المجاهدين فى المهجر إلا بعد أن كان بشير السعداوى قد وجه خطاباً مفتوحاً إلى (السنور موسولينى) رئيس الوزارة الإيطالية، وبعد أن كانت تجددت المباحثة مع المسئولين الطليان فى دمشق مرة أخرى، ومع أن هذين الحدثين كلهما لم يسفرا عن نتيجة، فإن أكثر ما يعيننا عما وبع فيهما، إنما هو ذلك "التفسير" الذى تناوله خطاب السعداوى لرئيس الوزارة الإيطالية، والذى جاء فى المباحثة التى جرت مع الطليان ثانية، لمطالب المجاهدين فى المهجر - والتى تضمنها ميثاقهم القومى، وهى لا تخرج فى أصولها عن اعتبار الاستقلال تمتعاً بالحكم الذاتى فى نكاح العلاقات مع إيطاليا.

فقد جاء فى خطاب بشير السعداوى إلى "فخامة رئيس الوزارة الإيطالية (السناتور موسولينى) المعظم" بتاريخ دمشق فى ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٨ - الموافق ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٩ ما نصه:

بماسبة مفاوضات الصلح التى تدور فى هذه الآونة بين دولة المارشال (بادوليو) والى طرابلس الغرب - برقة، وبين الزعيم السيد عمر المختار قائد الحركات الحربية (فى الجبل الأخضر)، رأت اللجنة التنفيذية للجانليات الطرابلسية، أن تعرب لفخامتكم عن رغائبها ووجهة نظرها فى حل القضية الطرابلسية البرقاوية، التى استمر تعقدها ثمانى عشرة سنة والحروب فى ذلك القطر متوالية، والفتن يتلو بعضها بعضاً، مع أن نقطة الخلاف، لا تستلزم دوام هذه الحرب الضروس، التى كلفتنا وإياكم خسائر عظيمة، فى النفوس والأموال. إذ لا يخفى أن نواميس الطبيعة، قد منحت كل أمة سكناً تسميه وطناً، وقطرت الأمم على حب هذا الوكن، وحب الحرية فيه، وإن أمتنا ترغب أن تعيش حرة فى الأرض التى تعرف جغرافياً وتاريخياً بقطر طرابلس - برقة. وقد قدمت لتحقيق هذه الرغبة ضحايا أكثر بكثير مما تقدمه الأمم عادة فى سبيل نيل حريتها.

لو أنصفت الحكومة الإيطالية الفخمة وتجردت عن ملاحظة الأشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها إلى الحقائق والجوهريات لما آل الأمر إلى استمرار الحروب طول هذه المدة، فإنها قد دفعته عوامل دولية إلى احتلال طرابلس - برقة، وأصبحت بتلك العوامل السياسية ذات مركز خاص فى تلك البلاد.

وإننا معشر الطرابلسيين - البرقاويين لا ننكر أننا بحاجة إلى دولة ترشدنا إلى ما تحتاج إليه البلاد، من الرقى الذى يفسح مجال الاقتصاديات والمنافع المتبادلة، التى تقدم البلاد إلى العمران والحضارة الحاضرة، إنما الأمر الذى ننكره هو: فكرة الاستعمار فى الوقت الذى تطورت فيه الأمم وحصلت

على حقوقها وأمانيتها القومية، ولا نظن إننا نلام إذ قمنا للمطالبة بحقوق توصلنا إلى المقعد الذى يليق بنا فى هذا المعترك الحيوى بعد أن اشتريناه بدمائنا وبذلنا ولا نزال نبذل فيه نفوسنا ونفيسنا. وأن من عرف شيئاً يسيراً عن تاريخ الأمة العربية، وما فطرت عليه من حب الحرية المتأصل فى نفوسها، لكونها عاشت من القدم مجودة عن كل قيد وحجر، يعلم أن نزوعنا إلى الحرية، خلق عريق فينا ورثناه جيلاً عن جيل.

لذلك أرى أن إرغام الأمة الطرابلسية - البرقاوية بالقوة والقسر على قبول الاستعباد من الأعمال التى لا تجدى نفعاً، ولا توصل إلى استتباب الأمن والراحة فى ذلك القطر، بل الأمر الذى يعيد إليه الراحة والسلام. هو وضع أسس ترتاح إليها الأمة الطرابلسية البرقاوية، وهذه الأسس التى آمل أن نفضى إلى نتيجة حسنة تجدونا - ماى رغبتم فى إقامتها - على أتم الاستعداد لمصافحة اليد التى تمد إلينا، حاملة غصن السلام، بدلا من سيف النعمة وإننا - يا فخامة الرئيس المعظم - نقدر فيكم روح العبقريّة التى رفعتكم إلى النهوض والأخذ بيد الأمة الإيطالية التى رفعتم شأنها بين الأمم الغريبة، ونشرتم فيها تلك المبادئ القومية السامية.

لذلك لا نرتاب فى أنكم تقدرّون كل نهضة قومية وتعطفون على الأمة الطرابلسية - البرقاوية، التى تفاخر بقوميتها، وترغب فى المحافظة عليها، ولو كلفها ذلك مصارعة الموت والفناء عن آخرها. فقد كفانا وكفاكم ما خسر كل منا من الضحايا. وإذ أصبحتم ترغبون فى نشر لواء السكينة والسلام على تلك الربوع وبدأنتم فى مفاوضة السيد عمر المختار، فإننا نرغب - وكلنا أمل - فى أن يكون هذا السلام عامّاً لا خاصّاً ببرقة التى هى جزء لا يتجزأ من طرابلس، على أسس تضمن مصالح الفريقين، وإنى مستعد لتأمين ذلك مع رفقاءى الذين يراسون القبائل المحاربة، والذين هم اليوم خارج القطر فى أماكن مختلفة أو على أمل أن تجد كلمتى هذه مكاناً فى نفس الزعيم الكبير، بادرت بعرضها، عساها تكون خير واسطة لتحقيق رغباتنا، فإن الفكر

السديد، الذى حل أكبر معضلة، وهى مشكلة الفاتيكان، وصار بها فى نظر المفكرين أعظم رجل اليوم، لا يمكن أن يعجزه حل قضيتنا، ودمتم باحترام".

أما تجدد المباحثات، فقد حدث فى وقت كان الفاشيست فى إيطاليا قد نبذوا ظهرياً كل سياسة للتفاهم مع المجاهدين فى برقة، وكان تعين غرريانى نائباً للوالى فى بنغازى، وهو صاحب السمعة السيئة "كجزار ليبيا"، وكان قد صرح عزمه على إخماد كل مقاومة أهلية فى هذا القطر السيف والمدافع، وبدأ ينجح فى عملياته العسكرية ضد السيد عمر المختار وسائر المجاهدين فى برقة وفزان، حيث كان فى هذا الإقليم الأخير أحمد وعبد الجليل سيف النصر يتزعماه الجهاد ضد الطليان. وهكذا لم يعد الطليان ييغون حل القضية الطرابلسية - التى لم يشاءوا الاعتراف بوجودها - بطريق المفاوضة والمباحثة السلمية، بل صار يمههم التخلص من زعماء وقادة الجهاد، بكل وسيلة، وسواء أكان هؤلاء فى داخل البلاد أم فى خارجها.

فقد نقلت الحكومة الإيطالية قنصلها فى دمشق (إسبرانسا) إلى مصر. وعينت فى مكانه أحد رجال الفاشيست المقربين من موسوليني، وكان أول نشاط لهذا القنصل الجديد أن حاول الاتصال برئيس اللجنو التنفيذية للدفاع عن طرابلس - برقة، يرجو من وراء "المباحثة" معه، أن يثنيه عن متابعة نشاطه فى خدمة قضية الوطن، بإدخال الخوف إلى قلبه من بطش حكومة الفاشيست، وهى التى كانت أصدرت حكماً بالإعدام على بشير السعداوى فى طرابلس فى عام ١٩٢٣، أو أنه كان يرجو من وراء الاتصال به تدير "نقله" إلى إيطاليا - كما يرجح - إما مقبوضاً عليه، وإما تحت تأثير الوعود الكاذبة بإمكان الوصول إلى حل سلمى للقضية الطرابلسية. فقد طلب هذا القنصل الجديد أن يقابله السعداوى فى دار القنصلية (بدمشق). واعتقد السعداوى أن تعليمات فى ضوء المباحثة السابقة مع (إسبرانسا) قد جاءت من رومة، فلبى دعوة القنصل.

ولكن لشد ما كانت دهشته بعد أن استوى به المقام عندما فوجئ بالقنصل يخرج طائفة من الأوراق أخذ يتلو من واحدة منها - وينقل الترجمان إلى العربية ما يتلوه القنصل - نص الحكم الذى صدر فى طرابلس بإعدام بشير السعداوى فى التاريخ الذى ذكرناه. وساورت السعداوى الشكوك فى نوايا القنصل، وخشى أن يكون استقدمه إلى دار القنصلية لقبص عليه بها. فلم يصير حتى ينهى القنصل قراءته، بل هب من مكانه وقد ملأ الغضب نفسه، يمرق كالهم من مجلس الرجل إلى فناء الدار والحديقة - ومكان القنصلية الإيطالية، كان قصر رضا الرطابى باشا - ولم يلحق به الترجمان إلا وهو على وشك الخروج من الحديقة، وحاول الترجمان - من غير طائل - إقناعه بالعودة "لأن القنصل يريده". وشعر السعداوى عندما وجد نفسه حرًا طليقًا أنه نجا من خطر محقق. ولم يفد القنصل كل أمل فى إنكان "المباحثة" مع السعداوى مرة أخرى فراح يوسط من أصدقاء السعداوى، السيد فائز الخورى، ويوفد سكرتير القنصلية، أنطون دمر، وهو سورى، لإقناع السعداوى باستئناف المباحثة ومقابلته، ولم يفقد بشير السعداوى - من جانبه - الأمل فى إمكان الوصول إلى اتفاق مع الطليان، على ما فيه صالح الوطن، فاجتمع الفريقان، ولكن فى دار أنطون دمر فى هذه المرة، وأوضح السعداوى للرجل مدى المظالم الإيطالية فى بلاده، وكيف أن ارتكاب هذه المظالم يسىء إلى سمعة إيطاليا. خصوصًا لدى العرب والعالم الإسلامى.

لم تسفر هذه المباحثة عن شئ لسبب بسيط هو أن قوات (غريزاني) فى برقة وفران كانت منتصرة على المجاهدين الذين أخذ حالهم سوءًا فى غضون عامى ١٩٣٠، ١٩٣١ لا نتيجة لانهمزاهم فى المعارك الكثيرة، التى خاضوا غمارها مع الطليان فحسب، بل ولتنكيل هؤلاء بهم وتعريضهم لمختلف أنواع الإباداة لإفنائهم. كابتداع (المحكمة الطائرة) و (معسكرات الاعتقال)، عدا

ضرب نطاق الحصار الشديد على فلولهم التى كان لا يزال بها رمق للمضى فى الجهاد بقيادة عمر المختار فى المواقع القليلة التى بقيت لهم .

ولقد كان لهذه الفظائع التى ارتكبتها الطليان فى ليبيا أبلغ الأثر فى شحذ همم المجاهدين فى المهجر، لشن حملة عنيفة من الدعاية الواسعة لإظهار فضائح الطليان للعالم أجمع، وللعالين: العربى والإسلامى خصوصاً، وهما اللذان كان يحرص (موسوليني) على كسب ودهما لمناوأة نفوذ الاستعمار الإنجليزى الفرنسى القديم مناوأة تفيد منها إيطاليا فى حساب هذا الزعيم الفاشيستي، الاستئثار بمكانة عالية فى منطقة الشرق العربى، فكان عندئذ أن بدأ اتصال بشير السعداوى بالمجاهد العربى القديم شكيب أرسلان، وأن عظم نشاط اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس - برقة، بالصورة التى سوف نذكرها .

وأما الأثر الآخر الذى يعيننا مباشرة الآن - ونحن بصدد العلاقات أو المباحثات بين بشير السعداوى وبعض المسئولين الطليان - فهو أن السعداوى إلى جانب المضى فى حملة الدعاية ضد الحكم الإيطالى فى طرابلس برقة، صار يرجو لو أن الفرصة كانت مواتية لاستئناف المباحثات مع حكومة موسوليني، لعله يكون ممكناً الوصول إلى اتفاق يقيم الحكومة الوطنية فى شكل إمارة يرسم دستور من وضع الأمة نظام الحكم بها - وذلك كله فى حدود ما أوضحه (الميثاق القومى) - قبل أن يتم النصر لقوات (غريزبانى)، فيسحق الطليان المقاومة الأهلية سحقاً، ولا تعود تجدى أية محاولة لإنقاذ البقية الباقية من صفوف المجاهدين، ناهيك بتحرير البلاد من ربة الاستعمار الإيطالى إطلاقاً، وإنهاء أساليب الدمار والإبادة التى هددت بتشريد الليبيين وإفنائهم .

ولما كان بشير السعداوى قد أخذ يتصل بالأمير شكيب أرسلان من أواخر عام ١٩٢٩، يطلب منه الدفاع عن القضية الطرابلسية - البرقاوية،

ودارت بين الرجلين فى شئون هذه القضية مكاتبات، سيأتى ذكر الموضوعات التى تناولتها فى حينه، فقد راح السعداوى ييقص عليه تاريخ الاتصالات والمباحثات مع الطليان التى ذكرناها، ويوسطه فى "نصح" حكومة موسوليني بالإقلاع عن استعباد الشعب الطرابلسى البرقاوى. واستمالتها لاتفاق مع البلاد فى ضوء ما أجمعت عليه مطالب الأمة، (وأوضحه الميثاق القومى). وقد أجاب الأمير شكيب على السعداوى بكتاب طويل، يقف القارئ منه على طرف من سيرة شكيب أرسلان نفسه كمشتغل بالقضايا العرية - وذلك كان السبب الذى حدا بالسعداوى للاتصال به - كما يبين الأمير شكيب الأسباب التى تجعله يرفض الوساطة مع حكومة موسوليني، وهى أسباب سوف يرى القارئ أن مبعثها توقع إخفاق المسعى، لطغيان حكومة موسوليني من جهة، والخوف من اتهام الأمير شكيب نفسه "بالتساهل فى حقوق الطرابلسيين" إذا بدت منه "أقل هفوة".

وفيما يلى نص الرسالة التى بعث بها الأمير شكيب من لوزان بسويسرا فى ٢٧ مايو ١٩٣٠ وقد حذفنا الجزء الأخير منها، لأنه متعلق بأحد "الشبان العراقيين" يونس بحرى أو "السائح العراقى" الذى يذكر عنه الأمير شكيب الشئ الكثير، ولكن لا صلة له بموضع البحث. وإليك نص الكتاب:

حضرة الأخ المجاهد الكبير السيد البشير السعداوى المحترم، أخذ الله بيده.

وأخذت كتابكم وفهمت ما فيه، ومن الزائد فى القول، أن أتأوه لما هو جار على القطر الطرابلسى، بمرأى ومسمع من المسلمين المتقاعدين جميعاً عن نيرته، لا لسبب آخر سوى الاستسلام لليأس والقنوط والتكالب على حب الدنيا على حين أنها تفر منهم وأيديهم منها تقريباً صفر.

والعلاج الوحيد هو كما قلتم: الجهاد والعمل، وعدم اليأس، ويحدث الله بعد ذلك أمراً، ويخلق ما لا تعلمون.

فأما مراجعتكم ذلك الرجل الذى راجعتموه من سنة لحل المسألة، لا أقول إن فيها ضرراً، بل على الإنسان أن يطرق كل الأبواب، ولكن من عرف حالة هذا الرجل (والمقصود هنا موسولينى) العقلية، ومبادئ، سياسته، ومظامعه، ومراميه، علم أن هذا اللسان الذى تتكلمون معه به، هو لا يفهم منه شيئاً أصلاً، فهو ينظر إلى الأهالى هناك (أى فى ليبيا) نظره إلى حيوانات، إذا كان يبقى عليهم فيكون استبقاء لخدمتهم البدنية فى حقل إيطالية لا غير. وما يفهم هذا الرجل شيئاً من مبادئ الحرية وحقوق البشر حتى فى بلاده وبين أمته، فسيف تريد أن يفهمها فى قوم أجنب عنه من كل وجه، وهؤلاء لا يراهم إلا عبيداً.

وكلا يا أخى ليس من أمل، ولا فى الألف واحد، أن يسمع هذه النصائح وما تقولون إنه كان جرى من المكالمات الصلحية مع السيد عمر المختار هذا كان خداعاً وتخدير أعصاب لا أكثر ولا أقل. فأما أن أدخل أنا فى الموضوع فهو يزيد الضرر لأن المكاملة لن تكون متى لهم إلا على أساس يضمن حقوق الأهالى، ويكون فيه بالأقل حكومة أشبه بحكومة تونس مثلاً، وهذا لا يرضى به ذلك الرجل ولا بأقل منه. وأنا لا أرضى أن أدخل فيما هو أقل من ذلك، لأن الأعداء - وأنت تعلم المترصدين لى للوقوف على أقل هفوة - يتخذون ذلك فرصة للثلب والطعن وللقول بأنى تساهلت بحقوق الطرابلسيين، بل وللقول بأنى بعث بلادهم الخ.

فأنا من هذه الجهة أتعرض لأمور تزيد حياتى مرارة فيكفينى ما أنا فيه من عداوات الحساد ووضايات الأعداء الذين يكادون يزلقوننى بأبصارهم. ثم إن هناك محذوراً آخر متعلقاً بنفس المصلحة، لا يبيح وهو أن هذه المفاضات بطبيعة الأمر ستكون نتيجتها عدم الاتفاق - هذا لا ريب فيه - فنصطر أن نقول لهم:

إن الأهالى لم يقبلوا بهذه الشروط. فيكون عند ذلك ظنهم أنى أنا

الذى علم الأهالى بأن لا يقبلوا، وأن الأهالى يقبلون كل شىء لولا التحريكات والتسهيلات! فالدول الاستعمارية كلها على هذا النسق، كلما هبت أمة واقعة تحت قهرهم تطالب بحقوقها قالوا: هذا تحريك فلان وفلان. وأنا بنوع خاص متهم بهذا الأمر منهم جميعاً ولا يكرهن أحداً أكثر منى. وهؤلاء الذين شغلهم واقع معهم (أى الطليان) يعلمون كل جهادى وتاريخى وجهادى عندكم (أى فى ليبيا). إنما يتجاهلون عمداً حتى لا أحذر.

وكان سبق لهم معى مكاملة وإظهار مودة أملاً بأن أقنع إحدى الحكومات العربية . . بعقد معاهدة معهم، فأنا دخلت فى الموضوع، وبعد أخذ ورد رأيت أنهم يطلبون أموراً لا يجوز لتلك الحكومة العربية أن ترضى بها، فأجبتهم أن هذه المطالب غير ممكنة، ثم أقنعهم أنها غير ضرورية وأظهروا الاقتناع. لكنهم فى الواقع لم يزالوا متمسكين بمقاصدهم تلك، وقد تركوا مفاوضاتى فى هذه المسألة من نحو سنتين إذ رأوا أنى لا أوافق على ما ظنوا أنهم يزلقون تلك الحكومة العربية فيه . . ولماذا أوافق؟ وكيف أوافق؟ وقد سلخت من حياتى ٤٥ سنة فى نصيح الإسلام، وسأقضى بقية هذه الحياة فى ذلك. فهل أختتم هذه الحياة بوصمة تضيع ما تعبته؟ ولماذا؟".

وينتقل الأمير شكيب إلى الكلام عن يونس بحرى، ويختم كلامه عنه بقوله:

وأرجح أنه سيذهب إلى طرابلس، فيلكن عندكم هذا الخبر معلوماً".

هذه الرسالة أنهت كل أمل من المحتمل أنه كان لا يزال لدى بشير السعداوى فى إمكان الوصول إلى اتفاق مع حكومة موسولبنى. ثم لم يلبث أن وقع من الأحداث فى برقة، ما كشفت عن نوايا الطليان الحقيقة من حيث تعتمد إفناء وإبادة الشعب الليبى، وليس مجرد إخماد المقاومة الأهلية، عندما شرع (غريزبانى) إلى جانب الآثام الأخرى التى ارتكبها - والتى يجد القارئ سجلاً كاملاً لها فى كتابنا (السنلوسية دين ودولة) بهنون الاستعمار الإيطالى:

صحائف سود - يحشد العرب فى معسكرات الاعتقاد، كوسيلة من الوسائل التى يقضى بها على مقاومة المجاهدين بقيادة عمر المختار فى برقة. ومن أواسط سنة ١٩٣٠ خصوصاً اتسعت دائرة هذا النشاط الإرهابى، حتى بلغ بعد ثلاثة شهور تقريباً عدد الأسر - ولا نقول الأفراد - التى حوصرت فى معسكرات الاعتقال فى برقة بين العقيلة وأجدابية، ثم فى سيدى أحمد المقرون، ثم بين سلوق وسوانى تربة والأبيار، وبنى غازى ودريانة، ثم فى عين الغزالة وفى الجبل بالقرب من المرج، وفى مرسى سوسة (أبو لونيا) وفى درنة (١٥٧٩٧) أسرة.

قد أحيطت كل هذ المعتقلات بالأسلاك الشائكة. ثم أنشأ (غرزيانى) معتقلاً خاصاً فى العقيلة، لم يلبث أن ذاع صيته، بفضل أعمال القسوة والإبادة والإفناء، التى كانت ترتكب به. أقامه (غرزيانى) خصيصاً حتى يعتقل به أقارب المجاهدين. بدعوى أنهم كانوا أشد ميلاً من غيرهم لمساعدة هؤلاء والتستر عليهم.

ثم اتخذ غرزيانى من معتقل العقيلة هذا مركزاً تجرى فيه السلطات الحكومية توقيع العقوبات - من إعدام ونفى وتشريد وجلد - على العرب الذين يرتكبون مخالفات ما فى المعتقلات الأخرى. ولذلك فقد أطلق على معتقل العقيلة اسم (معسكر العقوبات) واشتدت محنة المعتقلين فى الشهور التالية. واستثار شعور العالم الإسلامى قاطبة ما فعله الطليان بعد ذلك، عندما دخلوا واحة الكفرة فى يناير ١٩٣١ فاستباحوا قرى هذه الواحة ثلاثة أيام بطولها. "ارتكبوا خلالها، ما لا تتصوره الأذهان، من نهب وسلب وتشنيع وسبى نساء وذبح شيوخ وأطفال وإحراق دور ومزارع وانتهاك حرمة المساجد ودوس المصاحف".

وكان لابد إزاء هذه الكوارث أن تنشط اللجنة التنفيذية الدفاع عن طرابلس - برقة نشاطاً خارقاً لإذاعة أخبار هذه الفظائع التى يرتكبها الطليان

فى بلادهم، ولتأليب الرأى العام ضد إيطاليا فى العالمين العربى والإسلامى خصوصاً، ليتسنى بطريق الضغط "الأدى". واستنكار العالم لهذا الطغيان الفاشستى، وقف هذه الفظائع.

وكانت الوسيلة الوحيدة لدى اللجنة التنفيذية لمكافحة هذا الطغيان، هى شحذ سلاح الدعاية وسلوك كل طريق لبلوغ هذه الغاية. ويقتضى (النشر) ركن الدعاية الأول، استخدام أمضى أساليبها المعروفة فى ذلك الحين، ونعنى بذلك تجنيد أصحاب الأقلام المعروفة فى الدفاع عن القضايا العربية لتنوير الرأى العام بشأن القضية الطرابلسية البرقاوية. ولا جدال فى أن بشير السعداوى قد نجح نجاحاً كبيراً أثناء محنة حشد مواطنيه فى المعتقلات المتعددة فى برقة وخصوصاً فى معتقل العقيلة فى إثارة المشاعر فى البلاد العربية ضد الطغيان الإيطالى. ولعل أهم نجاح له فى هذا الميدان أنه استطاع إيمالة الأمير شكيب أرسلان - حامل لواء المنافحة عن حقوق العرب ضد الاستعمار الأوروبى فى تلك الحقبة من التاريخ - إلى احتضان القضية الطرابلسية البرقاوية.

٤ - شكيب أرسلان والقضية الطرابلسية البرقاوية

وللدور الذى قام به الأمير شكيب فى (الدعاية) لقضية طرابلس برقة و (النشر) عن هذه القضية، قصة لا تزال تحفظ تفاصيلها الرسائل التى تبودلت بين الأمير وبشير السعداوى ما يزيد على خمسة أعوام، وهى قصة لا مندوحة عن معرفتها للمكانة التى يتمتع بها الرجلان: شكيب أرسلان، وهو عند ذاك علم من أعلام النهضة العربية، توافق القوم على خلع إمارة البيان عليه. وقضى العمر أو أكثره يخدم قضايا العرب بقلمه وبيانه تارة، وبمسعاه الحميدى الحكومات المسئولة تارة أخرى. وأما الرجل الآخر، بشير السعداوى، فهو "ذو الهجرتين" حامل لواء الدعوة الوطنية بين قومه، والذى تزعم المقاومة ضد المستعمر فى خارج بلاده بعد أن أرغم على الهجرة منها، والذى تزعم

النشاط السياسى فى بلاده بعد زوال حكم الطليان، واستطاع أن يظفر لها بقرار وحدتها واستقلالها، بعد جهاد دام ثمانية وثلاثين عاماً.

ولدور الأمير شكيب قيمة تاريخية كبيرة، لأن قصة هذا النشاط، تكشف عن ناحيتين هامتين: أولاهما متعلقة بنوع الدعاية التى أثرت فى هذه السنوات لتنوير الأذهان فى قضية طرابلس برقة، ولإظهار الاستعمار الإيطالى فى ليبيا على حقيقته، بإذاعة أنباء المظالم التى يرتكبها المستعمرون فى حق الشعب الليبى، وفضح أساليب الطغيان والبطش التى يلجأ إليها لاء لإبادة هذا الشعب وإفناؤه.

أما ثانيتهما فخاصة بالخطوات التى بدأ بها دور الأمير شكيب نفسه فى هذه المرحلة - الدعاية ضد الحكم الفاشيستى فى ليبيا، ثم انتقل إلى محاولة للتوسط بين المجاهدين فى المهجر بزعامة بشير السعداوى، وبين حكومة بنيتو موسوليني فى رومة، لإيجاد حل للقضية الطرابلسية البرقاوية، ثم انتهى إلى فتور من هذه الناحية، عندما اتضح أن وساطة الأمير صارت لا تجدى نفعاً فى حمل السعداوى وزملائه على الاتفاق مع حكومة موسوليني على غير الأسس التى تضمنها (الميثاق القومى).

ولقد جاءت - فى هذه الحقبة من تاريخ الجهاد - مفاتحة الأمير شكيب بالتدخل لمؤازرة المجاهدين فى المهجر، من جانب بشير السعداوى. وقابل الأمير شكيب هذه المفاتحة بالتردد لأسباب يجدها القارئ فى رسائله التى تشيها فى هذه الدراسة، ولكن إلحاح السعداوى عليه لم يلبث أن جعله يقرر العمل - ولعله كانت هناك عوامل أخرى كذلك متصلة بنشاط الأمير شكيب نفسه أقنعتة باتخاذ الخطوة، حتى إذا اتضح أنه قد صار له شأن مع المجاهدين فى المهجر، أقدم الأمير شكيب - وبعد أن كان متردداً فى بادئ الأمر - على "التوسط" بين السعداوى وصحبه وبين حكومته "الطاغية" - وذلك ما بدأ أولاً يسمى به الأمير شكيب السنيور موسوليني - فى رومة. ولم يكن الأمير

شكيب موفقًا في هذه الوساطة لأسباب سوف تتضح كذلك من ثنايا المكاتبات التي تبودلت بين السعداوى وبينه.

وأما هذه الحقائق جميعها، سواء ما تعلق منها بمسألة الدعاية والنشر لمقاومة الاستعمار الإيطالي في ليبيا، أو ما كان متصلا بمحاولات الاتفاق وإبرام معاهدة مع الطليان على أساس (الميثاق القومى) فسوف تكشف عنها هذه المكاتبات ذاتها. والذي نود أن نذكره أنه لم يكن مستطاعًا إثبات رسائل بشير السعداوى إلى الأمير، لتعذر الحصول على رسائله إليه. فلم نعر إلا على عدد قليل من (مسودات) الرسائل المزمع كتابتها إلى الأمير، ولكن أمكن من ناحية أخرى العثور على مجموعة تكاد تكون كاملة من رسائل الأمير شكيب نفسه إلى بشير السعداوى.

(أ) وأول ما كتب شكيب إرساله إلى السعداوى كان من لوزان بتاريخ ١٠ كانون ثانى (يناير ١٩٣٠). يعتذر فيه الأمير شكيب عن تلبية نداء السعداوى لمؤازرة اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة بقلمه وبيانه، بالكتابة فى مجلته الجديدة التى بدأ يصدرها مع زميله إحسان الجابرى فى سويسرا: (الأمة العربية) La Nation Arabe

وفى هذه الآونة، وفى المجلات والصحف التى يكتب فيها فى مصر والشام وغيرهما من الأقطار العربية. وفيما يلى نص هذه الرسالة:

حضرة الوطنى العبى الأجل الأمثل السيد البشير السعداوى المحترم أظال الله بقاءه".

تناولت رقيمكم الكريم وفهمت كل ما فيه. وهنأتكم على مشروع الجمعية الطرابلسية البرقاوية، وسألت الله أن يأخذ بيدكم وبأيدي المسلمين عموماً، إلا أنى أرجح الطرابلسيين لطول بلائهم وشدة عودتهم وأنفة نفوسهم، ويا ليت الجميع نظيرهم، يشهد الله أن قلبى يقطر دمًا عندما أفكر بجهاد الطرابلسيين والبرقاويين هذه السنين الطوال وإهمال المسلمين إياهم إلى هذا الحد. ولكنى أعود فأقول:

أى المسلمين نريد أن ينهضوا لمساعدة مجاهدى طرابلس وبرقة؟ فلم يبق من المسلمين أمة إلا وهى مشغولة بالدفاع عن نفسها فى عقر بيتها. هذا فضلاً عن تأثير الحزير العامة، (وبشير الأمير هنا إلى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨) فى الأخلاق فقد بدلت بها لأرض غير الأرض والسموات وصار المسلمون "إلا من رحم ربك" من بعدها ماديين. ومع هذا فلا أعذرهم فى إهمال طرابلس لا سيما إخواننا المصريين الذين برقة وطرابلس لهم خزانة سلاح وكثانة نبال لو كانوا يتأملون وهم يقدرون على البذل. وهنا أيضاً مانع أنا أعرفه ولا محل له فى هذا الكتاب.

وكيف كان الأمر فلجنتكم كانت ضرورية ولا بد من أن يكون لها تأثير. وإنى مستعد أن أؤيدها بكتبى الخاصة عند كل فرصة. فأما فى الجرائد فأنتم تعلمون أنه ما أحد جاهد بقلم ولسان وسنان عن طرابلس أكثر من هذا العاجز. إلا أنى من نحو أربع سنوات صرت أتجنب نشر المقالات فى هذا الموضوع تحت إمضائى. وذلك على أثر حادث لا يسعنا ذكره كان أمكن الطليان أن يغدروا فيه كما شاءوا لا سيما وهم يعلمون تاريخنا كله فلم يقدروا وقصدوا التودد، ومنم بعدها راجعونا فى كثير من المسائل العربية فاعتذرنا عن بعضها وأعطيناهم لأجل بعضها آراء لم يعلموا بها فاقترضنا.

ومن البداية كانوا هم البادئين بالتقرب ولعلمهم ظنوا أنهم يقدرون أن يستفيدوا منا بدون أن يسمعوها نصحن. ولكنهم رأوا أخيراً أن هذا غير ممكن. فمئذ نحو سنة لم يدخلوا معى فى محادثة. وإنما أنا مضطر أن أمر بإيطالية. وإذا جئت إلى الحجاز فلا طريق لى إلا من فرنسية أو إيطالية أو تركيا، فأما فرنسه فلا أقدر أن أدخلها إلا بإذن خاص، ولم أدخلها إلا بدعوة من حكومتها. وأما تركيا فلا أدخلها، لأن فى ذلك خطراً لا محل أيضاً لشرح قصته. ولم يبق إلا إيطالية، التى منها أقدر أن أسافر إلى الشرق، وإلا فينبغى لى أن أذهب إلى هامبورغ، ومنها أركب إلى البحر الأحمر، ولكن لا بد من الانتقال إلى وابورات طليانية، إذ أن الوابورات الألمانية لا تمر على جدة.

والحاصل ضاقت علينا الأرض بما رحبت . وهذه المرة فى مسألة مرور من بورسعيد والسويس ذقنا عرق القرية حتى أمكن ذلك يومين تحت أشد المراقبة . وأما المجيء إلى فلسطين ، ولو يومين لمشاهدة والدتنا ، فلم يمكن برغم جميع المساعى ، ومخاطبة حكومة الحجاز للإنجليز ، ثم وعد ناظر إنجلترا ، وناظر المستعمرات فى البداية .

فهذه هى الحال والمرور أصبح متعذراً علينا من كل محل ، فاضطررنا إلى كف إعلان العداوة لأولئك الجماعة ، حتى يمكننا أن نمر من أرضهم . ولكننا لا نبرج نناضل وندافع ، وكثير مما تنشره الجرائد فى موضع طرابلس هو منا . ولا يمكننا بحال من الأحوال أن لا نتصر للمظلومين ، ولعمري إنى أنصر المظلوم ولو لم يكن من جنسى ، فكيف وهو من لحمى ودمى . ولقد أخبرتكم بما أخبرتكم به ، على وجه الإشارة المجملة ، وهناك تفاصيل طويلة : أصبحنا غرباء عن بلداننا ، ضاقت علينا المذاهب وانسدت الطرق فى البر والبحر ، أرجو إهداء سلامى إلى إخوانكم جميعاً ، وأنا منتظر سفر الأخ خالد بك (القرقى أبو الوليد) إلى الحجاز والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . المخلص شكيب أرسلان . (ويلى هذا عنوانه بلوزان بالفرنسية : ٢٦ أفيئو ديزآلب) .

(ب) وفى الرسالة التالية يستجيب الأمير شكيب لنداء بشير السعداوى وإلحاحه ، فيعدل عن رأيه الأول ، بالامتناع عن النشر والكتابة فى الصحف والمجلات ، عن قضية طرابلس برقة ، ويعد بالنشر فى مجلته الجديدة (لانسون آراب) وكان قد بدأ يظهر أثر نشاط اللجنة التنفيذية الدفاع عن طرابلس برقة فى صورة عدد من المقالات فى الصحف والمجلات تذيب فظائع الطليان فى ليبيا ، وتحمل حملة شعواء على طغيانهم . وكتب السعداوى إليه كتاباً مؤثراً يستنهض همته ، ويقول له فيه :

إنه لا يطلب منه إلا يستطيع عمله " فأجاب الأمير شكيب أنه قد قرر

العمل، وطلب من السعداوى أن يبعث إليه بكل، يريد نشره فى قضية بلاده .
ثم يستمر على ما وعده فى كتابه الراهن، وهذا الكتاب من لوزان بتاريخ ١٧
نيسان (أبريل) ١٩٣٠ :

الأخ الأجل الهمام البشير اليعداوى المحترم، أخذ الله بيده .

أهنتكم بحملاتكم الصادقة التى ظهرت فى الجرائد على الذين اغتصبوا
بلادكم وعملوا فيها العاملين ولا أرى فى الحاضر طريقة أخرى . ولو كان
العالم الإسلامى غير ما هو لكان يفيدكم . لكن مع الأسف عضدكم لا ينشأ
إلا عن قوة الدين، والحال أن الدين يضعف ويهن، ولولا بعض أفذاذ هبوا
للدفاع عنه لتلاشى وعد كل تملص منه رقيًا! مكذلك عضد قضية طرابلس،
ينبغى له تكافل بين المسلمين كما كان شىء من هذا التكافل قبل الحرب
الكبرى^١ والحال أن هذا التكافل عده بعض المتفلسفين خطأ فى رأى،
فصارت كل بقعة من بلاد الإسلام مهتمة بنفسها لا غير ذهابًا إلى أنها بذلك
واصلة إلى غايتها وما زادها ذلك إلا بعدًا عن الغاية . . وكذلك غلب على
المسلمين بعد الحرب الروح المادية فلا تجد منهم حرصًا على المثل الأعلى كما
تجد حرصًا على المال وأصبحت الإعانات النقدية مستحيلة تقريبًا فهى أزمة
فكرية يعانى بها الإسلام غمرات نسأل الله النجاة منها . ولا ينبغى لنا مع
ذلك أن نقنط أو نجزع بل الجهاد ضرورى كيفما كانت الصعوبات . ومن انقطع
عن الحركة مات وهو فى الحياة . والصبر طليعة النصر . بطية مقال من جورنال
دو جنيف واردة من رومة ترجموها أو أسعوا فى ترجمتها ونشرها مردودًا
عليها .

ونحن فى مجلتنا الجديدة La Nation Arabe لا بد أن تلم بذكر طرابلس
ونلوم إيطاليا على خطة العنف فيها، ولو كانت الأحوال التى ذكرتها لكم فى
كتابى السابق لا تساعد على إظهار كل ما الضمير خيفة أن يقطعوا علينا
الطريق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . المخلص شكيب أرسلان .

(ج) وقد بعث الأمير شكيب إلى (اللجنة التنفيذية) بترجمة "أينية إيطالية وجدت مطبوعة في بني غازى. وقد كانت بأيدي جميع الجنود (بعنوان) وداع متطوع لأمه" وطلب العمل على نشرها وإذاعتها، وأمكن أن تنشر هذه الأغنية جريدة (الشرق) البيروتية عدد ٥٤٣ مع تطبيق طويل عليها لاستنهاض همة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لإنقاذ طرابلس برقة من مجاز الطليان. وقد عمدت اللجنة التنفيذية إلى نقل مقال جريدة الشرق الذى يتضمن الأثوذة والتعليق عليها، فأذاعته في (منشور) مستقل، وبما تجدر ملاحظته أن هذا المنشور ذيل بإمضاء "مجاهد" من "ساحة الحرب الطرابلسية البرقاوية. وفيما يلى صورة هذا المنشور:

وداع فاشيستى متطوع لأمه

صرخة من ساحة الجهاد

(إلى العالم الإسلامى)

سلام على العالم الإسلامى فى برقة

إن من أعظم الآلام لشاب فى العشرين من عمره أن لا يحارب فى سبيل وطنه مع دوام القتال فى طرابلس، والراية المثلثة الألوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة. يا أماء أتمى صلاتك ولا تبكى واضحكى وتأملى، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى (طرابلس) فرحاً مسروراً لأبذل دمي لسحق الأمة الملعونة (كذا) ولا حارب الديانة التى تجيز البنات الأبكار للسلطان. سأقاتل بكل قوتي لامحاء القرآن (كذا) ليس بأهل المجد من لم يمت إيطاليا حقاً، تحمى أيتها السوالدنة، تذكرى (كارونى) التى جادت بأولادها فى سبيل وطنها.

يا أماء أنا مسافر، ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستضع سقائنا المراسى، أنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى، وذلك القطر تحت ظلها، لا تموتى فى طريق الحياة، وإن لم

أرجع فلا تبكى على ولدك، ولكن اذهبي فى كل مساء وزرى المقبرة ونسائم
الأصيل، تحمل إلى طرابلس وداعك، الذى يأبى الحداد على قبر فلذة كبذك،
وإن سألك أحد عن عدم حدادك على، فأجبيه إنه مات فى محاربة الإسلام،
الطبل يقرع يا أماء، أنا ذاهب أيضاً، ألا ستمعين هرج الحرب، دعينى
أعانقك وأذهب! . . . "معربة عن الإيطالية"

اقرأوا هذه الأنشودة أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها،
واقرأوها ألف مرة، بل اقرأوها حتى ترسخ فى أذهانكم، وتتنقش فى
أدمغتكم، انتقاشاً لا تمحوه عواذى الأيام، ولا تزيله كوارث الأعوام. نعم
احفظوها حفظاً قوياً، حتى إذا لاقيتم ربكم نطقت بها ألسنتكم بين يديه،
وحوسبتكم على غفلتكم وتغاضيتكم، عما أصاب دينكم الحنيف من إهانة
وتشنيع.

أيها المسلمون: أينما كنتم، أناشدكم الله أن تقرأوا هذه الأغنية (أغنية
الفاشيست) وتمتعوا فى معانيها جيداً، ويعدئذ تسعرضون فى مخيلاتكم
جيوش الطليان الجرارة تسير فى طرق (طرابلس برقة) الإسلامية مدججة
بالسلاح تترنم مترنحة بهذه الأنشودة الحماسية بصوت واحد تخاله الرعد
القاصف. تصوروا حالة المسلمين إخوانكم وهم يسمعون بأذانهم عبارات
الهزء والسخرية بدينهم وقرآنهم وقوميتهم وعروبتهن.

تصوروا جيداً ما وصلت إليه حالهم من الذل والمسكنة والقهر. تصوروا
هذا الوعيد وهذه الإهانات الموجهة إلى شعب مسلم برىء، لا ذنب له إلا
الإسلام. انظروا ما هم المسلمون (فى طرابلس برقة) يموتون قهراً ويذوبون
لوعة. انظروا هذه القلوب الدامية والأقنعة الذائبة والعيون المغرورة والوجوه
الشاحبة، تفرسوا فى وجوه هؤلاء المسلمين البائسين. اقرأوا فى خطوط

جباهم هذه الكلمات:

سلام على الإسلام فى هذه الربوع . سلام عليك أيها الدين القويم .
وداعاً أيتها القبلة المحمدية . وداعاً أيها القرآن الكريم . سلام على ذكر الله فى
تلك المساجد .

اقرأوا هذه الأنشودة، وتفهموا معانيها، وودعوا مع المودعين نجم
الإسلام الآخذ بالأفول . اندبوا مع الناديين دينكم المهتد، وقرأتكم المهان .
ودعوا مجدكم فى (طرابلس برقة) كما ودعتموه فى (الأندلس) كبروا أربعاً
على صوت الله بعد أن كان عالياً مهيباً فى تلك السهول الشاسعة والجبال
الشامخة عدة قرون .

وأسفاه . وارحمته . وامصيته! . . وقعت الواقعة واشتد الخطر، نزلت
النازلة عظم الأمر . ما أشد المصاب . ما أمر هذا العقاب . بلاد إسلامية
تكتسح، ودين محمد وابن عبد الله يبىد، وقرآن يمحق، وأمة إسلامية تفتنى،
وملايين من المسلمين تنام . كأنما لا صلة لهم بتلك البلاد الككتسحة، ولا
رابطة تربطهم بمحمد الرسول الأمين ﷺ . ولا علاقة لهم بالكتاب الكريم .
هاهم المسلمون فى هذه البلدة السيئة الحظ مشرئبة أعناقهم، متطاوله
أبصارهم، مرتعدة فرائضهم، جمهورية أصواتهم، مرتفعة استغاثاتهم، إلى
العالم الإسلامى فى كل حذب وصوب .

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

أين هم المسلمون على كثرتهم؟! أين هم من هذه الأناث المتقطعة
المؤلة، والزفرات المتصاعدة إلى عرش ربها؟ أين أولئك الملايين الغاصة بهم
الجوامع؟! أين تلك الجموع المحتشدة فى كعبة الله ومقام محمد بن عبد
الله؟! .

هى الدنيا شغلتنكم أيها المسلمون عن واجبكم، وأين الدين منكم؟
وأنتم لا تتوجعون لصابه، ولا تتهافتون على نسله من هوة الفتاة تهافتكم على

القصاص، فالدين النخوة، وأين نخوتكم والنساء تستباح أعراضها فى ديار الإسلام؟ الدين الشهامة. فأين شهامتكم وإخوانكم فى (طرابلس برقة) يقاسون المر، يلتحفون السماء، ويفترشون الغبراء؟ ..

ما هى أياديكم إلى أولئك المجاهدين الذين يناضلون القوى فى البر والجو والبحر فى سبيل صيانة دين هو دينكم وكتاب هو كتابكم.

عجيب أمر المسلمين أيها المسلمون. كيف تذوقون الراحة ودماء إخوانكم تهدر، وأوثالهم تقطع، وأعراضهم تغتصب.

كيف يلذ لكم النوم، والإيطاليون يصرخون بأقوالهم وينفذون بأعمالهم، خطط إفناء المسلمين وإبادتهم بشتى الوسائل؟ ليست الأنشودة قولاً يقال، ولكنها عمل ينفذ فى رابعة النهار. كيف تأملون النجاح وأنتم شذر مذر لا يفكر الواحد فى الآخر؟! أمن النخوة والشهامة أن تنتعموا وتتلهوا عن شعب غربى مسلم رافع راية الإسلام على هاماته.

أين علماء الإسلام وورثة الأنبياء؟ أين ملوك العرب فى الحجاز والجزيرة؟ أين أرباب الغيرة والحمية؟ أين أرباب الصحف أدمغة الأمة؟ أين الشعراء؟ أين المراثى؟ أين الدموع؟

أضربتم بأوامر الله، ووصايا خير عباد الله عرض الحائط، فنتم على القذى؟ أين نجداتكم لضحايا الإسلام؟ هذه دماؤنا سائلة، وجثثنا هامدة، وهاماتنا مبعثرة فى سبيل إعلاء كلمة الله منذ (١٩) سنة فأين أعمالكم؟ هل ضمدتم جروحنا؟ هل كفلمت أيتامنا؟ هل حميتم أعراضنا؟

اشهد أيها الإله القادر، واشهدوا أيها الأجداد العظام، أن الأمة الطرابلسية البرقاوية المحكوم عليها بالفناء، تلقى هذا الخطب الجلل على عاتق المسلمين، إن ثمة مسلمون. والسلام على من سمع فوعى، فأدرك العقبى ..

ساحة الحرب الطرابلسية البرقاوية "مجاهد"

(د) لقد كان واجب تعليم أبناء وطنه، عقيدة راسخة، لدى بشير السعداوى الذى شاهدنا اهتمامه بالعلم والتعليم، من نعومة أظفاره، وفى صدر شبابه، وأيام هجرته الأولى فى ينبع البحر، وفى جزيين. ولذلك فقد اعتقد السعداوى دائماً أن تعليم أبناء الأمة، والقضاء على الأمية والجهالة بين ظهرانيهم السلاح الماضى فى آخر الأمر لإنهاء كل عبودية سواء كان مبعثها طغيان أصحاب السلطان فى الداخل، أم زواج الأمة تحت أثقال الاستعمار الأجنبى. وأراد السعداوى إذاً أن يستعين بالأمير شكيب لترويج الدعوة بين عظماء (العالم الإسلامى) وذوى الثراء فيه لتعليم نخبة من شبان طرابلس برقة فى أوروبا.

ولكن الأمير شكيب - وهو الأكثر خبرة بهؤلاء "العظماء" و"الأثرياء" فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين - لم يكن متفائلاً بهذه الدعوة، بل كان يعتقد أن لا خير يرجى من توجيه نداء لهذا العالم فى الغاية التى يريد بها بشير السعداوى. فأجاب على مقترح السعداوى فى رسالة بعث بها إليه من لوزان فى ٢٣ تشرين أول (أكتوبر ١٩٣٠) يزيد من أهميتها، أنا تكشف عن الأسباب التى بنى عليها شكيب إرسال نفسه رأيه فى العالم الإسلامى فى وقته. جاء فيها ما يلى:

حضرة الأخ المحترم الذى أخذ الله بيده.

رقيمكم عندى من أشهر. لكنى كنت غائباً فى الأندلس، ورجعت من نحو شهر " فوجدت بدون مبالغة، نحو ٢٠٠ مكتوب محتاجة إلى أجوبة، عدا ما كان يلحقنى من المراسلات إلى الأندلس. وعد ما يستلزم الحال من مقالات، وعدا إكمال ما زعمت أنى شارع بتأليفه، فاعذرني إذا تأخرت فى جوابك.

المجلة خاصتنا (والمقصود هنا: لا ناسيون آراب) أشارت فى أحد أعدادها إلى خطأ سياسة إيطالية، وسنشر فيها نداءكم فى عدد قادم.

ما راجعتمونا فيه بشأن كاتبة العالم الإسلامى وعظمائه وذوى الثروة منه فى أمر إنحداد الطرابلسيين وتعليم نخبة شبان منهم فى أوروبا الخ أجاوبكم عليه أن الأولى بذلك لجنة من أنفس الطرابلسيين هى تطوف عليهم وتعرض هذا المشروع.

وأنا على يقين أنهم لا يجبون داعياً لا لى ولا اللجنة، ولا تظنوا أنى أقول بالظن بل أقول عن خبرة. راجعناهم فى أمور عديدة فلم ينهضوا. راجعناهم فى أمر طرابلس وأرسلنا المكاتيب صعبة مخصوص من مرسين (مدينة على الساحل الجنوبى الشرقى للأناضول قريباً من خليج الإسكندرية، كان يقيم بها شكيب أرسلان قبل انتقاله إلى سويسرا فى ظروف شرحها هو فى كتابه عن "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة" الذى طبع بدمشق فى (١٩٣٧) فلم يسمح منهم أحد بجنيه واحد.

رجل واحد كنت كتبت إليه وهو من الهند فأرسل إعانة للسيد السنوسى "والمقصود هنا السيد أحمد الشريف السنوسى"، ثم لسوء الحظ تأخرت أحوال هذا الرجل. وبالاختصار أنا أقول عن خبرة: إنهم لا يجودون بشيء حتى لو طافت عليهم لجنة فكيف إذا كانت كتابة من بعيد.

ربما تهتمون أن لى كلمة فى العالم الإسلامى ونفوداً ولذلك لا يمكنهم إلا أن يجيئوا الطلب، فأنا أضرب لك مثلاً يجعلك تعتقد ما أقول:

مجلتنا هذه "لا نسيون آراب" بدل اشتراكها نصف جنيه لا غير وهى مفيدة جداً وضرورية من أجل تفهيم الأوروبيين الحقائق عن الشرقيين ومهمتها الدفاع عن المسلمين، ونحن من أجل بث الدعاية نوزع منها ١٥٠٠ نسخة فى أوروبا مجاناً، إذ هؤلاء لا يؤدون بدلات اشتراك، فكان ينبغى أن يأتينا من العالم الإسلامى ما نقدر أن نقوم به بتوزيع هذه المجلة على ١٥٠٠ شخص من الأوروبيين، من حكومات ورجال سياسة وصحفيين، ونواب وشيوخ وغيرهم.

وبالجملة الأمر بسيط . جميع نفقات هذه المجلة ستمائة جنيهه ، فينبغى لنا ألف مشترك لا زيادة حتى تسدد المجلة مصاريفها ، فقد مضى على مشروعنا هذا ثمانية أشهر وكل ما جاءنا من البدلات والإعانات للمجلة ٩٥ جنيهًا . ونحن أنا وإحسان بك الجابرى دفعنا من صلب مالنا ٤٠٠ جنيهًا إلى اليوم . وقد كتبنا على العظماء الذين تذكرون عنهم ، ومنهم من لم يجابوب ومنهم من دخله السنوى ٢٠٠ ألف جنيهه فأجاب أنه يشترك بعدد واحد أى يدفع نصف جنيهه .

يا أيها الأخ : يسوؤنى أن أذكر هذه الحقائق ، لكنك اضطررتنى إلى القول إذ لو لم أوضح لك ذلك ، كنت أنت وإخوانك تقولون : شكيب أرسلان تأخر عن عمل الخير ولو شاء ، لكنت ببضعة مكاتيب منه انثالت الأموال ! وأرسلناه عدة شبان يتعلمون فى أوروبا !

فقصدت أن تعلموا هذه الحقائق المرة ، التى مع ذلك ليس عندى وقت أن أذكرها إلا بالإشارة . لو كان فى العالم الإسلامى عظماء وأغنياء باذلون ، ما كان بهذه الحال التى ترونها . . ويجوز أن تتبدل الحال فى المستقبل ونرجو ذلك . أما الآن فمع الأسف ، الحالة هى كما أقول لكم وما عليكم إلا أن تجربوا بالفعل .

إن العالم الإسلامى هو اليوم مصداق قول الرسول ﷺ ، والرسول كان نبياً وكان صادقاً " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الجياع على القصاع قالوا : أو من قلة منا يا رسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن فى قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم من حبيكم الدنيا وكراهيتكم الموت .

صدق رسول الله ﷺ : من أحب الدنيا فاته الدنيا ومن كره الموت أحبه الموت . ولهذا المسلمون ٣٥٠ مليون تجدهم بهذه الحالة من الذل ، فعسى أن يغير ما بهم ويعودوا إلى عزائم الإسلام . والسلام عليكم ورحمة الله

(هـ) وقد اتبع الأمير شكيب القول بالعمل، فأخذ يكتب عن الحكم الإيطالي في طرابلس الغرب، ويندد بأعمال الطليان في مجلته (لانسيون آراب)، وينشر في مجلة الفتح مقالاً بعنوان: "الحملة اللاتينية على الإسلام". ثم يعد "نشرة" بعنوان: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، تكلم فيها كذلك عن طرابلس الغرب، بعث بها إلى صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا صديقه، ليراجعها ويطبعتها في مطبعة المنار بمصر، وذلك منذ نوفمبر ١٩٣٠، وقد فرغ صاحب المنار من مراجعة هذه الرسالة وطبعتها في يناير من العام التالي. ويقول السيد رشيد رضا في كتاب له إلى الأمير شكيب من القاهرة في ٢٩ يناير ١٩٣١. إنه فرغ من طبع الرسالة وقام بتوزيع نسخ كثيرة منها على الهيئات والأفراد، ثم يقول: "وكنتم أرجو أن آخذ ثمنها منهم كلهم أو بعضهم فلا أرسل إليك كتاباً إلا أن يكون فيه تحويل بمبلغ من الجنيهات، ولما يتيسر لى قبض شيء ما.

وفي ٢٦ يناير ١٩٣١، كتب الأمير شكيب من برلين إلى "أخيه البشير أخذ الله بيده" يذكر هذا النشاط الذى قام به، ويفسر لماذا قرر التنديد بأعمال الطليان بعد أن أحجم عن فعل ذلك. فيقول: (أظن أن مقالتنا عن أعمال إيطالية فى العدد الأخير من مجلتنا (لانسيون آراب) مما أرضاكم. وأظن أنكم ماطلعتم على نشرتنا. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، المطبوعة بمطبعة المنار، ففيها نصيب عن طرابلس. وستأتى فى الفتح مقالة منى: (الحملة اللاتينية على الإسلام، ولن تتأخر عن كل ممكن. لقد دارينا هؤلاء الجماعة لأسباب ذكرناها لكم قبلاً، لكن الصبر له حد فقد عيل صبرنا أخيراً... "

(و) وكان فى هذه الأثناء أن بدأ يذيع المعتقلات التى أخذ الطليان يحشدون بها العرب فى برقة، بحجة منع الاتصال بين الأهالى والمجاهدون فى الجبل الأخضر بقيادة عمر المختار، وعلى نحو ما سبق أن ذكرناه فى

موضعه . وقد بلغ عدد المحشودين فى هذه المعتقلات ثمانين ألفاً . ولقد أخذ يذيع كذلك خبر تلك الآثام التى ارتكبها الطليان عندما دخل هؤلاء الكفرة فى يناير من هذا العام (١٩٣١) .

فبادر الأمير شكيب يكتب عن هذه الفظائى فى مجلته (لانسىون آراب) ، ويعد العدة للاحتجاج على إيطاليا فى فرع جمعية حقوق الإنسان فى جنيف . وأراد فى الوقت نفسه إلقاء خطاب يحضره "ألف من الحق" . ولكنه كان بحاجة لمعلومات أوفى وأدق عما بلغه عن كل هذه المسائل ، وطلب إلى بشير السعداوى أن يمدّه لما لا بد أن يكون لديه من تفاصيل ودقائق صادقة عن هذه المأسى . وقد فعل بشير السعداوى ما أراه الأمير شكيب ، وكيف لا يفعل ، وتلك كانت الغاية التى يسعى إليها رئيس اللجنة التنفيذية للدفاع عن (طرابلس برقة) فى كفاحه ضد المستعمر ، لفضح أعمال الطليان الإجرامية والتنديد بها ، وتنوير أذهان الناس فى العالمين ، العربى والإسلامى خصوصاً بفعالهم ، لعل ذلك يفيد فى درع الطليان وزجرهم فيقلعوا عن آثامهم ويوقفوا حملة الإبادة والإفناء ، إذ لم يفد ذلك فى حملهم على التسليم بحقوق أهل البلاد والاتفاق معهم على ما يحفظ لهم دينهم وتقاليدهم .

وفيما يلى نص كتابين من الأمير شكيب إلى بشير السعداوى :

الكتاب الأول محرر من لوزان فى ١٨ شباط (فبراير ١٩٣١) يقول فيه الأمير :

يا أخى : غير ما كتبناه فى مجلتنا ، عن فظائع الطليان فى برقة أردنا أن نحتج على إيطاليا فى فرع جمعية حقوق الإنسان فى جنيف وأن فى ذلك خطبة يحضرها ألف من الحق ، وقد رضيت الجمعية بذلك ، إلا أنها اشترطت أن نستأجر نحن القاعة التى يكون فيها الاجتماع . وهى كلفة ٢٥٠ فرنكاً سويسرياً أى ١٠ ليرات إنجليزية .

فبرغم الأزمة التى نحن فيها ، تحدثت أنا وزميلي (والزميل المقصود هو

إحسان بك الجابري) يدفعها. ولكن الجمعية طلبت أن نقدم لها تقريراً مفصلاً عن هذه الفظائع. فنحن ليس عندنا، سوى ما نشرناه في مجلتنا عن سوق الثمانين ألف عربي من أهل الجبل الأخضر إلى سرت وحصرهم في بقعة صغيرة، وما سنشره عما فعلوه بالكفرة، ومسكهم مائة امرأة من حرم الأهالي. فإذا كان عندكم تفاصيل عن هاتين الواقعتين - لأنه قد تاتي إليكم تفاصيل عن طريق مصر فوافونا بها وعجلوا بشرط أن تكون صحيحة محررة بتدقيق لئلا يكذب، وكذلك أرسلوا لنا سائر ما تعلمونه من مظالم الطليان في طرابلس وبرقة حتى نشرحها كلها في الاجتماع الذي سنعقده.

بقيت مدة إداري إيطالية بعض الشيء حتى نقدر أن نمر بأرضها إذا عن لنا سفر إلى الشرق لكنني في الآخر ضاق ذرعي وقلت لن أظأ أرضها وإذا أردت السفر إلى البحر المتوسط، فإني أبحر من هامبورج بألمانية، أو أذهب إلى بلاد اليونان وأبحر منها ولو كانت هذه الطرق أطول، فإن لمدارة حضرة الديكتاتور (والمقصود هنا موسوليني) حداً. والله يصلح الإسلام والمسلمين. فقد بلغنا أن أكثر الحملة التي دخلت الكفرة وهي مؤلفة من عسكر مسلمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص شكيب أرسلان

وفي حاشية: "هل اطلعت على رسالتنا، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ فيها كثير عن حرب طرابلس".

(ز) وأما الكتاب الثاني فكان بعد أن وافاه بشير السعداوى بالحقائق التي يريد فبعث إليه الأمير شكيب من لوزان في ٣ نيسان (إبريل ١٩٣١) بكتاب يتحدث فيه عن مبلغ الألم الذي لا يزال يحز في نفسه من مظالم الطليان ومآثرهم. وعن الخطوات التي اتخذها لفضح هذه الآثام؛ ويقترح ترجمة التقرير الذي أرسله إليه بشير السعداوى عن حوادث سرت والكفرة، إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية "وإن أمكن فالطليانية"، وتوزيع "خمس

آلاف نسخة منه فى كل أوروبا" ، وقد تحدث الأمير عن تكاليف الترجمة والطبع ، ويشرح الوسيلة لالتى ينصح بشيراً باتباعها لتدبير المال اللازم للترجمة والطبع والتوزيع : ثم يشير عليه بتدابير أخرى يفصلها كتابه له . ولهذا التقرير الذى أعده بشير السعداوى ، والذى وصفه شكيب أرسلان بأنه " يحرك الجماد " وللآراء التى تزاخمت فى ذهن شكيب أرسلان نتيجة لقراءته له أهمية بالغة من حيث إن ما دار حول هذا الموضوع وقتئذ ، لم يلبث أن أدى إلى اقتراح من جانب الأمير شكيب على بشير السعداوى أن يؤلف " كتاباً " فى الموضوع ذاته (فى مايو ١٩٣١) ترتب عليه إصدار كتاب "الفظائع السود الحمر أو التمدين بالحديد والنار" : أو فى سجل ظهر لفظائع الاستعمار الإيطالى فى " طرابلس برقة) فى ذلك الحين ، وهو كتاب سوف يأتى الكلام عنه فى موضعه . وفيما يلى نص هذه الرسالة الهامة :

أخى البشير أخذ الله بيده

إذا أراد الإنسان أن يكون مسلماً شريعاً فى هذه الأيام فما أصعب الحياة . الموت خير منها . أما إن شاء الله أن يكون مسلماً ندلاً - والإسلام الحقيقى والندالة لا يجتمعان - فإنه بقدر أن يعيش ، لأن النذل كيف تقلبت الأمور راض .

كتب من نفس جرائد إيطالية ، وقولهم إنهم قبضوا على ١٠٠ امرأة فى الكفرة ، لحظت أن كلاب إيطالية هتكوا الأعراض . وكذلك كنت ليل نهار أتصور حالة الثمانين ألف عربى الذين وضعوهم بصحراء سرت وأعلل نفسى بأن تكون هانت مصائبهم عن ذى قبل ،

ولكن لما وصل كتابك عرت الحقائق وأنها أقسى من التصورات والله يعلم أننى من ثلاثة أيام لا أكاد أعى وأول ليلة لم أنم إلا غراراً عند الصبح وعائلتى ترانى حيران ، وإجمالاً لا أتكلم ولا أطيق أحداً يتكلم ولا تعرف لماذا وأنا لا أقول لهم حتى لا أزيد آلامهم حتى إننى لم أقل لأخى عادل ولا

اطلعت على كتابك لأننى أعرفه شديد التأثير . ولكنى من أول يوم وصول كتابك أخذت القلم وحررت مقالة إلى الفتح ١٣ صفحة من قطع هذه الورقة وصفت بها كتابك الطليان بما يجب ولا لزوم أن أعيد لك ما قلت لأنك ستقرأ الفتح . ولقد طلبت أنا من الفتح ٢٠ نسخة، لأرسلها إلى جهات بعيدة من العالم الإسلامى، وإلى بعض ملوك الإسلام ضمن ظروف .

وأتم ينبغى لكم أن تشتروا أيضاً ٤٠ أو ٥٠ نسخة وتوزعوها وترسلوها إلى الأماكن التى يلزم إرسالها .

وقد اخترت الفتح لهذه المقالة . لأنها الجريدة التى يثق بها المسلمون الحقيقون، وسأتبعها مقالة . ثم مقالة . ولن أكف عن هؤلاء الكلاب ما دام بى عرق ينبض .

ذكرت من جملة ما قلته فى الفتح "أنى لست من المسلمين الجغرافيين ولله الحمد وأنه إذا اعتدى معتد على الإسلام ولا سيما بهذا الشكل الفظيع فإنى أنبذ إليه على سواء .

أما فى مجلتنا فإنى مهىء مقالة ثانية من قبل مجيء مكتوبك عن احتلال الكفرة وعن العرب الذين نقلوهم إلى سرت .

ثم سأنشر التقرير الذى أرسلته لى تحت ختم اللجنة الطرابلسية البرقاوية .

وأما الاجتماع الذى كانت وعدتنا به جمعية حقوق الإنسان فقد تلكأت عنه وأخذت تتعلل ويظهر أنهم يخافون من الطليان لأنهم كثيرون بجنيف، وربما تكون الحكومة السويسرية المحلية أيضاً لا تريد عقد اجتماع كهذا . وأما السويسرى الألمانى فلا يزال مساعداً لنا ومجتهداً وقد طلب منى أنى فى خطابى لا أقول عن إيطالية أشياء جارحة فوعده أنى أروى الأخبار ثم أتكلم بكل اعتدال . ولكنه منذ عشرة أيام جاءنى إلى حد لوزان وطلب منى المهلة

قائلا إن رفاقه لا يزالون متذبذبين .

فهذه المرة سنقرأ له الأخبار الواردة منكم ، المؤيدة ببعض قطع تدل عليها من كلام بعض جرائد إيطالية نفسها .

مع هذا سواء نعقد هذا الاجتماع أم لم ينعقد فإنى عازم على ترجمة تقريركم بالفرنسية والإنجليزية والألمانية وإن أمكن فالطليانية وتوزيع خمسة آلاف نسخة منه فى كل أوروبا .

التقرير مترجماً لن يكون أكثر من ١٢ صفحة ، فإذا ترجم بأربع لغات ، فيكون ٥٠ صفحة بالكثير ، فنحن صرنا نعرف مسائل الطبع سبب مجلتنا .

فالجزء الواحد من (لانسون آراب) إلى ٣٢ صفحة ، الذى نطبعه فى إنغاس - من أرض فرنسا ، لكن على مقربة من جنيف - لأن الطبع أرخص فيها عما فى جنيف - يكلف ٧٠٠ فرنكاً سويسرى ، أى أقل من ٣٠ ليرة إنجليزية ، مع توزيعه وربط لفافاته وأجرة البريد أى خالصاً مخلصاً . فإذا حسبنا هذه النشرة مع مقدمتها ستكون ٦٠ صفحة قطع المجلة " فتكون كلفتها ٦٠ جنيهًا . نعم يلزم لها إضافة أجرة بريد ٧ سنتيمات عن كل نسخة ، لأننا نحن لانوزع من مجلتنا أكثر من ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ نسخة ، فلا بد من زيادة نحو ٢٥٠ فرنكاً أى ١٠ جنيهات إذا أردنا أن نوزع خمسة آلاف نسخة فى أوروبا وأمريكا واليابان والهند والجارى وكل الدنيا على الحكومات والجرائد والعلماء والمشهورين وغيرهم . فينبغى أن تعلموا حسابكم أنه يلزم لهذا العمل بالأقل ٨٠ جنيهًا لأنه يجب أيضاً عمل حساب أجرة المترجمين للفرنساوى والإنجليزى والألمانى والطليانى . نعم الفرنساوى نترجمه بقلمنا ، وأما اللغات الأخرى فلا بد من الاستئجار . ويجوز أن تنزل هذه الكلفة فيما إذا اختصرنا واقتصرنا فى النص ثم فى الترجمة ، وجعلنا الترجمات ثلاثاً : بالفرنساوى والإنجليزى والألمانى فقط . وبدلاً من توزيع خمسة آلاف نسخة اكتفينا بتوزيع ألف وخمسمائة ، وربما بهذا الشكل تنزل الكلفة إلى ٥٠ جنيهًا ، ولكن على

كل حال هذا العمل ضرورى جداً لا مناص منه .

أصبحنا نحن المسلمين لا نقدر أن نقاوم هؤلاء الجماعة بالسنان والسلاح فلا بد من المقاومة بالاحتجاج والصياح لأن السكوت يزيد البلاء إذ من عاداتهم أنه كلما سكت لهم الإنسان، ازدادوا عدواناً وطغياناً .

وأما تأثير نشرة كهذه توزع ألوفاً من مالنسخ فى العالم فىكون كبيراً جداً بحق إيطالية ولو سكت الأوروبيون أنفسهم ظاهراً فإنهم يحتقرون الطليان باطناً ويشمتون بهم .

ومن الدول مثل : فرنسا وألمانيا والنمسا واليونان ويوغسلافيا ، من يسر بهذه النشريات بحق إيطالية ، بل يسر كثيراً . ثم إنجليزية وهولاندا والبلدان الاسكندينية لا تحب الفاشيست أصلاً ، فيسرها هذه النشريات .

وأما فى العالم الإسلامى ، فللهند والجاوى تكفى النشرة المترجمة بالإنجليزية والألمانى ، ولكن البلدان الأخرى يلزم لها نشرة بالعربى والتركى والفارسى . وكل هذا ممكن بسهولة لأن النشرة غير طويلة ، يمكن ترجمتها من بست إلى ثمانى صفحات : فأما المال اللازم لهذا العمل ٧٠ أو ٨٠ جنيههاً فيجب أن تجمعوه من أصحاب الحمية ولو سألتهم الناس فى الطريق . هذا ليس لعمل خاص ، ولا للأشخاص ، بل للذب عن ملة الإسلام التى أهينت فى عرضها ودينها وناموسها ودمها ومالها ، فلتألف لجنة تدور على ذوى الحمية وتأخذ من وجودون به مقيداً بدفتر ، من شاء فليذكر اسمه . ليس فى سؤال هذه الإعانة أدنى عار . والله لو لم أكن مديوناً وأبيع من أملاكى لدفعت كل هذا المبلغ من كيسى بلا تردد . وإذا رأى الطليان أن كل الفظائع التى يعملونها تشهر فى الخافقين فإنهم بدون شك يتوقعون لأنهم يعلمون الضرر الذى يحصل لمصالحهم بهذه الدعاية .

وقد بدأوا يكذبون الأخبار عن هذه الفظائع لمجرد كتابتنا نحن فى (لانسون آراب) وبعض النشريات بالجرائد العربية .

بقى شيء وهو أننا نحن لا يعلم إلا الله وحده درجة مشغوليتنا ونحن برغم هذا كله لا نتأخر عن القيام بهذا العمل . لكن إذا أمكنكم أنتم وأنتم جماعة، أن تقوموا به من نفس الشام يكون أحسن، ونحن نساعدكم به من هنا .

فتحرير النشرة العربية طبق النص الذي أرسلتموه إلى هذا ممكن، ووجود من يترجم ذلك للتركي والفارسي . وطبع هذه النشرة في الشام، وتوزيعها وإرسال مقدار إلى تركيا ويوسنة وقوصه ومناستر وإلى تركستان الروسية وإلى إيران وأفغانستان والهند بالبوطة وبواسطة الحجاج والسياح كله ممكن .

وإذا عملتم همة، فإن الترجمة للفرنساوى أيضاً ممكنة جداً، في الشام أو في بيروت، وللإنجليزى أيضاً، لأن الذين يتقنون هاتين اللغتين في بيروت بنوع خاص عدد كبير وموجود أيضاً من الألمان من إذا أعطيته النص الإفرنسى أو الإنجليزى ترجمه جيداً . وأجرة الترجمة في سورية أرخص جداً مما هي هنا، ففي سورية ست صفحات إلى تسع صفحات أو عشر صفحات، لا يأخذ عليها المترجم البارع أكثر من ليرة ذهب، أما هنا فقد يأخذ الضعف .

فإذا عملتم النشرة ترسلونها إلى هنا، فننشرها أولاً في مجلتنا ونوزع منها ألفاً أو ألفى نسخة أو ثلاثة آلاف نسخة، كما تريدون في جميع العالم، كما أننا في مجلتنا . لا نترك هذا الموضوع أبداً . فتكونون وفرتم علينا تعباً كثيراً لأننا نحن هنا اثنان لا غير (والمقصود إلى جانب الأمير نفسه زميله إحسان بك الجابري) علينا من الأشغال ما تنوء به العصبه وليس لنا معين ولا من يحمل عنا شيئاً .

العشر ليرات الإنجليزية التي أرسلتموها أصبحت بغنى عنها، لأننى بعت مزرعتى المقروضة وجاءتنى الدفعة الأولى من ثمنها، ولذلك أنا فكرت في إعادتها لكم لتفقوها في مصاريف النشرة، ثم فكرت انه إذا أرسلتم صندوقاً

فيه ألفان إلى ثلاثة آلاف نسخة للتوزيع فنقدر أن نتفق العشرات أجرة توزيع .
والحاصل الرأى لكم فيها " .

هذا ما كان من جهة التدبير وهو الشرية ، وهى أحد صلاح نقدر ان
نقابل به كلاب الطليان فى الوقت الحاضر على فظائعهم هذه غير قاطعى
الأمل من أن وقتاً من الأوقات يأتى لأولادنا أو أحفادنا أو سلائلنا ، يأخذون
بها ثأرهم من هذه الأمة السافلة التى هى أسفل أمة على وجه الأرض .

(ولا شك أن الأمير شكيب كان مهتاج الخاطر عندما نعت أمة الطليان
بنعت لا يختص به إلا فئة من المستعمرين الذين يوجد لهم نظراء فى كل دولة
وأمة مستعمرة . ولم يكن قصدنا من إثبات نص الرسالة إلا إظهار مبلغ الأثر
الذى تركته فى نفس العرب المعاصرين من طراز الأمير شكيب الجرائم التى
ارتكبها الطليان فى تلك الحقبة فى حق الأمة البرقاوية الطرابلسية فى حوادث
معسكرات الاعتقال واستباحة الكفرة) .

لكن هناك تدابير أخرى لابد منها " .

تجهّدون فى عقد اجتماع فى الشام وإلقاء خطب احتجاجات على عمل
إيطالية فى طرابلس وتتلّى خلاصة الفظائع ، ولا سيما ما صار مؤخراً فى
الكفرة وقضية نفى الثامنين ألف عربى إلى سرت وأخذ أطفالهم من أيديهم
وإماتتهم جوعاً إلى غير ذلك . كل هذا يجب أن يتلى . وإن أمكن أن يتلى
تقريركم هذا فى الجامع الأموى بعد صلاة الجمعة يكون أحسن . نعم ارفعوا
منه قالت الجريدة الفلانية أو الفلانية من الجرائد العربية وأبقوا روايات الجرائد
الإفرنجية لأنها شهادة من أنفسهم .

السلطة الأفرنسية لا تكره أن يعرف المسلمون أعمال الطليان فى
طرابلس ليقابلوا بينها وبينها ويعرفوا أن فرنسا على كل حال أقل ظلماً . ومن
المحقق أن الناظرة شديدة بين الفريقين فى تونس خصوصاً . فلا أظن أن
السلطة تعارضكم فى عقد هذا الاجتماع وعمل هذه الخطب . ولكن ينبغى

بأى وجه كان عقده وتلاوة خلاصة هذه الفظائع فى الاجتماع وفى الجامع الأموى بعد صلاة الجمعة. ثم إرسال صور من تقرير الفظائع تلى فى جوامع حمص وحلب وحماء وطرابلس الشام ويمتد ذلك إلى فلسطين. لكن يلزم الابتداء فى الشام. الشام قبل كل محل. وفى الاجتماع الذى يجب أن ينعقد يلزم أن لجمهور يقرر مقاطعة البضائع الإيطالية وكل شخص طليانى وكل شىء طليانى. ثم لا تنسوا سحب تلغراف باسم الاجتماع وتلغراف آخر باسم اللجنة الطرابلسية البرقاوية احتجاجاً بشدة إلى جمعية (عصبة) الأمم. ويلزم طبع هذه الفظائع وإلصاقها فى داخل بيوتكم وبيوت أصحابكم وكل مسلم عنده حمية وإلصاق عدد كبير منها فى الشوارع.

إن لم تقدروا أن تعقدوا هذا الاجتماع وتحتجوا فيه على هذه الفظائع وتقرأوا للناس هذا التقرير الذى يحرك الجماد سواء فى الاجتماع أو فى الجامع الأموى وكان مسلمو الشام لا يمشون معكم حتى إلى هذه التى كل يوم يحصل أمثالها فى أوروبا لحوادث أقل من هذه بكثير فيكون لم يبق مسلمون فى الشام وعلى الإسلام السلام، وليتظر المسلمون فى كل محل أن يحصل لهم ما حصل لمسلمى الكفرة وعرب الجبل الأخضر.

لا تقرأوا كتابى هذا لأحد أصلاً، لأن السلطة إذا علمت أن هذا هو رأى عاكست المشروع.

ثم تقدرون أن تقرأوا مكتوبى هذا لعارف بك التكدى (وكان وكيلاً للأمير شكيب يسهر على مصالحه فى سوريا). هذا رجل شهم أبى مأمون وهو قادر أن يسعى من جهته مع أصحابه. اجتهدوا أن تجدوا طريقة للشيخ تاج (الدين الحسنى رئيس الحكومة) بعدم معارضة هذا العمل، أى عقد الاجتماع وأن يقنع أن هذا العمل يرضى المسلمين عن شخصه لأنه هو لا يهمه غير شخصه. وكذلك استجلبوا الشيخ عبد القادر الخطيب لعله يتكلم فى الجامع الأموى بعد صلاة الجمعة يسمح بتلاوة التقرير.

اما ما سأعمله بمصر وسائر الأماكن فى هذه المسألة فهذا عائد لى .
انهضوا أنتم الطرابلسيين الذين بالشام ومعكم المغاربة وراجعوا الأمير سعيد
الجزائرى فعنده حجة إسلامية، وينهوضكم ينهض الشاميون، واعملوا الذى
عليكم فى الشام. وأما فى سائر البلاد، فإن شاء الله يحصل اللازم، والله
الموفق .

أخوكم شكيب أرسلان

(ح) ومضى أسبوع، ولم يجد شكيب أرسلان - على حد قوله -
"حركة فى الجرائد" من بشير السعداوى وصحبه، تفضح "فضائع هؤلاء
الكلاب فى الكفرة ولا غير ذلك"، فعاد يؤكد ضرورة العمل السريع، وكتب
إلى "أخيه البشير" من لوزان فى ٩ نيسان (إبريل ١٩٣١) الكتاب الآتى:

من سبعة أيام كتبت إليك مكتوباً مطولاً مضموناً حاولت البرنامج اللازم
بإزاء فضائع الطليان بطرابلس. فأنا أؤكد كتابى هذا بحذافيره. ويجب على
جمعيتكم أن تواجه جميع المغاربة. ثم تسعوا جميعاً لدى الوجوه وذوى
الحمية من أهل الشام بعقد الاجتماع وإلقاء الخطب والاحتجاج ورفع البرقيات
لجمعية الأمم الخ.

الفرنسيين لا يعارضون فى هذا، لأنهم مستاءون من الطليان والاتفاق
البحرى لم يتم وإيطالية لم تعترض على الاتحاد الاقتصادى بين ألمانيا والنمسا.
لم أجد هذه المدة منكم حركة فى الجرائد، فإنه يأتينى القبس والعهد الجديد
والنداء ولم أقرأ شيئاً عن فضائع هؤلاء الكلاب فى الكفرة ولا غير ذلك.

ولقد ورد فى الفتح أن أهل الجغبوب رحلوا وتشتتوا من ضرب طيارات
الطليان، وجاء فى الشورى قذف البحر عند السلوم ١٤ جثة مكبلة بالحديد.
فيجب أن تعملوا حركة فى الجرائد. لأننى بعد أن كنت عزمت على إرسال
رسالة إلى العهد الجديد تأخرت إذ لا يوافق أن تكون هذه الحركة كلها منى،
وأن يظن أن مصدرها واحد، وبعد ذلك يقول الطليان هذه أخبار غير صحيحة

منشورة لمقاصد سياسية، فتبصروا. إن طبقتم برنامجي جيداً فإنه يكون ذا تأثير عظيم جداً. والله يأخذ بيدكم ويحفظكم"

أخوكم شكيب أرسلان

وفي حاشية يقول الأمير شكيب: "الذين أخذ الطليان أطفالهم جبراً، أهم الذين أجلوهم عن سرت أم غيرهم؟ اسألوا الحقوقيين تجدوا أنه لا يحق لحكومة من الحكومات أن تنتزع من أيدي الآباء والأمهات الأولاد الذين دون البلوغ. وضمنوا هذا المعنى كتاباتكم وبرقياتكم الاحتجاجية".

(ط) وبعد أيام قلائل، كتب الأمير شكيب مرة أخرى إلى بشير السعداوى يذكر له طرفاً من النشاط الذي قام به هو وإخوانه في الاحتجاج على "فظائع إيطالية بطرابلس" ويعود فيكرر نصيحته السابقة بشأن "الاحتجاج في الشام وعقد الاجتماع" الذي كان أشار به في المسجد الأموي بدمشق، ثم إنه ما كاد يفرغ من كتابه هذا حتى أتاه كتاب من بشير السعداوى، في طيه قصاصة من جريدة (ألف باء)، [وهي دمشقية وصاحبها يوسف العيسى] مقال عن: "الـ ١٤ جنة"، وصورة النداء الذي أعده بشير السعداوى وقتئذٍ لإرساله إلى مكة في الحج، استنهاضاً لهمة المسلمين، لينجدوا إخوانهم في برقة.

وهذا النداء الذي بعث بصورته السعداوى إلى الأمير شكيب، هو الذي صدر فعلاً ووزع في الحج بعنوان "استغاثة" - وكان له على خلاف ما توقع شكيب أرسلان أثر كبير في تأليب العالم الإسلامي وتهيج الخواطر ضد إيطاليا، مما سوف نتأوله بالتفصيل في موضعه. ولقد ورد في رسالة الأمير شكيب هذه، ذكر طائفة من متصدري العرب والمشتغلين بالقضايا العربية، كالأمير سعيد الجزائري، والسيد محمد رشيد رضا، وعبد الحميد سعيد، ومحب الدين الخطيب - وهو صاحب مجلة الفتح، التي يذكرها شكيب أرسلان كثيراً في رسائله، ويمتدح موقفها وخدمة صاحبها في خدمة قضايا

المسلمين والعروبة - والحاج أمين الحسيني، وإحسان بك الجابري والسيد أحمد بالإفرنج، من أجلاء المغاربة، قال عنه شكيب أرسلان في كتابه عن (السيد رشيد رضا أو إحياء أربعين سنة)، إنه صاحب مدرسة "محمد جسوس" التي هي المدرسة الوطنية الرقاية الوحيدة في السلطنة المغربية وهو منهم مفاخر ذلك القطر علماً وعملاً وأخلاقاً وذكاءً - وكان السيد أحمد بن الإفرنج نفوذ بين طلبة شمالى إفريقية فى باريس .

كتب الأمير شكيب إلى "أخيه البشير أخذ الله بيده" من لوزان فى ١٣ نيسان (إبريل ١٩٣١) يقول:

عدا ما كتبت إلى الجرائد التزمت الكتابة إلى الأشخاص ولا أزال أكتب وإن لم أسهب فى الكتابة فلا تؤثر. ولقد خاطبت المغاربة فى باريز رأساً، وكتبت إلى أخى الجابري الذى ذهب إلى باريز ليخبر الطلبة السوريين فى باريز - وقد أصاب إحسان منهم الغم والأرق ما أصابنى - وبالاختصار جاءنى اليوم الخبر من إحسان ومنم بالإفريج أن طلبة شمالى إفريقية من جهة. والسوريين من جهة أخرى، أبرقوا بكل شدة جمعية الأمم وإلى نفس موسولنى وإلى سفير إيطالية بباريز بالاحتجاج على فظائع إيطالية بطرابلس. وقد ساعد إحسان بك السوريين على حساب الوفد السورى (الذى كان هناك بشأن القضية السورية) بمائة فرنك فرنساوى تبرعاً، ثم أرسلوا برقيات الاحتجاج إلى جرائد كثيرة، بباريز وسويسرا، ويستأينى صورها. وقريباً ستسمعون أخبار الاحتجاجات والمقاطعة والجزائر والمغرب وتونس، لأننى برغم كل مشغوليتى خاطبتهم كما خاطبت المصريين.

على أن كل هذا، لا يغنى عن الاحتجاج فى الشام، وعقد الاجتماع وإيصال المسألة إلى الجامع الأموى بعد ثلاثة الجمعة. أنا أعتقد أنكم أنتم الطرابلسيين أرجل من غيركم من المسلمين، فلا بد من أن تعملوا هذا. أين الأمير سعيد الجزائرى وابن عمه الأمير خالد وابن عمه الأمير طاهر، ولماذا هم

أمراء المغاربة إدا؟ وفرنسا لا تقدر أن تعاكس قضية صراخ من ألم وصراخ
ممن؟ من عدوتها إيطالية لأنها فى الحقيقة ضدها فى كل شىء. هذا إلا إذا
كانت تريد إثبات تضامنها مع عدوتها فى وجه الإسلام. إذا عارضت فى
الاحتجاج والصراخ، فلا يكون معنى ذلك غير هذا.

بعد أن يرجع أخى إحسان من باريز، نتذاكر مع جمعة حقوقو الإنسان
من جديد لأجل الاحتجاج بالخطب.

أنا الآن منتظر أجوبة من مصر من السيد رشيد وعبد الحميد بك سعيد
ومحب الدين الخطيب، وقد كتبت أيضاً إلى الحاج أمين الحسينى كل ما يلزم.
فماذا عملتم أنتم وماذا تعملون؟ أسمعونا الأخبار. إن لم تفهم الصرخة
فى كل العالم الإسلامى على ما هو جار فى طرابلس لا يمضى عصر حتى
يصر كل العالم الإسلامى طرابلسى. وما استخف هؤلاء بالمسلمين إلى هذا
الحد إلا لأنهم رأهم - إلا ما ندر - لا يشعرون بشىء. ومرادى أن أكتب
للعهد الجديد، ولكنى أخرت ذلك حتى لا يظن أن مصدر كل الحركة منى
وحتى تبادر جمعيتكم بالنشريات فى جرائد الاشم والنداء والعهد الخ. والله
ياخذ بيدكم، "الإمضاء" أبو غالب "أى شكيب أرسلان".

ثم يستأنف الأمير شكيب الكتابة ف ينفس الرسالة فيقول:

بعد أن كتبت لكم هذا المكتوب، وقبل وضعه بالبريد، جاءنى كتابك
الأخير، وفيه قطعة ألف باء عن ال ١٤ جثة والنداء الذى سيرسل إلى مكة
فى الحج.

قطعة ال ١٤ جثة التى قذفها البحر إلى السلموم - (ولقد أوردنا نحن
تفصيلاً واقياً لهذا الحادث فى السنوسية دين ودولة فى الفصل المعقود لبيان
فظائع الطليان فى ليبيا بعنوان: "الاستعمار الإيطالى: صحائف سود) هى
مأخوذة من الشورى وقد كنت قرأتها وحررت بهذه المناسبة مقالة للشورى

لأنها منتشرة فى العالم الإسلامى . (صاحب الشورى هو السيد محمد على الطاهر)، ثم غنتى اليوم حررت مقالة طويلة للفتح .

أما النداء الذى سيوزع فى الحج فلا ضرر منه لكن لا ينبغى الاعتماد عليه . قد كان الحجاج فيما مضى عالمًا وكان يحج كبار المسلمين . أما الآن فلا يحج إلا المساكين مادة ومعنى ومن لا يرحى منهم القيام بعمل وإن وجد غير ذلك فهو نادر . وكل هؤلاء إذا قرروا يتألمون ولا يعرفون أدنى علاج للحالة ، فالجهل والانحطاط فى العالم الإسلامى شاملان أمة كان كل اعتمادها على الدولة العثمانية ، والسلطان ، والآستانة ، ولا ترعف من الدنيا شيئًا ، إلا الالتجاء لهذا المرجع ، فلما ذهبت الدولة العثمانية ، أصبحت لا رأس لها ولا قرناس كما يقال ، وازداد طمع الإفرنج بها ، وهى حيرى لا تعرف كيف تصنع ؟ ولا يزال بعضها يطلب النصرة من ملوك الإسلام ! جاهلا أن هؤلاء لا يقدرون على ما كانت تقدر عليه الدولة ، وأن هذه برغم ضعفها ومشكلاتها ، كانت إحدى الدول السبع العظام ذات جيش مليون ونصف عسكري ومعترف لها بالرئاسة على العالم الإسلامى . فأى حكومة إسلامية لها اليوم عشر معشار الدولة العثمانية .

الخلاصة : لن ينتج شيء من هذا النداء فى الحج . وما زلت على رأى عقد الاجتماع فى دمشق والاحتجاج وإلقاء الخطب وإيصال القضية إلى الجوامع ، وتقديم البرقيات إلى جمعية الأمم ثم عمل النشرة التى قلت لكم عنها وترجمتها إلى عدة لغات وتوزيع ألفوف من نسخها على العالم الإسلامى والأوروبى .

فإن لم تقدرُوا حتى على هذا فالأولى السكوت حتى لا نؤلم الناس بهذه الأخبار بدون نتيجة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص شكيب أرسلان

٥ - السعداوى والاحتجاج على فضائخ الطليان:

يدل ما جاء فى هذه الرسائل التى نشرناها على أن بشير السعداوى كان موفقاً فى استمالة الأمير شكيب أرسلان، إلى مؤازرة القضية الطرابلسية البرقاوية، بعد التردد الذى كان أظهره للأسباب التى مرت بنا.

فقد كان للأمير شكيب وقتئذٍ من الصدارة فى العالمين العربى والإسلامى، ما اعتقد بشير السعداوى أنه قمين بإثارة انتباه العرب والمسلمين، بفضل ما يدبحه براع الأمير، لما يفعله الطليان بأهل برقة وطرابلس، وخلق بأن يحرك منهم الهمم بنجدة إخوانهم فى العروبة والإسلام، ولم يخامر السعداوى أى شك، فى أن الأمير شكيب، إذا أخذ على عاتقه خطمة القضية الطرابلسية، فإنه لن يهدأ أو يكل، حتى ينجح فى تأليب رأى العام العربى والإسلامى، ولدرجة كبيرة كذلك رأى العام الأوروبى، على الحكم الفاشيستى فى ليبيا، وضد طغيان موسولنى ديكتاتور إيطاليا.

ولا جدال فى أن الفضائخ التى ارتكبها الطليان بتأسيس معسكرات الاعتقال لفى العقيلة وغيرها، والإثم الذى فعلوه باستباحة واحة الكفرة، ودوس المصاحف الشريفة بالأقدام وسنابك الخيل فى زوايا السنوسية بها وجوامعها، كان ذلك كله مما أثار نخوة الأمير شكيب، كما أثار نخوة العرب والمسلمين فى كل أقطار العالم، فأسفر الألم العميق الذى صار يحز فى نفس الأمير شكيب، عن تدبير ذلك البرنامج الواسع، من الدعاية الشديدة، ضد مظالم الطليان، الذى راح الأمير شكيب يفصله تفصيلاً فى كتبه إلى بشير السعداوى، ويطلب منه، فى إلحاح السرعة فى تنفيذه. بل إن هذا الألم، والحرص على القيام بتلك الحملة الواسعة والعنيفة من الدعاية، لتوجيه ذلك الضغط الشديد من جانب العالم الإسلامى والعالم العربى، الذى رأى الأمير شكيب، أنه وحده الوسيلة الرادعة لحمل الطليان على وقف مظالمهم ومآثمهم - كانا السبب فى ذلك النزوع الذى بدا منه - وعلى خلاف ما آمن به

السعداوى نفسه - إلى عدم الإيمان، بجدوى الدعاية، بين حجاج بيت الله الحرام، مع ما فى هذا الرأى من مناقضة ظاهرة لما يريده من تأليب الرأى الإسلامى ضد الطليان. وذلك كان أقصى ما بلغه تشاؤم الأمير شكيب مما كان يلحظه من تقاعس الشعوب الإسلامية عن نجدة بعضها بعضاً.

ولقد خيل إلى الأمير شكيب فى زحمة التدابير التى صار يريدتها أو استطاع أن يتخذها فعلاً للوصول إلى غايته، أن صاحبه السعداوى كان متباطئاً، أو أقل همة منه ونشاطاً، وهو الذى استثار أصلاً (بتقرير) عن فظائع الطليان، الأمير شكيب إلى العمل الحازم فى هذه المرحلة، وهو الذى يدبر من مقره بدمشق كل تلك الحملة، بالأسلوب الذى جعل رجلاً، من طراز شكيب أرسلان، يتزعم هذه الحملة العنيفة معتقداً أنه هو مبدعها وصاحبها. وذلك كسب لا يستهان به فى نظر السعداوى وصحبه؟ "فماذا فعلتم أنتم وماذا تعملون؟ أسمعونا الأخبار". ذلك ما سأله وطلبه شكيب أرسلان من بشير السعداوى. فماذا فعل السعداوى، وماذا كان يعمل؟

إن برنامج العمل والاحتجاج الذى اقترحه الأمير شكيب، كان نفسه هو ما دار فى ذهن بشير السعداوى، الذى شهد الشىء الكثير من نشاط الحياة السياسية فى دمشق، واكتسب تلك الخبرات التى أشرنا إليها مراراً وتكراراً من اشتراكه فى الحركة الوطنية السورية، ومصادقته لكبار العاملين فى قضية هذه البلاد. فهو قد بدأ نشاطه بأن أذاع بياناً شديد العبارة عن حوادث معسكرات الاعتقال، وفظائع الطليان فى الكفرة. فأثار البيان شعور الدمشقيين الذى سرعان ما قصدوا إلى الجامع الأموى على عادتهم فى كل ملمة تدهم، ليبحثوا الأمر وليتخذوا القرارات التى يريدونها.

وكان هذا البيان الذى أذيع، هو الاستغاثة التى بعث بشير السعداوى بصورتها، إلى شكيب أرسلان، واعتقد هذا أن أثرها سيكون طفيفاً فى بلوغ الغاية. وكان منشور "الاستغاثة" مجهزاً لتوزيعه فى الحج على أكبر عدد

يمكن من المسلمين من مختلف أقطار العالم الإسلامى . وكان احتفال المسلمين بالعيد فرصة مواتية عند الاجتماع فى المساجد لاستنهاض همتهم ، وإثارة نخوتهم ، والاستغاثة بهم لنجدة إخوانهم فى الدين .

وبدأ السعداوى عمله ، بأن كلف من يلصق هذا المنشور على أعمدة قديمة موجودة أمام الجامع الأموى بدمشق . فكان الناس يأتون لقراءة "الاستغاثة" ويستفزههم ويشير شعورهم ما يقرأونه . وبدأ الناس يتجمعون ، وحيثُ خشى الفرنسيون أن يضطرب الأمن فأزالوا المنشور . وكتب السعداوى فى المكان الذى أزالوه منه "بالقلم العريض" : إن "السوق" مغلق غداً "احتجاجاً" على فظائع الطليان .

والسوق هو سوق الحميدية الكبير وذاه الخبر ، وكان أهل سوق الحميدية أنفسهم ممن استجابوا سريعاً لدعوة السعداوى الذى ما كان يراه هؤلاء ماراً بينهم حتى يشتد انفعال نفوسهم ، فتردد فى جوانب السوق صيحة أفندتهم الكلمة : لا حول ولا قوة إلا بالله . هكذا فإنه ما كاد يطلع نهار اليوم التالى حتى كادت دمشق بأسرها قد أعلنت إضرابها . وقصد الخلق إلى الجامع الأموى ، فبلغ عدد من اجتمع به من أهل دمشق قرابة الأربعة أو الخمسة آلاف وقت صلاة الظهر .

وقابل ضابط من رجال المباحث يدعى (كراييت) بشيراً وهو فى طريقه إلى الجامع وحذره باسم السلطات الفرنسية من "حصول شىء" وحمله سلفاً مسئولية ما قد يحصل ، ومعنى ذلك التهديد بإخراج السعداوى من سوريا . فلم يعبأ السعداوى بتحذيره أو تهديده . وخطب البشير فى هذا الحشد . وقرأ شيخ منشور الاستغاثة واهتاجت الخواطر . وأراد المحتشدون الخروج فى مظاهرة كبيرة . وخشيت السلطات مغبة تظاهروا بهم . وكان قد انتهز نفر من الشيوعيين - على ما يظهر - فرصة هذا الهياج العام ، فألقوا فى بعض الأماكن قنابل لها دوى عظيم . فحضرت على الأثر ، الدبابات والسيارات

المصفحة، وقوة من (السوارى) أو الخيالة، ورابطوا جميعاً عند سوق الحميدية، وكان المتفق عليه أن تخرج المظاهرة من الحميدية إلى ساحة المرجا:

ولكن لم يلبث أن انتهى الأمر بعدم التعرض للمظاهرة، فقصد المتظاهرون إلى بيت الأمير سعيد الجزائري (بحى العمارة)، وخطب السعداوى مرة أخرى، وأعد (نداء واحتجاجات على مظالم الطليان فى طرابلس برقة)، وقعد كبار المتظاهرين، الذين أبرقوا باسم هؤلاء، بقرقيات احتجاج، إلى الصحف المصرية، والصحف الأوروبية، على الفظائع الإيطالية.

وجاء فى النداء ما نصه: "نحن السوريين نحتج على ما ترتكبه الحكومة الإيطالية فى طرابلس برقة منم الفظائع، بإجلائها ربع مليون من السكان عن أرضهم، وحشرها ثمانين ألف نسمة فى بقعة ضيقة لإفنائهم، ورميها الأبرياء من الطيارات، وغير ذلك من الأعمال، التى زلزلت فرائض المسلمين، وأدمت قلوبهم. فتزحوا التدخل لرفع تلك المظالم المنافية للحقوق الدولية، ونطلب الكف عن هذا الافتراء الذى أهاج العالم الإسلامى المسئول عن أبنائه الأبرياء.

وقع هذا النداء بشير السعداوى (رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية) ووقعه عديدون، وقد أبرق المجتمعون بهذا النداء إلى الهيئات ورؤساء الدول الآتية:

عمان: جلالة الملك حسين المعظم - جنيف: عصبة الأمم - مصر: جلالة الملك المعظم - بغداد: جلالة الملك المعظم - مكة المكرمة: جلالة الملك المعظم - صنعاء اليمن: جلالة الإمام يحيى حميد الدين - كابول: جلالة الملك المعظم - طهران: جلالة الملك المعظم - عمان: سمو الأمير عبد الله - رباط الفتح - عظمة سلطان المغرب الأقصى - دمشق: فخامة رئيس الحكومة السورية - أنقرة: فخامة الغازى رئيس الجمهورية - تونس: سمو الباي المعظم - القدس: رئاسة المجلس الإسلامى الأعلى - مصر: رئاسة الأزهر

الشريف - بومباي: جمعية الشبان المسلمين - بغداد: جمعية الهداية الإسلامية، و رئاسة الحزب الوطنى .

وقد أثبتنا صورة هذا (النداء والاحتجاج على مظالم الطليان فى طرابلس برقة)

وامتدت الحركة إلى خارج دمشق . فحصل إضراب فى بيروت . وعقدت جمعية اتحاد الشبيبة الإسلامية - وكانت قد تأسست بهذه المدينة الأخيرة قبل ذلك بعامين (١٣٤٧ هـ) - مؤتمراً إسلامياً، حضره " رهط كبير من علماء ووجهاء وأدباء الطائفة الإسلامية، فى نادى الجمعية " مساء الجمعة الواقع فى ٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ (الموافق ٢٤ إبريل ١٩٣١) للمذاكرة فى شأن الحوادث الواردة عن طرابلس الغرب وبرقة، وبعد المداولة فى الموضوع طويلاً " اتخذ المؤتمر القرارات الآتية :

(١) تأليف لجنة تحضيرية لدرس هذه الأخبار والأحوال .

(٢) الانقطاع عن العائدة فى عيد الأضحى، وتخصيص الأموال التى تنفق فى سبيل المعائيدات لمساعدة منكوبى طرابلس الغرب وبرقة .

(٣) " تكليف " اللجنة التحضيرية يجمع هذه الإعانات .

وذكرت النشرة التى أصدرها المؤتمر، وظهرت ملحقة للعدد ١١٤٩ من جريدة (العهد الجديد) أن هذا الاجتماع " قد ختم على أن يعقد مرة أخرى بعد استيفاء درس هذا الموضوع " . .

على أن أخطر ما وقع من حوادث وقتذاك، نتيجة لهياج الخواطر على أثر الاحتجاج على أعمال إيطاليا فى طرابلس الغرب (ليبيا أو طرابلس برقة) كان الاشتباك الذى حصل بين البوليس والأهالى يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٩ فى طرابلس الشام . فقد أضربت طرابلس الشام، وقعت معركة حقيقية يوم ٢٨ إبريل ١٩٣١ . ولا أدل على خطورة ما وقع، من أن تقرير

وزارة الخارجية الفرنسية المقدم منها إلى عصبة الأمم في جنيف عن انتدابها في لبنان، قد ذكر هذه الاضطرابات التي حدثت في طرابلس الشام.

ويؤخذ مما جاء في هذا التقرير عن هذه الواقعة. يوم ٢٨ نيسان (إبريل ١٩٣١)، أن "الشعب الذي أثرت عصبية الدينية، خرج من المسجد، واتجه تَوّاً نحو القنصلية الإيطالية وبعض الدوائر الأخرى، واحتج أمامها بشدة على تلك "الفظائع"، فحطمت بعض النوافذ، وأسرع رجال الدرك لتفريق المتظاهرين، فاشتبكوا معهم في قتال شديد، وانجلى المعركة عن عدة قتلى وجرحى، وقد أعيد النظام إلى نصابه.

ولكن هذه الحركة التي قامت ضد إيطاليا، قد أعقبتها مقاطعة البضائع الإيطالية، ومقاطعة معاهد التعليم الإيطالية. وسرعان ما رأت هذه المعاهد طلابها ينقصون بشكل سريع يدعو إلى القلق. وقد أحيل المتظاهرون في طرابلس على القضاء و (حكم عليهم) بعقوبات مختلفة، تبدأ من العشرة شهور سجنًا، وبغرامات من ١٠ إلى ٢٥ ليرة". وقد عزا التقرير هذه الحوادث لما وصفه "بالإشاعات" التي انتشرت في لبنان "عن قسوة الإيطاليين في إخماد ثورة صحراء ليبيا طرابلس" والتي أحدثت "شيئاً من الاضطرابات الفكرية في لبنان".

وكان الذي أثار الشعور، هو قراءة (مشور الاستغاثة)، أثناء صلاة العيد بجامع طرابلس الشام، واما الذي قرأ المنشور "فكان عبد الحميد كرامه. ونقل نوري السعداوى إلى أخيه بشير، أخبار الاشتباكات الدامية في طرابلس الشام، وشهد بأن الدماء كانت تسيل في شوارعها.

وبادرت سلطات الانتداب الفرنسي، بمعالجة الموقف من ناحية أخرى، بأن طلب المندوب الفرنسي في دمشق (بيير أليوب) بشير السعداوى باعتبار أنه المسئول عن إهانة الشعور، وتحريك هذه المظاهرات ضد الطليان، بما أدت إليه من حوادث الصدام الدامية خصوصاً في طرابلس الشام، واتهمه بأنه

باستشارته الشعور "العربي" ضد الطليان، قد تسببت في تكدير الأمن والإخلال به.

وأجاب بشير السعداوى: بأنه لو دخل جندي ألماني واحد اجتاز حدود فرنسا ودخلها دون أن يقع منه أى اعتداء على أحد، لقامت قيامة فرنسا لهذا الاعتداء، وما كانت قعدت قبل أن تغسل هذه الإهانة التي لحقت بشرفها القومي. ومع ذلك فإن ما حدث ولا يزال يحدث في بلاده (طرابلس برقة) على أيدي الطليان، يستحيل حدوثه في فرنسا. ومع كل هذه الاعتداءات والفظائع التي يرتكبها الطليان في وطنه، هل يعتقد المندوب الفرنسي أن بوسعه (أى بشير السعداوى) السكوت عنها. ولم يقنع هذا الجواب المندوب الفرنسي لنفس السبب الذي كان قد أشار إليه شكيب أرسلان في إحدى رسائله التي أثبتناها (رسالة ١٣ إبريل ١٩٣١) حيث يقول:

إن "فرنسا لا تقدر أن تعاكس قضية صراخ من ألم، وصراخ من؟ من عدوتها إيطالية لأنها في الحقيقة ضدها في كل شيء. هذا إلا إذا كانت تريد إثبات تضامنهما مع عدوتها في وجه الإسلام...". وعلى ذلك فقد أُنذر المندوب الفرنسي بشير السعداوى: أنه إذا تكرر منه، إهانة الشعور وتحريك المظاهرات، فإن السلطة الفرنسية قطعاً سوف تخرجه من البلاد. ولكن هذا الإنذار لم يفد شيئاً في تخويف السعداوى، الذي أجاب على الفور: إنه بعد أن خرج من بلاده، صار لا يهتم أى بلاد يقيم بها، فجميع أرض الله الواسعة، هي بلاده.

وكما كان منتظراً، استمر بشير السعداوى يمد مختلف الصحف الوطنية العربية بالمعلومات والأخبار، و "المادة" اللارمة، لاستمرار الحملة الصحفية، على فظائع الطليان في (برقة طرابلس). وكان من الصحف التي أصرت على الكتابة والنشر في هذا الموضوع: الأيام والمرصاد، والإنشاء، وغيرها، ثم جريدة ألف باء الدمشقية - وصاحبها السيد يوسف العيسى - بل إن (ألف

باء) لم تلبث أن نشرت مقالا لبشير السعداوي نفسه يحمل فيه بعنف على تصريحات كان أدلى بها القائد الإيطالي (دييو نو)، وهو وزير المستعمرات الإيطالية، يقول فيها: إن الحكومة الإيطالية قد نجحت في إدماج عشرات الألوف من العرب في الجنسية الإيطالية، مما اعتبره الوزير توفيقاً عظيماً لإيطاليا. فقد أعد بشير السعداوي مقالا بعنوان: (أوزير سياسى، أم قسيس مبشر؟)، وبادر يوسف العيسى بطبع المقال في جردته، دون أن يقرأه قبل نشره، نظراً لتأجيج شعور العرب عموماً، وهياج خواطرمهم ضد فظائع الطليان ولرغبة صاحب (ألف باء) أن يسهم في هذه الحملة على الاستعمار الإيطالي في (طرابلس برقة).

فلما ظهرت الجريدة وبها المقال، وأحدث المقال ضجة بسبب عنفه وقسوته، لام رئيس الرقابة الفرنسى السيد يوسف العيسى على نشره المقال بالرغم من التعليمات المشددة التى جاءت من هذه الرقابة بالامتناع عن نشر شىء للسعداوي خصوصاً، فاعتذر الرجل بأن السعداوي عندما جاءه بالمقال، كان يبدو عليه الألم والتأثر مما يجرى في بلاده، فلم يتردد في نشر المقال بالرغم من أنه لاحظ فعلاً أن عنوانه كان "شديداً". ولكنه لم يقرأه وما كان يدرى أن المقال عنيف بالدرجة التى كان عليها فعلاً. وأمكن تسوية مسألة السيد يوسف العيسى، باعتبار أن ما حدث كان "تغفيلاً غير مقصود" من جانبه.

وفيما يلى نص هذا المقال منقولاً عن مسودة له بقلم بشير السعداوي:

كنا أذعنا للملأ، نبأ الفظائع التى تقتربها حكومة الفاشيست في (طرابلس برقة)، تلك الفظائع، التى اهتز لهولها العالم الإسلامى وغضب وأرسل وإبلا من الاحتجاجات، على ما انتاب الشعب الطرابلسى البرقاوى، من ضروب المحن والويلات، التى تفتت الأكباد، وتذيب الجماد.

وحاول وقتئذٍ بعض قناصل الفاشيست، أن يهدثوا روع القلوب

المفجوعة، بردود كانت عارية من مل ما ينفى صحة تلك الأنباء. وقد مضت الأيام ونحن نقيم الأدلة على صحة وقوع ما نشرناه، وندعم الحجة بالحجة إلى أن أظهرت الحقيقة بأجلى مظاهرها وأقر الخصوم بكل ما أثبتناه للملأ.

وها إننا ننقل للقراء تصريحات وزير مستعمرات الدولة الفاشيستية الجنرال (ديبونو) الذى وقف أخيراً فى مجلس النواب، ورد على أقوال بعض النواب الذين ذكروا الفظائع التى ارتكبت فى (طرابلس برقة) بقوله:

إننى أتحمل كل المسئولية فى الأساليب التى اتبعت للوصول إلى الغاية. فكل ما قيل عن تهجير السكان وعن أعمال القسوة أتحمل مغبته، وإننا ضيقنا على سكان برقة وحصرناهم فى المعسكرات وعندنا إلى تعليم أبنائهم الذين سيكونون من جنودنا فى المستقبل، وذلك بعد رجوعهم من روما وتعميدهم وتعليمهم المبادئ الكثولوكية والفاشستية".

بهذا القول الصريح، يجاهر وزير السمتعمرات الفاشيستى، ويملاً شذقيه معترفاً بكل ما وقع من الفظائع، ويقول ولا يخشى عذاب الضمير. ولا مسئولية التاريخ، إنه يتحمل تبعة كل الأمال القاسية التى نفذت فى ذلك الشعب البائى الذى منذ الاحتلال حتى يومنا هذا وهم يسومونه سوء العذاب ولا يرقبون فيه إلاها ولا ذمة.

إننا نسجل هذا الاعتراف، على دولة الفاشيست، التى تعد نفسها فى مصاف الدول الراقية، والتى تدعى أنها جاءت إلى تلك البلاد، لتسعدنا ولتنفيذ عليها من المدنية الغربية. ولكننا منذ ظهرت طلائع جيوشهم علينا، ووطئت أقدامهم ربوعنا، لم نر من آثار تلك المدنية سوى قتل الشيوخ اللعجزة، والأطفال الرضع، ورمى البشر من متون الطيارات، وسلب الأموال، واغتصاب الأراضي من أيدي أهلها بدون حق، وضروب العسف والإرهاق والتنكيل بكل ما لا يحنى عنقه للنير، ولا يمد يده للقيد، بدون رحمة ولا شفقة. وأخيراً أضافت على كل هذه المصائب بلاء، بعزمها على

تنفيذ خطة تنصير أبناء الشعب الطرابلسي، وأنها لم تفعل كل مافعلته تحت ستار الخفاء، بل إنها جاهرت بذلك، ولم تخش لومًا ولا تثريبًا.

قهل بعد هذا التصريح - الذى لا يحتمل تأويلا ولا تعليلا - وهو من قبل وزير يتكلم باسم حكومته ويعرب عن سياستها وخطتها فى تلك البلاد يبقى لأحد من ريب فى أن دولة الفاشيست تريد أن تقضى القضاء المبرم على سكان هذا القطر وتنصر البقية الباقية منهم بحيث لا يبقى فيه من يديه بدين الإسلام.

إن حضرة الوزير قد رفع هذه المرة القناع عن سياسة حكومته فى تلك البلاد وصرح بأنه شرع فى تنفيذ خطة التنصير ولم يراع حرمة العقائد وجرح عواطف ٤٠٠ مليون مسلم بهذا العمل الذى يرمى القلوب ويشير كوامن الصدور.

نعم إننا معشر الطرابلسيين، ما كنا يوما لنشك فيما ترمى إليه سياسة الفاشيست الموصلة إلى هذه النتائج المحزنة، ولكن كثيراً من الناس يحسنون الظنون يقولون: لا يمكن لدولة، مثل دولة الفاشيست، التى أخذت شطرها من المدنية، أن تقدم على عمل كهذا، فى الوقت الذى أصبحت فيه الأمم المغلوبة على أمرها، تقاوم الاستعمار وتطالب بالحرية والاستقلال.

بيد أن تصريح الوزير الفاشيستى جاء هذه المرة معرباً عن سياسة حكومته بكل وضوح تلك السياسة الهوجاء، التى ترمى إلى إرغام الشعب الطرابلسي، على ترك دينه وتعليمه المبادئ الكاثوليكية. فإننا وإن صبرنا على كل ما نزل بنا من ويلات، وحل بنا من مصائب، فلن نصبر على هذا التجاوز فى أقدس شئ لدينا وهو ديننا الحنيف الذى نضحى فى سبيله، بالأنفس والنفيس.

إننا نوجه كلمتنا والجزع يملأ أفئدتنا إلى العالم الإسلامى وندعوه إلى التفكير فيما يراد بذلك الشعب المسلم، الذى تخضبت بدمائه الصحارى والقفار وهو يقاوم جيوش الاستعمار المجهزة بأنواع العدد الحديثة.

إن حكومة الفاشيست لم تكتف بما اقترفت من الآثام، بل إنها عقدت النية على إطفاء نور الله في تلك البلاد، بعد أن كان ساطعاً وضاء. وإن أقل تغاض في هذا الأمر الجليل يجعلهم يتمادون في طغيانهم ويقضون القضاء المبرم على دينكم الحنيف وشريعتكم المطهرة في تلك الأصقاع.

فإنكم مسئولون تجاه الله والتاريخ على تغاضيكم عن هذا الواجب، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

٦ - الاستغاثة:

على أن أعظم النشرات التي ظهرت في هذه الآونة أثراً كان " النداء " الذي اعتزم بشير السعداوى توجيهه إلى العالم الإسلامى، يدعو فيه لنجده (طرابلس برقة) وإنقاذها من مظالم الفاشيست وفظائعهم، وذكر للأمير شكيب أنه ينوى توزيعه على حجاج بيت الله الحرام، واعتقد الأمير شكيب خطأ أنه لا يأتى بنتيجته. ذلك النداء - وبالرغم من عدم تفاؤل شكيب أرسلان بالأثر الذى سوف يحدثه - حرص بشير السعداوى على كآبته وإعداده قبل موسم الحج بمدة تكفى، ليس فقط لإرسال العدد اللازم توزيعه على الحجاج، بل وإمكان استخدام هذا النداء المزمع إصداره، فيما يعتقد من اجتماعات فى المساجد وغيرها للاحتجاج على فظائع الطليان، وعلى نحو ما شاهدنا سواء فى الجامع الأموى بدمشق أو فى جامع طرابلس الشام.

واشترك مع بشير السعداوى فى كتابه (الاستغاثة) مفتى الموصل، الأستاذ حبيب العبيدى، قال البشر: إنه كان يقرأ ما يتم (البشير) كتابته، فينصح بالإضافة فى مواضع معينة، وبالحذف فى مواضع أخرى، وينقح ما يراه فى حاجة إلى تنقيح، ويضيف عبارات من عنده.

وفيما يلى نص هذا المنشور، وهو مؤرخ فى ١٠ ذى الحجة ١٣٤٩ (الموافق ٢٨ إبريل ١٩٣١) وصادر باسم (الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم).

استغاثة مسلمى (طرابلس برقة) بحجاج بيت الله الحرام وجميع
إخوانهم فى أقطار الإسلام:

الله أكبر: دماء تسفك، وأعراض تهتك، وحرمان تنتهك ظلماً
وعدواناً.

الله أكبر: أوطان تغتصب، وأموال تسلب، وأرواح تزهق جوراً
وطغياناً.

الله أكبر: يهان كتاب يقده أربعة ملايين من صميم البشر، ذلكم
القرآن كتابكم الكريم أيها الموحدون.

ويسخر من نبي يحترمه عقلاء البشر كافة منذ أربعة عشر قرناً، ذلكم
محمد بن عبد الله نبيكم أيها المسلمون.

إن كل هاتيك الفظائع والفجائع يرتكبها الإيطاليون فى ربوع (طرابلس
برقة)، وإنما يصلى بنارها، ويعانى دمارها هنالك، ذياك الشعب الإسلامى
العربى، الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم.

غنم ترعاها الذئاب، وتساق بسياط الذل إلى مجزرة العقاب، وتسام
سوء العذاب، ولا مغيث ولا مجير، ولا ولى ولا نصير، فما لكم ثم ما لكم
أيها المسلمون، "إنا لله وإنا إليه راجعون".

إن إخوانكم فى هاتيك الربوع المظلومة، والمنازل المهدامة، والمعارك
المشؤومة، لا يكلفونكم إمدادهم بالمال والرجال، ولا يحمل السلاح إلى
ميادين الكفاح، إنما يطالبونكم بحق الإخاء، الذى عقده الله بين عباده
المؤمنين فى كتابه العزيز، ومن حق الأخ على أخيه، أن يرثى له ويعطف
عليه، وأن يواسيه عند المصاب، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفى استطاعتكم
أيها المسلمون أن تصرخوا فى وجه هذا الظالم، فى وجه القوة الغاشمة
الفاشيستية.

لماذا، وإلى متى يذيقون إخوانكم صنوف العذاب وأنتم صامتون.

ما ذنب أولئك الضعفاء؟ وما حجة أولئك الأقوياء؟ اللهم إلا أن يكون الضعف ذنباً "وأن تكون القوة برهاناً؟؟؟ برئت ذمة التاريخ، وبرئت ذمة الإنسانية المعذبة من مثل هذه المدنية.

سلوا القوة الغاشمة: هل كانت فى سكان هاتيك البلاد المظلومة، عندما أغارت عليها شرذمة من الشعب الرومانى، أو المذهب الكاثوليكي، فاستولت عليها، بحجة المحافظة على أبنائها من الرومان؟؟!

اللهم إنك لتعلم أن هاتيك البلاد إسلامية عربية محضة، لا تجمعها والدولة الإيطالية جامعة دينية أو جنسية إلا ما تستسيغه السياسة الظالمة من تسلط القوى على الضعيف.

إن الشعب الطرابلسى البرقاوى قد مضى عليه زهاء عشرين سنة وهو يدافع عن وطنه ودينه وعرضه بقوة الحق وبقوة الإيمان وليست حرب مليون ونصف مليون إزاء أربعين مليوناً بالأمر اليسير، وقد استمر الشعب الطرابلسى البرقاوى صابراً على تلك البلوى السنين الطوال وأبلى فى أعدائه بلاء حسناً ولكن قد نفذ صبره وضاق ذرعه وقلت حيلته إزاء ما تأتية تلك الدولة الغاشمة من ضروب الفظائع وأنواع الفجائع التى تأبأها الوحوش الضارية فضلا عن متمدنى القرن العشرين.

وإليكم أيها المسلمون عامة، وحجاج بيت الله الحرام خاصة، بعض هاتيك الفظائع التى ترتعد منها الفرائص.

منذ أن أغار الإيطاليون على تلك البلاد النكدة الحظ، وهم يتزلون أنواع العذاب بكل من لا يحنى عنقه للنير ولا يمد للقيد، فلا يرحمون طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً.

فإنهم كثيراً ما يجمعون الرجال العزل من السلاح، ويقيدونهم ويطلقون

عليهم الرصاص ويقتلونهم جبراً. وكم علقوا من أشخاص أبرياء على أعمدة المشانق وتركوهم معلقين مدة طويلة، تلعب بهم الرياح، ذات اليمين وذات الشمال، للإرهاب والتفنن فى أنواع العذاب.

وإنهم لم يتركوا وسيلة لإفناء ذلك الشعب البرىء إلا فعلوها. وقد أجلوا فى خلال السنة الماضية ربع مليون من السكان إلى الأقطار المجاورة "فمات منهم مئات النفوس وهم يجوبون الصحارى والفيافي عطشاً وجوعاً بحالة تفتت الأكباد وتذيب القلوب. وقد جمعوا أخيراً ٨٠ ألف نسمة من مسلمى برقة وحشدوهم فى صعيد ضيق (العقلية)، "شرقى خليج سرت، حتى ماتت مواشيهم وفتكت بهم الأمراض السارية فتكاً ذريعاً، وقد نهب الجنود

الإيطاليون جميع ما ملكت أيديهم، فبقوا يفترشون الغبراء، ويلحقون السماء، وقتلوا الكثير منهم أثناء نقلهم إلى تلك المقبرة (العقلية) شر قتلة، بأن أخذوا عدة أشخاص وأصعدوهم فى الطيارات ورموهم من ارتفاع ٤٠٠ متر، وكان كلما سقط شخص وتناثرت أجزاء جسمه، يصفق الجنود تصفيقاً حاداً، قائلين بأصوات عالية للمسلمين أوقفوهم لمشاهدة هذا المشهد المريع: (فليات نبيكم محمد، ذلك البدوى الذى أغراكم بالجهاد ويخلصكم من أيدينا؟؟؟).

ثم إن السجون فى (طرابلس برقة) وفى إيطاليا وجزرها، غاصة بالمظلومين الذين لا ذنب لهم، إلا أنهم من المستضعفين، الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وهم يقاسون أنواع العذاب، وأشد الآلام، من الخدمات الشاقة، وأكثرهم يموت من شدة العناء.

إنهم فى هذه الآونة الأخيرة، عند احتلالهم لواحة (الكفرة) مقر السنوسيين، فتكوا بسبعين عائلة: قتلوا الرجال والأطفال وفعلوا بالمخدرات ما يستطيع البراع تطيره خجلاً وقد أكرهوا كثيراً منهم على الزواج بضباط

إيطاليين واتخذوا المساجد خمارات بعد أن كانوا يذكر فيها اسم الله . وأحرقوا القرآن وغيره من لكتب وداسوها تحت أقدامهم ، وجمع قائد طبرق الإيطالى المسلمين وداس القرآن أمامهم قائلا لهم : (إنكم معشر المسلمين لا تصيرون بشراً ما دام هذا الكتاب بين أيديكم).

وإنهم قد بلغ بهم الهزة والسخرية ، بالدين الإسلامى ، والقرآن الكريم ، والمسلمين إلى أن وضعوا أناشيد يحثون بها الجنود على طمس معالم الإسلام ومحو القرآن من تلك الديار . وإليكم معاشر المسلمين تعريب أنشودة من تلك الأناشيد "وداع فاشيستى متطوع لأمه" :

(إن من أعظم الآلام لشاب فى العشرين من عمره أن لا يحارب فى سبيل وطنه مع دوام القتال فى طرابلس . يا أماء أتمى صلاتك ولا تبكى بل اضحكى ، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً الأبدل دى لسحق الأمة الملعونة !!! ولأحارب الديانة الإسلامية ، وسأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن !!! ولا تقيمى الحداد على فلذة كبذك ، وإن سألك أحد عن عدم حداثك فأجيبه بأنه مات فى محاربة الإسلام !!!).

أيها المسلمون وحجاج بيت الله الحرام! اقرأوا هذه الأنشودة وتفهموها جيداً تذكروا أنكم بين يدى الله وفى جوار بيته المقدس . تذكروا أنكم ما أتيتم إلى ذلك المكان المشرف إلا لإرضاء الله . فهل يرضى الله بأن يهان دينكم ، وإخوانكم فى طرابلس برقة يجثم عليهم هذا الذل ويلاقون من عذاب المستعمرين وظلم الإيطاليين ما لا يتحمله الحيوان فضلاً عن الإنسان .

يا قوم! ما قطع أوصال المسلمين وجعلهم هدفاً لكل نابل وطمه لكل أكل إلا تغاضيتهم عن بعضهم البعض ، مع أن النبى ﷺ قال : (المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) فما لكم لا تتوجعون لما حل بإخوانكم فى تلك البلاد وتظهرون عطفكم على أهلها ولو يمقاطعة البضائع الإيطالية وبالاحتجاج على سياسة الإرهاق التى

تسلكها تلك الدولة الغاشمة في القطر الطرابلسي البرقاوى لتعلم أن الشعب الطرابلسي البرقاوى إخوانًا يتألمون لمصائبهم . وهذه المقاطعة لا تكلفكم شيئًا وتخففون بها وطأة الظلم الذى يلاقيه إخوانكم فى الدين ولا ناصر لهم ولا معين .

فيا غيرة الإسلام إن بلادنا	بها الناس تصلى والمنازل تضرم
ويا غيرة الإسلام إن بلادنا	بها الدم يجرى إذ أبيع بها الدم
ويا غيرة الإسلام إن بلادنا	تجور بها الأعداء جوراً وتظلم
ويا غيرة الإسلام إن بلادنا	بها الحق ققيخو والمساجد تهدم
وتسبى نساء المسلمين وتسبى	أيامى وأطفال هناك تيسم
وتهتك أعراض البنات تهتكًا	وهتك ستور القوم للقوم مغنم
حرائر لم تطرق عليهن ريبة	ولم يخرق فى سبلهن محرم
وقد أوقدت بعض البيوت بأهلها	كما أوقدت بالمجرمين جهنم
فيا وحدة الدين انجدينا فإننا	بنا حل ليل الظلم والليل مظلم "

أما ماذا كان أثر هذه الاستغاثة فى إهاجة شعور العالم الإسلامى ضد حكومة موسولبنى وإثارة سخط العرب والمسلمين على الطغيان الفاشيستي فى طرابلس برقة، فذلك ما يكشف عنه ما حدث من ذبوع أبناء مظالم الطليان فى طرابلس برقة بين أوساط الحجاج فى مكة والمدينة من غير العرب، حتى طلب بعض هؤلاء نقل منشور الاستغاثة إلى لغتهم، وتعهّدوا بنقله والعمل على إذاعته بين أهل بلادهم، زيادة على نجاح هذا المنشور فى إزعاج حكومة موسولبنى التى اشتد بها القلق وخشيت ان ينقلب عليها الرأى العام فى العالم الإسلامى إذا هى لم تبادر بعمل مضاد يوقف الأثر الذى أحدثه منشور (الاستغاثة) فى غير صالحها، وهذا كله إلى جانب استجابة كبار العاملين فى

القضايا العربية والإسلامية بين العرب والمسلمين لنداء بشير السعداوى، وتزعمهم فى بلادهم حركة الاحتجاج على الفظائع الإيطالية فى طرابلس برقة، وأخيراً إعلان (موسوليني) أنه يدعو من يشاء من كبار المسلمين للذهاب إلى طرابلس برقة، ليتحقق بنفسه من سيرة الحكم الإيطالى فى هذه البلاد، وإن كان (موسوليني) لا يعنى ما يقول، ولم تكن دعوته هذه إلا إجراء مضاداً ييغى منه أن يخفف من وطأة الحملة التى أثارها منشور الاستغاثة على الحكم الإيطالى فى ليبيا. ولم يكن يتوقع أن يطلب أحد الذهاب إلى طرابلس برقة "للتحقيق" فيما يجرى بها من أحداث جسام.

أما أثر (الاستغاثة) بين أوساط الحجاج فى مكة والمدينة، فقد تحدث عنه السيد فهمى الحشانى - وهو طرابلسى هاجر من البلاد واستقر به المقام بالمدينة المنورة وصار يزاول طب الأسنان بها - فكتب أن أعداداً من "نشرة الاستغاثة التى صدرت بقلم الجالية الطرابلسية المتمثلة فى شخصكم الكريم" - والخطاب موجه إلى بشير السعداوى - قد وصلت. ثم يقول: "قرأنا تلك الكلمات الصادرة من فؤاد مظلوم وقلب مفعم بالإخلاص لدينه ولأُمته. فحياكم الله، ثم لم أكتف أنا وبعض إخوانى من قراءتها لأن هذا لا يثمر شيئاً بل ذهبنا توأاً للعالم العلامة الزعيم الهندى الكبير الأستاذ السيد حسين أحمد أحد دعاة مقاطعة البضائع الأجنبية فى الهند والعامل على نشر الدعوة الإسلامية هنالك. فتسلمها قارئاً متأنفاً ولم ينس بغير هذه الكلمة التى يظهر من فحواها مقدار الحزن العميق الذى استولى على فؤاده وهى: هل يوجد عندكم نسخ غير هذه؟ أجبتة بنعم. ومن حسن الحظ أنى لما ذهبت إلى البيت وجدت عند السيد أحمد الذهبى نسخاً من تلك المذيلة بامضائكم، فتناولت منها أعداداً وذهبت بها إلى الزعيم المشار إليه فشكركم على هذه الخدمة الجليلة، ويقول السيد فهمى الحشانى أنه طلب من هذا العالم الهندى عنوانه حتى يستطيع السعداوى الاتصال به فى بلاده "فهو رجل عظيم يقدر أن يقوم داعياً بين ستين مليوناً من المسلمين"، ولما كان السعداوى يسعى "للمقاطعة"

لإضعاف النفوذ الأجنبي، فإنه لا يجد عضداً له في هذا "إلا أمثال هؤلاء الذين اختمرت عندهم هذه الكفرة بل نفذت وجنى ثمرها". وقد وعد السيد حسين أحمد بترجمة (الاستغاثة) إلى الهندية "ونشرها في الصحف الهندية وبقراءتها بين الحجاج في منى وعرفات وفي بيت الله الحرام". وطلب الحشاني أعداداً أخرى لتوزيعها وبعد الحج على من لم يكن عنده علم بها من الحجاج". وأرفق بياناً بأسماء "الشخصيات التي لها أثر" في محيطه كي يرسل إليهم السعداوى نسخاً من (الاستغاثة)، وليتصل بهم.

وفي ١٩ مايو ١٩٣١ كتب السعداوى إلى السيد محيي الدين القليبي - من رجالات تونس وزعمائها الوطنيين، ومنهم المششتغلين بقضايا العروبة - يلفت نظره إلى ما وقع من أحداث، حتى لا تسبق سائر الأقطار تونس في الاحتجاج على فظائع الطليان في القطر الطرابلسي البرقاوى. فقال البشير: "لا بد أنكم قرأتم في الصحف غضب الشعوب الإسلامية من الفظائع التي ترتكبها إيطاليا في طرابلس برقة. وعلى أثر ذلك قد تألفت اللجان في كل مكان لمقاطعة البضائع الإيطالية. وأتمنى من حضرتكم أن تقوموا بمثل هذا العمل في تونس أيضاً كي لا يكون السعب التونسي النبيل متفاعساً عن القيام بواجب قام به كل شعب عربى في مختلف الديار. وإنى منتظر أن تسمعونا أصواتكم الجمهورية وغضبتكم العربية والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه".

ولكن في شهر مايو كان منشور الاستغاثة قد وزع في كل مكان تقريباً، كما ذاع نأ الاحتجاجات والمظاهرات والإضرابات والاشتباكات الدامية التي وقعت في سوريا ولبنان وتألفت اللجان فعلاً، وهي التي أشار إليها السعداوى في كتابه إلى القليبي، للاحتجاج على فظائع الطليان، وإعلان مقاطعة البضائع الإيطالية. ولقد عثرنا على صورة برقية من برقيات الشكر التي أ برق بها السعداوى إلى عدد من رؤساء هذه اللجان هم أصحاب السماحة رئيس

المجلس الأعلى بالقدس، ومفتى بيروت، ومفتى اللاذقية بـلبنان والشام، وعطوفة رئيس اللجنة التنفيذية بالقدس. وهى مؤرخة فى ٢٧ مايو ١٩٣١، وقد جاء بها نصه:

ليس من ينكر أياديكم البيضاء وأعمالكم الكبيرة وجهادكم المستمر فى سبيل الدفاع بأمثالكم عن الإسلام والمسلمين، ولا غرو فإن الصادق الأمين ﷺ بشرنا فى الحديث الشريف بقوله: (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله). لذلك فإن الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم الذى غضبتم لما حل به من عذاب المستعمرين وظلم الظالمين يكبر فيكم روح الشهامة والغيرة على الإسلام ولا يستطيع التعبير عما يخالجه قلبه نحوكم من آيات الشكر والثناء ويفتخر بأن ينقش اسمكم الكريم على صفحة فؤاد المكلموم. وفقنا الله لما فيه خير المسلمين وكلل أعمال الجميع بالنجاح.

وفى الختام تفضلوا بقبول فائق احتراماتى".

ذلك كان أثر (الاستغاثة) المباشر فى العالمين العربى والإسلامى. أما أثرها فى الدوائر الإيطالية الذى هو - كما ذكرنا - كان إزعاج حكومة موسولبنى إعاجاً شديداً. فيستبين من التكذيبات الكثيرة التى صدرت لنفى ما جاء فى (الاستغاثة) عن فظائع الحكم الفاشيستي فى ليبيا. وبلغ من شدة انزعاج هذه الحكومة أنها لم تجسر على ياغفال شأن هذا المنشور، والتظاهر أمام الشعب الطرابلسى بعدم المبالاة بما يقوله ويفعله المهاجرون فى الخارج. بل بادرت بالرد على (الاستغاثة) وتفنيد ما جاء بها، وما كانت تصفه بانه مكذوب من أساسه وتخط من شأن الكتاب الوطنيين والمجاهدين فى المهجر وعلى رأسهم بشير السعداوى وكان القلم الذى استخدمته السلطات الحكومية فى برقة لهذه الغاية هو قلم السيد عمر فخرى المجيشى، صاحب جريدة (بريد برقة) التى كانت تصدر بينغازى. وقد كنا فى كتابنا (السوسية دين

ودولة) تولينا تفسير مضالعة المرحوم عمر فخرى المحيشى مع الطليان، بما يظهره فى صورة الوطنى الذين يريد الخير بأهل ملته ودينه، والذى وإن كان قد تعذر عليه أن يغادر الوطن ولم يجد مناصاً من السير فى ركب الطغاة المستعمرين، فقد عول على خدمة هذا الوطن بمحاولة "الحد من بطش وطغيان الحكومة" بقلمه وعقله، فصار ينشئ فى صحيفة "المقالات الطويلة" يكيل فيها المدح والثناء على أعمالها، ولكنه يشير بطريق خفى إلى الطريقة المثلى التى يجب عليها اتباعها تحقيقاً للعدالة وتنفيذاً للقانون "ثم قلنا إن المحيشى ظل على عهده، وظلت تلك طريقته فى الجهاد، وإن اختلفت عن طرائق المجاهدين بقيادة عمر المختار داخل برقة أو بشير السعداوى وصحبه من الهاجرين خارج القطر الطرابلسى البرقاوى، وذلك حتى بعد أن قضى (غرزيانى) على كل مقاومة فى داخل البلاد، وأعدم الشهيد المختار، إلى أن قلنا إن الأنجليز فى الحرب العالمية الأخيرة عندما هزموا الطليان وحلفاءهم الألمان، وأجلوهم من برقة وطرابلس، عرفوا قدر عمر فخرى المحيشى الذى تعاون - كما تعاون كثيرون غيره من أبناء جلدته - مع "منفذى" الوطن، وبقي الحال على ذلك حتى وفاته فى بداية عام ١٩٤٢. تلك الرواية كغيرها من الروايات التى اعتمدنا فيها على شهادة أحد المعاصرين لهذه الحوادث، ومن تعاونوا كذلك مع الطليان على اعتبار أنهم بهذا التعاون - وعلى نحو ما زعموا - إنما يخدمون بلادهم المنكوبة، يقول إنه لم يكن فى وسعنا مناقشتها وقتئذ أو التأكد قطعاً من صحتها أو عدم صحتها، حتى أتيت لنا الفرصة فى عام ١٩٤٨ (وحتى عام ١٩٥١) لزيارة ليبيا والتعرف إلى قادتها وزعمائها والعمل فى قضيتها، والاتصال الأوفى بأئلك الذين اعتمدنا على رواياتهم، فأمكننا أن نصحح بعض الوقائع الواردة فى كتابنا عن (السوسية دين ودولة)، وعلى نحو ما يلحظه القارئ فى الفصول المتعلقة باستئناف الجهاد فى طرابلس الغرب بين ١٩٢٠ و ١٩٢٤ فى هذه الدراسة الجديدة وقد وقفنا على رأى آخر فى وزن أعمال المرحوم عمر فخرى المحيشى. ولكننا ونحن بصدد تسجيل قصة الجهاد الوطنى فى ليبيا، لا نريد أن نكون ظالمين لسيرة فرد أو جماعة.

وفى مسألة الد على منشور الاستغاثة، بالذات، فإن إثبات المقال الذى دبحه المحيشى فى جريدة (بريد برقة) قمين بان يظهر القارئ على طوية صاحبه، إن كان يخدم الاستعمار فى بلده، أو أنه حقيقة كان يريد أن يحد من بطش وطغيان الحكومة.

وهذا المقال منشور فى العدد ٣٢٩ من (بريد برقة) فى يوم الأربعاء ٢٥ من ذى الحجة ١٣٤٩، الموافق ١٣ مايو ١٩٣١، و "السنة التاسعة الفاشيستية"!! وهو بعنوان: جوابنا على منشور العضاة الليبيين على العالم الإسلامى. ويقول: "بمناسبة موسم الحج الأخير أذيع منشور أسند زوراً إلى (الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم) موضوعه (استغاثة مسلمى طرابلس برقة بحجاج بيت الله الحرام وجميع إخوانهم فى أقطار الإسلام) كما جاء فى عنوانه.

سطرت ذلك المنشور أيد أئيمة هى بلا شك لإحدى تلك الجماعات المتشردة التى انتحل أفرادها الزعامة يوماً من الأيام فى هذه البلاد التعيسة فجروا على شعبها المنكود من المصائب ما لا يزال يعانى آثاره، ثم نزحوا عن البلاد للنجاة بأنفسهم وكأنما لم يكفهم ما ارتكبوه فى الماضى فاستمروا فى التضليل لكيلا تحرم البلاد من مأذاهم حتى وهم بعيدون عنها.

(الله أكبر دماء تسفك وأعراض تهتك وحرمان تنتهك ظلماً وعدواناً. الله أكبر أوطان تغتصب وأموال تسلب وأرواح تزهر جوراً وطغياناً. الله أكبر يهان كتاب يقدهس أربعمئة مليون من صميم البشر، ذلكم هو القرآن كتابكم الكريم أيها الموحدون. ويسخر من نبي يحترمه عقلاء البشر كافة، ذلكم محمد بن عبد الله نبيكم أيها المسلمون.

إن كل هاتيك الفظائع والفجائع يرتكبها الإيطاليون فى ربوع طرابلس برقة وإنما يصلى نارها ويعانى دمارها هنالك ذيك الشعب الإسلامى العربى الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم.

بهذه الأسجاع المهيجة استهل ذلك المنشور لتهويل الحالة فى نظر حجاج بيت الله والعالم الإسلامى . ونحن لا نقصد بمقالنا اليوم توجيه الخطاب لمن أذاع ذلك المنشور المحشو بالمفتريات ولمن هم على شاكلته ، لأن أمثال هؤلاء القوم الذين لم يخجلوا من تضليل البسطاء من بنى قومهم ودفعهم إلى مهاوى الهلاك لنيل شىء من حطام الدنيا الزائل ثم التخلّى عنهم ساعة استحكام الخطر ، نقول إن من ركب مثل هذه الأفاعيل لا يستغرب منه اختلاق الأكاذيب لإيهام أتباعه السابقين بأنه لا يزال يدافع عنهم ويستحث الهمم لنجدتهم ، وهو لذلك لا تنفع معه الحجة ولا يقارع بالبرهان لإقناعه بضلال رأيه .

إنما نريد أن نبسط - مستندين على حقائق الواقع التى لا تفند - حالة هذه البلاد للعالم الإسلامى الذى قد لا تصله أنباء القطرين الطرابلسى والبرقاوى إلا مشوهة على هذه الصورة التى يرسمها له أمثال أولئك تحقيقاً لأغراضهم السيئة .

على أن حجاج بيت الله قد أتيح لهم فى هذا العالم كما فى السنين السالفة أن يلاحظوا بالمشاهدة م نحالة الحجاج الطرابلسيين والبرقاويين ما فيه التكذيب الكافى للمنشور الذى نحن بصدده .

فحجاج هذين القطرين منذ ييارحون أرضهم إلى أن يعودوا إليها بعد إتمام شعائهم الدينية لا تفارقهم مظاهر عناية الحكومة الإيطالية وعطفها المتجلية فيما يبذله من مساعدات رجال حكومتهم المحلية وممثلوا إيطاليا فى الدار الفخمة التى اشتراها لهم بكة المكرمة وصرفت ولا تزال تصرف عليها من مال الدولة لا من مال الأوقاف الإسلامية كما قد يتوهم البعض أسوة بما قد تفعله الحكومات الأخرى .

ولكن مالنا والاستشهاد بمعاملة إيطاليا لرعاياها فى الخارج ، فقد يعلل خصومنا - وهم على ما شرحنا من سوء النية - هذه الخطة بأنها تمويه للعالم

الأجنبى . فلنتظر إذن إلى ما أجرت إيطاليا فى نفس قطرى طرابلس وبرقة حيث هى صاحبة السلطان المطلق لا تضطر إلى عمل ما لا تريده بدافع المدارة أو غيرها، ولنتقابل بين مختلف هذه الإجراءات وبين تلك التهم الدينية التى ذكرت فى المنشور المشار إليه ليتبين الفرق واضحاً بالدليل والبرهان .

احترام الدين - قطعت إيطاليا فى ميدان احترام العقائد الدينية لرعاياها خطوات تميزها تمييزاً ظاهراً مشكوراً بين سائر حكومات العالم، ودليلنا على ذلك القوانين والأنظمة التى صدرت حتى فى عهد الحكومات الفاشستية التى يتهمها أصحاب المنشور باضطهادها الدين، والأعمال المشاهدة كل يوم من موظفيها صغاراً وكباراً. فالقوانين المذكورة الصادرة بمراسيم ملكية قد ضمنت احترام الدين والتقاليد المحلية فى مادة مخصوصة . وفى أخرى منعت منها باتاً أن يلحق المسلمون فى المدارس مبادئ تنافى أحكام دينهم، وفى أخرى منعت المكرات للمسلمين أثناء شهر رمضان وقضت بمجازاة من يخالف ذلك ولو كان إيطاليا .

هى أحكام لم تصدر حتى من بعض الحكومات الإسلامية المستقلة . ويقول المنشور إن أحد القواد داس المصحف الشريف أمام بعض المسلمين قائلاً : (إنكم لا تصيرون بشراً ما دام الكتاب بين أيديكم)، وإن بعض المساجد اتخذت خمارات . . وهى أكاذيب تغطيها عبارات الشكر والثناء الصادرة من كثير من حملة القرآن الذين أغدقت عليهم الحكومة إحساناتها على تلاوتهم الكتاب العزيز فى المساجد خلال شهر الصيام، وتطمسها المدافع التى تأمر بإطلاقها فى أوقات الصلاة الخمسة أيام الأعياد الإسلامية والتى لا يزال صداها يرن فى الأذان فيستوجب إعجاب الجميع إذ لم تمض سوى أيام قلائل على عيد الأضحى . . وهو الذى وزع فى أيامه المنشور، فكيف يصدق ذو العقل السليم بأن حكومة هذه قوانينها وهذه أعمالها يقدم أحد وقادها على مثل الفعلة التى ذكرها المنشور أو أن تجمع فى

أعمالها بين منتهى حد التسامح والمجاملة وبين الإهانة والاحتقار إزاء معتقدات رعاياها.

من هو الشعب الطرابلسي البرقاوى المظلوم - إذا كانت خطة الحكومة الإيطالية كما أوضحها إزاء دين غير دينها الرسمي فبالطبع أن أعمالها فى ميدان التمدين والبرر والإنسانية المحضه لا تقل عن ذلك والحق يؤيد أنها أعظم وأبهى وأبهر.

ويعدد منشور الاستغاثة جملة أعمال فظيعة لا أصل لها إلا فى مخيلة محرريه وينسبها إلى الضباط والوظفين الإيطاليين كما ينسب إلى الحكومة الإيطالية من أعمال الخراب والدمار ما هو جدير كل الجدارة بأن يصدر من الرذمة الباقية فى برقة والتى يرفع أصحابها المنشور أفرادها إلى صفوف المجاهدين الأبطال.

وقبل الجواب على هذه المقتريات سنحاول معرفة هؤلاء المستغيثين أو السمتغات باسمهم من جور إيطاليا وعدوانها، فإن فى كشف النقاب عن حقيقتهم ما يسهل تنفيذ التهم التى شحن بها المنشور ونعقب ذلك بسرد أعمال التمدين والعمران التى قامت وتقوم بها إيطاليا فى هذه الديار.

من هو هذا الشعب الطرابلسي البرقاوى المظلوم . . الذى مضى عليه زهاء عشرين سنة وهو يدافع عن وطنه ودينه وعرضه بقوة الحق وبقوة الإيمان . . ولكن نفذ صبره وضاق ذرعه وقلت حيلته إكار ما تأتیه تلك الدولة الغاشمة من ضروب الفظائع وأنواع الفجائع التى تأبأها الوحوش الضارية فضلا عن متسمنى القرن العشرين؟ أهو ذلك الشعب الهادئ المطمئن المنتشر فى أنحاء القطر الطرابلسي من فزان إلى البحر وقد تخلص بفضل الحكومة الإيطالية من قطاع الطرق الذين كدروا صفو عيشه طيلة أعوام عديدة يعمل الآن على تحسين حاله راضياً عن حكومته التى لا تدخر وسعاً فى معاونته وإسعاد حظه . . "وذلك المخيم فى سهول برقة وفى مدنها يعمل فى ظل

الحكومة وينتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى تقضى فيه جنود الحكومة هنا أيضاً كما قضت فى القطر الطرابلسى على شراذم العصاة ليستكمل أمنه وراحته ويتم له ما ينقصه اليوم من أسباب السعادة؟

أم الشعب الطرابلسى البرقاوى محصور فى الفشة الضئيلة الخارجة عن الجماعة قوامها أشخاص قد يؤسوا من عفو الحكومة لتكرر خيانتهم وتوالى إجرامهم، فجعلوا قطع الطرق دينهم وسلب العزل من أبناء دينهم وحبسهم حرفة لهم لا يعرفون غير ذلك سبيلا من سبل العيش ولا واسطة من وسائل الكسب.

إن كان هؤلاء الآخرون هم الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم الذى يشير إليه منشور الاستغاثة فالأجدر أن يستغاث من فظائعهم وفجائعهم بقوة الحكومة الإيطالية.

فكم من عابر سبيل تعرضوا له فسلبوا ماله أو قتلوه شر قتلة، وكم من منتجع أخذوه على غرة فقتلوا رجاله وسلبوا نساءه ولم يجسروا قط على التعرض لقوات الحكومة ولكن عدوانهم كان موجهاً كل هذه السنين ضد الأهالى فممن يستغيثون؟

نعم قد نفذ اليوم صبرهم وضاق ذرعهم وقلت حيلتهم - وهو القول الوحيد الذى ينطبق على حقيقة الواقع من كل ما تضمنه المنشور - إزاء التدابير الحازمة التى أجرتها الحكومة حتى انحصر عدوانهم وسبيل معاشهم فى سرقة الحيوانات وبيعها فى مصر على مرأى ومسمع من أرباب السلطة فى تلك البلاد الذين يقع على عاتقهم شطر كبير من المسؤولية الأدبية عما عانته جارتهم هذه من المصائب والويلات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولو تدبروا الأمر وأنصفوا لأدركوا أن مثل هذا التغاضى منهم بمثابة تشجيع الإجرام وتسهيل بيل العدوان وتأخير ما ترجوه هذه البلاد وتشعر بأشد الحاجة إليه من الراحة والأمن، وهو أقل ما يقضى حسن الجوار بتحاشيه. فهل لمعاونة هؤلاء القوم يستتجد حجاج بيت الله الحرام والعالم الإسلامى أجمع؟

قد يضيق بنا المقام اليوم عن تعداد الفظائع التى ارتكبوها ضد أمن البلاد وسلامة العباد، كما يضيق عن شرح المهازل المضحكة المبكية فى آن واحد التى تتجلى بها أعمالهم كل يوم وهم يتبجحون بها كأنما هى أعمال حكومة منظمة .

لقد أردنا أن ننشر لشرح هذه الأمور المحزنة صور عدة وثائق توضح غطرسة القوم من جهة فى طلب المال عن لا حق لهم عليه والتهديد بالسلب والنهب فى حالة الامتناع وتوضيح أيضاً مهزلة التبرع برتب ونياشين لا يعرفون منها سوى أسمائها التى تعلموها أيام الحكم العثمانى .

ولكن حال دون تحقيق أمنيته هذه عدم وجود الآلة المخصوصة لحفر (الأكليشييه) اللازمة لذلك وقد نعود لنشر تلك الوثائق فى فرصة أخرى، فلو اكتفينا اليوم لهذه الضرورة بنشر شيء مما تضمنته تلك المستندات (وما هى إلا قصاصات ورق كتبها يد جاهل لم يتعد عن ساحة الأمية قيد ذراع) فلن نعدم من يتهمنا بالتزوير .

ولكن حينما يطلع القارئ على الصورة الفوتوغرافية لتلك الوريقات التى يريدون بها محاكاة الفرمانات الشاهانية والأوامر الحكومية لا يبقى له شك فى صدورهما من تلك الشرذمة بعد أن ذيل بعضها مثلاً يختم الوكيل العام عمر المختار (أى النائب عن السيد إدريس السنوسى المقيم فى مصر . فتأمل بالله هذه المهازل التى تضحك الثكلى) .

أما أعمال العمران والتمدين التى قامت بها إيطاليا فى الديار والتى نريد ذكرها هنا تفنيدياً لتهم منشور الاستغاثة لتتمير الأشياء بضدها، فهى المدارس المنتشرة فى كل مكان والمستشفيات والمستوصفات والمحاكم الضامنة لإجراء العدل وطرق المواصلات التى تم إنشاؤها والجارى العمل فيها بهمة لا تعرف الكلل والملل إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر .

سلسلة مآثر فاخرة تشهد بفضل إيطاليا فى ترقية التابعين لها شهادة لا ينكرها إلا عدو مكابر .

وليس هناك ربع ولا ثلث ولا غير من الأهالى أجلاهم الإيطاليون عن ديارهم إلى الأقطار المجاورة كما يدعى أصحاب المنشور، ولكن شراذم من مقطع الطرق أخذ جنود الحكومة فى تعقبهم فى القطر الطرابلسى التجأ منهم قسم إلى صحراء الجزائر ثم عاد الكثير إلى بلادهم حيث يعيشون الآن آمنين فى ظل الحكومة، وفر قسم آخر إلى برقة وأكثر من رؤساء تلك الشرازم الذين يخشون أن لا تنسى لهم الحكومة أعمالهم فى تضليل الأهالى وإهلاك الحرث والنسل، وقد شئت شملهم حين احتلال الكفرة .

أما الثمانون ألفاً الذين يقول المنشور إن الإيطاليين قد حشروهم فى صعيد (العقلىة) الضيق، فذلك مجموع سكان قطر برقة من البادية ولم تحشرهم الحكومة فى مركز واحد كما قيل فى منشور الاستغاثة طمساً لعالم الحقيقة، وإنما نقلت من كان مقيماً منهم فى مناطق الجبل عرضه لاعتداءات قطاع الطرق والاختلاط بهم إلى السهول الواسعة الخصبة فى مناطق يتوفر فيها الماء والكأ حيث تسهل مراقبتهم وإصلاح حالهم من الوجهة السياسية والأدبية والاجتماعية وحتى الدينية، فإن الحكومة لم تكف بإنشاء المدارس والمتوصفات وغيرها فى المناطق التى نقلوا إليها، بل أنشأت لهم أيضاً محاكم يفصل بينهم فيها قضاة مسلمون طبق أحكام الشرع الإسلامى .

أما احتلال الكفرة الذى يتكلم المنشور عنه بنوع خاص مدعيًا وقوع عدة فظائع من الإيطاليين، فحقيقة الواقع فيه أنه لما جاء جنود الحكومة لاحتلال تلك الواحة وحاول العصاة المقاومة فر من كان بالواحة مع المقاومين خوفًا من أن توقع الحكومة بهم الأذى جزاء اعتراضهم فى وجه قواتها. وهذا أيضاً من آثار تضليل رؤسائهم فتشتوا فى الصحراء وعانوا من آلام الجوع والعطش ما لا يعلمه إلا الله، ولما عاد بعضهم إلى الكفرة وأخبر السلطات الإيطالية

بالحالة السيئة التى تركوا فيها إخوانهم نظمت الحكومة عدة حملات تفتيشية من الهجانة وزودتها بلوازم الإسعاف، فأخذت هذه تجمع من تعثر عليه وعيده إلى الواحة بعد تقديم الإسعافات اللازمة. وقد أتيح بهذه الطريقة إنقاذ كثير من الرجال والنساء والأطفال من مخالب الموت. والعائدون إلى الكفرة كمن بقى بها يتمتعون الآن بأكمل الأمن والراحة. وقد اجتاز جماعات من أولئك الفارين الحدود الشرقية ودخلوا القطر المصرى قبل أن يلحق بهم عساكر الحكومة المكلفون بإسعافهم، فلم يكن بالممكن أن يعمل شئء إزاهم. هذا هو كل ما وقع فى الكفرة، وما هو إلا صحيفة بيضاء مزدانة بأبهى المآثر الإنسانية تضاف إلى تاريخ إيطاليا.

كلمة هادئة غلى صحيفة الجامعة العربية - من كل ما تقدم يتضح بصورة لا تدع مجالا للشك والريب أن مصلحة الشعب الطرابلسى البرقاوى الحقيقية تقضى عليه بمسألة الحكومة الإيطالية والخضوع لقوانينها لأن فى ذلك وفيه وحده خيره وصلاحه. وأما أصحاب المنشور والذين يتكلمون باسمهم فأقل ما يمكن أن يقال عنهم بدون خشية الخروج عن حجية الحق هو أنهم غير جديرين بالعطف الذى يطلب نحوهم من العالم الإسلامى.

وهنا نختم هذا المقال بكلمة هادئة نوجهها إلى صحيفة (الجامعة العربية) التى تصدر بالقدس الشريف والتى تظن أنها انفردت بتلوين صفحتها بمنشور الاستغاثة.

قالت حريدة (إلى - تيفرى) التى تصدر بروما من مقال ضاف علقت به على المنشور المذكور ما معناه: (إن السيد منيف الحسينى صاحب الجامعة العربية إذا كان قد بلغ به التضامن مع قطاع الطرق الذين كانوا بالكفرة إلى حد أن يسمى أعمال النهب والسلب الموجهة ضد الأهالى الأمنيين الذين يدينون بالإسلام مقاومة للاستعمار - وذلك مع بعد الشقة بين البلدين وعدم توفر المصلحة مباشرة - وإذا كان مع وقوفه على مظاهر المدنية الإيطالية التى

يشاهدها عياناً فى كل يوم وفى كل بلد من بلاد فلسطين، لا يتحاشى أن ينشر منشوراً يدعو فيه مقاطعة البضائع الإيطالية، إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكننا تكذيب التهم التى أسندت إليه وإلى أخيه المفتى من التحريض على المذابح التى وقعت فى فلسطين وأذاعت خبرها أكثر صحف العالم ما عدا الصحف الإيطالية التى اكتفت بنشر الوقائع ليس (إلا).

هذا ما قالته الصحيفة الورمانية، ونحن مع ما فى هذا القول من الموافقة للعقل والمنطق تفضل أن نبالغ فى حسن الظن بصاحب الجامعة وبسماحة المفتى المحترم ونحمل هذا الأمر على جهل حقيقة الواقع فى قطرى طرابلس وبرقة.

أما وقد اتضح الحق لذى عينين بما أسلفنا من البيانات فإذا كان على المسلم أن ينجد أخاه المسلم ويأخذ بناصره فليكن ذلك ولكن طبق ما نص عليه الحديث الشريف الذى فسر المثل العربى القائل: (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) بأن نصر الظالم إنما يكون برده عن ارتكاب الظلم.

ويرى أصدقاء عمر فخرى المحيشى، والذين دافعوا عن طريقته فيما أسموه مكافحة الاستعمار فى بلاده، أن مجرد نشر خبر "الاستغاثة" فى جريدته، ونقل عبارات طويلة من المنشور، خدمة جلية للوطن حيث تتاح الفرصة بفضل هذه الإذاعة لأن يقف الشعب الليبى على مبلغ نشاط المجاهدين سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها فى كفاحهم ضد الطليان، ويزيد هؤلاء دليلاً على صحة ما يذهبون إليه، هو أن "التغنى" باصطلاحات الطليان، و "التحدث" بأفضالهم على الوطن، إنما ينفع فى استنهاض همم الطليان، ليستجيبوا لمطالب أهل البلاد من حيث رفع الظلم عنهم ونشر العدل بين ظهرائهم، ووقف سياسة العنف والإبادة التى كان محققاً أنها سوف تفنى الشعب الليبى بأسره لو أنها استمرت دون أن يقف فى وجهها شيء، فمقالات المحيشى - والمقال الذى نقلناه هنا نموذج طيب لما كان ينشره صاحب

(بريد برقة) - إنما يقصد بها كاتبها تزويد المواطنين بالأخبار التي يجب أن تصل إليهم حتى يلموا بما يفعله إخوانهم المجاهدون، ومقدار ما نزل بهؤلاء من محن، أو مبلغ ما كان لديهم من فرص سانحة للنجاة من شرور الطليان، على نحو ما ذكره عن الجماعات التي فرت من واحة الكفرة قاصدة إلى الحدود المصرية، ونجاحها في دخول القطر المصري "قبل أن يلحق بهم عساكر الحكومة" كما كان مقصده من هذه المقالات "تأنيب" الطليان بأسلوب مستور - وذلك أقصى ما كان يستطيعه كاتب أو أى فرد من أهل البلاد العرب كائنًا من كان وقتئذ - تأنيب الطليان على فعالهم الذميمة، وتذكيرهم بأنهم وهم الأمة المتمدينة التي حضرت لطرابلس برقة من أجل نشر المدنية في ربوعها كما يدعون، جدير أن يقلعوا عن جورهم وأن يكفوا عن مظالمهم فالمحيشى في المقال الذى نحن بصده، بعد أن عدد "مفاخر" الطليان ومآثرهم التي صدرت "بمراسيم ملكية" لاحترام الدين والتقاليد، راح ينفي ما ذكره منشور الاستغاثة عن حوادث الكفرة، وتساءل "كيف يصدق ذو العقل السليم بأن حكومة هذه قوانينها وأعمالها يقدم أحد قوادها على مثل هذه الفعلة التي ذكرها المنشور، أو أن تجمع في أعمالها بين منتهى حد التسامح والمجاملة وبين الإهانة والاحتقار إزاء معتقدات رعاياها".

وثمة مقصد آخر كان يغيه عمر فخرى المحيشى في كتاباته - على حد ما يذهب إليه أصدقاؤه هو تحذير المجاهدين مما يريده بهم الحكام الطليان، والكشف عن تدابير هؤلاء المزمعة ضدهم، وذلك كله طى عبارات الشتم والإعانة التي كان يكيلها للمجاهدين سواء في المهجر أو في داخل برقة ذاتها.

وكل ذلك قد يكون صحيحًا. ولكن لا يجب أن يغيب عن ذهننا أن هذه المقالات التي يكتبها عمر فخرى المحيشى - شأنه في ذلك شأن أى محرر أو صاحب جريدة عربية فى ليبيا فى ذلك العهد - إنما كان يأتيه أمر من السلطات الحكومية بكتابتها، وفى المعنى الذى تريده هذه السلطات. وكان نوع

الرقابة المفروضة وقتئذ على الصحف وغيرها من وسائل النشر والإذاعة صارماً لدرجة يتعذر معها أن يفلت شيء من يدها، أو أن يتجاسر كاتب على تضليلها أو مراوغتها. فلم يكن منتظراً أن تفيد "الدروس" والتوجيهات التي يقال إن المحيشي كان يضمنها مقالاته شيئاً في تنبيه الحكومة المحلية (الإيطالية) إلى ضرورة الكف عن إيذاء أهل البلاد، أو العمل على إدخال الإصلاح المنشود، أى التجلى بالجملة عن جوهر سياستهم الاستعمارية. ثم إنه لا يجب أن يغيب عن ذهننا كذلك أن قليلين جداً كان أولئك الذين فى وسعهم من سواد الشعب الليبى فى أقاليمه الثلاثة: برقة، طرابلس، فزان - والذى حرص الطليان على حرمانه من كل أسباب الرقى طوال العشرين سنة التى مضت حتى هذا الحين على استعمارهم له - أن يدركوا مقاصد المحيشى المستورة، لتوجيههم وإرشادهم. فمقالات المحيشى حتى من الناحية كانت عديمة الفائدة. ولو أن عدم جدواها هذا لا يعنى أنها لم تكن - وكما حصل فعلاً - عظيمة الأذى، ولا جدال فى أن كتاباته كانت عظيمة الأذى لسبب واحد هام، هو أنها جميعها كانت تضرب على نغمة واحدة: تشويه جهاد المجاهدين الذين فى المهجر وعلى رأسهم بشير السعداوى فى ربوع الشام، والأمير السيد محمد إدريس فى القطر المصرى، والذين يقاتلون المستعمر فى داخل برقة بقيادة السيد عمر المختار، وتسوى سمعتهم، بينما تابرت على الإشادة بإصلاحات الطليان أياذى هؤلاء البيضاء على أهل البلاد، ودعوة الناس للإذعان لهذا الحكم الطيب، وتذكيرهم بقوة الحكومة وبطشها دائماً حتى تتزع من صدورهم أى أمل فى إمكان التحرر والخلاص من هذا الحكم الأجنبى. ولذلك ففى هذا المقال الذى أثبتناه تعليقاً على منشور الاستغاثة، وصف المحيشى أصحاب منشور الاستغاثة بزعامة بشير السعداوى، والمقاتلين فى برقة بقيادة عمر المختار، والمهاجرين فى مصر برئاسة السيد الأمير نفسه بكل النعوت التى يجدها القارئ فى جواب صاحب (بريد برقة) على منشور "العضاة الليبيين" إلى العالم الإسلامى. فهؤلاء المجاهدون فى نظره جماعات

متشردة، وشراذم من قطاع الطرق، وفئة ضئيلة تعمل لتضليل البسطاء من بنى قومهم، وهم مجبولون على الكذب والتزوير، إلى غير ذلك من صفات التحفيز والإهانة التى سخا بها فلم المحيشى فى مقاله هذا عظيم.

ولقد أشار مقال المحيشى إلى أن جريدة (إل - تيفرى) التى تصدر بروما قد علقت على منشور الاستغاثة، وأنها وجهت العتاب - أو اللوم إن شئت - إلى السيد منيف الحسينى صاحب (الجامعة العربية) لأنه نشر بصحيفته منشور الاستغاثة. ويؤخذ من هذا الذى نشرته صحيفة (الجامعة العربية) أن المسؤولين الطليان اهتموا بمنشور الاستغاثة الذى أقض مضاجعهم ما جاء فيه عن الفظائع التى ارتكبوها خصوصاً فى واحة الكفرة إلى جانب فظائعهم السابقة فى معسكرات الاعتقال، وحشد ألوف العرب فى معتقل العقيلة والحقيقة أن المسؤولين الطليان بسبب منشور الاستغاثة هذا، والضجة التى أثارها فى الأقطار الإسلامية والعربية ضد الاستعمار الإيطالى فى ليبيا، وتوجيه الدعوة فى هذه الأقطار لمقاطعة البضائع الإيطالية، والثقافة الإيطالية . . الخ - سرعان ما صاروا فى شبه حمى، يحاولون بكل ما وسعهم من جهد وحيلة إزالة الأثر اللسئ الذى أحدثه منشور الاستغاثة فى الأوساط الإسلامية والعربية التى كان الطليان يريدون استمالتهم إليهم بكل الطرق، فعمدوا - كما رأينا - إلى تكذيب كل ما جاء بهذا المنشور، ولم يكتفوا بالتكذيب فى الصحف البرقاوية الطرابلسية. بل عمدت قنصليتهم العامة فى بيروت إلى إصدار بلاغ تكذيب، تنفى فيه أن إيطاليا ارتكبت شيئاً من الفظائع التى تحدث عنها المنشور، وقال إنها وقعت فى الكفرة أو فى العقيلة. وتدخلت الحكومة الإيطالية مع سلطات الانتداب الفرنسى فى سوريا ولبنان، حتى تطلب هذه من بشير السعداوى الكف عن إذاعة شىء عن الفظائع الإيطالية فى بلاده. وأذرت هذه السلطات بشير السعداوى مرة أخرى بإخراجه من البلاد إذا هو استمر على إهاجة الخواطر " وثابر على نشر الفظائع الإيطالية ". وفى آخر الأمر لم تجد الحكومة موسولينى بدلاً لتهدئة رأى العام العربى والإسلامى من

أن توجه الدعوة لمن يشاء من قادة الرأي لزيارة طرابلس برقة للتحقق بنفسه من "كذب" ما جاء فى منشور الاستغاثة.

أما هذه الآثار كلها تحدثت عنها الرسائل التى تبودلت - خلال مايو خصوصاً - بين بشير السعداوى والأمير شكيب أرسلان.

وتبدأ هذه الرسائل بكتاب من السعداوى إلى الأمير شكيب فى ٩ مايو ١٩٣١، جاء فيه ما نصه:

بعد كتابكم المؤرخ فى ١٣ نيسان (إبريل) سنة ١٩٣١ لم أتناول من عطوفتكم كتاباً غير البرقية التى تأمرونى فيها بالرد على بلاغ قنصلية بيروت، وقد فعلت، ووقفت لنشره رغم ممانعة السلطة. إن انقطاع كتبكم أمر شغل بالى وأخشى أن تكون الأيدى لعبت لعبتها فى البريد فلا هذا ولا غيره من الأمور يحول دوننا ودون جهادنا. إن السلطة أبلغتني أنني إذا تابرت على عملى فى تهيج الخواطر والمثابرة على نشر الفظائع الإيطالية تضطر لإبعادى. واطمئن سيدى الأمير أن ذلك لم يحرك منى شعرة.

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأسهل ما يمر به الوحول

ما لنا ولهذا، فنحن - بحول الله - نسير فى طيقنا بدون خوف ولا وجل، وسنوالى العمل ما دام فينا قلب يخفق وعرق ينبض والله من وراء القصد.

أرسلت لكم فى هذا اليوم جريدة القبس وبها الرد على بلاغ القنصلية الإيطالية وأظن بعد هذا لا تتمكن الصحف فى دمشق وبيروت أن تنشر لنا ما نطلبه، وإننا نسعى السعى الحثيث فى تحقيق فكرة المقاطعة وندعو الله أن يوفقنا.

أرجو أن تطمئنينى عن وصول كتبى إليكم، وهل أرسلتم لنا بعد كتابى المار الذكر كتاباً. كما أرجو أن تراسلونى بهذا العنوان إلى أن أقف على

الحقائق: دمشق - الصالحية حارة البرج رقم ٥ عمر فائق أفندى (شنيب)، وهذا من إخواننا. كنت عرضت لعطوفكم عن مسألة نشر كتاب الفطائع وتنسيقها (هكذا فى الأصل) وإرسالها لنا للشروع فى الترجمة لتقديمها لكم لطبعها وإذاعتها. أرى أن نشریاتكم عن فطائع الإيطاليين فى طرابلس الغرب قد بعثت فى روح المسلمين شعوراً عظيماً وأملئ أن تكون هذه الحركة المباركة مقدمة لنهضة فكرية فى العالم الإسلامى. حقق الله الأمنى ومد فى حياتكم لهذه الأمة المغلوبة على أمرها"

وفى ٣ مايو ١٩٣١. أجاب الأمير شكيب من لوزان على كتاب السعداوى برسالة مطولة: تناول فيها مسألة الدعوة التى وجهها موسولبنى بشأن ذهاب وفد يمثل الشعوب الإسلامية والعربية إلى طرابلس برقة، للتحقيق فى الحوادث التى ذكرها تقرير بشير السعداوى إلى شكيب أرسلان، وكتب عنها هذا الأخير فى مجلته (لانسون آرأب)، والتى ذكرها كذلك منشور الاستغاثة. على أن رسالة الأمير شكيب هذه هامة أيضاً بسبب ما تذكره من العوامل التى كان لها فى آخر الأمر أثر لا يستهان به فى عدم الإلحاح على حكومة موسولبنى ومطالبتها باستقبال الوفد الإسلامى الذى كانت وجهت إليه الدعوة لزيارة طرابلس برقة.

وفىما يلى نص كتاب الأمير شكيب إلى "حضرة الأخ الأعز المجاهد أخذ الله يده" بشير السعداوى:

أخذت مكاتبيكم وفهمتكم كلها واطلعت على كل الجرائد ولا شك أن الذى ظهر من المسلمين أخيراً من العطف والحنان والحمية يوجب السرور، لأنه دل على أن دم الإسلام - والحمد لله - لا يزال يغلى فى عروقه، وأن هذه الأمة لم ينقطع الأمل منها، ويكفى أن موسولبنى مع غطرسته اضطر إلى تكذيب هذه الأخبار مع معرفته كونها بأجمعها صحيحة. ومع كون قسم كبير منها مأخوذاً من مصادر إيطاليا الرسمية. ولهذا أنا بعد اطلاعى على بيان

قنصل إيطاليا في بيروت، أبرقت إلى (العهد الجديد) بأن ينتظروا منى جواباً على ذلك البيان، وأبرقت لكم أيضاً بأن تردوا على قنصل إيطاليا تفصيلاً، ونص تلغرافى لكم هو هذا (ويأتى النص بالفرنسية وترجمته: أجيئوا بتكذيب قنصل إيطاليا بكل شدة مع ذكر التفاصيل). لا أعلم هل وصل إليكم هذا التلغراف أم لا وهل وصل فى حينه أم لا؟ وعلى كل الأحوال ضرورى الرد على قنصل إيطاليا بكل ما عندكم من البراهين والأدلة لأن الناس يمكنهم إذا سكتم أن يرتابوا فى صحة الفطائع المروية. وأما أنا فقد حررت عشر صفحات من يومين وأرسلتها إلى العهد الجديد ولم يتم الرد فسأكملة بمقالة ثانية. ولا شك عندى أنكم أنتم أيضاً تحت إمضاء اللجنة التنفيذية للجمعية الطرابلسية البرقاوية قد قمتم أيضاً بهذا الواجب على أتم وجه. أما مسألة إرسال وفد إسلامى إلى طرابلس فحادث لا يمكن إنكار أهميته وهو مفيد جداً من كل الوجوه. مفيد من جهة إثبات التكافل بين المسلمين ولو تناءت أقطارهم. ومفيد من جهة تقوية معنويات مسلمى طرابلس وبرقة ويرجى بعده أن يقف الطليان على بعض حدود فى أعمالهم، ولقد جاءنى من رياض بك الصلح برقية يقترح فيها أن الوفد السورى (الذى كان فى باريس يشتغل بقضية سوريا وقتئذ) يتوجه على رأى الوفد الإسلامى للفحص، وأنهم أبرقوا من بيروت إلى الشام وبغداد والقدس ومصر لانتخاب رجالات الوفد.

فأنا جاوبت رياض أنه متى تم انتخاب جميع هذه العواصم لأعضاء الوفد يشعرنا حتى نعين ملتقى نجتمع فيه. ثم كتبت له تحريراً أننى لا أجهل الخطر الذى فى هذه الرحلة إلى طرابلس بعد أن علم الطليان أن معظم هذا الهيجان عليهم كان من المقالة التى نشرتها ولكننى لا أتوقف عن القيام بالواجب برغم وجود الخطر وإمكان الغدر بواسطة مفتعلة تكون من يد أناس من العرب أنفسهم ممن يخدمون الطليان. غير أننى أشرت أن يأتى لا أقل من عشرة أشخاص ممثلين للعواصم التى ذكرناها، وأن تتعهد إيطاليا بأن يذهب الوفد ويؤوب ولا يمسه أحد بسوء ولا يعترضه أحد فى أخذ المعلومات

اللازمة. ولم أزل فى انتظار الأجوبة لأننى لم أكتب إلى بيروت فقط، بل كتبت إلى الحاج أمين الحسينى فى القدس، وإلى عبد الحميد بك سعيد فى مصر، ثم إن مسألة نفقات السفر لآبد من النظر فيها ولو على وجه التبرع، فلا يكفى الرجل الذهاب إلى هناك أقل من مائتى جنيه ذهاباً وإياباً - ولو كان المال موجوداً فى اليد لم أكن أنا سائلاً عن أمر كهذا. لكن مع الأسف الحالة هذه السنة صعبة جداً. وترانى منظرًا معلوماتكم بهذا الشأن. وإن جد شىء أفيدكم والله يأخذ بيدكم ويوفقكم لإتمام المشروع وتنفيذ البرنامج الذى كتبنا عنه بحذافيره وهو برنامج سملى محض ولكنه مؤثر ودمتم. أخوك شكيب أرسلان.

هذا، وفى حاشية كتب الأمير شكيب: "إن أخى الجابرى لا يقدر على الذهاب إلى طرابلس لأنه مباشر عملية جراحية، ثم إن للوفد السورى أشغالا لا تتوقف فيلزم بقاؤه فإن تم هذا المشروع توجهت أنا لكن على الشروط التى ذكرناها والملتقى فى الإسكندرية، ويكون الركوب بحرًا إلى درنة وبنغازى.

وفى الرسالة الثانية، وهى من لوزان بتاريخ ٩ مايو ١٩٣١، أبدى الأمير شكيب تفاؤلا كبيراً "بنهضة المسلمين هذه المرة" قال إنها نهضة "مباركة" وفوق ما كان يؤمل؟ حيث أظهر هؤلاء مشاركتهم للأمير شكيب ولصاحبه السعداوى فى "جميع العواطف" فاستنكروا الفظائع الإيطالية فى طرابلس برقة واحتجوا عليها وفى هذه الرسالة يطلب شكيب أرسلان من السعداوى أن يعقث إليه بصورة شمسية من خطابين كانا قد وصلا السعداوى من المجاهدين من القطر الطرابلسى البرقاوى، أحدهما من الشيخ عمر الشيبانى من برقة، والآخر من السيد عبد الجليل سيف النصر، وكان قد بلغ واحة العوينات وهو فى طريقه إلى مصر، وكلا الشيخين يصف الفظائى التى ارتكبتها الطليان فى حوادث العقيلة والكفرة وغيرها. ولهذين الكتابين أهمية كبيرة حيث اعتمد ما جاء بهما بشير السعداوى فى المبادرة إلى الكتابة فى الحصف وإذاعة خبر الفظائع الإيطالية فى طرابلس برقة.

أما كتاب عمر الشيباني، وهو مؤرخ في ٣ شعبان ١٣٤٩ (٢٤ ديسمبر ١٩٣٠) فكان نصه كالآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبيه الكريم.
إلى الأجل الفاضل أخينا في الله البشير السعداوى أدام الله لنا بقاءه
أمين.

بعد السلام والسؤال عن نخطركم نعلمكم أننا بخير وحالتنا طيبة. أما
من خصوص العledo فإننا لم نزل نحاربه بقدر استطاعتنا نرجو الله أن ينصرنا
ويعلى كلمة المسلمين فنحن من مدة وصلنا لودى الجروس والعرب تتوارد
علينا من كل جهة ولله الحمد، وأولاد سيف النصر معهم أولاد سليمان
(قريين) منا ولا يمكن للعدو أن ينالنا لأن الله معنا. بلغتنا أخبار عن الجبل
الأخضر مؤلة، جاءنا من الدور الشريقى الشيخ محمد بن حسين قال إن
العرب فى الجبل ورحلتهم إيكاليا إلى المقطاع والعقلية وقتلت منهم (ناس)
كثيرة ورمت (ناس) من الطيارة، وعملت فيهم السيف وأخذوا أغنامهم
وإبلهم وأخذت الأطفال التى دون البلوغ لإيطالية. أما من عمره إلى ٤٠
أخذوهم عسكر وكثير من الحريم ماتوا من القهر وبعضهم ساقوهم لنبي غازی
لأجل العسكر، وجاءتنا الأخبار الهائلة عن هذا العمل وأن رفاده رموه هو
ومعه خمسة عشر (شيخ) هم الذين رموهم من الطيارة (وكانوا) (الزباط)
يقولون لهم وين البرهان خلى نبيكم يفككم من أيدينا، لا حول ولا قوة إلا
بالله، وهؤلاء الكفار (ناوين) على محو الدين والمسلمين. إننا عهدنا الله
ورسوله على أن ندافع عن ديننا وحریمنا إلى أن نموت، والموت خير من هذه
الحياة. والله (إننا) نرجح ذبح الأهل والأولاد ولا يتمكن منهم الكافر. إننا
مع هذه الحالة غير يائسين من نصرة الله والله مع الصابرين، وما لنا حيلة إلا
الصبر إلى الموت. وأنتم الواجب عليكم الجهاد بأقلامكم وأن تعلموا المسلمين
بأعمال الطليان لأننا إخوانهم فى الدين، وين المسلمين لو كان قاموا ما فعلت

معنا إيطاليا هذا الفعل إنا لله وإنا إليه راجعون. من مدة انقطعت عنا مكاتيبكم وما علمنا السبب وقرأت مكتوبكم الأول على المجاهدين وانسروا منه غاية السرور، وكلهم دعوا لكم بالخير. والحاصل الله الله يف إخوانكم وإننا (يئسنا) من الحياة وسيجمعنا الله فى الجنة جنات النعيم والسلام عليكم. حرر فى ٣ شعبان ١٣٤٩

أخيكم عمر الشيبانى .

أما كتاب عبد الجليل سيف النصر، وهو (ابن خال) بشير السعداوى، فتاريخه شوال ١٣٤٩، أى ١٩ فبراير - ١٩ مارس ١٩٣١ وهذا نصه:

الحمد لله وحده

حضرة الفاضل أخونا البشير بك السعداوى حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فقد قدر الله أن يتغلب علينا الإيطاليون بعد نفاذ الذخيرة من المجاهدين وبعد معارك عظمى استشهد فيها جماعة منهم سليمان الشريف ومحمد أبو يونس وأبو سنة وابن أخيه ثم أبو قبة وعبد السلام أبو سويحلى وعلى حسين أبو شيبية وحامد الهامة ومحمد أبو غرب والشيخ صالح العايدية، وقد تفرق المجاهدون منهم من ذهب إلى مصر ومنهم من ذهب إلى السودان الإفريقى، وقد لاقوا فى طريقهم أهوالا و (مشاقا) كثيرة، ودخل الإيطاليون الكفرة التى لم يبق فيها إلا الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال وانتشرت جنود الإيطاليين فى الكفرة وفى التاج مستبيحين كل حرمة فإنهم نهبوا وذبحوا الشيوخ والأطفال ذبح الخراف وقتكوا بالنساء فتكا ترتعد له الفرائص وبقروا بطون النساء الحاملات وتلاقفوا الأجنة على رؤوس الأسنة ولم يتركوا عرضا لكبيرة وصغيرة إلا هتكوه هتكاً شنيعاً، وكان نصيب الكثير من النساء الموت الفظيع من مدافعتهن عن أعراضهن، وبالجمله قد هتكوا أعراض سبعين عائلة من عائلات أسيادنا الأشراف، وقد جعلوا من الجوامع خمارات شربوا فيها كؤوس الخمر وكانوا يجبرون النساء المسلمات

اللائى أحضروهن للفحش على أن يتعاطين الخمرة أو يمتن شر ميتة. قد بعثوا جميع المصاحف والكتب الشرعية فى زاوية التاج وداسوا عليها وألقوها فى الاصطبلات تحت حوافر الخيل والبغال. على أن جميع ذلك لا يستغرب من أمة الطليان التى مضى عليها عشرون عاماً وهى تنفذ فى المسلمين مثل هذه الفظائع ولا بد بلغكم أخبار الفجائع المؤلمة التى ارتكبها الإيطاليون مع الثمانين ألف مسلم الذين ساقوهم من الجبل الأخضر سوق النعاج وحصروهم فى منطقة العقيلة وأنتم أعرف الناس بها، وقد قتلوا من هؤلاء الضعفاء المستسلمين ألوفاً فى الطريق وزجوا زعماءهم فى السجون وعذبوهم العذاب الأليم. بل وصلت وحشيتهم إلى إخراج شيخ قبيلة رفادة الشيخ سعد وخمسة عشر شيخاً غيره أصعدوهم فى الطيارات وألقوهم على مشهد من أهلهم. وكان الفاشيست فرحين جداً بهذه الموقية وكلهم يصفقون استحساناً ويصيحون ليحيى نبيكم محمد البدوى الذى أمركم بالجهاد ويتقدم من أيدينا، زد على ذلك فإن هذه الأمة المعجزة اغتصبت البنين والبنات وسفرتهم إلى إيطاليا لتنصيرهم وسافت أمهاتهم إلى مواقع المومسات وجندت الكبار بالقوة ليحاربوا إخوانهم المسلمين وقد أركبت قسماً من الزعماء والوجهاء السفن الحربية ولا نعلم أين يكون مقرهم. أما نحن فقد وصلنا إلى العوينات ومعنا صالح باشا الأطيوش ومحمد عمر الفضيل وهما والأخوة يسلمون عليكم. لطف الله بعباده والسلام. فى شوال سنة ١٣٤٩، ابن خالكم عبد الجليل سيف النصر (ختم).

هذا، ولرسالة الأمير شكيب أهمية أخرى من حيث إنه قد جاء بها لأول مرة ذكر لوجوب "تأليف كتاب على مهل يتضمن تاريخ أعمال إيطاليا فى طرابلس من ٢٠ سنة، ويترجم إلى الإفرسية"، اقترح تأليف هذا الكتاب الأمير شكيب، فكان هذا الاقتراح سبباً فى صدور ذلك السجل الضافى لفظائع الطليان فى طرابلس برقة، والذى أشرنا إليه مراراً بعنوان: (الفظائع السود الحمر أو التمددين بالحديد والنار). وإلى جانب هذا فقد تناول الأمير

شكيب مسألتي ترجمة (النشرة) التي كان قد أعدها بشير السعداوى عن فظائع
الطليان "إلى اللغات المتعددة"، ومقاطعة البضائع الإيطالية.

وثمة مسألة هامة أخيرة ذكرتها الرسالة، هي مسألة الوفد الإسلامى
الذى اهتم المشتغلون بالقضايا العربية آنئذ فى إعدادة للذهاب إلى طرابلس
برقة تلبية لدعوة موسولينى للقيام هناك بتحقيق فى أمر الفظائع التى أهاجت
العالم الإسلامى ضد إيطاليا، والتى كذبت وقوعها حكومة الفاشيست. ولقد
سبق أن ذكرنا أنه كان عقب الضجة التى أثارتها كتابات الأمير شكيب،
ومنشورات بشير السعداوى، وخصوصاً منشور (الاستغاثة) أن قام المسئولون
الطليان بجهود كبيرة لتكذيب هذه الاتهامات، ونشر القنصل الإيطالى فى
بيروت تكذيباً لها فى جريدة (أوريان) التى تصدر بالفرنسية فى بيروت، كما
أنه ضمن مقاله مطاعن شديدة على الأمير شكيب أرسلان نفسه باعتباره أنه
كان مسئولاً بكتاباتة عن إهانة العالم الإسلامى ضد الاستعمار الإيطالى فى
طرابلس برقة. وكان أن وجهت الحكومة الإيطالية على لسان قنصلها كذلك
الدعوة للعالم الإسلامى بأن يؤلف وفدًا إسلاميًا لزيارة القطر الليبي وفحص
الحالة هناك، وكان توجيه الدعوة بهذه الصورة عملاً جريئاً من جانب الحكومة
الإيطالية تريد به أن تتحدى العرب والمسلمين أجمع. ولم يكن يزعجها اتخاذ
هذه الخطوة. ذلك أنه كان من الميسور دائماً إذا لى المسلمون الدعوة، وذهب
وفد إلى طرابلس برقة أن تضع السلطات هذا الوفد تحت إشرافها بحكم
استضافتها له، فلا يرى أو يسمع غلاماً ما تأذن هى له به، وفى وسعها بما لديها
من وسائل التأثير أو الضغط على الأهلى أن تحجب عن أعين أعضاء الوفد
كثيراً من الحقائق - وذلك ما كان يخشاه بشير السعداوى ولو أنه احتفظ
بمخاوفه هذه فى قرارة نفسه فلم يشأ أن يكشف عنا لصاحبه لعل شيئاً منها لا
يتحقق. ومع ذلك فقد كان الطليان يتحدثون المسلمين تحدياً صريحاً عندما
وجهوا دعوتهم لأنهم اعتقدوا أن المسلمين لن يستطيعوا تأليف الوفد فى آخر
الأمر، وأن وقتاً طويلاً سوف يمضى فى تقليب وجوه الراى فى هذه المسألة،

حتى إذا أمكن أن يتألف الوفد يكون قد جسد من الحوادث ما يحول دون ذهابه. وسوف نرى بالرغم من الاهتمام البالغ الذى قبلت به دعوة الحكومة الإيطالية فإن وفداً إسلامياً لم يتألف، ولم يذهب إنسان (للتحقيق) فى فضاء الطليان فى طرابلس برقة. وعلى كل حال فمن الثابت أن دعوة الحكومة الإيطالية هذه قد قبلت بحماس من جانب عديدين من المشتغلين بقضايا العرب، ويذكر الأمير شكيب فى رسالته (المرحوم) رياض بك الصلح فى مقدمة هؤلاء المتحمسين، كما يشير فى رسالته إلى الاهتمام الذى أثارته هذه الدعوة فى مصر. أما الأمير شكيب نفسه فكان عظيم الاهتمام بها، شديد التحمس لها، ولكنه اشترط شروطاً سوف يجدها القارئ فى رسالته، وكان لا معدى عنها ليأمن على نفسه من غدر الطليان الذين اعتبروه وقتئذٍ من ألد أعدائهم، ومسئولاً عن إثارة سخط العالم العربى والمسلمين عامة عليهم، لا سيما وأن نشاطه المعادى لهم كان قد امتد كذلك حتى بلغ اليمن لتحذير إمامها من جهود الوكلاء الطليان فى بلاده، الذين استطاعوا أن يدفعوا "معاشات سرية" - كما قال الأمير - لكثيرين "من مأمورى حكومة الإمام".

وفيما يلى نص هذه الرسالة: لوزان ٩ مايس (مايو) ١٩٣١

أخى البشير بالخير إن شاء الله.

مكاتيبك كلها وصلت. الجرائد كلها وصلت. نهضة المسلمين هذه المرة مباركة كانت فوق ما كنت أؤمل. كتبت لك عن هذا منذ أيام. صرت أؤمل أكثر من ذى قبل. أرسلت كثيراً من هذه الجرائد إلى مدن فى المغربين الأقصى والأوسط ضمن ظروف مضمونة لأنهم يشاركوننا فى جميع العواطف برغم كل التضحيات الواقعة عليهم. وبهذه النهضة الشرقية تقوى معنوياتهم جداً. أبذلوا كل مجهودكم فى نشر ردكم على قنصل إيطاليا وإن لم ينشروه فى بيروت أو فى دمشق كله فانشروا بعضه ثم انشروا الكل فى (الجامعة العربية)

و (الحياة) فى القدس. أرسلوا لى صورتين شمستين من مكتوبى الشيخ عبد الجليل سيف النصر والشيخ عمر الشيبانى. احذروا أن تذكروا أسماءهما أو أسماء غيرهما ممن هم هناك فى منشوراتكم إذ يتعرضون بذلك لانتقام الطليان. وإنما أطلعوا الثقات نظير مفتى بيروت (وهو المرحوم الشيخ مصطفى نجبا) مثلاً على الكتب التى بيدكم حتى يوقن الجميع بأن هذه الأخبار صحيحة لو يعلم الناس ما هو جار فى نفس إيطاليا بحق أضداد الفاشيست ما ترددوا طرفة عين فى تصديق كل ما جاءت به الأخبار عن فظائعهم بالمسلمين. أرسلت إلى (العهد الجديد) ردًا يبلغ ٢٠ صفحة من قطع هذه الصحيفة وأبرقت بالخبر عنها ونشر ذلك (العهد) ولا شك أن القسم الأول من الرد وصل ونشر من أمس. نحن لا ندين الحكومة الطليانية إلا من بلاغتنا الرسمية. كتبت أيضاً إلى "الفلاح المصرى" بمصر مقالة رد موجزة بليغة وأوصيته بنقل مقالتي بالعهد الجديد حتى لا أحرر الشئ مرتين. واليوم أرسلت بمقالة ثانية إلى الفلاح المصرى عن مبادئ الفاشيست وإعلانهم مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وأن القتل والسم والحرق بالنار وكل شئ جائز عندهم فى سبيل إعلاء شأن وطنهم وهم لا يورون بذلك.

وستجدون فى "الفتح" مقالة ثانية غير الأولى عن فظائع الطليان فى طرابلس بعد أن ردت حكومة إيطاليا علينا وزعمت أن هذه الأخبار كاذبة، وجب إثباتها وإثبات غيرها مما لم نذكره. يجب تأليف كتاب على مهل يتضمن تاريخ أعمال إيطاليا فى طرابلس من ٢٠ سنة ويترجم إلى الإفرنسية ففكروا فى ذلك.

أما النشرة التى أشرت عليكم مع ترجمتها إلى اللغات المتعددة فهذه يجب سرعة المعاملة فيها.

المقاطعة يلزم أن تصير حقيقة. جاءنى بهذه الساعة من البطل محب الدين الخطيب كتاب فيه ذكر مسلم سحب من بنك دى روما أربعة آلاف جنيه

كانت له فيه وهو حسن أفندى أنسى، وكذلك السيدة روحية إبراهيم سحبت ٢٢٠٠ جنيه، فلو اقتدى بهما الجميع فى المقاطعة لرأيت إيطاليا كيف تركع وتعتدل.

جريدة الطان عدد ٧ مارس نقلت جرائد رومة على وكل كلامها. بهذين اليومين تصدر مجلتنا وفيها درلو درلو (بالتركية ومعناها منوعات أو أشكال أنواع) عن إيطاليا وفى العدد القادم سنرد على كلام جرائدهم.

جاءنى مكتوب من أحد كتاب السوسيايست فى باريز يستعلم عن قضية فظائع إيطاليا هذه ومظاهرات سورية وحادثة طرابلس الشام، فجأوبته بمكتوب ١٣ صفحة نهار أمس وررجونة أن يكتب فى "البوبولار" لسان حزب السوسيايست وهو يكتب بهذه الجريدة فيسهل عليه نشر ذلك فيها.

أما مسألة إرسال وفد إسلامى إلى طرابلس وبرقة فأنا مهما كان فى ذلك من الخطر على فلا أتأخر عن خدمة الإسلام إلا أنى كتبت إلى رياض بك الصلح الذى أبرق لى فى الموضوع وقلت به يجب أن يؤلف الوفد من كل البلدان ولا يكون أقل من ١٠ رجال أكفاء ويجب تجهيز نفقات سفرهم. جميع المسلمين يقترحون أن أكون أنا فى الوفد. وفى مصر بجمعية الشبان المسلمين أجمعوا على ذلك. والبرنس عمر طوسون أرسل إليها يقترح ذلك. فأنا حاضر مهما كنت مشغولا وكان يتعاهدنى مرض الحصى وتصلب الشرايين إلا أنى أقترح الشرطين الأولين مع تعهد إيطاليا لجمعية الأمم بأنه لن يمس الوفد سوء. فهذه عائلتى فى وجل عظيم على حياتى من الفاشيست إذ قالوا لهم إن هؤلاء يفعلون كل شىء وهذا صحيح. لكن هذا لا يثبطنى عن إجابة نداء المسلمين. وغاية الأمر لا أرمى بدون احتياط. جاءنى مكتوب من نابلس من بعض الأدباء يشكرون لى حميتى لكنهم يوصوننى بأن أحتاط لنفسى من غدر الفاشيست. سأجاوبهم - بارك الله فيهم - أنى لن أذهب إلى إيطاليا ولن أمر بها. أما أكثر من هذا فلا أقدر أن أعمل. والحفيظ هو الله.

وإن قدر على شيء فى خدمة ملتى وقومى فهى لى الشهادة ونعمت الشهادة.
نحن فى جهادى أى حرب وإن كان الإنسان يريد أن يذهب إلى الحرب
ويقول: لعلها تأتىنى رصاصة فإنه لا يقدر أن يحارب.

نعم مسألة طرابلس وفضائع الطليان فيها بعثت فى المسلمين هذه المرة
روحاً جديدة وسترى هذه النهضة فى الهند والجاوى وبلاد أخرى. أنا خائف
على اليمن إذ بلغنى أن كثيراً من مأمورى حكومة الأمام يأخذون معاشات
سرية من الطليان. وقد نبهته لذلك ولا تزال الأخبار تردنى بذلك. سأؤكد
وأكرر التنبيه وقد بعثت بقسم من النشرات إلى اليمن. ثم إنى أحمد الله على
ثقة هذه الأمة بى لأنها لا تسألنى على ما أقول برهاناً وذلك ثقة بإخلاصى
وعقلى معاً فالموت بعد الآن لا يهمنى.

بهذه الساعة جاءنى من الجاوى مكتوب من أناس كانوا طلبوا صورتنا
وأسلناها إليهم فقالوا إنهم اضطروا أن يطبعوا من هذه الصورة ألف رسم
وسيطبعون فيما يظهر آلافاً لمكثرة الطلب الواقع عليها. ويوم وصلت الصورة
جاء الناس واجتمعوا فى دار الذى وصلت إليهم الصورة؟ وكانت حفلة كأتى
أنا ذاهب بنفسى.

أروى لك هذا لا للفخر لأنى لا أبالى بالمظاهر الفارغة بل لتعلم ثقة
هذه الأمة بمن يخدمها بصدق.

رياض كتبت إليه فى جواب برقيته ورياض لا يقدر أن يكون غير ما
كان. إذ إن لم تكن الحمية الإسلامية عند رياض بك الصلح فعند من يكون؟
سأكتب إلى مفتى بيروت لا سيما أنى أحبه وأجله كثيراً والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته. أخوكم شكيب أرسلان".

وفى الرسالة التالية وهى من لوزان كذلك بتاريخ ١٨ مايو ١٩٣١،
يتحدث الأمير شكيب إلى جانب ما هو متصل بإذاعة مقالة بشير السعداوى

التي نشرها في (القبس) عن فظائع الطليان، عن الوفد الإسلامي المنظر ذهابه إلى طرابلس برقة: طريقة تأليفه، وطبيعة مهمته، إلى غير ذلك من المسائل ذات الصلة بهذا الموضوع.

وثمة واقعة أخرى تتضح من هذه الرسالة المطولة، هي أن الأمير شكيب نفسه كان قد قدم في الوقت نفسه طلباً إلى عصبة الأمم في جنيف "مبنياً على هذه الفظائع المخلة بالحقوق العامة البشرية، و(اقترح) إرسال لجنة من قبل جمعية الأمم ينضم إليها وفد إسلامي أيضاً حتى يمكن الاطلاع على حقائق ما جرى في طرابلس وبرقة". و وعد (جمعية الأمم) بأن يقدم لها قريباً ترجمة التقرير الذي أرسله بشير السعداوي له عن فظائع الطليان في العقيلة والكفرة، وهو تقرير بدأ الأمير شكيب فعلاً ينقله إلى الفرنسية. ويفند شكيب أرسلان في رسالته هذه التهم التي وجهت إليه في صحيفة (أوريان) السالفة الذكر، والتي كانت كلها مطاعة لا تستند على أي أساس صحيح. وليس الغرض منا إلا محاولة النيل من المكانة الرفيعة التي كان يشغلها الأمير شكيب في العالمين العربي والإسلامي، بوضعه من كبار العاملين في القضايا الوطنية العربية. والرسالة إلى جانب أنها ترسم صورة عامة - ولو بطريق غير مباشر - لبعض ما كان يشكو منه المجتمع العربي من علل في تلك الحقبة، وخصوصاً بين المشتغلين بالقضايا الوطنية في قسم - على الأقل - من الشرق الأوسط، فإن هذه الرسالة تعرض مسألة الوفد الإسلامي المطلوب ذهابه إلى طرابلس برقة من شتى وجهات النظر، وتتناول بالتحليل الدقيق الصعوبات التي كان يتوقع شكيب أرسلان أنها قد تعرقل ذهاب الوفد أو قد تجعل مهمة هذا الوفد عسيرة، وأهمها - كما ذكرنا - أن الطليان أنفسهم لم يكونوا صادقي النية في رغبتهم أن يذهب وفد إسلامي إلى طرابلس برقة للتحقيق فيما يحدث، والذي تصر الحكومة الإيطالية على تكذيبه جملة وتفصيلاً. وفيما يلي نص هذه الرسالة الطويلة.

أخى المجاهد المحترم بشير بك السعداوى أخذ الله بيده .

كنت كتبت إليك مكتوباً ضمن ظرف مضمون باسم الشيخ عبد القادر المغربى فى الشام فإن كان لم يدفعه إليك فاسأله عنه فإنه مسجل ووصله معى . وكذلك كتبت إليك مرة ثانية بعد هذه بمكتوب غير مضمون أتذكر أنى وضعت ضمن مكتوب إلى عارف بك النكدى فيجب أن تسأل عن هذا أيضاً . فإن بوسنة الشام غير أن أمنيته خصوصاً من جهة مكاتبى فإنهم يعرفون خطنا بالعربى وبالفرنساوى وإنهم يراقبون حتى كل ما يرد من لوزان وهم بعد هذا كله أدنياء لا يهمهم سمعة الحكومة ولا عما يقال عن إدارتها إذا كانت البوسنة بهذا الشكل ، وأنا أرجح أن الأيدى تلاعبت بهذه المكاتيب لأنها محررة بعد البرقية التى أبرمت بها إليكم من أجل الرد على قنصل إيطاليا ، وقد كان يجب أن تصل لديكم الآن . فأنا متتظر منكم الإفادة عن وصول هذين المكتوبين اللذين حررتهما لكم بعد إرسال البرقية ، ثم ندخل فى الموضوع فنقول إنكم أحسنتم جداً فى الرد الذى نشرتموه فى القبس وكان ينبغى السعى فى نقل هذا الرد إلى سائر الجرائد لأنكم تعلمون اجتهدا الطليان فى تكذيب فظائعهم وتكرارهم ببيانات فى هذا الموضوع ولا سيما قولهم إنهم حاضرون أن يقبلوا أية لجنة تريد الذهاب للتحقيق هناك وأنتم تعلمون أيضاً غفلة المسلمين وعدم معرفتهم أحوال الطليان ولا سيما الفاشيست وكون كثيرين منهم لا يزالون يعتقدون بأن فى أوروبا أشياء امسها المدنية والإنسانية والحقوق العامة وما أشبه ذلك . ثم تعلمون أيضاً أن مصدر هذه القيامة وهذا الهيجان كان المقالة التى نشرتها أنا لاعتقاد الناس أننى لا أقول جزافاً بل أو فى كلامى على الأدلة التى لا يبقى معا ريب ، ونفس مقالتي كانت فيها الأدلة والبراهين وكنت أشير فيها أيضاً إلى ما سيحاوله الطليان من تكذيب هذه الأخبار وإن تكذبياتهم لن تغنى عنهم فتيلاً لأن الأخبار صحيحة كلها وبلاغات إيطاليا الرسمية تؤسد قسماً كبيراً منها . إلا أنه لا يخفى عليكم أن لى أعداء وحساداً لا يهمهم فى الدنيا شىء اسمه إسلام ولا عروبة ولا وطنية سروية وكل همهم

هو أن يخاصمونى وأن يعاكسونى وذلك حسداً وبغياً وهؤلاء مع الأسف لهم أنصار وإن كانوا قلائل فإنهم موجودون وأكثرهم فى دمشق، فإن العالم الإسلامى - ولله الحمد - يثق بكل ما أقوله وتأتىنى المكاتيب من جميع أنحاء بدون استثناء. ولكن هذه الفئة نظراً لكونها من سروريا وأن الحسد موكل بالأقربى كما لا يخفى فهى تتربص بى كل شر ولو كانت تعلم أنى أنا المدافع عن الإسلام وعن العرب، فيجوز أن يوسوسوا للناس أن هذه الأخبار التى نقلتها أنا هى غير صحيحة، وإنى أنا هيجت الخلق بدون معنى وأن إيطاليا هى هذه تقترح إرسال لجنة إسلامية للفحص فى طرابلس، فلذلك لا ينبغى هدم هذه الأقوال وإثبات كون جميع ما نشرناه نحن وإياكم غير قابل للإنكار ولذلك كنت مسروراً جداً من مقالكم فى القبس لكنها لا تكفى ويجب الإمعان فى الرد وإرسال نسخ كثيرة لسائر الجرائد وإن كانت السلطة المحلية تمنعكم من النشر فى سرورية فإنكم تقدرون أن ترسلوا المقالات إلى (الجامعة العربية) فى القدس وإلى جريدة (الحياة) فيها وإلى جريدة (الفتح) وإلى (الشورى) بمصر. ثم هناك أمر مهم جداً وهو مسألة إرسال وفد إلى طرابلس لأجل الفحص، ففى ظاهر الحال هذه حجة قوية لإيطاليا. وقنصل إيطاليا فى بيروت قد كرر هذا الكلام وتحدى المسلمين تحدياً، أى إنه إن كانوا حقيقة يريدون الفحص فما عليهم إلا أن يتوجهوا إلى طرابلس. وأنا منذ سبعة عشر يوماً تلقيت برقية من رياض بك الصلح يقول فيها إن قنصل إيطاليا أبرق إلى روما وأن الجواب ورد بقبول اقتراح المسلمين إرسال لجنة، وأنهم من بيروت أبرقوا إلى دمشق وبغداد والقدس ومصر لأجل تهيئة الوفد. وهم يريدون من الوفد السورى أن يرأس هذا الوفد. فأنا لا أكتف عنكم أننى أعرف حالة بلادنا وأعرف أيضاً أنه قد ينتهى الأمر بتحميل الوفد السورى وحده هذه المهمة وربما كانوا يظنون أنهم بمجرد ما يقولون إنه سيتألف وفد ويطلبون منا قبول الرئاسة عليه نحمل أنفسنا رأساً إلى جنوة أو إلى نابولى ونتوجه إلى طرابلس ونقول سنتنظركم فى طرابلس أو فى بنغازى. وهذا غير معقول لأننى

أنا أعرف جيداً الطليان وأعرف الفاشيست بنوع خاص وأعلم أن كل مفعول جائر عندهم، ثم إنهم قد عرفوا أن هذه القيامة التي قامت عليهم في العالم العربى كنت أنا السبب فيها وأنه لولاي ما كان أحد تكلم أو كانت الحركة ضئيلة جداً، فبعد هذا يستحيل على أن أرمى نفسى فى التهلكة وأن أذهب وحدى إلى طرابلس، بل إن أمر مجرد مرور فى إيطاليا لأننى إن لم أخف على حياتى أخاف على ناموسى ثم إذا كنت فى طرابلس فيجوز أن يدفعوا أناساً من العرب أنفسهم ليغدروا بنا ويقولوا فيما بعد ليس لنا علم بذلك أو يقبضوا على العرب المذكورين لاذين يكونون دفعوهم للعمل ويقتلوهم: والحاصل أننى قط لم أفكر أن أذهب وحدى إلى طرابلس ولا فكر أخى إحسان الجابرى بأن يكون معى فى هذه المهمة، لا بل تكلم مع عائلتى فى الخطر الذى علينا لو ذهبنا، ولكننى أنا لم أقنع بكلامه من جهة عدم الذهاب أصلاً بل أقنعتة بلزوم ذهابى أنا وبقائه هو هنا. ولكننى أردت الاحتياط لسلامة أعضاء الوفد وحرية عمله، فأبرقت أولاً إلى رياض أقول له: أفيدوا أسماء أعضاء الوفد من بيروت والشام وبغداد والقدس ومصر حتى نعرفكم محل الاجتماع. ثم كتبت إليه كتاباً لا بد أن يكون عنده منذ عشرة أيام أقول له فيه إنه برغم وجود الخطر على مثلى فى مأمورية كهذه فأنا نظراً لأهمية الموضوع وأمام هذا الواجب المقدس لا أتأخر عن الذهاب إلى طرابلس على شرط أن يؤلف وفد من عشرة أشخاص أو ثمانية بالأقل منتخبين من أكفاء الرجال المعروفين بالدراية والجرأة معاً وأن يجمع من كل بلد شىء لأجل نفقات الوفد السفرية، ثم يؤخذ من إيطاليا تعهد بأن هذا الوفد لا يمسه سوء ويحاط بجميع أنواع العناية ويتمكن من الفحص بكل حرية، فبعد أن يتم كل هذا يصير تعريفى حتى تتلافى بالإسكندرية، فنركب البحر إلى بنغازى! هذا المكتوب لم يرد لى عليه جواب وأنت كنت طلبت منى أن أكتب إلى رياض وجاوبتك فى كتابى الأخير بأنى كتبت إليه وها أنا بانتظار جوابه. ثم إنى حتى هذه الساعة لم أفهم حقيقة ما جرى بين قنصل إيطاليا والمسلمين فى بيروت

بشأن إرسال الوفد، فنقنصل إيطاليا فى بيانه ثم فى المقالة التى نشروها فى جريدة الأوريان وحوشها طعنًا وقذفًا بى يكررون اقتراح مجيء وفد إسلامى إلى طرابلس ليتحقق كون جميع تلك الأخبار عن فظائعهم كاذبة! ومن جهة ثانية قرأنا فى الجرائد أن المسلمين أمهلوا قنصل إيطاليا ثلاثة أيام حتى يجابوب وأنه لم يرد جواب من روما بقبول الوفد الإسلامى فى طرابلس، كما أن الأخبار الواردة من مصر تدل على أن الطليان أقفلوا الحدود بين برقة ومصر وأنهم يم يأذنوا حتى لمراسلى الجرائد بالذهاب إلى برقة، فتحيرنا فى هذا الأمر أيهما نصدق، فغن كان حقيقة لا ترفض إيطاليا ذهاب وفد إسلامى إلى طرابلس وبرقة فلماذا لا يتألف هذا الوفد؟ ولماذا لا يذهب؟ وهل عجز المسلمون فى كل هذه البلاد الطويلة العريضة عن أن يجدوا سبعة أو ثمانية أشخاص محنكين مخلصين يقومون بهذه المهمة؟

وعلى فرض أنهم يلزم لهم نفقات سفرية فما عسى يمكن أن يبلغ مقدار نفقاتهم هذه. لنقل إن كل واحد منهم يلزمه مئتا ليرة فأى للد لا تقدر أن تجمع لعمل مهم كهذا مائتى (٢٠٠) ليرا؟ على فرض أن كل إنسان من الأغنياء يتبرع بنصف ليرا فهذا المبلغ يجمع بالسهولة لأ،ها مهمة تتعلق بحفظ شرف الإسلام وفيها فوائد لا تحصر. أولا يتتعض إخواننا الطرابلسيون ويعلمون أن الإسلام لم يمت وأنه مسئول عنهم، كما أنه يظهر للأوروبيين خلاف ما كانوا يظنونونه من تفكك عرى العالم الإسلامى ويعلمون أن بين المسلمين تكافلا متينًا. فمثل هذه المهمة ينبغى عدم إهمالنا، وليس جمع ٢٠٠ ليرا نفقة مندوب فيها بأمر عظيم. فإن قالوا إن إيطاليا لا تقبل بالفعل ذهاب وفد كهذا وأن كل هذه الأقاويل من قنصل إيطاليا فى جريدة الأوريان هى تمويهات، فيجب حينئ تكذيب أقوال قنصل إيطاليا وأن يقال فى الجرائد كلها: ها نحن متوجهون وفدًا إسلاميًا إلى طرابلس فاعملوا لنا الإشارة على تذاكر المرور وقدموا التعهد لجمعية الأمم رسمًا أن هذا الوفد لن يمسسه سوء وأنه يتمكن بكل حرية من الفحص. لكن يجب أن يوجد هذا الوفد فعلا لأنه

ما دام غير موجود ولا أحد يتقدم للسفر يبقى قنصل إيطاليا مكرراً طلامه متحدياً المسلمين بقوله تعالوا وانظروا للتحققوا عدم حصول شيء مما شاع. وهذا الكلام مضر جداً بدعوى المسلمين وأى من سمعه يعتقدون بأن الطليان أبرياء مما نسب إليهم لأنهم لو كانوا فعلوا لما كانوا ارتضوا بإرسال وفد إسلامي يفحص بنفسه. والظاهر أن الذي يحملهم على تكرار هذا القول هو ما يقال لهم من أنه ليس في المسلمين أحد مستعد للذهاب إلى طرابلس فلذلك أنا أرى الآن أهم نقطة ينبغي أن توجهوا إليها مساعيكم هي قضية هذا الوفد وتأليف هيئة تذهب إلى قنصل إيطاليا وتقول له نحن حاضرون للسفر على الشروط التي ذكرناها، لأننا لا نذهب إلى طرابلس من تلقاء أنفسنا حتى نصل إلى بلاد تحكم فيها العسكرية كما شاءت ولا نقدر أن نواجه أحداً وإذا واجهنا أحداً أن يتصل بنا إلا أمام مأمورين طليان، على كل حال ينبغي أن المسلمين يتحدون قنصل إيطاليا ليظهروا كذبه. أما نحن هنان فقد قدمنا إلى جمعية الأمم طلباً مبنياً على هذه الفضائح المخلة بالحقوق البشرية. واقترحنا إرسال لجنة من قبل جمعية الأمم ينضم إليها وفد إسلامي أيضاً حتى يمكن الاطلاع على حقائق ما جرى في طرابلس وبرقة. وقد وعدنا جمعية الأمم بأن تقدم لها قريباً ترجمة التقرير الذي أرسلتم لى به فإننا نحن باشرنا ترجمته للإنجليزية. أما ماذا تفعل جمعية الأمم فإن كل ما عمله هو أن تدفع هذه الأوراق إلى إيطاليا، فغداً قبلت إيطاليا ذهاب وفد من قبل جمعية الأمم وهو افتراض بعيد فتسهل جداً مهمة وفد إسلامي يذهب مرافقاً للجنة الداهية من جمعية الأمم، وإن لم تقبل إيطاليا هذا الاقتراح وهذا المرجح فيكون ظهر كذب كلام قنصل إيطاليا في بيروت. وقوله إن إيطاليا فاتحة أبواب طرابلس لمن شاء الفحص. إننى أرسلت رداً على قنصل إيطاليا ربما يستغرق عشرة أعمدة في جريدة العهد الجديد بعثت القسم الأول منه فى أول مايس (مايو) والقسم الثانى فى أربعة مايس ولا أعلم حتى هذه الساعة هل نشره العهد أم منعه الحكومة من نشره؟ ولكنى لا أظنه إلا قد نشر فى العهد لا سيما أن جريدة

الأوربان نشرت مقالة ملأى بالطعن والقذف بحقى شخصياً، ولما اطلعت
أمس على هذه المقالة أبرقت إلى العهد حالا أنا وزميلي (والمقصود هنا إحسان
بك الجابري) وقلنا نحن مقتنعون بجميع فظائع إيطاليا فى طرابلس وطلبنا من
جمعية الأمم إرسال لجنة تحقيق إلى هناك يرافقها أيضاً وفد إسلامى وإن هذه
الفظائع تعترف لإيطاليا بقسم منها فى بلاغاتها الرسمية كما أن القسم الآخر
محقق بشهادة الذينى كانوا حاضرين ويكون الحكومة الإيطالية أقفلت الحدود
بين برقة ومصر ورفضت مرور مراسلى الجرائد. أما المطاعن الشخصية فلا
تستحق عندنا جواباً. ولا شك أن العهد الجديد سينشر هذه البرقية كما أننا
سنرسل نحن صورة استدعائنا إلى جمعية الأمم إلى الجرائد العربية لتنشرها،
بقى هنا أنى أستجلب نظركم لمقالة الأوربان المملوءة بالطعن والقذف فى حقى
حتى تأخذوا النقاط التى فيها وتردوا عليها وذلك مثل قوله إنى أهيج التعصب
الدينى والحال أنهم هم القائمون بتهيج هذا التعصب بالفظائع التى فعلوها
بالمسلمين، ونحن إنما ندافع عن أنفسنا. ومثل زعمه أنه لا يوجد دعاية دينية
كاثوليكية يف بلاد المغرب بدليل أنه لم ينتصر أحد وهذا مخالف للمحسوس
لأن الرسائل التبشيرية الكاثوليكية وغيرها مائة الأرض هناك وهذا من ٥٠
سنة، وإذا كان لم ينصر أحد فليس بدليل على عدم وجودها بل هو دليل
على اقتناع المسلمين بدينهم وليس بصحيح أنه لم تختل هناك عقائد مسلمين
كثيرين، نعم عددهم قليل بالنسبة إلى المجموع، ثم اذكروا دعاية الحكومة
الإيطالية فى طرابلس بناءها الكنيسة فى مصراتة فى محل الجامع وهو المحل
الذى أحرقوا فيه ذلك الشريف مع عائلته. ثم إنه من جملة ما طعن بى قوله
إنى كنت مع الأتراك ضد العرب وهذه نعمة ليست جديدة قالها حسادنا من
قبل وهم يعلمون أنهم كاذبون. فأنا كنت مع الأتراك ليس ضد العرب بل
كنت مع الأتراك ومع العرب معاً حتى تتمكن منمقاومة الظلم الأجنبى
الأوروبى وقد ذهبت وجاهدت فى طرابلس يوم اعتداء إيطاليا عليها لا لأجل
الأتراك بل لأجل العرب وكنت شاكرًا للأتراك يومئذٍ اتحادهم مع العرب

للدفاع عن طرابلس، وبالفعل لولا الحرب البلقانية ما كانت تركيا تخلت عن طرابلس أصلاً ولا كانت إيطاليا قدرت أن تتقدم سيراً إلى الأمام. ولكن كامل باشا نفسه قال لى لا نقدر أن نحارب أربع دول ثم إيطاليا. فالتزموا أن يصالحوا إيطاليا وكان لى أنا اليد فى أن تركيا لم تتنازل عن السيادة العثمانية لإيطاليا على طرابلس بل تركتها للأهالى برغم كل محاولات إيطاليا. ومن جملة مطاعن هذه المقالة بى زعمهم أنى كنت ذا يد فى المجاعة التى حصلت فى سوريا أثناء الحرب، وحقيقة الحال ما أحد سعى واشتغل وجاهد فى قضية دفع ويلات المجاعة وجلب أرزاق من الداخل والخارج مثلى، وقد كتبت هذا فى الجرائد واقتنع به كل من طالعه، ولكننى لا بد أن أعيد ذلك هذه المرة وأزيد المسألة تفصيلاً. والمأمول أنكم أنتم ومن عكم من الإخوان تردون على هذه المقالة البذيئة ردًا مفحماً يرد كيد الطليان وأعوانهم فى نحورهم. أعيد لكم أهمية مسألة الوفد، وعندى أنه يجب انتخاب رجل أو اثنين عن الشام بأقرب وقت. وماذا يضر لو قبل هذه المهمة الأمير سعيد الجزائري وإن لم يكن فأين عمه الأمير خالد ومعه شخص آخر من رجال الشام، وأنا لا أزال حاضراً للذهاب لكن على الشروط التى ذكرناها وترانى منتظراً جوابكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أخوكم شكيب أرسلان".

وهكذا يتبين من هذه الرسالة ومن سابقاتها أن الأمير شكيب كان يرى فى توجيه الطليان الدعوة للذهاب وفد إسلامى "للتحقيق" فى الفظائع التى ارتكبوها هؤلاء فى طرابلس برقة، نجاحاً للحملة الواسعة التى قام بها أرسلان والسعداوى للتنديد بأعمال الطليان وإذاعة المأسى التى حلت على أيديهم بالبلاد. ثم إن الأمير كان يرى أن لا يفوت المسلمون هذه الفرصة، لعل ذهاب الوفد يوقف الفظائع الإيطالية، ويمهد للتفاهم والاتفاق بين المجاهدين وحكومة موسولبنى على أساس أن ينال الأولون مطالبهم، إن لم تكن أكثرها، فبالقليل ذلك القيم منها الذى يمكن أن يتحقق به أمنهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. ولا جدال فى أن هذا الاحتمال الأخير كان لا

يسوغه إلا قدر عظيم من التفاؤل الذى لم ينهض دليل واحد على أن هناك ما يدعو لوجوده. فقد رأينا كيف أن بشير السعداوى لم يكن يعتقد أن الطليان جادون فى الدعوة التى صدرت منهم، وأنهم ما وجهوا هذه الدعوة إلا على سبيل التحدى للعامل الإسلامى، وقد يكون الطليان أنفسهم إنساقوا فى هذا التحدى فى غمرة رد الفعل العنيف الذى ترتب على نجاحه حملة أرسلان والسعداوى فى إهاجة مشاعر المسلمين والعرب فى كل الأقطار ضد الفاشيستي والاستعمار الإيطالى فى طرابلس برقة - ولم يكونوا يتوقعون أن يستطيع العرب والمسلمون إرسال وفد إسلامى إلى هذه البلاد إطلاقاً. وقد يكون الطليان قدروا أن يتمكن المسلمون من فعل ذلك، وعندئذ ففى وسعهم أ، يرفضوا مجيء الوفد، متحلين شتى الأعذار لهذا الرفض، أو أن يتدخلوا فى نشاط الوفد حتى يفسدوا عليه مهمته.

ومهما كان الأمر، فإن وفداً إسلامياً لم يذهب إلى طرابلس برقة؛ لعل من أسباب ذلك أن المسلمين والعرب لم يستطيعوا فى الشهور القليلة التالية الاتفاق على تأليف الوفد وتدبير النفقات اللازمة لأعضائه، وأن الطليان أنفسهم لم يكونوا جادين فى دعوتهم، ذلك أنهم كانوا قد عقدوا العزم فى الوقت الذى صدرت فيه دعوتهم على بذل أقصى جهودهم بمحاولة أخيرة لإنهاء القتال فى برقة، ولذلك فقد استمرت أعمالهم العسكرية بكل همة بعد سقوط واحة الكفرة. وبينما توقع العالم عندما شهد تكذيبهم لما نشر عن فظائعهم فى برقة طرابلس أن يكفوا عن مطاردة المجاهدين أو التكيل بالأهلين الذين حشدوهم فى معسكرات العقلية، كان الطليان بقيادة (غزبانى) فى برقة يقومون بإغلاق الحدود بين مصر وبرقة، ويضيقون على عمر المختار فى الجبل الأخضر.

٧ - استشهاد عمر المختار:

لم يكن سقوط الكفرة (يناير ١٩٣١) إلا جزءاً من العمليات العسكرية

التي أراد بها الطليان هزيمة المجاهدين في الجبل الأخضر. وكان الطليان قد بدأوا منذ فبراير من العام نفسه يمدون الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية البرقاوية ابتداء من بردى سليمان خلف بئر الرملة إلى المساعد (أو المسيعيد)، فتمكنوا من إكمالها بين شرهى إبريل وسبتمبر ١٩٣١، ثم مدت هذه الأسلاك إلى ما بعد الجغبوب بمسافة قصيرة، وقد بلغ طولها جميعاً ثلاثمائة كيلو متر، وانقطع تماماً مجيء أية إمدادات إلى السيد عمر المختار في الجبل الأخضر، ومع ذلك فقد ظل عمر المختار يقاوم الطليان على الرغم من الصعوبات الجسيمة التي كانت تكتنفه من كل جانب، إلى أن حدث في يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ أن وقع السيد عمر المختار في أسر الطليان على أثر اصطدام وقع بينه وبين قوة من خيالة الحكومة بالقرب من (سلنطة) فقد قتل حصانة في المعركة وتكاثرت عليه الأعداء، واستبسل المختار في القتال، ولكنه غلب على أمره وأخذ أسيراً، وفي يوم ١٥ سبتمبر دعا غرزباني "المحكمة الخاصة أو المحكمة الطائرة" لمحاكمة في بنغازي. وقد سجلنا في كتابنا (السنوسية دين ودولة) ما جرى في هذه المحاكمة الصورية التي استغرقت من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمس عشرة دقيقة فحسب، من الساعة الخامسة إلى الساعة السادسة والربع من الثلاثاء ١٥ سبتمبر. وصدر الحكم على المختار بالإعدام. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي (الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٣١) ٤ جمادى الأولى ١٣٥٠ نفذ في سلوق حكم الإعدام شنقاً في السيد عمر المختار.

وأثار استشهاد المختار ضجة استنكار شديدة في أنحاء الأقطار الإسلامية والعربية ضد فظائع الطليان فأقيمت المآتم للسيد عمر المختار في جميع المدن الشامية، وصليت عليه صلاة الغائب في الجامع الأموي - جامع بنى أمية في دمشق - وكذلك في تونس وفي مصر، ورثاه الشعراء خصوصاً المرحومان أحمد شوقي و خليل مطران في مصر، ومحمود أبو رقية في تونس.

وكان استشهاد المختار صدمة عنيفة للجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس
برقة، التي بادر رئيسها السعداوى بإعداد حفلة تأبين كبرى فى دمشق، اختير
منزل الأمير سعيد الجزائرى مكانا لها، ووجه بشير السعداوى الدعوة الآتية
لمختلف الهيئات و "الشخصيات البارزة" للاشتراك فى هذا الحفل:

إلى جمعات شبان المسلمين وغيرهم من الجمعيات الإسلامية
والشخصيات البارزة من رجالات المسلمين تحية واحترامًا، وبعد فلا يخفى
على حضرتكم أن الإيطاليين قد أضافوا فى هذه المرة إلى صحائف أعمالهم
الفظيعة فى طرابلس برقة صحيفة سواداء ستبقى أبد الدهر وصمة فى تاريخهم
الملوث بالخزى والعار بإعدامهم المجاهد الكبير السيد عمر المختار الذى وقع
فى أيديهم أسيرًا ولم يراعوا شيخوخته ولا مكانته فى نفوس المسلمين .
فإيطاليا العاشمة التى لم تنزل منذ عشرين سنة تنزل بإخوانكم المسلمين فى
ذلك القطر النائي أنواع العذاب يجب أن نصرخ فى وجهها صرخة واحدة
ونستنكر أعمالها الفظيعة وبالأخص فعلتها الأخيرة التى أدمت القلوب وفتت
الأكباد، لتعلم أن الأمة الإسلامية هى أمة متكاتفه متضامنة كالجسد الواحد إذا
اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وقد قررنا إقامة حفلة
تأبين الأربعين للمجاهد الكبير عمر المختار يوم الأحد ١٣ جمادى الآخر سنة
١٣٥٠ و ٢٥ تشرين (أول أكتوبر) سنة ١٩٣١ . وسيحضر هذه الحفلة جم
غفير من أرياب الحمية والغيرة، وتحالف على تنفيذ فكرة مقاطعة الإيطاليين
مقاطعة فعلية، ونرفع فى ذلك اليوم الاحتجاجات الشديدة على مظالم
الإيطاليين إلى جمعية الأمم وطاقية الفاشيست لنبرهن له ولن على شاكلته
أننا أمة لا تتحمل الأذى ولا تنام على القذى، ولذلك نرجو من حضرتكم
مشاركتنا فى هذا العمل الذى هو مظهر من مظاهر الشعور وتوحيد الكلمة
وتعزيز الرابطة بإقامة مثل هذه الحفلة التأبينية. وإننا اليوم فى حاجة شديدة
إلى تنظيم العمل وتوحيد الصفوف للقيام بما ييحتمه علينا الواجب والله فى
عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه والسلام عليكم .

وفى حفل التأبين الذى أقيم فى الموعد والمكان المذكورين، ألقى السيد لطفى الحفار أحد رجالات الكتلة الوطنية خطاباً رائعاً، كما ألقى عضو آخر من أعضاء الكتلة وصديق للأمير شكيب، كان عضواً بمحكمة التمييز وبالمجمع العلمى، وهو عارف الكندرى (أو نكد) خطاباً فى تأبين السيد عمر. أما الخطاب الذى ألقاه بشير السعداوى فأليك نصه:

أيها السادة:

باسم الشعب الطرابلسى المفجوع فى زعيمه الكبير السيد عمر المختار أشكر لحضراتكم ولصاحب هذه الدار العامرة بصورة خاصة العواطف النبيلة التى تجيش فى صدوركم نحو إخوانكم الطرابلسيين الذين أوقعهم نكد الطالع بين براثن وحوش الفاشيست الذين لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة.

لقد مات السيد عمر المختار، ذلك البطل المغوار، فلو كان الجزع يدفع المنون لأنفدنا عليه ماء العيون، ولو كان يقبل الفداء لفديناه بأرواحنا، ولكن المنون لا تطيش سهامها، ولا تؤجل أيامها، إن الفقيد - رحمه الله - منذ أن أغارت الدولة الإيطالية على بلادنا وهو يجاهد فى سبيل الله، ويناضل عن حقوق مغصوبة، وحرية مسلوقة، وقد عرف بالشجاعة والإقدام فكان لا يهاب الموت، ولا يخشى صلصلة الحديد، إلى أن وقع فى أيدي الأعداء أسيراً فنفذوا فيه حكم الإعدام، ولم يرعوا شيخوخته ولا مكانته فى نفوس المسلمين.

نعم قد مات ذلك الشيخ الجليل ولكنه ترك لقومه أثراً خالداً من البطولة يتوارثه الأحفاد جيلاً بعد جيل إلى يوم التناد.

يدعى الإيطاليون أنهم جاءوا لبلادنا لخدمة الإنسانية، ونشر المدنية، فسحقا لها من مدنية ظاهرها رحمة، وباطنها من قبله اللعذاب. فليفتنوا فى ارتكاب الفظائع، وليقترفوا من الجرائم ما هم مقترفون، فإن ذلك لا يزيدنا

إلا إيمانًا في مقاومة طغيانهم ومحاربة مطامعهم الاستعمارية ما دام في آخر فرد منا عرق ينبض، وقلب يحقق، ولسان ينطق.

أيها السادة:

إذا كانت المصائب التي تنزل بنا معشر الطرابلسيين تبعث في نفوس المسلمين روح الشعور فأهلاً بالمصائب اليت يعقبها تضامن وتكاتف بين أفراد الأمة الإسلامية على اختلاف أقطارها، وبعد ديارها.

إنني متفائل جداً بهذا الشعور الذي أخذت تظهر طلائعه في نفوس المسلمين، ولا شك أن اجتماعنا هذا مظهر من مظاهره الباهرة، والأمة التي يدب فيها روح الشعور لا تلبث أن تصل إلى ما تصبو إليه من عز وسلطان، وتتبوأ المقعد الذي يليق بها في هذا المعترك الحيوى.

إن تسلط الغربيين علينا - أيها السادة - وضغطهم العنيف، وشدهم الخناق على رقابنا قد كان سبباً سريعاً لإيقاظنا وهز مشاعرنا لفك القيود، وتحطيم الأغلال، وطلب الحرية والاستقلال.

(وما ضاع حق لم ينم عنه أهله وما ناله في العالمين مقصر)

وإنى أبشركم بأن القتال في طرابلس برقة سيستمر، وأن المجاهدى لم يزالوا يف ثباتهم يذودون عن حياضهم بقلوب مأواها الإيمان بالله والثقة به والاعتماد عليه.

وقبل أن أختم قولى أرجو منكم مساعدة إخوانكم بعمل لا يكلفكم شيئاً من التضحية وهو مقاطعة البضائع الإيطالية، فالمقاطعة هي أعظم سلاح يمكنكم أن تساعدوا به إخوانكم المسلمين فى تلك الديار النائية، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه، والسلام عليكم".

ومن المعروف أن الآثم والحفلات التأينية قد أقيمت كذلك فى حيفا وطرابلس الشام، وسائر مدن الشام، وفى القدس، وغزة. وأغلقت

الخوانيت، وقامت المظاهرات ودعا الخطباء فى كل مكان لمقاطعة البضائع الإيطالية، مما أثار ثائرة الطليان وفوت عليهم الكثير منهم أغراضهم، وهم الذين كانوا يحاولون - على وجه الخصوص - أن ينالوا فى العالم العربى والإسلامى مكانة رفيعة على حساب النفوذيين: الإنجليزى (فى فلسطين) والفرنسى فى (سوريا ولبنان) فى هذا العالم، ونشط اتصالهم من زمن مضى بأعضاء الكتلة الوطنية فى سوريا من جانب، وبالمجلس الإسلامى الأعلى وبرئيسه الحاج أمين الحسينى من جانب آخر.

وعظم نشاط لجنة الدفاع ورئيسها السعداوى بعد هذه الحوادث، فقويت حملتها على الاستعمار الإيطالى، واحتد تنديدها بفظائع الطليان فى طرابلس برقة، ولقيت اللجنة كل معاونة من صحافة دمشق العربية، وكان حيثئذ أن أمكن على مدى أوسع من ذى قبل تنوير الرأى العام العربى والإسلامى عن أساليب الاستعمار الإيطالى، وطغيان الفاشيست وذلك بفضل التفاصيل الكثيرة التى صارت تنشرها الصحف فى دمشق وفى غيرها من العواصم العربية. ونحن فيما يلى ننشر مقالين مما عثرنا عليه من أعمال "اللجنة" ونشرته الصحف الدمشقية، أحدهما بعنوان: الاستعمار المبيد - إيطاليا فى طرابلس الغرب بمناسبة إعدام (الزعيم عمر المختار)، وأهمية هذا المقال أنه يسرد قصة الحكم الإيطالى فى برقة طرابلس - وقد اشترك أعضاء "اللجنة" فى إعداد هذا المقال. أما المقال الثانى فكان ردًا على مقال جاء فى جريدة (بريد برقة)، كتبه توفيق نورى البرقاوى للإشادة بفعال الطليان - فانبرى بشير السعداوى للرد عليه. ونشرت جريدة (الجزيرة) بدمشق هذا الرد.

أما المقال الأول فإليك نصه:

لما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب فى أواخر سنة ١٩١١، لم يكن غرضها إلا الاستيلاء على أحد شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وهو غرض لا يتنافى مع ما نصت عليه معاهدة الصلح المبرمة مع الدولة العلية مع

الاعتراف بحقوق الإصالة للسكان الوطنيين، وإذا كانت الدولة المحتلة قد استعملت إذ ذاك شيئاً من العنف والإرهاب فإنما كان بقدر ما ستمح به ظروف الاحتلال، فظروف الحرب العالمية وكنا ننظر إليه كحالة استثنائية تزول بزوال دواعيها، لكن إيطاليا وقد خرجت من هذه الحرب كسائر حلفائها ظافرة منتصرة قدرت أن انتصارها هذا سيؤدي حتماً (إلى) تقدمها المدني بما فيه ازدياد النفوس، الأمر اللذي يقتضيها متسعاً من الأرض لمهاجرة أبنائها، ولا أسهل ولا أطيب من طرابلس الغرب. ومن ثم أنشأت الفكرة التي ترمى إلى إيادة أهلها الأصليين، إذ المفروض في اغتصاب أرض أنه لا يتحقق إلا بإقصاء المالك الأصلي. لأن وجوده ينمو ويطرد لابد فاعل فعله (بحساب) ناموس تنازع البقاء.

على أن حكومة إيطاليا كانت بعد انتهاء الحرب الاشتراكية من مبدئها أن تتبع سياسة الوفاق، فعقدت معاهدة في برقة مع الأمير إدريس السنوسي، وأخرى في طرابلس مع زعمائها، وبذلك هدأت الثورة الداخلية، وأصبحت البلاد تتمتع بالطمأنينة والسلام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٣ (حينما) انتقل الحكم في روما من الاشتراكية إلى الفاشيية فكان أن عبثت الحكومة الجديدة بالمعاهدات، وألغت الإمارات مما أدى إلى قيام الثورات من جديد. وهكذا ظلت طرابلس الغرب ست سنوات متوالية مسرحاً للاضطرابات الداخلية تمزقها الفوضى وتعصف بها أهواء الحكام والموظفين الذين لا يصدرن إلا عن مبدأ الغنم الذاني والانتفاع الشخصي جهد المستطاع في غير مراعاة للمصلحة المشتركة ولا للإنسانية المعذبة. لكن - والحق يقال - كنا نعلل هذا بأنه نتيجة لازمة للثورة الفاشيية، ونزعم أنه متى توطد نظام الحكم الجديد في نفس إيطاليا وتوجهت عناية السنيور موسوليني إلى ليبيا إذاً فهناك الحكم الصالح الذي يكفل للبلاد تقدماً ورقياً، وما نحن بأول من خدعته شدة الكروب.

وفي هذه السنين العصيبة كثير من العرب لم يطق صبراً على الضيم

الذى لحق بهم، فترحوا إلى الأقطار المجاورة، وفى سنة ١٩٢٨ أخذ سيل المهاجرين يتدفق على الحدود المصرية تدفقاً هائلاً أثار اهتمام المركز (باتر نودى مانكى) وزير إيطاليا السابق فى مصر، فأنشأ يوالى التقارير إلى حكومته (ملفتاً) نظرها إلى ما تعقبه هذه الفظائع من إساءة سمعة إيطاليا فى الشرق العربى الذى تطمح أن يكون لها فيه نفوذ يوماً ما، وحيثُ فقط فطن موسولبنى وفكر فى المستعمرات، فظننا أننا قد وصلنا إلى بر السلامة.

هنالك ضم الدوتشى إليه وزارة المستعمرات التى كانت بيد (فيدرسونى) المثل الأعلى فى الرعونة وضعف الإدارة، وعين المرشال بادوليو حاكماً على طرابلس وبرقة بدل والى طرابلس الأول (دى بونو) الذى عين وكيلاً للمستعمرات. ققابل الوطنيون هذا التطور بمزيد الارتياح رجاء أن يكون يشيراً فى الرغبة فى العدول عن سياسية الشدة والعنف فضلاً عن أننا لم نكن نسمع عن موسولبنى وبادلبو إلا أنهما من معتنقى مبادئ الإنسانية فوق أنهما رجلاً عمل وإصلاح. والحق أن المرشال بادوليو لما استلم منصبه فى أواخر يناير سنة ١٩٢٩ بذل قصارى جهده فى إرجاع السلام متوخياً سياسة اللين بين الخاضعين وسياسة الإغراء بالمال لنزع السلاح بين المجاهدين حتى توصل فى شهر يونيه سنة ١٩٢٩ إلى عقد هدنة مع المغفور له السيد عمر المختار. لكن هذه الخطة الرشيدة لم تدم أكثر من بضعة أشهر ثم عادت حليلة إلى عاداتها القديمة.

ذلك أن بادوليو وإن يكن من المتشيعين لفكرة السياسة السلمية غير أنه لا يتبعها إلا حيث لا تجدى القوة، ولهذا كانت خطته فى ولاية طرابلس خلاف خطته فى الجبل الأخضر الذى أصبح مركزاً للدفاع الوطنى، فهنا ثبت أن لا فائدة إلا فى الاتفاق مع القائمين بالحركة وأما هناك فى ولاية طرابلس فكان الأمن أدنى إلى الاستتباب إلا فى بعض مقاطعات بقى فيها قليل من العرب لاهم بالخاضعين للحكم الإطالى ولا انضموا كمن كان معهم إلى المجاهدين

فى برقة . لذلك لم يكن غريباً أن يحاول بداليو إخضاعهم بالقوة، ومنم هذا القبيل ما فعله فى فزان، فقد جرد لها حملة كبيرة يكفى عشرها لفتح هذه المقاطعة لولا أن الطليان ميالون بطبيعتهم إلى التهويش، وكان على رأس الحملة قائد يدعى (غرسيانى) فقام بالمهمة واحتل فزان بدون أية مقاومة طبعاً، لأن أهلها مع قلتهم عزل ضعفاء، لكن حسن الطالع قد يكون له دخل فى مثل هذه الأحوال . فإن الصحف الإيطالية لجعلها بفزان وأهل فزان وبقصّة التهويل فى الأوساط الاستعمارية اعتبرت هذا الاحتلال فتحاً تاريخياً عظيماً ولقبت (غرسيانى) بالفاتح . وكذلك جاء هذا الحادث مناسبة تمهيدية لتغيير خطة بادليو السلمية فى برقة .

وبيان ذلك ان (دى بونو) وكيل المستعمرات ووالى طرابلس الأسبق من أنصار فكرة الحرب فى حين أن المرشال بادليو - كما قلنا - يفضل التذرع بالسياسة السلمية حيث تكون هى الأجدى، وبين الاثنين حقد وتباغض من قديم، بل إن الأول لم ينجح فى الحكم أيام كان والياً لطرابلس . وقد نجح الثانى ولما لم يمض على حكمه ثلاثة أشهر . فلما كان احتلال فزان واستغله (دى بونو) لمناهضة خطة بادوليو، فاقترح بصفته وكيلًا للمستعمرات على السنيور موسولينى بصفته وزيراً لها أن يجرب تولية (غرسيانى) على برقة ربما أمكنه فتح الجبل الأخضر بالقوة كما فتح فزان - وفاته أو تجاهل الفروق العظيمة التى بين فزان والجبل سواء من حيث المناعة الطبيعية لأرض الجبل أم من حيث توفر المؤهلات، والاستعدادات الحربية .

وقد قبل موسولينى الاقتراح . ونحن نعلم لماذا قبله، (فدى بونو) أحد الخمسة الذين قادوا الجيوش الفاشيستية فى فتح روما، الأمر الذى ترك له فى نفس الشعب الإيطالى نفوذاً أخذ يزداد ويرسخ مع مرور الزمن حتى أصبح ولابد من ترضيته خشية انشقاق الحزب الذى ما صار موسولينى ديكتاتوراً إلا اتخاذه كلمته، فليس غريباً والحالة هذه أن يذهب مستقبل المستعمرات ضحية فى سبيل الإبقاء على وحدة زعماء الفاشيست .

ولذلك نفذ الدةتشى اقتراح دى بونو، فتعين غرسيانى والياً لبرقة فى إبريل سنة ١٩٣٠، وبعد تعيينه أسندت وزارة المستعمرات إلى وكيلها دى بونو، فكانت النتيجة على حد المثل السائر: خلا لك الجو فيضى واصفرى، دى بونو وزسر المستعمرات وغرسيانى والى برقة والاثنان اشد أنصار فكرة الحرب تطرفاً وغلوفاً فكيف إذا لا يعم البلاد الخراب والدمار؟ وحيث قد رأينا أنهما على طرفى نقيض مع بادليو، فمن السهل أن نفهم مغزى كون هذا لم يبق له من منصب حاكم ليبيا العام إلا الاسم وفى الرسميات ليس غير، بيد أنه من الجلى أن هذا التطور، أو بتعبير أصح هذا النكوص مهما تكن أسبابه لا يمكن أن يبرر للمرء التغافل عما فيه م دليل مقنع على انحطاط العقلية الإيطالية، فها هو دى بونو الذى يصح أن يؤخذ مقياساً لمجموع أمتة يدوس مصالح بلاده الحقيقية تحت تأثير ما يمليه حقه على بادليو. وإذا كان هذا عاراً كبيراً فأكبر عاراً منه أن تظهر حكومات إيطاليا فى مثل هذا المظهر من التذبذب المتكرر والارتباك المستمر. اللهم إن العالم المتمدن ليظلم إيطاليا فى اعتباره إياها من الدول العظام.

وحيث قد يطول بنا الحديث عن بطولة غرسيانى لدرجة نخشى معها ملل القارئ الكريم فلنرجئ ذلك إلى مقال آخر.

وهذا المقال أنودج طيب لما كان يصدر عن اللجنة التنفيذية من مقالات أو نشرات تبين اتجاهات السياسة الإيطالية فى طرابلس برقة، ونصف أساليب الحكم الفاشيستي بها، تنوير للرأى العام العربى والإسلامى.

أما المقال التالى، فهو رد - كما ذكرنا - على مقال ضمنه صاحبه كثيراً من المطاعن على بشير السعداوى وسائر المجاهدين المبدعين من بلادهم، ويجد القارئ فى هذا الرد وصفاً كذلك لبعض الفظائع التى كان يرتكبها الطليان مع أهل البلاد تنفيذاً لخطة الإفناء والإبادة التى جروا عليها وقتئذٍ، ويذكر المقال ضمن ما يذكر رحلة الصحفى الداغركى (كنود هلييو) الذى زار

برقة فى غضون عام ١٩٣٠ ، ووقف على كثير من الحقائق المتصلة بطغيان الفاشيست فى ليبيا، ووصف إجراءات (المحاكمة الطائرة) خصوصاً وأساليبها. وقد نشرت قصة هذه الرحلة بعنوان، اقتحام الصحراء، أو - كما ذكره بشير السعداوى فى مقاله هذا - الصحراء تلتهب. . اختراق أفريقية الإيطالية" (١) فاستشهد السعداوى ببعض ما ذكره هذا الصحفى لدحض ما جاء فى مقال توفيق نورى البرقاوى. وفيما يلى نص هذا المقال الذى ذكرناه أن جريدة (الجزيرة) الدمشقية قد نشرته. وقد حذفنا منه بعض العبارات الشديدة.

قرأنا فى جريدة (بريد برقة) مقالا لكاتبه توفيق نورى ضمنه عبارات رأينا من الواجب أن لا نتركه بدون رد نفحمه به ونوقفه عند حده لكى لا يسترسل هذا المخلوق فى غلوائه من جهة، ولكى لا يكون سبباً لافتتان غيره فى سلوك هذا السبيل المشين من جهة، ولولا ذلك لما تنازلت فى الرد عليه، وقد آثرت أن أنشر هذه الكلمة فى رسالة خاصة.

جرت عادة الإيطاليين أنهم إذ أرادوا أن يشغلوا شخصاً ليدفعوه إلى غايتهم يرسلونه إلى بلادهم ليشاهد ما فيها من آثار المدنية الخلافة فتذهب ببقية عقله. وكأن هذا الشخص كتب ما كتبه وهو ذاهب إلى (روما)، لذلك نراه يقول: (ثم أبحرنا إلى كعبة الأمانى . . .) وأظن فى إظهار المسرة بتلك الرحلة، فى توفيق لم ندر أى كعبة تؤم؟ وأى أمانى تقصد؟ تنعت (روما) بكعبة الأمانى التى هى من إحدى وعشرين سنة ترسل إليك الجيوش الجارة لغضب البلاد وإرهاق العباد.

أهذه هى كعبة الأمانى التى تتغنى بذكرها وتطلب فى وصفها؟ ثم إنه بعد ذلك جاء على ذطر الغضبة التى غضبها العالم الإسلامى ضد الفظائع الفاشيستية فى تلك البلاد، قال: (إن تلك الحوادث قد جسمها المغرضون. نعم وقعت من البطليان نحونا شدة ولكنها شدة إصلاحية لا وحشية ضمن داعة مقتضيات الحضارة، وقد أرغمت إيطاليا على استعمالها).

نحن لم ندر ما هى تلك الشدة الإصلاحية؟ أقتل النفوس البريئة. وإهراق الدماء الزكية، ونهب الأموال، وغصب الأرضين إلى ما هنالك من ظلم وإرهاق يفسر بالإصلاح؟ اللهم إن هذه لغة لا يفهمها إلا الذين فى قلوبهم مرض قزادهم الله مرضاً. ثم إنه لم يعذبه ضميره عندما يقول: (إن تلك الشدة وقعت ضمن دائرة مقتضيات الحضارة).

فهل من مقتضيات الحضارة إلقاء (الشيخ محمد الحسب الرعصى) ورفاقه من متون الطيارات من ارتفاع ٤٠٠ متر حيث ماتوا شر ميتة فى المكان المعروف بـ جردس العبيد؟

أم من مقتضيات الحضارة ربط "الشيخ مفتاح العبيدى وابن عمه صالح" بين سيارتين ودفعهما إلى اتجاهين مختلفين يوم تقطعت أجسامها إرباً إرباً فى المكان المعروف بـ "تاكس"؟

ومن مقتضيات الحضارة أيضاً ما شاهده الرحالة الصحفى الدينماركى "كنود هليو" يوم دخل إلى برقة وجيء أمامه بعشرين عربياً مصفدين فى الأغلال يقادون إلى المجزرة كما تقاد الأغنام، فنصبت لهم أعمدة المشانق فشنقوا بلا محاكمة بل لمجرد أمر كفى صدر من أحد ضباط الفاشيست، وقد ألف هذا الصحفى كتاباً سماه: (الصحراء تلتهب) ضمنه ما شاهده من الفظائع التى تفتت الأكباد وتذيب الجماذ.

وهذا رجل أجنبى لم يكتب ما كتبه عن تحيز وغرض، وإنما هو يحمل بين جنبيه ضميراً نقياً وشعوراً حساساً ولا تأخذه فى ذكر الحقائق لومة لائم. كيف تجرؤ يا توفيق وتبرر أفعال أولئك الوحوش المفترسة وتقول إن إيطاليا أرغمت على استعمال تلك الشدة؟ فيا للشناعة ويا للعار، أتلمس العذر للغاشمين، وتبرر أفعال الظالمين؟.

ثم إن هذا الشخص أخذ يتناول على لاسادة السنوسية ويتهمهم بأنهم المتسبيون فى تلك النكبات التى حلت بذلك القطر، ويتوعد بأنه سينشر جرائمهم فى ليبيا "كذا".

لقد هزلت حتى بدا من هزالتها كلاها وحتى سامها كل مفلس

أبلغ بك التطاول - يا توفيق - حتى تتعرض للسادة السنوسية

فهل ترى أن الطود يؤله الحصى وأن السبب^(١) بالنباح يروع

السادة السنوسية هم أرفع من أن ينقص من قدرهم قولك، السادة السنوسية هم الذين خدموا تلك البلاد بفضلهم وعلمهم، وهم الذين أرشدوا مئات الألوف من العربان وعلموهم العقائد الصحيحة، وسلكوا بهم بيل الهدى، فمن ينكر هذا غيرك؟ ألا قاتل الله الاستعمار الذى أفصح المحال (لمن) أصبحوا يتجهمون على بيت من بيوت المجد والعلم والتقوى يعظمه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها. ولولا فتنة الاستعمار لما تجرأت أن تفوه بكلمة فى هؤلاء السادة الأماجد. ثم إن هذا لم يكتف بالتطاول على سادة القوم بل أخذ يكيل لأسياده المدح والثناء، وإليك أيها القارئ ما سطره من العبارات فى مدح رجل من أظلم رجال الاستعمار فقال بدون وجل: (ثم إذا كان بعض الألسن حملت على الجنرال غرسيانى فلترجع إليه بالشكر والثناء لأه، أحسن وال إيطاليا تولى تلك البلاد، والدليل على أن الأراضى كما تحيا وتخصر وتنبت زرعها وتؤتى أكلها من المياه ..)

إتنى قبل أن أرد على هذا الكاتب أريد أن أعرف القراء من هو الجنرال (غرسيانى) الذى يتبجح بمدحه ويكيل له الثناء.

الجنرال غرسيانى هو ذلك السفاح الذى أباد أكثر من نصف سكان برقة الجنرال غرسيانى هو الذى سفك دماء الأبرياء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال. الجنرال غرسيانى هو الذى اتخذ تلك البلاد مجزرة بشرية، وافترف فيها من الفظائع التى تتأفف منها الوحوش البربرية.

وهو ذلك الظالم الغشوم الذى أرغم ٨٠ ألف نسمة من العربان على

(١) السبت: الرجل الداهية.

الرحيل من أوطانهم وزجهم فى صحراء قاحلة لا كلاً فيها وما ماء، وأقلت عليهم وحوش جنده الذين أبادوهم بالقتل ونهبوا أموالهم وهتكوا أعراضهم.

فالجنرال غرسيانى هو الذى ولغ فى دماء أبناء تلك البلاد، وهو الذى أمر بإلقاء الشليخ سعدى الرفادى وخمسة عشر شخصاً من رفاقه من الطيارات، وشاهد لحومهم تمزق وهو يهتف: (فليأت نيكم محمد النخ). هذا هو الجنرال غرسيانى الذى يمدحه ويتمنى له طول الإقامة.

فكيف - يا توفيق - تتمنى لظالم هذه بعض أهماله، فهل تعاميت عن ما يمثل فى تلك البلاد من الفظائع؟ أم فى أذنك وقر يوم رن صدها فى الخافقين. ثم إن هذا قد تمادى فى تجاوزه وقال: (قبل أن أحتم كلمتى أطير ندائى إلى أولئك النزلاء منا خارج البلاد سيما الذين تجنسوا بالجنسيات الأجنبية أن لا يتدخلوا فى شئون ليبيا .. فالبلاد فضلاً عن أنها بينها الباقين ..).

أبلغ بك التطاول - يا توفيق - حتى تقول لرجال البلاد الذين قضت عليهم القوة الغاشمة بإخراجهم من ديارهم لا تتدخلوا فى شئونها؟ فمن أنت حتى تخاطبهم بهذا الخطاب؟ ألم تعلم أن الذين هجروا الديار من ظلم الاستعمار هم نخبة القوم وعماد البلاد؟ أنت يا ديدبان الأعداء رب تلك البلاد؟ أين كنت يوم كان هؤلاء الرجال يجاهدون فى الله حق جهاده؟ يوم كانوا يصارعون جيوش الأعداء فى ميادين الوفاء. أنت تحذرنا من الدنو من أمر بلادنا؟ إن السياسة التى خضنا غمارها وركبنا تيارها هى حق من حقوقنا، فنحن الذين عاهدوا الله على النضال ما دام فينا عرق ينبض، وقلب يخفق" النخ، وقد اختتم السعداوى هذا المقال بتوجيه كلمة إلى "أرباب الصحف فى ذلك القطر" يذكرهم بأن "الصحافة هى عنوان الأمة ومرآة شعورها ولسانها الناطق، وهى التى ترشد الأمة إلى مناهج التقدم، وترتفع بها إلى المستوى الأعلى فى معترك الحياة" ولذلك فلا يجوز لها أن تنشر كلاماً أو مقالا من

نمط ما كتبه توفيق نوري البرقاوى لإيذاء قضية الوطن، وللتجنى على رجاله العاملين.

ولعل من أظهر ما يلاحظه القارئ إلى جانب ما ذكرناه تعليقاً على ما جاء فى هذا المقال، أن صاحبه بشير السعداوى قد ساءه أن يحاول توفيق نوري البرقاوى النيل من كرامة البيت السنوسى العتيد، فالسادة السنوسية هم فى اعتقاد بشير السعداوى دائماً سواء أثناء الجهاد فى داخل البلاد، أم بعد الهجرة من الوطن ومواصلة هذا الجهاد فى المهجر، معقد آمال الوطن، والدعامة التى يقوم عليها أى نظام للحكومة الذاتية أو الإمارة الوطنية فى القطر الطرابلسى البرقاوى. وسوف نعرض لهذه المسألة ذاتها مرة أخرى وبتفصيل أوفى عند الكلام عن مطالب (اللجنة التنفيذية) التى أرادت أن يقوم عليها كل تفاهم - إذا حدث - بين المجاهدين وبين الحكومة الإيطالية من أجل إنشاء الحكومة الوطنية العربية فى طرابلس برقة.

على أنه كان فى أثناء هذا كله أن استطاع بشير السعداوى إنجاز وطبع الكتاب الذى طالما نصح الأمير شكيب أرسلان بوضعه عن فظائع الطليان فى طرابلس برقة، بعد أن استرعى انتباهه ذلك التقرير الوافى الذى كان أعده بشير السعداوى عن حوادث العقيلة والكفرة، واستمد منه الأمير شكيب المعلومات التى نشرها فى الصحف والمجلات وقتئذ مما كنا ذكرناه كله فى موضعه، فقد أمكن بعد حادث استشهاد عمر المختار بقليل أن يصدر بشير السعداوى كتاب (الفظائع السود الحمر، أو التمدين بالحديد والنار) الذى يعتبر أو فى سجل ظهر حتى هذا التاريخ لفظائع الطليان فى طرابلس برقة.

٨ - كتاب الفظائع السود الحمر:

نبتت فكرة وضع كتاب عن الفظائع الإيطالية فى طرابلس برقة، حينما وضع بشير السعداوى تقريره الضافى عن حوادث العقيلة والكفرة وبعث به إلى الأمير شكيب أرسلان واقترح الأمير شكيب تدوين سجل كامل لهذه

الفظائع، يطبع وينشر في البلاد العربية، وينقل إلى اللغات الأجنبية لتوزيعه بين الأمم الأوروبية. وقد لقي هذا الاقتراح قبولا لدى بشير السعداوى الذى كان عنده من الأسباب ما يجعله قادراً على إخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود. ويدفعه إلى فعل ذلك تيقنه من نفع هذا (الكتاب) فى تنوير الرأى العام فى الأقطاء العربية والإسلامية عن حقيقة الاستعمار وأساليب الحكم الإيطالى، وتنبيه الأذهان فى أواسط الأحرار الأوروبيين أنفسهم، والمتأثرين للنظم الدكتاتورية والفاشيستية إلى ما تقتضيه دولة أوروبية، معتبرة من الدول العظيمة من آثار بدعوى تمدين الشعوب التى لم تزل بعيدة عن نطاق الحضارة الأوروبية. أما بين الشعوب العربية والإسلامية فإن من شأن التنديد بفعال الطليان والكشف عن فضائحهم الاستعمارية أن يبطل كل أثر لما كان يقوم به هؤلاء وقتئذ من جهود كبيرة بنفوذ سياسى متفوق فى الشرق الأوسط العربى على حساب إنجلترا وفرنسا خصوصاً، وهما الدولتان صاحبتا النفوذ المستعلى حينذاك بتلك المنطقة. وأما "الدعاية" القوية فى الأواسط الأوروبية فمن أثرها أن يضطر الطليان الذين سوف يبادرون من غير شك إلى تكذيب الاتهامات الموجهة إليهم - وقد كذبوها فعلاً - إلى التخفيف عن غلوائهم. ومن المحتمل أنهم قد يوقفون هذه الفظائع ولو لوقت قصير، على أمل أن تهدأ الحملة التى شنت عليهم؛ وذلك هو عين ما كان يرجوه أصحاب هذه "الدعاية" كذلك من إهانة الرأى العام ضد الطليان فى الأوساط العربية والإسلامية فى المشرق والمغرب. ثم إنه كان إلى جانب هذا كله احتمال أخير. هو أن يجد الطليان من صالحهم أن يصلوا إلى تفاه مع المجاهدون فى داخل البلاد وفى خارجها، يكفل إقامة الحكومة الوطنية التى طالما نادى بها هؤلاء، وينهى سياسة الإبادة والإفناء التى أطاحت بحياة مئات الألوف من أهل ليبيا. ولقد كان الموقف بعد انهيار المقاومة المسلحة فى داخل برقة عقب استشهاد عمر المختار فى سبتمبر ١٩٣١ على غاية من الحروجة فى كل ليبيا، حيث كان من المتوقع أن يمضى الطليان قدماً فى "استعمار" طرابلس برقة

بالأساليب التي اختاروها في عهد الفاشيست خصوصاً ليجعلوا من هذا القطر ما سموه (شاطئاً رابعاً) لإيطاليا، أى مقاطعة رومانية لحماً ودماً، ورقة لاتينية يسهل إدماجها في جثمان (الإمبراطورية) التي أرادوا إنشاءها بإحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة. ولم يكن في مقدور إنسان أن يزعم الإيطاليين على التخلي عن سياستهم بطريق العنف والقوة. ولقد كان بعد إخماد المقاومة المسلحة في برقة، (١٩٣١) وقبل ذلك في طرابلس - وفزان - بين ١٩٢٨، ١٩٣٠، أن بدأ تنفيذ الشطر الثاني من برنامج إبادة الليبيين وإفنائهم، ونعني بذلك اغتصاب الأرض منهم وإعطاءها "للمعمرين" الطليان. ويجد القارئ دراسة وافية لهذه المسألة في كتابنا (السنوسية دين ودولة).

وعلى ذلك فقد كانت "الدعاية" هى السلاح الوحيد الذى بقى لدى المجاهدين فى المهجر، ونعنى بالمجاهدين فى المهجر، جماعة اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة بزعماء بشير السعداوى فى دمشق، لأن هذه الجماعة وحدها كانت - لأسباب متعددة سوف يلمسها القارئ رويداً رويداً - قادرة على القيام بأى نشاط سياسى منظم وعلى نطاق واسع خارج القطر الليبي. ولقد شاهدنا كيف أن بشير السعداوى وجماعته كانوا يعتمدون على النشر والإذاعة لتنوير الأذهان بشأن الاستعمار الإيطالى فى ليبيا، أى أن كل اعتماد السعداوى كان على "الدعاية" فى مكافحة الطغيان الفاشيستي فى بلاده، ومع أن الدعاية كانت الوسيلة التى بقيت وحدها فى تناول يده، ولا سلاح غير الدعاية كان فى وسعه أن يستخدمه فى هذا النضال غير المتكافئ ضد إيطاليا، فلا جدال فى أن بشير السعداوى قد أثبت من إدارته الماهرة والناجحة لهذه الحملة الكبيرة التى أثارها على إيطاليا، بالرغم من إمكانياته المحدودة كمهاجر مبعّد عن وطنه ولا موارد خاصة لديه، وفى بلد يحتله الأجانب - أنه كان يؤمن بقيمة الدعاية إذا حسن تنظيمها والإشراف عليها كوسيلة ناجحة من وسائل الكفاح الوطنى، ولا يقلل من شأن الدعاية التى أدارها بشير السعداوى فى تلك الحقبة، أنها لم تسفر مباشرة عن تحرير ليبيا من الطليان، فلم يخرج

هؤلاء منها إلا عند هزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية، بعد هذه الحوادث
بعشر سنوات تقريباً، ولكن (الحملة) التى بدأها السعداوى من المهجر،
واستمرت طوال السنين التى سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان لها
أعظم الأثر فى تهيئة الأذهان عندما حان موعد الفصل فى مستقبل المستعمرات
الإيطالية السابقة فى إفريقية للتخلى نهائياً عن فكرة عودة سيطرة الطليان مرة
أخرى إلى ليبيا فى أى صورة من الصور. ذلك كان أثر حملة الدعاية البعيد،
أما أثرها القريب فكان - كما ذكرنا - إهاجة رأى العام الإسلامى والعربى
ضد إيطاليا، وتعطيل "مشروعاتها السياسية" فى الشرق الأوسط.

وكان بشير السعداوى إلى جانب هذا كله مزوداً بكل ما يحتاج إليه
الكاتب لتسجيل "الفظائع السود الخمر"، فهو قد حضر وقائع العدوان
الإيطالى فى سنة ١٩١١، واشترك فى حوادث الجهاد بين ١٩٢٠، ١٩٢٤،
وأسس اللجنة التنفيذية سنة ١٩٢٩، وأهم من كل ذلك أن صلته لم تنقطع
يوماً بمواطنيه سواء فى ليبيا ذاتها أم فى شتى الأقطار التى هاجر إليها فريق
منه: فى تونس والجزائر ومصر والشام والسودان الأفرسى وتركيا وفلسطين
ولبنان وبلاد العرب وغير ذلك، وحرص بشير السعداوى على أن تبقى صلاته
مع مواطنيه قوية دائماً. يبنى من وراء ذلك أن يحفظ على مواطنيه فى
غربتهم روحهم المعنوية سليمة، فلا يخمد حماسهم للوطن بانقطاع أخبار هذا
الوطن عنهم، أو لضياع كل أمل لديهم فى إمكان العودة إليه بعد طرد
المستعمر الغاصب منه، فهو لا يفتأ يزودهم بالمعلومات ويشرح لهم "الموقف"
وهو يطلب منهم فى الوقت نفسه أن يجدوا فى تزويده بكل ما لديهم من
معلومات وأخبار عن سير الجهاد فى طرابلس برقة، وأن يكتبوا له بما يعن لهم
من آراء ومقترحات، الأمر الذى نجم منه تبادل طائفة كبيرة من المكاتبات بين
بشير السعداوى ومواطنيه فى المهجر، إلى جانب ما كان يصله من رسائل
مهربة من ليبيا ذاتها. ولا يزال أكثر هذه الرسائل باقياً فى حوزته.

ولقد كان من هذه الرسائل أن استمد السعداوى معلوماته عن الوقائع التى دونها فى كتاب الفظائع . فنحن قد مرت بنا رسالة للشيخ عمر الشيبانى فى ديسمبر ١٩٣٠ ، وأخرى للشيخ عبد الجليل سيف النصر فى فبراير - مارس ١٩٣١ عن حوادث العقيلة والكفرة خصوصاً . ويحضرنا الآن أربع رسائل من هذا الطراز نفسه . الأولى خطاب من أحمد المريض فى مصر بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٣٠ ، يقول فيه : إنه أخذ "جواباً" (فى ١٨ رجب ١٣٤٨) من قائم مقام دور سيدى رافع عثمان أفندى الشامى مآله أن خرج العدو عليهم بـ ٢٥٠٠٠ خمسة وعشرين ألفاً وثلاثمائة أتومبيل وطيارات أسراباً ، ودام الحرب ٧ أيام ، وانهزم العدو وترك ٧٩٣ مصرع ، وأخذ منهم ضباط وقعوا سالمين بطيارة ، وبعد كم يوم صارت مناوشة مع أتومبيلات وغنموا ما فيهن وقتل ٦ ، وبعد ذلك أخذ (الحسن) ابن الرضا ومن معه الذى كان على الحياذ ويعطوهم فى معاشات وأرزاق . ثم كتب إلى السيد عمر المختار بهدنة ومذاكرة فامتنع وأبلغهم أن يتذاكر مع السيد أحمد الشريف أو السيد (محمد) إدريس واتفق على خمسين يوماً هدنة . والمسموع أن الحرب فى فزان مشددة ولم نتصل بحوادث تفصيلية . وأما جرائد إيتالية ذكرت مرة واحدة بانهم تمركزوا فى أبراك ولم يتكرر لا منها ولا من غيرها قط . وحين الكتب سفنا بالأهرام ٢٥ الجارى تلغراف من رومة فى ٢٤ منه أن الحاكم طرابلس بادليو أرفع الراية الإيطالية بنفسه لمركز (مرزق) عاصمة الثوار ، والله أعلم متى يتجدد لدينا أخبار نعرفوكم . والله يسمعنا الخير . كل الجزايد السورية نستلم فيها ويسرنا ما فيها من نشرات حضراتكم والله الموفق وندعوه أن ينجح أعمالكم وينصر المجاهدين " . وفى نفس الرسالة تحت تاريخ ٣٠ يناير كتب أحمد المريض : ويأتيك "جواب عثمان أفندى يعينه مع رسمه ورسم أحد القبطانات الأسير ، وبعد التاريخ أخذنا خبر مآله أن السيد حسن ابن الرضا طلبته الحكومة بالقدوم إليها بمدينة بنى غازى وعند وصوله كلفوه بالإقامة هناك وأمره أن يكتب أمر القوة الذى معه بأن تنضم إلى النقطة الذى

يليهام فصدر أمره ففهم أن ذلك خدعة والمؤمن لا يلدغ الخ فامتنعوا عن ذلك فأمرت الحكومة بالزحف عليهم فقابلوها مع علم السيد عمر (المختار) بذلك فأرسل لهم قوة واشتبك معها ثلاثة أيام وانهزم العدو بغير نظام وغنم منه خيول وسلاح (و) بغال وجمال وترك جثث كثيرة والله الموفق إلى ما فيه الخير والسلام".

وأما الرسالة الثانية فهي من على العابدية من عمان - المكان الذي استقر به عند هجرته إلى شرق الأردن - إلى بشير السعداوى رئيس اللجنة التنفيذية "والأعضاء الكرام" بتاريخ ٨ مارس ١٩٣١، يشكرهم فيه على همهم العالية ومساعدتهم الخيرية وتفاديتهم فى خدمة الوطن العزيز، ثم يقول: "تأتيكم صورة كتاب بورد على من سمو الأمير السيد إدريس وبما حصل من الطليان بواحات الكفرة وسورة كتاب من شفيق محمد فميا حصل ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم أتانى كتاب من ياور سمو الأمير يبنى فيه على أن حالة المجاهد السيد عمر المختار طيبة جداً هو ومن معاه فى الجبل الأخضر. غير أن فى هذين اليومين طلبت الحكومة الإيطالية من الحكومة المصرية عدم أخذ الأرزاق إلى جهة طرابلس من مصر من دون باص (ترخيص مرور) طليانى خوفاً من تثوية المجاهدين عليهم والحكومة المصرية إلى الآن ما عطت الجواب ونرجوا الله أن يكون الجواب ضد ما يطلبه" هؤلاء.

والرسالة التالية من مصر، ويتضح منها كذلك لماذا كان من المتعذر على غير اللجنة التنفيذية ورئيسها بشير السعداوى بدمشق القيام بأى نشاط سياسى جدى، مع العلم بأن الأمير السيد محمد إدريس السنوسى نفسه وعدداً كبيراً من المجاهدين قد استقروا بهذه البلاد، واستطاع كثيرون منهم مزاوله الأعمال الناجحة فى التجارة والزراعة وما إلى ذلك. وصاحب هذه الرسالة، سعيد الطيب الجزائرى أحد الطلاب برواق المغاربة بالأزهر الشريف وهى بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٣١، يعتذر فيها صاحبها عن تأخره عن الرد على كتاب السعداوى

له، الذى يبدو أنه طلب إليه فيه أن يجتمع بإخوانه "الطلبة الطرابلسيين" -
أى الليبيين - لاستحثاثهم على القيام بنشاط - لا يعدو أن يكون فى سبيل
الدعاية - ضد إيطاليا. فيقول الجزائرى: "وفد اجتمعت بإخوانى الطلبة
الطرابلسيين وتذاكرت مع كل واحد منهم بمفرده فى الموضوع فكل يحب ذلك
ويحبذه، إلا أن اليد الحديدية التى جعلت فى أعناقهم السلاسل والأغلال لا
تمكنهم من أن يعملوا من ذلك شيئاً ولا سيما فى هذه المدة الأخيرة، وأنها
(والمقصود هنا الحكومة الإيطالية) لما أحست شيئاً من بعضهم عن هو خارج
عن البيت (أى المنزل الذى كانت تخصصه إيطاليا لإقامة الطلاب الذين
يرسلون إلى الخارج حتى يكونوا تحت إشرافها)، اضطرت لأن تؤجر لهم بيتاً
آخر أوسع منه وجمعتهم فيه جميعاً مع شدة المراقبة فى حركاتهم وغدواتهم.
أرجو عدم مؤاخذتهم فهم معذورون. وأما الشيخ الطاهر فها هو جوابه فى
طى هذا (والمقصود هنا الشيخ الطاهر محمد الزاوى. ورسالته كانت بتاريخ
١٧ نوفمبر ١٩٣١، وفيها يتحدث عن ضرورة تمثيل بشير السعداوى لليبيين
فى المؤتمر الإسلامى المزمع انعقاده فى القدس. وينقل إليه خبر تدخل الحكومة
المصرية - وكانت حكومة إسماعيل صدقى باشا - لمنع الاحتفال الذى أعده
حمد باشا الباسل لإحياء ذكرى الشهيد عمر المختار فى ٢ رجب ١٣٥٠ (١٣)
نوفمبر ١٩٣١) - وقد نشرنا هذا الخطاب عند الكلام عن (اللجنة
الطرابلسية فى القاهرة)، وسلم عليكم الشيخ محمد المصراتى كثيراً ووعد بأنه
سيكاتبكم وكذلك جميع الطلبة يقرئونكم جزيل السلام وهم يعجبون جداً
بأعمالكم البارة وحركاتكم المباركة ...".

والرسالة الأخيرة من قابس فى تونس بعث بها محمد حلمى الطرابلسى
وأصله من الخمس. كان زميلاً لبشير السعداوى فى الدراسة، ثم عين كاتباً
فى حكومة مصراته، وهاجر إلى تونس. وهذه الرسالة مؤرخة فى ٥ ديسمبر
١٩٣١ (٢٤ رجب ١٣٥٠)، ويشرح فيها صاحبها كثيراً من الوقائع التى سبق
أن تناولناها فى هذه الدراسة. ويقص محمد حلمى تجاربه على السعداوى

ويطلب منه فى الوقت نفسه أن يزوده بالأخبار عنه وعن إخوانه . ابتدأ رسالته بعد السلام بقوله : " نعرض لسعادتكم بأنه بعد وفاة سعدون بك (السويحلى وهو أخو رمضان السويحلى وقد سبقت قصته) ، انتقلت مقاليد الأمور إلى الأربعة المعلومين لدى حضرتكم (وهم التهامى قليصة، وعمر بودبوس، وعلى بو حبيل، وشيوى الكرك، وكلهم من مصراتة) وصار أحمد بك (شتيوى أو السويحلى) آلة لتنفيذ أغراضهم الشخصية لا غير، عندها غادرت وادى نفذ وتوجهت إلى أورفلة قاصداً القطر التونسى، ولكن الأقدار لم تساعد فى ذلك الحين بل رابع يوم وصولى وقع احتلال أورفلة من طرف العدو، فغيرت خطتى وتوجهت إلى فزان . بلغتها بعد تعب شديد مؤملاً الراحة بها فوق لنا عكس ما أملناه . تسلط علينا خليفة الزاوى وقرر إعدامى أنا وفرحات بك (الزاوى) فوق إعدام فرحات بك بالفعل ظلمًا وعدوانًا، وأما من جهة العاجز تشفع فى صهره مدنى أفندى الشامى وأولاد سيدى حامد الحضيرى، فانقلب حكم الإعدام بالتباعد ونفيت من مرزق إلى الوادى الشرقى الكائن غربى مرزق بثلاثة أيام، وبعد خروجى من مرزق بشهرين تقريبًا وقع الحرب بينه وبين عبد الجليل بك (سيف النصر) وعبد النبى بك بالخير من جهة أخرى وكانت المغلوبة على خليفة الزاوى وخرجه منها فى حالة أشنع ما يكون .

بقيت فى فزان ثمانية سنين رأيت فيها من الأمور الغريبة ما لو شرحته لاحتاج إلى مجلدات، ثم غادرت فزان مع جملة العربان التى كانوا بها . وقصدنا الحدود الفرنسية على طريق ليزى أى فى نهاية حدود الجزائر من قبله والآن صار لى سنة تقريبًا فى بلد قابس بالعمل التونسى وفتحت حانوت عطرية لأجل طلب المعاش وحيث صار لنا مدة العشر سنوات تقريبًا لم نقف على أحوال بعضنا البعض بادرت بتقديم تحريرى هذا راجيًا من حضرتكم حين وصوله تعرفونا عن أحوالكم وأحوال العائلة مفصلاً "

وكان استناداً إلى المعلومات التى جمعها من شتى المصادر أن استطاع بشير السعداوى إصدار النشرات وكتابة المقالات التى أمد بها الصحف، الشامية خصوصاً، والتى كشف بها عن فظائع الطليان وندد فيها بفعالهم. والتى زود بها كذلك الأمير شكيب أرسلان لينشر بدوره عن هذا المأسى حتى نجح الاثنان: السعداوى وأرسلان فى إهاجة الشعور الإسلامى والعربى ضد إيطاليا. ولما كان شكيب أرسلان معدوداً "أمير البيان" ويحتل مكانة رفيعة فى العالم الإسلامى والعربى فى ذلك الحين - على نحو ما سبق أن ذكرناه فى موضعه - ولكتابته أثر ملحوظ فى هذا المحيط الإسلامى والعربى، ولا يتطرق الشك فيما يكتب فى نفوس قارئيه، لما اشتهر به من الدقة فى تحرى الحقائق، ولذئوع الاعتقاد بأن الأمير وقد أخذ على عاتقه الدفاع عن القضايا الوطنية العربية. فهو ميسر له أن يقف على الوقائع الصحيحة - وقد كان هذا الاعتقاد يقوم على أساس صحيح - فقد أثر بشير السعداوى أن يدع لصديقه الفرصة دائماً لأن يكون هو البادئ بالنشر وإذاعة ما يتجمع من أخبار عن فعال الطليان يف طرابلس برقة. حتى إذا انفتح الباب ولج منه السعداوى ولوجاً عنيفاً، يكمل التفاصيل التى يكون قد أغفلها الأمير شكيب، أو يزيد وقائع لم تكن قد وصلته أنباؤها قبل أن ينشر الأمير، جاعلاً حجته فى كل ما يكتب ويذيع مقالات وبيانات الأمير شكيب نفسه، ولا جدال فى أن تلك كانت خطة تدل على مهارة بالغة فى "فن الدعاية" لأن سواد الناس إنما يميلون إلى التصديق من يعتقدون فيه عدم التحيز أو التطرف، ومن المعروف أن السعداوى موتور من أعداء وطنه، ولما كانت الفظائع التى يرتكبها الطليان فى ليبيا قد بلغت حدّاً من التعاسة يرفض العقل تصديقه، فقد خشى السعداوى إذا هو ابتدأ أو استقل بنشر وقائع هذه الفظائع، أن يظن به الناس المغالاة فيما يكتب، وهى مغالاة قد ينتظرونها من وطنى يكافح فى سبيل تحرير بلاده، ولكنهم لا يحملون أنفسهم على تصديق كل ما قد يصدر عنها باعتبار أن ذلك جزء من تدبير معين فحسب لإهاجة الشعور ضد إيطاليا. أما إذا كتب الأمير شكيب،

ثم استند السعداوى على ما كتبه الأمير فى كتاباته بعدئذٍ، فإن أحداً سوف لا يشك فى صدق الوقائع التى تروى - وهى كما عرفنا صحيحة - ولعل أكبر دليل على ذلك نجاح الحملة العنيفة التى أهاجت الشعور الإسلامى والعربى ضد إيطاليا بعد حوادث العقيلة والكفرة، وهى الحملة التى بلغت ذروتها بعد استشهاد عمر المختار خصوصاً.

وزيادة على ذلك فقد كان لهذا التدبير: بأن يعد السعداوى التقارير الإضافية فيبدأ شكيب أرسلان بالنشر مستمداً بياناته من هذه التقارير، ثم يعقب عليها بشير السعداوى، ويعمد هو بعد ذلك إلى استئناف النشر والإفاضة من جديد، فيصدر النشرات والمقالات المستقلة، أو التعليقات على ما قد يكتبه غير الأمير شكيب - نقول إنه كان لهذا التدبير فائدة خديعة الطليان أنفسهم عن معرفة المصدر الذى يستقى منه شكيب أرسلان أو بشير السعداوى المعلومات التى يذيعانها. وتلك مسألة على جانب عظيم من الخطورة، لما كان يلحق بمرسلى هذه الأخبار أو بأسرهم من أذى محقق إذا عرفهم الطليان، أضف إلى هذا أن يمتنع تزويد العالم الخارجى بالأخبار عما يجرى فى داخل ليبيا. ومن المعروف أن الحكومة الإيطالية كى تمضى من غير إزعاج فى سياسة الإفناء والإبادة التى تتبعها، قد عولت على أن تبقى ليبيا "صندوقاً مقفلاً"، فلا تتسرب منها أية أبناء إلى المهاجرين خصوصاً فى الأفكار العربية. ولقد كان شكيب أرسلان يهتم بهذه المسألة اهتمام السعداوى نفسه بها، ويرى القارئ فى رسائله تذكيراً بوجوب إسقاط أسماء أصحاب الرسائل التى تحمل هذه الأبناء من أية نشرات أو بيانات تصدر على اللجنة التنفيذية ورئيسها.

ولا ريب فى أن إعداد النشرات والبيانات والتقارير والمقالات اليت زود بها السعداوى الأمير شكيب أو الصحف، كانت فرصة طيبة لأن يمحص السعداوى ما صار يتجمع لديه من معلومات أولاً بأول، ويجتهد فى ترتيبها،

ليحاول أن يعرضها العرض الذى يفلح فى إثارة الاهتمام بها، ويؤدى إلى لفت أنظار الناس إلى ما يقتضيه الاستعمار الإيطالى من أثم فى ليبيا، ثم إن الاشتغال المتصل "بالقضية الوطنية" والانغماس فى هذه المعلومات التى كانت تترى عليه من كل حذب وصبوب، وإنشاء تلك الشبكة الواسعة من المراسلات، تصل أطرافها إلى تونس والجزائر ومراكش من ناحية، وإلى مصر وفلسطين والسودان الأفرنسى وبلاد العرب والعراق والهند من ناحية أخرى - وسوف تعرض لنا أمثلة بعد أخرى من هذه المراسلات كلما تقدم بنا البحث - وقد تناول السعداوى فى مراسلاته هذه مسائل متنوعة. من بينها شرح قضية الوطن، ومطالب أهله، حسب (الميثاق القومى)، أو توضيح المراحل التى سارت فيها العلاقات بين بلاده وإيطاليا، وهلم جرأ - نقول إن ذلك كله كان من شأنه أن يزيد السعداوى إيماناً بعدالة قضية وطنه. واستمسكاً بحقوقه، وتصميماً على المضى فى الكفاح من أجل تحريره وخلصه. وتلك حقيقة سوف تتضح عند الكلام عن "المفاوضات" التى قامت بعدئذ للوصول إلى اتفاق سملى مع إيطاليا، وأما تحرير البيانات والتقارير فقد أسفر عن نتيجة عاجلة، هى إصدار (كتاب الفظائع).

ولقد سبق أن أثبتنا مقال السعداوى الذى نشرته جريدة (ألف باء) الدمشقية بعنوان: وزير سياسى أم قسيس مبشر، وأثبتنا منشور الاستغاثة، وذكرنا غير ذلك من النشرات والمقالات التى نشرت فى الصحف، وكذلك تقرير السعداوى إلى شكيب أرسلان عن حوادث العقلية والكفرة - ونذكر الآن مقالاً نشرته الصحف السورية، وجريدة الأهرام فى مصر ثم نقلته عنها (مرآة الغرب) فى المهجر يعلق فيه بشير السعداوى على مقال جاء بجريدة الأهرام بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٣٠ كتبه مندوبيها محمود أبو الفتح، عقب زيارة قام بها لليبيا بعنوان: فى شمال أفريقيا - فى طرابلس: السياسة الاستعمارية الإيطالية: كلمة صريحة. فقد استطاع محمود أبو الفتح إلى جانب الإشادة بالكونت فولبى (ضيف مصر الآن) الذى تولى حكم طرابلس، والمارشال

بادليو الحاكم العام الحالى، والتنويه بنشاط الطليان فى ميادين الزراعة والاقتصاد . . - ويبدو أنه لم يكن هناك مناص من مديح المسؤولين الطليان والثناء على أعمالهم - نقول إن المندوب استكاع أن يلتفت النظر فى ثنايا هذا المديح والثناء إلى المآسى التى شكا منها الأهليون، وإلى فظائع الحكم الإيطالى فى ليبيا، وإلى حقيقة الموقف بها. فيكتب: "يخطئ الإيطاليون إذا حسبوا أن البلاد قد أذعنّت واستسلمت ورضيت، فإن فى البلاد كثيراً من التذمر والاستياء والنفور، ولا بد لإزالتها من كثير من الحكمة وحسن النية والرغبة الصحيحة فى التفاهم وخير البلاد، ويرجع هذا النفور إلى سياسة الشدة والعنف، إلى السياسة الطائشة المرهقة، سياسة الصلف والغرور التى اتبعت فى طرابلس منذ سنوات . . " ثم هو يصف عهد الكونت فولبى بأنه "كان أيضاً عهد شدة وبأس ويطش"، ويقول عن (بادليو) إن مهمته شاقة وعسيرة "إذ ليس من الأمور السهلة أن يمحو فى شهور أو سنوات قليلة عذاب ثمانية عشر عاماً، رأى فيها أهل البلاد دورهم تهدم، ومزارعهم تخرب، وأبناءهم يذبحون، وآمالهم يشتتون، ثم يجلب المندوب شكايات الأهليين من احتكار الحكومة للدخان، ومن حرمانهم من الأرض التى تؤخذ منهم لتعطى للعائلات المجلوبة من صقلية "لتعميرها" ومن "قفل أبواب الوظائف فى وجه أبناء البلاد"، ومن مأن التعليم "ببرامجه الحالية ونظامه الحالى لا يمكن أن يخرج أحداً من الناس يصلح لتولى عمل من الأعمال الهامة حكومية كانت أم غير حكومية"، ثم تناول فى آخر مقاله مسألة إهدار الجنسية العربية (الطرابلسية) ومحاولة إدماج الليبيين فى العناصر الإيطالية. فكتب: "ولنا ملاحظة أخرى نقولها بإخلاص، وهى أن الإدارة الإيطالية ترمى إلى صبغ البلاد بصبغة إيطالية بحتة. رأينا هذا فى أشياء مختلفة، فأول ما يلفت نظرك عندما تدخل قرية من قرى طرابلس هو أن أسماء شوارعها وحراراتها كلها مكتوبة باللغة الإيطالية وحدها دون غيرها - إلا فى حالات قليلة فى بعض المدن مثل طرابلس وبنغازى حيث توجد اللغة العربية تحت الإيطالية - واللغة

الإيطالية هي اللغة الأولى فى التعليم، وأسماء المتاجر حتى العربية منها مكتوبة بالإيطالية الخ. إن إيطاليا ترمى إلى تطلين الطرابلسيين، إلى إدماجهم فى العناصر الإيطالية ...".

واعتبر الوطنيون، نشر هذا المقال بالرغم مما جاء فيه من الثناء على إيطاليا، خدمة جليلة للقضية الطرابلسية، لأن الشكايات التى عرضها، و "الملاحظات" التى تضمنها جاءت مؤيدة لما يردده هؤلاء من سنوات طويلة؛ فإن نشر كاتب من غير جماعتهم - أى من غير أعضاء اللجنة التنفيذية ورئيسها - شيئاً واستند فيما نشره على الحقائق التى جمعها بفضل معاونة السلطات الإيطالية فى طرابلس له فى مهمته، وتزويده "بالمعلومات الخاصة بأحوال البلاد" حتى رأى لزماً عليه تقديراً لهذه المعاونة فى مهمته، أى يسدى شكره "بصفة خاصة للماريشال بادليو الحاكم العام والجنرال سيشاليانى حاكم برقة، وكذلك "جميع الدوائر الإيطالية التى لقى منها كل عطف وترحيب وحفاوة" - نقول إن ما ينشره كاتب هذا شأنه خليك بأن يكون صحيحاً فى جملته وتفصيله إذا تعرض لما يشكو منه أهل البلاد، أو لما يوقعه بهم الحكام الطليان من ضروب الظلم والعنف.

ولم يكن من المنتظر بعد أن نشرت جريدة الأهرام هذا المقال، أن يفوت بشير السعداوى الفرصة دون أن "يلقى" على ما جاء به، بذلك الإسهاب الذى كان يرى السعداوى وصديقه الأمير شكيب أنه ضرورى فى كل ما يكتبان لتضخيم الصورة التى يريدان أن يرسمها حتى تلصق فى الأذهان لصوقاً، ولإبراز المعانى ذلك الإبراز الذى يجعلها تغور فى أعماق النفس حتى تفتعل هذه بها.

وإليك مقال السعداوى الذى نشره بعنوان: "جريدة الأهرام الغراء تنقد السياسة التى تتمشى عليها إيطاليا فى طرابلس برقة":

كتبنا غير مرة منتقدين السياسة الخرقاء التى تسلكها الدولة الإيطالية فى

طرابلس برقة، وقلنا إنها سياسة إرهاب وشدة قائمة على ساعد الحديد والنار لإبادة الشعب الطرابلسي البرقاروى ومحوه واستبداله بمن ضاقت بهم أراضيهم من الإيطاليين، وربما كان يظن بنا المغالاة والتحامل على الحكومة الفاشيستية.

ولكن جريدة الأهرام الغراء سبق أن أرسلت مندوباً خاصاً، هو الأستاذ محمود بك أبو الفتح إلى طرابلس برقة. ورغم ما قوبل به حضرته من الحفاوة والإكرام من رجال الحكومة الإيطالية، لم يستهوه ذلك بل كتب مشاهداته بكل صراحة وجرأة، وجاء مؤيداً لما كتبناه عن سوء الإدارة التي تؤول إلى خراب تلك البلاد وفناء أهلها. فقد قال فى مقاله المنشور فى الأهرام الغراء بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٣٠ عدد ١٦٢٣١ :

إن بعض ما سأكتبه قد لا يكون حلو المذاق، لذيد الطعم، ولكننى أعلم أيضاً أن مصلحة الإيطاليين، هى أن يقال لهم الواقع على علاته، حتى يصلحوا معوج سياستهم، ويتبينوا الداء قبل أن يستفحل". إلى أن قال:

نعم، إن ما أكتبه الآن نتيجة بحث سريع، ولكنه نتيجة بحث دقيق، نتيجة اسقراء واستطلاع، نتيجة ما سمعته من كثيرين من أهل البلاد الذين تيسر لى أن أجتمع بهم فى خلوات، بعيدين عن أعين الرقباء، وإذا سمحت لنفسى أن أكتب، فلأنى مطمئن على من لاقيت ومن قابلت، ولأنى أريد من ورائه خيراً".

اطلع حضرة المندوب الفاضل على السياسة السقيمة التى تتبعها إيطاليا فى تلك البلاد، ورأى أنها سياسة معوجة، ويود أن تسعى إيطاليا فى إصلاحها قبل أن يستفحل الداء. إننا منذ تسع عشرة سنة، ونحن نرفع أصواتنا بالشكوى، ونقول لرجال الحكومة الإيطالية:

إن سياسة الشدة والعنف لا تجدى نفعاً، ولا توصل البلاد إلى حالة يسكن فيها الروع ويسود فيها السلام. وإن التجارب العديدة والسنين المديدة، قد أثبتت لهم أن الأمة الطرابلسية البرقاوية، لا تلين بالقوة، ولن تخضع

لسن الاستعمار والاستعباد، ولو كلفها ذلك الفناء عن آخرها، خصوصاً في هذا العصر الذى أخذت تتفكك فيه القيود، وتتحطم فيه الأغلال، وأصبحت فيه الأمم، تتباهى بشرف الحرية، ونيل الاستقلال، فلو كانت فى البلاد حرية القول والأمن على الأرواح لسمع ممن اجتمع بهم من الشكوى التى تدمى الأفتدة وتفتت الأكباد.

ولكن أنى للقوم أن ييوجوا بشكواهم، ويفضوا ببلواهم، وأعمدة المشائق منذ تسع عشرة سنة قائمة فى كل ناحية من نواحي البلاد والسجون خاصة، والجزر مملوءة بالمسجونين والمعتقلين حتى اليوم، وإذا رأوا من امرئ أقل اشمئزاز، فضلاً عن الشكوى، يعاقب بالعقاب الأليم.

وقد حدث أن رجلاً من علية القوم رأى ذات يوم الجنود الإيطالية تسوق طائفة من النساء والشيخوخ والعجزة مغلّلين فى الأصفاد قد شجت رءوسهم، ومزقت لحومهم من شدة الضرب والعذاب الأليم، وأطفالهم يكون حولهم من هول ما أصابهم، فوقف ذلك الرجل مذعوراً، وبدأت على وجهه علائم التأثر والحزن، فما شعر إلا وقد وكزه أحد الجنود، وغلله مع أولئك المساكين، وسبق إلى السجن.

وبعد أن مكث فيه شهرين بدون سؤال ولا جواب، أبعده إلى إحدى جزر إيطاليا، وظل معتقلاً فيها اثلاث سنوات، وهو لا يعلم لنفسه ذنباً غير ما ظهر على وجهه من التأثر والاشمئزاز من ذلك المنظر المحزن.

وقد نقل الرجل إلى بنفسه هذا الحديث، وأقسم لى أنه لا يعلم السبب الذى رماه فى تلك الورطة غير ما ذكره. ولهذه الواقعة أمثال لا تعد ولا تحصى. فكيف والحالة هذه لا يمكن لإنسان أن يقول: أف، أو يحدث نفسه بالشكوى من الظلم المخيم على محيط تلك البلاد المنكودة الحظ.

يقول حضرة المندوب: "يخطئ الإيطاليون، إذا حسبوا أن البلاد، قد أذعنّت واستسلمت ورضيت. فإن فى البلاد كثيراً من التذمر والاستياء

والنفور، ولا بد لإزالتها من كثير من الحكمة، وحسن نية والرغبة الصحيحة، فى التفاهم وفى خير أهل البلاد". نعم إن الإيطاليين مخطئون كل الخطأ، إذا توهّموا أن الشعب الطرابلسى البرقاوى الأبى يذعن لهذه الأحكام الجائرة، والإدارة الغاشمة. وهذا الذى حمّله على ركوب الأخطار، واقتحام الحروب طول هذه المدة، وجعله يفضل الموت على الاستسلام للإيطاليين، فالموت لا شك فى أنه مر المذاق، ولا يقتحمه الإنسان، إلا فى سبيل ما هو أمر منه، ولا أمر من الموت غير الذل والهوان.

اتخذ الإيطاليون فى نظرنا من قوتهم مبرراً للتصرف فى مصيرنا، وحرّمونا كل حق منم حقوقنا، وصمّوا آذانهم عن كل نصح نسديه إليهم، بعيد السيوف إلى أعمادها، ويوصلنا وإياهم إلى نتائج تضمن حقوق الفريقين.

ولكن الجشع الإيطالى والغرور الفاشيستي الذين ملأوا رءوسهم، وطمسوا بصائرهم، لم يجعلنا يوماً يفكرون فى حل قضيتنا بالتفاهم، وإننا قد برهننا لهم على حسن نياتنا، وأظهرنا لهم رغبتنا الشديدة فى التفاهم، ولم نزل نقول إلى يومنا هذا إننا على أتم استعداد لذلك، إذا وجدنا فيهم رغبة وحسن نية، لحل تلك المعضلة، التى لم تردها الأيام والسنون إلا تعقيداً.

فنحن نعلن رغبتنا هذه للعالم بأجمعه، فليسجلها التاريخ، وليعلمها القاضى والدانى، وإننا بعد هذا كله لسنا بملزومين إذا رفعنا أصواتنا بالشكوى، وأظهرنا استياءنا ونفرتنا من سياسة إيطاليا الغاشمة، التى يقول فيها حضرة المندوب:

ويرجع هذا النفور، إلى سياسة الشدة والعنف، إلى السياسة الطائشة المرهقة، سياسة الصلف والغرور التى اتبعت فى طرابلس من سنوات".

فهذا الشاهد العادل، أدرك تلك الحقائق من مدة قصيرة، وجولة صغيرة، ولو مكث أكثر مما مكث، لرأى ما يدهش العقول ويحير الألباب.

ولقد أثنى حضرة المندوب على المارشال (بادليو) والى طرابلس الغرب
الحالى . إلى أن قال :

ولكن أمامه مهمة شاقة، إذ ليس من الأمور السهلة أن يمحو فى شهور
أو سنوات قليلة عذاب ثمانية عشر عاماً، ومرارة ثمانية عشر عاماً، وآلام
ثمانية عشر عاماً، وتضحية ثمانية عشر عاماً، رأى فيها أهل البلاد دورهم
تهدم، ومزارعهم تخرب. وأبناءهم يذبحون وألهم يشتون". وها إننا نشرح
للقرأ شيئاً مما ذكره حضرة المندوب بعبارات مجملة :

إن إيطاليا عندما احتلت - طرابلس برقة - ورأت تلك المقاومة الشديدة
التي لاقتها عمدت إلى الانتقام، فأخذت من سكان السواحل العزل من
السلاح، أولئك المستضعفين الذين لا يجدون حيلة، ولا يستطيعون سبيلا
واعثقلت منهم ما ينيف على الخمسين ألف نسمة رمت بهم فى أعماق
السجون، ومنهم من مات جوعاً، ومنهم من مات من شدة العناء وكثرة
المشاق، تنوعت الأسباب والموت واحد. ثم إنها قتلت صلباً ورمياً بالرصاص
ما يتجاوز العشرة آلاف شخص فى عقر دارهم .

وكم من مرة أباحت لجنودها القتل العام، فلال ترى إلا جماجم
تنطير، وأرواحاً تزهق، ولحوماً تمزق، ودماء تهرق، وكم دخلوا قرى آمنة
على حين غفلة من أهلها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم. هذا عدا من مات
فى ميادين القتال فإننا لا نتعرض لذكرهم. فإنهم ماتوا يدافعون عن وطنهم،
ويذودون عن حياضهم. وقد هاجر من البلاد فى مختلف الأقطار ما ينيف
على الثمانين نسمة، جلهم صادرت الحكومة الإيطالية أملاكهم وغصبت
أراضيهم .

فهذه الفظائع التى تضيق عنها صحائف التاريخ ليس من السهل أن
يمحو أثرها المارشال (بادليو) فى عشرات السنين .

وقال حضرة المندوب: إن المارشال (بادليو) حدثه أنه تجول فى إحدى المناطق لتشجيع الأهالى على زراعة الدخان فخطب فيهم قائلاً:

إننى لم أجدى إلى هنا لأتكلم فى السياسة فليس فى البلاد شخص بيده الأمر غيرى، ولكننى جئت لأتكلم فى الشؤون الاقتصادية".

فيتأمل القارئ المنصف وليحكم على ذهنية الإيطاليين، فهذا المارشال (بادليو) الذى يقال عنه إنه أحسن وال للبلاد يقول: "ليس فى البلاد شخص بيده الأمر غيرى". إن هذا لمتهى الغرور والعظمة والكبرياء. لأننا لم نسمع أن ملكاً من الملوك خاطب شعبه بهذا الخطاب حتى اسكندر المقدونى الذى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب. فعلى رسلك يا حضرة المارشال! فكم فى إيطاليا إله؟ فالسينور (موسولينى) يقول فى روما أنا ربكم الأعلى، وحضرتك تقول فى - طرابلس برقة - ليس فى البلاد شخص بيده الأمر غيرى. فيا حضرة المارشال أرجوك أن تنزل عن سماء جبروتك قليلاً لكى نسمعك عن كذب الحقيقة التى بعدت عنها.

إن رأى الواحد قاصر - وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر - أن يحيط علمًا بمصالح عامة ويصيب فى كل ما يهم به خصوصًا إذا كانت مصالح أمة. فإن الأمة التى ليس لها فى شئونها رأى، ولا أثر لإرادتها فى مصالحها العامة لا يهدأ لها روع ولا يطمئن لها بال. وإن الولاة الذين تولوا الأمر فى - طرابلس برقة - حتى الآن ونهجوا هذا النهج السقيم، فكانت إرادتهم قانونًا، ومشيتهم نظامًا، يستبدون فى الأحكام كيفما يشاءون، هم الذين سببوا انتشار الفوضى واستمرار الفتن والحروب ودوام المحن والخطوب فى تلك البلاد إلى يومنا هذا.

قال حضرة المندوب: (وقد جلبت الإدارة الإيطالية نحو خمسمائة أسرة إيطالية أغلبهم من صقلية، وراعت فى هذا أن صقلية ظلت تحت حكم العرب مدة قرنين، وأن بين الصقليين والعرب وجوه شبه فى الطباع والعوائد تسهل

التفاهم بينهم. ولقد اقطعت الإدارة الإيطالية لتلك العائلات أراضى من أحسن الأراضى وأخصبها، وساعدتهم فى زرعها واستثمارها بمختلف الوسائل، وقدمت لهم الإعانات المالية والأيدى العاملة).

نعم إن الحكومة الإيطالية قد راعت فى اختيارها للصقليين وجوه الشبه بينهم وبين العرب، ولكنها لم تراعى العدل والإنصاف يوم غصبت أراضى أهل البلاد، وحرمتهم من حقوقهم بغير مسوغ إذ أنها قد وضعت قانوناً خولها ضبط أراضى الأهلىين بشكل فظيع وأماتت بذلك شعبنا التبعس الحظ وأحيت الإيطاليين. فإن العرب عندما فتحوا صقلية وظلوا فيها زهاء قرنين لم يعاملوا أهلها بما تعاملهم إيطاليا به اليوم والتاريخ على ذلك من الشاهدين.

ثم قال حضرة المندوب: (وقد سمعنا انتقادات عن نظام التوظيف وقفل أبواب الوظائف فى وجه أبناء البلاد، وقد وجهنا هذا النقد لبعض كبار الإيطاليين فى طرابلس، فقالوا لنا إن هذا يرجع إلى أمرين: الأول افتقار البلاد إلى المتعلمين، فليست هناك فئة راقية متعملة تعليمًا يكفى لأن تسند إليها مناصب كبرى، والثانى أن الوظائف الحكومية يجب أن تسند لمن يوثق بولائهم لإيطاليا ولنظام الحكم فى البلاد وإلا كانوا خطرًا عليه).

سد الإيطاليون أبواب الوظائف فى وجوه الأهلىين، وحجتهم فى ذلك عدم وجود المتعلمين وهذا لا يخلو من الصحة، لأن الإدارة الغاشمة قد أقصت المتعلمين وشردتهم فى الآفاق، وزادت على ذلك أن سدت المدارس وقضت على التعليم:

لقد كان قبل الاحتلال الإيطالى المشثوم الذى جر الولايات على تلك البلاد من يشغل من الأهلىين الوظائف الأولى والثانية بنسبة خمسة وتسعين فى المائة، وكادت الدولة التركية إذ ذاك أن تستغنى عن جلب المأمورين من خارج البلاد لوجود متعلمين أكفاء فيها، ولكن إيطاليا يروق لها أن ترى فى البلاد طبقة راقية تطالب بحقوقها وتخدم وطنها بصدق وإخلاص، وكذلك اتخذت

كل وسائل الشدة والتضييق عليهم حتى أخرجت أكثرهم من ديارهم، والبقية هم اليوم فى أعماق السجون، وفيهم الحامل للشهادات العالية إذا فتبعة حلو البلاد اليوم من المتعلمين تعود على الإيطاليين وحدهم، ولو كان ثمة حرية وأمن على الأرواح لرأيت فى البلاد عدداً كبيراً من المتعلمين المتخصصين فى كل شعبة من شعب الحكومة.

ولكن ذلك لا يوافق إيطاليا التى تريد الاستئثار بكل المنافع، وهى تبرر فى سبيل هذه الغاية كل واسطة مهما كان نوعها. أما قول الإيطاليين إن الوظائف يجب أن تسند إلى من يوثق بولائهم لإيطاليا ونظام الحكم فى البلاد. فهذا دليل واضح على سقم الإدارة وعدم السياسة الرشيدة، لأنها منذ ١٩ سنة عجزت على جلب شخص فى البلاد تسند إليه وظيفة. أليس هذا مما يؤيد قولنا ويدعم حجتنا؟

وقال أيضاً حضرة المندوب: (إن التعليم فى طرابلس مفتقر إلى كثير من الجهود وهو بيرامجه الحالية ونظامه الحالى لا يمكن أن يخرج أحداً من الناس يصلح لتولى عمل من الأعمال الهامة حكومية كانت أم غير حكومية، فإن المدارس تعلم مبادئ بعض العلوم فقط .. ولا تؤهل خريجها لغير الأعمال الثانوية البحتة، ولا تمكنهم من التطلع إلى المناصب الرفيعة، ومعنى هذا أن أبواب هذه المناصب تظل مقفلة فى وجوههم أبداً).

إن موضوع المدارس والتعليم فى القطر الطرابلسى البرقاوى من أهم المواضيع التى تستدعى الاهتمام والانقياد المر. فإن إيطاليا بمجرد أن احتلت تلك البلاد قضت على مدارسها لتجعل أبناءها يتخبطون فى ظلمات الجهل، لأن العلم من شأنه أن يهذب النفوس ويقوى الشعور ويربى النشء على مبادئ الحرية والسيادة القومية، وهذه هى المزاي التى تسعى الدولة الإيطالية قبل كل شئ لقتلها ومحو آثارها من أمتنا.

نحن لا يحزننا إذا سدت إيطاليا فى وجوه أبناء تلك البلاد أبواب

الوظائف. بل الأمر الذى يدمى قلوبنا أن نرى إيطاليا المتمدنة، إيطاليا التى جاءت - على زعمها - منقذة للطرابلسيين من ظلم الأتراك لترتفع بهم إلى المستوى الأعلى من المدنية والحضارة نراها تسد فى وجوههم أبواب العلم، وتجعلهم يتخبطون فى ديجور الجهل، وتفتح أبواب التبشير والتنصير وطرق الفسق والفجور والدعاوة والخمور التى تقضى على الأخلاق وتميت الشعور.

فهذه الغاية التى ترمى إليها إيطاليا قد ظهرت بأجلى مظاهرها. ولا تخشى فى ذلك وصمة التاريخ ولا وخز الضمير. ولقد كانت المدارس فى عهد الأتراك فى كل ناحية من نواحي القطر مكتظة بالتلاميذ ونور العلم مشرق فيها، فأصبحت خاوية على عروشها. وضرب الجهل أطنا به، وبعد ذلك يقولون ليس فى البلاد متعلمون. فالتبعة فى ذلك عليهم لأنه قد مضت على احتلالهم تلك البلاد مدة طويلة، فأى أثر لهم غير إحياء معالم الجور وإماتة سنن العدل وإطفاء نور العلم.

قال حضرة المندوب: (إن إيطاليا ترمى إلى "تطين" الطرابلسيين، إلى إدماجهم فى العناصر الإيطالية، وهى سياسة اتبعت فى بلاد أخرى منذ زمن طويل ولم يقدر لها النجاح). ولقد حضرته القول بالنصح للإيطاليين أن يتنحوا عن هذه السياسة، وبين لهم أنه من المستحيل تحويل الطرابلسى البرقاوى إلى إيطالى.

فإننا نشكره لإماطة اللثام عن هذه الحقائق، ونقول للإيطاليين إنكم مهما بلغ بكم الغرور، ومهما أوتيتم من قوة فلن تستطيعوا أن تدمجوا الطرابلسى البرقاوى فى الإيطالى ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا. فالطرابلسى البرقاوى العربى الذى هو من أشرف العناصر ويفتخر بصفاته، ويتباهى بشرف محتده وطيب أرومته، ويعلم أن تاريخه المجيد مملوء بالمفاخر وجلال الأعمال، وأن أسلافه الكرام قد أناروا العالم بمدنيتهم وحضارتهم، ويعرف ماضيه اللامع الخافل بهذه المفاخر، كيف يمكن لإيطاليا أن تدمجه فى عنصرها وتصيره طليانياً.

فلو كان شعبنا ضعيف النفس فاقداً لمزايا أسلافه الغضاريف الكرام لما وقف في وجه إيطاليا هذا الموقف الشريف تسعة عشر عاماً مفضلاً الموت على الحياة في سبيل وطنه، في سبيل دينه. ألم تكن هذه السنين الطوال دروس عبرة لإيطاليا تعرف فيها نفسية هذا الشعب الأبي. إن الطرابلسى البرقاوى إذا أراد أن يهين إنساناً يصفه بأنه "متطلين" فكيف وهذه حاله تحاول إيطاليا المستحيل وتسعى لإدماجه فيها وهى تعلم درجة نفوره واشمئزازه من ظلها وطغيانها. إن الأستاذ غرستاف لوبون يقول رداً على أحد القائلين بإمكان إدغام العربى فى العنصر الأوروبى:

إنى أعتقد ككل إنسان درس مزاج العرب النفسى إن تحقيق ذلك لا يقل صعوبة عن تحويل زنجى أسترالى إلى أستاذ فى كلية فرنسا (كوليج دوفرانس) أو تعليم الضفادع الطيران".

وقال ميسو (جول هارمان) وهو من الثقات المطلعين أيضاً على نفسية العرب: (يجب على المستعمرين أن يبتعدوا عن سياسة الإدغام والتمثيل، ويجب احترام مزاج الشعور العربى وأنظمة العرب السياسية والاجتماعية الناشئة عن احتياجاتهم المادية والأدبية فإن ذلك خير وأبقى). فإيطاليا خير لها من أن ترغمنا على ترك عنعناتنا القومية ومسعتقداتنا الدينية، أن تعيد لنا حقوقنا المغصوبة. وحریتنا المسلوقة، وتتجنى عن هذه السياسة السقيمة التى لا تعود عليها إلا بالفشل والخيبة التامة.

فإن الزمن الذى ترغم فيه الأمم على ترك دينها وعنعناتها القومية قد مضى وولى الأدبار. وإننا وإن صبرنا على ما تلاقيه من إيطاليا من قتل وصلب وغصب حقوق وخنق حرية، فإننا لن نصبر على تجاوزها على أقدم شيء لدينا وهو ديننا الحنيف، وسنرفع أصواتنا بالشكوى احتجاجاً على هذا العمل الذى تفتقره إيطاليا إلى أن تردد أصواتنا جميع البلاد الإسلامية، ولن يعدم الحق تصيراً والمظلوم مجيراً. التوقيع: طرابلسى خبير"

هذا، ولعل أهم ما يلفت النظر فى هذا المقال، إلى جانب أنه يبين الأسلوب الذى كان يتبعه بشير السعداوى فى حملته الكتابية على الطليان، من حيث اتخاذ ما قد ينشره الغير، - سواء أكان ذلك الغير شكيب أرسلان أو محمود أبو الفتح أم خلافهما - مادة يبنى عليها، وحجة يؤيد بها ما يريد إذاعته عن سياسة الطليان الاستعمارية فى طرابلس برقة - نقول إن المقال إلى جانب هذا قد أشار - ولو بصورة عابرة - إلى ما يمكن تسميته بالبرنامج السياسى والذى كان للجنة التنفيذية فى هذه الفترة التى سبقت مباشرة حوادث المتقلات العسكرية فى العقيلة وغيرها وحوادث احتلال الطليان لواحة الكفرة، ونعنى بالبرنامج السياسى، استعداد السعداوى وصحبه للتفاوض مع الحكومة الإيطالية من أجل الوصول إلى اتفاق بالطرق السلمية ينهى القتال الدائر فى طرابلس (فزان) برقة، ويستبدل بالفظائع التى يرتكبها الطليان لإبادة أهل البلاد وإفنائهم، استقراراً يكفل تأمين هؤلاء على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ويمكنهم من إقامة الحكومة الوطنية الرشيدة، وذلك كله على أساس إبرام اتفاق يكفل للجانب الإيطالى كذلك تلك "الحقوق" أو بالأحرى المصالح التى لم يكن هناك بد من الاعتراف بوجودها لهم.

ولقد سبق أن تحدثنا عن هذا المطلب السياسى القومى، وسوف تأتى الفرصة للحديث عنه بصورة أوفى فى موضع آخر. ولكن الذى نريد أن نذكره الآن أن هذه الدعوة التى وجهت للاتفاق على أساس الاعتراف "بالحقوق" التى للفريقين إنما حدث توجيهها فى وقت لم يكن قد صار معروفاً فيه أن الطليان قد أوقفوا مفاوضاتهم مع السيد عمر المختار فى برقة واستقر رأيهم نهائياً على إخماد المقاومة المسلحة فى القطر الطرابلسى البرقاوى بقوة الحديد والنار. وكذلك فإن هذه الدعوة سبقت بعدة شهور، حوادث العقيلة والكفرة، وإعدام عمر المختار.

وواضح أنه وسط "الفظائع" الأخيرة، خصوصاً لم يكن هناك مجال

لأى تفكير فى إمكان التفاهم والاتفاق "السلمى" مع الطليان، بل إن هذه الحوادث - كما رأينا - كانت مبعث تلك الحملة الواسعة من الدعاية الشديدة، التى أثارها السعداوى - وعاونه شكيب أرسلان فى إثارتها - للتنديد بفعال الطليان والاحتجاج على طغيانهم. وهى الحملة التى هيات بدورها لصدور (كتاب الفظائع).

ولنتقل الآن للكلام عن كتاب الفظائع نفسه، وقد تبودلت حول هذا الكتاب رسائل كثيرة، تسجل "تاريخ" الكتاب: كيف أمكن جمع مادته وتصنيفه، وترجمته إلى الفرنسية، ومحاولة نقله كذلك إلى لغات أخرى، وكيف جمع المال لسد نفقات الطبع والترجمة. وقد قام بدور كبير فى كل هذه الأمور، إلى جانب صاحب الكتاب السعداوى نفسه الأمير شكيب أرسلان.

وزيادة على ذلك، فإن هذه الرسائل، تكشف من جهة أخرى عن بعض نواحي ذلك النشاط العظيم الذى كان يقوم به بشير السعداوى، لمواصلة حرب الدعاية العنيفة التى كان هو المسئول الأول عن إثارتها ضد الطليان. ولقد ظل كتاب (الفظائع السود الحمر) صحيفة اتهام حية أبداً ضد هؤلاء من وقت صدوره، ليس فقط طوال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية، بل وبعد هذه الحرب التى انهزم فيها الطليان، وأخرجوا من ليبيا، وذلك أثناء النظر فى مصير المستعمرات الإيطالية السابقة فى إفريقية. ولقد استغرقت "قصة" تأليف الكتاب وطبعه ونقله إلى الفرنسية وتوزيعه، ثم ما ترتب على ظهوره من آثار مباشرة حوالى أربع سنوات من ١٩٣١ إلى ١٩٣٤ تقريباً. ولعله كان لطول هذه المدة ذاتها يد فى بقاء كتاب الفظائع صفحة اتهام ثابتة ومتجددة كل هذه السنين الكثيرة.

قامت على ترتيب مواد الكتاب لجنة سميت: (بلجنة تسجيل الفظائع) ضمت إلى جانب بشير السعداوى رئيس اللجنة للدفاع عن طرابلس برقة،

سائر أعضاء هذه اللجنة الأخيرة العاملين في دمشق الشام، وهم السادة: كامل عياد، وعبد الغنى الياقنى، وعمر فائق شنيب، وفوزى النعاس، ويذكر السعداوى أن فوزى النعاس بذل جهداً صادقاً في معاونته على تصنيف هذا الكتاب.

وتم تأليف الكتاب في سنة ١٣٥٠ هـ، ١٩٣١ ميلادية بعنوان: (الفظائع السود الحمر أو التمدن بالحديد والنار. الحلقة الأولى - لجنة تسجيل الفظائع ١٣٥٠ = ١٩٣١) ويبدأ بإهداء هذه الحلقة بوجه أخص إلى ناشئة طرابلس - برقة الحاضرة، ونابتها المستقبل ليتأثروا لوطنهم وقومهم ودينهم، وليذكروا ما بها من الفظائع دائماً، لمن سيخلفهم جيلاً فجيلاً، تنفيذاً لقوله تعالى: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" كما جاء في الإهداء أن الكتاب يرفع كذلك "بوجه أعم إلى من تحدّثه نفسه بأن الغرب ممدن للشرق كنموذج لهذا التمدن ليعتبروا بغيرهم، فيعدوا العدة لدفع غارة الغرب عنهم، ويلى هذا الإهداء صورة للشهيد السيد عمر المختار. ثم يبدأ الكلام بمقدمة تتناول: تنهيدات الطليان قبل الاحتلال، فاجعة الاحتلال، ثم يلى ذلك سجل لفظائع الطليان، فى فصول يستقل كل منها بحوادث سنة معينة بعنوان: (صفحة من فظائع الطليان)، عن سنوات: ١٩١١ - ١٩٣١ كل سنة منها على حدة، وذلك كله فى أربع وسبعين فقرة، يتناول آخرها القبض على الشهيد عمر المختار وأسرته فى ١١ سبتمبر ١٩٣١ ثم إعدامه فى ١٦ سبتمبر.

ويتهى الكتاب ببناء عنوانه: (كلمة إلى العالم الإسلامى)، إليك ما جاء فيها: "أيها المسلمون: إن التفكير فى مصاب الأمة الطرابلسية - البرقاوية، هو التفكير فى مصاب المسلمين، والعناية بأولئك المجاهدين فى سبيل الله والوطن عناية بالجامعة الإسلامية. وحسبكم أن غارة الطليان على ذلك القطر الإسلامى كانت فاتحة الفجائع التى ما زالت ترى على رؤوس

المسلمين منذ ذاك اليوم الأسود حتى آل أمرهم إلى ما تروونه من ذل شامل واضطهاد، لم يحو عام مثلهما تاريخهم بين دفتيه. فيا لهف الإسلام ويا لهف البيت الحرام على ما صار إليه أمر المسلمين.

إن الفظائع التي اطلعت علىها في هذه الحلقة هي قليل من كثير، قد ارتكبتها الإيطاليون في تلك البلاد النائية التي أوقعها نكد الطالع بين برائن وحوش الفاشيست الذين لم يعبأوا بحقوق الحرب وحدودها المعينة في كتب حقوق الدول وحقوق الأمم، بل لم يكتروا حتى بقانونهم الذي يقضى بصيانة العرض وحرية الأديان والملك الشخصي، كما أن الاستملاك له شرط ليس بابه مفتوحاً على مصراعيه. فبموجب المادة ٢٤٠ من القانون الطلياني الداخلى يبقى الأولاد إلى سن الواحدة والعشرين قاصرين تحت وصاية والديهم. وبموجب المادة ٢٢٤ يمثل الوالد أولاده في جميع الحقوق المدنية.

زد على كل هذا أن إيطاليا موقعة على معاهدة (فرساي) سنة ١٩١٩، وهذه المعاهدة مفتحة بالتوصية الشديدة برعاية الحقوق البشرية العامة التي ينبغى أن تتقيد بها جميع الحكومات العالمية. ونصت فقرتها الثالثة عشرة من مقدمة هذه المعاهدة نصاً صريحاً على قضية حماية الأطفال والمراهقين والنساء.

فالإيطاليون لم يكتروا بكل ذلك، بل إنهم ما فتئوا ينزلون بذلك الشعب البائس أنواع العذاب الذي لا تتحمله البشرية.

(٢١) سنة خلت والإيطاليون يمثلون في تلك البلاد أفظع الأدوار الوحشية ويقتربون فيها من الآثام ما يسود منه وجه الإنسانية.

(٢١) سنة ودماء الأبرياء تسيل، وأرواح المعصومين تزهر ظلماً وعدواناً.

لقد اتخذ الفاشيست أخيراً من قوتهم مبرراً فتفتنوا في ارتكاب الفظائع ووطدوا العزم على إفناء ذلك الشعب البائس، إذا خلت منه الديار استخلفوا

فيها من ضاقت بهم أرضهم من أبناء جلدتهم، وأسكنوا فيها المشردين في الآفاق من أمتهم.

لم يحدثنا التاريخ ولا أساطير الأولين بما يقترفه الفاشيست من الفظائع الدموية، البشرية، تلك الأفعال التي تفتت الأكباد وتذبذب الجماد.

لم يخجل رجال الفاشيست أن يرتكبوا تلك الآثام التي تتجافاها الوحوش المفترسة ويدعون أنهم في مصاف الأمم الراقية، وأنهم أنصار المدنية.

برئت ذمة التاريخ وبرئت ذمة الإنسانية المعذبة من تلك المدنية المزيفة.

لم ندر أنحن في عصر المدنية والسنور؟ أم نحن في عهد الظلم والجور؟ شعب بائس أعزل تسطو عليه دولة الفاشيست الغاشمة بقواها الجهنمية في البر والبحر والجو فتتزل به العذاب الأليم، تقتل النفوس البريئة، ولا تفرق بين النساء ولأرجال، ولا الشيوخ ولا الأطفال، فقد اتخذت تلك البلاد مجزرة بشرية، ومسرحاً تمثل فيه أفظع أدوار الهمجية.

فيالهل المصاب. أى ذنب لأهل تلك البلاد المنكودة الحظ؟ أية جريمة اقترفوها؟ لا ورب العرش العظيم! لا ذنب لهم إلا أنهم شرقيون لا غربيو. وذنبهم الأكبر وجريمتهم التي لا تغتفر هي أنهم مسلمون:

يعاقبنى قوم كأنى مجرم وما لى ذنب غير أنى مسلم

فلو أن وحوش الفاشيست كان انقضاضهم هذا على شعب غير مسلم وضمن القارة الأوروبية لرأيت رجال الأروقة السياسية والأندية النيابية ورجال الصحافة، وفي مقدمة الكل العصبة التي تدعى بـ (عصبة الأمم) في أوروبا قد ملأوا الفضاء بالضجيج، ورفعوا الأصوات إلى عنان السماء بالاستنكار على ما يقترفه أرباب (القمصان السود) من شنائع وفظائع. ولرأيتهم قاموا قومة رجل واحد في وجه أولئك الوحوش. وكفوزهم عن الولوغ في دم

البشر بتلك الصورة التى ترتعد منها الفرائض . ولكن تلك الفضائع التى يقتربها الفاشيست هى خارج أوروبا ، وإحقاق الحق بضاعة لا يصدرونها إلى الخارج .

وإننا وإن يشنا اليوم من إقامة موازين العدل والإنصاف فلنا فى التاريخ أعظم تعزية ، فإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، " وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون " .

إن هذه العظات وهذه العبر التى توقظ النيام من مزعجات الأحلام ، لابد أن تبعث فىنا معشر المسلمين شعوراً وتستفز منا همماً للدفاع عن أنفسنا ومقارعة خصمنا .

إن سياسة الإفناء والإبادة التى يتمشى عليها حكومة الفاشيست فى طرابلس - برقة إذا لم تتخذ الوسائل الحازمة لردعها ، سوف لا تقف عند حد . بل إن سيل طغيانهم الجارف سيمتد إلى الأقطار المجاورة لتلك البلاد المظلومة ، لأن نشوة الغرور التى دب دبيبها فى أدمغة الفاشيست ، ترمى إلى إعادة العهد الذى تسلط فيه الرومان على الشرق فاستعبده عصوراً طويلة . وفى ذلك من الخطر ما يدعو إلى اهتمام من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

لئن كنا عاجزين اليوم عن صد تلك القوة الغاشمة ، ففى استطاعتنا أن نلقى على جيراننا من دروس فجائتنا ما فيه العبرة لأولى الأبصار ، والسعيد من اتعظ بغيره . وهذا من بعض وجائتنا تجاه جيراننا ، ولعل لنا عليهم بعض الوجائب .

يجدر برجال السياسة الأوروبية الحريصين على السلم فى العالم أن يعيروا لمثل ما ترتكبه إيطاليا من الفضائع فى طرابلس - برقة شيئاً من الاهتمام . فإن الشرق الذى يتململ ويئن تحت نير الاستعمار بقوة الحديد والنار لن يصبر أكثر مما صبر على هذا الأذى .

فإن ما تلاقيه الشعوب المغلوبة على أمرها، من الضغط الشديد، والظلم والإرهاق سيحدث يوماً ما، انفجار براكين من الفتن، قد لا يبعد أن تجر وراءها سعي حرب، تآكل الأخضر واليابس، ويكون موقدها الفاشيست بسياستهم الهوجاء التي خرقت حرمة القوانين البشرية والمبادئ الإنسانية.

فليبرهن لنا أولئك الساة، على حسن نياتهم في ابتغائهم السلم، بتوقيف طغيان الفاشيست عند حده، إن كان ما يريدونه حقاً. وإلا فلننا (بلامين) إذا اعتقدنا أن جميع ما يرددونه من الأقوال على المحافظة على الحقوق الإنسانية، هي دعوى لا ظل لها من الحقيقة، وإن القوى الشاكي السلاح، يحق له الانقضااض على الضعيف الأعزل، بدون رحمة ولا شفقة.

وإننا تجاه هذه الفظائع التي يقوم بها الفاشيست والتي ترمى إلى إفناء شعب إسلامي عن بكرة أبيه في طرابلس - برقة، نوجه كلمتنا - والجزع يملأ أفئدتنا - إلى العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ليعبروا هذه القضية ما تستحقه من الاهتمام، فقد بلغ السيل الزبى، وأظهر كل لثيم كبره، إن في ذلك لعبرة.

فيا حماة الدين، ويا من في قلبه غيرة على الإسلام والمسلمين. ها إن طغام الفاشيست يهينون دينكم، فقرآنكم الكريم يداس تحت الأقدام. ودين نبيكم "محمد بن عبد الله" يتقلص ظله، ويطفأ نوره في تلك الديار بعد أن كان ساطعاً وضاء. لقد خلت المساجد من كل راع وساجد وأصبحت اصطبلات للحيوانات بعض أن كان يذكر فيها اسم الله وتلى فيها الآيات البينات.

أترضون أن يسام إخوانكم المسلمون سوء العذاب وينزل بهم أشد العقاب ولا ذنب لهم غير أنهم ضعفاء وأخصامهم أقوياء.

ولو رأيتم ذلك الشعب البائس، وهو هائم على وجهه، في تلك الصحارى المحرقة وجيوش الفاشيست ينقضون عليه انقضااض الوحوش لها

لكم الأمر ولفاضت أعينكم من الدمع حزناً على ذلك الشعب الذى ضعف بعد قوة وضيم بعد المنعة. ولكن البكاء لا يحى الميت، والحزن لا يدفع المصيبة، وإنما سبيل النجاح العمل، وإن السبيل لمهد أماننا، وإن المحجة لواضحة، وإنها لسبب يجمع الأسباب عامة، ووسيلة تحيط بالوسائل جمعاء، تخفقون بها عن إخوانكم الولايات، وترفعون ما خل بهم من النكبات، ألا وهى: "مقاطعة الإيطاليين" فى بضائعهم ومدارسهم ومستشفياتهم وأطبائهم ومصارفهم "البنوك الإيطالية" وبواجرهم وكل وسيلة من وسائل معائشهم، والمقاطعة أمضى سلاح بيد الأمم الضعيفة. بل هى السلاح الوحيد الذى يدافع به الأعزل عن كيانه اليوم. وعندئذ يعلم الفاشيست أن "المسلم للمسلم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"، وإن المسلمين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. فاشحذوا - أعانكم الله - لهذا العدو الألد، هذا سلاح الوحيد (المقاطعة) الذى يقطع على عدوكم طريق ظلمه الفظيع، وينفس عن إخوان دينكم الكرب، من حيث لا يكلفكم شيئاً من التضحية.

أيها المسلمون الأباة: لقد آن لكم أن تغضبوا لدينكم المهان، وشريعتكم التى يراد بها الهوان. فهيا ثم هيا لعمل تنفعون به إخوانكم، وتضربون به أعدائكم، ولا يكلفكم أقل عناء.

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) "والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً"

هذا الكتاب - كتاب الفظائع السود الحمر - يقع فى ١١٦ صفحة من القطع الصغير طبعه بشير السعداوى بإحدى مطابع دمشق - وهى مطبعة السيد نصوح بابيل، صاحب جريدة الأيام - ثم طلب إلى الأمير شكيب معاونته على نقله إلى اللغة الفرنسية وطبعه، وحتى لا يجعل الأمير شكيب يتحمل نفقات ترجمته أو طبعه. بعث بشير السعداوى بكتاب الفظائع إلى الأمير عمر

طوسون فى مصر . وكتب له أن المجاهدين الطرابلسيين البرقاويين يريدون من الأمير شكيب ترجمة هذا الكتاب ، فإذا كان (عمر طوسون) يريد المعاونة فى هذه المسألة ، ففى وسعه أن يبعث بأى مبلغ يتبرع به لهذه الغاية إلى الأمير شكيب أرسلان . وكتب بشير السعداوى بنفس المعنى إلى حمد الباسب باشا ، وإلى التاجر المصرى الفرنوانى ، وإلى آخرين من الذين انتظر منهم المساهمة فى هذا العمل . وقد تبرع هؤلاء بمبالغ من المال ، صاروا يرسلونها إلى شكيب أرسلان ، دون أن يدرى هذا فى أول الأمر شيئاً عن الغرض الذى أرسلت إليه من أجله هذه المبالغ ، حتى كتب إلى بشير السعداوى يستفسر عن السبب ، فذكره له السعداوى وبالفعل شرع الأمير شكيب فى الترجمة واختار لهذا العمل أحد أدباء المغاربة ، (المرحوم على الحامى) ، وهو من الجزائر ، وكان وقتئذ متغرباً فى برلين - وعلى الحامى كان بعد هذا التاريخ بحوالى عشرين سنة أحد أعضاء الوفد المغربى الثلاثة الذين حضروا المؤتمر الاقتصادى الإسلامى الدولى فى كراتشى فى شهر ديسمبر ١٩٤٩ ، ثم استشهدوا فى حادث احتراق الطائرة التى كانت تقلهم فى طريق عودتهم إلى مصر بعد انقضاء المؤتمر - فعهد شكيب أرسلان إلى الحامى بترجمة كتاب الفطائع . ولم يستطع الأمير شكيب طبع الترجمة فى سويسرا أو فرنسا لنفاد المبلغ الذى كان قد وصله .

فهو كان قد اضطر إلى إنفاق جزء منه فى شئونه الخاصة ، على أمل أن يسدد ما أخذه عندما يصله من وكيله فى سوريا بعض ما كان متبقياً له من ثمن مزرعته - اسمها المقروصة - كان باعها حديثاً . ولكن لم يلبث أن جاءه السائح العرافى ، السيد يونس بحرى يستدين منه مبلغاً من المال كمعاونة "فأقرضه" الأمير شكيب من المبلغ المخصص لترجمة الكتاب وطبعه ، وشكا الأمير شكيب من أن السائح العرافى لم يسدد له شيئاً ، وبذلك وقع عبء القيام بالطبع على كاهل بشير السعداوى الذى لقى معاونة كبيرة فى ذلك من المرحوم رياض بك الصلح ، وعقد السعداوى آمالاً عظيمة على إمكان طبع

هذه الترجمة الفرنسية، وظل هذا الأمل قوياً خلال عام ١٩٣٢، ولن للأسف حالت مصاعب عدة دون طبع هذه الترجمة فى النهاية.

ولقد اهتم كذلك بشير السعداوى وفى الوقت نفسه بأن تيسر ترجمة الكتاب إلى لغات أخرى - إلى جانب الفرنسية - وسنرى من المرسلات التى دارت حول ترجمة وطبع وتوزيع كتاب الفظائع مبلغ حرص السعداوى على تحقيق غايته. ثم إن هذه المرسلات إلى جانب أنها تروى "قصة" الكتاب، فهى تكشف كذلك عن نواحي النشاط الأخرى المتصلة بالدعاية والنشر، ليس لتقوية حملة الاستنكار والاحتجاج العنيفة ضد الفاشيست فحسب بل ولاستنهاض الهمم فى العالم الإسلامى، ولتنوير أذهان المواطنين الليبيين فى مختلف الأقطار التى هاجروا إليها بشأن قضية الوطن.

والرسائل التى أمكن العثور عليها حول موضوع كتاب الفظائع السود الحمر، تبدأ برسالة من الأمير شكيب إلى بشير السعداوى مؤرخة من جنيف ٣٠ مايو ١٩٣٢ يقول فيها الأمير شكيب:

رسالة الفظائع الإيطالية ارسلتها إلى الحمامى - مغربى أديب بارع بالإفريقية مقيم ببرلين - فترجمها وقريباً يرسلها إلينا، لم نشارطه على عمله لأنه صديقنا، وسنبعث إليه بما تيسر، وعندما ترد الرسالة سنطبعها هنا. فأنتم لا حاجة بكم إلى إكمال ترجمتها فى سورية".

ثم يعود الأمير شكيب فيكتب من جنيف أيضاً فى ٨ يونيو ١٩٣٢، فيقول مخاطباً السعداوى: "الآن واصل لك ترجمة رسالة الفظائع الطليانية بقلم على الحمامى. قرأت جانباً منها فاستحسنته جداً وقست الباقي عليه. فكرت فى إرسال هذه الترجمة إليك حتى لا تعنى أنت فى الترجمة نفسها فى سورية ولا تدفع الأجرة مرتين".

ثم قال: "إن الحمامى لم يكتب لأجل الأجرة، ولكنه يرى مساعدته" بعدة مئات من الفرنكات السويسرية "لتعربه؛ ثم شرع يتكلم عن رخص

نفقات الطبع فى بيروت بالقياس إلى ما يتكلفه الطبع فى سويسرا، ويشكو من "الضنك الشديد" الذى يجعل متعذراً عليه القيام بطبع الكتاب على نفقته. ويقول: إن هذا الضنك هو جزءاً كل من يشتغل بالسياسة ويترك حوائج نفسه وعائلته، ويتعلق بقضية عامة، ولا سيما إذا كانت قضية إسلامية.

وفى ٢٣ يوليو (تموز) يكتب الأمير شكيب نم جنيف ليبلغ بشيراً أن وكيله فى سوريا وصديقه عارف بك الكندرى، قد أرسل إليه مبلغاً من المال مئتمن مزرعته (المقروضة) التى كان قد باعها. "ففرح بذلك من كربه"، ثم يستمر يقول: "وأما من جهة كتاب فظائع إيطاليا بطرابلس فاسألوا كم يكلف طبعه فى بيروت وعرفونى، فإن وجدنا طبعه فى بيروت أرخص من هنا أرسلت إليكم الآن ١٠ إلى ١٥ ليرة ذهباً، وإن كان الطبع فى فرنسا أرخص استرجعناه منكم وطبعناه فى باريس أو فى بلدة إفرنسية ثانية". وفى حاشية: "إن المترجم الحمامى أرسلت إليه خمسة جنيهات إلى الآن".

فأجاب بشير السعداوى على هذا الكتاب فى رسالة جاء فيها ما نصه:

الأمير شكيب - تلقيت كتابكم الكريم الذى ذكرتم فيه أن الأخ عارف بك أمدمكم بمبلغ فرج عنكم ما أنتم فيه من الضيق وأنه يمكنكم بعد هذا أن ترسلوا لنا ١٠ أو ١٥ جنيهاً لطبع كتاب الفظائع. فىا سيدى الأمير كنت عرضت لكم أن الذى يهمنى قبل كل شىء راحة بالكم وأن لا تحملوهما من جهة الكتاب فكفى ما تلاقونه فى هذا الدهر من غبن. الكتاب يا مولاي منذ أسبوعين أخذته ونزلت إلى بيروت. وبهمة الأخ رياض بك الصلح قد أمنا طبعه وهو الآن تحت الطبع بدون أن نرى حاجة لإخراج وضعيتكم فى هذه الظروف. وإنى لأعجز عن وصف الفضل الذى غمرنى به هذا الأخ المفضل السباق لكل مكرمة، لذلك أرجوكم أن لا تكلفوا أنفسكم بإرسال أقل شىء، وبعد أن يتم طبع الكتاب نقدمه لكم وأنتم تتولون توزيعه على من ترونه. وقد اتفقت مع الأخ رياض بك أن نطبع ١٠٠٠ نسخة على ورق جيد،

و ١٥٠ نسخة على ورق ممتاز، وأظن أن هذا القدر فيه الكفاية. هذه قضية الكتاب التى أشغلت بها جزءاً كبيراً من وقتكم الثمين قد انتهت بحمد الله . . . " .

وفى هذا الكتاب يشير السعداوى إلى توفيقه فى " تأليف لجنة فرعية للمؤتمر الإسلامى " أثناء وجوده فى بيروت، وأن لجنة فرعية كذلك قد صار تأليفها فى " دمشق من خيرة الرجال " .

ويقول: " وبما أن مكتب اللجنة قد اختارنى أن أكون مفتشاً لتشكيلات المؤتمر فى البلاد السورية ساحلا وداخلا، سأقوم بجولة فى جميع أنحاء البلاد لهذه الغاية إن شاء الله، وأملى وطيد أننى لا ألقى صعوبة فى هذا الأمر لأن الإقبال على هذا المشروع عظيم جداً . . " وسوف يأتى الكلام عن المؤتمر الإسلامى ودور بشير السعداوى فى هذا المؤتمر مفصلاً بعد الانتهاء من تدوين قصة كتاب الفظائع .

أما الأمير شكيب فقد تأخر فى الجواب على رسالة السعداوى، وكان سبب التأخير أن شكيب أرسلان كان يقوم برحلة فى بلاد البوسنة والهرسك ليزور أهل هذه البلاد من المسلمين ويقف على أخبارهم. وثمة سبب آخر، هو الاحتفال فى جنيف بدخول العراق (عصبة الأمم) كدولة مستقلة ذات سيادة بعد أن أعلنت معاهدة الملحالة الموقعة بين العراق وبريطانيا فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٢٠ استقلال العراق وانتهاء مسئوليات الانتداب البريطانى بمجرد دخول العراق عصبة الأمم، وتعهد بريطانيا بتأييد قبول العراق بهذه العصبة. واستطاع العراق بتوجه وزعامة ملكه فيصل الأول أن يحقق ما كان ينشده بعد ذلك بأكثر من عامين، فصار عضواً فى عصبة الأمم، وكان دخوله العصبة يوم ٣ أكتوبر ١٩٣٢، واحتفل العرب الذين كانوا بجنيف آنئذ بما أسماه الأمير شكيب " عيد دخول العراق فى عصبة الأمم " . وفى هذه الرسالة يتحدث كذلك صاحبها عن ترجمة كتاب الفظائع وعن بعض وجوه نشاط المؤتمر الإسلامى .

وهذه الرسالة صادرة من جنيف، بتاريخ ١١ تشرين أول (أكتوبر ١٩٣٢) وفيها يقول الأمير شكيب:

أخي الحبيب المحترم: تناولت كتابكم برجوعى من بلاد بوسنة والهرسك وإن كنت تأخرت عن المجاوبة، فما ذاك إلا لأن أمامى بدون مبالغة نحو مائتين وخمسين مكتوباً تستلزم الأجوبة، هذا فضلاً عن الكتب التى تحت الطبع، وبهذه الأيام الأخيرة فى جنيف كان عندنا عيد دخول العراق فى عصبة الأمم، فشغلنا بالوفد العراقى ولكنه كان شغلاً لذيذاً، لأننى من بعد الحرب العامة ما شعرت بسرور حقيقى مثل هذه المرة، إذ أنا أسمع فى الحلبة العامة من جمعية الأمم وزراء الدول العظام يطرون مآثر العرب ويذكرون فضلهم على المدنية، ويهتئون العراق على دخوله فى مصاف الأمم الحرة ويرجون لسائر العرب الذين تحت الانتداب مثل هذا التحرير.

اعذرونا إذا على إبطائنا فى الجواب... أشكركم على إراحتكم إياى من كلفة طبع الكتاب المتعلق بطرابلس، وأشكر الأخ رياض بك الصبح ولكن أرجو أن ترسلوا مائة نسخة من الكتاب أول دفعة لأجل توزيعها فى أوروبا، وفيما بعد ترسلون وأنا أقوم بكلفة التوزيع، كما أنى أدبت ٢٠٠ فرنك سويسرى لمترجم الكتاب إلى الإفرنسية.

مسألة اللجان الفرعية للمؤتمر، هذه مهمة جداً، لأن المؤتمر رأس جسده فروعاً وكلما كانت نامية كان المؤتمر مثمراً مباركاً ولا يزال المؤتمر يزكو وينمو إلى أن يصير له فى العالم الإسلامى الكلمة التى كانت للخلافة العظمى.

وبالاختصار يا أخى الأمم المستضعفة ليس لها حيلة إلا ثلاث: أولها التشكيلات، وثانيها التشكيلات، وثالثها التشكيلات، وهذه التشكيلات لا تنفع الأمة إلا بثلاث: أولها المال وثانيها المال وثالثها المال. وإن قلت لى: لا بد من الرجال أيضاً، أجيبك أن المال يأتى بالرجال. ومتى كانت صناديق اللجان الفرعية مملوءة وجدت الرجال تتزاحم على حياض المنايا ولا تبالى لأن

المفادى بنفسه يعلم أنه يوجد من يكافئه أو من يؤمن معيشة أطفاله ثم يعلم أن الخدمة التى سيقوم بها ستكون مقدرة وستكون برأى الأمة وهذا هو السر فى الجمعيات وفى الأثر الشريف "يد الله مع الجماعة".

كلما توقفت إلى تأسيس لجنة فرعية أرجو أن تبشرنى بذلك. ثم أخبرك بأنى رأيت السيد الطباطبائى - (والمقصود السيد ضياء الدين الطباطبائى رئيس حكومة إيران سابقاً وقد رشجته لجنة المؤتمر الإسلامى التنفيذية لأن يكون سكرتيراً عاماً لها (١٩٣٢) وكان يعمل فى الوقت نفسه سكرتيراً لجمعية ألفها الخديوى عباس حملى الثانى وقتذاك باسم الرابطة الإسلامية فى أوروبا، وكان الأمير شكيب يثق فى السيد ضياء الدين) - من خير من يوجد الآن للقيام بشئون المؤتمر بعد أن اطلعت على خلاصة المشروعات التى فكر فيها، فنسأل الله أن يأخذ باليد.

كثيراً ما سألوني إذا أنا فى بوسنة وهرسك عن أحوال طرابلس الغرب وما تلهفوا على إخوانهم الطرابلسيين وقد تفرى قلبى بما كنت أسمعه منهم وما رأيته من الشعور الحى الذى عندهم، ولعمري كنت من خمس سنوات فى أماركا (أمريكا) واجتمع العرب على فى كل ناد، وكنت منذ ثلاث سنوات فى الحجاز واجتمع العرب على وكانوا يسألوننى الأسئلة فى كل محفل ويقترحون أن أخطب وأن أطيل.

ومنذ سنتين تمكنت أن أذهب من أسبانيا إلى طنجة وتطوان واجتمع على العرب هناك أيضاً وجاءت وفود من الرباط وفاس ومكناس وكانوا يسألون الأسئلة نفسها، مما علمت منه أن شعور العالم الإسلامى واحد. ولكن كمل هؤلاء لم يكونوا أشد اهتماماً بالعالم العربى وبالعالم الإسلامى عامة من مسلمى بوسنة والهرسك مع أنهم أمة سلافية ولا يعرف العربية منهم سوى أفراد قلائل هم طبقة العلماء. فمن هنا يعلم الإنسان قوة قوله تعالى: "إنما المؤمنون إخوة" هذا ما لزم . . . أخوكم شكيب أرسلان.

وفى تشرين الثانى (نوفمبر ١٩٣٢) كتب شكيب أرسلان من جنيف إلى "أخيه البشير": "فى الحواشى الجديدة لحاضر العالم الإسلامى الذى سنجد طبعه هذه المرة فى أربعة مجلدات عملت فصلا لفظائع الطليان فى طرابلس، حررت منه إلى الآن ٢٥ صفحة، وأظننى أكمله ٤٠ صفحة. وقد نقلت فيه عن كتاب "الفظائع الحمر السود" صفحات برمتها.

والكتاب الذى يذكره الأمير شكيب فى رسالته هذه، هو كتاب (حاضر العالم الإسلامى) تأليف لوثر ستودارد الأمريكى Lothrop Stoddard الذى نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض. وجاءت به "فصول وتعلقات وحواش مستفيضة عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث" بقلم الأمير شكيب أرسلان.

صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٣٤٣ هـ، ١٩٢٥ ميلادية. وأما الطبعة الثانية التى اشتملت على الفصل الذى أعده الأمير شكيب عن الفظائع الإيطالية فى طرابلس برقة، فقد ظهرت فى سنة ١٣٥٢ هـ، ١٩٣٣ ميلادية. وجاء عدد صفحات الفصل أربعاً وستين بدلاً من الأربعين التى كان يريد الأمير شكيب كتابتها. والفصل بعنوان: (طرابلس الغرب وإيطاليا)، وقد نقل فيه الأمير شكيب فعلاً صفحات برمتها من كتاب (الفظائع السود الحمر).

وقد استمر الأمير شكيب يقول فى نفس رسالته هذه: وبهذه المناسبة جئت أسألك عن الترجمة الإفرنسية وأين صرتم فى طبعها؟ فحتى هذه الساعة لم ترد النسخ التى طلبناها. نحن نريد توزيعها تباعاً، فى أوروبا، ونريد أيضاً نقلها إلى مجلتنا لاناسيون على أربعة أو خمسة أعداد، ثم إنى بعد المذاكرة مع أخى (إحسان الجابرى) رأينا أنه بأى وجه كان يجب طبع ألوف من النسخة الإفرنسية وتوزيعها ولو ألجأ الأمر أن نجمع هذه الكلفة بالقرش والبارة، هذا لا بد منه".

وكذلك رأينا أن يترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية وإلى التركية وإلى

الفارسية وإلى لغة الأوردو الهندية وإلى لغة الملايو، ولو اقتضى ذلك وقتاً ومصاريف ترجمة وطبع.

إن الإهانات التي لحقت بالإسلام والعرب خاصة في طرابلس لم تلحق به إلا من أربعة قرون في الأندلس، ولكنها لا تقل عما حصل في الأندلس، وكما قال الأخ عبد الرحمن عزام في جريدة الجهاد: لماذا لا تبحثون عما حصل في الأندلس، فحادثة الأندلس بعينها، قد أعيدت في طرابلس الغرب، وهي جارية كل يوم إن سكت المسلمون عن هذه الفظائع أصلبهم مثلها في كل مكان، لأن الاستعمار مسيطر على ثلاثة أرباعهم. نعم إن صفالة الطليان لا توجد عند أمة في العالم، ولكن تفاوت الدرجات لا يمنع أن يكون عند سائر الأمم المستعمرة سفلة كثيرون يهينون المسلمين أضعاف ما أهانوهم إلى الآن. أما إذا رأى الطليان وسائر الأوروبيين أن المسلمين لم يسكتوا على هذه الفظائع ونشروها بجميع اللغات وألقوا عنها محاضرات وقاموا وقعدوا، فإيطاليا تعلم أن أعمالها صارت معلومة فتعتدل في طرابلس وسائر الدول المستعمرة تعلم أن هناك عالماً إسلامياً لا يزال حياً وأنه يحاسب.

يجب أن تنشر هذه الفظائع بكل اللغات الإسلامية وذلك ليعم الحقّد جميع المسلمين ويقاطعوا تجارة الطليان. فهؤلاء لا يشعرون إلا بالخسارة المالية. يجب أن تنشر هذه الفظائع باللغات الأوروبية الشهيرة، الإفريقية، والألمانية، والإنجليزية، والروسية، والإسبانية، لأن في أوروبا طبقات كثيرة من الأحرار والاشتراكيين والعملة والماسون. وغيرهم يكرهون الفاشيست كثيراً، فهذه تكون من جملة مطاعنهم على الفاشيست. فالحركة التي قمنا بها بإزاء الإهانات الفظيعة التي لحقت بالإسلام والعروبة في طرابلس كانت ضئيلة جداً بالنسبة إلى أهمية هذه الإهانات وإلى هذا الاستئصال الذي هو جار عياناً. يجب أن تتذكروا أنتم مغاربة سورية بمساع يمكنكم بها القيام بأعمال أعظم لأخذ ثأر الإسلام والعروبة. الذي حصل كان قليلاً جداً ولا يكفي لإشعار أوروبا، إن إهانة الإسلام إلى هذا الحد غير جائزة.

إنى عندما أتخيل ما جرى على مسلمى طرابلس وبرقة فى دينهم وعرضهم ودمهم ومالهم تمتنع عيونى عن الغمض ساعات طوالا من الليل وأقول: لا بد من الانتقام؛ لا علاج لهذا إلا بالانتقام. لنفرض المحال وأن جميع المسلمين رضوا بهذا الذل، فإننا نحن الاثنين هنا لن نرضاه، فنحن نساعدكم بدعاية خصوصية لتجمعوا دراهم تقومون بها بترجمة هذا الكتاب بسبع أو ثمانى لغات على الأقل وتوزيع أربعة أو خمسة آلاف نسخة من كل ترجمة. لكن عليكم أنتم وعلى سائر الطرابلسيين أن تسعوا وتعملوا.

ثم واصل لك (ولم يذكر الخطاب شيئاً عن هذا الواصل، ويبدو أنه الشفرة المرفقة بهذا الخطاب) وصولها فى جوابك على كتابى هذا، ومتى عرفتني وصولها يمكنني أن أكتب لك آراء أخرى والله يأخذ بيدنا جميعاً، لحفظ شرف الإسلام". وفى ورقة منفصلة كتب الأمير شكيب الشفرة بالصورة الآتية:

٥١، ب٩، ت٣، ث٦٧، ج٤٩، ح٣٥، خ٧٣، د٥٢، ذ٤٧،
ر٩٠، ز٨٠، س٧١، ش٧٤، ص٢١، ض٢، ط٤، ظ٨، ع١٠، غ٦،
ف١١، ق٧، ك١٩، ل١٣، م١٤، ن٢٤، هـ٣٢، و٨١، لا٩٩، ى٧٧.

وقد أجاب بشير السعداوى فى كانون أول (ديسمبر ١٩٣٢)، يذكر للأمير شكيب أنه أخذ كتابه "وطيه ورقة الأرقام" واستمر يقول: "وحمدت الله الذى أرانى فى شخصكم الكريم مصداق قول نبيه الصادق الأمين: (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق).

فيا سيدى الأمير: إن قضية طرابلس هى من القضايا التى يجب أن يعيرها المسلمون ما تستحقه من العناية والست أنظر إليها لمجرد أنها قضية تتعلق ببلادى فحسب، وإنما هى أحيان وسيلة لاستفزاز همم المسلمين وإثارة شعورهم ضد الاستعمار الإيطالى فحسب بل ضد كل مستعمر أجنبى إذ أن ما يأتية الفاشيست من معسف وإرهاق وما يهيئونه من وسائل لإبادة العنصر العربى وكسر شوكتة لهو بعينه مبدأ كل دولة استعمارية.

غير أن النزق الإيطالى والغرور الفاشيستي أيا إلا أن تكون أعمالهم لذلك المبدأ وتنفيذهم تلك الخطة فى جلاء وسرعة بينما غيرهم يعمل لهما فى بطاء وخفاء. لذلك يجدر بنا أن نتبصر لهذه الدسائس التى يراد بها القضاء علينا بحجة المدنية وخدمة الإنسانية خصوصاً وأن الفاشييست قد أفسحوا لنا المجالل وجعلوا لنا الوسيلة للتشنيع بالمستعمرين وهذه فرصة يجب على كل من يهتم بأمر المسلمين والعرب أن ينتهزوها ويعيرها من العناية ما تستحقه.

إننى يا مولاي كلما فكرت فى حال المسلمين فى هاتيك البلاد واستعرضت ما يحل بهم من ويلات وتدبرت فى نتائج السياسة الممقوتة التى تمشى عليها حكومة الفاشييست تكاد نفسى تفيض من الحزن. ولكن ماذا أصنع وقد تقطعت بى الأسباب وأعوزتنى الوسائل وضاعت بى الخيل عن إظهار ما يكنه صدرى من الأعمال التى تروع الإيطاليين وتردعهم عن غيهم.

وإننى أؤكد لكم بأن ليس لى هدف فى هذه الحياة غير مناضلة أولئك القوم الظالمين والوقوف لهم بكل مرصد.

وقد وليت وجهى عن كل ما فى الحياة الدنيا من متاع وملاذ وبالأخص عندما لا تساوى جناح بعوضة. وبالقللم العريض لو كنت أجد معونة من جهة من الجهات لا أتاخر لحظة عن العودة إلى الوطن من جهة الصحراء وعن القيام بتأليف جبهة أعيد بها الكرة على أولئك الطغاة الذين أهانونا فى ديننا وفى قرآننا وفى لغتنا وفى كل مقومات حياتنا.

ولكن أنى لى أن أصل إلى هذه الأمنية التى يتوق لها الفؤاد وتصبو إليها الروح قبل أن تفارق الجسد. ولو كنت أيضاً أجد أقل معونة لقمتم بجولة فى جميع الأقطار الإسلامية وأشنع بأعمال الفاشييست فى كل ناد وفى كل مجتمع.. وأعتقد أن مثل هذه الحركة تؤثر عليهم أسوأ تأثير.

ولنعد إلى ما تفضلهم به من لزوم ترجمة كتاب الفطائع إلى عدة لغات فذلك من أجل مقاصدنا وإنما الذى أخرنا عن القيام بهذا الواجب هو فقدان

المال. ولما كنتم مع سعادة الأخ (إحسان بك الجابري) ترغبون فى مساعدتنا بجاهكم فلا يسعنا إلا إسداء عظيم الشكر والامتنان لعنايتكما وإننا فى انتظار إرشادتكم فيما ترونه موصلاً إلى هذه الغاية. كنت عرضت لعطوفتكم أننا بعناية الأخ رياض بك الصلح قد أودعنا الترجمة الإفرنسية إلى الطبع وقد اتفقنا أن نطبع ١٢٠٠ نسخة وقد تم طبعها وقریباً نستلمها ونرسل لكم منها كمية وافرة أما ترجمة الكتاب باللغة الهندية فقد سبق أن تعهد لى أحد أمراء حيدر آباد بترجمته وطبعه على نفقته. وقد أرسلت له خمسين نسخة من النسخ العربية وذكرته بوعده. فأجبنى هذه المرة أنه سير بوعده.

أما "أحد أمراء حيدر آباد" الذى ذكره بشير السعداوى فى رسالته. فكان نواب بهادر يارجنك جاكير دار حيدر آباد الدكن، وكان السعداوى قد اجتمع به بدمشق. وتحدث إليه فى موضوع الفظائع الإيطالية، وفى مسائل إسلامية أخرى. أهمها (المؤتمر الإسلامى) الذى كان مزعماً انعقاده (فى عام ١٩٣١) فى القدس، وكان الأمير يارجنك من المتحمسين لقضايا الإسلام، والمهتمين بشئونه.

فلم يلبث السعداوى بمجرد الفراغ من طبع كتاب الفظائع أن بعث إليه به. وتودلت المكاتبات بينهما. وكان بعضها خاصاً بهذا الكتاب. فقد بعث إليه السعداوى برسالة فى ٢١ مايو ١٩٣٢ يبلغه فيها أن كتاب الفظائع قد تم طبعه ويرسل إليه أربعين نسخة منه ثم يطلب منه "حسب وعده" ترجمة الكتاب إلى اللغة الأوروبية.

فأجاب نواب بهادر يارجنك يشكر بشير السعداوى على إرساله الكتاب ويذكر أنه لا يزال ماضياً فى ترجمة كتاب الفظائع إلى الأوروبية، إلى جانب أنه أعطى مقتبسات منه إلى الجرائد الوطنية. وفيما يلى نص رسالته هذه:

من حيدر آباد دكن تحريراً فى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥١ هـ (وهذا يوافق ١٣ يوليو سنة ١٩٣٢ م) - من بهادر يارجنك بهادر حيدر آباد دكن (الهند).

إلى حضرة أخينا العزيز المحترم السيد بشير بك السعداوى رئيس جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى دام علاه.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام. أول السؤال عن عزيز خاطركم أرجو الله أن تكونوا بخير وعافية. وصلنا عزيز مشرفكم رقيم ١٦ محرم الحرام (٢٢ مايو) وأربعين نسخة معه أيضاً وصلت. نشكركم على ذكراكم لنا بعد الاستئذان منكم وخروجى من دمشق بقيت سياحتى كانت ثمانية أشهر فى البلاد الإسلامية ووجدت المسلمين فى كل البلاد يتغنون الرابطة الإسلامية ما عدا إيران وتركيا وساعين المسلمين فى ابتغاء رجل يمسك بأيديهم ويوصل بعضها ببعض وأنا متأسف على أنى ما كتبت لكم كتاباً قبل هذا لكن هنا عندى أشغال فى النظر تقابل بالعفو - دعانى للمؤتمر الإسلامى بالقدس صاحب السماحة السيد أمين الحسينى المفتى الأعظم للقدس لما كنت هناك.

وأيضاً كتب لى كتاباً ولكن أن آسف جداً غاية بأنى ما أمكننى الاشتراك لكثرة أشغالى المهمة وتعب السفر الماضى. وأمنعت نظرى فى حركات المؤتمر، أرجو من الله القوى القدوس أن ينجح مقاصد المسلمين المتحدة نجاحاً كاملاً - كنت (أوعدتكم) بترجمة كتابكم بالأردو فإنى ذاكره ومجتهد فى ذلك ولكن الأحوال السياسية التى فى الهند هذه الأيام - وبالخصوص حيدر آباد، أخذت على أوقاتاً كثيرة ولهذا حصل تأخير قليل لا مؤاخذه - وأعطيت مقتبسات من ذلك الكتاب إلى الجرائد الوطنية وأملى فيكم أن تبلغوا سلامى لشريككم شكرى بك القوتلى وعلى جميع الأحباب الذين حصل لى اللقاء بهم فى دمشق. أرجو من الله الكريم أن يجعل سعيكم مشكوراً ويعطى منكم المسلمين عقبى الخدمات العالية ويوفقكم لخدمة الإسلام والمسلمين لما يحبه ويرضاه والسلام - صديقكم خادم الإسلام والمسلمين بهادر يارجنك " .

وفى ١٥ ديسمبر ١٩٣٢، أجاب بشير السعداوى على كتاب الأمير

بهادر يارجنك، ونقل إليه رأى الأمير شكيب أرسلان فى وجوب ترجمة كتاب الفظائع إلى لغات عديدة، وشكره على اهتمامه بنقله إلى اللغة الأوردية أو "الهندية" فكتب البشير:

حضرة صاحب السمو الأمير الجليل مولانا يارجنك:

تحية واحتراماً. وبعد فقد تناولت بيد التعظيم كتابكم الكريم، فجاءنى كرسول يتلو على آيات الوفاء، وينبئنى عما لسموكم من العناية والاهتمام بأمور الإسلام والمسلمين. ولا غرو فإن البرهة القليلة التى سمح لى الدهر بالتشرف بلقىاكم قد تجلى لى فيها ما تجمع فى شخصكم الكريم من المزايا العالية والصفات النبيلة التى تركت فى نفسى أعظم أثر من التقدير والأمل الكبير بأنكم من الذين يغادرون على مصلحة الإسلام، ويرغب فى إعلاء شأنه بكل جرأة وإقدام.

تفضلتم - يا مولاي بأنكم ستبرون بوعدكم فى ترجمة كتاب الفظائع الإيطالية إلى اللغة الهندية فشكراً لكم على هذه العناية التى سيحفظها لكم الشعب الطرابلسى فى طيات قلبه، ويسلجها لكم فى تاريخ جهاده.

إن الشعب الطرابلسى المفجوع فى دينه ووطنه خليق بالمسلمين أن يعتموا بأمره وأن يعيروه كثيراً من العناية، لأن الدولة الإيطالية الغاشمة ما برحت تسومه سوء العذاب وتنزل به أشد العقاب، وهو ذلك الشعب الأبى الذى وقف فى وجوه الظالمين الغاصبين مدة إحدى وعشرين سنة وحاربهم الأبطال، حتى أنه ضحى بنصف عدده فى سبيل إعلاء كلمة الله ولم يخش الرغم ولا الموت الزؤام رقم قلة عدده وفقدان عدده.

إن الإيطاليين - يا سيدى الأمير - لم يكتفوا بما قتلوا من نفوس بريئة من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، ولم يشف ما فى صدورهم من غل ما غصبوا من الأرضين وما نهبوا من الأموال حتى أفقروا الغنى وأتربوا الفقير وجعلوا بلادنا مسرحاً لتمصيل أفطع الأدوار المحزنة، التى تتجافاها الوحوش

المفترسة، فكل ذلك لم يرضهم، بل إنهم أخذوا يسعون لإبادة ذلك الشعب المسلم عن بكرة أبيه لبطفئوا النر من تلك الربوع بعد أن كان فيها ساطعاً وضاء. إنهم قد صمموا على خطة بأن لا يتركوا فى تلك البلاد من يذكر اسم الله ولا من يدين بدين الإسلام وشريعة خير الأنام، ويفعلون ذلك ويتمشون على هذه الخطة ولم يراعوا شعور أربعمائة مليون من المسلمين.

وقد صرح وزير المستعمرات الجنرال ديونو فى مجلس النواب الإيطالى وملا شذقيه بقوله إننا شرعنا فى تعليم بضعة آلاف من أبناء الشعب الطرابلسى مبادئ الكتلكة والفاشيستية ليكونوا لنا جنداً فى المستقبل.

يقول ذلك وزير من وزراء الحكومة الفاشيستية بصورة رسمية ورجال الإسلام وأمرائهم وملوكهم نيام لا هون بملذاتهم وعروشهم وفروشهم. إن هذه الطعنة النجلاء التى يوجهها طغام الفاشيست، لم تكن موجهة إلينا معشر الطرابلسيين، وإنما هى موجهة إلى قلوب المسلمين جمعاء.

لمثل هذا يموت القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

أؤكد فى طرابلس سيصبحون أثراً بعد عين، لأن فاجعة الأندلس، التى لم تزل جروحها دامية فى القلوب تمثل بعينها فى بلادنا إذا لم تقل بصورة أقطع وأشد هولا، فكيف يصبر على هذا الأذى وينام على هذا القذى من فى قلبه ذرة من الإسلام.

إنى آل جهداً فى نشر هذه القضية وفى استلفات نظر المسلمين إلى ما يراد بدينهم من هؤلاء، وإذا لم تكف هذه التذكرة. فسأقوم بجولة فى الأقطار الإسلامية ستفز الهمم وأدعو من تنفعه الذكرى، لأتخلص من إثم كتمان ما أعلمه، من ضرر سحيق بهذا الدين بإفناء قطر من سكانه المسلمين.

وإن الكتاب الذى أرجو من سموكم الاهتمام بترجمته إلى لغة الأردو، قد ترجمناه إلى اللغى الإفرنسية وقريباً سيتم طبعه، وإننا بمعونة الله تعالى

مصممون على ترجمته باللغة الإنجليزية والألمانية والإيطالية والروسى والتركية والفارسية والملايو؟ ونطبع من كل لغة بضعة آلاف نسخة لنوزعه فى الشرق والغرب لنحيط العالم علمًا بما يقتضيه وحوش الإيطاليين من آثام ترتعد منه الفرائض ليتبينها المسلمون فبتتقموا ممن يكيدوا لهم كيدًا. وقد تلقيت فى هذا الأسبوع من سمو الأمير شكيب أرسلان كتابًا جاء فيه:

إنى بعد المذاكرة مع زميلى إحسان بك الجابرى رأينا أنه بأى وجه كان يجب طبع ألوف من النسخة الإفرنسية وتوزيعها ولو ألبأ الأمر أن نجتمع هذه الكلفة بالقرش الواحد وقال بعد أن ذكر لزوم ترجمة الكتاب إلى لغات عديدة، الإهانات التى لحقت بالإسلام فى طرابلس لم تلحق به إلا من أربعة قرون بالأندلس ولكنها لا تقل عما حصل فى الأندلس. وقال: "إن سكت المسلمون عن هذه الفظائع أصابهم مثلها فى كل مكان، لأن الاستعمار مسيطر على ثلاثة أرباعهم.

وقال: "إذا رأى الطليان وسائر الأوروبيين أن المسلمين لم يسكتوا على هذه الفظائع ونشروها بجميع اللغات وألقوا عنها المحاضرات وقاموا وقعدوا فإيطاليا تعلم أن أعمالها صارت معلومة فتعتدل فى طرابلس" إلى أن قال: إن إهانة الإسلام إلى هذا الحد غير جائزة. إنى عندما أتخيل ما جرى على مسلمى طرابلس وبرقة، فى دينهم وعرضهم ودمهم وما لهم تمتنع عيونى من الغمض ساعات طوالا من الليل وأقول لابد من الانتقام لا علاج لهذا إلا بالانتقام.

لنفرض المجال وأن جميع المسلمين رضوا بهذا الذل فإننا نحن الاثنين لن نرضاه. فلو وجد - يا مولاي - فى كل قطر بضعة أشخاص أمثال هذا المسلم الصادق العزيمة، لكفونا المثونة فى مكافحة الاستعمار الغاشم ولأوقفوا الظالمين عند حدهم، ولا إخالهم إلا موجودين وفى مقدمتهم سموكم. وقد كتبت لسمو الأمير شكيب، عن شخصكم الكريم، وبينت له أنكم سترجمون الكتاب وبسطت له مزاياكم السامية".

وكان بشير السعداوى، قد بعث بوضع نسخ من كتاب (الفظائع السود الحمر) إلى صاحب جريدة إقدام بطهران، ووعد صاحب إقدام بترجمته إلى اللغة الفارسية، فكتب إليه ثانية فى ٢٢ ديسمبر (كانون أول ١٩٣٢) بنفس المعنى الذى كتب به إلى الأمير بهادر يارجنك.

على أنه إلى جانب ذلك كله، قد تبودلت الرسائل الكثيرة بين بشير السعداوى وبين موطنيه المتغربين فى مختلف الأقطار التى هاجروا إليها، وهى رسائل تروى كذلك شيئاً عن قصة كتاب الفظائع السود الحمر، بينما تساعد رسائل السعداوى خصوصاً على توضيح الأغراض التى توحى تحقيقها من تسجيل (الفظائع) والمعانى التى انطوى عليها تسجيلها، ويقول آخر فإنها تساعد على فهم (فلسفة الدعاية) التى صدر عنها (كتاب الفظائع). ثم إنه مما يؤخذ من بعض ما جاء بهذه الرسائل أن النية كانت متجهة إلى إخراج (حلقة ثانية) من سلسلة (الفظائع) وطلبت لجنة (تسجيل الفظائع) من الذين تراسلت معهم أن يمدوها بما لديهم من معلومات عن فعال الطليان فى طرابلس برقة.

أضف إلى هذا أن بعض هذه الرسائل توضح الأثر الذى أحدثه بين المهاجرين الليبيين خصوصاً إصدار كتاب الفظائع، كأحد مظاهر نشاط اللجنة التنفيذية، التى كانت قد تحولت - فى ظروف سوف يأتى ذكرها - إلى ما صار يعرف باسم جمعية لدفاع عن طرابلس برقة، وبزعامة بشير السعداوى نفسه.

وأول المجموعة التى نبغى نشرها، مرتبة ترتيباً زمنياً، رسالة من المدينة بالمنورة بتاريخ ١٧ صفر ١٣٥١ الموافق يونيه ١٩٣٢ صاحبها فهمى الحشانى، يتحدث فيه عن الأثر الذى تركته فى نفسه قراءة كتاب الفظائع:

لقد اهتزت أعصابى، لما أن قرأت كتابكم الخاص المفعم إخلاصاً والمملوء تاريخاً، مجيداً، ولقد بلغ بى الحماس أشده، كيف لا وأنا أرى العظمة والتاريخ المجيد فى طيات هذه الصفحات. فشكراً لكم عن الأمة والمبدأ المقدس، الذى تضحون من أجله". ثم ينشئ يقول:

إن الرجل - يا مولاي - الذى استطاع أن يصل إلى مرتبة الزعامة ويتربع على كرسيها بالإخلاص فى العمل ليس فى استطاعة أى قوة إنزاله عنه. ذلك شأن العظمة وسر العبقرية، ففى استطاعة الزعيم ، ينزل نفسه وليس فى وسع أحد إسقاطه. فسر على بركة الله أيها الزعيم المحبوب وكلنا هاتفون "فليلجأ الزعيم".

مولاي: إن عظمتكم ومجدكم هذا ليس وليد شئ غير الإخلاص فى أعمالكم البيضاء التى سجلها لسعادتكم التاريخ بمداد الفخر والإعجاب فبخ بخ أيها الزعيم المخلص". ولما كان السعداوى قد بعث إليه بعدد من نسخ كتاب الفظائع ليقوم بتوزيعها على رجالات الحجاز فقد فعل الحشاني ذلك، وأرفق برسائله قائمة بأسماء الذين تسلموا الكتاب، وكانوا ثمانية عشر منهم العالم والمدرس والتاجر بالمدينة المنورة ومكة المكرمة وجدة. ومنهم رئيس الشبيبة بالمدينة المنورة ورئيسها بجدة وزميله بمكة، ثم رئيس تحرير صوت الحجاز بمكة ومحررها، ومدير مطبعة ومكتبة بالمدينة المنورة، ومدير اللاسلكى بها، والسيد محمد سرور الصبان (رئيس الكتبة بالمالية العامة ورئيس الشبيبة بمكة المكرمة). وقد طلب أحد تجار المدينة المنورة. الشيخ زين العابدين بغدادى نسخة ثانية "لأجل إرسالها إلى حضرموت"

وفى ٥ أكتوبر ١٩٣٢ كتب بشير السعداوى رسالتين إحداهما إلى السنوسى بن صالح فى السلط شرقى الأردن، وهو من الطرابلسيين الذين استقر بهم المقام هناك، والثانية كانت موجهة إلى "الأمير إدريس" وإلى كل من السادة: أحمد المريض، وأحمد شتوى (السويحلى) والشيخ عبد الرحمن الزقلعى وجميعهم بالقطر المصرى. أما فى رسالته إلى السنوسى بن صالح فقد شرح السعداوى السبب فى كتابة (الفظائع) بقوله:

نسمع يا سيدى الأستاذ، أصوات طلب الحرية والاستقلال تتعالى فى كل قطر من الأقطار العربية، وأن تلك الأصوات التى تخرق الفضاء، لا بد أن

يكون لها أثر على توالى الأيام، لذلك نرى أن نضم صوتنا إلى تلك الصيحات المتصاعدة فى كل أفق، كى لا تكون فى مؤخرة القوم الذين يصبون إلى بلوغ الأمنى القومية". وفى رسالته هذه، كذلك ذكر السعداوى أن كتاب (الفظائع السود الحمر) قد ترجم إلى اللغة الفرنسية، وقد تم طبعه وسوف يبدأ توزيعه ونشره فى أوروبا "ليطلع رجال الغرب، على ما تقترفه حكومة الفاشيست فى العصر المسمى فى عرفهم بعصر المدنية والنور".

كما أبلغه أنه تلقى كتاباً من "أحد أمراء الهند (يخبره) فيه أنه شرع فى ترجمة كتاب الفظائع الذى (أرسله) له والذى كان (وعده) بترجمته إلى اللغة الأوردية وطبعه على نفقته حين زيارته دمشق فى السنة الماضية". وقد كتب أن "رجلاً من فارس، هو صاحب جريدة إقدام بطهران قد (وعده) بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية على نفقته". وأخيراً أبلغ السعداوى موطنه أن يعتزم مع إخوانه إصدار (حلقة ثانية) من (كتاب الفظائع السود الحمر)، الذى وعد بنشره ويقول:

إنه طلب من بعض الإخوان أن يساعده على جمعه، فإذا كان فى ذاكرتكم شىء مما اقترفه أولئك الوحوش (الفاشيست) قديماً أو حديثاً من الفظائع وعرفتمونا نكون لفضلكم من الشاكرين".

أما الرسالة التى بعث بها السعداوى إلى الأمير محمد إدريس، وإلى الثلاثة الآخرين الذين ذكرناهم فإليك نصها:

تحية واحتراماً. فإنه من مدة غير قصيرة قد حصلت بيننا فترة فى أمر المراسلة وإن كنا نحن لم نزل نوالى العمل فى خدمة القضية بلا توان ولا ملل، وإنما لا يعزب عن فكركم أننا فى محيط بعيد عن استنشاق حوادث بلادنا المنكودة الحظ، بخلاف القطر المصرى المجاور ولذلك ترونا نشرئب إلى ما يتصل بكم من الأخبار عن تلك الديار، وإننا فى هذه الآونة الأخيرة، قد وفقنا والحمد لله إلى ترجمة كتاب (الفظائع السود الحمر) إلى اللغة الإفريقية، وقد تم طبعه أيضاً وسنباشر توزيعه ونشره.

ولا يخفى عليكم أننا قصدنا من ترجمة هذا الكتاب، أن يطلع عليه رجالات الغرب، ولذلك سيكون معظم انتشاره في الأوساط الأوروبية لكي يحيطوا علماً بما تقتضيه الحكومة الفاشيستية من الجرائم والآثام في هذا العصر الذي يسمونه عصر النور والمدنية، ليعلموا قيمة تلك الحكومة الغاشمة التي تعد نفسها في مصاف الأمم الراقية، والتي لا يخجل رجالها عندما يتجهجون في قاعات المؤتمرات الدولية بزغبتهم في السلام العالمي حرصاً على سلامة البشرية، كبر مقتاً عند الله والناس أن يقولوا ما لا يفعلون".

ثم إن هذا الكتاب كنت التمسيت من أحد أمراء الهند عند زيارته دمشق أن يعيننا على ترجمته باللغة الهندية فوعدني بذلك. ومن بضعة أيام أخضت منه كتاباً بعد عودته أنه سيبير بوعده في ترجمته وطبعه وتوزيعه على نفقته. ومتى وردت إلينا نسخ مترجمة باللغة الأردنية نقدم منها لكم.

وكذلك أحيينا أن يكون هذا الكتاب، مترجماً باللغة الفارسية، فكتبت إلى أحد الرجال البارزين في طهران ورجوت منه ترجمته فأجابني أيضاً بالموافقة وأن يطبعه ويوزعه في بلاده على نفقته.

هذا وإننا أخذنا نجتمع فظائع أولئك الجناة لنؤلف كتاب الحلقة الثانية مدللاً ببعض صور الفظائع الشمسية التي استحضرتها والتي وعدنا بنشرها ولا بد أن نبر بوعدنا إن شاء الله. ولذلك نرجو من فضلكم أن تغيروا هذه المسألة شيئاً من عنايتكم وتعدونا بما وصل لأسماعكم قديماً أو حديثاً من الفظائع التي مثلت في شعبنا - وما أكثرها علي من أراد حصرها - وتعرفونا بذلك ولا مخالفكم تضمنون علينا بهذه المساعدة التي تعد من أكبر الخدمات لوطننا وشعبنا البائس. ولذلك فإنني أرجوكم بكل ما في الكلمة من معنى أنكم تساعدونا في جمع هذه الفظائع التي لم يخل ذهننا من سماعها.

وقد كنا كتبنا إلى فروع جمعيتنا في تونس (والمقصود هنا الفرع الذي تأسس في تونس منذ ١٩٣٤ وسيأتي الكلام عنه على حدة) فأخذ رجاله

يهتمون بذلك، وقد اتصل بنا أحد رجال ذلك القطر يهتم بقضيتنا، فنتيجة المخابر، قد توفق ذلك الأستاذ لوضع كتاب فى قضيتنا وها هو يأتىكم برنامج من محتوياته وهو مهياً للطبع ويطلب منا الاشتراك والمساعدة، وهى قيمة زهيدة، عبارة عن عشرة فرنكات إفرنسية، يعنى معدل عشرة قروش مصرى. وقد شرعنا لنكتب، لنرسل له ما يمكننا جمعه لطبع هذا الكتاب، جزى الله صاحبه أحسن الجزاء.

إن قضيتنا يا سيدى - الأمير، أو الأستاذ. أو الأخ - تحتاج إلى كثير من العناية خصوصاً بعد أن أصبحت من القضايا المنتشرة فى الآفاق، لذلك يجدر بنا أن تقوى عزائمنا وان لا يتطرق إلى قلوبنا فى سبيل نشيرها فتور خصوصاً وأنه فى القريب العاجل، سينفصح لنا مجال وساحة للعمل فيها، وذلك بمناسبة المؤتمر العربى الذى يعقد، (والإشارة هنا إلى "مؤتمر عربى" كان فى العزم إقامته فى العام الذى يلى انعقاد المؤتمر الإسلامى الذى كان قد انعقد فى القدس سنة ١٩٣١، وحصل فى أثنائه أن اتفق العرب على عقد (مؤتمر عربى) لبحث قضاياهم، وانتخبوا لجنة تنفيذية للتحضير لعقد المؤتمر على نحو ما سيأتى بيانه فى موضعه). وسأحضره إن شاء الله لأجل أن تكون قضيتنا من القضايا المهمة التى سيعالجها هذا المؤتمر. وإننى على اتصال مع الرجال الذين يعدون العدة لعقد هذا المؤتمر. ولا بد أنكم تقرأون فى أمهات الصحف ما يكتب عن هذا المؤتمر. والأهمية التى توجهها الدول لهذا الاجتماع الذى سيكون له شأن عظيم فى عالم السياسة.

هذا ما أردت أن أضمنه هذه العجالة راجياً أن لا تقطعوا عنا مخابرتكم المزودة بالأخبار والآراء السديدة. وفقنا الله وإياكم لخدمة البلاد ونفع العباد إنه ولى التوفيق.

والجديد الذى ذكرته هذه الرسالة إلى جانب الحديث عن (المؤتمر الإسلامى) المزمع عقده، والذى لم يمكن اجتماعه وقتئذٍ - وهذا خلاف

المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فعلا فى القدس فى العام السابق - نقول إن هذه الرسالة تتحدث عن كتاب جديد يعترم أحد أدباء التونسيين إصداره عن ليبيا، وكان السعداوى قد أبلغ كذلك السنوسى بن صالح فى الرسالة التى كتبها فى نفس التاريخ (٥ أكتوبر ١٩٣٢)، بنبا هذا الكتاب فقال:

كان بينى وبين أحد أدباء تونس، وهو على بن الحارث مكاتبه. وأخيراً تلقيت منه بشرى، تتضمن مواضيع الكتاب الذى هياه للطبع، وها إننى أقدم لسيادتكم منها نسخة لتحيطوا بذلك علماً، وإننا بدورنا أخذنا أن نكتب لمعاونة الرجل على طبع هذا الأثر الذى يتعلق بقضيتنا.

أما (المكاتبه) التى يشير إليها السعداوى فى رسالته السابقة الذكر، فهى صادرة من (تونس) المهدية فى ١٢ ربيع الأنور ١٣٥٠، و ٢٧ يوليه ١٩٣١، وإليك نصها:

حمداً وصلاة وسلاماً. حضرة المجاهد الكبير والشهم الخطير السيد البشير السعداوى رئيس اللجنة التنفيذية للجانليات الطرابلسية البرقاوية. سلاماً واحتراماً - قد تشرفت بكتابكم الكريم، وسررت جداً للاهتمام بتأليفى رغم بساطته ونى وأيم الله لثلوج الفؤاد من هذه الرابطة الأدبية الجميلة التى تكونت بيننا، رابطة لا أشك فى متانتها مدى الدهر، يرجع الفضل فيها لأمرى البيان السيد شكيب أرسلان أبقاه الله. والله أسأل أن يطيل حياة الجميع الذب عن الملة والدين وأن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه إنه عليل ما يشاء قدير.

والجواب عنه هو: لا يمكنى بحال من الأحوال أن أبعث لكم بنسخة من كتابى الذى وضعته بعنوان "الحرب الطرابلسية وفضائلها" لأعذار شرعية منها اهتمامى بنشر وطبع وترويج كتاب آخر الواصل لكم طى هذا برنامجى (وكى الرسالة برنامج فعلا مطبوع لكتاب بعنوان: (نور الموحدين فى بيان روح الإسلام ونقد آراء الملحدین لمؤلفه محمد الشافعى بن محمد النفطى ولناشره على بن حارث بالمهدية). ولا يعزب عن جنابكم أن نسخة كهذه

تتطلب وقتًا طويلاً خصوصاً وأن لا معين لى فى هذا العمل سوى الله يبحانه وتعالى. إنما بمطالعتكم على برنامججه الموجه لكم صحبة هذا تتجلى لديكم حقيقة الكتاب.

وعلى كل حال حيث كان الإنسان ضعيفاً بنفسه قوياً بأخيه. وحيث كنتم - والحق يقال - أكثر منى خبرة وإطلاعاً فى هذا الموضوع، فقد أوقفت طبع الكتاب ريثما أحظى من لديكم بنسخة من كتابكم أطلع عليها حتى لا نختلف فى الكتابة وحتى لا يجد العدو - كما أشرنا فى كتابكم - مستنداً عليه فى انتقادنا. هذا ما عن لى ملاحظته لكم والمؤمل منكم توجيه النسخة فى أقرب وقت ممكن. وتفضلوا - أيها المحترم - بقبول فائق احترامات المخلص على الدوام: على بن الحارث".

وفى ورقة مرفقة، كتب على بن الحارث عنوان الكتاب، والموضوعات التى يتناولها على النحو الآتى: "برنامج الكتاب على سبيل التقريب. اسم الكتاب: الحرب الطرابلسية وفضائعها.

- ١ - المقدمة تبحث فى المسألة الشرقية تمهيداً للاحتلال.
- ٢ - رحى الحرب. ٣ - بسالة ووطنية الطرابلسيين.
- ٤ - نبذة عن عوائدهم وأخلاقهم.
- ٥ - السياسة الفاشيستيّة داخل إيطاليا وخارجها.
- ٦ - موقف أوروبا وجمعية الأمم نحة المسألة الطرابلسية.
- ٧ - دور الفضائع. ٨ - تأثر العالم الإسلامى واحتجاجاته.
- ٩ - أقوال الصحف فى شأن الفضائع الإيطالية.
- ١٠ - أقوال وآراء عظماء الكتاب فى المسألة الطرابلسية.
- ١١ - معاملة الأسارى عند الفريقين.

وقد بقى علينا أن نقول: بالرغم من أهمية هذا الكتاب فى عالم الدعاية ضد الطليان كدليل على الاحتجاج على فظائعهم، لم يكن مقصوراً على "المشرق" حيث اتخذ به بشير السعداوى وصحبه مقر نشاطهم، بل امتد حتى بلغ "المغرب" وذلك حتى قبل أن يرتكب الطليان فعلتهم الشنعاء بإعدام الشهيد السيد عمر المختار، وبالرغم من الاهتمام الذى بدا من جانب بشير السعداوى، الذى ذكر فى رسائله لإخوانه المجاهدين، أنه فتح مع صحبه باب الاكتساب، وطلب إليهم أن يفعلوا هم أيضاً ذلك لمعاونة مؤلف الكتاب على طبعه ونشره، فإن كتاب (الحرب الطرابلسية وفظائعها) المنتظر لم يصدر أصلاً.

ولعل السبب انهماك بن الحارث نفسه، فى طبع ونشر مؤلفه الآخر (نور الموحدين . .) أو أن السعداوى وصحبه كانوا بدورهم مشغولين بطبع وترجمة كتاب (الفظائع السود الحمر) وتوزيعه، أو غير ذلك من الأسباب.

ويبدو أن شهر أكتوبر من عام ١٩٣٢، كان فترة نشاط كبير، للترويج لكتاب الفظائع، لتأمين ذبوعه وانتشاره بأقصى ما يمكن من ذبوع وانتشار، كشرط ضرورى لنجاح الغرض الذى وضع هذا الكتاب من أجله، وهو شديد النكير على الطليان، والتشهير بأعمال الفاشيست، فى مشارق الأرض ومغاربها.

فإلى جانب الرسائل التى سبق ذكرها، كتب بشير السعداوى بتاريخ ٩ تشرين أول (أكتوبر ١٩٣٢)، إلى حسين أفندى سياله - من المهاجرين الطرابلسية المقيمين بتونس - ينقل إليه خبر ترجمة كتاب الفظائع إلى اللغة الفرنسية، وانتظار ترجمته كذلك إلى الهندية والفارسية، ويشكره على ما زودوه به "من الحوادث على قطرنا المنكود الحظ" يرجو منه المزيد، حيث قد أخذ السعداوى وصحبه يجمعون مادة لإصدار الحلقة الثانية من كتاب الفظائع من أجل "متابعة نشر الفظائع التى يقتربها الفاشيست فى بلادنا"، الأمر الذى

جعله يكتب إلى " بعض الإخوان فى المهجر أن (يمدوه) بما اتصل بهم منها " . وفى هذا الخطاب يوضح السعداوى الغرض من تسجيل هذه الفظائع ونشرها ، فيقول : " وإذا كنا على علم بما يجرى هناك من الظلم والإرهاب ، يمكننا أن نرفع صوتنا ونسمع العالم ظلامتنا التى ما برح الفاشيستيون يوالون ظلمهم الذى لا قبل للبشرية بتحملة فى شعبنا البائس " إننا - كما تعلم يا أخى - لم نزل نكافح بأقلامنا وننشر فظائع الفاشيست فى كل مناسبة وفى كل فرصة تسنح بعزيمة لا تعرق الملل وقوة لا يعترىها كلل . . ونبذل جهدنا (فى تعميم كتاب الفظائع) فى أوروبا ، ليعلم العالم الغربى ، قيمة وحوش الفاشيست الذين يعدون أنفسهم فى ماف الأمم الراقية . . .

إن هذا النوع من الجهاد الذى خصنا غماره ، سثابر على السير فيه ما دام فينا عرق ينبض ، وقلب يخفق ، وأملنا فى الله وطيد بمعونة الله ، ومعاضدة أمثالك من الإخوان المخلصين ، ستبرهن لأعدائنا أننا شعب لا يصبر على الضيم ، ولا ينام على ما يراد به من حيف ، وأنه لا يفتر عن المطالبة بحقوقه المغصوبة وحريته المسلوبة . إن الدماء التى سفكت فى سبيل الله والعزة القومية ، لمن أكبر العار وأعظم الشنار ، إذا لم نثار لها . لذلك فموالاة النضال أمر يحتمه الواجب " .

وقد اختتم السعداوى رسالته هذه مخاطباً حسن سيالة بقوله : " وإننى وإن كنت لم أعرفك شخصياً ولكننى من روح كتبك توسمت فيك النجابة وصدق الوطنية ، ولذلك يمكننى أن أقول إن لنا فيك خير عضد وأكبر مساعد فى تمشية قضيتنا ، وآمل أن لا تقطع عنا مراسلتك مع ما لديك من الأخبار بارك الله لنا فيك ووفقنا وإياك إلى ما فيه نفع الأمة ودمتم بخير وسلام " .

وكتب السعداوى فى نفس الوقت (٥ أكتوبر) إلى غير هؤلاء . كتب إلى السيد مصطفى بدر الدين ، وهو جزائرى الأصل ، كان يشغل وقت الاحتلال الإيطالى منصب مدير جمارك بنغازى ، ثم هاجر إلى الحجاز حيث صار

يشغل به مثل هذا المنصب. وقد بعث إليه السعداوى بكتاب الفظائع، وأخبره بكل ما يتعلق بترجمة وطبع الكتاب ونشره على غرار ما فعل مع الآخرين الذين كتب لهم فى هذا الموضوع.

وفى شهر ديسمبر من نفس السنة (١٩٣٢) كتب السعداوى يرد على رسالة جاءت من اثنين من مواطنيه بالمدينة المنورة هما السيدان: فهمى الحشاني، ومحمد زيدان، وقد نقل إليهما فى جوابه هذا - بتاريخ ١٩ كانون أول (ديسمبر ١٩٣٢) - خبر قانون التجنيد الإجبارى، الذى طبقه الإيطاليون على أهل البلاد العرب. ولكنه يشد من عزيمتها، ثم يحدثهما عن كتاب الفظائع. وهذه الرسالة تشرح كذلك آراء السعداوى، وإن شئت "فلسفته" فى الكفاح ضد العدو، والسهر على قضية الوطن، وهى "الفلسفة" المسؤلة أيضاً عن صدور كتاب الفظائع. كتب السعداوى:

بعد إهداء السلام الأتم، الأ"يب الأعم، عليكما ورحمة الله وبركاته. لقد تلقيت كتابكما المشترك، وحمدت الله على دوام صحتكما. وإننى قبل كل شيء أستميحكما العذر فى تأخير الجواب إذ لم يكن ذلك عن قصد ولا إهمال، وإنما نشأ عن تغيبى عن دمشق مدة غير قصيرة، ومشلكما من يقبل عذر من يلتمس العذر.

ولكن الأمر الذى أود أن أستلفت إليه نظركما، هو أنه لا يخطر ببالكما أن أسفارى وترحالى فى غير سبيل قضيتنا، التى أصبحت شغلى الشاغل، التى لا تلهينى عنها المشاغل. وإننى وإخوانى - والحمد لله - نسير فى تتبعها بعزيمة لا تعرف الملل، وقوة لا يعتورها خور ولا كلل، لأن قضية بلادنا أيسر من القضايا التى يجوز أن نتغاضى عن تعقبها لحظة واحدة. نعم إن جل البلاد العربية هى تحت سيطرة الأجنبى وإن تنوعت الأساليب والأسماء فى معجم السياسة، فكل ذلك تسلط واغتصاب صريح. اتخذت الدول من قوتها لهما مبرراً.

بيد أن ما أصبنا به معشر الطرابلسيين من غارة الإيطاليين على بلادنا لا يقاس عليه فمصائبنا عظيم، وخطبنا جسيم. إننا قد أصبحنا على يقين، بأن الحكومة الإيطالية، قد وطدت العزم على إفناء شعبنا وإبادته بكل الوسائل، لتستبدل به من ضاقت بهم أرضهم من أبناء أمتها المتشردين فى الآفاق. وقد وقفنا بتبئنا على نياتهم السيئة فى هذا المعنى، ومنها قانون التجنيد الذى سنوه أخيراً، وهو يقضى بأخذ كل فرد من أبناء الشعب بلغ سن السادسة عشرة إلى سن الستين. وهذا معناه القضاء المبرم على شعبنا البائس الذى أوقعه نكد الطالع بين برائن أولئك الوحوش المفترسة الذين لا يرقبون فينا إلا ولا ذمة.

ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون، وإن أملى لهم اليوم إنما يملئ لهم ليزدادوا إيماناً والله شديد الانتقام.

إننا رغم كل ما تلاقيه من صروف الدهر وأحكام القهر يجب علينا أن لا نفتر لنا عزيمة، ولا تخور لنا قوى لأن هذا الطغيان الذى يلاقيه شعبنا وبقية الشعوب المغلوبة على أمرها قد أصبح زوال عهده بين عشية وضحاها يوم تتفجر براكين الفتن فى الغرب فتدور عليهم دائرة السوء . . (ذلك بما كسبت أيديهم وبما كانوا يظلمون). وهذه الفتن مهما أرادوا أن يتقوا شرورها فلن يجدوا لذلك سبيلاً. وفى ذلك اليوم الذى نراه قريباً نحاسبهم الحساب الشديد. إن هذه المصائب التى حلت بنا قد جعلت لأولى البصائر منا دروس عبرة وأيقظت النيام من مزعجات الأحلام. فالأمة التى تتطلب الحياة لن تموت ولو صب عليها من السماء وابل المنون.

فشعبنا الذى وقف طيلة هذه المدة فى وجوه الأعداء رافعاً راية الإيمان سيجنى بمعونة الله ثمرة جهاده. إنما يجب علينا العمل، يجب علينا السعى وأن لا نترك وسيلة ونقف لأعدائنا بكل مرصد وننتهز الفرص والله لا يضيع عمل عامل.

كتاب الفظائع الذى قدمنا لكما منه النسخ العربية قد وفقنا لترجمته باللغة الإفرنسية وطبعناه وسنباشر توزيعه قريباً (؟) ثم إننا عزمنا بحول الله

وقوته على ترجمته إلى بقية اللغات: الإنجليزية ولاروسية والألمانية والإيطالية. وقد تعهد لنا أحد رجالات الهند بترجمته إلى الأوردية وطبعه على نفقته، كما تعهد لنا أيضاً أحد الأفاضل من الفرس بترجمته إلى اللغة الفارسية، وإننا نسعى فى كل ما يجب عمله من دعاية ونشر، وما يلزم للطوارئ وما توفيقنا إلا بالله . . . "

ولقد كان فى أثناء المراسلات التى دارت بسبب كتاب (الفظائع السود الحمر): إرسال الكتاب إلى المواطنين بالمهجر، وإبلاغهم ما تم بشأن ترجمته وتوزيعه، ورجاء المواطنين أن يبعثوا إلى " لجنة تسجيل الفظائع " بدمشق بكل ما يكون لديهم من معلومات عن فظائع الطليان " قديماً وحديثاً " لاستصدار " حلقة ثانية " فى سلسلة هذه الفظائع - نقول إنه كان فى أثناء المراسلات الخاصة بهذه المسألة أن عرضت مشكلة ناجمة عن طلب بعض أفراد الجالية الطرابلسية (الليبية) فى القطر المصرى " التفاهم مع الحكومة الفاشيستيّة "، كان الواجب يقتضى المبادرة بوضع حل سريع لها حتى لا يتسرب الفشل إلى صفوف المهاجرين فى مصر. فقد كان من أثر حملة الاحتجاج الشديدة على الفظائع الإيطالية التى قادها السعداوى مع صديقه الأمير شكيب، أن عنت الحكومة الإيطالية إلى محاولة إضعاف تكتل الوطنيين المجاهدين فى المهجر باستمالة فريق منهم إلى الانقضاى من حول بشير السعداوى وجماعته، وإغراء هذا الفريق بالعودة إلى الوطن، فى نظير أن يصدر الطليان عفواً يشمل الذين يعودون فعلا إلى بلدهم، وبذلك يستطيع الطليان أن يتخذوا من عودة المهاجرين إلى أوطانهم دليلاً على كذب الدعاية التى يروجها ضدهم السعداوى، وبرهاناً ساطعاً على أن الفظائع التى صدر بها كتاب السعداوى ولجنته، إنما هى قصة ملفقة ولا وجود لها إلا فى ذهن ناشرى هذا الكتاب، وإلا لما جرؤ نفر من المهاجرين، المعروفين بأنهم من أعداء إيطاليا أن يعودوا إلى ليبيا، دون أن يخشوا شيئاً من بطش الفاشيست، أو أن يرتكب هؤلاء فيهم " فظائعهم " المعهودة.

ويتضح من هذا المراسلات التى دارت بين أحمد شتويى (السويحلى) - وكان مقيمًا بالإسكندرية جهة المكس وقتئذٍ - وبين بشير السعداوى بدمشق، أن رغبة المهاجرين الموجودين فى القطر المصرى فى العودة إلى أوطانهم كانت شديدة وملحة؛ الأمر الذى مهد لنجاح عملاء الطليان مع بعض هؤلاء، فتولى اثنان منهم - ويذكر أحمد السويحلى أنهما كانا: المرحوم عون بك سوف وتوفيق الغريانى - تنشيط هذه الحركة بين مواطنيها، وكان أحمد السويحلى نفسه باعترافه ممن طلبوا "التفاهم" مع الطليان من أجل العودة إلى طرابلس.

ولذلك فقد بادر السعداوى بمجرد أن علم لبما يدور هناك بالكتابة إلى السويحلى يلومه على هذه الفعلة، وأقر السويحلى بخطئه.

على أن هذه الرسائل، خصوصًا كتب أحمد السويحلى، كانت تحمل أبناء عن الموقف داخل ليبيا، هى التى وصلت السويحلى من جماعة الحجاج الليبيين فى طريقهم إلى الحج، أو منقولة عنهم بواسطة من قابلوهم أثناء الحج بأرض الحجاز لعل أهمها أن المسئولين الطليان فى ليبيا بعد اشتداد حملة "الفظائع" عليهم، عندوا فعلاً على التخفيف شيئاً - ولو يسيراً - من حدة غلوائهم فى حكومتهم على أمل أن تخف وطأة الاحتجاج عليهم، والتنديد بهم، ويتشجع الذين يحنون إلى الوطن على الرجوع إليه. وثمة حقيقة أخرى هى أن الطليان قد ضربوا نظاماً قوياً على ليبيا يمنع تسرى الأخبار منها إلا بعد جهد ومشقة، تنفيذًا لخطتهم من حيث جعل هذه البلاد "صندوقاً مقفلاً"، إذ أنهم اعتقدوا أن من الضمانات الهامة لنجاح سياستهم الاستعمارية القائمة على إبادة الليبيين وإفنائهم، أن ينغزل هؤلاء عن العالم الخارجى، فلا يعرف هذا العالم عنهم، ولا يعرفون عنه شيئاً، إلا ما أراد الفاشيست إذاعته.

والرسائل التى لدينا أربع: أولاها من السعداوى إلى أحمد شتويى

(السويحلى) فى أوائل سنة ١٩٣٢، يتحدث فيها السعداوى عن "عفو مرهوم" أصدره الطليان عن المشتركين فى الجهاد، ووقعت عليهم عقوبة السجن، أو استطاعوا الهجرة والإفلات من العقوبة، ويتناول مسعى بعض أفراد الجالية الطرابلسية فى القطر المصرى فى "التفاهم مع الحكومة الفاشيستية" وينصح مواطنيه فى هذا القطر بالصبر والثبات فى الجهاد. وقد أرسل إليهم عددًا من "المنشورات التى هى الفطائع السود الحمر"، كما طلب من أحمد السويحلى أن يزوده بما لديه من معلومات عن فطائع الطليان، قديمًا أو حديثًا حتى ينشرها فى "حلقة ثانية" من سلسلة الفطائع. وفى هذه الرسالة يكتب بشير السعداوى:

تحية واحترامًا وبعد. فقد تناولت كتابكم الكريم، وحمدت الله على دوام الصحة، تأخرت عليك فى رد الجواب لا حاجة لسردها يف هذه العجالة.

إن مسألة العفو الذى أعلنته إيطاليا، هو عفو وهمى، لا أساس له من الحقيقة. وما القصد منه إلا أنهم يظهرون أمام (الرأى) العام، أن سياستهم فى تلك البلاد مبنية على التساهل والتسامح، وفى الحقيقة إنهم لا يرغبون فى عفو شامل يتناول رجال البلاد المتشردين فى الآفاق خصوصًا الشخصيات البارزة الذين وقفوا فى وجوه مطاعمهم الاستعمارية وحابوا فى سبيل حريتهم وحقوقهم المغصوبة، بل بالعكس أمثال هؤلاء يودون أن يكونوا بعيدين عن أوطانهم لكى يتخلصوا منهم وتبقى البلاد خالية من كل شخص فيه شمم وإباء، وغيره على وطنه، وبكل صراحة وحتى لا نغش أنفسنا، إن سياسة الفاشيست فى بلادنا سياسة إفناء وإبادة ليمكنوا من إسكانها بأبناء جلدتهم والمتشردين من أفراد أمنهم، فهذه حقيقة يجب أن يعلمها كل طرابلسى، وما دامت حكومة الفاشيست قابضة على زمام الحكم، فلن تتغير هذه السياسة.

إنى حاولت أن أجد طريقًا للتفاهم الذى يضمن حقوقنا الوطنية وكان

سعى بدون نتيجة مع هؤلاء الظلمة. وقد بلغنى أن جماعة من الجالية الطرابلسية بمصر، قدموا طلباً يطلبون فيه الفتح ليعودوا إلى أوطانهم على أساس فيه شئ من الحقوق، وقد فهمت أنهم لن يجيبوهم، إلا إذا سلموا أنفسهم بلا قيد ولا شرط، وبعد ذلك لا يعد أن يختلقوا لهم وسائل شخصية، ويزجروهم فى أعماق السجون، هذا إذا لم يعدوا بعضهم بحجج واهية، ويسندوا إليهم مسائل قديمة ويتقموا منهم شر انتقام.

لذلك فأنا غير مرتاح لهذا العفو الموهوم الذى أعلن. وقد كنت أود أن أنشر منشوراً بخصوصه ولكنى فكرت أننى لا أريد أن أشوش على البعض الذى يلاقون أشد العذاب فى ديار الغربة من احتياج وفاقه. ولذلك لا أقدر أن أتحمّل مسؤولية تجنيد العودة بلا قيد ولا شرط الذى أعتقد أن من ورائه بلاء عظيمًا. لذلك فإننى أرى أن الوقت لم يحن لرجوع الفاشيست عن غيهم وطغيانهم، وأعتقد أننا إذا كبرنا ودوامنا على خطة النضال والمطالبة بحقوقنا والتشهير بظلمهم وسياستهم الهوجاء، لابد أن يأتى يوم، تنال فيه رغائبنا وأمانينا التى ضجينا فى سبيلها الأرواح الطيبة والدماء الزكية.

لذلك لا مناص لنا من المثابرة على جهادنا لأننا بحركتنا وجهادنا القلبي قد سبينا لهم أضراراً فى اقتصادياتهم بنسبة خمسين فى المائة، وإذا ضاعفنا نتسبب فى خسارتهم أكثر من هذا القدر فيضطروا حينئذ للرضوخ لمطالبنا الحققة. هذه فكرتى بكل صراحة مع تقديرى أن كثيراً من إخواننا المهاجرين فى ضيق شديد ومصائب جمّة "ليس لها من دون الله كاشف". وقد تحدث السعداوى فى نهاية رسالته عن انشقاق فوزى النعاس على اللجنة التنفيذية وخروجه على الجماعة، وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه.

وقد أجاب أحمد شتوي على هذه الرسالة بخطاب بتاريخ الإسكندرية فى ١٣ إبريل سنة ١٩٣٢، تكلم فيه السويحلى عن المسائل التى تناولها كتاب السعداوى، فكتب باللهجة العامية، التى حرصنا على عدم تغييرها، أنه قد وصله كتاب السعداوى وعلم به، ثم أنشأ يقول:

وقولكم على العفو الموهوم، حقيقة هو عفو موهوم، ويادر لا معنى له، وفي نفس طرابلس لم يسمع به أحد، وفي موسم هذا الحج بلغوا حجاج كثيرين من مصراتة ومن طرابلس ولم يسمع فيه عفو ولا غيره، ويكفيك أن المحابيس ما طلق منهم أحد إلا الحاج فرج المسلاتي وفرج الزقل يوزليتن (زليطن) الحاج سالم البجباح، وأما الحاج محمد الديب والشيخ رحوم الصاري وغيرهم كثيرين من كل الجهات باقيين في السجن وكذلك عبد السلام البصيري باقى في الحبس غير أن المفهوم من حجاج طرابلس الوالى أعطى كلمة فى أطلوقها (إطلاقهم) حسين الديب كان محبوس فى إزواره (زواره) وانطلق من ضمن الذين ذكرناهم.

وقولك أنه بعض من الجالية الطرابلسية، قدم طلبه يرغبون فى التفاهم مع الحكومة الفاشيستية، فهو صحيح تقدم طلبه حسب ما فهمتم، وأنا أحد المقدمين، غير أننى بصفة ماسعد للإخوان الذى اقترح تقدم هذا الطلب ولا مونا غيركم عليه والعرب لهم مثل يقول فكرة وإلا لا فكرة. الرجوع إلى الوطن يحنون إليه وخصوصاً فى هذا العام وإننا ليس فى الضيق ولو نقدر على كفهم ما بنغوش فى الروح.

وكان السبب فى فتح هذه النزعة عون بك (سوف) ومع إنه دائماً أنا وإياه صباحاً ومساءً، وممكن نؤثر عليه ما أسفرش أحد غير أننى حسب ما ذكرتم ما يمكنش نتعرض إلى أحد لأجل جرح العواطف وإلا هو فى رجوع المهاجرين بهذه الفة فى ضرر بحيث إن الأكثرية يروحوا بدون قيد ولا شرط فهذا مما يزيد فى أنفة الفاشيست والبقية ما تكونشى لهم صفة ومعلومكم دفاعكم وحرركم فى الجرايد والمناشير وتشهير فظائع الطليان حصلت منها راحة للطرابلسية هم تحت الطليان والمفهوم من الحجاج الذى هم مصراتة فى هذه المدة حالتهم تحسنت نوعاً ما بل تحسنت كثيراً عن الحالة الأولى. غير أنهم فى شدة الفقر لأنه مرت ثمانية سنوات ماجتهمش مطر وفى هذا العام

مافيش زرع وأغلب الأهالى فقرء جداً بل كلهم . وقولكم صممتم لتنتشروا
مناشير بخصوص هذا العفو البارد الموهوم وتحذيراً الناس منه يا ليتكم نشرتموه
وبيتتوا فيه أكاذيب الفاشيست ومقاصدهم السيئة ولا فيه تشويش على أى أحد
كان، ونحن لا نابلى بشيء كله عندنا سواء أو إذا يمكنكم تنشروا فى المستقبل
فلا بأس لأنه فيه تنشيط للمستقبل ويا ليتكم تبعثوا لنا منه لنشره فى الجرائد
المصرية إذا أمكن . وقولكم إذا جاهدنا وصبرنا نبلغ المقصود فهو صحيح غير
أنه اطرابلس وبنى غازى لا فيها من يجاهد، ولا من يصبر، ولا لهم اعتناء
بشء وبقاءهم عشرين سنة فى الكفاح هذا من طرف الله، ومن تذبذب
سياسة الطليان، وهذا الشئ ظاهر عندكم وجربتموه وها هو ننظر فيه بأعيننا
وجرباهم ويعلم الله أننا حرصناهم كثير وبهذا الخصوص غير أنه لا حياة لمن
تنادى . بلغنا عدة أعداد من المنشورات التى هى الفطائع السود الحمر بارك الله
فيكم . فى عيد الفطر غرسيانى خطب خطبة طويلة فى بنى غازى وطلقت
بعض محابيس الذين هم فى قميسن والمقرون والأكثر باقين محبوسين مع
الفقر المدقع والموت والفساد وأظنه معظمهم ضاع من المجاعة والأمراض والله
يقدر الخير . ولم فيه حوادث بطرفنا تستحق الذكر . وبعد أن أنهى أحمد
السويحلى رسالته، عاد يكتب مستفسراً عن (فوزى النعاس) الذى كان السبب
فيما حدث من انشقاق فى اللجنة التنفيذية أفضى إلى إنهاء اللجنة وتأسيس
جمعية جديدة للدفاع عن كرابلس برقة سوف يأتى ذكرها فى موضعه . ثم
انتقل أحمد السويحلى من ذلك إلى إبلاغ بشير السعداوى أن "فيه جريدة
عربية تطبع فى رومه باسم مستقبل العرب والمحرر لها اسمه المنير اللبايدى"
ولا يظن أنه طرابلسى، وكان اللبايدى هذا من بيروت .

وكتب بشير السعداوى إلى أحمد شتوى مرتين بعد ذلك، فى ١١ صفر
١٣٥١ (١٧ مايو ١٩٣٢) ثم فى ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٢ . فى
الرسالة الأولى يطلب من أحمد السويحلى وإخوانه "أن لا يأسوا ولا
يقنطوا"، وأن يسعوا كل جهدهم فى وقف حركة "الرجوع إلى طرابلس"

ويسألهم أن يمدوه بكل ما يكون لديهم من معلومات، ثم يبحث طي رسالته بصورة من (الميثاق القومى للشعب الطرابلسى البرقاوى) الذى كان قد صدر فى سنة ١٩٢٩، كما أرسل إليهم طائفة من "الجرائد وفيها تذكارات السيد عمر المختار". وأما فى الرسالة الثانية، فقد طلب السعداوى مرة أخرى أن يمد السويحلى "بما عنده من أخبار" عن "جهة طرابلس" لتشوقه للوقوف على ما قد يكون لديه منها. ويطلب منه كذلك إرسال ما عنده من "أخبار الفضائع قديمًا وحديثًا"، ويعود مرة أخرى إلى مسألة الذين يطلبون من الحكومة الإيطالية أن تأذن لهم بالعودة إلى طرابلس، ثم يحدثه عن (المؤتمر العربى) الذى كان مزمعًا عقده فى ذلك العام (١٩٣٢) - ولم ينعقد - ويرسل ؟ كذلك طي رسالته "عنوان تاريخ على بن الحارث". وقد أجاب أحمد السويحلى على هاتين الرسالتين بكتاب مطول، يرد فيه على هذه المسائل كلها، وينقل إلى السعداوى خصوصًا خبر قانون التجنيد الإجبارى. وكان لأحمد السويحلى فوق ذلك رأى فى حوادث الجبل الأخضر وصلة الحسن بن الرضا بهذه الحوادث، وفى مسألة السنوسية، ومن المعروف عن السويحلى أنه لم يكن من المؤيدين للسنوسية عمومًا وقتئذ. وعلى ذلك فقد كتب فى ٢٧ جادى الثانى ١٣٥١، ٢٧ أكتوبر ١٩٣٢، ردًا على كتاب السعداوى له فى ١٧ مايو:

شرفنى جوابكم المورخ ١١ صفر وما سطرتم علمناه ونشكركم أنا وعموم الإخوان على اجتهادكم فى الوكن الذى هو واجب على عموم الطرابلسية يحذوا حذوكم ويجهدوا مثلكم حسب الاستطاعة. وقد تسلمت صورة الميثاق القديم. وقولكم لا تياس ولا نقنط فإننا بحول الله وقوته باقين على ما هو عليه ولا يياس من رحمة الله إلا القوم الكافرون ونسعى بكل جهدنا فى عدم الرجوع إلى طرابلس. وفى السابق روح زيادة على عشرين نفرًا أكثرهم من مصراتة ومنهم خمسة عائلات من ساحل الخمس ومنهم عائلة من (زليطن) وباقيهم مصراتة منهم عائلات ومنهم أفراد من غير عائلات.

ولاسبب فى هذا عون بن سوف هو الذى فتح هذه الطريق وكلهم روحوا بمعرفته وكان من مدة عامين توجه إلى طرابلس بواسطة القنصلية وقابل الوالى هناك ورجع وصار السفر فى كل من يقصد الرجوع إلى طرابلس مجاناً أول استفتح فى قسم المحاميد وناس الغرب حتى تمهم والآن فى غيرهم . . لم سمعنا شىء على طرابلس يستحق الذكر غير أن كل المحبوسين رتكوهم وآخرهم الحاج محمد الديب وعبد السلام البصيرى . وفى ١٠ فى الخريف هطل عليهم أمطار كثير فى أراضى مصراتة ورفلة والغرب إلى سرت و (حرثوا) وكانت قبل هذا حالتهم سيئة جداً وكثير منهم خرج إلى تونس لأجل الخدمة والبعض فى فزان لأجل فيها الخدمة . هذا فى طرابلس . وأما بنى غازى على أشنع حالة وكل العربان لا يخرج منهم أحد من الكردون ولا فى يدهم شىء من الحيوان ولا غيره . . . الأخبار هذه الأيام الطليان (أجروا) قرعة العسكرية من سن ١٨ إلى سن ٦٠ بحيث يأخذ وهم صغير وكبير، ومن الاثنين واحد . من مدة زمانية لم أخذنا جرائد من طرابلس ولا بريد برقة، ولم نعلم بشىء . وكل من روح إلى مصراتة أو غيرها يبعث جواب ويشكى من الحالة هناك وهذا بالطبع . . وأما بنى غازى الأخبار مقطوعة لم يخرج منها أحد ولا يمشى لها أحد، والمفهوم حالتهم بظالة وكل من (يجده) الفاشيست خارج فى الليل يقتلوه ويرمونه فى البحر والله أعلم . . الجرائد التى أرسلتموها لنا وفيها تذكارات السيد عمر المختار بلغتنا ربنا يوفقنا لما فيه الخير

ويستمر أحمد السويحلى فى نفس الخطاب، يرد على رسالة السعداوى التى هى بتاريخ ٥ أكتوبر، فيكتب:

. . . وتطلب منا (نمدكم) بما عندنا من أخبار الفظائع قديماً وحديثاً لتؤلف كتاب الحلقة الثانية، لم عندنا من أخبار زيادة على الذى درجته الأول . ومن جهة الجبل الأخضر وما (طراً) فيهم لم تحصلنا على أخبار

حقيقة زيادة على درجته فى الأول . . وإذا تطلب أسماء الذين (أعدمهم) الطليان فى سنة (١٣٤١ ، ١٣٤٢) هـ فى مصراتة و (زليطن) فرداً فرداً وجهة الخمس والساحل ومبلغ وافر من المشايخ والجندرمة والأهالى يمكننا (نحررهم) لكم كل واحد باسمه وقبيلته وغير هذا لم فيه حوادث لدينا ، لأنه طال علينا الزمان والمكان . . وكل من يعدموه (والكلام هنا عن الدين أعدموهم فى مصراتة) يحفر حفرة بنفسه بحيث يردموه فيها بحيث لا يكون قبر ولا مشهد .

وأما حالة بنى غازى باقى على أشنع ما يتصور الإنسان ويوجد زيادة على ستة آلاف أولاد وبنات صغار فى محل واحد بنى غازى أيتام وفى كردون ينفق عليهم الطليان وكل ما يتحصل على فرصة يدخل البلد يشحت ويرجعوهم إلى محلهم ، وكلهم عربانين تقريباً وغاية ما فى الأمر بادية بنى غازى كان ولم يكن أغلبهم ضاع والبعض فى السجون والبعض ضاع من الأمراض والحريم أخذه الطليان للفسق والله لطيف بعباده .

وقولكم فى القريب العاجل إن شاء الله يسعد اجتماع عرب وستحضروه إن شاء الله ربنا يحقق ذلك ونكون منه ببال وربنا سبحانه وتعالى يوفقنا لمعاونتكم إذ توفقنا فى جمع كلمة إخواننا (الطرابلسيين) ولو أنهم فى هذه المدة كثرت مهافتاتهم (تهافتهم) على الطليان لأجل أخذ الحمايا والسبب فى ذلك عون بك (سوف) وتوفيق الغريانى . غير (أنه) فى هذه الأيام القنصلية صدت عليهم الباب . ومن ضمن التهافتين ترهونة . . وفيه بعض صياح من مصراتة وغيرهم والسبب هو عون بن سوف ربنا بجازيه . داخل جوابكم عنوان تاريخ على بن الحارث إن شاء الله نشترك معه ، وإذا اطلعنا عليه ووجدناه موافق للحقيقة وما يتميش لأحد دون أحد ، وخصوصاً السنوسية ، ممكن نتحصل له على قسم وافر من الاشتراكات . . .

هذه الرسالة الأخيرة ، أجاب عليها بشر السعداوى بكتاب عثرنا على

صورته بتاريخ ٢٩ شعبان ١٣٥١ ، ٢٧ كانون أول (ديسمبر ١٩٣٢) جاء فيه ما يلي :

حضرة الأخ المحترم أحمد بك شتيوى المحترم .

تحية واحتراماً وبعد . فقد تشرفت بكتابك المؤرخ فى ٢٧ أكتوبر ١٩٣٢ وحمدت الله على دوام صحتك . إننى قد سررت جداً بالحوادث القيمة التى ضمنتها كتابك وقد بادرنا بنشرها فى مختلف الصحف ونقلته مجلة (العرب) التى تصدر فى القدس بحذافيره ، ولكننا لم نذكر اسمكم . وكان لهذه الحوادث التى جاءت فيه تأثير عظيم فى النفوس التى تغار على العرب والمسلمين . ولو أن كل فرد تهزه النخوة والحمية الوطنية مثلكم ويمدنا من آن إلى آخر بالأخبار والأفعال القاسية التى يجرى فى بلادنا ، لكننا ملأنا الصحف بالتشنيع على الإيطاليين ، ولكن أكثر الناس منصرفون إلى معاشهم ، ومولون وجوههم عن خدمة شعب تقطع أوصاله القوة الغاشمة فى ذلك الوطن التعيس . وهذا ما لا يرضاه الدين ، ولا الوجدان السليم . كيف يطيب لنا المعاش . وكيف يهدأ لنا بال وإخواننا ، فى الدين والوطنية يسومهم الأعداء سوء العذاب .

إن هذا التقصير من بعض إخواننا فى المهجر ، أراه إثماً عظيماً وجريمة لا تغتفر ، ألهمنا الله جميعاً إلى ما يحتمه علينا الدين من القيام بواجب لا يقل اليوم عن واجب الصلاة والصيام ، لأننا إن سكتنا على ما يراد بنا من فناء ، وعلى ما يراد بديننا من إمحاء ، لهو ذنب يحاسبنا الله والتاريخ الحساب الشديد عليه ، لذلك أشكرك - يا أخى - بصورة خاصة على عنايتك بقضيتنا ، وأرجو منك أن لا تفتقر عن ما أنت عليه ، لأن الهجرة لا يم ثوابها إلا بهذا الصالح ، الذى ندعو الله أن يوفقنا فى سبيله ويرزقنا الإخلاص والثبات .

أخى . ذكرت أنك مستعد لإرسال الأشخاص الذين أعدمتهم إيطاليا من

٤١ إلى ٤٢ وأسماء قبائلهم إلى غير ذلك، فأكون لك من الشاكرين إذا زودتنا بهذه المعلومات، إننا فاتحو صدورنا لكل من أراد أن يمدنا بما يعلمه من الحوادث عن ذلك القطر، لأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ولكم أود أن يكتب لى كل فرد من إخواننا فى مصر ما يعلمه من الفظائع والحوادث التاريخية عند كل فرصة، لأننا ندون ونحفظ كل صغيرة وكبيرة للتاريخ، وليس لنا شغل يشغلنا فى هذه الحياة، سوى مكافحة الأعداء الذين اغتصبوا بلادنا وعثوا فيها فساداً.

لذلك يمكنك - يا حضرة الأخ - أن تحدث الإخوان عن رغبتنا هذه وإننا نشكر كل من يساعدنا على هذه المهمة التى هى واجب فى ذمة كل طرابلسى يؤمن بالله ويحمل فى قلبه حب وطنه المفجوع.

إن قيامكم بمشروع صندوق التوفير - (وكان أحمد السويحلى قد تحدث إلى السعداوى فى رسالته الأخيرة عن إنشاء هذا الصندوق الذى بدأ "منذ شهرين" المصراتيون الذين فى الحمام بتأسيسه. واستحث السويحلى قسماً منهم فى العامرية على إنشاء صندوق آخر، بينما بالإسكندرية (المكس) أنشأ السويحلى صندوقاً للتوفير منذ أول (أكتوبر ١٩٣٢) عمل مفيد جداً. فكل أمر يجمع الكلمة ويوحد الصفوف فهو سعى محمود لأننا اليوم فى حاجة إلى التضامن والتكاتف. جزاك الله على جهودك أحسن الجزاء ...".

هذا. ومع أن بشير السعداوى، ظل يهتم بجمع كل ما يصل إليه من معلومات عن "فظائع" الطليان التى دأب على إذاعتها فى الصحف و"النشريات" فقد جد من الحوادث بعد ذلك، ما جعل نشاك السعداوى وجهوده موزعة فى جملة ميادين، بحيث تعذر عليه التفرغ لإصدار (الحلقة الثانية) من سلسلة "الفظائع" التى كان حريصاً على إصدارها. ولكن "الحملة" ألتى أثارها السعداوى على الطليان، والتى كان (كتاب الفظائع السود الحمر) من أمضى الأسلحة التى استخدمها أصحاب هذه الحملة، كانت

قد نجحت النجاح المنتظر لها، والذي أشرنا إلى بعض نتائجه فيما نقلناه من رسائل بين السعداوى ومواطنيه في المهجر. وكان من بعض آثار هذه الحملة كذلك أنها استرعت انتباه الكتاب والعاملين في قضايا العرب إلى ما يجرى من أحداث في ليبيا تحت الاستعمار الإيطالي.

وكان من الذين طلبوا الاستزادة من المعلومات المتعلقة بهذا الاستعمار (المرحوم) محمود عزمى، الذى كان يصدر وقتئذ باللغة الإنجليزية فى لندن مجلة بعنوان (العالم العربى). أراد أن ينشر فيها عن طرابلس الغرب كل ما يفضح فعال حكومة الفاشيست بها فهو يكتب إلى بشير السعداوى من لندن فى أكتوبر ١٩٣٣ ويبحث إليه مع رسائله بنسخة من مجلة (العالم العربى) ويقول: "وقد أشار على صديقى العزيز الأستاذ محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى بالقاهرة بأن أطلب إليكم أن تفضلوا فبعثوا إلى بررائلكم عن أحوال طرابلس الغرب ومطالب الوطنيين المخلصين من أهلها حتى أنشرها بمجلتي وأدعها فى الأوساط الأوروبية جميعاً. وإنى فى انتظار رسائلكم الممتعة أرجو أن تفضلوا ...".

وقد أجاب بشير السعداوى على هذه الرسالة بتاريخ ١٢ تشرين الثانى (فبراير ١٩٣٣) من دمشق، يتحدث عن "قضية طرابلس" ثم عن كتاب (الفضائع السود الحمر أو التمدين بالحديد والنار)، ويبين الغرض من وضع هذا الكتاب. ولعل فى إثبات هذا الخطاب ما يكفى لاختتام الكلام عن (الفضائع السود الحمر)، وفلسفة هذا الكتاب الذى ذكرنا أنه لم يتسبب فى إثارة ضجة الاستنكار الشديدة لأعمال الطليان فى تلك الحقبة فحسب، بل امتد أثره بسبب هذه الضجة ذاتها إلى سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها، حتى أن (كتاب الفضائع) - بعد إضافة ما استجد من وقائع بعد ١٩٣١ - صار أحد الوثائق الهامة التى دعمت بها (هيئة تحرير ليبيا) دعاؤها فى عدم عودة الحكم الإيطالى بأى صورة من الصور إلى ليبيا عند النظر فى مصير المستعمرات الإيطالية السابقة.

وفيما يلي نص كتاب السعداوى إلى "سعادة الأستاذ الفاضل محمود بك عزمى أخذ الله بيده".

تحية واحتراماً وبعد. فقد تناولت بيد التعظيم كتابكم الكريم، فأشكركم على هذا التفضل كما أشكر الأستاذ الأخ محمد على الطاهر الذى كان سبب التعارف بيننا.

فيا حضرة الأستاذ غة قيامكم بإصدار مجلة (العالم العربى) فى عاصمة الإنجليز هو من أجل الأعمال التى تعود على الأمة العربية بأجل المنافع، لأننا فى حاجة ماسة إلى صحف تترجم عن يقظتنا وعن الشعور الذى أخذ يسفرنا للنهوض من مرقدنا وتعرب فى الوقت ذاته عن ما نشكوه من تكالب الغربين على نهب أوطاننا وسلب عزنا وسلطاننا.

نعم إن كنا نرفع أصواتنا بهذا المعنى على منابر صحفنا العربية لكن ذلك لا يتجاوز آذان طائفة من اللصوص الذين جاءوا يسطون على أموالنا فى عقر ديارنا من ذئاب الاستعمار بحجة التمدين وخدمة الإنسانية، لذلك فإن أحسن وسيلة لإيصال زفراتنا هى إصدار الصحف والمجلات فى العواصم الأوروبية لكى يطلع رأى العام عندهم على ما نلاقه من اضطهاد أثار منا كوامن الصدور وبعث فىنا روح العمل لتفكيك القويد وتحطيم الأغلال وللوصول إلى ما نصبوا إليه من حرية واستقلال. إن كل هذه المشاعر لا يمكن أن تجعل القوم فى البلاد الغربية يتفهمونها إلا بطريق العاية والنشر. لذلك أهتكم على هذا الجهاد الذى كنتم فى مقدمة من وطد العزم على خوض غماره فى تلك الأصقاع النائية، وإنه لجهاد مبرور يجب على كل عربى أن يتقدم إليكم بالشكر ويشد أزرهم فى سبيله مادة ومعنى، أعانكم مولاكم على ما ولاكم.

وأما قضية طرابلس التى تفضلتم ورغبتم إلى أن أراسلكم عن أحوالها، فإننى مستعد أن أوافيكم بكل ما يحدث مع الشكر والامتنان.

إن قضيتنا - يا حضرة الأخ الكريم - هى من القضايا المعضلة التى لم

تزددها الأيام والسنون إلا تعقيداً، فعدونا عدو نذل لا يعرف للإنسانية معنى ولا يقدر للمروءة قدراً، وقد مثل ولا زال يمثل فى بالدنا من الأدوار المحزنة ما ترتعد منه الفرائص وتنشق له المرائر، وإننا قد وقفنا فى وجوه أولئك الطغاة إحدى وعشرين سنة ضحينا فى سبيلها بكل مرتخص وغال، ولما أعتنا الحيل وأعوزتنا الوسائل وسدت فى وجوهنا السبل فى نضالهم بالحسام عمدنا على مقاومتهم بالأقلام وأخذنا ننشر ما يقرفونه من ظلم وجور، ومن ضمن ذلك فقد وضعنا كتاباً أسميناه (الفظائع السود الحمر أو التمدين بالحديد والنار) وها إنى أقدم لحضرتكم منه نسخة ومن مطالعته نتبين لكم أعمال أولئك الوحوش المفترسة الذين يتبجحون بالمدنية ويدعون أنهم حماة الإنسانية. وهذا الكتاب طبعنا منه خمسة آلاف نسخة وزعناها مجاًناً فى جميع البلاد الإسلامية وتورجمناه إلى اللغة الإفرنسية وسيتم طبعه فى أمد قريب ونسعى فى ترجمته إلى عدة لغات. لذلك فإنى ألتمس من حضرتكم أمراً إذ كان فى الإمكان ترويجه، وهو ان الكتاب المتقدم الذكر قد ضمناه (٧٤) مادة من الفظائع التى ارتكبتها الإيطاليون فى سنين مختلفة، فإذا تفضلتم بترجمة هذه المواد بالتدريج إلى اللغة الإنجليزية ونشرتموها تباعاً فى مجلتكم فيمكننا بعد إتمام نشرها أن نجمعها ونؤلف منها رسالة نذيعها بهذه اللغة فتكونون قد اسديتم لشعبنا المنكود يحفظها لكم التاريخ".

تلك إذا كانت قصة كتاب (الفظائع السود الحمر)، وهى قصة - كما رأينا - تتناول أهم نواحي نشاط السعداوى فى تلك الحرب التى سورها ضد المستعمر، والتى لم يكن هناك بد من أن يخوض غمارها وهو يعتمد على مقاومة الطليان بالأقلام - كما قال - بعد أن أعبت المجاهدين الحيل وأعوزتهم الوسائل وسدت فى وجوههم السبل فى نضالهم بالحسام. وكانت حرب الأقلام هذه هى حرب الدعاية التى يستين من قصة كتاب الفظائع التى سجلناها كيف حذفها السعداوى وأتقن أساليبها. لقد اقتضى استكمال هذه القصة أن نمضى غير مقيدين بالترتيب الزمنى الذى التزمناه فى ذكر بعض

الوقائع فى العامين التالين لظهور كتاب الفظائع، ولكن من أسباب تصنيف هذا الكتاب نفسه الهامة، كان عزم بشير السعداوى وصحبه على إعداد "نشرة" تسجيل فظائع الطليان، يمكن توزيعها على الجموع الغفيرة من أعضاء ومراسلى صحف ومراقبين، كان من المنتظر أن يحضروا انعقاد أول (مؤتمر إسلامى) صح عزم المسلمين والعرب على عقده بالقدس فى أواخر سنة ١٩٣١، لبحثوا فيه "ما يجب عمله لدرء النارلات الاستعمارية التى نزلت ببلادهم، والقضايا الإقليمية التى غمرهم بها المستعمرون". وكان واضحاً أن بشير السعداوى الذى استحوذ على تفكيره ولو استغرق كل نشاطه واجب استرعاء انتباه العالم الإسلامى لما يجرى فى بلاده، واستثارة شعوره ضد الاستعمار والطغيان الفاشيستى فى طرابلس برقة - نقول إنه كان واضحاً أن السعداوى لن يترك فرصة انعقاد هذا المؤتمر الإسلامى تمر دون أن يجعل (قضية طرابلس برقة) تحتل مكان الصدارة من بين القضايا العربية التى شغلت الأذهان فى العالم الإسلامى وقتئذ. ولقد كان انعقاد هذا المؤتمر الفرصة المواتية بالفعل لتبلغ ذروتها تلك الحملة العنيفة حملة الدعاية التى شنّها السعداوى على الاستعمار الإيطالى فى وطنه.

٩ - المؤتمر الإسلامى بالقدس (١٩٣١)

سيطرت فكرة عقد مؤتمر إسلامى على أذهان المستغلين بالقضايا العربية من مدة طويلة، قد يصعب تحديدها على وجه الدقة، أو معرفة من كان المسئول عنها أصلاً من بين قادة الرأى فى العالم الإسلامى. ومع ذلك فقد لا نكون بعيدين عن الصواب كثيراً إذا ذكرنا أن فكرة عقد المؤتمر قد طرأت لدى عديدين من أصحاب النشاك الملحوظ فى العالم الإسلامى والعربى فى وقت واحد، حيث إن مبعثها - على ما هو مقطوع به - كان تألم المسلمين من الحال التى وصلت إليها أوطانهم ومجتمعاتهم من ركود ذهنى وروحى وتأخر مادى واقتصادى بسبب وقوعهم فرائس متفرقة فى برائن المستعمر الأجنبى،

واعتقد كثيرون من زعمائهم أنهم لو استطاعوا تنبيه أقوامهم إلى الخطر الذى يكمن فى استمرار تفرق مساعيهم فى حل مشكلاتهم الإقليمية وقضاياهم المحلية مع المستعمرين فى بلادهم، ولو أنهم نجحوا فى توحيد هذه الجهود فى سبيل قضية عربية واحدة وعامة تستهدف حلاً واحداً معيناً لكل المشكلات والقضايا الإقليمية ولامحلية على أساس تحرير الوطن الإسلامى بمختلف أجزائه وأقطاره من كل احتلال أجنبى. لأمكن للمسلمين والعرب أن يظفروا بحرية أوطانهم واستقلالها. ونحن وإن كنا لا نبغى التعرض لمنشأ الفكرة الجماعية ذاتها التى انبثقت منها المؤتمر الإسلامى فى ذلك الوقت، فقد يساعد على فهم هذه النزعة إلى العمل المتحد، والتى كان أحد مظاهرها انعقاد هذا المؤتمر فعلاً فى آخر سنة ١٩٣١، أن نسجل الحقيقة التالية وهى أن العالم العربى والإسلامى كان بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٩، بسبب انهيار النظام السياسى خصوصاً الذى قام عليه (العالم العربى) فى الشرق الأوسط، وخضوع هذا العالم وسائر الأقطار الإسلامية فى هذه المنطقة وعلى أطرافها الشمالية والشرقية لجذب التيارات السياسية والاستعمارية الأجنبية - نقول إن هذا العالم العربى والإسلامى كان يجد نفسه منساقاً بف العشرينات والثلاثينات الماضية، أى فى السنوات التى بين الحربين العالميتين: الأولى والثانية، أى من ١٩١٩ إلى ١٩٣٩ تقريباً، نحو التفكير فى إحياء الخلافة الإسلامية تارة - وذلك ما كانت تعترضه اعتبارات عديدة - أو عقد المؤتمرات الإسلامية والعربية - وذلك ما أمكن تحقيقه لبحث قضية العالم الإسلامى بالصورة التى انعقدت من أجلها المؤتمر الإسلامى بالقدس فى عام ١٩٣١، أو لبحث قضية فلسطين، والمؤتمرات التى انعقدت من أجل هذه القضية كثيرة. وفى كل الأحوال كان التفكير صادراً عن النزوع نحو العمل الجماعى كوسيلة لدرء الأخطار التى تهددت فى تلك الحقبة كيان العالم الإسلامى.

ولقد كان سلاح الدعاية الذى شهره بشير السعداوى فى وجه الطليان يعتمد فى إصابته الهدف، أى فى أهاجة الشعور الإسلامى ضد هؤلاء،

بالدرجة التي يعبر فيها هذا الشعور عن نفسه بمقاطعة البضائع الإيطالية، وتعطيل مصالح الإيطاليين في أقطاء العالم الإسلامي - وهم الذين عرفنا أنهم على أيام موسوليني يريدون الاستئثار بكل نفوذ سياسي واقتصادي في هذه الأقطار دون الإنجليز والفرنسيين خصوصاً - نقول كان سلاح الدعاية يعتمد في ذلك على تكتيل العالم الإسلامي، أو بالأقل الأقطاء العربية من هذا العالم الإسلامي ضد الاستعمار الإيطالي في طرابلس برقة.

ولم يكن يغيب عن ذهن بشير السعداوى أن النجاة الحقيقية لدعايته هذه الطليان، أو "حرب الأقطام" - كما سماها - يتعذر إدراكه إذا بقيت قضية طرابلس برقة "مشكلة إقليمية" أو "قضية محلية" لا تشغل أذهان المسلمين والعرب في أنحاء هذا العالم الإسلامي والعربي الواسع وتثير اهتمامهم، ولقد رأينا - وسوف يزداد وضوحاً فيما يأتي - كيف تسنى للسعداوى أن يشغل الأذهان فعلاً في هذا العالم بقضية وطنه، وكيف جعله يصب جام غضبه على الفاشيست الطغاة. واعتقد بشير السعداوى - وعلى نحو ما لا حظنا من كتاباته ورسائله التي أثبتنا منها، والتي سيجيء ذكرها بعد - أن الخطب الذي أصاب بلاده إنما هو خطب أصاب العالم الإسلامي بأكمله، وأن الجهاد لتخليص بلاده من هذه المحنة إنما هو فرض على أقوام المسلمين والعرب، ولا يتفرد به أهلها وحدهم. ولقد شهدنا كيف أن مقاطعة البضائع الإيطالية، كان المطلب الذي تقدم به إلى "إخوانه المسلمين والعرب" ليقوموا بنصيبهم في الجهاد المفروض عليهم.

وكان طبيعياً إذاً أن يكون السعداوى - بالأقل - من بين الذين كانوا سباقين إلى اعتناق فكرة المؤتمر الإسلامي، بل إن لدينا ما ينهض دليلاً على أنه كان من رواد هذه الفكرة، والداعين لها، والمشتغلين لترويجها بالحرارة أو الحماس المنبعث عن الإيمان العميق بصوابها وضرورتها. فهو قد تحدث في موضوع المؤتمر الإسلامي مع الأمير بهادر يارجنك الذي سبق أن تكلمنا عنه،

وكان بهادر يارجنك (ياورا) لأمير حيدر آباد - السلطنة أو الإمارة الإسلامية بالهند - والذي كان يزور دمشق الشام في غضون عام ١٩٣٠ أثناء رحلة طويلة كان قام بها يارجنك في الأقطار الإسلامية. وكان يارجنك نفسه من المتألمين لحال المسلمين، والمتحمسين لفكرة عقد مؤتمر إسلامي للنظر في أحوالهم، وللعمل من أجل إنهاءضهم. فاجتمع به السعداوى كثيراً، ونشأت بينهما تلك الرابطة التي جعلت يارجنك - كما مر بنا - يعد بترجمة كتاب الفطائع السود الحمر إلى اللغة الأوروبية ويطبعه على نفقته ويتولى توزيعه بالهند. وقد نجم من حديث السعداوى معه بشأن المؤتمر الإسلامي أن قصد يارجنك إلى بيت المقدس لمقابلة مفتى القدس الحاج أمين الحسيني للتشاور معه ومع غيره ممن يهتمون بهذه المسألة، وذلك بعد أن كان مقصد يارجنك الذهاب إلى بغداد. وفي القدس تعهد يارجنك بأن يأخذ على عاتقه نشر الدعوة لهذا المؤتمر في الهند. وكان على أثر نشر هذه الدعوة أن حضر عند انعقاد المؤتمر السير محمد إقبال والسيد شوكت على يمثلان هذه البلاد.

وقد بحث بشير السعداوى فكرة المؤتمر الإسلامي، وناقشها مع الأمير شكيب أرسلان من أواخر عام ١٩٣٠. ودارت بين الاثنين الكتب في هذا الموضوع. ويتضح منها أن الأمير شكيب كان مخالفاً لفكرة عقد مثل هذا المؤتمر لأسباب ذكرها، بينما كان السعداوى شديد الإيمان بها؛ وفضلاً عن ذلك فإن هذه المراسلات تبين بعض الصعوبات التي كانت تعترض انعقاد مثل هذا المؤتمر، واختيار المكان الذي يستطيع الانعقاد به، وأخيراً كيف أمكن أن ينعقد ببيت المقدس. فقد كتب شكيب أرسلان من لوزان يف ٩ كانون أول (ديسمبر) ١٩٣٠، إلى "أخيه" بشير السعداوى يقول:

تناولت رقيمكم وفهمته وحمدت الله على كونك عرفت المرض مثلى. قريباً تصدر رسالة في مصر من قلمي عنوانها: "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم - (وهذه الرسالة سبق أن أشرنا إليها، وقد راجعها السيد محمد رشيد

رضا وقام على طبعها، ويرى الأمير شكيب أن ما ذكره بها عن علة تأخر المسلمين كان كافياً لتأييد وجهة نظره من حيث عدم الجدوى من دعوة مؤتمر إسلامي للانعقاد) - وفيها ذكر إهمال المسلمين واجباتهم وجهلهم التضحية التي هي سبب فوز غيرهم. وقد ازداد هذا فهم بعد الحرب العامة لأنهم من قبلها كانوا ملقين أثقالهم كلها على الدولة (المقصود هنا الدولة العثمانية) وقد كانوا يقصدونها بعض الشيء لا كما يجب بل كما يجيء. فلما ذهبت الدولة وجاءت أنقرة وتبرأت من الإسلام تقريباً رأى المسلمون أنفسهم بلا رأى وفقدوا كل أمل واستسلموا لليأس وصادروا يرون كل تضحية عبثاً أشبه بمن عنده عليل مقطوع الأمل في شفائه، فإذا قيل له عالج به بواسطة الأطباء، أجاب: لماذا الخسارة ولا أمل بصحته. أما أن هذا الانهيار في القوة المعنوية مخالف لروح الإسلام فمما لا شك فيه ولكن روح الإسلام لا أراه في شيء من أعمال المسلمين الحضارة. وأما أن هذا مخالف لسنة النهوض والتقدم فكذلك لا شك فيه، ولكن العالم الإسلامي لا يزال نائمًا وحس السقطة فيه ديب ضئيل فإذا استيقظ يوماً من الأيام عرف فائدة التضحية وعلم أنها نعمت التجارة واقتدى بأسلافه فيها أو الإفرنج الذين بلغوا كل ما بلغوه بها وعاد فاستأنف عزه وسلطانه. السياسة نظير كل حرث لا تعطيك إلا إذا كنت تعطيها.

أما الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عام ينعقد بالمدينة مثلاً فإنه يأتي بالبلاء على ابن مسعود الذي يصبح عرضه لدسائس الدول المستعمرة وعلى أعضاء المؤتمر أنفسهم ويكون سبباً لزيادة التضييق على مسلمي المستعمرات مثل الهند والجاوى والجزائر والمغرب وتونس وطرابلس وبلاد الإسلام التي تحت حكم انكلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وهولاندا وهؤلاء مهما اختلفوا في أوروبا فإنهم يد واحدة على المسلمين. عندنا الآن في المغرب علائم تضامن وصل حتى إلى البوسنة، كلا فكرة المؤتمر لا تزيد المسلمين إلا وبالا.

وإنما الطريقة المثلى هي الجمعيات واللجان والشركات وما يسمونه عند

الترك "بالتشكيلات" وأن لا تكون كلها سياسية، بل يكون منها ما هو سياسى ومنها ما هو علمى ومنها ما هو اقتصادى ومنها ما هو الإحسان والخير الخ وأن يكون فى كل بلد تشكيلات راقية صناديقها ملأى وأن لا تكون أسماء بلا مسميات أو مثل العروض بحر لا ماء، بل تكون اسمهاً وفعلاً جمعيات قائمة بتحقيق معانيها. فهذه ولو انحصرت مهماتها فى البداية فى أوطانها لا يمضى وقت حتى تصير ذات علاقات مع الأوطان الإسلامية الأخرى بشرط أن تسير على قاعدة استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإذا كانت فى طرابلس قوة ممثلة فى جمعيتكم مثلاً ولتونس قوة ممثلة فى الحزب الدستورى مثلاً ولمصر قوى ممثلة فى جمعياتها كجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية وجمعية اللواء الإسلامى وجمعية العروة الوثقى وجمعية المواساة وجمعية تضامن العلماء الخ الخ والهند ممثلة فى جمعية الخلافة وغيرها من أحزابهم والجاوى ممثلة فى شركة إسلام والرابطة العلوية والجمعية المحمدية والإرشاد الخ الخ وهلم جرأً، وكانت كل هذه الجمعيات والأحزاب واللجان قائمة بما يجب عليها وكانت صناديقها ملأى من الاشتراكات والترعات فإنها تمد أيديها بعض إلى بعض بالمعونة وتؤلف كتلة خفية متعاضدة وأحياناً متحدة وتعمل أعمالاً وتؤثر آثاراً بدون ضوضاء ولا جلبه تحملان دول الاستعمار أن يسددن الطرق عليها. وهكذا تدريباً إلى أن تشد سواعد هذه الأمم المستضعفة وتقدر رعلى الرمى. ولم تنهض أمة من هذه الأمم المستضعفة إلا بهذه "التشكيلات" فليعمل كل أولاً فى أرضه وليقم بواجبه فجموع الأعضاء القوية جسم قوى أما اجتماع الأعضاء التى كلها ضعيف فلا يزيد الجسم إلا ضعفاً. وقد كان سبب الضعف للدولة العثمانية ضعف العالم الإسلامى لأنها كانت رأساً لجسم ضعيف. فلو تقوى العالم الإسلامى كل بلد بمفرده وكانت الدولة العثمانية رأساً لكانت أقوى الدول.

وفى آخر هذا الخطاب تكلم شبيب أرسلان عن ضرورة "ذهاب الهيئة الحاضرة" من الحكم فى إيطاليا حتى "تستريح طرابلس" فقال: "نيتى (Nitti)

وهو من رؤساء الوزارة السابقين والمناهضين للفاشية (صديقي ولو كان فى سويسرا لكنت أجمع به كثيراً لكنه فى باريز - ولا تستريح طرابلس إلا بذهاب الهيئة الحاضرة، ولكن من الآن على أن نذهب ينبغى العمل . والعمل هو التشكيلات، وسلامى . . . " وفى حاشية كتب " يوجد عجز فى بودجة (أى ميزانية) إيطالية هذه السنة بنحو ٤٠ مليون جنيه خبر جيد لكم " .

ولقد كان هذا الكتاب ردًا على رسالة من بشير السعداوى يقترح فيها على الأمير شبيب أن يدعو لانعقاد مؤتمر إسلامى اختار له السعداوى مكة المكرمة مكانًا لاجتماعه، وكنا اثبتنا كتابًا من شبيب أرسلان إلى السعداوى م نلوزان بتاريخ ١٠ كانون الثانى (يناير ١٩٣٠)، يثنى فيه الأمير شبيب على جهاد الطرابلسيين، ويعتذر عن الكتابة الصريحة الشديدة ضد الطليان، لتعذر السفر إلى الشرق دون المرور بالأرض الإيطالية - ولو أنه لم يلبث أن احتضن القضية الطرابلسية البرقاوية وآلى على نفسه الدفاع عنها، وقد تبودلت الرسائل بعدئذ بينه وبين السعداوى، وكان فى حوالى هذا الوقت أن بعث إليه السعداوى بالرسالة التى يرجح كثيراً أن خطاب شبيب أرسلان الأخير فى ٩ ديسمبر ١٩٣٠ والذى يتضمن معارضته لفكرة المؤتمر الإسلامى، كان جواب الأمير شبيب عليها. ورسالة السعداوى هذه منقولة عن "مسودة" بخطه ولا تحتل تاريخًا. وإليك نصها:

... وبعد فقد تشرفت بكتابكم الكريم . . إن ما جاء فيه من عبارات التشجيع للأعمال التى نقوم بها خدمة لقضيتنا الطرابلسية البرقاوية قد بعث فى نفوسنا روحًا جديدة وزادتنا نشاطًا ومُضيًا فى سبيلنا الذى نعتقد أنه سيوصلنا - ولو بعد هجد - إلى بغيتنا بمعونة الله ومساعدة كبار العزائم مثلكم.

أما ما ذكرته - يا سيدى الأمير - عن أحوال المسلمين فكله ناشئ عن العلل التى أصابتنا وأقعدتنا عن النهوض والأخذ بوسائل التقدم، ولو أطلقنا

عنان الفكر فى استخراج دقائق الحكم التى اشتمل عليها الدين الإسلامى وفى ما يأمر به من المواعظ البالغة لكفنا عنا أبادى الأعداء التى أصبحت تمزقنا فريقًا بعد فريق فلا يحس الأول بما أصاب الثانى، ولجعلنا أسعد الأمم التى تقلها الغبراء وتظلها السماء، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وإن حرمان أمثالكم - من قادة الفكر ورافعى لواء النهضة العربية - من الدخول إلى أوطانهم وسد السبل فى وجوههم لمن الأمور المحزنة والحوادث المؤلمة.

لذلك فإنى وإخوانى عذرناكم فى احترازكم من الكتابة ضد إيطاليا إذ لم يبق لكم من سبيل إلى الشرق غير أرضها خصوصاً وأن معاضدتنا لا تنحصر فى كتابة مقال، بل إن الموضوع فصيح المجال لمن رام انتهاز الفرص واستثمار الحوادث، وأنتم - يا مولاي - أعرف الناس بالاستفادة من السنوحت السياسية، ويهمنى أن تكون قضيتنا من القضايا التى تفكرون فيها وستعون لمعالجتها بقدر ما تسمح لكم الظروف.

ثم ذكرتم - يا سيدى الأمير - أنه لم يبق من المسلمين أمة إلا وهى مشغولة بالدفاع عن نفسها فى عقر بيتها. هذا صحيح ويتحتم على كل إقليم أن يدافع عن كيانه بما لديه من الوسائل ولكنى أرى هذا وحده غير كاف بل يجب أن تكون للمسلمين رابطة سياسية تجمع كلمتهم وتوحد وجهتهم فى طلب الحرية والاستقلال.

وحبذا لو فكرتم لتكون تلك الرابطة بعقد مؤتمر عام يضم نخبة من رجال المسلمين الذين يرزحون تحت الحكم الأجنبى ويبحثون فى هذا المؤتمر عن العلل التى قطعت أوصالهم وشتت شملهم وفرقت كلمتهم إلى أن وصلوا إلى ما وصلوا إليه من ضياع مجدهم وذهاب ريحهم وإنى لا أتصور أقدر منكم لدعوة الناس إلى القيام بهذا الأمر الجليل كما اعتقد أن هذا المؤتمر

لا يتيسر انعقاده في غير مكة المكرمة، ولا أظن أن جلالة ملك الحجاز يعارض هذه الفكرة متى علم أن الغاية هي إيجاد صلة للتعارف والتآلف بين المسلمين وأن البحث فيه ييحصر في استقصاء أسباب التقهقر القاذف بهذه الأمة إلى هوة الخسران وتحرق الوسائل التي تدعو إلى التضامن والاتحاد وجلب المنافع المضار وتنظيم شئون المسلمين الاجتماعية والأخلاقية لذلك أقترح على سعادتكم أن تفكروا في هذا الأمر، فإذا صادف لديكم قبولا تأخذوا في أسباب هذا المؤتمر في موسم الحج المقبل. وإن يسر الله ووفقتم لإنجاز هذا الأمر الخطير فسيكون له التأثير الحسن في الشرق من جهة، ومن جهة أخرى تعلم الأمم الغربية أن الأمة الإسلامية قامت من سباتها ونهضت من مرقدها ونفضت عنها غبار الذل وأخذت تفكر في إعادة مجدها، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل".

لم يتيسر انعقاد المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة، وصار انعقاده بدلا من ذلك في بيت المقدس، وذلك في غضون شهر نوفمبر سنة ١٩٣١، أى بعد حوالى عام من تاريخ المكاتبات السالفة الذكر بين بشير السعداوى وشكيب أرسلان. على أنه كان بعد اجتماع المؤتمر بالفعل، أى بعد نجاح الفكرة التي بسها السعداوى للأمير شكيب وطلب إليه الدعوة لها في أن كتب هذا الأخير من جنيف في ١٨ كانون أول (ديسمبر) ١٩٣١ إلى السعداوى يعلق على المؤتمر الإسلامي - الذي سره أن السعداوى كان به - ويتكلم عن تاريخ الفكرة بما يدل على أن السعداوى نفسه كان من روادها. وكتاب الأمير شكيب هذا كتاب مطول - على عادته في أكثر كتبه - تحدث فيه عن الضيق المالى الذي اشتدت عليه وطأته بالرغم من بيع مزرعته المقروضة في وادى العجم. ويتنقل من ذلك إلى اقتراح كتابة سيرة الشهيد عمر المختار "في كراسة مستقلة"، وفي فقرة تالية يشير إلى كتاب الفطائع: كتاب فطائع الطليان الذي يعثم تسألوننا كم ترسلون منه لنا، فهذا إن كان بالعربية فلا يلزمنا هنا أكثر من خمسين نسخة يمكن توزيعها على بعض الطلبة ومن يمر

على جنيف من أبناء العرب وإنما نحن يهمننا ترجمة الكتاب إلى لغتين أو ثلاث من اللغات الأوروبية الشهيرة الإفرنسي والألماني والإنجليزى ، ثم يتكلم عن " قضية عبد النبى بالحيز زعيم أورفلة وموته فى الصحراء من العطش مع رفاقه الخمسين نفراً " وأخيراً يتحدث عن المؤتمر الإسلامى ، فيقول :

سررنى أنكم كنتم فى المؤتمر الإسلامى فى القدس ، وعسى أن يكون هذا المؤتمر مبدأ حياة جديدة للمسلمين . وكانت فكرة هذا المؤتمر فكرتكم من الأول ، وكنت أنا أراها صواباً لكننى أخشى فشل الشروع وشماتة الناس بالإسلام واطلاع الإفرنج على ضعفنا الزائد : وكانت ترد لى مكاتيب فى الموضوع الذى كنتم أنتم تشيرون إليه وكنت أجاب أن الوقت لم يحق بعد ولا أعلم أين يجب عقد المؤتمر ، لأنه فى البلاد الإسلامىة التى تحت الاستعمار لا يمكن عقده وإذا انعقد لا يتمتع بالحربة اللازمة وفى البلاد الإسلامىة التى هى مستقلة لا توجد حكومة تريد عقد هذا المؤتمر خوفاً من أوروبا ، وما زلت فى التفكير ، حتى جاء الحاج أمين الحسينى من ستين إلى جنيف ولوزان ، فأخذنا نبحث فى الموضوع أنا وإياه وزميلى (إحسان بك) الجابرى فقررنا وجوب عقد المؤتمر وأن يسعى هو فى أخذ الرخصة لعقده فى القدس بحجة مسألة الصهيونية ويظهر أنه فيما بعد تذاكر مع شوكت على ، وتقرر هذا الأمر بينهما على أن يسعيا لأخذ الرخصة من الإنجليز ، وصادفت المشكلة الهندىة التى احتاج الإنجليز فيها إلى المسلمين فاستفاد شوكت على من هذه الفرصة ، وأحسن اغتنامها ، فسمحت إنجلترا بعقد هذا المؤتمر فى القدس . وهناك سبب آخر أيضاً هو أن اليهود أزعجوا الإنجليز ، وطالبوهم بمطالب شاقة جداً على انكلترا فصارت سياسة الإنجليز تقتضى أن يقوم المسلمون بحركة عظيمة تكون لهم عذراً فى وجه اليهود الذين لا يزالون يقولون لانكلترا : أنت تعتذرين بأن يقوم عليك العالم الإسلامى ، فأين العالم الإسلامى ؟ وهل هناك شىء اسمه العالم الإسلامى ؟ هؤلاء المسلمون كالأموات ، وما لجرح بميت

إيلام. فمبالغة اليهود فى تهوين أمر المسلمين كانت غير صحيحة. ولكن حركة المسلمين أيضاً ضد الصهيونيين كانت ضئيلة لا تكفى لصد مطالب اليهود. فهذه المسألة فى الحقيقة، كانت من أسباب سماح انكلترا بعقد المؤتمر. وعلى كل حال فالنتيجة حسنة، وإذا تكرر انعقاد المؤتمر تزداد الفوائد. فالعالم الإسلامى لا ينهض إلا إذا اتحد، ولا يتحد إلا إذا تعارف. فالتعارف هو الأصل، وبعد التعارف يحصل قرارات عامة، وهذه القرارات إن لم تنفذ كلها نفذ بعضها".

وأيا ما كان الأمر، فقد كان لسماحة المفتى الحاج أمين الحسينى اليد الطولى فى تنظيم العمل والدعوة لانعقاد المؤتمر فى القدس فإنه كان رئيساً للمجلس الشرعى الإسلامى الأعلى بفلسطين عندما وقعت فتنة فلسطين الكبرى فى أغسطس ١٩٢٩، بسبب النزاع الذى قام بين المسلمين واليهود على (البراق) مبكى اليهود، الذى أراد هؤلاء أن يمتلكوه عنوة واقتداراً. فقد حصل الصدام بين الفريقين، وامتدت الاضطرابات إلى خارج القدس، إلى يافا وحيفا وصفد والخليل، وقامت المظاهرات فى العراق والشام، لتأييد فلسطين والعطف عليها فى محنتها، كما اشتركت مصر والهند، وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية، وسار الأقطار الإسلامية والعربية فى إظهار العطف على فلسطين وتأييدها، وبادرت الحكومة البريطانية - صاحبة الانتداب على فلسطين - بإرسال لجنة برلمانية للتحقيق يرأسها السير والتر شو Sir Walter Shaw - فى سبتمبر من السنة نفسها فاصدرت اللجنة تقريراً فى مارس ١٩٣٠ ترتب عليه - إلى جانب إذاعة بيان من جانب رئيس الحكومة البريطانية، عن سياسة حكومة فى فلسطين، وإصدار كتاب أبيض بريطانى فى القضية الفلسطينية (٢٧ مايو) - إرسال لجنة برئاسة السير جون هوب سمبسن John Hope Simpson لتبحث مسألة تعمير الأراضى وتوسيع نطاق المهاجرة وقد أصدرت هذه اللجنة تقريرها فى أكتوبر ١٩٣٠، ولكن قبل صدور هذا التقرير كانت قدودفت (لجنة دولية) خاصة إلى فلسطين لدرس

مألة البراق، قال ريسها إنها مشكلة بناء على اقتراح لجنة شو، وبموافقة عصبة الأمم على أن تتألف من مغير البريطانيين للفصل في قضية البراق، ووصلت هذه اللجنة إلى القدس في غضون شهر يونيه من سنة ١٩٣٠، وكان عندئذ أن جاءت الوفود من الأقطار الإسلامية - من مصر، وسوريا، والمغرب، وجاوه - للاشتراك في الدفاع عن البراق فقرر إعلان تمسك المسلمين به، كما أرسلت سائر الأقطار الإسلامية بقرارات التأييد. وبحث هذه الوفود موضوع المؤتمر الإسلامي. وتألفت في القدس لجنة تحضيرية "أخذت على عاتقها أمر التمهيد لهذا المؤتمر والدعوة إليه" . . ومنذ حوالي شهر أغسطس ١٩٣١ دخلت مسألة انعقاد المؤتمر في دور عملي. وقد شرح الحاج أمين الحسيني نفسه في بيان أذعه، بوصفه رئيساً للجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامي العام في ٣١ أكتوبر شيئاً من تاريخ "التحضير" لهذا المؤتمر، وذلك عندما أراد أن يبطل دسائس الصهيونيين، والذين يريدون عرقلة المؤتمر، حيث صار هؤلاء ينشرون "الدعاية الخبيثة" ضد المؤتمر، ويتهمونه بأنه يريد البحث في موضوع إعادة الخلافة الإسلامية. فأصدر الحاج أمين بيانه ليدحض هذا الافتراء الكاذب، وليحذر المسلمين من دسائس "خصوم الإسلام". والذي يهمنا من هذا البيان ما ذكره سماحته عن نشوء فكرة انعقاد المؤتمر حيث قال:

إن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامي العام الذي تقرر أن ينعقد في بيت المقدس ليلة الإسراء المباركة في ٢٧ رجب المقبل (١٣٥٠ الموافق ٨ ديسمبر ١٩٣١) بالنظر إلى ما بدا لها من وجود مساع إفسادية ودعاية خفية لمناوأة المؤتمر وعرقلة أعماله، ترى من الواجب والمصلحة أن تذيب على الرأي العام الإسلامي البيان الآتي:

إن المؤتمر الإسلامي العام، قد فكر في عقده منذ أكثر من سنتين، تلبية لاقتراحات كثيرين من كبراء العالم الإسلامي، وقد اشتد الشعور بالحاجة على عقده حين اجتماع وفود الأقطار الإسلامية في القدس عند اشتراكها في الدفاع

عن حقوق المسلمين فى البراق الشريف أمام لجنة البراق الدولية، وبعد صدور قرار اللجنة المذكورة. وقد تألفت فى القدس لجنة تحضيرية أخذت على عاتقها أمر التمهيد لهذا المؤتمر والدعوة إليه، وعقدت جلسات بحثت فيها الوسائل التى تساعد على نجاح المؤتمر، والاقتراحات التى فكرت فى عرضها هيئة المؤتمر العامة عند التمامها.

ومع أن هذه الاقتراحات لا تتعدى البحث عن نشر أساليب التعاون الإسلامى ونشر الثقافة الإسلامية والدفاع عن البقع المشرفة الإسلامية، والعمل لوقاية الدين الإسلامى وصيانة عقائده من شوائب الإلحاد وحماية مصالحه. وتأسيس جامعة إسلامية فى بيت المقدس والنظر فى قضية الخط الحديدي الحجازى ولم يرد فيها قط اقتراح بمسألة الخلافة . . . (فقد أخذ أعداء الإسلام) منذ شهرين، أى منذ دخلت مسألة انعقاد المؤتمر فى دور عملى يثون دعاية خبيثة فى السر والعلانية . . الخ)

وثمة بيان آخر أصدره سماحته فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٣١ " رغبة فى إيضاح الحقيقة " حول المؤتمر الإسلامى، ووجه الأهمية فى هذا البيان أن السيد محمد أمين الحسينى يتحدث فيه عن الخطوات التى أدت إلى الدعوة لانعقاد المؤتمر الإسلامى. وقد نشر هذا البيان فى مصر فى ٢٩ نوفمبر، وجاء فيه:

١ - حينما صدر قرار لجنة البراق الدولية فى ٨ حزيران (يونيه ١٩٣١) وشعرنا بما فيه من الإجحاف بحقوق المسلمين كتبنا إلى حكومة فلسطين معترضين على ذلك، ومعلنين أن هذا المكان المقدس الذى هو جزء من المسجد الأقصى المبارك، إنما هو للمسلمين جميعاً، ويرجع أمره إلى العالم الإسلامى قاطبة. وبذلك استشرنا فى أمره الكثيرين من ذوى الرأى والعلم والمكانة من مسلمى فلسطين. ثم كتبنا بذلك إلى كثير من ذوى الغيرة والرأى فى جميع الأقطار الإسلامية فوردت إلينا الأجوبة فى أكثرها إبداء الرأى فى ضرورة عقد مؤتمر إسلامى عام للنظر فى هذه القضية وغيرها من الشؤون

الإسلامية. وإن المراسلات فى هذا الصدد محفوظة لدى المجلس الإسلامى .
كما أن بعضها نشره أربابه فى الصحف المصرية وغيرها مصرحين بصورة عقد
مؤتمر إسلامى عام .

٢ - وقد بحثنا هذا الموضوع فى اجتماع رسمى للمجلس الإسلامى
الأعلى بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٣٥٠ الموافق ٢٦ تموز (يوليه ١٩٣١).
وبعد بحث طويل اتفقت آراء الأعضاء على ضرورة عقد هذا المؤتمر، وحيث
بحث فى كيفية إرسال الدعوة لتكون بإسمى بالنيابة عن المجلس الأعلى . أم
من جمعية حراسة الأماكن الإسلامية المقدسة، فرأى جميع الأعضاء أن تكون
بإسمى بالنيابة عن المجلس الإسلامى الأعلى وفوضونى بذلك فدعوت إليه
باسم رئيس المجلس الإسلامى الأعلى ومفتى القدس .

٣ - ومن هذا يتضح جلياً (أولاً): أننى استشرت كثيراً من ذوى رأى
والمكانة فى فلسطين والأقطار الإسلامية الأخرى فى الأمر . فحبذوا عقد مؤتمر
إسلامى عام ووافقوا عليه .

(ثانياً): إن المجلس الإسلامى الأعلى وافق على المؤتمر المذكور والدعوة
إليه .

٤ - ثم بعد إصدار الدعوة وتلقى الأجوبة المشعرة بنجاح فكرة المؤتمر
أبدى بعض ذوى رأى والنشاط والإخلاص استعدادهم للمساعدة على العمل
فى إعداد وسائل المؤتمر فتألفت منهم لجنة تنحضيرية ما فتئت تعقد
الاجتماعات وتفكر فى التدابير الضرورية لعقد المؤتمر وإنجاحه . وفى
الموضوعات التى يتناولها . والنظم التى يسار عليها فيه : . الخ "

ويشتمل هذا البيان على بنود أخرى . ولكن ما ذكرناه من بنوده إلى
جانب ما جاء فى البيان السابق والمعلومات التى أثبتناها عن هذا المؤتمر يكفى
لتوضيح كيف نشأت الفكرة وقامت الدعوة لانعقاده .

وأما ما يهمنا مباشرة من أعمال (اللجنة التحضيرية) التى تحدث عنها

سماحة الحاج محمد أمين الحسينى . فهو : ان هذه اللجنة قد قررت أن تكون (مسألة طرابلس الغرب) من المسائل التى يجب أن يتناولها المؤتمر . وأن الذى يتولى بسط هذه المسألة إنما هو بشير السعداوى نفسه .

وبالفعل وجه السيد محمد أمين الحسينى . باسم اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامى . الدعوة إلى بشير السعداوى . ليضع تقريراً عن قضية طرابلس الغرب ، يتقدم به للمؤتمر واشترط الحاج محمد أمين الحسينى أن يظل هذا الموضوع سرّاً مكتوماً . فلا يذاع عنه شئ قبل انعقاد المؤتمر لأسباب ذكرها سماحته فى الدعوة التى وجهها للسعداوى والتى صورتها :

المجلس الشرعى الإسلامى الأعلى - القدس الشريف . خصوصى ومكتوم " .

بسم الله الرحمن الرحيم - حضرة الكريم الفضال السيد بشير أفندى السعداوى المحترم رئيس اللجنة التنفيذية البرقاوية (كذا - وصحتها للدفاع عن طرابلس - برقة) دمشق - سوريا .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد : فإن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامى العام قد نظرت فى المسائل التى ينبغى أن تطرح على المؤتمر الإسلامى للبحث فيها . ولاح لها أن الفرصة أثناء انعقاد المؤتمر تكون سانحة لطرح مسألة طرابلس الغرب على المؤتمر . ولذلك نرجو من حضرتكم بصورة خاصة . أن تفضلوا بوضع تقرير عن القضية الطرابلسية بحيث يكون هذا التقرير على شكل حسن السياق . قريب التناول . مؤيداً بالأرقام الصحيحة والمقارنات الموثوق بها والإحصاءات المضبوطة . حتى يتكون من هذا التقرير صورة جامعة مانعة لقضية طرابلس الغرب .

ونود أن نلفت نظركم إلى وجوب اعتبار هذا الرجاء من حضرتكم بشأن هذا التقرير أمراً مكتوباً جداً فلا يذاع عنه شئ بته . ولا يعرف أن قضية

طرابلس ستطرح على المؤتمر والسبب فى هذا واضح لحضرتكم. وهو أنه ذاع قبل انعقاد المؤتمر أن المؤتمر قد يبحث فى القضايا الإسلامية ذات الوجهات المتعددة كقضية طرابلس وأمثالها فإن الغاضبين أنفسهم لناواة الحركة الإسلامية يتخذون من هذا وسيلة للتشويش والشغب كما لا يخفى على حضرتكم فالحرص على كتمان مثل هذه الأمور واجب.

هذا وإنى أنتظر تفضلكم بالجواب بأقرب وقت ممكن. مقدماً لكم فائق الشطر سلفاً. والسلام عليكم ورحمة الله .

إمضاء

١٥ جمادى الثانية ١٣٥٠

محمد أمين الحسينى

٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣١

ولقد حضر بشير السعداوى المؤتمر الإسلامى، وأعد تقريراً ضافياً عن القضية الطرابلسية البرقاوية، يعتبر من وثائق هذه القضية الهامة، تكلم فيه عن بدء الاحتلال الإيطالى لبلاده، والمقاومة التى قوبل بها هذا الاحتلال، والفظائع التى ارتكبها الطليان لإفناء أهل البلاد وإبادتهم، وسجل المطالب التى تضمنها (الميثاق الوطنى) الذى وضعته اللجنة التنفيذية "للجاليات الطرابلسية البرقاوية" وأهاب بالعالم الإسلامى، الممثل فى مؤتمره أن يعمل لمعالجة هذه القضية، وأن يتشغل مواطنيه "من برائن الأعداء قبل أن يقضى عليهم".

ومن المعروف أن المؤتمر الإسلامى بدأ جلساته يوم ٧ ديسمبر ١٩٣١، وأنه اختار السيد محمد أمين الحسينى رئيساً له، وأن لجأاً تشكلت لمعالجة شتى الموضوعات التى قرر المؤتمر إدراجها فى جدول أعماله، وأن قضية طرابلس برقة كانت موضع اهتمام المؤتمر. وقد اختار المؤتمر بشير السعداوى عضواً فى لجنته التنفيذية، التى كانت مهمتها تنفيذ مقررات المؤتمر، وصار عضواً بلجنة الدعاية والإرشاد، ثم عينه المؤتمر مفتشاً لنشر فكرة المؤتمر فى سوريا ولبنان.

وكان بعد مضي أكثر من عام على انفضاض المؤتمر، أن أتيحت الفرصة لنشر التقرير الذى وضعه بشير السعداوى فى الظروف الآتية. فقد عنى الأمير شكيب أرسلان فى غضون سنة ١٩٣٢ بإصدار طبعة ثانية من كتاب (حاضر العالم الإسلامى) وهى الطبعة التى قال فى إحدى رسائله إلى بشير السعداوى، والتى مرت بنا - إنه يعد مقالا ضافياً عن فظائع الطليان، استند فيه إلى ما جاء فى كتاب (الفظائع السود الحمر)، ليجعله جزءاً من تعليقاته التى يريد إثباتها فى (حاضر العالم الإسلامى) فيطبعته الجديدة. ولقد ذكرنا أن شكيب أرسلان أنفذ وعده الجزء الثانى من (حاضر العالم الإسلامى)، وهو يتضمن هذا المقال فى فصل بقلم الأمير شكيب يعنون: طرابلس الغرب وإيطاليا. على أن بشير السعداوى أراد كذلك أن ينشر الأمير ضمن "تعليقاته" التقرير الذى كان قد تقدم به عن القضية الطرابلسية البرقاوية إلى المؤتمر الإسلامى فى شهر ديسمبر ١٩٣١، فكتب السعداوى بتاريخ ٢٨ رمضان ١٣٥١ و ٢٤ يناير ١٩٣٣ إلى الأمير شكيب:

فإننى أن أذكر لعطوفتكم شيئاً من الأهمية بمكان، وهو أنكم بمناسبة اعتنائكم بالتعليق على كتاب حاضر العالم الإسلامى، ذلك الأثر القيم الذى لا شك أنه سيقراه مئات الألوف من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. ولما كنتم تفضلتم بنقل نبذ من كتاب الفظائع إليه وأنها لخدمة للشعب الطرابلسى البرقاوى يعجز الآباء والأبناء عن أداء واجب الشكر عنا لكم إذ أنكم بتسجيلكم تلك الفظائع فى كتاب كحاضر العالم الإسلامى قد انتقم لنا انتقاماً شفيتم به صدورنا. والأم الذى أود أن أذكره وأتقدم ب لعطوفتكم راجياً أن تضيقون إلى ما عودتمونا عليه من العطف، هو أننى عندما حضرت إلى المؤتمر الإسلامى قدمت للمؤتمرين تقريراً ضمته خلاصة الأدوار السياسية التى مرت بتلك البلاد، فإذا كان فى الإمكان ونحريتم مناسبة لدرج هذا التقرير فى تعليقكم تكونون - يا سيدى - قد خدمتم قضيتنا من هذه الناحية

خدمة جليلة. وإننى أتقدم لعطوفكم بهذا الرجاء قرر إخوانى فى جلستهم الأخيرة رفعه لعطوفتكم، وكلنا أمل فى أن يصادف رجاؤنا قبولاً حسناً".

واستجاب الأمير شكيب لهذه الرغبة، فأثبت التقرير فى الجزء الثالث من كتاب (حاضر العالم الإسلامى) فى نفس الطبعة - الثانية التى صدرت سنة واستجاب الأمير شكيب لهذه الرغبة، فأثبت التقرير فى الجزء الثالث من كتاب (حاضر العالم الإسلامى) فى نفس الطبعة - الثانية التى صدرت سنة ١٣٥٢ هـ و ١٩٣٣ ميلادية والتى صدر فيها كتاب حاضر العالم الإسلامى يتضمن فى تعليقات جزئه الثانى "النبدات" التى اقتبسها الأمير شكيب من (كتاب الفظائع). وفى ١٨ ربيع الآخر ١٣٥٢ (١٠ أغسطس ١٩٣٣) كتب الأمير شكيب من جنيف إلى بشير السعداوى: " . . صدر حاضر العالم الإسلامى الجديد وفيه مئة صفحة بالجزء الأول (والصحيح هو الجزء الثانى) عن طرابلس الغربى وفيه كل ما يلزم من المباحث ومن ذك فظائع الطليان. وكذلك فى الجزء الثانى (والصحيح هو الجزء الثالث) عدة صفحات فى جملتها تقريركم بنصه، وبالاختصار فالمسلمون بقدرتون أن يطالعوا فى هذا الكتاب جميع مسألة طرابلس وهذا خير من مقالات الجرائد لآتى تذهب وقلمنا تحفظ .

وفيما يلى نص "تقرير" بشير السعداوى "عن القضية الطرابلسية البرقاوية (الذى) تقدم به إلى المؤتمر الإسلامى فى القدس".

بسم الله الرحمن الرحيم - منذ أن أخذ الأوروييون بشتون الغارة على البلاد الإسلامية بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد إسلامية - بعد الأندلس - بمثل ما فجعت به طرابلس برقة، تلك البلاد التى منذ سطا عليها الإيطاليون وسيوف نقتهم لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة، حتى آلت إلى مجزرة بشرية ومرسح تمثل فيه أفضع الأدوار الهمجية.

لقد أغارت الدولة الإيطالية على القطر الطرابلسى - البرقاوى فى ٥

تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١١ على حين غفلة من أهله، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحامية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندي مبشرين فى عدة مناطق. بيد أن سكان تلك البلاد الذين كلهم كتلة عربية - إسلامية واحدة فطروا على عزة النفس والإباء. لذلك قاموا فى وجوه الغاصبين قومنه رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويذودون عن حياضهم بقلوب ملؤها الإيمان بالله والاعتماد عليه.

واستمرت الحرب سنة كاملة لم يتمكن فى خلالها الجنود الإيطالية من التقدم شبراً عن مرمى مدافع أسطولهم، إلى أن اضطرت الدولة العثمانية إلى عقد صلح مع الإيطاليين منحت فيه الطرابلسيين استقلالهم الإدارى وسحبت جنودها وهى مرغمة.

وعقب ذلك أخذ الإيطاليون يدعون أهالى البلاد إلى السكينة ويظهرون لهم حسن النية لخير تلك البلاد، فوضعت الحرب أوزارها - وألقى أكثر أهالى طرابلس - برقة السلاح وعادت السيوف إلى أغمادها. ولكن رجال الدولة الإيطالية ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالى من السلاح حتى قلبوا لهم ظهر المجن وأخذوا يسومونهم سوء العذاب وينتقمون من كل من حرص الناس على قتالهم فيخلقون لهم تهمًا واهية ويزجون بعضهم فى أعماق السجون ويرمون بالبعض إلى جزر إيطاليا.

فشارت ثائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود فانقضوا على إيطاليا وكانت أول واقعة دموية جرت تسمى بواقعة (القرضابية) وهو مكان قرب خليج سرت.

جرت تلك الواقعة فى أوائل سنة ١٩١٤، أضاع فيها الإيطاليون ما ينيف على "٨٠٠٠" جندي. وعقب ذلك ازداد حقد الإيطاليين على الأهلى لانهاؤا على العزل منهم بالقتل والعذيب. فقتلوا فى يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رمياً بالرصاص ٣٠٠ نسمة فى قضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال من النساء والرجال.

وعلى أثر ذلك اشتعلت فى البلاد حرب سرى لهيبتها فى كل ناحية من النواحي وظلت الفتنة تتقد إلى أن نشبت الحرب العالمية فأرسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين، منهم نورى باشا شقيق أنور باشا الشهير: عندئذ اضطرت الجنود الإيطالية أن تنسحب من كل المواقع التى شغلتها أثناء السلم وتتحصن فى مدينة طرابلس، زوارة الخمس، بنغازى، درنة، طبرق، إلى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت إيطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمة تلو الهزيمة فى ساحات الحرب الأوروبية.

ورغم ذلك ساقطت عدة فيالق من جيوشها إلى طرابلس - برقة وجهزت منهم مائة ألف جندي زحفت بهم على خطوط المجاهدين فى منطقة طرابلس. وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شر هزيمة، وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات كثيرة.

ولما بادت الدولة الإيطالية فى تلك التجربة بالفشل، وعلمت أنها غير قادرة على إخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت إلى التضليل والتمويه فسنت قانوناً سمته "القانون الأساسى" وأعلنته فى سنة ١٩١٩، ومع أنه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين قبلوا به بغية حقن الدماء وراحة الفريقين وانتظروا من رجال الحكومة الإيطالية تنفيذه، ثم ما لبث أن ظهر أنهم اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا ييثون بذور الفساد من وراء الحجب ويوزعون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائفة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لإيقاد نار الفتنة بين الأهلين والتفريق بين الوطن وبنيه والأخ وأخيه. وكادوا يصلون إلى رغائبهم ويوقعون البعض فى تلك الحبال التى نسجتها أياديهم الأثيمة. لولا أن عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلاقوا الأمر بعقد مؤتمر عام فى مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلاد فى سنة ١٩٢٠ فبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتنة والفوضى، وكان الجيش الإيطالى وقتئذٍ - كما ذكرنا آنفاً - منحصراً فى بعض المدن الساحلية.

وبعد المداولة فى جلسات متوالية قرروا بالإجماع ما يلى :

إن الحالة التى آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة مؤسسة على ما يحتمه الشرع الإسلامى من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وغقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل حكمة جميع البلاد بحدودها المعروفة.

وقد تناقش المؤتمر فى أن ذلك لا ينافى منافع دولة إيطاليا التى جاءت إلى وطننا من أجلها مع اللزوم القطعى لراحتنا وسلامتنا وبين ثقة فى أن الشعب الإيطالى لا يرضى فى هذا الزمن الذى تنال فيه كل الأمم أكبر أمانيتها أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبة فى سبيل النظام والأمن موالعدل فى طرابلس الغرب، ولذلك لا تزال للأمة فى أن تسعف بضرورياتها وأن لا تصدم فى أمانة لا ترضى ولا يستقر لها حال غيرها.

وقد أتينا للمكالبة بذلك وفداً من حضرات نورى بك السعداوى ومحمد خالد بك القرقرنى ومحمد فرحات بك والصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة مراجعته لتحقيق الغاية المذكورة فى القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم وأن يحقق أمانى أمتنا. حرر فى ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ (١٨ نوفمبر ١٩٢٠).

ثم انتخب المؤتمر هيئة حكومة عهد إليها إدارة شؤون البلاد الداخلية التى عمدت فيها الفوضى بسبب الفتن التى خلقتها رجال الحكومة الإيطالية. وذهب الوفد المشار إليه فى ذلك الحين إلى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب وأخذ يراجع المقامات الرسمية وغير الرسمية، فلم يكن حظه من رجال الحكومة الإيطالية سوى الإعراض والاستخفاف بمهمته.

أما هيئة الحكومة الوطنية التى عهدت إليها إدارة شؤون البلاد فإنها أخذت فى إقرار دعائم الأمن وتنظيم الشؤون الإدارية كالدوائر المالية والقضائية

وتنظيم الجيش لما سيحدث من الطوارئ. فساد الأمن ورجعت الطمأنينة بعد الخوف الذى استولى على النفوس وانصرف الأهليون إلى معائشهم ومصالحهم.

أما منطقة بنغازى فإن نوري باشا الذى أوفدته الحكومة العثمانية إليها خلال الحرب العالمية حمل الأهالى على التعرض على القطر المصرى وهى خطة رسمتها وزارة الحرية العثمانية فجهز جيشاً مؤلفاً من " ٥٠٠٠ " مجاهد بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسى وتجاوز به الحدود المصرية وترك السيد أحمد الشريف وكيلا عنه فى برقة ابن عمه السيد إدريس السنوسى.

ولما دخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيوش الإنجليزية وبعد حروب بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة واشتدت المجاعة.

فرأى السيد إدريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الإيطاليين وأوقف رحى الحرب وبعد انتهاء الحرب الكبرة بايعه الشعب البرقاوى بالإمارة ووافقت على ذلك الحكومة الإيطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين.

بيد أن رجال الحكومة الإيطالية كعادتهم فى كل عهد يعقد معهم أخذوا ينقضون العهود، فاضطر الأمير السيد إدريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية (سرت) المتضمنة توحيد القطرين الشقيقين والتضامن على الطالبة بحقوقهما معاً، وتنص المادة الخامسة من هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين.

وما كادت هذه الاتفاقية تتم حتى هاجم الإيطاليون سواحل مصراتة فى منطقة طرابلس سنة ١٩٢٢. فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب فى كل المناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الإيطاليون خلالها عن التقدم ولو كيلومتراً وضجت البلاد بألوف من الخلق فى سبيل الدفاع، كما أن

الإيطاليين خسروا أضعاف ذلك لأنهم كانوا المهاجمين. ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم وانتدبوا للذاكرة السنيور (بيلا) والسنيور (رايكس) وخرجا فلى الموعد المضروب الذى قرره الحكومة الوطنية فى مكان يسمى (فندق الشريف).

وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالى الكتاب الآتى: "باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت فى البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج فاضطرت الأمة إلى عقد مؤتمر غريان بلغت مقرراته الصائبة إلى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه إلا الإعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق.

ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة المصرية على تلك السياسة المنفورة. وتحقق أهل القطرين طرابلس - برقة أن حياتهما محفوفة بالخطر فى الحال والاستقبال وأن مادهم أحد القطرين لابد أن يحقق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما أن إدارتها إلى عهد الاحتلال واحدة. عندئذ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الإخاء ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية فى سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق إيطاليا السياسى.

فقرر الفريقان بالإجماع فى سرت اتفاقية من جملة فصولها المطالبة بتوحيد إدارة القطرين وهو الحل النهائى الذى لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة التى لا تزيد سياسة المراوغة والتفريق فضلا عما تصاب به الأمتان من الخسارة وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى.

أما نحن أهل القطرين فإن الأدوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا إلى صورة حل هذه المشكلة حلا لاحظنا فيه المنافع الإيطالية سياسية كانت أو اقتصادية وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه

الأمة وتكون له السلطات الإدارية جميعها مع السلطة الدينية. ولا تظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد إن تجردت عن ملاحظة الأشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها إلى الحقائق والجوهريات. كما قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعملنا خلالها أن سفركم إلى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالته الملك والحصول على إذن وصلاحيات واسعة تخول لكم المفاوضة معنا للوصول إلى ما يرفع الخلاف الذي لا تتحمل البلاد دوامه ورعاية لأحكام اتفاقية سرت المذكورة فإننا في انتظار مندوبى برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لإشعار سمو الأمير السيد محمد 'دريس ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التي لا تشك أنها ستبنى على أساس الإخلاص وحسن النية والأمل وطيد في أن دولتكم ستضمون إلى تاريخ حياتكم السياسية فخراً آخر في حل المشكلات واقبلوا يا دولة الوالى عاطر التحية وفائق الاحترام".

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة شهور والإيطاليون يراوغون فى أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة والاستفادة من الوقت لإعداد العدة للحرب وقد تجلت فكرتهم هذه فى تكليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذى بيد الأهلىين قبل كل حل وإلا الحرب، عندئذ لم تر الحكومة الوطنية بدءاً من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب، واستؤنف القتال الذى لم يزل شرره يسيطر من ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

إن الحكومة الإيطالية بعد أن اتخذت كل معانى ما فى وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامناً مستميتاً فى سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه، عمدت إلى تنفيذ سياسة الشدة والإرهاق خصوصاً بعد استلام الفاشيست زمام الحكم فإنهم أضافوا إلى تلك الشدة فكرة إبادة الشعب وإمحاءه لتخلولهم الديار ويستخلفوا فيها المستعمرين من أبناء جلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم. وهكذا أخذ الفاشيست فى تنفيذ سياستهم الغاشمة، وما برحوا ينزلون بذلك الشعب ضروب العذاب فلا يرحمون طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً.

فإنهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة في كل بلد من ذلك القطر . فإدارة البلاد تحت حاكم عسكري مطلق اليد لا يسال عما يفعل وله في كل لواء وقضاء وناحية حاكم إدارى وجميع الدوائر المالية والعدلية والبلدية يديرونها بمعرفتهم وليس للأهليين مشاركة في شئون بلادهم ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضاً الذين يقفون على الأبواب، وجميع المعاملة باللغة الإيطالية . والأغرب من هذا كله أن جباة الأموال من الفاشيست فيطرحون الضرائب ويجبونونها من المكلف ولا يدرى ما عليه ولا يعرف بأية نسبة تجبى منه تلك الضريبة . بل إنه مرغم على أدائها عن يد وهو صاغر، وإذا سائل عن أساس الضريبة يعد خائناً ويعاقب العقاب الأليم .

وبالجملة فإن السياسة المرهقة التى تتمشى عليها الحكومة الفاشيستية لم يسبق لها مثيل منذ أن عرف التاريخ . فسفك الدماء وقتل النفوس البريئة والتجاوز على الأعراض والنفى والحكم بالسجن المؤبد وسلب الأموال وغصب الأملاك والأراضى من أيدي أصحابها وقذف البشر من الطائرات وإلقاء بعضهم مكبلين بالأغلال في لجج البحر وقتل الأسرى وهتك حرمت الدين ودوس القرآن الكريم تحت الأقدام أمام جماهير من المسلمين وهدم أضرحة بعض الصحابة الكرام والأولياء واتخاذها اصطبلات للحيوانات والترنم بالأناشيد فى الطعن بالدين الإسلامى فحدث عن ذلك ولا حرج، ولا تريد أن تأتى فى هذه العجالة على ذكر الفظائع التى كتب فيها تأليف خاص يغنينا عن التفصيل، فإنه فيه من الفظائع ما تنفطر منه الأكباد ويذيب الفؤاد .

ومنه يعلم القارئ أن سياسة الفاشيست فى ذلك القطر ترمى إلى إبادة أهله، فقد كان عدد الشعب الطرابلسى - البرقاوى قبل الاحتلال الإيطالى يربو على " ٥٠٠.٠٠٠ " نسمة، وقد صرح الجنرال غرسيانى قائد الحركات العسكرية أنه بعد الإحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس - برقة لم

يتجاوز عددهم (٧٠٠ ألف)، ولا ريب فى أنهم قد قضاوا على ذلك الشعب المسلم بين قتل وتهجير والبقية الباقية أيضاً محكومة بالفناء، لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الأعناق لابد أن يؤدى إلى تلك النتيجة، وعدا ذلك فإن مرافق الحياة فى تلك البلاد قد استولوا عليها جميعها.

فالمسلم لا يتمكن بالاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة ولا بأية حرفة تؤمن حياته. فالتاجر لا يمكنه التوسع بالتجارة والتجول بالبلاد لتوسيع نطاق عمله، بل إنهم يجددون له المبالغ التى يمكنه أن يتاجر بها والأيام التى يتغيبها فى الأقطار المجاورة وصنف البضاعة، وإذا تغيب عن الأجل المضروب له أة تاجر بأصناف غير مسموح له بها، تسحب منه إجازة التجارة ويعاقب؛ زد على ذلك أنهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط فى دياجير الجهل فلم تكن فى تلك البلاد إلا بضع مدارس ابتدائية أسست فى عهد الترك يعلمون فيها الأطفال باللغة الإيطالية، للوصول إلى إماتة اللغة العربية حتى لا يبقى ناحية منهم مقومات الشعب إلا ويقضى عليها القضاء المبرم.

ولما رأت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التى تقطن الأقطار الإسلامية ما أحاط ببلادها من الأخطار فكرت فى تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المريع وانتخبت هذه اللجنة ووضعت أساساً لعملها (الميثاق الوطنى) وهذه مواده:

- ١ - تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس - برقة يرأسها زعيم مسلم تختارة الأمة.
- ٢ - دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.
- ٣ - انتخاب الأمة مجلساً حائزاً على الصلاحية التى يخوله إياها الدستور.
- ٤ - اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة والتعليم.

٥ - المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليده القطر فى جميع أرجائه .

٦ - العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية .

٧ - العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه .

٨ - تحسين العلاقات بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى .

ومنذ تأسست اللجنة أخذت على عاتقها معالجة القضية بشتى الوسائل الداخلية فى حيز إمكانها فأذاعت على الملأ السياسة الهوجاء التى تتمشى عليها الدولة الإيطالية فى تلك البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل ، وهى ترسل فى كل موسم حج إلى مكة المكرمة عشرات الآلاف من النشرات لتحيط المسلمين فى جميع الأقطار علماً بما هو حادث فى تلك الديار النائية . ولم تكتف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست وبينت له عقم سياسة الحديد والنار التى يتبعها فى طرابلس - برقة ، ولكن نصحتها لم يزد إلا غروراً وعتوراً كبيراً ، وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الذين لا يرضيهم إلا تمزيق اللحوم والولوع فى ذم البشر .

لذلك يتحتم على المسلمين الاهتمام بإخوانهم فى الدين والقومية فى تلك البلاد النائية ، أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت فى وجوههم السبل إلا سبل الموت وفى الموت راحة البائسين .

ولطالما ملنا الفضاء بأصواتنا ورفعنا شكوانا إلى العالم الإسلامى ليصرخ فى وجوه وحوش الفاشيست عساهم يرجعون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم رحمة بالإنسانية وشفقة على البشرية ، ولكن أنى للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب .

ولما كان المؤتمر الإسلامى الموقر من ضمن واجبه التفكير فى مثل هذه الشؤون الهامة فيها إننا تبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التى يجب العناية بها فإن ذلك الشعب المفجوع فى وطنه ودينه إذا لم تشمله عناية المتخلصين من إخوانه المسلمين الذين يهتمهم أمر الدين سيصبح "لا سمح الله" أثراً بعد عين وفى ذلك ما فيه من المسئولية الكبرى والبلاء العظيم.

فيا أيها السادة الأكارم:

إن الشعب الواقف فى وجوه أعدائكم منذ إحدى وعشرين سنة هو منكم، والدين المهان فى تلك الديار هو دينكم، وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الله هم شهداؤكم. هنالك فى تلك الصحارى المحرقة والفيافي المقفرة لكم إخوان، "صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً".

أجل. إن إخوانكم فى تلك الديار النائية يستصرخكم ويناشدوكم الله أن تعملوا على معالجة شئونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا وبذلك تفقدون قطراً إسلامياً فتحة جدودكم الكرام ورفعوا فيه راية الإسلام منذ أربعة عشر قرناً.

وقد أصبحت اليوم تلك التربة التى خصبت بدماء الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء تمطر ظلماً وجوراً على إخوانكم البؤساء، هنالك تسمعون الصراخ والعيول والبكاء والنحيب، هنالك الإنسانية المعذبة. هنالك تحار الأفكار وترى الأبصار، ولا منجد، ولا مغيب، ولا منقذ، ولا معين.

فإن فى تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزلوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم ويدافعون عن كيانهم، وعدوهم الجائر يتربص بهم الدوائر، فنجوا أن تفكروا فيما يخفف المصائب التى تحل بهم قبل أن تمزقهم القوى الغاشمة، ولا تخال أنها تعوزكم الوسائل لمديد المساعدة لأولئك البؤساء،

وأنتم رجال الإسلام الذين تمثلون " ٤٠٠ " مليون مسلم فى الكرة الأرضية .
والله فى عون العبد ما كان العبد يف عون أخيه " .

رئيس اللجنة التنفيذية

٢٦ رجب سنة ١٣٠٥

للجاليات الطرابلسية البرقاوية

٦ كانون أول (ديسمبر) ١٩٣١

بشير السعداوى

وهكذا جاء هذا التقرير تاريخاً موجزاً للأدوار التى مرت بها القضية
الطرابلسية البرقاوية من بداية العدوان الإيطالى فى سنة ١٩١١ إلى وقت
انعقاد هذا المؤتمر الإسلامى ، أى خلال إحدى وعشرين سنة ، ذاق فيها الشعب
الطرابلسى البرقاوى صنوف العذاب على أيدي الفاشيست الطغاة خصوصاً .
ثم إن هذا التقرير يذكر طرفاً من الجهاد الذى قام به بشير السعداوى وصحبه
الذين تألفت منهم اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة برئاسة ، ولعل
أهم ما يسترعى النظر فى هذا التقرير ، الطريقة التى عرض بها السعداوى
مطالب البلاد الوطنية من الحكام الإيطاليين ، منذ أن صدرت قرارات مؤتمر
غريان (١٩٢٠) ، واجتماع سرت (١٩٢٢) ، إلى أن وضعت اللجنة التنفيذية
الميثاق الوطنى (١٩٢٩) ، وهى مطالب تدعو إلى " توحيد الإدارة فى القطرين
الطرابلسى والبرقاوى " وإنشاء حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس -
برقة يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة ، ولم يكن مرشحاً لهذه الرئاسة غير
الأمير السيد محمد إدريس السنوسى الذى حمل إليه السعداوى بيعة
الطرابلسيين (الأولى) له بالإمارة (١٩٢٢) . ووضح أن الوحدة السياسية
والاقتصادية ، وإنشاء الحكومة الذاتية ، أو الإمارة الوطنية برئاسة السيد إدريس
السنوسى ، وهما الهدفان اللذان طرس بشير السعداوى كل جهوده لتحقيقهما
منذ عودته إلى بلاده من هجرته الأولى التى استمرت من ١٩١٢ ، إلى
١٩١٩ ، إلى أن خرج منها فى هجرته الثانية منذ ١٩٢٣ ، ثم من ذلك الحين
إلى وقت انعقاد المؤتمر ، وخلال كل السنوات التالية كذلك - كما سنرى -

حتى نالت ليبيا فعلا استقلالها بعد هذه الحوادث بعشرين سنة تقريباً. وثمة ملاحظة جديرة الذكر هي أن الأمانى القومية لم تكن فى تلك الحقبة تتعدى إنشاء الإمارة الوطنية وممارسة الحكومة الذاتية، مع بقاء التبعية لإيطاليا، حيث تضمن هذا التقرير - وكما فعل الميثاق القومى للشعب الطرابلسى البرقاوى - إبرام معاهدة "بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية" تحفظ للأخيرة مصالحها الاقتصادية والسياسية.

ولم يكن تقديم هذا التقرير أو طرح القضية الطرابلسية البرقاوية على المؤتمر كل ما شغل بشير السعداوى. فقد عنى السعداوى قبل خروجه من دمشق بإتمام طبع (كتاب الفطائع السود الحمر) - وكانت صعوبات مالية تحول دون إنجاز مسألة هذا الكتاب بالسرعة المطلوبة، فاكتمل بأن حمل معه إلى المؤتمر عدداً محدداً من النسخ، أخذ يوزعه على أعضائه. ثم إنه لم يلبث أن نشط مع جماعة من أعضاء المؤتمر من أجل الدعوة لانعقاد (مؤتمر عربى) غير المؤتمر الإسلامى العام، يعمل لتحقيق الفكرة التى طالما سيطرت على ذهنه، وتاقت نفسه لإبرازها إلى حيز الوجود، وهى توحيد جهود العرب فى الكفاح ضد الاستعمار بأن تندمج قضاياها المحلية أو الإقليمية فى قضية عربية واحدة تهدف إلى إنشاء كيان للأمة العربية يحررها من كل نفوذ أو استغلال أجنبى، ويكفل لها الحرية والاستقلال. وذلك أمل طالما كشف عنه بشير السعداوى فى نداءاته واستغاثاته، وبياناته، لاستنهاض من برائن الاستعمار الفاشستى، فقد كانت هذه هى المرحلة التى تخلى فيها السعداوى عن تخمسه السابق لدولة الخلافة الإسلامية - الدولة العثمانية - عندما شهد العثمانيون أنفسهم يتخلون عن الخلافة، ويسعون لإنشاء دولة علمانية وحسب، وشهد العرب فى كل الأقطار التى ضمنها إليها دولة الخلافة هذه فى السابق، وقد انفصلت مقدراتهم عن مقدرات العثمانيين، وصارت تجابههم مشكلات من غير نوع المشكلات التى كانت تجابههم أيام السيادة العثمانية، وخضع كل قطر من أقطارهم فى هذه السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى لنوع من أنواع

النفوذ والاستعمار الأوروبي، وشغل كل قطر من هذه الأقطار بقضاياها الوطنية، وكادة الانشغال بهذه القضايا المحلية أو الإقليمية يصرف تماماً القادة والزعماء عن الاهتمام بغير شئونهم المحلية هذه. ولذلك فقد سيطرت على ذهن السعداوى فى هذه الحقبة فكرتان: أن يجعل القضية الطرابلسية البرقاوية موضع اهتمام العالم الإسلامى عموماً والعالم العربى خصوصاً، وقد بذل قصارى جهده لبلوغ هذه الغاية، وظفر بما كان يريده. وأما الفكرة الثانية، فهى أن تتحد كلمة المسلمين والعرب، وتتوحد جهودهم حتى يتسنى لهم الخلاص من نير الاستعمار الأجنبى، واعتقد السعداوى أنه إذا اتحدت كلمة المسلمين والعرب، واستطاعوا التحرر من السلطان الأجنبى (أى الاستعمار)، فإن بلاده طرابلس برقة لابد متحررة كذلك من الاستعمار الإيطالى مهما بلغ من قوة الفاشيست وجبروتهم. على أن نزعة السعداوى الإسلامية العربية والتى نشأت وقويت بحكم نشأته فى تلك البيئة الإسلامية التى وصفناها عند تناول سيرته فى أحداثه وصدر شبابه - كانت دائماً أقوى من شعوره الإقليمى. وتضافرت التجارب التى مر بها من أيام هجرته الأولى على أن يتزايد أفق تفكيره اتساعاً وبالدرجة التى جعلته يرسم فى ذهنه صورة براقة لعالم إسلامى أو عربى متحد، يتمتع بكيان واحد، وليس لأى أجنبى سلطان عليه. وسوف نرى كيف أن هذه النزعة الإسلامية العربية قد بقيت ذات أثر فعال فى توجيه نشاط السعداوى فى كل مراحل جهاده التالية كذلك، فلم تكن يوماً زعامته إقليمية بحثة، ولم يتخل يوماً عن فكرة جمع كلمة العرب وتوحيد نشاطهم للتغلب على المشكلات التى تجابههم. بل إنه التزم فى علاج القضية الوطنية أساليب تستهدف الصالح العربى العام، فلم ينظر إلى قضية طرابلس برقة على أنها مسألة محلية. ثم إنه كان من بين قادة الرأى فى العالم العربى، الذين سعوا - وعلى نحو ما سيأتى ذكره - لإنشاء كيان موحد للعرب: الفكرة التى تمخضت بعد مرورها فى مراحل أخرى وخضوعها لمؤثرات متنوعة عن تأسيس جامعة الدول العربية، ولقد كان طبيعياً بعد هذا

كله أن يستند كل حل سليم لقضية طرابلس برقة - فى نظر بشير السعداوى - على مبدأ الوحدة.

لكل هذه الاعتبارات إذاً نشط بشير السعداوى وهو بالقدس مع إخوانه العرب للترويج لفكرة الكيان العربى المتحد، والقضية العربية العامة والعمل لها. وقد أسفرت جهود هؤلاء القادة عن عقد مؤتمر «عربى» - غير المؤتمر الإسلامى - فى مدينة القدس مساء يوم الأحد ٤ شعبان ١٣٥٠ و ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣١ «بحثوا فيه ما يجب عمله لدرء النازلات الاستعمارية التى نزلت ببلادهم، والقضايا الإقليمية التى غمرهم بها المستعمرون» ثم أقر المؤتمر «ميثاقاً مقدساً» لإعلان أن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ، ولتوجيه الجهود فى كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هى استقلالها التام كاملة موحدة، ومقاومة كل فكرة ترمى إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية، ورفض الاستعمار بجميع أشكاله وصوره. ورأى المجتمعون دعوة (مؤتمر عربى عام) فى إحدى العواصم العربية للبحث فى الوسائل المؤدبة إلى نشر الميثاق ورعايته، ثم أصدروا بذلك كله بياناً إلى العالم العربى، تشرح ديباجته على وجه الخصوص كل الاعتبارات التى ذكرناها فى أسباب عقد هذا المؤتمر. كما يذكر البيان نص الميثاق المقدس، ويتضمن أسماء أعضاء (اللجنة التنفيذية) للمؤتمر، وأسماء الذين وقعوا على الميثاق، ومن بينهم - بطبيعة الحال - بشير السعداوى. وإليك نص هذا البيان:

بيان إلى العالم العربى

يعرف كل من اشتغل فى الحركة العربية، أو نتبع سيرها، على اختلاف أدوارها، ما كان من الجهود النبيلة التى شرع رجالات العرب ومفكروهم وشبانهم يقومون بها من عهد طويل، ولا سيما بعد إعلان الدستور العثمانى، لتكوين قضية عربية عامة، غايتها تحقيق كيان عربى مستقل، يشمل الأقطار

العربية المختلفة، ويوصل الأمة العربية إلى الاستقلال الذى تتمتع به الأمم الحرة. وقد اتخذ العرب لجهادهم السياسى هدفا مقدسًا ظهرت آثاره فى أعمال الجمعيات والأندية والمؤتمرات التى عقدوها. ثم كانت الثورة العربية الكبرى وقطعت للعرب عهود أملاوا من وراءها الوصول إلى غايتهم الشريفة. وقد أريقت فى هذه الغاية الاستقلالية المقدسة، أثناء الحرب العالمية الكبرى الدماء الذكية، وبذلت الضحايا الغالية. ولكن ما كادت تنكشف الحرب، حتى أخذ العرب يلقون من المطامع الاستعمارية غمطا لحقوقهم وجهادهم وجحودًا لضحاياهم، ويرون حلفاءهم ينصبون لهم شر العراقيل الحائلة بينهم وبين درك استقلالهم. وكانت نهاية ذلك أن الحلفاء ظهرُوا بمؤامرتهم علنا، وبعد أن تواطئوا عليها سرا، لتجزئة بلاد العرب، والكيد للقضية العربية وهى من كبريات القضايا القومية فى العالم، وبها تتعلق حياة أمة عظيمة، من أعرق أمم العالم فى المجد والحضارة والتاريخ، وهى اليوم بنفوسها لا تقل عن سبعين مليوناً تشغل خير بقاع الأرض فى آسيا وأفريقية.

ولقد كان أحد مظاهر هذه المؤامرة المنكرة ووسائل إنجاحها، إشغال أهل كل قطر من الأقطار العربية عن إخوانهم فى الأقطار الأخرى بقضايا إقليمية مصطنعة، وأوضاع محلية متقلصة، ونكبات متنوعة، حصراً للجهود فى دوائر ضيقة، ومناطق فى البلاد محدودة وصرفاً لها عن الامتداد إلى أفق أعلى تتلاقى فى مستواه العام القضية العربية مترابطة الأجزاء متضافرة الأقسام جريا مع السنن الكونية فى نهضات الأمم وارتقاء الشعوب.

وقد استغرقت هذه الشواغل المدسوسة أوقات بناء كل قطر، بل انغمر كل فريق من العرب فى بحرانها حتى كاد يدرك المستعمرون مأربهم فى مؤامرتهم، من جعل العرب أشتاتا لا قضية كبيرة لهم، وهى القضية التى عمل لها رجالاتهم وجمعياتهم، وذهبت فى سبيلها ضحاياهم وأرواح شهدائهم، والتى غاية غايتها الكيان العربى موحدًا مستقلاً، يستأنفون فيه ما

كان لهم فى سالف الأيام من حضارة مزدهرة اتشقى عمرانها خير اتساق عرفه التاريخ وطأطأ لها العالم رأسه، وملأت جنبات الدينا علما وخيرا ونورا.

ذلك ما دعا فريقا من رجالات العرب، الذين سبقت لهم فى الحركة العربية فى ماضى أدوارها جهود معروفة، إلى دعوة جمهور من مندوبى البلاد العربية الذين حضروا المؤتمر الإسلامى العام المنعقد فى بيت المقدس، إلى مؤتمر عقده فى هذه المدينة مساء الأحد ٤ شعبان ١٣٥٠ وفق ١٣ كانون الأول (ديسمبر ١٩٣١)، بحثوا فيه ما يجب عمله لدرء النازلات الاستعمارية التى نزلت ببلادهم، والقضايا الإقليمية التى غمرهم بها المستعمرون وأقروا المواد الآتية ميثاقا مقدسا يكون للعرب هدفا ولجهودهم مقصدا وغاية فى مختلف أقطارهم. فيستأنفون جهادهم فى سبيل الاستقلال المنشود على نوره، ويجرون على سنته، حتى يأذن الله بإدراك المحجة والأمانى كاملة محققة.

وهذا نص الميثاق:

المادة الأولى: إن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ، وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا تقره الأمة ولا تعترف به.

المادة الثانية: توجيه الجهود فى كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هى استقلالها التام كاملة موحدة، ومقاومة كل فكرة ترمى إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية.

المادة الثالثة: لما كان الاستعمار بجميع أشكاله وصيغه يتنافى كل التنافى مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها.

ثم رأى المجتمعون ضرورة عقد مؤتمر عربى عام فى إحدى العواصم العربية للبحث فى الوسائل المؤدية إلى نشر الميثاق ورعايته، وفى الخطط التى ينبغى السير عليها لتحقيقه.

وقد انتدبنا نحن الموقعين على هذا البيان، كلجنة تنفيذية، تنشر هذا الميثاق فى العالم العربى وتهىء الوسائل لعقد المؤتمر وتكون صلة المراسلة بين الأقطار العربية فى الشؤون المتعلقة بهذا الأمر.

وقد بدأنا بالعمل مستعينين بالله عز وجل، شد أزرنا الروح النامية الفياضة التى تجلت فى ذلك الاجتماع الخطير، والتى تظهر حينا بعد حين فى مختلف الأقطار متدمرة بعنف وقسوة من هذا الطاغوت الاستعمارى الذى أرهق العرب سيطرة وتسلطا، ومزق مجموعهم بالقضايا المحلية المولدة، وعطل جهود سيرهم الكبرى، وكاد يصرفهم عن مقصدهم الأسمى، وبعد كل هذا فقد استفاقت الهمم، واستيقظت ثانية الروح العربية، لتعمل للقضية الكبرى التى يرى إليها هذا الميثاق المقدس، لإنجاح هذه القضية على مقتضى هذا العهد، والله من وراء القصد.

تواقيع أعضاء اللجنة

محمد عزة دروزه أسعد داغر عجاج نويهض صبحى الخضر
خير الدين الزركلى عونى عبد الهادى.

وهذه تواقيع الذين أمضوا الميثاق:

محمد رشيد رضا (طرابلس الشام). محمد بهجت الأثرى (بغداد).
إبراهيم الواعظ (بغداد). خير الدين الزركلى (دمشق). صبحى الخضر
(صفد). إبراهيم الخطيب (لبنان). على عبيد (السويداء - جبل الدروز).
محمد إسحق درويش (القدس). على ناصر الدين (لبنان). صلاح عثمان
بيهم (بيروت). محمد العفيفى (القدس). رياض الصلح (بيروت). شكرى
القوتلى (دمشق). راغب أبو السعود (يافا). أحمد حلمى باشا (دمشق).
سالم هنداوى (أريد). محمد عزة دروزه (نابلس). عونى عبد الهادى
(نابلس). محمد طاهر الجقة (عمان). عمر الطيى (دمشق). محمد على
بيهم (بيروت). معين الماضى (حيفا). نبيه العظيمة (دمشق). صالح العوران

(الطفيلة). مصطفى الغلابيني (بيروت). حسين الطراونة (الكرك). أحمد الإمام (حيفا). محمد الطاهر (نابلس). عوني الكعكي (بيروت). عجاج نويهض (لبنان). عبد الله الداود (السلط). محمد طارق (دمشق). خليل تلهوني (معان). سامي السراج (حماة). محمد بنونة (تطوان - مراكش). سعيد ثابت (بغداد). بشير السعداوى (طرابلس الغرب). سليمان السودى الروسان (أيد - شرق الأردن). محمد حسين الدباغ (مكة المكرمة). كامل الدجاني (يافا). الشريف عبد الله فيصل (الطائف - بالحجاز). عبد الرحمن عزام (مصر). إسعاف النشاشيبي (القدس). ماجد القرغولى (بغداد). أمين التميمي (نابلس). حسن رضا (بغداد). محمد المكى الناصرى (رباط الفتح - مراكش). يحيى خانكان (حمص). علاء الدين طوقان (عمان). سعيد المفتى (عمان). عبد القهار مذكر (أندونيسيا). محمد سعيد عبد القادر الجزائرى (دمشق). رشيد الحاج إبراهيم (حيفا). عبد القادر كيلانى (حماة). عادل العظمة (عمان). انتهى.

وعقد بشير السعداوى آمالا كبارا على المؤتمرين: الإسلامى والعربى؛ فقد اختاره مكتب اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى العام «مفتشاً عاماً لتشكيلات المؤتمر فى البلاد السورية». وتألّفت لجنة فرعية فى دمشق وسعى السعداوى لتأليف لجنة أخرى فى بيروت وبل قصارى جهده للدعوة لهذا المؤتمر كما صار يسعى جادا لإنجاح المؤتمر العربى المزمع عقده ونشر الدعوة له كذلك. ولكن سرعان ما اعترضت هذين المؤتمرين الصعاب التى جعلت هذه الجهود تذهب سدى وحالت دون انعقاد أى منهما. فقد وجد السعداوى أنه إذا دعا لاجتماع أو مباحثة باسم المؤتمر «الإسلامى أو العربى» لا يلبى فى العادة أحد هذه الدعوة، وكثيرا ما كان يرى نفسه مرغماً على تحمل مشقة الانتقال من دار إلى دار ليقنع إخوانه العرب والمسلمين بإجابة دعوة الاجتماع. وكان من السهل أن يدرك السعداوى أن المؤتمر الإسلامى قد انتهت أعماله بعد انقضائه، وأن المؤتمرين قد قنعوا بالقرارات التى استصдروها حين انعقاد

المؤتمر، وأكل أعضائه قد انصرفوا إلى مشاغل الحياة أو إلى مطالب قضاياهم المحلية والإقليمية بمجرد عودتهم إلى أوطانهم. وأما المؤتمر فقد اختلفت الآراء حول المكان الذي يدعى للانعقاد به. وكان من رأى بشير السعداوى أن تكون بغداد مكان هذا الاجتماع باعتبار أن عاقل العراق وقتئذ المرحوم فيصل الأول كان صاحب زعامة فى العالم العربى ويبدى اهتماماً عظيماً بالقضايا العربية، وصار بفضل نشاطه يحتل مكانة مرموقة فى الأوساط السياسية الأوروبية. وكان فريق من أهل الرأى بين رجالات العرب، يؤيد الفكرة التى دعا إليها فيصل من حيث وجوب الاتحاد بين العراق وسوريا، وتلك دعوة كان يؤازرها كذلك - للاعتبارات التى ذكرناها فى تلك الحقبة - كل من بشير السعداوى وصاحبه الأمير شبيب أرسلان، مع ملاحظة أن السعداوى لو أنه كان يصدر فى هذا الأمر رأياً عن أهواء أو منافع ذاتية لما أيد هذه الدعوة ولديه من تجاربه السابقة مع فيصل نفسه الذى كان قضى بإهدار ديمه وهو ينبع البحر فى الظروف التى سبق أن مرت بنا، ما كان يجعله بالأقل لا يعنى بها إن لم يقاومها. وأما الذين كانوا من أهل سوريا يؤيدون الاتحاد العراقى السورى، فقد كان يحفزهم إلى ذلك وجود الانتداب الفرنسى فى سوريا، وانتظارهم الخلاص من هذا الانتداب بالانضمام إلى العراق الذى لم يلبث أن قبل عضواً فى عصبة الأمم فى أكتوبر ١٩٣٢ كدولة مستقلة ذات سيادة. ولقد عارض فريق آخر فى أن يكون المؤتمر العربى ببغداد، وطلب أن يكون ذلك بمكان فى المملكة العربية السعودية، باعتبار أن هذه البلاد بعيدة على النفوذ الأجنبى. وكان صاحب هذا الرأى شكرى القوتلى، واجتمع به السعداوى مراراً - لجنة تحضيرية - لمناقشة هذه المسألة، وسلم القوتلى فى آخر الأمر بوجهة نظر زميله، وكان ذلك فى دمشق حيث لم يلبث أن حضر إليها ياسين باشا الهاشمى من العراق، للاتفاق بشأن المؤتمر. وكتب من القدس المهتمون بالمؤتمر إلى بشير السعداوى أن يجتمع به للتفاهم معه، ولكن دون نتيجة، وذوت رويداً رويداً فكرة المؤتمر العربى.

وفيما يلي مقتبسات من بعض الرسائل التي تبودلت في هذا الشأن بين السعداوى من جانب والأمراء يارجنك وشكيب أرسلان والسيد محمد إدريس السنوسى، ثم الحاج أمين الحسينى من جانب آخر.

ففى ١٦ محرم ١٣٥١ و ٢١ مايو ١٩٣٢ يكتب بشير السعداوى إلى بهادر يارجنك:

«تحية واحتراماً. وبعد فإنى لذو حظ عظيم إذ جمعتنى تلك الصدفة الحسنة بالتشرف بسموكم يوم حللتكم بدمشق فكان لذلك الاجتماع أثره الحسن فى قلبى لما شاهدته فى سموكم من الإخلاص الفياض والغيرة المتدفقة على الإسلام والمسلمين. إن فكرة المؤتمر الإسلامى التى كانت من جملة رغائبكم قد تمت والحمد لله. وعقد المؤتمر - كما لا يخفاكم فى شهر رجب ١٣٥٠، وكانت روح الإخلاص تتجلى بكل مظاهرها فى ذلك الاجتماع المبارك، وأقر المؤتمر ما فيه صلاح شأن الأمة الإسلامية، والآن تسعى اللجنة التنفيذية لتنفيذ ما قرره المؤتمر. وقد كنت شديد الأسف لحرمان ذلك المؤتمر من وجود سموكم وإن كنت أعتقد أن روحكم الوثابة كانت معنا، كما أننى لا أرتاب بأنكم ستكونون من الرجال العاملين ومن أكبر المساعدين لتحقيق هذه الفكرة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه. .»

وفى ٢ إبريل ١٩٣٢ كتب بشير السعداوى إلى الأمير شكيب رسالة مطولة، يتحدث فيها عن سبب الانشقاق الذى حدث فى اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة - وذلك موضوع سيأتى الكلام عنه فى حينه - ثم عن مسألة كتاب الفضائع السود الحمر، حيث يقول: إن الكتاب قد تم طبعه ويرسل منه خمسين نسخة إلى الأمير شكيب؛ أما الترجمة الفرنسية فيقول: «قد ألفينا فيها صعوبة لأن أكثر الذين يتقنون اللغة الفرنسية هم فى واد، ونحن فى واد، وقد اتفقت مع شخص تعهد لى بأن يتم ترجمته فى نهاية هذا الشهر فإن بر بوعدده فذلك ما كنا نبغى وإلا فعطوفتكم تكلفون فى جهاتكم

من يقوم بهذه المهمة وتتفقدون معه على الأجر الذى ترونه، وأرجو أن لا يؤاخذنى سيدى فى هذا التكليف، وإننا الآن نفكر فى ترجمة هذا الكتاب باللغة الإفرنسية فقط، وإذا تيسر معنا بعد ذلك نترجمه للغات الثانية لأنه لا يجوز أن نجتمع من بعض المحسنين تلك المبالغ ولا نفى بوعدنا معهم ولا شك أن عطوفتكم تقدرتون ذلك حق قدره. ولقد سبق أن ذكرنا كيف جمعت هذه المبالغ وكيف أنفقت. وتكلم السعداوى فى رسالته هذه عن «فكرة توحيد القطرين سوريا والعراق، وقال إن رياض الصلح قد أطلعه على الكتب التى أرسلها له الأمير شكيب فى هذه المسألة. ولكن قبل تناول «فكرة توحيد القطرين» هذه كتب السعداوى عن «مسألة المؤتمر الإسلامى» ما يأتى:

لقد ذهبت إلى القدس مع الأخ رياض بك (الصلح) واتفقنا مع سماحة الحاج أمين أفندى (الحسينى) على تأسيس المكتب وكتبنا برقية للسيد الطباطبائى (ضياء الدين) نستدعيه للحضور إلى القدس لمباشرة العمل وأجابنا بأن كتابه فى البريد ويظهر أن الرجل متردد فى قبول أمانة السر العامة لمكتب المؤتمر ولذلك اتفقنا أنه إذا لم يقبل تختار رياض بك لهذه المهمة. أما العمل فإنه سائر على ما يرام. وقد قامت اللجنة التنفيذية بطبع خلاصة مقررات المؤتمر فى رسالة خاصة وأعتقد أنه قدم لعطوفتكم منها نسخة. وكذلك اخترنا لجنة تضع لائحة تنص على كيفية تأليف اللجان الفرعية فى جميع الأقطار، وقد وضعت اللجنة نص هذه اللائحة وأرسلوا لى منها نسخة لثنين فيها رأى ولاحظت عليها ما لاحظت وأعدتها لهم، وبعد أن يقروها نباشر العمل. وإنى أسعى مع بعض المخلصين فى دمشق لبث الدعاية وتهيئة الأفكار لتأليف لجنة وأعتقد أننا سنوفق إن شاء الله.

وفى ٢٠ مايو ١٩٣٢ كتب بشير السعداوى إلى الحاج محمد أمين الحسينى: «تحية واحتراما، وبعد فقد تناولت كتابكم الكريم واللائحة المتضمنة كيفية تأليف اللجان المحلية وفى الحين اجتمعت بحضرة الأخ شكرى بك

القوتلى واتفقت معه على دعوة الإخوان الذين حضروا المؤتمر وضرنا لهم موعداً للاجتماع والمذاكرة فى تأليف لجنة فى دمشق وبعد الاجتماع سنعرفكم بما ينتهى إليه البحث وما نصل إليه من نتيجة فى هذا الموضوع. وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير وفى الختام...».

وفى ٩ مارس ١٩٣٣ كتب السعداوى إلى سمو الأمير محمد إدريس :

«تحية واحتراما، وبعد فإن موعد انعقاد المؤتمر العربى الذى لا تزال تنوه عنه الصحف السيارة قد قرب، ولما كنت عازما - بمعونة الله - على حضوره لتمثيل قطرنا مع ممثلى الشعوب العربية، فقد أخذت أعد العدة لبسط قضيتنا على أنظار الرأى العام العربى لأجل أن تكون العناية بها أكثر من ذى قبل خصوصا وأن اللجنة التنفيذية التى أخذت على عاتقها دعوة الشعوب العربية إلى هذ المؤتمر العتيد قد كتبت إلى هذه المرة ترغب أن أوافيها بتقرير مفصل عن قضيتنا من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية فإننى سأعالج هذه المواضيع ولذلك أرجو أن تزودنى بما لديكم من المعلومات السياسية التى جرت بينكم وبين الإيطاليين خصوصا أن تفضلوا بإرسال صورة من المعاهدة التى اعترف لكم الإيطاليين فيها بإمارتكم على برقة ليكون تقريرنا وافيا بالمرام مقرونا بالحوادث والأدلة السياسية بتاريخها ونصوصها. وترانى يا سيدى الأمير فى انتظار الجواب بفارغ الصبر لأن اللجنة المذكورة حددت لى نهاية هذا الشهر لأوافيها بالمعلومات الآتفة الذكر ودمتم محترمين».

ولم يثبت أن سمو الأمير محمد إدريس قد بعث بهذه «المعلومات السياسية» أو بصورة المعاهدة - والمقصود هنا اتفاق الترجمة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠.

أما الرسالة الأخيرة فهى صادرة من شكيب أرسلان إلى «أخيه الكريم» بشير السعداوى بتاريخ جنيف ٦ مارس ١٩٣٢، ومنها يستطيع القارئ أن يلمس جوهر الأسباب التى سوف تكون قاطعة فى عدم إمكان عقد المؤتمر

العربي إطلاقاً أو اجتماع المؤتمر الإسلامى . وهذه الرسالة تتناول - وبإسهاب - موضوعات شتى ، ولكننا سوف ننقل منها ما يتصل مباشرة بمسألة المؤتمر .
كتب الأمير شكيب :

تناولت رقيمكم المؤرخ فى ٣ شباط (فبراير) وفهمت كل ما فيه ، ثم قرأت فى الجرائد أنكم توجهتم أنتم والأخ رياض بك الصلح إلى القدس الشريف من أجل مسألة مكتب المؤتمر الإسلامى . إننى من قبل ذكرت لك خوفى وارتعاشى من أن يذهب هذا المؤتمر بدون نتيجة فعلية فتكون شماتة كبرى لا يعاد لها شماتة بالإسلام . واعلموا يا أخى أن الأوروبيين مترقبون مترصدون لكل شىء فإذا رأوا هذا المؤتمر قد ذهب كلاماً فى كلام ازداد ضغطهم على المسلمين فى كل مكان وعلموا أن المسلمين لا يزالون بعيدين عن مراقى الأمم التى تشعر بالألم . وقلت لك وكتبت لك قبل هذا إلى الحاج أمين الحسينى وإلى غيره أنه من الواجب مباشرة تنفيذ القرارات وأن المباشرة الأولى التى هى حجر الأساس إنما هى تشكيل اللجان المؤتمرية فى كل بلدة وجمع الإعانات إذ بدون مال لا تمكن الأعمال . وإذا كان فى كل بلدة لجنة تعمل باسم المؤتمر وتجمع الإعانات فمهما كانت الإعانات ضئيلة نظراً للعسرة الحاضرة يكون لها مجموع غير قليل ثم إن الحماسة تمتد من بلد إلى بلد ثم من قطر إلى قطر . انظر إلى قضية الاحتجاجات من أجل طرابلس الغرب . لقد كنت قلت لك لتباشر عقد اجتماع بالشام والاحتجاج من أجل طرابلس الغرب . لقد كنت قلت لك لتباشر عقد اجتماع بالشام والاحتجاج فيه وإلقاء الخطاب إلى غير ذلك . وإنك إذا تمكنت من هذا الأمر فى دمشق تقتدى بها سائر مدن سوريا ، وإذا جرى فى سوريا اقتدت بها سائر البلدان لأن المسلمين باق فيهم شىء واحد يتعلق به الأمل بالنجاح وهو وحدة الشعور وتشبه بعضهم ببعض . فالآن ينبغى أن تسعوا بكل مجهوداتكم لتأليف لجنة مؤتمرية فى دمشق تقتدى بها سائر البلدان ومباشرة جمع الإعانات ولا سيما أخذ

القرش من كل إنسان فإن مشت دمشق مشى الجميع وأمكنكم أن تقوموا بنفقات مكتب المؤتمر لأنه مكتب بدون صندوق.

كنت أخذت من مصر مكاتيب بأن أكثر اللجنة التنفيذية تريد الاجتماع بمصر وقد كنت استحسننت هذا الرأي إرضاء لأكثرية اللجنة ولو كان اجتماعها بمصر مؤقتا فإن المقصود ليس محل الاجتماع بل الاجتماع نفسه. وما لا ينبغي التغافل عنه أن سير مصر فى المشروع أمر ضرورى لأنها أهم بلدان الإسلام الآن. وفى مصر معاكسة للمؤتمر لا تجهلونها فينبغى إرضاء المصريين، على أنه إذا كان محمد على باشا (علوية) والسيد رشيد (رضا) و(الشيخ عبد العزيز) الثعالبي و(عبد الرحمن) عزام يأتون إلى القدس يكون المقصود حصل ولكن نخشى وقوع انقسام. فإن وقع الانقسام ماتت اللجنة ومات المؤتمر.

كذلك مسألة الهند فإن شوكت على ذهب غير راض - (ومن المعروف فيما يتعلق بهذا الزعيم الهندى أنه كان يريد رئاسة المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى القدس فى العام السابق؛ ولكن الأكثرية، ومعظم هؤلاء كذلك من أهل فلسطين كانوا يؤيدون الحاج أمين الحسينى، فاقترحوا أن تكون الرئاسة بالانتخاب، فكان جواب شوكت على: كيف يسمح لقطر كفلسطين عدد سكانه أقل من مليونين تكون له الغلبة قطعا لكثرة عدد أعضاء المؤتمر من أهله على قطر كالهند عدد المسلمين به يزيد على ثمانين مليونا وإن كان عدد ممثليه فى المؤتمر لا يزيدون على ثلاثة أو أقل أو أكثر؟ وغضب. ولذلك يقول الأمير شكيب هنا أن شوكت على ذهب غير راض) - وهو المحرك الأكبر فى الهند، وقد كتبت له أنا وزميلى - (والمقصود هنا إحسان الجابرى) - كتابا نسترضيه فيه ونستحث همته لأجل مساعدة المؤتمر وسرى ماذ يكون جوابه، وما اكتفينا بهذا بل واجهنا سمو أغاخان فى جنيف وطلبنا منه أن يكتب لشوكت على ويحثه بأن لا يبدل خطته من جهة المؤتمر وقد وعدنا أغاخان بالكتابة لشوكت على...».

وقد كتب الأمير شكيب يثنى على همة السيد عبد الحميد كرامة ورياض الصلح، ويشرح حال العالم الإسلامى من الوجهتين الأدبية والسياسية؛ وتحدث عن بعض مشاريع «الأمير» عبد الله عاهل شرقى الأردن، التى وإن كانت موضع استغراب بشير السعداوى لم يستغرب شكيب أرسلان أن يكون «الأمير» صاحبها؛ ثم تناول مشروع (سكة الحجاز) وغير ذلك من المسائل التى على أهميتها قد يكون من الأصوب إغفالها الآن، لمساسها بشخصيات بعضها لا يزال يعمل فى حقل القضايا العربية إلى الوقت الحاضر، ولأن بعض هذه المسائل ذاتها لا تزال موضع جدل وخلاف بين الساسة العرب إلى الوقت الحاضر كذلك.

١٠ - نشاط اللجنة التنفيذية:

لقد أوضحنا كيف عقد بشير السعداوى آمالا عظيمة على المؤتمر الإسلامى، والمؤتمر العربى؛ ليس كوسيلة لإنهاض لشعوب الإسلامىة والعربية فحسب، بل ولخدمة القضية الطرابلسية البرقاوية، باعتبار أن هذه القضية جزء من القضية الإسلامىة أو العربية الكبرى، وباعتبار أن الاتصالات التى تنشأ بين السعداوى ورجالات العرب وقادة المسلمين بخصوص المؤتمر الإسلامى أو المؤتمر العربى، لابد أنها لافتة نظر هؤلاء بصورة أعم وأقوى لقضية بلاده، ومفضية إلى إقبال العالم الإسلامى والعالم العربى على مؤازرة «اللجنة التنفيذية» فى جهادها من أجل رفع الظلم عن أهل طرابلس برقة ووقف بطش الفاشيست بهم كغاية عاجلة حتى لا يفنوا عن آخرهم، ولأجل أن يتسنى إقناع الدولة الإيطالية بفضل صرامة حملة الدعاية المثارة عليها، بوجود التفاهم مع المجاهدين الليبيين على أساس إنشاء الحكومة الذاتية فى إطار الإمارة الإسلامىة.

وصدّم بشير السعداوى فى آماله عندما شاهد الذين حضروا المؤتمر الإسلامى يعودون إلى أوطانهم بعض انفضاض المؤتمر، وقد فترت همة فريق

منهم، وشغل فريق آخر بقضايا بلادهم المحلية أو الإقليمية، وعجز فريق ثالث بالرغم من بقاء الجذوة مشتعلة في نفوسهم عن استنهاض همم المسلمين والعرب. ولقد رأينا كيف أن أحدا كان لا يلبي الدعوة التي يوجهها السعداوى بوصفه «مفتشا» للمؤتمر في سوريا ولبنان، إذا صدرت هذه الدعوة باسم المؤتمر، ولم يتنقل السعداوى بنفسه من مكان إلى مكان ومن دار إلى أخرى ببذل كل ما وسعه من جهد وحيلة لحمل الناس على حضور الاجتماعات التي كان يعقدها.

ولم يعتبر بشير السعداوى مع ذلك أن هذا التقاعس أو فتور الهمة أمر لازب، لا سبيل إلى دفعه، بل إن هذه الصدمة فعلت فعل السحر في نفسه من حيث إنها زادت إيمانا برسائله، واستمساكا بما كان وطد العزم على بلوغه، فتضاعف نشاطه في خدمة القضية التي صارت من الآن فصاعدا مزدوجة: نهضة الشعوب الإسلامية والعربية عامة، واستنقاذ طرابلس برقة من براثن الاستعمار الفاشيستي.

ولقد شاهدنا كيف أن مسألتى المؤتمر الإسلامى والمؤتمر العربى لم تطغيا على كل ما عداهما، بل بقى السعداوى يولى اهتمامه القضايا الإسلامية والعربية الأخرى، إلى جانب قضية بلاده ذاتها، فهو فى رسائله إلى صحبه، وهؤلاء فى رسائلهم إليه يتناولون جميعا موضوعات الساعة التى شغلت ساسة العرب وقتئذ كالاتحاد بين سوريا والعراق، وعلاقة العراق بالمملكة العربية السعودية، وموقف شرقى الأردن من مسائل العرب، وسياسة (المملكة المصرية) من هذه المسائل كذلك، ومحنة فلسطين - وإلى جانب هذا كله، مثابرة السعداوى على الاتصال بمواطنيه فى مختلف الأقطار التى هاجروا إليها واستقر مقامهم بها يشد من عزائمهم ويحول دون تسرب اليأس إلى نفوسهم تارة، ويستزيدهم مما لديهم من معلومات عن فظائع الاستعمار الإيطالى فى بلادهم تارة أخرى. فضلا عن ذلك فقد استأثر طبع وتوزيع كتاب (الفظائع السود الحمر) بقسط كبير من نشاطه.

وهذه المهمة في متابعة الكفاح من غير كلل أو ملل، تظهر واضحة كذلك في نواحي النشاط الأخرى التي اضطلعت بها (اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة) في الفترة التي امتدت من وقت تأسيسها في سنة ١٩٢٨، إلى أواسط ١٩٣٢، أي إلى الوقت الذي انحلت فيه هذه اللجنة وقامت بدلها جمعية الدفاع عن طرابلس برقة، بعد أن تطهرت من بعض العناصر التي أثرت الانشقاق والتقرب إلى حكومة الفاشيست على المضى في كفاح طال أمده في نظرهم دون أن تظهر في الأفق بارقة أمل في قرب انفراج الأزمة والعودة إلى الوطن أو الخلود إلى السكينة والراحة والتنعم بتوفر الرزق في مهاجرهم.

وكان من مظاهر نشاط اللجنة التنفيذية قبل هذا الانشقاق الذي ستكلم عنه في موضعه مسائل بدأت من وقت مبكر يسبق انعقاد المؤتمر الإسلامي، واستمرت قائمة إلى ما بعد انتهاء عهد اللجنة التنفيذية ذاتها، وتأسيس (جمعية الدفاع) الجديدة. وأهم هذه اثنتان: الاتصال بالهيئات (والأحزاب السياسية) الخارجية، من أجل الترويج لقضية الوطن، وتجديد أقدام وجهود هذه الهيئات في الدفاع عن قضية طرابلس برقة ضد الطغيان الفاشيستي؛ ثم تأسيس فرع للجنة التنفيذية - وجمعية الدفاع - في تونس التي اتخذها السعداوي مركزا رئيسيا لتكتيل قوى المهاجرين الطرابلسيين في المغرب في الجهاد من أجل خلاص الوطن.

(أ) آثاره:

وأما من مظاهر هذا النشاط المباشر عقب المؤتمر الإسلامي، فكا إصدار رسالة من ست عشرة صفحة من القطع الصغير، بعنوان: «إثارة اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية» غرضها استثارة هذه الجاليات، واستنهاض همة مواطنيه في المهجر، حتى لا يتركوا بلادهم يدوسها الاستعمار، وحتى يؤسسوا جمعيات في كل مكان يكونون به للذود عن

حقوق بلادهم والدفاع عن قضيتهم، ونشر الفظائع التي يرتكبها الإيطاليون في طرابلس بركة.

وقد توفر بشير السعداوى على كتابة هذه (الإثارة) عقب عودته من المؤتمر الإسلامى بالقدس، ففضى شهر رمضان من سنة ١٣٥٠ هجرية (يناير - فبراير ١٩٣٢) فى إعداد هذه الرسالة.

وتبدأ (الإثارة) بتسجيل (الميثاق القومى للشعب الطرابلسى البرقاوى) بمواده الثماني المعروفة. ثم يلى ذلك نداء إلى «إخواننا الأعزاء» استهله السعداوى بقوله: «ليس بخاف عليكم أن الله جلت قدرته وتعالى حكمته قد آوى كل أمة إلى سكن من الأرض تسميه وطنا، وفطر الأمم على حبه والعيشة بحرية فيه. وإننا معشر الطرابلسيين البرقاوين قد ابتلينا بالدولة الإيطالية الغاشمة التى بسطت يد الظلم والعدوان وعلى وطننا ومهد عزنا ومجدنا فحرمتنا فيه حق الحياة الطبيعية فضلا عن التمتع بنعمة الحرية. فالدولة الإيطالية منذ احتلت بلادنا قضت على كل حق من حقوقنا وأخذت تنزل بكل نفس أبيه منا من ضروب الذل والهوان ما جعلنا نفضل الموت على الحياة. واستمر بيننا وبينها القتال والجدال إلى يومنا هذا».

ثم راح يحدثهم عن واجبهم فى أن يفكروا فيما ينزل بمواطنيهم الذين بقوا بالوطن من صنوف العذاب، وأن يتوجعوا لعذابهم، وأن يهبوا للذود عنهم، وهم وإن أعوزتهم المقدرة على الكفاح بحد السيف فإن سلاح الدعاية لا يقل مضاء عنه، فهو يستمر يقول: «ولكن مما لا مشاحة فيه أن الجدال فى هذا العصر لا يقوم بالسيف وحده بل لابد له من أفلام تعززه وآراء تؤيده، ولذلك يتحتم على كل مفكرى الأمة الطرابلسية البرقاوية وبالأخص الذين هجروا الوطن وتفرقوا فى مختلف الأقطار وجابوا الأمصار واختلطوا بالشعوب الناهضة أن يفكروا فيما حل بوطنهم من الويلات وما أصاب شعبهم الكريم من النكبات فيخدموه بأقلامهم كما لا يزال إخوانهم يدافعون عنه

بأرواحهم . فيا أبناء الوطن الأبية: اسمحوا لنا بأ نسالكم عن ماذا قمتم به من الواجبات الوطنية منذ بارحتم الوطن حتى اليوم؟ أنسيتم أنكم تركتم إخوانا تمؤق لحومهم الأعداء وتفرق ما اجتمع من شملهم فلا يرحمون شيخا كبيرا ولا طفلا صغيراً، بل ينزلون أنواع العذاب بكل من لا يمد عنقه للنير ويده المقيد؟ فإنكم لو فكرتم قليلا لما تعذرت عليكم معرفة ما يعانى إخوانكم من أنواع العذاب الذى لا يطيقه الحيوان فضلا عن الإنسان . وإننا لم ندر ما الذى حال بينكم وبين التفكير فى وطنكم وتراث مجدكم المقدس؟ لا إخال نفوسكم الشريفة تجردت من كل علاقة تربطكم بوطنكم التمس وشعبكم المتفانى، ذلك الشعب الأبى المستميت فى سبيل سعادة البلاد وحريتها حتى بخلتم عليه بأقلامكم السيالة وآرائكم الصائبة فى حين أننا نرى من هم قل مستوى منكم يجودون عليه بأرواحهم . فالوطن المخضب بدم الشهداء إخوانكم هو وطنكم، والحق الضائع هو حقكم، والشعب الواقف فى وجوه أعدائكم هو عشبكم، فمالنا نراكم متقاعسين عما يحتمه عليكم الواجب من نرصة إخوانكم وخدمة أوطانكم؟ إن الواجب يدعوكم إلى العمل بما استطعتم من قوة ونشاط لتظهروا للملأ أنكم أحياء خالدون بأعمالكم المجيدة لا بأجسامكم الفانية، فإن الوطن المغتصب المهان الذى أعرض أبناؤه عن سماع أئينه الموجه، واستصراخه المفجع لا يلبث أن يكون طعمة للأكلين ولقمة للمغتصبين، ويصبح مع أبناؤه فى ذل وهوان وخسف وامتهان . أفيقوا إخواننا من سباتكم، وولوا وجوهكم شطر بلادكم المنكودة الحظ تروا فوقها سحابة سوداء تمطر ظلما وجورا على إخوانكم البرؤساء، هنالك تسمعون الضجيج والعيول والبكاء والنحيب، كل تلك مصدره الإنسانية المعذبة، هنالك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار ولا منجد ولا مغيث ولا منقذ ولا معين!! ألا يجدر بكم أن ترفعوا أصواتكم بالشكوى مما يلاقه إخوانكم من مظالم الإيطاليين التى لم يشهد التاريخ لها مثيلا حتى فى القرون المظلمة، فإن الصمت على الأذى والنوم على القذى صفتان ذميتان لا يرضاها من فى قلبه حمية إسلامية ونخوة عربية .

وذلك كان تأنيبا عنيفا لفئة من مواطنيه على ما ظهر بينهم من تقاعس وتخاذل فى تلك السنين التى سبقت الحرب العالمية الثانية، عندما كان الاعتقاد السائد أن الاشبيست بزعامة موسوليني قد وطفوا أقدامهم فى إيطاليا واستعلى نفوذهم فى القارة الأوروبية، وتدعمت أركان استعمارهم فى ليبيا، فنجم من ذلك أن سرت روح الهزيمة فى صفوف المهاجرين فى القطر المصرى مثلا، بأن راح جماعة منهم يروجون للاستعمار الإيطالى ويخدمون مآربه ويثون الدعوة بين إخوانهم ويحرضونهم على العودة إلى الوطن، حتى اضطر بشير السعداوى إلى التدخل لمعالجة هذه المشكلة بالصورة التى رسمتها لنا مراسلاته مع أحمد السويحلى فى هذه الآونة ذاتها. ولذلك فقد كانت هذه (الإثارة) بمثابة المتنفس الذى يفرج به السعداوى من كربته من جهة، والدرس القاسى لهذا النوع من المواطنين فى المهجر الذين انقسمت أكثريتهم - ولسنا نقول كلهم - إلى فئات ثلاث: فئة تنعم بما كان لديها من ثروة سواء استطاعت الخروج بها من طرابلس برقة فى غفلة من الطليان، أم تجمعت لديها من الاشتغال بأعمال التجارة أو بغير ذلك من الوسائل والأسباب، ولم تكن تولى قضية الوطن من عنايتها شيئا اللهم إلا بعض المساعدات الضئيلة والمتقطعة، والى كان أكثرها مصروفا فى عبارات شفوية لا جدوى منها ولا طائل تحتها، بالرغم مما كان يعطيه لها مركز بسطة العيش أو الشراء الذى تمتعت به، وفى أحيان أخرى، مكان الأولوية والرئاسة بين مواطنيهم بحكم الجاه والشهرة من حق، ويفرضه عليها من واجب تزعم الدفاع عن قضية الوطن تزعما فعليا نشيطا. وثمة فئة أخرى اصطلحت عليها متاعب السعى وراء لقمة العيش، وفئة ثالثة كان أهلها من النهازين الذين لم كانوا قد أرغموا إرغاما على مغادرة أوطانهم، فهم لا يعينهم من أمر هذا الوطن إلا ما يمكن أن يستغلوه من فائدة قد يستخلصونها لأشخاصهم من أية نكبات تنزل به.

ولما كان هناك على كل الأحوال غير هؤلاء فريق من المواطنين فى المهجر سواء فى مصر أو تونس، أو الأقطار الأخرى، تحيىش الوطنية فى

صدورهم؛ فقد استدرك بشير السعداوى بعد هذا التأنيب العنيف، فأنشأ يقول: «أيتها الجاليات الطرابلسية البرقاوية لا تظنوا بما نكتبه إليكم غير الظنون الحسنة البعيدة عن كل ما يعكر صفو الوطنية وما نقصد إلا أن نبث إليكم بلسان وطنكم المكلوم شكواه، ونشرح لكم بلواه، ونسمعكم أئينه، ونحدثكم عن آلامه وآماله. أجل إن الوطن مريض أيها المواطنون بل فى حالة احتضار وقد تغلغل الداء فى أحشائه وتمشت العلة فى جميع عروقه، وهو يستعطفكم وينشدكم الله أن تعملوا على معالجة شئونه ونشله من هوة سحيقة لا يبعد أن تقعوا فيها إذا تقاعستم وتماديتم فى سكوتكم العميق. أرايتم لو أن أحدكم أصابته علة فى جسده أيدعها بلا دواء؟ كلا وألف كلا، بل يلتمس لها الدواء. وقد عرفتم - يا قوم - أنكم مصابون فى وطنكم، مصابون فى دينكم، مصابون فى حريتكم، مصابون فى شرفكم ومجدكم، فكيف تصبرون على هذه المصائب، لعمري إنها لغفلة يأبأها العقل ويمقتها الضمير ويحاسبكم عليها التاريخ حسابا شديدا. فإذا أردتم أن تعرفوا مصدر الداء فارجعوا ببصركم إلى تاريخ وطنكم (طرابلس برقة) قبل ١٩ سنة منذ (٥ تشرين الأول ١٩١١) ذلك اليوم المشؤم الذى أفل فيه نجم سعد الأمة الطرابلسية البرقاوية بعد أن كان ساطعا وضاء، وامتدت إليها مخالب الاستعمار، وأثبت برائن ذلك العدو الغدار. اذكروا ولا تنسوا ذلك اليوم الذى احتلت فيه الدولة الإيطالية بلادكم وأرهقت فيه شعبكم، فذلك اليوم هو يوم بؤس وشقاء؛ (تفكروا) كيف انطلقت فيه يد الغاصب المستبد فى شئون الأمة، وكيف تحكمت فى حياتها وفى مصالحها وكيف جعلت أعزتها أذلة لا ترقب فيكم إلا ولا ذمة».

ثم يعود السعداوى فيذكرهم بما صاروا إليه بعد خروجهم من الوطن، وبأسباب هجرتهم، وبما يجرى فى ديارهم وينزل بمواطنيهم من الكوارث، فيقول:

«سلوا أنفسكم عن سبب خروجكم من دياركم واغترابكم عن أوطانكم. سلوا أنفسكم عما دعاكم لركوب الأخطار واقتحام الأسفار والجلاء عن تربة أنبتكم وهواء أنعشكم وماء أحياكم، سلوها ما أسباب هذا كله؟ ألم يكن كل ذلك حرصا على عز تخافون ضياعه وفرارا من الوقوع فى ذل تأبونه وهربا من ظلم تخضونه؟ ليس ثمة أسباب أخرى، تلك حقيقة ثابتة لا تنكر. ولكن لا يعزب عن فكريكم أنكم وقعتم فى أعظم مما قررتم منه، إذ لا عز لمن لا وطن له يحميه، ولا فخر لمن لا ينتمى لشعب يشاركه فى سرائه وضرائه، فأين العز وقبور أجدادكم تدوسها سنابك خيول الأعداء، وإخوانكم يرسفون فى القيود أذلاء وأنتم فى ديار الناس غرباء؟ بل أين النخوة والأعراض فى بلادكم تهتك، والمخدرات تسبى، والبطون تبقر، والأجنة تطرح، والشيوخ يساقون إلى ساحات الموت؟ قولوا بربكم أين الغيرة وصرح الدين فى تلك البلاد يتقوض وينهار؟ إنها لمصيبة عظيمة ونكبة كبرى!! لا ريب فى هذه السنين التسع عشرة التى مرت على البلاد كانت عبرا ودرسا سواء من الوجهة السياسية أم من الوجهة الحربية، ولكن كأنها لم تكن كافية لتثير فى النفوس الشعور وتحرك ما كمن فى الصدور، فيقوم رجال الجاليات بواجباتهم الوطنية المقدسة، تلك الواجبات التى أهملت حتى الآن ولم يفكر فى القيام بها، كفاكم وجلا من الأوهام، فالوهم قتال والحياة مخاطرة والفخر والسؤدد ولم يدركهما إنسان بغير التضحية وركوب الأخطار».

ثم يفسر السعداوى «الواجبات» التى يدعوهم إليها، فيقول: «إن الواجب الذى ندعوكم إليه هو أن تستعملوا على الأقل حرية أقلامكم اقتداء بالأمم الشرقية الصارخة وترضوا ضمائرهم بخدمة بلادكم على قدر استطاعتكم. فكم من يراعة دفعت ظلما كما نصر السيف حقا، والنجاح المؤكد فى استعمالها معا، وقد توفر هذان الأمران فى أمتنا: توفر فى إخواننا المجاهدين الاستماتة والصبر فى ميادين القتال، وتوفر فى رجال

جالياتنا الفكر الصائب والقلم السيل. هذه مصر وتونس وسورية وتركيا والعراق والحجاز ومسقط البحرين وعمان وشرق الأردن وفلسطين، حتى بعض مدن أوروبا لا تخلو من الجاليات الطرابلسية البرقاوية التى يربو عدد أفرادها على الألوف جلهم من ذوى الفطنة والذكاء والكفاية العلمية والسياسية. أضف إلى ذلك ما اقتبسوه فى مهاجرهم من التجارب وما شاهدوه من النهضة الوطنية والحركات الثورية والانقلابات السياسية التى يقوم بها الوطنيون الأحرار فى سبيل الحصول على حقوقهم المهضومة وحريتهم المسلوبة، وهذه دروس قيمة لا تستفاد من الجامعات العلمية والأندية السياسية. إذا فما عذر هؤلاء الرجال الذين أقصتهم السياسة الفاشيستية الغاشمة عن أوطانهم فى تقصيرهم بواجب الوطن وهم الذين تعلق عليهم أمتهم آماني واسعة وآمالا كبيرة باعتبار شخصياتهم البارزة وقدرتهم على الأعمال النافعة. فالأجدر بهم يا إخواننا الكرام أن تنبذوا الخمول جانبا وتشمروا عن ساعد الجدد لمقاومة عدوكم المستعمر الذى يرى سعادته فى شقائكم ونعيمه فى بؤسكم وحياته فى موتكم، فماذا تنتظرون؟ وعلام تعولون!«.

ويستثير السعداوى مواطنيه ليقوموا بواجب الوطن عليهم فيقول: إن هذا العصر الذى ملأ الفضاء بالعبر التى تهتز لها أعصاب الأموات، وتثير فى النفوس بواعث الشعور بالمثلثات، لجدير بأن يوقظ من هذا السبات ويدعوكم إلى الواجبات اقتداء بالأمم الناهضة والشعوب الراقية التى تسير بخطى واسعة فى سبيل نيل حقوقها. فلو حشرت الأمم فى صعيد واحد للتفاخر بالأعمال المجيدة والمساعي الجليلة، فماذا تفاخروا! لا شك أنكم تقفون مطأطئي الرؤوس، صفر الأيدي من كل عمل أنتم به مكلفون، مع أنكم قد برهنتم فى مواقف كثيرة على الشجاعة والإقدام ومجابهة الكوارث واقتحام الشدائد، وعلى أن فى قلوبكم نارا تتأجج وحمية تلهب على بلادكم وإخوانكم الذين

نزلت بهم الولايات وحلت بهم الكبات، ولكن ماذا تفيد تلك الشفقة التي تختلج في الصدور إذا لم تدفعكم إلى الأعمال التي تخفف عن قومكن وطأة الظالمين وضغط المستعمرين. إن أعداءكم قد اغتصبوا حقوقكم وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم واستباحوا أموالكم فإن سكتكم على هذا الضيم ورضيتم لأنفسكم بهذا الذل وضربتم صفحا عن كل واجب وطني فلا يمضى زمن قليل حتى تصبح بلادكم بقعة طليانية تجرد أهلها من الشعور الإسلامى والنخوة العربية، فهناك الداء العضال الذى لا يفارق صاحبه إلا على حافة القبر، وهناك الموت الزؤام الذى ما بعده بعث ولا نشر. فيا قوم: إننا نستصرخكم للتفكير فى إخوانكم الذين يدافعون عن دياركم ويذودون عن حياضكم وحياضهم ويضحون بأنفسهم لصيانة أعراضهم من العار وقوميتهم من الاضمحلال والدمار، فقد كفاكم تغاضيا وتقاعسا عن نصرتهم، كفاكم صمتا وإعراضا، كفاكم ياسا واستصغارا لأنفسكم، كفاكم وجلا من الأوهام، فالوهم قتال، والحياة سعى ونضال».

ثم يلى ذلك تذكير بما فعله أسلافهم، الذين عليهم أن يقتدوا بهم: «إن أسلافكم الكرام الذين فتحوا البلاد ونشروا فيها لواء الإسلام لم يكونوا إلا رجالا مثلكم، ولكن هى الهمم فانظروا ماذا فعلت؟ فقد نهضت بهم حتى أتوا بالمعجزات وأورثوكم ذلك الوطن المقدس وأرواحهم اليوم تشرف عليكم من عليائهم لتنظر ماذا فعلتم من بعدهم. إن من تدبر كنه هذه الحياة فى جميع وجوهها انتصارا للحقيقة وحكم فى ذلك الوجدان الطاهر لا يتوقف لحظة فى الركون إلى جانب الحياة الخالدة التى لا تفنى، بل التى لما مرت عليها الأيام والسنون صقلتها فأكسبتها رونقا وبهاء. فالحياة الخالدة هى حياة التضحية، والتضحية من أجل خدمة يقدمها أبناء الأمة لأمتهم، وهى الذكرى المقدسة الدالة على فخر الماضى وقوة المستقبل. وهنا لا يسعنا إلا أن ندعوكم إلى إكبار رجال التضحية وهم شهداؤكم الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الله والوطن المفدى، شهداؤكم أيها المواطنون الكرام هم رسل الوطنية والتضحية

أدوا الرسالة حقها، وتركوا لكم ذكرا خالدا سجلوه بدمائهم الطاهرة، فاذكروهم إذا ذكرتم شهداء السلف فاتحى أفريقية والأندلس، إن ذكرهم البعيدون عنهم على غير معرفة ولأفإنكم لتذكروهم وأنتم قريبون منهم على عهد وإخاء. فلقد حييتهم معهم أعواما طويلا رفقاء جهاد ورجال عقيدة واحدة. وإذا كانوا قد أراقوا آخر نقطة من دمائهم الطاهرة فى سبيل الواجب عليهم نحو الدين والوطن أفلا يجب عليكم أن تحافظوا على تلك الأرض التى تخضبت بدمائهم؟ شهداؤكم أحياء غير أموات، أحياء بأرواحهم، أحياء بذكرهم الخالد وأفعالهم المجيدة، وقد أودعوكم أجسامكم الهامدة لتكون لكم عبرا قيمة تعتبرون بها وتحذون حذوها. إنهم سهلوا السبيل وأوضحوا لكم الطريق لتكون لكم عبرا قيمة تعتبرون بها وتحذون حذوها. إنهم سهلوا السبيل وأوضحوا لكم الطريق، فهذه آثارهم العظيمة تنقشها يد القدرة على صفحات الدهر لا ينافسها فى جمالها وجلالها شئ، ولا يستطيع وصفها الشاعر والخطيب... فلتنزل شآبيب الرحمة والغفران على منازلهم الأبدية التى نزلوها فى ريعان الشباب وميعة الصبا، ولتتها أرواحهم فى جوار ربها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وهناك فى الصحراء المحرقة والفيافي المقفرة إخوانكم الذين (صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) أولئك الذين سدت فى وجوههم السبل وتقطعت بهم الأسباب، فهم يدعونكم اليوم لنصرتهم بأقلامكم وآرائكم وما هو داخل فى حيز إمكانكم.

وأما الواجب الذى طالبهم السعداوى أن يؤدوه لوطنهم فقد بسطه فى الفقرات الأخيرة التى اختتم بها هذه (الإثارة) أو هذا الداء فى قوله: «أيها الإخوان الأعزاء: إن الواجب يقضى عليكم أن تعملوا خيرا بلادكم وذلك بتنظيم صفوفكم وجمع كلمتكم وأن تؤلفوا فى كل قطر تسكونه (جمعية) تلم شعشكم وتجمع شملكم، وأن توطنوا نفوسكم على التضحية والقيام بالواجب الوطنى، وأن لا تحتقروا عمل عامل منكم فالله لا يضيع أجر من

أحسن عملاً، وارفَعوا أصواتكم بالشكوى مما تلاقيه أمتكم البائسة من مظالم الإيطاليين، واملأوا الصحف بالمقالات والفضاء بالاحتجاجات، وانشروا النرشات، وقفوا للحوادث بالمرصاد، وانتهزوا الفرص، وفكروا فيما يعود على وطنكم بالنفع، فالفكرة الناضجة تكون الأمم وتبعث فيها روح اليقظة والانتباه، ثم ربوا ناشتكم على (حب الوطن والحرية والاستقلال) أرضعوه هذه المبادئ مع اللبن، وأفثوها في صدورهم منذ عهد الصبا ونعومة الأطفار، علموهم مناقب السلف الصالح وأبطال التاريخ والفتح الإسلامى. فإنها تثبت فى نفوسهم علو الهمة وروح الشهامة والمبادئ الوطنية. وليكن شعاركم (الاستقلال) وتخليص وطنكم من الأغلال، وفكروا فى الوسائل التى تقرّبكم من هذه الغاية الشريفة، فإن الدولة الإيطالية مهما اشتد بها الصلف والغرور إذا رأنا أمامها أمة ناهضة منتشرة فى الآفاق واقفة لها بالمرصاد تجارب الظلم والاستبداد ولا تدين لسنن الاستعمار والاستعباد، لا بد أن تدعن لمطالبنا الحقّة ولميثاقنا القومى الذى عاهدنا الله على تحقيقه ببذل النفس والنفيس والله مع الصابرين - اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية».

كان لهذه (الإثارة) وقع فى نفوس المواطنين الذين أرسلت إليهم فى مختلف الأقطار يعادل الأثر الذى أحدثه منشور (الاستغاثة) فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وصارت ترى الكتب من المهاجرين فى سوريا ولبنان وشرق الأردن، وفلسطين والعراق والحجاز ومصر وتونس والجزائر والمغرب وتركيا، وكل البقاع التى بها لىبيون، يعلنون فيها تلبيتهم الدعوة التى وجهت إليهم واستعدادهم لبذل كل مرتخص وغال من أجل الوطن. ولم يشذ عن هذه الألوفا من المواطنين فى المهجر غير امرئ واحد كان قد استقر المقم به بمدينة كفر الزيات فى القطر المصرى، تمسك عن ذكر اسمه، كتب للسعداوى يقول: لا بد أنكم فى عملكم هذا الذى تقومون به تستندون إلى جهة تساعدكم من الناحية المالية (!) فإذا كنتم تؤمنون معيشة عائلتي فأنا مستعد أن أشارككم فى هذا العمل" (!). وكان هذا الشيخ، ولا

يزال من الفئة الثالثة التى تكلمنا عنها، وهى الفئة الانتهازية، وقد أجابه السعداوى فى لهجة شديدة، يبدى عجبه من هذا الاقتراح الغريب، الذى يريد صاحبه أن يقيس به الوطنية بما يمكن أن يعود عليه وعلى أهله "بالريح والمنفعة" بدلا من أن يكون معيارها البذل والتضحية.

(ب) الجمعية الأسبانية الإسلامية فى مجريط:

فى مساء ١٢ أبريل ١٩٣١، أعلنت الجمهورية فى أسبانيا، وهرب الملك السابق ألفونسو الثالث عشر من البلاد، وفى ظل النظام الجمهورى، وبعد مرور حوالى العام من هذه الثورة "السلمية العجيبة" تأسست فى مدريد أو "مجريط" جمعية أسبانية إسلامية، وأنشأت (بيتا إسلاميا) أو (عربيا) فى العاصمة الأسبانية، ولم يلبث أن تألف مجلس إدارى لهذه الجمعية كان أحد النواب الأسبان فى مدريد رئيسا له، وهو السيد خوسى فرانتشى، بينما وقع الاختيار على الأمير شكيب أرسلان، ليكون أحد نائبي وخليفتي الرئيس، والسيد محمد الفاسى من المغاربة المقيمين فى باريس، أحد نائبي الكاتب العام للمجلس السيد إنريكى دى رافلس. واختير سبعة من العرب والمغاربة، ليكونوا أعضاء مستشارين فى المجلس بجانب ستة من الأسبانيين. وكان الأعضاء العرب والمغاربة السادة: إحسان الجابرى، رفيق الأمير شكيب، وهو من حلب. والحاج عبد السلام بنونة من تطوان، وأحمد بلا فريج - وقد تقدم ذكره - وىقيم بباريس، وعبد الخالق الطريس من تطوان، والسيد محمد داود مدير المدرسة الأهلية بتطوان، ومحمد بن الحسن الوزانى خريج مدرسة العلوم السياسية، ومقيم بجنيف، وخليل بن أمية وهو صحافى فى إشبيلية.

وفى أول يونيه ١٩٣٢ أصدرت هذه الجمعية نداء أو بياناً عن مقاصدها، بعثت به إلى الذين توسمت فيهم الإقبال على معاونتها وأرادت انضمامهم إلى هيئتها. وفى هذا البيان قالت: إن أسبانيا بإلان الجمهورية فى بلادها قد تكسرت جميع السلاسل التى كانت تربطها بنظام رسمى من الصلابة المذهبية

والتعصب الدينى والبغض الشديد وأنها أنشأت دستوراً "سياسياً واجتماعياً" يسمح لها بكل حرية ورجاحة فكر، أن تلاحظ حاجتها الضرورية إلى عرض صداقتها ومحبتها ومساعدتها على جميع الشعوب، دون ملاحظة للأديان والأجناس. ثم استطردت تقول:

وهذا المقصد النبيل هو الذى أوحى إلى جماعة كبيرة من الأسبانيين المتشعبين بالعظمة التاريخية والمجد الفكرى الذين كانا لإسبانيا فى عهد السلطة العربية الإسلامية بان ينشئوا فى مجرى مركزاً فكرياً، وبيتاً إسلامياً تتجدد فيه العلاقات الروحية، والأواصر الأدبية، والانعطافات الجنسية التى تربط الشعب الأسباني بالبلاد الإسلامية حيث الذكرى التى تنسى، ذكرى خلافة قرطبة، ظلت حية خالدة طيلة خمسة قرون، تقام الخلافات والخصومات التى ولدتها سياسة مخطئة، مقدرة على أسبانيا، كانت كلها ممتلئة بالتعصب الدينى وضيق الفكر والكبرياء التى لا تطاق. إن "جميعتنا الأسبانية الإسلامية" مجردة عن كل ميل سياسى أو دينى يمكن أن يؤدى إلى مجالات عنيفة أو مناقشات مكدرية أو يلقي الشبهة فى قلب أى كائن كان، وأن غرضها الأساسى والوحيد ينحصر فى ربط الشعب الأسباني مع أصدقائه المسلمين من كل بلاد العالم بتيار قوى من الروح والعاطفة، حتى تعرف أوروبا أن أسبانيا الجديدة ترغب فى استعادة روابط المودة والصداقة المتينة الخالدة مع الشعوب، التى تشاركها فى الأفكار والتقاليد والفضائل الموروثة، والتى ماضيها التاريخى ممتلئ بآثار سامية من الحكمة والعلم والمدنية. "إن البيت الإسلامى" الذى أنشأناه فى مجرى يفتح أبوابه لجميع إخواننا المسلمين الذين سيلقون فيه روح التسامح والتفاهم، وسيصادفون فيه ترحيباً صادقاً صريحاً وإخلاصاً تاماً فى كل حين.

هذه الأمور التى كثيراً ما يتلمسونها عبثاً فى البلاد الأوروبية الأخرى، إن إخواننا المسلمين إذا حضروا عندنا أو رغبتم صدقة السفر فى معرفة أسبانيا، هذه البلاد التى كان يعيش فيها أجدادنا المشتركون عيشة راضية، تحت

سياسة حكيمة متسامحة، فإنهم سيلقون في جمعيتنا أصدقاء حقيقيين مستعدين دائماً لمساعدتكم وإرشادهم حتى يزوروا بلادنا الجميلة فيعودوا وهم بها معجبون ولها محبون، وإذا حضروا إلى أسبانيا فيسكونون في نفس بلادهم فسنبذل كل جهودنا حتى نجعلهم يشعرون تمام الشعور بأنهم في بلادهم نفسها. ثم اختتمت "الجمعية" هذا البيان أو المنشور بتوجيه الدعوة للانخراط في سلكها بقولها:

ونحن بتقديمنا هذا المرقوم لغرضنا، وهذه السطور الشاملة لبرنامجنا لا نطلب إلا مصادقتكم الطيبة، ولا نسأل إلا مساعدتكم الثمينة، على عملنا التواضع وإننا لنلتبس من معاونتكم الأدبية المرغوبة أن تذكروا بين أصدقائكم تخبر جمعيتنا بقصد تقويتها وتأييدها كيفية وكمية. وسنكون سعداء جداً عندما تسمحون بانخراطكم في قائمة مساعدينا ونراكم بين الأصدقاء الكثيرين الذين يعلنون عطفهم على عملنا، ويقدرّون المنفعة التي تنتج من خدمة غرضنا. . وقد ذيل هذا البيان بتوقيعي الرئيس فرانتشى والسكرتير العام رافلس عن اللجنة التأسيسية للجمعية الأسبانية الإسلامية.

وكان يكفي أن يكون اسم الأمير شكيب أرسلان بين المؤلفين لمجلس إدارة هذه الجمعية ليثق بشير السعداوى في صدق نواياها. ولقد كان الغرض الذي أعلنت أنها تسعى لتحقيقه وهو "ربط الشعب الأسباني مع أصدقائه المسلمين في كل بلاد العالم" مما يتفق مع أغراض السعداوى الواسعة الشاملة: تعزيز كلمة الإسلام دائماً ورفع شأن المسلمين.

ثم إن الاتصال بهذا المركز الأسباني الإسلامي، لا ريب أنه يتيح له الفرصة لنشر دعايته للقضية الطرابلسية البرقاوية، في أحد الأوساط الأوروبية، ولن ييخل هذا المركز الأوروبي في عهد الجمهورية الأسبانية عن مديد المساعدة لتشديد النكير على الطغيان الفاشيستي لمؤازرة الحملة التي يشنها السعداوى على الطليان للتبديد بالفظائع التي يرتكبونها في ليبيا.

ولذلك فقد بادر السعداوى عندما جاءت دعوة الانضمام إلى الجمعية الأسبانية الإسلامية بقبول هذه الدعوة. ثم كتب يطلب تزويده "بالمناهج الذى يجب العمل بمقتضاها"، وبادر كذلك بإرسال (كتاب الفظائع السود الحمر) إليها. وفيما يلي نص خطاب السعداوى للجمعية فى ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٢.

تلقيت بيد التكريم والتعظيم بيان جمعيتكم الأسبانية العربية الموقرة التى أسست لخدمة أجل مقصد، ألا وهو إحياء ذكريات العظمة التاريخية التى يقدسها كل من عرف قيمة العلم الخالد وقدره حق قدره.

لقد دلنا اهتمامكم بهذا المشروع الجليل على قيمة نهضتكم الجبارة، التى سيكون لها من الأثر الحميد فى إطلاق عنان الفكر ما يجعلها تفيض على الإنسانية بأجزل المنافع وأعمم الفوائد.

إن إحياء ذكريات تلك الحضارة هى خدمة عظيمة للتاريخ، وفى الوقت ذاته للمدنية العصرية التى تهددها المادة بتقويض دعائم أركانها لتغلب فكرة الاستئثار بالمنافع فى أدمغة المتزاحمين من الأمم الكبيرة. وإن بحثكم عن مآثر العرب وتاريخهم الحافل بجلال الأعمال لهو خدمة للعمل يقدرها لكم العرب الذين استيقظوا من رققادهم وأخذوا يتطلعون إلى غابر مجدهم وسالف عهدهم الزاهر، لذلك فإن كشفكم النقاب عن هذه الناحية لا شك أنها مكرمة تجعل فى كل نفس عربية أثراً عظيماً من التقدير يذكر لكم بكل تجلة واحترام. وإننى أتشرف بالانتساب لجمعيتكم الموقرة ولكم الفضل إذا اعتبرتمونى من أعضائها، وأرجو التكرم بإرسال المنهاج الذى يجب العمل بمقتضاها. وتفضلوا بقبول فائق احترامى لسعادتكم ولأعضاء الجمعية المحترمين.

ولم يطل أمد نشاط هذه الجمعية الأسبانية الإسلامية، فقد صادفت جمهورية أسبانيا الجديدة صعوبات كثيرة فى حياتها القصيرة، وتكاثفت

العناصر والأحزاب الرجعية على إسقاطها. وفي الانتخابات التي جرت في خريف ١٩٣٣ نجح أنصار الكاثوليكية والمتشيعون للمملكة، وأعداء "الماركسية" في تأليف الحكومة التي أخذت على عاتقها إزالة التشريعات السابقة "الجمهورية" ضد الرأسمالية. ومن بداية ١٩٣٤ تقريباً صارت أسبانيا تسير بخطى سريعة نحو الحرب الأهلية. أضف إلى هذا كله أن (الجمعية الأسبانية الإسلامية) بسبب الموقف السياسى ذاته فى أسبانيا لم تستطع الفور بثقة سواد المغاربة "وشبان الريف" الأسباني خصوصاً، وهم الذين زادت ظنونهم سوءاً بها عندما أسفرت الانتخابات التي أشرنا إليها عن فوز العناصر المؤيدة للملكية. ولم ينفع فى إزالة سوء الظن بالجمعية أن الأمير شكيب نفسه كان من أكبر الدعاة لها، بل إن الدعوة التي وجهها لإنشاء لجنة تحضيرية لهذه الجمعية فى مصر لم تصادف نجاحاً، ولقى الاجتماع الذى عقد فى هذه البلاد للدعوة إلى تأليف اللجنة معارضة شديدة، ولم يجتمع منهم أعضائها والذين دعوا إليها إلا خمسة نفر.

(ج) حزبا "أنتى فاشيست" الإيطالى و"الاتحاد الفرنسى للدفاع عن حقوق الإنسان والمواطن"^(١)

وكان الاتصال بالحزب المضاد للفاشيست من نواحي نشاط اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة ورئيسها السعداوى فى هذه الفترة. وهذه الجماعة المضادة للفاشيست تأسست فى ٢٨ مارس ١٩٢٧ فى باريس من الحزب الاشتراكى الإيطالى، والحزب الجمهورى الإيطالى، والاتحاد العام الإيطالى للعمل، والجمعية الإيطالية للدفاع عن حقوق الإنسان وبدأ الاتصال بهذا الحزب المناوئ للفاشيست، بأن حصل الحزب على نص احتجاج كانت قد بعثت به اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس برقة إلى عصبة الأمم

(1) Concentrazione di azione antifascista; Ligue française pour la defense des Drets de

L'Homme et du citoyen.

بجنيف، بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٣١ ضد الفظائع الإيطالية فى ليبيا. فبادر الحزب بالكتابة إلى بشير السعداوى من باريس فى ١٧ مايو من السنة نفسها، على لسان نائب السكرتير العام (بيتر مونتاسيني) Pietro Montasini قد حصل على صورة من احتجاج اللجنة التنفيذية المرسل إلى عصبة الأمم ضد الفظائع الإيطالية، ويستمر يقول: إنه قد آله كثيراً ما نزل من الكوارث "بعرط طرابلس الغرب" على يد الحكومة الفاشيية، وأن الإيطاليين جميعهم واقعون تحت الاضطهاد الفاشيى، ولذلك فهم متحدون مع جماعة اللجنة التنفيذية فيما يعملون من أجله، لأن الاتحاد ينبع من الاشتراك فى التعرض للظلم والاضطهاد. ويطلب من بشير السعداوى وصحبه أن يفصلوا بين إيطاليا وبين النظام الفاشيى وحكومة موسوليني التى لا تمثل الطليان. ويبلغه أن الحزب المناوئ للفاشيست إنما يجاهد من أجل إنشاء الجمهورية فى إيطاليا، ويعد بأن يصبح "عرب طرابلس الغرب" محررين من كل اضطهاد بل يعيشون فى اطمئنان وسلام، يوم يتحرر الطليان أنفسهم من طغيان الفاشيىست وتقام الجمهورية ويؤكد أن أعضاء الحزب المناوئ للفاشيىست يستنكر ما ترتكبه حكومة هؤلاء من فظائع فى ليبيا، ويمعنى النفس بأن هذا العهد البغيض لن يدوم وأن يوم النصر قريب. ثم يطلب من بشير السعداوى أن يزوده بالمعلومات الوافية عن "لجته" ويبحث إليه ببرنامجها وأن يوضح له أغراضها. ويسأله بدوره إذا كان قد وصله بانتظام إحدى نسخ جريدة الحزب (الحرية) La Liber a التى تصدر فى باريس، أو شىء من مطبوعات الحزب الأخرى.

ولم يتوان السعداوى فى الجواب على هذه الجماعة، فبعث برده على رسالة (بيتر مونتاسيني) يوجز له الأدوار التى مرت بها العلاقات بين ليبيا وحكومة موسوليني ويوضح له المطالب الوطنية التى تضمنها (الميثاق القومى للشعب الطرابلسى البرقاوى)، ويطلب من (مونتاسيني) أن يذكر له "وجهة نظر" هذا الحزب المناوئ للفاشيىست فى "حل القضية الطرابلسية البرقاوية" حتى يمكن على ضوء هذه الإيضاحات توحيد الجهود فى الكفاح ضد الطغيان

الفاشيستى . وإليك نص جواب السعداوى إلى (بيتر ومونتاسيني) نائب السكرتير العام، رداً على رسالته المؤرخة فى ١٧ مايو ١٩٣١ .

تلقينا كتابكم المعرب عن عواطف سامية ومشاعر شريفة نحو الشعب الطرابلسى البرقاوى المظلوم فنشكر لكم ذلك . إننا نعلم أن الأمة الإيطالية ليست هى الحزب الفاشيستى الذى أرهقنا وإياكم بأحكامه الجائرة وعنفه الشديد . ونقدر فى الأمة الإيطالية النبل والمبادئ الحرة، كما نعتقد أن كابوس الظلم الفاشيستى لا تدون أيامه وستنجلي عنا ظلمته الخالكة بفضل جهادكم وسعيكم المتواصل . فإنكم تعلمون لإنقاذ أمتكم من أغلال الاستبداد وقيود الحكم المطلق الذى لا يمكن أن تعيش تحت نيره أمة خصوصاً فى هذا العصر الذى بلغت فيه الأمم أقصى مداها من الحرية والسعادة . وهذه هى الغاية التى نسعى إليها ونجاهد لأجلها بدون أن نحسب للقوة العاشمة حساباً . إذًا فنحن وإياكم متحدون فى الوسيلة وجزء من الغاية، ومتى كان المرء ذا حق وسعى فى تحقيقه لابد أن يناله وإن طال الأمد . إننا على يقين لا يتحول أن الحكم الفردى لا تدون أيامه مهما كان نوعه، وأن روح الديمقراطية لفى عراك عنيف اليوم مع الأحكام الأتوقراطية . ولا شك فى أن تلك الروح ستغلب وستشرق نورها فى الآفاق لأنها سائرة على نهج العدل وأساس الحق، والحق نور لا يحجبه الباطل .

كنا سعيينا السعى الحثيث لدى الطاغية موسوليني لحل القضية الطرابلسية البرقاوية حالاً لا يتناقض مع المصالح الإيطالية التى جاءت إيطاليا من أجلها لبلادنا حقنا للدماء وإراحة للفريقين، فلم يقابل سعيينا إلا بغرور وعتو كبير . ولطالما رغبتنا فى أن يحل السلام فى بلادنا بدل الحرب والخصام كى نعمل بيد واحدة لإيصال وطننا إلى المستوى الأعلى من المدنية العصرية تحت سماء مشرقة بنور الحرية . ولكن مع الأسف الشديد أن حكومة الفاشيست لم تعر تلك الرغبة والنيات الحسنة اهتماماً ولم تقابلها إلا بصلصلة الحديد وولولة

القنابل . الأمر الذى حملنا على ركوب الأخطار واقتحام الحروب طيلة هذه المدة . وأملنا وطيد فى أنه متى بلغتكم بغيتكم من هدم بناء الظلم ، وأعدتم للأمة الإيطالية حريتها المغتصبة يصل الشعب الطرابلسى البرقاوى أيضاً بمساعدتكم إلى ما يصبو إليه من حرية ويظفر بأمانيه القومية .

ونرغب من جمعيتكم أن نعرب لنا عن وجهة نظرها فى حل قضيتنا وطرق معالجتها لنعمل على وضع فى سبيل جهادنا بتضامن وسعى مشترك . ونزيدكم علماً بأننا على اتصال تام بجميع الجمعيات التى تسعى لإنقاذ الأمم المستعبدة وبأهم رجالات العالم فى الشرق وبأكثر الصحف وبالمجاهدين فى طرابلس - برقة الذين لم ينفكوا عن مقاومة الحكم الفاشيستي . وقد أرسلنا لكم طيه آخر أخبار الحروب هناك . وقد نالت قضيتنا عطفاً لدى الجميع .

ويؤلمنى أن أصارحكم القول بأن فكرة مقاطعة البضائع الفاشستية قد سرت فى جميع البلاد الإسلامية بسبب الفظائع التى لا تزال تركبها حكومة الفاشيست ، ولا يمكن أن تقف هذه الفكرة ما لم تعدل هذه الحكومة الظالمة عن خطة إرهابها لشعبنا العربى الأبى والتى سنتعاون على هدم كيائها .

نحن على ثقة أنه فى اليوم الذى تخفق فيه راية الجمهورية فى سماء إيطاليا يخفق فيه علم الحرية فى وطننا ، حتى تعود للأمة الإيطالية حقوقها وحريتها المسلوبة . ويصل شعبنا المظلوم إلى حقوقه وأمانيه التى بذل فى سبيلها أكثر مما تقدم الشعوب التى تتطلب الحياة الحرة من تضحية . وأملنا وطيد فى أن تكلل مساعيها المشتركة نتائج حسنة توصلنا وإياكم إلى الهدف الأسمى ، ولكل مجتهد نصيب . . وتفضلوا . .

وفى نفس الوقت قامت صلات بين بشير السعداوى و(الاتحاد الفرنسى للدفاع عن حقوق الإنسان والمواطن) فى باريس . وذلك نتيجة للحملة الشديدة التى أثارها السعداوى والأمير شكيب أرسلان ضد الاستعمار الإيطالى والفظائع التى يرتكبها الإيطاليون فى ليبيا .

وبداً الاتصال بأن طلب هذا الاتحاد في ٥ أغسطس ١٩٣١، أن يزوده بشير السعداوى بكل ما لديه من معلومات وتفاصيل عن الفظائع الإيطالية. ووعده السعداوى أن يلبي هذه الرغبة في ٢٣ سبتمبر بعد حادث استشهاد السيد عمر المختار في برقة. ولكن الضجة التي أثارها هذا الحادث والانغماس في حركة الاحتجاجات الشديدة والاستعدادات لتأيين الفقيد، ثم التأهب الذي تلا ذلك لحضور المؤتمر الإسلامي في القدس، كل ذلك كان سبباً في أن يبعث (الاتحاد) بكتاب في ١٠ ديسمبر ١٩٣١ يسأل فيه السعداوى أن يبر بوعده. ولما كان العمل جارٍ وقتئذٍ سواء في لوزان بسويسرا بواسطة الأمير شكيب، أم في بيروت بمعاونة رياض بك الصلح لمحاولة ترجمة (كتاب الفظائع السود الحمر) إلى الفرنسية وطبعه لتوزيعه، فقد عول بشير السعداوى على إرسال هذا الكتاب بمجرد الفراغ من ترجمته وطبعه. ولكن (كتاب الفظائع) كما عرفنا لم تتم له ترجمة كاملة بالفرنسية ولم يطبع.

وفي ٣ مارس ١٩٣٢ (بيetro مونتاسيني) يبلغ بشير السعداوى بأن الحزب الجمهوري الإيطالي سوف يعقد مؤتمراً في ١٩ مارس بمدينة سان لوى بفرنسا. ويكتب: "لمعرفتى السابقة لتعاضدكم معنا على محاربة الفاشيست أعتقد أنه سيحوز القبول لدى المؤتمر برقية أو خطاب ترسلونه باسم لجتتكم. وستكون فرصة لكى نضع كلمة بشأن سكان ليبيا هذا الخطاب الذى سينشر على صفحات الجرائد الإفرنسية سينبه أنظار الرأى العام إلى الفظائع التى يرتكبها الفاشيست فى ليبيا. فإذا كنتم تقبلون اقتراحى هذا، فى وسعكم أن ترسلوا الكلمة بواسطة البريد الجوى لكى تصل فى حينها وتكون بعوانى الشخصى المحرر أدناه. وإلا فإذا كنتم ترغبون إرسال برقية فى حال انعقاد المؤتمر فلتكن بهذا العنوان. . أرجوكم كذلك أن تطلعونى دائماً على أخباركم لكى ننشرها فى الجرائد ضد الافشيست. تقبلوا يا صديقى العزيز لكم ولإخوانكم المستبعبدين ولوطنكم تحياتى القلبية واحتراماتى. (بيetro مونتاسيني) - كل المخابرة تكون بالعنوان الآتى. . . ."

وأبرق بشير السعداوى إلى المؤتمر: "نشارككم فى جهادكم ضد الفاشيست. نستلفت نظركم إلى فظائعهم فى ليبيا.

وفى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٢ بعث بشير السعداوى بوصفه رئيساً (لجمعية الدفاع الطاريلسى البرقاوى) - وكانت هذه قد تألفت أثناء الشهور القليلة السابقة - برسالة مطولة، منقولة إلى اللغة الفرنسية، إلى حزب (أتى فاشيست) وجاء فى هذه الرسالة ما نصه:

من مدة غير قليلة لم نلتق منكم نبأ عن سير جهادكم سوى ما نقرأه فى جريدتكم (الحرية) التى تردنا بصورة منظمة. وبما أننا وإياكم شركاء متعاونون من أجل بلوغ هدف مثالى واحد، يجدر بنا أن نكون على اتصال دائم. لنتحرى الوسائل التى تدفع عنا ذلك الشر المستطير الذى شمل القاصى والدانى.

إن الطغيان الفاشيستى الذى ترتكز مبادئه على الأنانية المفرطة والاستئثار الفظيع، الذى جعل معتنقى هذا المبدأ يتغاضون عن كل فضيلة تتحلى بها البشرية لهو خطر أحاط بنا وبكم، يجب أن نتعاون على مقاومته بكل ما أوتينا من قوة، وإننا على يقين بأن جيش الباطل لا بد أن يغلب أمام قوة الحق.

إن شعبنا المظلوم لا زال يلاقى من الحكومة الفاشستية من العنف والجور ما يقصر دونه الوصف، وإن كنا نعلم أن أولئك الظلمة لم يقتصروا على إرهاب شعبنا الطاريلسى وحده، بل شمل ظلمهم الشعب الإيطالى أيضاً الذى ما فتئ يئن تحت حكمهم الجائر.

فحكومة الفاشيست تفعل كل هاتيك المظالم وتتفنن فى تعذيب الإنسانية فى الآونة التى ترى رجالها يشتركون فى المؤتمرات التى تعقد لتأمين السلم العالمى ولصيانة البشر من ويلات الحروب. إذا نظر الإنسان نظرة بسيطة إلى

تلك اليد الحديدية التى تدير دفة الحكم فى إيطاليا اليوم خيل إليه أنها قد أصلحت شئونها كثيرة وأوجدت فى البلاد نشاطاً وأفعالا عظيمة، ولكن الناقد البصير إذا أنعم النظر وفكر بتعمق يرى أن تلك الإدارة الفاشستية قد ألحقت بالأمة الإيطالية ضرراً لا يقدر له حساب. لأن تلك السياسة الغاشمة قد خنقت الأفكار وجعلتها فى دائرة محدودة لا تتعدها، وهذا القيد معناه قتل للأفكار الحرة. فالأمة التى لا تملك حرية الفكر والتى يحظر عليها إطلاق عنان تلك الموهبة لا ريب أنها أمة تساق إلى هوة الجمود، وبعبارة أوضح حفرة الفناء.

لذلك أرى أن الفاشيست ينجنون على أمتهم وهم لا يشعرون. لقد غاب عن فكر الطاغية موسوليني قول ذلك الرجل العظيم الإيطالى (كافور) إذ يقول: "يستطيع أى أحق أن يحكم البلاد بالعنف والأحكام العرفية. ولكن السياسى الخبير هو الذى يحكمها بالعدل والطرق الدستورية"، ولكنكم بجهدكم المستمر لابد أنكم تحطمون تلك الأغلال وتعيدون إلى رجالكم الأحرار المشردين فى الآفاق حريرتهم المسلوبة، فيؤوبون إلى وطنهم متمتعين بحقوقهم المغصوبة، وما ذلك على قوة عزائمكم بعزير.

وقد قال أحد أبطال النهضة الإيطالية (غاريبالدى): "ما استعصت الحرية على من وطد العزم على نيلها". إن تلك المصائب التى تلاقونها من الفاشيست، هى دروس عبرة تفيدكم فى مستقبلكم الزاهر الذى يكون لنا فيه أيضاً الحظ الأوفر من الحرية ونيل حقوقنا القومية. إننا بدورنا لم نأل جهداً فى مكافحة الحكومة الفاشستية، بكل وسائل النشر والدعاية، ولا نكون مغالين إذا قلنا لكم إننا وجهنا سخط العالم الإسلامى نحوهم بدرجة أصبح فى نظره اسم الفاشستية مرادفاً للوحشية.

ثم إنه قد يهتمكم معرفة أن كل الزعماء والقادة فى الأقطار العربية، قد صاروا متفقين على توحيد جهودهم فى بلوغ أمانيتهم. وسوف يعقد لهذه

الغاية مؤتمر عربى فى القريب العاجل يحضره مندوبون من كل البلاد العربية . ومهمة هذا المؤتمر أن يبحث كل المسائل الخاصة بالشعوب الإسلامية والعربية ، فى أنحاء المعمورة . وبهذه المناسبة يهمنى أن ألفت نظركم إلى ضرورة التفضل بتزويدى بما يعن لكم ممن آراء ، وبما لديكم من معلومات أستطيع استخدامها فى تنوير الرأى عن فعال الفاشيست ، أمام هذا المؤتمر حيث إنى سأكون من أعضائه . وتوضيحاتكم ولا شك ستكون كبيرة القيمة .

وبالاختصار فإن هذا المؤتمر سيكون له شأن تاريخى عظيم لأن كل الموضوعات المتعلقة بتقدم الأمة العربية ونهوضها ستكون محل دراسة مستفيضة ومفصلة . . . هذا وقد طلب السعداوى فى آخر رسالته هذه ، أن يبعث له (الحزب المناوئ للفاشيست) عدة نسخ من الطبعة الفرنسية من جريدة الحزب (الحرية) ليقوم بتوزيعها بين مواطنيه وعشاق الحرية عموماً ، والذي يتحدثون مع جمعية الدفاع عن طرابلس برقة فى مقاومة الطغيان الفاشيستي .

ولقد بادر بشير السعداوى بإرسال تقرير مفصل إلى هذا الحزب المناوئ للفاشيست فى باريس عن الاستعمار الفاشيستي فى ليبيا ، والفظائع التى يرتكبها الفاشيست هناك . ولقد عثرنا بين الأوراق الكثيرة ، التى وضعت تحت تصرفنا ، لكتابة هذا التاريخ على صفحات متفرقة من هذا التقرير ، بعضها بخط بشير السعداوى نفسه ، والبعض الآخر من كتابة الدكتور كامل عياد وسائر أعضاء الجمعية ، وهو تقرير لا يختلف كثيراً عن البيانات والتقارير والنداءات التى صدرت عن اللجنة التنفيذية أو جمعية الدفاع عن طرابلس - برقة فى هذه المدة . ولعل أهم أجزاء ذلك الذى استعرض فيه بشير السعداوى العلاقات بين الطليان وبلاده ، مدللاً على ضرورة أن تستجيب حكومة الفاشيست لرغبة الشعب الطرابلسى البرقاوى الصحيحة فى الفوز بحقوقه المشروعة . وفيما يلى نص هذا القسم من التقرير ، وهو بعنوان : (إيطاليا والعرب) ، وقد ترجم بعد كتابته إلى الفرنسية لإرساله إلى باريس :

لا ينكر أحد أن إيطاليا أمة من الأمم الأوروبية الراقية، والتي لها من المدنية قسط وافر يعلمه القاصي والداني، وأن هذه الدولة من زمن غير قصير، أخذت تجارى دول الغرب فى ممارسة الاستعمار، فاحتلت طرابلس الغرب منذ أربعة وعشرين عامًا، لقيت فى خلال هذه المدة من الصدمات ما لم تلقه غيرها وتكبدت خسائر عظيمة فى الأنفس والأموال مما لا يقدر بحساب.

لابد لهذه الحالات التى صادفت إيطاليا فى طرابلس الغرب وبرقة من أسباب. وها إننا نجمل هذه الأسباب فى خلاصة وجيزة:

أولاً: احتلال طرابلس الغرب جاء فيعهد قد انتهت فيه الشعوب العربية وأخذت تفكر فى إيجاد كيان لها.

ثانياً: أنها جاءت ذلك القطر، الذى اعتاد أهله على العزة القومية، ولم يرضخ تمام الرضوخ للدولة العثمانية مع أنها الخلافة الإسلامية - بقوة الحديد والنار ولم تتخذ سياسة تهدى روح سكان ذلك القطر بالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم وحقوقهم.

ثالثاً: اعتمدت لتمشية سياستها فى ذلك القطر العربى الإسلامى على رجال عسكريين لا يعلمون من نفيسة الشرقى والعربى شيئاً فأخذ هؤلاء القواد ينفذون خططهم الحربية بدون مراعاة شعور ذلك السعب ولا تقاليده المتتقلة إليه بالوراثة من أجيال عديدة.

رابعاً: إن رجالات إيطاليا لما رأوا من ذلك الشعب ما رأوا من المقاومة الشديدة وشدة البأى فى الحروب دفاعاً عن حريتهم ووطنهم - اتخذوا سياسة هى إبادة الشعب واستبداله بشعب إيطالى ليستقر لهم الحال على زعمهم.

كل هذه الأسباب وسعت مجال الخلاف بين الشعب الطرابلسى والدولة الإيطالية بحيث إن الطرابلسى يعتمد اليوم أن إيطاليا ما جاءت لطرابلس

الغرب إلا لإفثائه، والإيطالى يعتقد أن ذلك الشعب يكره الدولة الإيطالية وأنه يضمّر له البغض والعداوة إلى أقصى حد.

ونحن نقول إن فى هاتين العقيدتين شططاً وغلواً، فالشعب الطرابلسى لو يجد فى من رجالات الدولة الإيطالية سياسة حكيمة تطمئنه على حياته وتقاليده وحفظ دينه وحقوقه السياسية لما تردد لحظة واحدة فى مديد التفاهم إلى الدولة الإيطالية ليعيش فى بلاده عيشة مرضية.

والإيطاليون لو يعلمون حقيقة حسن نية الطرابلسيين لا نشك فى أنهم يسلكون سياسة رشيدة توصلهم إلى غاية أسمى ولغبروا سياستهم وخططهم فى القطر وعاشوا مع أبناء القطر الطرابلسى فى تعاون الترقية البلاد من الوجهتين الأدبية والاقتصادية.

إننى أقول بكل وضوح بأن فى البلاد العربية جمعاء اليوم هزة يقظة وانتباه وحركة قومية تسير بخطى واسعة. وأن العربى فى كل قطر أخذ يشعر شعوراً تاماً بضرورة إعادة مجده السالف وسيرة آباءه الأولين.

تصادف هذه الهزة الشديدة فى أعصاب الأمة العربية رغبة الإيطاليين فى توسيع نطاق نفوذهم الاقتصادى والأدبى قيعقدون مؤتمراً للطلبة الشرقيين ويظهرون لهم العطف ويدعون أيضاً فى كل سنة مائة من أبناء العرب لزيارة إيطاليا ولمشاهدة المدنية والعمران فيها، فهذه الدعاية وهذه المحاولة التى تقوم بها حكومة إيطاليا فى التقرب إلى الشعوب العربية لا بأس بها إلا أنها لا تجدى نفعاً ما دام الطرابلسيون يشكون ويعلمون للملأ آلامهم من سياسة إيطاليا فى بلادهم.

لا تجد اليوم عربياً يسمع بالدعاية الإيطالية إلا ويقابلها بفتور إذا لم نقل بنفرة. وذلك لما يشعر به العربى من الحس المشترك بينه وبين أبناء قومه الطرابلسيين الذى يشكون السياسة الإيطالية فإذا كانت إيطاليا تريد التقرب إلى العرب حقاً فما عليها إلا أن تتخذ فى طرابلس برقة سياسة توصل أهل تلك

البلاد إلى حقوقهم، وتؤمنهم على حفظ دينهم وكل مقومات حياتهم. والطرابلسيون لا يطلبون مطالب تتناقض مع مصالح إيطاليا، فإذا ما حصلت لهم هذه الطمأنينة ونالوا حقوقهم السياسية ورجع مئات الألوف المشردون في الآفاق إلى أوطانهم واستقر بهم الحال وطابت لهم الإقامة في بلادهم. عندئذ لم يبق للعرب من شك في حسن نية إيطاليا.

إن الأمة العربية المهضومة الحقوق المحفزة للنهوض المشرئبة إلى الاستقلال والتقدم في مرافق الحياة إذا وجدت دولة من الدول الغربية تمد إليها يد المساعدة في نهوضها بحسن نية وإخلاص ومتافع متبادلة لا تتردد لحظة في عقد رابطة الولاء معها.

فما على الدولة الإيطالية إلا أن تجعل من طرابلس - برقة مثالا مسحوسا للعرب في إعطاء ذلك الشعب حريته وحقوقه وتقول للعرب: هذا البرهان الواضح لحسن نيتي وسترى من العرب العرفان باجميل والوفاء بالعهود.

وأما هذا التقرير فقد وصل حزب (آنتى فاشيست) الذي بعث في ٢٩ نوفمبر ١٩٣٢ إلى جمعية الدفاع يحيط أعضاءها علما "أنه في الجلسة المنعقدة أخيراً من قبل اللجنة العمومية للدفاع ضد الفاشيزم قد أحطنا علما بما حواه تقريركم من التفاصيل الضافية بخصوص حالة المسلمين في طرابلس - برقة. ونحن نتبع بكل إمعان شاملين بكل قوانا مساعيكم لننشرها للعالم المتمدن، ليعلم فظائع الفاشيزم بطرابلس الغرب، ونرجو من حضرتمكم إحاطتنا علما - بجيمع مجهوداتكم وأعمالكم وبالتييجة التي تصلون إليها في هذا الشأن وتفضلوا..

١١ - فرع تونس

هاجر كثيرون من الطرابلسيين - أهل إقليم طرابلس - خصوصا إلى تونس القطر المتساخم لبلادهم. واستقر بهم المقام في هذه البلد الشقيقة،

يدرسون العلم فى دورها، أو يزاولون التجارة وسائر المهن والأعمال التى استطاع الطرابلسيون أن يمارسوها فى حرية كاملة كمهاجرين قارين من وجه الاضطهاد ومظالم الفاشيست، يلقون كل ترحيب ومعاضدة من إخوانهم التونسيين، ولذلك فقد صار لهؤلاء المهاجرين جالية طرابلسية برقافية كبيرة فى تونس. وهذه الجالية اشتهرت بصدق وطنيتها، وعرفت عنها الرغبة الصحيحة فى مقاومة الاستعمار الفاشيستى فى ليبيا بكل الطرق. وبذل أعضاؤها جهوداً متفرقة بنشر المقالات فى الصحف التونسية تنويراً للأذهان عن القضية الوطنية، أو بعقد الاجتماعات الخاصة للمذاكرة فى شئون وطنهم.

ولكن لم يكن منتظراً أن يكون هذا النشاط بالدرجة التى تستطيع بها هذه الجالية مع كثرة أعدادها المساهمة فى الحملة التى كان يشعل نيرانها بشير السعداوى ضد الطغيان الفاشيستى من أقوى مراكز المهاجرين فى الخارج فى ذلك الزمن، ونعنى بذلك دمشق. ذلك أن أكثر أعضاء الجالية الطرابلسية النشيطين كانوا طلاباً يطلبون العلم فى جامع الزيتونة أو فى غيره من مراكز التعليم، تستغرق جل أوقاتهم عنايتهم بدروسهم، ويسعى عديدون منهم لكسب الرزق بالتدريس فى فصول العطلة، متفرقين فى البلاد، ولم تنهيا الفرصة لأن يقوم من بينهم من يأخذ على عاتقه تنظيم صفوفهم وتوحيد جهودهم، وتوجيه نشاطهم نحو أهداف وغايات معينة وفق برامج محددة ومدرسة.

ولقد كان بشير السعداوى الزعيم الذى استطاع بالرغم من بعد الثقة بين تونس ودمشق أن يوجه حماس هؤلاء المواطنين الوجهة النافعة نحو العمل المثمر الجدى، وأن يتيح للجالية الطرابلسية البرقافية فى تونس أن يسمع صوتها - صوت الاحتجاج على الطليان والتنديد بفعال الفاشيست والتشجيع بهم واستنكار فظائعهم - إلى العالم الخارجى، وأن تساهم مساهمة فعلى فى

"حرب الأقالام والدعاية" التي نادى بها السعداوى، والتي أطبقت من طرفيها، فى المشرق من دمشق، وفى المغرب من تونس بخناق الفاشيست وفضحت جبروتهم وطغيانهم، وألبت عليهم العالمين: الإسلامى والعربى تأليلاً شديداً.

وبدأ اتصال السعداوى بأعضاء الجالية الطرابلسية بتونس، وبرجالات البلاد كذلك يقوى، منذ أن أسس اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس - برقة فى دمشق. وقد هدف السعداوى من هذا الاتصال إلى غرضين: أولهما: أن يجند أقالام موطنيه فى هذا المهجر، وأقالام زعماء التونسيين أنفسهم فى الحرب التى يشنها ضد الاستعمار الإيطالى فى بلاده.

وثانيهما: أن يحمل مواطنيه على توحيد جهودهم وتنظيمها فى هذا النضال بإنشاء فرع للجنة التنفيذية فى تونس. فقد رحب الزعيمان التونسيان: عبد العزيز الثعالبي، ومحيى الدين القليبي بالتعاون مع بشير السعداوى، ونشرت الصحف التونسية أنباء الجهاد فى طرابلس - برقة. وفتحت الصحف السورية صद्रوها لما كان يبعث به إليها محيى الدين القليبي - مدير الحزب الدستورى التونسى - من مقالات وأنباء عن الحالة فى تونس كذلك، وكان ذلك بمسعى بشير السعداوى الذى لم يكن اهمتامه - كما عرفنا - مقصوراً على القضية الطرابلسية البرقاوية، بل شمل كل القضايا العربية، وذلك فى غضون سنة ١٩٣١ خصوصاً. وكانت خدمة كبيرة تلك التى مكنت من النشر جماعة الحزب الحر الدستورى الذين حرّموا من النشر بملء حريتهم فى بلادهم بسبب تضيق السلطات الفرنسية عليهم. ويشرح هذه المسألة محيى الدين القليبي فى إحدى رسائله إلى بشير السعداوى من تونس فى ٢٧ رجب ١٣٥٠ (٨ ديسمبر ١٩٣١) فيقول:

..... فإننى فى انتظار جوابك الذى تعين فيه الصحف التى يجب أن أرسلها وعنوانها ولسان من هى فى سوريا، لأننى عزمت على مراسلة جريدة

البلاغ فى مصر والجامعة العربية فى فلسطين، وإحدى صحف العراق، وإحدى صحف سوريا، وإحدى صحف المهجر "أمريكا" حتى أجعل لتونس صوتاً مرتفعاً فى كل بلدة، وقد اعتزمت الانسحاب من الميدان الصحفى فى تونس لأن العمل فيها أصبح غير ممكن وغير منتج نظراً للقوانين الارتجاعية التى كمموا بها الأفواه وعطلوا الأقلام". ثم يستمر يقول:

لعل سعادتكم على علم من إيقاف جريدة النهضة والوزير أيضاً من أجل الحملة التى قاما بها ضد فظائع إيطاليا فى طرابلس - برقة. وقد عادتا إلى الظهور بعد جهاد عنف. هذا بالنسبة لإيطاليا التى بينها وبين فرنسا ما تعلم، فما بالك بمن يتناول أعمال فرنسا نفسها. على أنه لم يبق بأيدينا من الصحف إلا التى أمكنها أن تعيش فى هذا الجو الخائق، هى تعيش كما تريد السلطة وقوانينها القاتلة للحرى لا كما يريد الشعب. ومما يجدر ذكره أن محى الدين القليبي كان مدعواً لحضور المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى هذا الوقت فى القدس، ولكن السلطات الفرنسية منعتة من السفر، كما معته سابقاً "ثلاث مرات من أداء فريضة الحج". وكان القليبي ممن يجذبون الاتصال بالحركة الإيطالية المعادية للفاشيست بفرنسا - أى بحزب آنتى فاشيست السالف الذكر - ويشير على السعداوى بأن يأخذ "على رجالاتها عهداً أو موافق بشأن طرابلس فيما إذا تولوا شئون الحكم بعد اليوم (ويرى) أن هذا يفيد الحركة"، كما كان يرى أن تكون هناك "لجنة مصرية أو طرابلسية فى مصر، لإدارة هذه الحركة.

وأما الطرابلسيون فى تونس الذين اتصل بهم السعداوى وكتابهم فكانوا عديدين، دأب على استنهاض همهم وتشجيعهم، وإحياء آمالهم وإنعاشها فى قرب زوال الطغيان الفاشيستي من أوطانهم إذا اتحدوا وعملوا وصبروا، وكان بين هؤلاء أن دعا السعداوى إلى تأسيس (فرع اللجنة التنفيذية) فى تونس. نذكر منهم السادة: محمد شكرى، ومحمد عباس وأحمد زارم،

والشيخ محمد عمار الرحيبى، والشيخ محمود بن على الزنتانى، وحسن بن محمود سيالة، ومحمد عريقيب وغير هؤلاء كثيرين.

ومن أمثلة الكتب التى كان يبعث بها السعداوى إلى هؤلاء المواطنين يستنهض همهم ويذكر لهم ما يحىى الأمل فى صدورهم، كتابه إلى محمد عباس المصراتى فى ٢٩ مائس (مايو ١٩٣١) حيث يقول:

تحية واحتراماً. وبعد. فقد وافانى كتابك وسررت بما حواه من رباطة جأش وصدق عزيمة. إن من سلك خدمة الأوطان ورام خوض غمار هذا الميدان لابد أن يلاقى عقبات وصعوبات غير قليلة وإلا لسهل على كل إنسان مزاوله السياسة ولما تفرد بها أناس دون آخرين. فنحن أمام واجبات وطنية يتحتم علينا القيام بها مهما لاقينا فى هذا السبيل من عراقيل ولا تتمكن من تذليلها إلا بالصبر والثبات فبهما يبلغ المرء مراده وإن طال الأمد. إننا نطلب حقاً اغتصبتة أيدي الظالمين، فلا تلويثنا عن تحقيقه قوة ولا يمنعنا عن الوصول إليه مانع مهما كان نوعه.

إذاً فالمؤلف يحتاج إلى راطة جأش ومثابرة فى العمل. ولابد قد بلغكم انضمام الشعور الإسلامى إلينا فى كل قطر من أقطار البلاد العربية عندما أذيعت تلك الفظائع التى ترتكبها إيطاليا فى بلادنا. فالدولة الإيطالية قد خسرت كل ثقة تسعى لنيلها فى البلاد الإسلامية، وهذا عدا ما يلحقها من الضرر العظيم فى اقتصادياتها، بمقاطعة المسلمين لبضائعها. وقد تألفت فى كل مكان لجان لمقاطعة البضائع الإيطالية، وهذه ضربة فى صميم الإيطاليين، تجعلهم يرتدعون عن غيهم ويقلعون عن كل ظلم ينزلونه بإخواننا، فى تلك البلاد المنكودة الحظ. وإننا لم نكتف بهذا القدر من العمل، بل سنواصل السير إلى أن نظفر، بتحقيق أمانينا الوطنية، وما ذلك على الله بعزيز.

لمدة انقطعت عنى مكاتيب إخوانك، ولم أعلم السبب، فى الوقت الذى يجب فيه أن نكون بصلة تامة، ونسعى السعى الحثيث لبلوغ مقاصدنا.

فإن كان بينكم ما يكدر الصفو فأزِيلوه واعملوا بيد واحدة، وقلب واحد، فى خدمة بلادكم. أقول هذا وأنا أتمنى من الله أن لا يكون ما ظنته. إننى فى انتظار أخباركم وترقب أعمالكم بفارغ الصبر، مع تبليغ سلامى لكل فرد منهم

وفى رسالة من سببطله بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٣١، يكتب محمد عريقيب إلى بشير السعداوى يشكره على كتابته له، ومعنى ذلك أن السعداوى لا يزال يذكر "أخيه المطرود والمغترب عن الوطن. ويبلغه أنه قد وزع "الإعلانات" - أى المنشورات - الثلاثة التى بعث بها السعداوى طى كتابه إليه، على إخوانه "المتشوقين لأخبار قضيتنا، القضية الطرابلسية البرقاوية، والذين آلتهم فظائع الفاشيست بتلك الديار"، ثم يستمر:

وبمناسبة إعدام الفاشيست للزعيم عمر المختار فقيد الإسلام، لا يمكن أن أصف لكم مقدار ما ألم بنا من جراء هذه النكبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. كلل الله أعمالكم بالنجاح". ويشرح عريقيب نوع التضيق الذى كان يلقاه المحتجون على الفظائع الإيطالية فى طرابلس - برقة، فيقول:

إن اجتماعاً عاماً كان قد عقد يوم ٢٥ أكتوبر "قصده أُلوف من المسلمين" للبحث فى المسائل التى تهّم المسلمين. ولكن وقع "خلل واضطراب" جعل البوليس يمنع "من التصريح عما فى الضمائر، وحذر الخوض فى فظائع إيطاليا بطرابلس. ويستطرد: "سمعنا بالهيجان الذى حصل فى جميع بلاد الإسلام تجاه الفظائع التى يرتكبها الفاشيست فى بلادنا".

إن هذه الرسالة نموذج مما كان يكتبه المهاجرون فى تونس، الذين لم يلبثوا أن صاروا يتجاوبون مع الحركة التى يقوم بها السعداوى وصحبه أعضاء اللجنة التنفيذية فى دمشق، خصوصاً بعد أن لمسوا أثر النشاط الذى يقوم به هؤلاء، فى تشديد النكير على إيطاليا. ومن الثابت أنه كان بعد الضجة التى قامت بسبب استشهاد عمر المختار أن خرج إلى حيز الوجود نهائياً، فرع اللجنة التنفيذية، للدفاع عن طرابلس - برقة فى تونس. وفيما يلى رسالتان:

إحداهما تبين الأثر الذى تركه فى نفوس الهاجرين الطرابلسيين فى تونس إعدام الشهيد عمر المختار، وما فعله هؤلاء لإحياء ذكره؛ وهى تشير كذلك إلى بدء تأسيس فرع اللجنة التنفيذية فى تونس.

وأما الثانية: فهى تذكر تأسيس فرع اللجنة نهائياً وشيئاً عن نظامها وأعضائها إلى غير ذلك من المعلومات المتعلقة بإنشاء هذا الفرع.

وفى الرسالة الأولى بتاريخ ٥ رجب ١٣٥٠ الموافق ١٦ نوفمبر ١٩٣١، كتب محمد عباس المصراتى إلى بشير السعداوى من تونس، أنه قد وصله كتاب السعداوى المؤرخ فى ٧ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٣١). ثم يقول:

سيدى: قد قمنا بما يحتمه علينا الدين والوطن من جهة بطلنا العظيم الأمير عمر المختار رحمه الله رحمة واسعة، ما انقضى ليل وجاء نهار. وذلك أننا لما تحققنا وفاة هذا البطل قمنا بطبع أوراق كثيرة. باسم فرع اللجنة، وممضاة باسم رئيسه الذى جعلناه وقتياً يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ (وهذا يوافق ١٠ أكتوبر ١٩٣١) فى اليوم الذى أقمنا فيه صلاة الغائب على روح فقيدنا. وقد أخذ هذا الاجتماع رنة عظيمة، واعتباراً كبيراً، فى نفوس إخواننا الطرابلسيين وأكثر السادة التونسيين وقد حضره أغلب أشرافهم كأهل الصحف والمحامين وغيرهم، من أهل البيوتات المحترمة، والذوات البارزة. وقد سالت الدموع فى هذا الاجتماع وارتفعت الزفرات، ثم خرجت تلك المئات وهى تترحم على فقيد الإسلام الحربى فى هذا العصر وتشكر صنيع اللجنة واهتمامها بهذا الأمر. وهذا أول مظهر ظهرت فيه الجمعية إلى حيز الوجود للعامة.

وحيث إن صاحب مجلة العالم المصورة، التى يصدرها بحاضرة تونس الكاتب البارع الرحال السيد سعيد أبو بكر، كان حاضراً هذا الاجتماع، طلب من الحاضرين أن يقفوا قليلاً، كى يأخذ سمهم ليضعه فى مجلته، فلبت الناس دعوته... وقد بعثنا لكم تلك المجلة وبها رسم من حضر صلاة

الغائب من طرابلسيين وغيرهم، ولتعلموا أننا نبعث (إليكم) كل جريدة بها كلام على وطننا الشهيد. ويوم ٧ مضت من شهر جمادى الثانية (٢٠ أكتوبر ١٩٣١) أقام الحزب الحر الدستوري التونسي حفلة تأبين، حضرها جم غفير من الناس وألقيت الخطب وقرئت القصائد وأصاب الناس ما أصابهم في الحفلة الأولى. وقد طلب الخطباء من الحاضرين طلباً جازماً أن يقطعوا كل شيء مصدره إيطالي ولا سيما مدير الحزب السيد محي الدين القليبي. والآن لنا وإخواننا التونسيين اعتناء كبير بمسألة المقاطعة، غير أنها لا تصل في تونس ما وصلت إليه عندكم، لأن الناس لا ينفعون أنفسهم، وإخواننا التونسيون أغلبهم لا يلتفت لنفع نفسه، وبالأحرى نفعنا، لأن الغفلة والسبات وضغط الحكومة الفرنسية عليهم، تركهم يسحبون في بحر الجبن، ومنهم أناس فضلاء شجعان، لا يهابون الموت والهوان، وهم الذين إن شاء الله - يكون لهم صوت بزلزل جبالها ودوى يخرج أثقالها. وقد صارت لوطنا منزلة عليا لدى التونسيين، وذلك بفضل ما نحن قائمون به بينهم.

قد قلتم لنا في كتابكم الأخير، إنكم أصدرتم صورة كبيرة للزعيم (عمر المختار) وجعلتم ثمنها خمسة فرنكات وتريدون أن تبعثوا لنا منها كمية تقوم بتوزيعها. إننا لم يمض على وفاة الزعيم أكثر من عشرين يوماً، حتى شرعنا في تخريج بضعة آلاف من الصور، وقد جاءت أوضح من التي أرسلتموها إلينا، ومن قريب تأتيكم بها أعداد لتظروها. ذكرتم لنا أن كتاب الفظائع قارب الإتمام وطلبت منا كم يكفينا من الأعداد. إنكم لو بعثتم لنا آلافاً كثيرة قمنا بتوزيعها في مدة قليلة...

إننا لما أن كتبنا لكم كتابين تتجاوز مدتهما الستة أشهر ولم ترجعوا لنا مضمونها اضطررنا إلى تشكيل هيئة اللجنة، فشرعنا في تشكيلها من مدة لا تتجاوز الشهرين. فجعلناها تتركب من اثني عشر شخصاً، ولها ثلاثة هيآت، لكل هيئة أربعة أنفار. هيئة إدارية ومالية، والهيئة الثالثة تتكلف ببث الدعوة

ولتأسيس المراكز في الجهات. وللهيئة الأولى أن تحاسب وتتفقد ما تصنعه
الهيئتان الأخريتان... وقد جعلنا دفترًا للداخل والخارج من الدراهم الداخلة
للجنة ودفترًا لأسماء الداخلين فيها، وتسيطر المواد والفصول التي أسست
للجنة للسعى على تحصيلها، (كما تضمنها) الميثاق الوطني لشعبنا، وقد طبعنا
أوراقًا تسلم لمن أراد الدخول فيها، ويفيد بها اسمه واسم (وطنه) وقبيلته
وعدده بعد ما يحلف اليمين التي سبعت لكم بصورتها إن شاء الله،
وسنبعث لكم بيانًا أحسن من هذا بكثير.

أما الرئيس الذي وقع الاختيار عليه لهذا الفرع في تونس. فكان السيد
محمد شكري الطرابلسي الذي يقول عنه محمد عباس في نفس رسالته هذه:
إنه "ولد بينغازي وأصله مصراتي، وقد قرأ في المكاتب التركية مدة طويلة وله
معرفة باللسان الفرنسي ولم تكن له معرفة باللغة العربية، وخدمته نائب
وقابض بأوتيل المسرة الكائن بالحاضرة تونس". وقد توفي من مدة.

هذه البيانات التي بعث بها محمد عباس عن تأسيس فرع اللجنة
التنفيذية في تونس، لم يلبث أن جاء ما يؤيدها، ويزيدها توضيحًا من رئيس
هذا الفرع نفسه السيد محمد شري الطرابلسي. وذلك في رسالة مطولة بتاريخ
٢٨ رمضان ١٣٥٠ الموافق ٦ فبراير ١٩٣٢ تحمل في طرفها الأعلى اليمين
طابع (اللجنة التنفيذية للجانيات الطرابلسية البرقاوية، فرع تونس. وقد بدأها
بعد التحية بالتهنئة بالعيد، وأنشأ يقول:

سيدى المحترم: قد تلقينا تثيلكم لوطننا العزيز، وأمتنا المجاهدة الكريمة
العربية الطرابلسية، ونيابتكم عنها بالمؤتمر الإسلامى المنعقد فى بيت المقدس
المشرف، بالفرح والسرور... وزادنا ارتياحًا وابتهاجًا، انتخابكم عضواً فى
المؤتمر الإسلامى...، ثم تكلم عن تأسيس فرع اللجنة، فقال:

وقد شكلنا لجنة تشتمل على اثنى عشر عضواً، وقسمنا إلى ثلاثة
أقسام، أى هيئات: هيئة للأمور السياسية، وهيئة للأمور المالية، وهيئة لنشر

الدعوة، كما فصله لكم السيد محمد عباس سابقاً وعملنا لها قانوناً أساسياً سأرسل لكم منه نسخة مستقلة... سيدى: كنا أرسلنا إلى جانبكم السامى صورتين من صور فقيدنا العزيز سيدى عمر المختار وجواباً به منشور إيطاليا فى مجلة العالم وجريدة النهضة والوزير (وهنا كلمة لم يمكن قراءتها) التى بها القلم الذى مثله قنصل إيطاليا بتونس عن احتلال الكفرة والفضائع التى ارتكبوها بها، وقد طلب محمد شكرى أن يبعث إليه السعداوى بكتاب الفضائع السود الحمر لتوزيعه. وفى آخر هذه الرسالة يذكر أسماء أعضاء اللجنة وهم: "الشيخ محمد الرحيبى، والسيد أحمد زارم، والشيخ محمود الزنناني، والشيخ ميلاد جربى، والشيخ الحاج محمد البوعيسى، والشيخ محمد بن سليمان، والسيد محمد عباس، والسيد أحمد تريفيش.

وعندما تم تأسيس فرع اللجنة بتونس بالصورة التى رأيناها كان قد وقع الانشقاق فى اللجنة التنفيذية ذاتها فى دمشق، وقامت فى مكانها هيئة جديدة هى (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى)، لأسباب سوف يأتى ذكرها مفصلاً، أهمها نظرق روح التخاذل إلى نفر من الطرابلسيين من أعضائها ومن غيرهم على أثر ما أذيع من أن الحكومة الإيطالية قد أصدرت عفواً عن الذين جاهدوا وناضلوا ضدها، يشمل الذين اضطروا إلى الهجرة والتغرب عن الوطن بحيث يستطيع هؤلاء العودة إلى بلادهم فى أمان إذ شاءوا. ولم يكن الغرض من إذاعة هذه الشائعات غير إضعاف العزائم والهمم، واستمالة ضعفاء النفوس إلى جانب السلطات الإيطالية.

ولذلك فإن بشير السعداوى، فى الوقت الذى رحب فيه بتشكيل فرع (اللجنة التنفيذية) فى تونس. بادر بإبلاغ رئيس هذا الفرع بالتغيير الذى حصل، ويشير عليه باتخاذ الإجراءات المناسبة والمترتبة على إنهاء اللجنة التنفيذية وتأسيس (الجمعية) الجديدة ويبين له ولسائر أعضاء الفرع التونسى، الغرض من الكفاح الذى يحملون جميعاً أعباءه فى عبارات يمكن أن توصف

بأنها بيان لفلسفة هذا الكفاح الذى ظل السعداوى يحمل لواءه أو يقوم بالقسط الأوفى منه طوال السنوات العشر الأخيرة خصوصاً.

ففى ١٤ ذى الحجة ١٣٥٠ (الموافق ٢١ أبريل ١٩٣٢) كتب بشير السعداوى إلى "حضرة الأخ الفاضل محمد شكرى أفندى بتونس" جواباً على رسالة هذا الأخير ما يأتى:

تحية واحتراماً: وبعد. فقد تلقيت بيدى المسرة كتابكم الكريم وانشرح صدرى لما جاء فيه من مساعيكم إخوانكم فى قضية البلاد، فإنى أشكر لكم جميعاً تلك الوطنية الصادقة والسوايا الحسنة نحو وطنكم الذى يئن تحت كابوس الظلم والجور. فالأمة التى يكون من أبنائها فريق يذودون عن حياضها ويدافعون عن كيائها بكل الوسائل فإنها لن تموت وستظل تشغل مكاناً يليق بها بين الأمم الحية رغم ما تلاقى من العسف والاضطاد، فإننا لا نملك من القوة ما نصده به غارة عدونا العنيد، إلا قلوباً ملؤها الإيمان بالله، والثقة به، والاعتماد عليه. فهذه قوتنا التى نناضل بها. قد يجوز أنه لا يبقى فى البلاد من يطلق رصاصة فى وجوه الإيطاليين. ولكن ذلك لا يوهن عزائمنا ولا يفت فى عضدنا، فإنهم إن ملكوا الأرض فلن يستطيعوا أن يستولوا على عقائدنا وضمائرنا. ومتى كان المرء ذا حق وسعى فى طلبه لا بد أن يناله ولو بعد حين. فنحن - معشر الطرابلسيين - من وجهة الدفاع بالحسام قد أدينا بعض ما يجب علينا من حق ذلك الوطن وبقي علينا واجب الدفاع بالأقلام، وغرس المقاومة فى الأذهان يتحتم علينا أن نوفيها حقها إلى أن ترسخ وتصبح عقيدة فى كل فرد من أفراد الأمة. حيثئذ لا يضرنا وجود الإيطاليين فسنبقى نتربص بهم الدوائر إلى أن تحين الفرص لى نعيد عليهم الكرة وإنى أرى اليوم غير بعيد. أما إذا استلمنا ورضخنا للأحكام الجائرة والاستعمار الممقوت فلا يلبث أن يقضى على عقائدنا وشعورنا ونموت بعد ذلك مorte لا حشر لنا بعدها، وفى ذلك البلاء العظيم والهوان الجسيم. فهذا يا أخى ما أخشاه

وأدعو للانتباه منه . إننا طلاب حقوق مغصوبة وحرية مسلووبة فيجب أن نستمر في نضالنا في هذا المضمار ونقاوم طغاة الاستعمار ما دام فينا عرق ينبض وقلب يخفق والله ولى الصابرين .

ذكرت لى - يا حضرة الأخ - أنكم ألفتكم لجنة وقسمتم أعضائها ثلاثة فروع فنعم ما فعلتم ، وقد كان كتب لى الأخ محمد عباس بذلك وسررت بوجود أمثالكم ومن آزركم من إخوانكم فى هذا المشروع الجليل ، الذى نهضتم للقيام به . وقتلتم إنكم وضعتهم قانونا لأجل أن تمشوا عليه فى عملكم ، فأرجو أن ترسلوا لى منه نسخة ، لنطلع عليه ونعيده لكم .

إننا فى هذه المرة الأخيرة قد اتفقنا أن نستبدل باسم (اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية) اسم (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى لأسباب لا حاجة لذكرها وتفصيلها . وعليه فأنتم يقتضى أن تستبدلوا بالاسم اسم (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى - فرع تونس) وسنرسل لكم أوراقا مطبوعة بهذا المعنى . وإننا غيرنا الاسم فلن نغير الهدف الذى نرمى إليه ، وهو السعى لتحقيق الميثاق الوطنى : وبهذه المناسبة أذكر لكم أننا قد جددنا النشاط وضاعفنا الجهود ووسعنا نطاق العمل وأملى وطيد بأنكم ستسيرون عليها المنوال وتبذلون الجهد فى تقوية الأعمال التى يكون لها الأثر الملموس فى نشر القضية . كلل الله أعمال الجميع بالنجاح ورزقنا وإياكم العزم والثبات .

لقد مرت علينا فترة عظيمة فى أمر المخابرة لأسباب . أهمها اشتغالى بقضية المؤتمر الإسلامى ، والآن يجب أن نتفرغ لقضيتنا ونلاحق عملنا فيها بكل وجد ونشاط ، لذلك أؤمل منكم أن تكون مخابراتكم متواصلة بانتظام مع الترعىف عن كل ما يحدث عنكم . هذا ما أرجوه منكم فى هذه الآونة وترانى فى انتظار جوابك بفارغ الصبر .

ذلك إذا كان تاريخ إنشاء فرع اللجنة التنفيذية ثم جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى فى تونس فى غضون سنتى ١٩٣١ ، ١٩٣٢ .

وأما هذا الفرع فقد نجح في نشر الدعوة للقضية الطرابلسية البرقاوية في أنحاء تونس نبه أذهان الليبيين في المهجر وأذهان التونسيين أنفسهم ورجالات أحزابهم الوطنية إلى ضرورة التكاتف في الاحتجاج على أعمال الطليان في ليبيا لوضع حد للفظائع التي يرتكبونها بها - الأولين باعتبار أنها وطنهم. والآخرين باعتبار أن العالم الإسلامي تربطه وحدة الشعور والأمانى، وأن ما يؤذى عضواً يؤذى كل جثمانه.

ولا جدال في أن المواطنين الطرابلسيين في تونس كانوا مدفوعين في نشاطهم الوطنى بذلك الحماس الذى أشعله السعداوى فى نفوسهم، وذلك الإيمان العميق بعدالة قضية الوطن الذى عرف السعداوى كيف يجعله بين كل المتصلين به النبع الذى يستمد منه العاملون فى هذا الميدان رباطة الجأش والثبات والصبر والمثابرة على العمل والأمل فى النجاح وبلوغ القصد. ولقد تقدم فى مناسبات شتى كيف أن السعداوى من طول تفكيره فى قضية وطنه، ولكثرة ما مر به من تجارب فى كفاحه المستمر ضد الاستعمار الأجنبى لبلاده، قد صار يتقن سلاح الدعاية الذى سماه "حرب الأقلام والنشر". ولعل أقطع سلاحين من أسلحة الدعاية والنشر هذه كانا إصدار كتاب الفظائع السود الحمر بعد "منشور الاستغاثة" المعروف، ثم الاشتراك فى المسعى من أجل عقد المؤتمر الإسلامى وتمثيل بلاده به والمسعى كذلك لعقد (مؤتمر عربى) - ولو أنه لم يتيسر عقد هذا الأخير لأسباب خارجة عن إرادة السعداوى. ولقد تكلمنا كثيراً عن الأثر الذى أحدثه إصدار (كتاب الفظائع) سواء بين مواطنيه، أم فى المحيط الخارجى.

أما الاشتراك فى المؤتمر الإسلامى وتمثيل بلده به فقد أحيى نفوس مواطنيه المتفرقين فى مختلف الأقطار الإسلامية والعربية فى المشرق والمغرب، وأشعرهم أنهم لم يكونوا فى تغربهم ومحتتهم بعيدين عن قلوب إخوانهم فى الإسلام والعروبة. وأن ما يألمون منه بألم له إخوانهم وأن "قضيتهم" لم تعد

حادثاً إقليمياً محلياً و كارثة لا يفرغ لها إلا من نزلت بهم فحسب، بل يحتضن قضيتهم العالم الإسلامى أجمع، الذى يتفجع لفجائعتهم، ويأسى لمآسهم. وقد جاءت إلى بشير السعداوى رسائل كثيرة بهذا المعنى من مواطنيه فى الحجاز وفلسطين ومصر والعراق وغيرها، أشرنا إلى طائفة منها. وفى تونس حدث نفس الأثر ولقد لمسنا ذلك من رسائل محمد عباس ومحمد شكرى وغيرهما.

وفى هذا المعنى أيضاً يقول مواطن هاجر إلى تونس بعد انقضاء المقاومة الوطنية فى كرابلس، ولم يعد إلى بلاده إلا عند إيدحار الطليان فى الحرب الأخيرة وخروجهم من ليبيا بعد ذلك بنيف وعشرين سنة. وقد ظل طوال هذه المدة ثابتاً على مبادئه لم تتزعزع عقيدته ولم يضعف إيمانه. هو السيد أحمد زارم. الذى كتب فى ١٤ ذى الحجة ١٣٥٠، الموافق ٢١ أبريل ١٩٣٢ إلى الشير السعداوى:

... سيدى: لقد كنت من مدة لم أكتب لكم سبب غيابكم عن دمشق حيث بلغنا سفركم إلى المؤتمر الإسلامى العام فى بيت المقدس وأيضاً بلغنا انتخابكم عضواً فى اللجنة الدائمة للمؤتمر. هينئاً لكم يا سيدى بهذه الثقة الكبرى التى نلتموها عن جدارة فهى دليل واضح لما هو لكم من الخبرة والدراية بالأمر السياسى وغيرها". وفى هذا الكتاب يطلب أحمد زارم السعداوى، وقد انقضى المؤتمر أن يكتب إلى صحبه فى تونس وأن لا تنقطع رسائله عنهم..

وأما الاهتمام بكتاب الفطائع، فسيتمين من رسالة بعث بها رئيس الفرع فى تونس، محمد شكرى، إلى السعداوى فى ٣ صفر ١٣٥١ (٨ يونيه ١٩٣٢) جاء فيها أنه قد أوصله خمسون نسخة من هذا الكتاب "بأدر بتوزيعها على أهل الغيرة والحمية، فأثرت تأثيراً كبيراً، وكان لها الوقع الكبير". ويشكو من أن الكمية المرسلة لم تكن كافية حيث قد نفدت سريعاً، ولا يزال

كثيرون يسألون عن الكتاب "بتهلف" وطلب نسخًا أخرى "فوراً لأن الجزائر والمغرب الأقصى لم يرسل لهما شيء إلى الآن لنفاد" الكمية التي أرسلت ويضع محمد شكرى وزميله محمود الزنتاني - الذى وقع معه على الرسالة - قائمة بأسماء "الذوات" الذين طلبا إلى السعداوى أن يبعث لهم "بالنشرة لأنهم (مسموعى) الكلمة بالمغرب مع الحماسة الدينية". وذلك فى فاس، والرباط، والدار البيضاء بالمغرب الأقصى.

وقد كتب بشير السعداوى فى ٥ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٣٢)، إلى محمد شكرى رئيس فرع جمعية الدفاع بتونس"، يشكو من مضى مدة طويلة دون أن يصله منه أى خطاب، وينقل إليه آخر ما وصل إليه العمل فى ترجمة كتاب الفطائع السود الحمر، ثم يستحثه وإخوانه على متابعة النشاط بكل همة فى خدمة قضية الوطن، حيث كتب: "فيا أخى! أوجه إليك وإلى إخواننا العاملين معك فى خدمة القضية أنكم تروننا من آثار فعاليتكم ونشاطكم ما يشفى صدورنا ويقهر أعدائنا.

إن العمل لخدمة البلاد مهما كان نوعه، لا يحتاج إلى شيء، إلا إلى العزائم الصادقة والقلوب المخلصة، فهذه العدة إذا تزودت بها أمة، لا يقف أمامها ظالم مهما كانت قوته، وهذه المزايا هى التى جعلت شعبنا يقف فى وجوه أعدائه طيلة هذه المدة. ولا ريب أنكم من أنجب أبناء الشعب الباسل. إن العمل الذى يغيظ أعداءنا ويلحق بهم الضرر هو متيسر لك فرد منا، فالدعاية والنشر والصياح فى وجوههم فى كل فرصة أمر غير عسير ولا يكلفنا شيئاً من المشقة والعناء. فإنى أستفز هممكم، وأرجوكم أن لا تفتروا عن العمل، وأن توالونا بالمخبرة فى كل ما يجد عليكم، فإن هذا الاتصال تذكية لحم الهمم التى تتأجج فى قلوبكم...

وكان من أكثر أعضاء اللجنة - ثم الجمعية - نشاطاً فى تونس، السيد محمد عباس المصراتى، وكان قد انقطع عن الدراسة فى جامع الزيتونة

"لضعف حالته الاقتصادية". وخرج يشتغل "بتعليم الصبيان القرآن"، وابتعد عن الحاضرة تونس، ولو أنه صار يزورها من وقت لآخر، يبذل قصارى جهده فى استحثاث إخوانه على المثابرة فى العمل فى قضية الوطن والاتصال الدائم بالسعداوى لتلقى إرشاداته كما أخذ على عاتقه "بث الدعوة خارج الحاضرة، لهذه القضية. واستمر يفعل ذلك حولا كاملا. ولم ينقطع هو نفسه عن الكتابة أثناء ذلك.

وفى رسالة مطولة بتاريخ ٤ شعبان ١٣٥١ (الموافق ٣ ديسمبر ١٩٣٢)، يذكر محمد عباس طرقاً من النشاط الذى قام به هو وإخوانه فى المدة الأخيرة، من حيث النشر والدعاية للقضية بكتابة المقالات فى الصحف التونسية، وإذاعة فظائع الطليان وبث الدعوة ضدهم وإهاجة الرأى التونسى عليهم. ثم يتكلم عن حادث الانشقاق الذى حصل فى اللجنة التنفيذية. ويبدى تأمله من انحباس أخبار السعداوى وصحبه عنهم فى تونس شهوراً طويلة - وقد تبين أن بعض هذه الكتب كان "يضيع" ولا يصل فرع اللجنة - ثم من بعدها - الجمعية - فى تونس أصلا، فهو فى هذه الرسالة يكتب:

... وبعد. فإننا منذ ستة أشهر ونحن فى قلق عظيم مشوب بخوف ووجل قد تركا شعاف العقول ممن ينتسبون إلنيا "يفقدون لأمل". بسبب هذا القلق هو احتباس كتبكم عنا مدة تفوق النصف سنة مع أنه لم يكن من عاداتكم هذا الاحتباس... إن فرع لجتكم بتونس لا زال قائماً بما يراه حسناً وهو يعمل على قدر مقدرته. وفى الشهر المنصرم قام بحفلة تأيين لذكرى بطلنا سيدى (عمر المختار) رضى الله عنه. وقد حضرها ناس كثيرون من ذوى الحشيات كأهل الجرائد والمحامين والأدباء والخطباء وغيرهم من الذوات البارزة وقد كتبت الجرائد على هاته الحفلة وبينت كيفيتها والخطباء فيها. وقد بعثنا لكم الأعداد التى فيها تلك الحفلة، وبعثنا لكم عديدين من الوزير الأغر بعد البعثة الأولى بهما مقالة بتوقيع (حمد عباس المصراتى الطرابلسى) كتبها كاتب هذا رداً على مجلة اللطائف التى تصدر بمصر حينما كتبت على أن

جميع ما أشيع على الطليان من ارتكاب أنواع الفظائع بطرابلس الغرب لا أصل له. فلما رأيته بها كتبت على مقالها مقالة طويلة أخذت أربعة أعمدة من جريدة الوزير الغراء وكلها براهين وأدلة على كذب تلك المجلة العمياء فإن لم يصلكم ما نبعثه من الجرائد والكتب أخبرونا. وقد نشر الفرع دعوتنا المرادة في كامل القطر التونسي لا فرق بين طرابلسي وغيره وبين الناس ما فعله الطليان في بحر ٢١ بالتدقيق، وما يحس واحد منا في مجلس إلا ويقوم فيه كالخطيب يبين للحاضرين خبائث الفاشيست. إنك لا تجد اليوم كثيرًا ولا صغيرًا طرابلسيًا ولا تونسيًا يجهل ما فعله الطليان بشعبنا المسكين". ثم انتقل إلى الكلام عن فوزى النعاس، وهو عضو اللجنة التنفيذية السابقة للجاليات الطرابلسية البرقاوية الذى خرج عليها، وصار يطعن على رئيسها وسائر زملائه السابقين بها والذين بعد أن لفظوه من بينهم أسسوا (جمعيتهم) الجديدة في الظروف التى سيأتى ذكرها.

ولقد أجاب السعداوى على رسالة الشيخ محمد عباس هذه، بكتاب مطول كذلك، أوضح فيه المسائل التى أثارها الأخير فى رسالته، فكتب السعداوى من دمشق فى ١٠ رمضان ١٣٥١ - ٦ كانون ثانى (يناير ١٩٣٣).

أخذت كتابك المؤرخ فى ٤ شعبان سنة ١٣٥١، وقد وصلنى سنة ١٣٥١ (٣١ ديسمبر ١٩٣٢) فبعد أن عقدت الهيئة الإدارية جلساتها المعينة قرئ كتابك وشكر لبك الإخوان همتك التى لا تزيدنا الأيام إلا اتقادًا وقوة واستعدادًا وتقرر أن أجيبك على ما جاء فيها بما يأتى:

ذكرت أن إخواننا أعضاء فرع الجمعية من مدة لم يأخذوا منا كتابًا الأمر الذى حيرهم وأقلق بالهم. فلدى مراجعة المسودات وجد أننا أرسلنا للإخوان كتابًا مفصلاً بتاريخ ١٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ (٢١ أبريل سنة ١٩٣٢) - وقد أثبتنا نص هذا الكتاب - وكتابًا بتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥١ (٢٤ يوليه سنة ١٩٣٢)، وكتابًا بتاريخ ٥ تشرين الأول (أكتوبر سنة ١٩٣٢) - وقد

أثبتناه كذلك - وكل هذه الكتب لم نأخذ عنها جواباً خصوصاً وأننا قد أرسلنا ختماً للجمعية فأعيد لنا بعد مدة غير قصيرة، وقد التبس علينا الأمر وقلنا: إما أن كتبنا تضييع في البريد ولم تصل، وإما أن الأخ شكرى أفندى غير عنوانه ومحل إقامته بدون أن يخبرنا بعنوانه الجديد، وإما أن الأمر إهمالا وتكاسلا، إلى أن تلقيت أخيراً كتاباً من الأخ أحمد أفندى زارم يلوم أيضاً على عدم المراسلة، (والإشارة هنا إلى كتاب أحمد زارم بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٣٢ وقد ذكرناه) بلوم أيضاً على عدم المراسلة فأجبت بتاريخ ١٩ كانون الأول (ديسمبر ١٩٣٢) وبينت له أننا كتبنا للأخ شكرى أفندى عدة كتب ولم يصلنا منه جواب ورجوته أن يعرفنى عن السبب. فلا يمر بيال أحدكم أننا نأخذ من فرد كتاباً ولا نرد له الجواب لأننا نرى ذلك يؤدي إلى انحلال الرابطة التي نحرص كل الحرص على شد أواصرها بكل قوانا وليس لنا في هذه الحياة شغل يشغلنا عن تتبع قضية بلادنا التي هي مثلنا الأعلى وهدفنا الأسمى. ثم إن ما ذكرته عن حفلة تأبين فقيدنا الكبير فقد جاءتنا الحفلة التونسية طافحة بوصف هبة تلك الحفلة فنشكر لك ولعموم الإخوان الذين أدوا هذا الواجب حقه من العناية وإنها لهمة تذكر وتشكر. وكذلك أخذت مقالك القيم الذي جاء في الوزير رداً على مهزلة (اللطائف)، وإننى لمبتهج جداً بقرب مكانك واتصالك بالإخوان لأن هذا يعينكم على العمل الذي يتطلب المؤازرة والمعاوضة بين الأفراد، زادكم الله همة ونشاطاً.

أما ما ذكرته عن . . فوزى النعاس فهو (لا) يقام لكلامه وزن و(لا) يؤبه له ولنضرب عن ذكره صفحاً. . . وإننى أطمئنكم، إن عموم من تعرفون من رجالات البلاد كالمريض بك والأخ أحمد بك اشتيوى والسادة السنوسية وغيرهم من زعماء البلاد كلهم على اتصال واتفاق معنا في هذا العمل، ونظراً لشذوذ (فوزى النعاس) ورفيق له على شاكلته (المقصود بذلك محمد ناجى) قد قررت الهيئة الإدارية إقصاءهما عن العمل، ولذلك أخذ يهرق بما لا يعرف.

أما سبب إبدال اسم اللجنة بالجمعية فذلك لسبب جوهري وهو أنه قد بلغتنا بصورة أكيدة أن الإيطاليين قد خسروا بعض من لا خلاق لهم ومم تستهويهم الأموال من الطرابلسيين بأن يقولوا. بما أن هذه اللجنة تتكلم باسم الجاليات ونحن أفراد الجالية فلا نقر ما تقوله باسمنا، لذلك أردنا أن نقطع كل لسان مشاغب ولا نترك مجالا للفساد فى صفوفنا، ورأينا من الضروري استبدال الاسم فقط. أما البرنامج والهدف والأعمال فلم يتغير منها أدنى شىء هذا ملخص ما رغبتهم الاطلاع عليه مما سبق، وأرجو أن تكون فيه الكفاية.

إن قضيتنا يا إخوانى الأعزاء، لا تشبه غيرها من القضايا المتكونة فى سائر البلاد العربية. نعم إن تسلط الأجنبى حاصل على كثير من الأقطار العربية، بيد أن ما أصابنا به - معشر الطرابلسيين - من إغارة الإيطاليين على بلادنا لا يقاس عليه، فمصابنا عظيم، وخطبنا جسيم.

لقد أصبحنا على علم لا يتخلله شك، بأن الحكومة الإيطالية لم تكشف بالاستيلاء على البلاد واستعمارها. بل وطدت العزم على إفناء شعبنا وإبادته بكل الوسائل لتستبدل به الشعب الإيطالى المتشرد فى الآفاق. وقد وقفنا على نواياهم السيئة فى هذا المعنى. ومن ضمن الوسائل التى يرغبون أن توصلهم إلى مآربهم وضعهم فى المدة الأخيرة قانون التجنيد الإجبارى الذى يفرض الخدمة السكرية على كل فرد طرابلسى بلغ سن السادسة عشرة إلى الستين. فهذا القانون بتنفيذه سيكون القضاء المبرم علينا.

لذلك قد ضاق صدرنا واضطربت أفكارنا وقلنا يجب أن نعمل أكثر بكثير مما كنا نعمل، يجب أن لا تنام أعيننا ولا يهدأ لنا بال. يجب أن نضاعف الجهود ونتبصر فى العواقب. إننا إن تغاضينا عن ما يراد وبقراءنا وبلغتنا فى تلك البلاد نكون قد ارتكبنا إنما يحاسبنا الله والتاريخ عليه أشد الحساب. فكيف يجوز لنا السكوت والإيطاليون يريدون أن يطفئوا نور الله من تلك الربوع بعد أن كان فيها ساطعاً منذ أربعة عشر قرناً. هل من الدين

والمروءة والحمية أن تخرج من أوطاننا بنية الهجرة ونولى وجوهنا عن أوطاننا وإخواننا وهم يلاقون أشد العذاب وننصرف إلى معاشنا وملاذنا في هذه الحياة! إننى أجزم بأن هجرة كهذه لا يقبلها الله منا لأنها منافسة لحكمة الشارع الذى فرضها علينا. إذاً يا إخوانى الأعزاء: إننا إذا قصرنا وتقاعسنا عن القيام بالواجب الوطنى نكون قد خسرنا الدنيا والآخرة وهذا هو الخسران المبين.

فالعامل المثمر قبل كل شىء يتطلب خطة منظمة ورجالاً متضامنين فى السراء والضراء وحزماً تاماً وأعتقد أن فى إخوانى الكفاية وصدق العزيمة. لذلك أرجو بعد قراءة كتابى هذا الموجه إليكم جميعاً أن تعرفونى عن وصوله وأن تبحثوا عن الكتب التى أرسلنا إليهم. وإنى فى انتظار إشعاركم بفارغ الصبر.

نحن الآن نسعى فى ترجمة كتاب الفظائع إلى اللغات الأجنبية واللغات الشرقية... ولنا مشاريع هامة تحت الدرس والتمحيص وسنعرفكم بنتائجها إن شاء الله.

وكان قد شكّا كذلك السيد أحمد زارم من "انقطاع" المكاتبه، وبعث منذ ٣٠ رجب ١٣٥١ (٢٩ نوفمبر ١٩٣٢) إلى بشير السعداوى، يسأل عن سبب هذا الانقطاع مع علم السعداوى أن "كتاباته هى الوسيلة الأولى لتنشيطهم على أعمالهم الوطنية" ويرجوه لذلك أن لا "ينسأهم طويلاً" وأن يعرفهم دائماً "بكل حركة يقوم بها وكل وسيلة يرى فيها صلاحاً لأمرهم هذا" وأن يزودهم بكل المعلومات المتصلة بالقضية الوطنية، حتى يكونوا - كما كتب أحمد زارم - هنا على علم بكل مايجرى بطرفكم.

ولما كان معروفاً عن الزعيم السعداوى شغفه بالعلم وتشجيعه للمتعلمين، فقد نقل إليه أحمد زارم خبر نجاح زميله: الشيخ محمد عمار الرحيبى والشيخ محمود بن على الزنتانى وفوزهما فى الامتحان "بشهادة

التطويع". وقد أجاب بشير السعداوى على كتاب أحمد زارم بخطاب بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٣٢، تناول فيه مسألة عدم وصول كتبه السابقة إلى رئيس الفرع السيد محمد شكرى، الذى أرسل إليه السعداوى "عدة رسائل ولم يتناول منه جواباً" ولذلك صار لا يدرى السبب فى عدم وصول كتبه إليه، هل "تصادر فى البريد؟ أم أن هناك تراكيباً وإهمالاً فى أمر الكتابة؟ ثم يذكر أنه أرسل باسم محمد شكرى: "كليشية، يعنى ختمًا لجمعيةكم مثل الذى فى عنوان هذا الكتاب ولكنه قد أعيد إلى من تونس وشرح عليه أن المرسل باسمه غير موجود ثم يقول:

ولكننى لا أعتقد إلا أن السلطة لا تريد إدخال فكرة كهذه لتونس ولم أدر ماذا تفيد هذه الموانع إذا كانت أفكارنا مشبعة بفكرة المقاومة للإيطاليين بدرجة لو أن كيميائياً حلل دمنا لوجد كل ذرة منه تنطق بالعداوة والبغضاء للإيطاليين. وقد كتب السعداوى فى الوقت نفسه إلى الشيخين: الرحيمي والزنتانى يهتئهما على نجاحهما فى الامتحان فيقول بعد التحية:

وبعد: فقد بلغنى بكامل المسرة فوزكما بنيل شهادة التطويع فانشرح لهذا النبأ قلبى وامتلاً فخرًا وابتهاجًا بهذا النجاح الذى أعده قوة للأمة الطرابلسية إذ قد هيا الله لهامثلكما من تزود العلم والفضل لخدمتها والأخذ بيدها من كبوتها لأن أمتنا فى حاجة عظيمة إلى رجال تنوروا بنور العلم ليكونوا نبراسًا تستضيء به فى مدلهامات شئونها وهى تعاني من العذاب أمره ومن الظلم أسره، لذلك فإن فوزكما هذا فوزًا للأمة جمعاء، وإننى لأرغب إليكما أن لا تكتفيا بأخذ الشهادة والانصراف عن التبع والاستزادة، لأن أمامكما مدرسة كبرى هى معرفة مغزى الحياة التى تؤهلكما لخدمة المجموع، فالعالم الذى لا يفيد المجتمع يعلمه ولا ينكب على الأخذ بوسائل الإصلاح لأتمته لا يعد إلا أنه من علماء القيافة الذين كثر عددهم وقلت فائدتهم.

وإننا نعلق عليكم الآمال الكبيرة بأن تكونوا من الذين يخدمون أمتهم

ويسعون لرفع شأنها بين الأمم في مترك الحياة. لذلك فإننى والإخوان نرف إليكن أبلغ عبارات التهاني وندعو الله أن ينفع بكم العباد والبلاد ودمتم موفقين، وقد وصلت هذه الرسالة إلى صاحبها الذين بادرا بشكر السعداوى على "نصيحته الأبوية وإرشاداته الذهبية".

ولقد استمر فرع تونس يواصل جهوده بنشاط من أجل قضية الوطن بالرغم من الصلح الذى حدث فى اللجنة التنفيذية الرئيسية، ومحاولة فوزى لانعاس خصوصاً وصاحبه محمد ناجى إشاعة الهزيمة فى صفوف العاملين من بين المهاجرين ليس فى تونس وحدها، بل وفى سائر الأقطار الإسلامية التى بها لبيون مهاجرون.

وفى غضون سنة ١٩٣٣ بقيت الصلة وثيقة بين جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بدمشق وفرعها فى تونس، الذى استمر برئاسة محمد شكرى وثبتت دعائمه. وذهبت مساعى فوزى النعاس وصاحبه - وعلى نحو ما كان متظراً - إدراج الرياح. فقد كتب محمد شكرى إلى السعداوى فى ١٧ رمضان ١٣٥١ و ١٤ يناير ١٩٣٣ .:

.... سبب كتابة هذا المرقوم هو ما وقع لنا من القلق والكدر لعدم مكاتبتكم إيانا من مدة طويلة فتحيرنا وصرنا فى شكوك، هل الجمعية انحلت لا قدر الله". ولذلك هو يطلب منه أن يكتب إليه لتطمئن قلوبهم. ثم يقول:

إننا لا زلنا مثابرين على بث الفكرة ونشر الدعوة لفائدة وطننا العزيز وأمتنا الماجدة بقدر الاستطاعة كما أعلمكم أن العدو لا زال بضطهد أبناء وطننا وهاته المدة سن قانوناً (للتجنيد الإجبارى) من سن ١٦ إلى ٦٠ فصار الناس فى حيرة واضطراب من جراء ذلك" ثم انتقل محمد شكرى إلى الكلام عن مسألة فوزى النعاس، فقال: "كما أعلم جنابكم أن النفر الذى حذرنا منه... المسمى بفوزى... قد بعث لنا مكتوباً وذكر فيه كلاماً لا يليق بمقامكم

السامى وجميتكم العزيزة المنصورة، فضربنا به عرض الحائط وقلنا قبح الله المذنبين الذى لهم مبدأ يثبتون عليه" . . ويعود محمد شكرى فيكتب إلى السعداوى فى ٢٤ رمضان ١٣٥١ و ٢١ يناير ١٩٣٢، أن السيد أحمد زارم قد أطلعته على رسالة السعداوى له، وهى الرسالة المؤرخة فى ١٩ ديسمبر ١٩٣٢ والتي سبق أن أشرنا إليها. ثم يقول: "ونحن هنا مثابرون على الخدمة ونشر الدعوة ويث الفكرة بقدر ما تسمح لنا به الفرص وبحسب الظروف لأن طقسنا فى غالب الأحوال متلبد بالغيوم مع كمال الحذر والتيقظ خوفاً من العيون والأرصاد المنبشة حولنا من حكومة وجوسسه الخ، وبالرغم من ذلك فإننا لا نحيد عن خدمة قضيتنا بحول الله أبداً حتى نبليغ مقصدنا الأسمى طال الزمن أو قصر، ولا ضاع حق وراءه طالبوه" وقد أصدر الفرع احتجاجنا على قانون التجنيد الإجبارى الإيطالى وأرسله للصحف ووعد رئيس الفرع بإرسال الصحف التى سوف "يُدرج فيها هذا الاحتجاج".

وفى ٢٥ رمضان ١٣٥١ و ٢٢ يناير ١٩٣٣ بعث السيد أحمد زارم برسالة مطولة إلى بشير السعداوى، ضمنها بياناً وافيّاً عن نظام الفرع وأعضائه ونشاط هؤلاء الأعضاء، ويتضح من هذا البيان أن حادث الانشقاق الذى حصل فى (اللجنة التنفيذية) السابقة لم يكن له أى أثر على تكوين الفرع أو عمله فى تونس. فالتنظيم الذى يذكره أحمد زارم فى رسالته هذه، والذى شمل - على حد تعبيره - (الرجال العاملين) فحواه أن فرع الجمعية يتألف من "الرئيس الحالى" محمد شكرى، وقد كان هذا رئيساً "وَقْتِيّاً" منذ تأسيس الفرع أصلاً والأعضاء هم السادة: محمد عباس، محمد بن عمار الرحبى، محمود بن على الزنتانى، أحمد اتريفيس، راسم كعبار، عبد القادر بن حمودة الورفلى، الحاج البوعيشى، رمضان الورشفانى، محمد غالب، محمد سليمان الزليطى، عبد القادر الطرابلسى، وأحمد زارم (بن خليفة الرحبى). وأما هيئة الفرع الإدارية فتتألف من الرئيس الوقتى محمد شكرى، والسادة محمد عمار الرحبى، محمد عباس، محمود الزنتانى، أحمد زارم. ولفرع

الجمعية هيئة مكلفة، وهيئة للمالية، لم يتحصل لديها شيء من المال يهتم به، ولم يف ما لديها بحاجيات الجمعية من مصاريف الاحتفالات ونحوها". وقد شكّا أحمد زارم من وجود جماعة من المتخاذلين بين المواطنين فى المهجر، الذين يجتمع بهم أفراد كانوا موضع ربة أحمد زارم ورفاقه الذين لم يكونوا راضين عن سيرتهم، وكان هؤلاء المتخاذلون لا يفتأون يسألون عن سبب "هذا الصياح كله وكثرة الكلام (لأن) الإيطاليين لم تصدر منهم هذه الأمور التى يكتب عنها "إخوانهم الوطنيون. وقد سمى أحمد زارم فى رسالته هذه بعض هؤلاء المتقاعسين عن خدمة قضية الوطن، ثم شرع يقول: "إن الطرابلسيين لاذين بالأيالة التونسية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم منهم لا يعرف ولا يعترف بما نحن دائبون فى نيله والعلة الجهل أو التعت.

وقسم يحبذ فكرتنا باللسان وهو عن العمل كسلان وهذا الغالب الكثير. وقسم مخلصون وفى حب وطنهم متفانون وهم القائمون بما يلزم من الأعمال العائدة بالفائدة والخير على شعبنا إن شاء الله.

وقد أجاب السعداوى على رسالة أحمد زارم الرحبى بما يأتى:

تحية واحترامًا. وبعد فقد تناولت كتابك الكريم المؤرخ ٢٥ رمضان وسررت جداً بما تضمنته من معلومات عن وضعيتكم. إن الإخوان الذين أنتم وإياهم على تضامن وفى مقدمتهم الأخ محمد شكرى أفندى لا شك أن فيهم الكفاية الثامة والحمد لله، إذ لا يخفى أن العمل المثمر لا يكون بكثرة العدد، وهم كغناء السيل. إنما يرجى الخير من الرجال ذوى العزائم الصادقة والقلوب المخلصة ولو كانوا قليلى العدد. إنكم بمعونة الله لن تغلبوا من قلة وستجنون ثمرة جهادكم لأوطانكم وإخوانكم بفضل ثباتكم ويحسن عملكم وبنائكم ولا يهتمكم من تفاعس عن القيام بواجباته أو من كان فى قلبه مرض. لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، فسيروا ببركة الله واعملوا الخير

لببلادكم وجاهدوا فى الله حق جهاده، وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين درجات، وإنما الواجب يقضى علينا بأن نفتتح صدورنا وأبواب العمل لمن يريد أن يشترك فى خدمة دينه ووطنه بإخلاص، وأن ندعو إلى هذا الواجب بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع المثابرة والسعى المستمر لا بد أن يفيق النيام من مزعجات الأحلام وأن يدرك كل فرد ما يحتمه عليه الواجب من خدمة لوطن يراد به الهوان، ودين يقصد به الامتهان. أما الشخص الذى أنتم فى ريب منه وأن أحد إخوانه لا يرى فائدة لعملنا هذا فإنى لا أعرفه ولم ألتق منه يوماً كتابنا فهذا لا يضركم تخلفه، فذروه ومن معه وكل يعمل على شاطئته وريك أعلم بمن هو أهدى سبيلاً. وأمثال هؤلاء لم يخل منهم زمن حتى فى عهد الرسالة فهم من الأخسرين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون. إننى وإخوانى أشكر لك وإخوانك العاملين همتمكم ونشاطكم. زادكم الله قوة وإيماناً وأعز بكم البلاد والعباد. . ودمتم سالمين".

والتقاعس الذى شكاه منه أحمد زارم، وانتشار روح اليأس بين فريق من المهاجرين، قد كان يلმسه بشير السعداوى نفسه من مراسلاته مع عديدين من مواطنيه ليس فى تونس وحدها بل فى مصر وغير هذين القطرين كذلك، الأمر الذى جعله يكثر من الكتابة، ويسهب فى بسط نواحي القضية الوطنية، ويوضح الغرض من الجهاد ضد الطليان، ويدعو دائماً لتوحيد الجهود، فى كل رسائله لإخوانه.

ولقد كان من بين المهاجرين إلى تونس، محمد الفكينى، الذى استقر به المقام فى قابس كتب إليه بشير السعداوى عندما كان مشغولاً بتهيئة الحلقة الثانية من كتاب الفظائع السود الحمر، أن يمدّه بالمعلومات التى لديه عن فظائع الطليان والوقائع التى اشترك هو - أى الفكينى - فيها، ووصل الفكينى كتابه فى أواخر ذى القعدة ١٣٥١، أى فى غضون شهر مارس من سنة

١٩٣٣. فأجاب الفكني في ٣ ذى الحجة، و ٣٠ مارس: في نظري أن هذه الوقائع الفظيعة عدم بيانها أحسن، حيث لا ترجى فائدة من الدول إطلاقاً، لأنه لن تقوم إحداها ضد الأخرى بسبب هذه القضية، ولا فائدة ترجى كذلك من العالم الإسلامي لعجزه وذلك "إلى أن يأتي الوقت المنتظر إن شاء الله قريب".

وعلى ذلك فقد بات ضرورياً أن يبذل بشير السعداوى قصارى جهده ليعيد الثقة إلى نفس هذا المحارب القديم، وأن يجعله ينفذ عن نفسه ثوب الخمول، ويتحرر من روح التخاذل، ينخرط في صفوف العاملين من أجل قضية الوطن. ولرسالة السعداوى هذه للحاج محمد الفكني أهمية خاصة كذلك، حيث إنها تكشف شيئاً عما كان يجول في ذهن صاحبها في هذه الفترة على وجه الخصوص، من ضرورة الاستعداد للقيام "بعمل" مادي، كنتيجة لازمة "لحرب الأقلام" التي خاض غمارها الوطنيون في المهجر طويلاً. ذلك أن السعداوى كان يبحث في هذا التاريخ مشروعاً للقيام بمحاولة "مادية" لاستئناف الجهاد العملي في طرابلس الغرب ضد القوات الإيطالية.

ففي ٨ محرم ١٣٥٢ و ١٢ مايس (مايو) ١٩٣٣ كتب إذاً بشير السعداوى إلى الحاج محمد الفكني ما يأتي:

حضرة المجاهد المحترم سعادة الأخ محمد بك الفكني حفظه الله - تحية واحتراماً. وبعد فإنني قد تناولت كتابكم الكريم، وحمدت الله على دوام صحتكم وصحة أنجالكم إننا يا سيدي الأخ وإن كنا مصرفين بكل ما أوتينا منقوة لخدمة القضية الطرابلسية البرقاوية من الوجهة السياسية وباذلين جهودنا في مكافحة أعدائنا الإيطاليين بأقلامنا وأفكارنا، ولا نترك فرصة إلا ونشهر بأعمالهم الفظيعة ونطالب بحقوقنا المهضومة، إلا أننا مع كل هذه المشاغل لا نفتر عن التفكير في حالة إخواننا المهاجرين خصوصاً الذين هم في القطر التونسي، فكلما استعرضنا حالتهم تكاد تنفطر قلوبنا من الحزن عليهم لما

يلاقون من آلام الغربة وضيق العيش فى تلك البلاد، فيمكننا أن نطمئنكم بأننا لم نأل جهداً فى اتخاذ الوسائل التى تخرجنا من هذا المأزق الحرج لساحة عمل يوصلنا إلى ما تصبو إليه نفوسنا من إعادة وطن منهوب وحق مسلوب، فقد وضعنا نصب أعيننا هذه الغاية وفى سبيلها نسير السير الحثيث، ونطرق الأبواب، ونتخذ الأسباب، ولا يبعد أن تطهر لنا بارقة أمل لهذا العمل. لذلك أرجو أن لا يخامر قلوبكم اليأس، ولا تهنوا ولا تحزنوا فإن لله نظرة عطف على عباده المخلصين الذين جاهدوا وهاجروا وأوذوا فى سبيله. إن ساحة الفرج قريبة إن شاء الله، فتذرعوا بالصبر وثبتوا قلوب إخوانكم فإن لنا فى رسول الله أسوة حسنة يوم هاجر فأنزل الله عليه (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد). إننا لم نخرج من الوطن لنترك العدو يسرح ويمرح فيه بدون أن نفكر فى إعادته، ولكن لكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب، علماً بأننا على اتصال مع إخواننا المهاجرين فى مصر وفى سائر الأقطار وكلنا على هذه النية متفقون متضامنون إلى أن تحين ساعة الفرج، وما هى ببعيدة بمعونة الله، ولن صبر وظفر إن ذلك لمن عزم الأمور. هذا ما يمكن أن تسمح لنا به الظروف من الإشارة، وأملى وطيد فى أنكم تثبتون النفوس والجزعة وتدعونها إلى الصبر بالحكمة والموعظة الحسنة ولى من سعادتكم رجاء، أن تعرفونا عن أسماء إخواننا الذين يعلو عليهم فى الأعمال الجدية وعن الأماكن التى يقيمون فيها بقدر ما يمكنهم أن تعلموا عنهم مع كتمان ما أشرت به إليكم فى هذه العجلة لأننا عليكم نعول فى مهام الأمور ومثلكم من يعتمد عليه فى حفظ خزائن الصدور وإلى الله ترجع الأمور.

وقد كتب السعداوى فى نفس هذا المعنى أيضاً إلى الشيخ محمد عباس بتاريخ ٣٠ محرم ١٣٥٢ و ٢٥ مايو ١٩٣٣، فذكر أنه تلقى كتاباً " وضمنه قصيدة رائعة" وجاءته منه عدة جرائد وطيها كله تتضمن قيامهم "بحفلة الأربعين لفقيدنا الكبير السيد أحمد الشريف السنوسى رحمه الله.

ومن المعروف أن السيد أحمد رحمه الله قد توفى في المدينة المنورة في منتصف ذى القعدة ١٣٥١، والعشرة الأولى من مارس ١٩٣٣، يقول إن قصيدة محمد عباس قد نالت كل إعجاب، ويشئى عليه. ثم يكتب: "إن الوطنية الصادقة والحماسة المتدفقة والشعور الفياض كل هذه الصفات التي صرت ألسها فيك وفي إخوانك البررة جعلتني أعلق عليكم الآمال الكبيرة في الأعمال الخطيرة التي ربما يكون الزمن الذي نترقبه للقيام بها قد اقترب. وإننا وإن كنا نسعى في الدعاية والنشر ونشهر بعدونا لما يرتكبه من فظائع بشعبنا البائس ولكن هدفنا هو أسمى من ذلك والعناية التي نرعى إليها هي ابتهاج طريقة توصلنا إلى إرغام أعدائنا على الاعتراف بحقوقنا وأمانينا القومية. وقد طرقت الأبواب التي نؤمل أن يأتي منها الفرج لأمتنا وعلى الله قصد السبيل.

وكتب بنفس هذا المعنى إلى رئيس الفرع السيد محمد شكرى فى نفس التاريخ. وقد جاء فى هذه الرسالة الأخيرة:

.... واعلموا يا إخوانى جميعاً أن الحرية التى نسعى إليها إنما تنال بالعمل. ولذلك يجدر بنا أن لا نتوانى عن العمل ولا نترك فرصة تمر إلا ونتخذ منها وسيلة للتشهير بمظالم الإيطاليين والمطالبة بحقوقنا. وإننا لا نرى حاجة للإطالة فى هذا المعنى، فإن لكم من الوطنية الصادقة والشعور الفياض والجرأة الكاملة ما يدفعكم إلى عمل مجيد يعود على أمتنا بالنفع والخير العقيم إن شاء الله.

وفى مسودة هذه الرسالة سطور يبدو أن السعداوى عدل عن إبقائها فى كتابه، من المحتمل خوفاً من ضياع رسالته "فى البريد" - ولكن هذه السطور تكشف لنا عن نوع النشاط الذى كان يتهيأ له وقتئذٍ، وهو نشاط لم يسفر عن نتيجة لأسباب سوف نذكرها عند الكلام عن المساعى أو الاتصالات السياسية أو "المفاوضة" مع الحكومة الإيطالية. فقد جاء فى هذه السطور المحذوفة ما نصه: "وثقوا بأننا لا نترك وسيلة تقربنا إلى نيل حقوقنا وسعادة أمتنا إلا

وتذرعنا بها، وأملنا في الله وطيد بأن اليوم الذى نرغم فيه أعداءنا على الاعتراف بحقوقنا ليس يبعد. لذلك نرجوكم أن تثبتوا القلوب، وتقووا العزائم، وتتواصلوا بالصبر فغن فرج الله قريب. وإننى أصارحكم بأننا آخذون فى تهيئة وسائل هامة إذا تكللت بالنجاح ربما نقدم فى شأنها لطرفكم بالذات لأجل اتخاذ حظه حاسمة نسير عليها جميعاً، إذ أن العالم يتمخض عن حوادث جسام نأمل أن تكون لنا فيها فرصة تمكننا من خدمة بلادنا خدمة فعلية. وإننى أأرجو إليكم بإعطاء معلومات سبيرة مقدار ما يوجد بطرفكم من إخواننا القادرين على العمل الفعلى عند ميسر الحاجة وأن تكتبوا هذا عن كل أحد، وإن فى هذا التلميح ما يغنى عن التصريح".

وسواء تكللت "هذه الوسائل" التى تشير إليها رسائل السعداوى بالنجاح، أم حالت أسباب متنوعة دون تحقيق "العمل الجدى"، فالثابت أن بشير السعداوى كان يعول على مواطنيه فى تونس، أكثر من مهاجرى الطرابلسيين والبرقاويين فى الشام أو فى مصر أو فى غيرهما من الأقطار الأخرى، فى المعاونة فى أية حركة ذات طابع عسكرى قد تسنح الفرصة للقيام بها على الحدود الطرابلسية لمناوأة الحكم الفاشيستي فى ليبيا.

ومن الثابت أن فرع جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى فى تونس، قد ظل يعمل بجهد ونشاط طوال السنوات التالية، حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وكان من مظاهر هذا النشاط قبل الحرب الأخيرة، عقب زيارة موسولينى المشهورة لطرابلس فى غضون شهر مارس ١٩٣٨، وجلب ألوف "المعمرين" الطليان لتوطينهم فى الأراضى التى أجلوا عنها أصحابها العرب فى برقة وطرابلس، أن أصدر الفرع ما أسماه: "استغاثة الجالية الطرابلسية البرقاوية بالعالم الإسلامى ورجال الإنسانية"، هى كراية صغيرة من ثمانية عشرة صفحة من القطع العادى (١٠٠ × ٧٠)، تبدأ بطلب النجدة من المسلمين لإنقاذ القطر الطرابلسى البرقاوى من "الحكومة الفاشيستي (التي) تنشئ شعباً

إيطالياً على أنقاض شعب عربى " وتنتهى بتوجيه " كلمة موسولينى وشعبه وحكومته، وكان المسئول عن هذه (الاستغاثة) أحمد زارم.

١٢ - جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى:

كانت الأزمة التى تعرض لها الفرع الذى تأسس فى تونس للجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البقاوية، ثم لجمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى التى خلفت اللجنة، واستطاع الفرع أن يجتازها بسلام ودون أن يترتب عليها أى أثر: اللهم إلا زيادة أعضاء هذا الفرع فى تونس تضامناً واتحاداً فى جهودهم، هى أزمة الانشقاق الذى حدث بين أعضاء اللجنة التنفيذية فى دمشق والذى بدأ من أوائل سنة ١٩٣٢. وقد أشرنا فى مناسبات عدة إلى هذا الانشقاق، كيف حصل وكيف انتهى. ولقد تبين من بعض الرسائل التى نشرناها أن اثنين كانا المسئولين عن هذا الانشقاق، هما فوزى النعاس، ومحمد ناجى التركى، كما تبين أن أحداً غيرهما لم ينشق على (اللجنة التنفيذية).

وفوزى النعاس (رحمه الله) كان من المهاجرين الأذكياء، المتحمسين لوطنهم، والذين اعتمد عليهم بشير السعداوى كثيراً فى نشاط "حرب الأقاليم" والدعاية التى أثارها على الطليان، ولقد عاون فوزى النعاس معاونة جدية فى إعداد (كتاب الفظائع السود الحمر) وكان من سوء الطالع بعد هذه البداية المشرفة، أن يخضع فوزى النعاس لتأثير طرابلسى آخر من المهاجرين بدمشق، هو محمد ناجى التركى، وكان هذا قد أخض على عاتقه أن يوهن من عزائم المشتغلين بقضية الوطن - الذى لم يكن يرضى بأنه أحد أبنائه - واستطاع أن يجد فى صاحبه مطية ذلولاً لمآربه.

ثم لم يلبث أن راح الاثنان يبينان معارضتهما - وهى المعارضة التى انقلبت إلى خروج صريح على الجماعة بعد، قليل ومناوأة سافرة لجهود السعداوى وزملائه - على اعتبارات مردها إلى طبيعة النشاط نفسه الذى قام

به السعداوى فى الميدان السياسى، وهو نشاط - كما شاهدنا - كان عربياً إسلامياً، ولم يكن مقصوداً على القضية الطرابلسية البرقاوية وحدها. ثم إن بعض هذه الاعتبارات لذلك كان مردها إلى ما يبذله وكلاء الطليان وعملاؤهم من وعود، وما يوزعونه من "هبات" فى الأماكن التى يتوقعون أن يفلح مسعاهم فيها، ثم ما يصدر عن زعماء الفاشيست من تدابير يستميلون بها ضعاف العزائم من المهاجرين الذين نفذ صبرهم وضاق بهم العيش وهم متغربون، أو يؤسوا من جدوى الكفاح وآثروا العودة إلى الوطن على ما سمون "تشرداً" لا أمل فى انتهائه. وأهم هذه التدابير كان صدور العفو الذى استفاد منه جماعة بالقطر المصرى رجعوا على أوطانهم. ولقد أوضحنا كيف أن الفاشيست كانوا ييغون من كل هذه التدابير وقف حملة الدعاية العنيفة التى أهاج بها السعداوى وصاحبه شكيب أرسلان العالم الإسلامى والعربى قاطبة على الطليان بسبب فظائعهم التى يرتكبونها فى طرابلس برقة.

ولقد اعتقد السعداوى - وكما ذكرنا مراراً - أن الانغماس فى القضايا العربية العامة وفى القضية السورية خصوصاً أمر لا ندحة عنه لمن يريد الاشتغال بالقضية الطرابلسية البرقاوية، اعتبار أن هذه الأخيرة إنما هى جزء من قضية العروبة الكبرى - قضية تحرر الشعوب الإسلامية والعربية من نير الاستعمار والحكم الأجنبى - وعلى أساس أن المهاجرين الطرابلسيين والبرقاويين من واجبه أن يندمجوا بأحاسيسهم فى الشعوب التى يقطنون بينها، وهى شعوب إسلامية وعربية، حتى تتجاوب معهم هذه الشعوب ذاتها فى مشاعرهم، فتصبح قضيتهم قضية الأقاليم الذين يعيشون بينهم، وتلقى نداءاتهم أذاناً مصغية، وبسهم معهم هؤلاء فى جهادهم، فتقلب قلة المهاجرين الذين لا يقدرّون بجهدهم المحدود على إزعاج المستعمرين، إلى كثرة عظيمة، لا بد أن يدوى صوتها دويّاً يقض مضاجعهم. ولذلك فقد كان اهتمام السعداوى كبيراً بالمؤتمر الإسلامى، كما أنه اشترك اشتراكاً ملحوظاً فى قضية سوريا، فأرضى بهذا النشاط عقيدته الإسلامية والعربية، من ناحية،

ووصل إلى الغاية التي ينشدها من حيث إثارة اهتمام العالم الإسلامى والعربى بالقضية الطرابلسية البرقاوية من ناحية أخرى، وأفلح فى أن يجعل من دمشق مركزاً قوياً للكفاح السياسى، أو بالأحرى لحرب الأقالام وحملة الدعاية العنيفة التى شنّها على الطغيان الفاشيستي فى بلاده من ناحية ثالثة. وقد أمكن ذلك بفضل الصلات الوثيقة التى أوجدها مع الزعماء السوريين خصوصاً من رجال الكتلة الوطنية.

أما محمد ناجى التركى وفوزى النعاس فقد رأيا أن يسلك المشتغلون بالقضية الطرابلسية البرقاوية وطريقاً غير الطريق الذى رسمه بشير السعداوى وسار عليه منذ وفد إلى البلاد الشامية، وسارت عليه اللجنة التنفيذية للجانيات الطرابلسية البرقاوية منذ تأسيسها، وأسفر عن النتائج الباهرة التى شاهدناها فى حركة الاحتجاجات والمظاهرات التى قامت فى مختلف المدن السورية واللبنانية، وتعضيد صحافة هذين البلدين للجنة التنفيذية ورئيسها، وتعاون هذه الصحافة مع بشير السعداوى فى إنجاح حملته الدعائية ضد الاستعمار الإيطالى فى ليبيا.

وكانت حجة ناجى والنعاس حجة غريبة حقاً، فقد زعما أن اشتغال السعداوى بالقضية العربية الإسلامية العامة وبالقضية السورية المحلية، من شأنه أن يعود بالضرر على القضية الطرابلسية البرقاوية، استناداً إلى أن الواجب يقتضى العاملين فى هذه القضية الأخيرة أن يحرصوا على جهودهم من أن تتشتت، فيكون الإخفاق نصيب هذه الجهود الموزعة. ومع أن سائر أعضاء اللجنة التنفيذية، كالدكتور كامل عياد، وعبد الغنى الباجقنى، وعمر فائق شبيب، من الموجودين بدمشق. وعبد السلام أدهم، والسنوسى بن صالح، ومحمد طارق الأفريقى، وخليفة بن شعبان، وغير هؤلاء من الأعضاء فى خارج دمشق (وسوريا) - كانوا يخطئون النعائى ومحمد ناجى فيما ذهبوا إليه، فقد زاد حقدتهما على اللجنة التنفيذية ورئيسها بسبب اشتراك

بشير السعداوى فى المؤتمر الإسلامى الذى ذكرنا أنه انعقد فى القدس فى آخر سنة ١٩٣١ ، وعارضها معارضة شديدة فى استمرار السعداوى على نشر الدعوة لهذا المؤتمر بتأسيس اللجان الفرعية له فى دمشق وببيروت ، ومسعاه إلى جانب هذا كله من أجل (المؤتمر العربى) الذى كان فى العزم عقده لبحث القضايا العربية بذاتها ، والذى كان منتظراً أن يكون قضية طرابلس برقة أول ما يطرح على نشاط البحث عند انعقاد هذا المؤتمر .

وحدث أن اشترك السعداوى فى أحد المؤتمرات التى نظمها الوطنيون فى دمشق للاحتجاج على مشروع معاهدة كان قدمه الفرنسيون ، وعرض على المجلس النيابى السورى ورأى الوطنيون فى هذا المشروع ضياعاً لقضية البلاد . فكان بعد أن وقع المؤتمر على هذا الاحتجاج أن نهض السيد شكرى القوتلى يطلب أن يوقع عميد الجاليات الطرابلسية البرقاوية كذلك ففعل ، وقد كان السعداوى نفسه من بين الذين هياؤوا لانعقاد هذا المؤتمر ونشرت الصحف اسم بشير السعداوى بين الموقعين على الاحتجاج . فاعتبر محمد ناجى التركى هذا العمل ، المسوغ الأخير لانشقاقه النهائى هو وصاحبه على اللجنة التنفيذية ورئيسها . وراح ناجى التركى يناقش السعداوى مناقشة عسيرة : كيف أجاز لنفسه رئيساً للجنة التى تضم إليها أعضاء الجاليات الطرابلسية البرقاوية أن يزوج بهؤلاء جميعاً فى مسألة لا شأن لهم بها (!) .

وعيثاً حاول السعداوى إقناعه وصاحبه بأنه ، يرى متعذراً عليه التقاعس عن أداء واجبه من جانب ناجى والنحاس ، عندما زعم هذان أن السوريين إنما يريدون استغلال القضية الطرابلسية البرقاوية لخدمة مآربهم السياسية ، وألحا على السعداوى أن يفصل نشاطه عن نشاط الوطنيون السوريين . أما إذا رفضت اللجنة التنفيذية ذلك ، فينبغى عليها وقف عملها ، حيث صار لا يحق لها أن تتكلم باسم الجاليات الطرابلسية البرقاوية بعد أن تبين فى نظرهما - وعلى نحو ما زعما - أنها ما عادت تمثل هذه الجاليات فى المهجر . وراح

فوزى النعاس - وفعل ذلك أيضاً صاحبه - يرسل الكتب إلى المهاجرين الطرابلسيين والبرقاويين في مختلف الأقطار: في شرق الأردن، الحجاز، مصر، تونس وغيرها، يحمل على اللجنة التنفيذية وعلى رئيسها، ويدعوهم إلى الانفضاض عن اللجنة. وحمل فوزى النعاس فوق ذلك كله على الأمير شكيب أرسلان، واتخذ من عدم طبع الترجمة الفرنسية التي وضعت لكتاب الفظائع السود الحمر، بسبب نفاد المال الذي جمع لهذه الغاية - والذي استولى (السائح العراقي) على أكثره في الظروف التي عرفناها - ذريعة للطعن على الأمير شكيب. غرضه من ذلك تنفير الأمير شكيب، وبذر بذور التفرقة بينه وبين اللجنة التنفيذية وبقية أعضائها. وأحدث هذا الانشقاق بعض الاضطرابات والقلق بين المهاجرين في مختلف الأقطار، ليس لأنهم صدقوا ما كان يكبه لهم فوزى النعاس وزمليه، ولكن إشفاقاً من أن تكون (اللجنة) التي عقدوا على استمرار جهادها آمالهم لوطنية قد لحق بها الأذى من جراء هذا الانشقاق أو أنها قد انفضت أو انتهت أعمالها فبانت مساعي فوزى النعاس وزميله بالفشل، وقررت فصلهما. ثم إنها قررت أن تستبدل باسمها هذا اسماً جديداً هو (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي)، حتى إذا أصر المنشقان على المضي في ضلالهما، لا يقدران على التمسك بأن الجمعية قد اغتصبت لنفسها حق الكلام عن الجاليات الطرابلسية البرقاوية، بينما هي لا تمثل هذه الجاليات بأكملها.

وفي الرسائل المتبادلة بين بشير السعداوي ومواطنيه الذين بادروا من مختلف البقاع بالكتابة إليه يستفسرون عما حدث، كثير من التفاصيل التي تبين الأدوار التي سار فيها هذا الانشقاق، وما ترتب عليه من نتائج كانت على العكس مما يتوقعه فوزى النعاس وصاحبه، من أهم الحوافظ التي دفعت أعضاء (الجمعية) الجديدة وفروعها في سوريا ومختلف الأقطار التي وجد بها مهاجرون لبييون، إلى مضاعفة الهمة وبذل أقصى الجهد في خدمة القضية الوطنية، والالتفاف حول الزعيم الذي دلت هذه الأزمة المفتعلة - إن صح لنا

أن نسميها أزمة - على أن زعامته المستمدة من كفاحه الطويل وجهاده المتصل، إنما هي زعامة ثابتة الدعائم بفضل هذا الكفاح نفسه، لا يمكن أن تنال منها تدابير وكلاء المستعمرين الطليان، أو مؤامرات أذئابهم.

وأولى الرسائل المتصلة بهذا الموضوع، رسالة من بشير السعداوى إلى الأمير شكيب أرسلان بتاريخ ٢ أبريل ١٩٣٢ يبلغه نبأ الانشقاق وأسبابه، وتأسيس جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى، فيكتب:

تحية واحتراماً، وبعد فقبل أن أبحث فى أى موضوع أود أن أعرض لعطوفتكم شيئاً فيما يتعلق بقضيتنا الطرابلسية، لا يخفى على سيدى الأمير أن الأمة الإسلامية فى جميع الأقطار ابتليت بأمراض نفسية هى التى جعلتها ترسف فى قيود الذل والهوان، ولا تخلو أمة من وجود أناس يكيّدون لها الكيد الذى لا يكيّده العدو الألد. كان قد اشترك معنا شخصان فى خدمة قضيتنا ولم أدر أن فى قلوبهما مرضاً إلى أعلنت إيطاليا فى الآونة الأخيرة ذلك العفو الموهوم فزادها هذا مرضاً وظهراً لنا بمظهر المخالف وأخذنا فى عرقلة مساعيها يبرران موقفهما تجاه إيطاليا.

نعم إن هذين الشخصين لم يكونا من ذوى الشخصيات المعروفة فى بلادنا وليسا من ذوى العصبية، ولم يقفا موقفاً فى جهادنا الحربى ولا السياسى ويكاد لا يعرفهما فى الوطن إلا أشخاص يعدون على الأصابع. ولكن قبلت اشتراكهما معى فى العمل بقصد أن غرس فكرة المقاومة فى كل دماغ، غير ناظر إلى مراكز الأشخاص الاجتماعية قيمتهم الأدبية فى وسطنا. ولما رأيت من هذين (الشخصين) ما رأيت أقصيتهما عن العمل واتفقت مع بقية إخوانى على أن غير اسم اللجنة بجمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى وقد ثبتت أركانها وطرتها من الأدرا... الحق يا سيدى الأمير أن خدمة الأوطان أمر غير هين وأن الذى يتصدى لها بلاقى فى سبيله من العثرات والمشاكل والمضض والألم الشديد ما لا يحتمله كل قلب، فإن الخائض فى هذا المضمار

بينما هو يعد العدة لعدوه الذى يفتك بشعبه الفتك الميع، وإذا بفريق من أبناء جلدته يرشقونه بالسهم من خلفه ومن بين يديه. ولكننى أحمد الله أن البارى عز وجل قد من على بإيمان لا يتزعزع وقلب لا يهاب الكوارث، ولو أحدثك بما لا لاقيت من الأحوال بعد الحرب العالمية فى ذلك الوطن التعيس الحظ لأخذك العجب. إننا إذا لم نصبر على مثل هذه الأحوال ونقابلها بعزم شديد لم نستطع أن نقف هذه المواقف. كنت مرة فى طرابلس فى محل أعالج قضية لها علاقة كبرى بحياة البلاد، وكان معى شيخ من أهل العلم والفضل، وكنت ألقى فى معالجة تلك القضية من المشاكل ما لا قبل للقلب بتحملها، فقلت لهذا الشيخ: يا أستاذ إن هذه الأحوال تذهب بالوطنية، فأجابنى لا وربك تذهب بالإيمان. وقصارى القول أن هذا الحادث هو الذى عوقى عن إجابتك طول هذه المدة، وإننا قد تولكنا على الله فى تجديد نشاطنا والمضى فى سبيلنا إلى أن يأذن الله بالفتح. . . .

وفى رسالة من السنوسى بن صالح فى السلط بشرق الأردن إلى بشير السعداوى فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ (٢٢ أبريل سنة ١٩٣٢) يكتب الأول أنه تلقى كتاباً بتاريخ ٦ ذى الحجة أى ١٤ أبريل "من عطوفة الأمير شكيب يقول فيه إنك أخبرته بأن محمد ناجى التركى ومعه واحد آخر (والمقصود هنا فوزى النعاس) انفصلا عن لجنتم بداعى أن سيدتهما إيطاليا أعلنت العفو العام وانتهت من مهمتها بتدمير تلك البلاد والقضاء على أهلها، ففضلك لا يجوز التماذى على مقاومتها لأنها انتقلت من طور الحرب إلى طور التطبيق فكتب إلى المشار إليه بأن من رأى المداومة على العمل والجهاد. وأما خروج ذلك التركى ونحوه من اللجنة فإلى جهنم وبئس المصير. . .

والسنوسى بن صالح هذا أصله من مسلاتة "قرأ عليه السعداوى النحو وشئاً من الفقه فى الخمس، وكان يجيد الشعر وتعين بعد هجرته قاضياً فى السلط بشرق الأردن. وأعطاه أميرها (المرحوم الملك عبد الله بن الحسين) فرماها ليبقى فى هذا المنصب مدة حياته وتوفى بعد هذه الحوادث.

وكان من الذين كتب إليهم فوزى النعاس، السيد محمد فهمي الحشاني بالمدينة المنورة. فبادر هذا بالكتابة إلى بشير السعداوى فى ١٠ مايو ١٩٣٢، يستفسر عن صحة ما بلغه ويطلب تفاصيل عما وقع، وينقل للسعداوى صورة قسم من جوابه على الكتاب الذى لم يشأ الحشاني أن يكشف عن شخصيته، والذى رجحنا أن يكون فوزى النعاس، وقد جاء فى كتابه هذا مخاطباً فوزى النعاس.

أحى فيك الغيرة، ولكنى كرجل يجب على أن أثبت لأنه ليس من السهل سحب الثقة من زعيم خدم البلاد كل هذه المدة لمجرد قول رجل آخر، مع احترام شخصك الكريم، فمع عدم المؤاخذه أطلبكم بالحجة التى تدعمون بها ما تقولون. وسأثبت من غيركم من غير أن يجرى لكم ذكر، ولا تخالوا ذلك تعظيماً أعمى لبشير. فبشير عظيم عندنا ما دام مخلصاً محسناً لقضيتنا....

وكذلك أرسل عبد السلام أدهم من المفرق بشرق الأردن فى ١٦ مايو يسأل عن سبب حل اللجنة التنفيذية وكيف جرى؟، ويقول: "ما مبلغ الأسباب - التى طلب فوزى (النعاس) من أجلها حل اللجنة - من الصحة؟ وهل المسألة أو بالأصح القضية شخصية حتى يطلب الشخص منكم حلها وتركها حتى يوافقوا وتنزلوا عند مشيئته. ثم شكلتم جمعية وما أخبرتمونا لا بحل الأولى ولا بتشكيل الثانية، إهمالكم لنا أمر لا نرضاه ودمتم بخير".

وعبد السلام أدهم أصله من زليطن، وخرج من السعداوى عند خروجه من طرابلس فى هجرته الثانية. ومما يذكر أنه جاء خصوصاً من المفرق إلى طرابلس فى غضون عام ١٩٤٨ ليحضر لجنة التحقيق الدولية المعروفة. أما كتابه هذا فكان موجهاً إلى عمر فائق شنيب. وقد ساء عبد السلام أن تجرى الأمور بالسرعة التى لم تجعل ممكناً تزويد الأعضاء بأنبائها فى التو والساعة.

وفى ٢٧ حزيران (يونيه ١٩٣٢) كتب شكيب أرسلان من جنيف إلى

بشير السعداوى " من أيام جاءنى مكتوب من النعاس رفيقكم السابق بعد أن شكا من الحال وذكر انحلال اللجنة الطرابلسية الرقابية الخ .

سألنى عن الكتاب وتأخر تعريبه وطبعه . (والمقصود هنا الترجمة الفرنسية لكتاب الفظائع السود الحمر) . وقد فكرت فى أن هذا الرجل لم يسبق له معنى مكاتبة ولا أعرف شيئاً عنه ، وربما يكون تفاهم مع الطليان لأنكم فى الماضى كتبتم لى أن هذا والآخر ناجى (محمد ناجى التركى) لا يريان الاستمرار على عداوة الطليان . ولنفرض أن هذا الرجل لا يزال وطنياً وأنه لا يتفاهم مع الطليان ، فلم أشأ أن أجابه على مكتوبه بدون أن أستشيركم لأنى خشيت أن يأخذ جوابى ويطلع عليه قنصل إيطاليا فيصر حجة لهم بأنى أنا المحرك للمسألة الطرابلسية وليس الطرابلسيون . ولقد حصلت لى بسبب حملتى على إيطاليا أضرار وأخطاء أكثر مما تتصورون . ولكنى لا أذكر ذلك خشية أن يقال أنى أمن على المسلمين بخدمتى لهم ، والحال أنى كمسلم وكعربى لا أجد منه بما قمت به من الواجب وإنما لا أريد أن تقع لى مكاتيب بيد الحكومة الإيطالية تعلم منها إنى أنا الذى أنشر الكتب الطرابلسية وما أشبه ذلك . وإن كان النعاس ليس يفعل هذا - وهذا ما أرجوه - فلا يضرنى الاحتياط وأخذ رأيكم فأنا فى انتظار جوابكم

وقد أجاب بشير السعداوى الأمير شكيب على رسالته هذه التى يذكر فيها أنه جاءه كتاب من فوزى النعاس يسأله فيه عن ترجمة كتاب الفظائع ، وأن الأمير شكيب تردد فى الإجابة عليه ، فكتب السعداوى :

.. نعم ما فعلتم لأن الكاتب ورفيقه لهما رأى فى القضية يخالف رأى جميع الإخوان وقد شعرنا بهذا التحول على أثر الشائعات التى ترددها الوريقات التى تصدر فى طرابلس باسم جارتد بأن إيطاليا أخذت تعدل عن خطتها وتستبدل بشدتها ليناً وعطفاً على الطرابلسيين وتخشى ان يبلغ انخداعهما بهذه الدعاية درجة يصبحان معها آلة لخصومنا ، وحينذاك يجد

(النعاس) فى كتابكم إليه خير واسطة للتقرب من إيطاليا خصوصاً (وأنه) أرعن عصبى المزاج لا تقف عصييته عند حد، إننى لمخجول جداً أن تشغلوا جزءاً من وقتكم الثمين بهذه الأمور التافهة. ففوزى وناجى ليسا من الرجال الذين يقام لهم وزن، فاضرب بذلك الكتاب عرض الحائط، ولا يجوز أن تحببه عنه، وإنكم غير ملومين لأن ما كل من يكتب محتّم عليكم إجابته .

ثم يستمر فيقول: إنه سيتدبر الأمر لطبع الكتاب مع صديق ووكيل الأمير شكيب فى سوريا عارف بك النكدى "حتى لا يترك مجالا للقليل والقال، لأنه يعتقد أن سؤال فوزى النعاس للأمير شكيب عن الكتاب إما مبعثه سوء النية والرغبة فى استدراج الأمير.

واعتقد بعض الإخوان، ومن بينهم محمد طاهر الأفريقى، أن بوسعهم التدخل لرأب الصدع، وحاول فعلا محمد الطاهرى أن يسوى ما اعتقد أنه خلاف فى رأى يسر من السهل التغلب عليه فى سبيل توحيد الصفوف. ولكن اتصالاته بالنعاس وناجى لم تسفر عن نتيجة، لأن الغرض الذى صار هذان يسعىان إليه كان أبعد مما يطرأ على ذهن الأفريقى، وهو هدم رابطة الطرابلسيين والبقاوين هدماً حتى يبطل كل جهاد، واستغرقت محاولة محمد طاهر هذه شهرى يونيه ويوليه من سنة ١٩٣٢.

وفى ٢٨ يوليه عاد عبد السلام أدهم المغربى يكتب من المفرق، وفى هذه المرة إلى بشير السعداوى، فيقول:

... لقد ساءنا جداً ما حل ببلجتنا وقد تلقينا نبأ حلها كمصيبة عظمية نزلت بالجالية وبالوطن النكود. ولكن هون علينا قيامكم بتشكيل الجمعية الحالية، ونؤمل أنكم اتخذتمونا أى عددتمونا كمؤسسين لا كمنتسبين، وما دام فرد واحد يخدم الوطن العزيز فإننا من نصرائه ومن مؤيديه فكيف وأنتم السابقون الأول... وأرجوكم أن تسعوا جهدكم. فى رأب الصدع، وجمع الشمل، وتستعملوا سعة الصدر التى تعهدتها فيكم لترجعوا الماء إلى مجراه،

وفوزى وطنى غيور ولكنه أحمق، ولكن يجب أن تبنى الشخصية فى سبيل
المنفعة العامة" . . .

ولكن الهوة التى فصلت السعداوى وإخوانه عن النعاس وزميله كانت
سحيقة بدرجة يصعب اجتيازها، لا سيما وأن النعاس ظل يبعث بالكتب إلى
بقية المهاجرين الطرابلسيين يطعن نفيها طعنًا شديدًا على السعداوى وصحبه.
يدل على ذلك ما جاء فى رسالة بعث بها السيد محمد عباس المصراتى من
تونس فى ٤ شعبان ١٣٥١ (٣ ديسمبر ١٩٣٢) - كنا أثبتنا قسمًا منها - يقول
فيها ما نصه:

. . . . قد ورد على الجماعة كتاب منذ أربعة أشهر من إنسان كان معكم
وكنتم حذرتمونا منه وهو فوزى النعاس الذى كان أمير سر اللجنة - على ما
يقال - وهو يخبرهم بأن لجننتكم قد انحلت وأن جميع أعضائها قد استقالوا
ويم يبق إلا بشير السعداوى ورجل آخر معه. وقال: إن الذى حملها على
قيام جمعية على أنقاض اللجنة المنحلة هو حب الظهور وذياعة الصيت وهما
خاليان من حب الوطن والدفاع عنه. وقال: إن سبب استقالة الأعضاء
المذكورين هو عدم قيام اللجنة بالواجب وتراخيها عما شرعت لأجله. فكان
نصيب هذا الكتاب عندنا التسفيه والتكذيب والسكوت عن الجواب عنه عملاً
بقول بعضهم . . . إننا لا نستعظم ما صدر من هذا . . . لأن إخوته كثيرون
عندنا وإن عددهم ليزداد به. أحبط الله أعمالهم وخيب آمالهم وأحصدتهم
زرع فعالهم"

أجاب بشير السعداوى على هذه الكتب التى جاءت. وقد أثبتنا بعض
رسائله أثناء الكلام عن كتاب الفطائع، وعن فرع اللجنة التنفيذية (ثم جمعية
الدفاع) فى تونس، وعن العفو الإيطالى فى مراسلاته مع الجالية الطرابلسية
فى القطر المصرى. وسنحاول الآن إنهاء مسألة هذا الانشقاق بإثبات ثلاثة
كتب أخبره تناولها. أحدها إلى عبد السلام أدهم والثانى إلى محمد طارق،

والثالث والأخير إلى أحمد الشتيوى أو السويحلى . ففى رسالته إلى عبد السلام أدهم بتاريخ ٥ أكتوبر ١٩٣٢ يتكلم بشير السعداوى عن (الجمعية) المؤسسة حديثاً فيقول:

... إننى أيها الأخ أستسمحك فى تأخير الجواب الناشئ عن تغييى وبعض الإخوان عن دمشق، والآن قد حضرنا جميعاً واستأنفنا العمل بجد ونشاط، وقد وضعنا قانوناً يسير أعمالنا وانتهينا من درساته، وسنسخ منه عدة نسخ لنرسلها إليك وإلى بقية الإخوان لتطلعوا عليه ونبينوا لنا ملحوظاتكم فيه، لنقره ونعمل بمقتضاه. طلبت منى يا حضرة الأخ أن أنبئك عن سبب الخلاف الذى حصل، فالخلاف قد نشأ عن أسباب واهية لا تذكر، وهذه من علل الشعوب التى لم تتكون ولم يخلق فيها رجال تعمل بأعصاب هادئة وروية. ولذلك لا أرى حاجة لسرد تفصيل تلك المسألة، وإنما نتركها لشريفكم. وإنكم قد تذكروننا أن نعدكم فى عملنا من المؤسسين، فأظن أنه لا حاجة إلى هذه الإشارة لأن العواطف النبيلة والشعور الوطنى الذى تحسون به قد جعلكم فى مقدمة العاملين لخدمة بلادهم. أكثر الله من أمثالكم. قد اعتبرنا مبدأ تأسيس الجمعية من حيث الاشتراكات شهر نيسان" أى أبريل ١٩٣٢.

وفى رسالته إلى محمد طاهر الأفريقى فى ١٧ ديسمبر. يوضح بشير السعداوى أن الخلاف الذى أثاره النعاس وزميله لا أثر له على قضية الوطن، وكان محمد طارق، وهو متأثر ولا نشك بما كتبه له النعاس قد كتب إلى السعداوى يقول:

إنه "وجملة الإخوان" متفقون على مناصرتهم، وزملائه فى الأعمال التى يقومون بها فى متابعة القضية بشرط "أن يتم (الاتفاق) مع الزعماء". فتساءل السعداوى عن "القصد من هذا الشرط، وأى الزعماء يعنى، ثم أنشأ يقول:

فإن كنت تعنى بعض رجالات البلاد الذين جاهدوا بأموالهم وبأنفسهم

ثم هاجروا كالسيد أحمد الشريف والسيد إدريس ورؤساء ترهونة ومصراتة والغرب وغيرهم، فإن كنت تعنى هؤلاء فهم معنا ونحن على اتفاق معهم بدليل ما بأيدينا من الرسائل التى تضمن الاتحاد والاشترار معنا قلباً وقالباً.

وإن كنت تقصد غيره فأرجوك أن تعرفنى من هم هؤلاء الزعماء الذين علقت معاضدتك على استمالتهم والاتفاق معهم، فأنا لا أتأخر عن مخاطبة أى إنسان فضلاً عن الزعماء. إن القضية - يا حضرة الأخ - ليست قضية زعماء ولا مترعمين، وإنما هى قضية شعب معذب، شعب يراد به الفناء، شعب يساق إلى مجازر الهلاك، شعب قد أهين فى دينه وفى قرآنه وفى لغته وفى كل مقومات حياته، شعب إذا تغاصبنا عن الدفاع عنه لحظة سيصبح أثراً بعد عين، شعب على شفا جرف من الاضمحلال والزوال. القضية - يا سيدى العزيز - هى أكبر من الزعماء، وأعظم من أن عرقلها الأهواء. إن سماحة العمل فسيحة للزعيم وللصعلوك. ومن يرغب فى نفع شعبه وفى خدمته فى أخرج الظروف لا يتوقف سعيه على زعيم ولا زعيم.

وقصارى القول - يا أخى العزيز - إننى مصمم أنا وإخوتى على موالاة العمل بدون فتور ولا ملل، وسنظل نعمل ونكافح ونناضل بمعونة الله وحده إلى آخر نفس من حياتنا. هذا ما عاهدنا الله عليه

وأما الرسالة الأخيرة - ولم نستطع تحديد تاريخها تحديداً دقيقاً - فقد بعث بها بشير السعداوى إلى أحمد السويحلى، يتحدث فيها عن "مسألة العفو الذى أعلنته إيطاليا".

وكنا أثبتنا هذا القسم منها. وفى القسم الباقى يوضح صاحبها أسباب انشقاق فوزى النعاس فيكتب: "أخى. يؤلمنى أن أنبئكم عن حادث يستوجب الأسف العظيم، وهو أننى عندما باشرت حركتنا القليلة أشركت معى شخصاً يدعى فوزى النعاس، كان يتظاهر بأنه يرغب أن يخدم البلاد، وأخيراً اسمتالة الإيطاليون بقليل من المال فتيين لنا فساداً وأنه يود أن يعرقل مساعيها ويفسد

علينا عملنا، لذلك أقصيته عن العمل، فاستشاط غيظًا وأخذ يطعن القضية في صميمها بإفساد بعض بسطاء العقول، بالاشتراك مع شخص لا حاجة لذكر اسمه الآن. ولكنني أطمئنكم أنه لا قيمة له وأن عمله لا يؤثر في القضية، فلأجل تجديد النشاط وموالة العلمل بجد ونشاط وثبات، غيرنا اسم اللجنة (بجمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى) وقد تألفت هذه الجمعية من رجال عاملين مخلصين، وقد أعلننا تأليف هذه الجمعية في الصحف، وقضينا على فساد المفسدين، ودسائس الخائنين والحمد لله. فانظر يا أخى، إننا بينما نحن نجاهد في سبيل قضيتنا وإذا بأناس من أبناء جلدتنا يطعنون الوطن في صميمه بخيانتكم ولكن الله لا يهدى كيد الخائنين.

تلك إذا كانت قصة الانشقاق الذى حصل على اللجنة التنفيذية للجانليات الطرابلسية البرقاوية والذى أدى إلى تأسيس جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى.

وما يجدر ذكره، أن بشير السعداوى بالرغم من الانشقاق الذى حصل، وانشغاله بتلافى أثره، بقى على ما هو معروف عنه دائماً، من حيث الاستمرار فى العمل والمثابرة عليه بكل همة ونشاط. فهو مهتم بأن تزيد عنفاً على عنفها حملة الدعاية ضد الطغيان الفاشيستي فى بلاده، وهو ينشر فى الصحف، ويذيع فى كل مكان مندداً بفظائع الفاشيست، وهو لا يزال يستحث الأمير يارجنك على ترجمة كتاب الفظائع إلى الأوردية، وصاحب جريدة إقدام بطهران على نقله إلى الفارسية، وهو لا يزال يسعى لتأسيس اللجان للمؤتمر الإسلامى وللدعوة للمؤتمر العربى، وهو يدخل فى مباحثات أو مفاوضات مع ممثلى الحكومة الإيطالية أو وسطائها من أجل الوصول إلى اتفاق مع الطليان ينهى فظائعهم فى بلاده ويمهد لتأسيس حكومة (أو إمارة) وطنية إسلامية فى طرابلس برقة (أو ليبيا الموحدة) وفق مطالب الوطنيين التى جاءت فى الميثاق الوطنى للشعب الطرابلسي البرقاوى.

ولقد أشرنا فى مناسبات عدة إلى هذه المسائل . وتحوى الكتب المتبادلة بين السعداوى وبين مراسليه فى غضون ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ خصوصاً ، أى فى الفترة التى تلت تأسيس جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى مباشرة من التفصيلات ما يدل على أن النشاط الذى كانت تقوم به اللجنة التنفيذية بقى على حالة إن لم يشتد ويقوى ، وتنوعت ميادينه ، وقد اخترنا منها الرسائل الآتية بسبب ما تضمنه من معلومات تلقى أضواء تنير جوانب بعض المسائل التى عينا بتناولها فى هذه الدراسة .

من ذلك كتاب من بشير السعداوى إلى الأمير شكيب أرسلان فى ٢٠ مايو ١٩٣٢ ينقل إليه خبر التصريح الذى أدلى به وزير المستعمرات الإيطالى (ديونو) عن تنصير الليبيين ، وهو التصريح الذى كنا أثبتنا جواب السعداوى عليه فى صورة المقال الذى نشرته جريدة ألف باء الدمشقية بعنوان : " وزير سياسى أم قسيس مبشر " .

وقد بعث السعداوى بصورة هذا المقال إلى الأمير شكيب - وقد تكلم السعداوى فى هذه الرسالة عن المؤتمر العربى ، وعن الموقف السياسى فى سوريا ولبنان وفيما يلى نصها :

تحية واحتراماً وبعد . كنت قدمت لعطوفتكم قبل هذا كتاباً وإن كنت لم أحظ حتى الآن بجواب إلا أننى علمت من قاضى السلط الشيخ محمد السنوسى بن صالح أن كتابى وصل ليدكم وأنكم بآتم الصحة والحمد لله . كتاب الفظائع الإيطالية ساعون فى ترجمة وستتمه بفضل معونة الله ونقدمه لعطوفكم .

قرأت فى جريدة الصراط المستقيم التى تصدر فى بغداد عدد ٩٢ فى ٢٠ ذى الحجة ١٣٥٠ (الموافق ٢٧ أبريل ١٩٣٢) كلمة لوزير المستعمرات الإيطالى الجنرال (ديوتو) قالها فى مجلس النواب رداً عل بعض النواب الين ذكروا الفظائع التى ارتكبت فى طرابلس برقة إنه يتحمل كل المسئولية فى الأساليب

التي اتبعت للوصول إلى هذه الغاية فكل ما قيل عن تهجير السكان لأماكنهم وعن أعمال القسوة والحرمان يتحمل تبعيته.

ثم قال في أثناء كلامه عن التضيق على سكان برقة وحصرهم في المعسكرات: إننا عمدنا إلى تعليم أنبائهم الذين سيكونون من جنودنا في المستقبل وذلك بعد رجوعهم من روما وتعميدهم وتعليمهم المبادئ الكاثوليكية والفاشية فوزير المستعمرات بتصريحه هذا فداء بكل ما اقترفته حكومته من فظائع مشينة وهو لا يخشى مسؤولية التاريخ ولا عذاب الضمير.

إنني كتبت في هذا الموضوع مقالا سنشره الصحف في هذين اليومين وسنقدم لكم منها عدداً لتطلعوا عليه. والحقيقة أن هذه التصريحات قد كفتنا مئونة إقامة الأدلة على فظائعهم التي ترتعد منها الفرائص. قالتهم الله من قوم لا يعرفون للإنسانية معنى ولا يقدرّون للمروءة قدراً. لمدة انقطعت عنا أخبار ما يجري في القطر وآمل أن تصلني أخبار في هذه المدة القريبة من مدة جاني كتب من اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي يستطلعون رأيي في بعض المسائل كما أنهم كتبوا لعطوفتكم بذلك، وقد بينت لهم ملحوظاتي ومن جملتها وجوب التفكير في إيجاد مكتب في جنيف وإصدار جريدة باللغة الإفرنسية تعرب عن مقاصدنا وتفهم الرأي العام الأوروبي أن الواجب يتطلب منا أشياء. والذين يحسون بثقل هذا الواجب قليلون جداً ولكن جزى الله الشدائد كل خير فإن حراب الأعداء في قلوبنا سيعث فينا روحاً للعمل مهما كنا غافلين.

وقد اقترحت على اللجنة أن يعقدها هذا المؤتمر في القدس لأنه مركز متوسط وعسى الله أن يوفق الرجال العاملين لخير أمتهم. السيد ضياء الدين الطباطبائي من مدة جاء إلى القدس وياشر في مزاولة عمله، وإننا على اتصال معه بالمخابرة، وقریباً إن شاء الله نبدأ في تأليف اللجان الفرعية في البلاد السورية وأملنا وطيد في النجاح. لا بد أنه بلغكم ما أصاب الجمهورية اللبنانية من الشلل، وإننا لا ندرى ماذا يراد بالبلاد السورية، فالمطلعون يعتقدون أن التثام المجلس (النيابي السوري) سيتم في أوائل الشهر المقبل.

وقد أجاب الأمير شكيب على هذا الكتاب برسالة مطولة بعث بها من جنيف، وتناول فيها شتى المسائل التي أثارها السعداوى فى كتابه السابق الذكر، جاء فيها:

رسالة الفظائع الإيطالية أرسلتها إلى الحمami (وهو المرحوم على الحمami) - مغربي أديب بارع بالإفرنسية مقيم ببرلين - فترجمها وقرئاً يرسلها إلينا ولم نشارطه على عمله لأنه صديقنا وسنبعث إليه بما تيسر، وعندما ترد الرسالة سنطبعها هنا فأنتم لا حاجة بكم إلى إكمال ترجمتها فى سورية.

ثم انتقل الأمير شكيب إلى الكلام عن التصريح الذى أدلى به الجنرال ديونو، والذى أجاب عليه السعداوى بالمقال الذى ذكره والذى أثبتناه فى مكان آخر، وهو المقال الذى عنوانه: "أوزير سياسى أم قسيس مبشر". وقلنا إن جريدة ألف باء الدمشقية قد نشرته وترتب على نشره أن أخذت السلطات الفرنسية صاحب هذه الجريدة، يوسف العيسى. فجاء فى رسالة الأمير شكيب هذه ما نصه:

اكتبوا إلى جريدة الصراط المستقيم بصورة خصوصية استعلاماً عن المصدر الذى أخذ منه تصريحات الجنرال ديونو ناظر المستعمرات الإيطالية بشأن تعمد أطفال العرب وتربيتهم فى الديانة الكاثوليكية والمبادئ الفاشيستية، القصة هى صحيحة نحن نعرفها ولا نشك فيها ولكن يجب أن تكون فى أيدينا مستندات ووثائق حتى إذا عملنا حملة فى هذا الموضوع لا يلودون بالإنكار. أصبتم فى نشر مقالة فى هذا الموضوع. كرروا فيها النشر. وكتبوا إلى سامى السراج ليحرك جريدة الجهاد (والمقصود هنا جريدة الجهاد فى مصر) فى هذه المسألة. اكتبوا إلى الجامعة العربية - (وهى صحيفة بالقدس) - وإلى غيرها. أمس اقطعنا من الطان قطعة عن تصريحات حكومة إيطاليا بشأن استعمار الجبل الأخضر وبرقة على أن تحول ولاية طليانية. وسننشر ذلك فى

مجلتنا لانايسيون آراب. طيه من الطان قطعة كنت قطعتها وحفظتها لك، راجعتها الآن ففيها كلام دويوتو غير مذكور فيها الإقرار بكونهم أخذوا الأولاد لتنصيرهم، وهذا الكلام بدون شك محذوف من الطان فينبغي أن نعلم من أين أخذه الصراط المستقيم حتى تتبعه إلى أصله. أرجو أن تخاطب ناجي وفوزي وأمثالهم ممن يشيرون بمسألة إيطاليا هل اقتنعوا بأخذ الأولاد جبراً من حجور آبائهم وتنصيرهم؟ وأرسلوا خطاباً مفتوحاً إلى أولئك المشايخ الأسافل الذين شهدوا لإيطاليا بعدم تعرضها للدين الإسلامي في طرابلس:

(ونحن نود أن نقول إن هؤلاء المشايخ معرووفون، ومنهم من يتولى المناصب الدينية وغيرها الآن في حكومة بلاده).

ماذا يقولون في كلام دويونو في تنصير الأولاد؟ وفي هذه القطعة التي أنا مرسلها لك إقرار بأن العرب الثمانين ألفاً الذين في العقيلة من سرت لم يردوا إلى أوطانهم. وهذا لأن إيطاليا تريد أن تسلم الجبل الأخضر الخصب إلى المستعمرين الطليان. كل هذا اكتبوه واستكتبوه. نحن في العدد الأخير من مجلتنا تكلمنا في الموضوع أيضاً وسنكتب بالعربي. ولكن يا أخى قد عجزنا من كثرة الشغل وقلة الناصر:

عالم إسلامي يصيح من كل جهة مستغيثاً والآلام في كل عضو من أعضاء هذا الجسم، وكانت الدولة العثمانية ملجأ للإسلام ففضى عليها المسلمون فأصبحوا بلا رأس ولا ظهر وعادوا لا يعلمون إلى أين يشكون. تضحك إن قلت لك إن كثيرين من أطراف العالم يراجعوننا ظانين أننا هنا أشبه بمركز إسلامي له صندوق وعنده مستخدمون وعمال، ومنهم من يطلب منا إرسال مفتشين يفصحون ومنهم من يطلب إعانة وغير ذلك من الأمور، وهذا لأنه شاع أننا نحن هنا ندافع عن الإسلام بأقلامنا ومساعدتنا فذهب فكرهم إلى أنه وراءنا تشكيلات وجمعيات وملوك وحكومات! ولم يعلموا أن روح التضحية في الإسلام لا يزال عديمًا. وفي هذه المسألة المطولة تحدث

الأمير شكيب كذلك عن مسألة تأسيس الفروع للمؤتمر العربي، كما تكلم عن الموقف السياسى الداخلى فى فرنسا، ونشاط الوفد السورى الذى كان الأمير شكيب وإحسان الجابرى من أعضائه البارزين، أو قل إنهما عضواه الدائمان، ويعمل فى جنيف مقر عصبة الأمم من أيام الثورة السورية (١٩٢٦).

ويتناول الأمير شكيب بالإسهاب القضية السورية وموقف الدول خصوصاً تركيا وإيطاليا وانجلترا من الانتداب الفرنسى على سوريا. وقد خلص إلى أن "الحالة الحاضرة حرجة ومركز سوريا بخطر وإن ترك السوريون أنفسهم فجميع مصائبهم الماضية لا توازى مصائبهم المستقبلية، وذلك بسبب ما هو ملحوظ من طموح إيطاليا لأخذ سورية وما اتفقت مع تركيا إلا لأسباب أهمها سورية. والسوريون نائمون غافلون مشغولون بأمور لا تعد شيئاً بالنسبة إلى هذه المسألة، وقد لاجت الآن فرصة وزارة حرة (فى فرنسا) قد يكون فيها نفوذ للاشتراكيين فيمكن العمل مع هذه الوزارة أكثر من كل وزارة أخرى.

وقد اختتم الأمير شكيب رسالته المطولة هذه بقوله: "تكلّموا مع المفكرين وذوى الحمية ونبهوهم إلى الأخطار المحيطة بنا والتي ستظهر بأول فرصة والتي لا علاج لها إلا استقلال سورية التام وفك انتدابها أو اتحادها مع العراق وعقدها معاهدة مع فرنسا. كل هذا يلزمه تعب لكن كل هذا يمكن إذا نهضنا. وجاوبونا عما يفعلون بهذا الشأن وغيره. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أخوكم شكيب أرسلان".

ولقد تمكن بشير السعداوى وزملاءه أعضاء (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى) من الرد على هؤلاء المشايخ "الذى شهدوا لإيطاليا بعدم تعرضها للدين الإسلامى فى طرابلس" والذين جاء ذكرهم فى رسالة الأمير شكيب أرسلان. ونشرت الصحف فى دمشق وغيرها فى الشهور التالية مقالات تدحض بها شهادة هؤلاء "المشايخ". ومن بين الصحف التى تناولت هذا الموضوع كانت (الجامعة الإسلامية) وهى جريدة يومية سياسية لصاحبها

سليمان الناجي الفاروقى، وتصدر فى يافا، نشرت بتاريخ ٧ فبراير ١٩٣٣ تحت عنوان (إيطاليا فى طرابلس تنتهك الحرمات، ويتغنى جلادها بمدنيّتهم وفضلهم على العرب) مقالاً لمراسل هذه الجريدة الخاص فى تونس، بعث به إليها من تونس بتاريخ ٢٠ يناير، بعنوان (رسالة طرابلس). وقد جاء فى هذا المقال ما يأتى:

أقيم فى ١١ الجارى احتفال كبير فى العاصمة لابتداء السنة القضائية الجديدة. وفى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم غص بهو محكمة الجنايات بالوافدين عليه من حكام البلاد وكبار الموظفين وفى مقدمتهم الوالى والقائد العام وقناصل الدول والقاضى والمفتى. وبعد أن تكامل عدد الوافدين طلب رئيس محكمة الاستئناف من المدعى العام أن يخطب الحاضرين، فقام هذا واستهل خطابه باطراء الحكم الفاشيستي وبما أسبغته الفاشيستي على إيطاليا من نعم وخيرات، وعلى أهل طرابلس الغرب من فضل عميم! برعاية والى طرابلس بادليو، وكيف أن الإسلام بسط جناحيه على القطر الطرابلسى بفضل التدابير الحكيمة التى اتخذها بادليو المذكور الذى قطع دابر اللصوص (كذا).

ثم جاء الخطيب على أعمال المحاكم وأدبى أسفه على استمرار أعمال النهب والقتل بصورة تدعو إلى اتخاذ التدابير الشديدة وأقصى العقوبات القانونية. وأسهب حضرته فى النديد بأعمال الإجرام التى ستزول أمام المدنية الإيطالية التى غمرت البلاد بآياتها الباهرة، فنمت الثقافة العلمية وكاد الناس يندمون على سابق رعوتهم فى مقاومة التيار الفاشيستي).

ثم اختتمت الحفلة بالنشيد الملكى وبالنداء إلى ملك إيطاليا وموسولينى!

هذه خلاصة مقتضية لخطبة المدعى العمومى. وقد ورد خلالها من التعريض بالمجاهدين الطرابلسيين ما يتورع القلم عن إثباته هنا. فقد ساهم ممثل الحق والعدالة لصوصاً وقطاع طرق - وهو يعلم ومن ورائه بادليو كيف

كان شرف هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق يتعهد ضابطهم الأسرى بمتهى
الرفق واللين، على حين تلبس المدينة الإيطالية ثوبها الأسود فى ساحات
القتال فيمعن فى النساء والشيوخ والأطفال قتلاً وتعذيباً.

ظن حضرة المدعى العام أن الأهلىن ينسون مخازى الحكم الإيطالى،
وكيف عامل أولياء الأمور فى طرابلس المعذبة شهيد الوطن خالد الذكر عمر
المختار - ذلك العربى الكريم الذى نازلهم أعواماً طويلة فلم يكن إلا ملاكاً
يحارب شياطين المدينة والحضارة. وظن حضرته أن هذه السكينة المؤقتة دليل
الرقى والسلام، ومادرى أن البلاد لابد تنزع إلى الثورة لتعصف بالحكم
الفاشىستى الجائر. ألم يقطع الطليان هنا ملايين الهتكرات فى أراضى الجبل
الأخضر وسهول برقة ويقدموها مستعمرات للعائلات الإيطالية الجاهلة ليكون
الاستعمار أثماً من ناحيتين: ناحية سوء الحكم، وناحية إبادة السكان فى سبيل
استيطان متشردة إيطاليا! ألم يعالم رسل المدينة الفاشيسته كرام الوطنيين
بمتهى الشدة والصرامة لا لشيء إلا لأنهم يحبون الحياة الحرة والاستقلال! أم
ترى غابت عن ذهن حضرته جرائم اغتصاب العرض فى أشرف فتيات
العائلات الطرابلسية - تلك الجرائم التى تعد أسود صفحة فى تاريخ
الاستعمار الإيطالى.

أجل يا دعاة المدينة والحضارة!! أقلعوا عن أغنية السلام وثثقيف
الشعوب التى رماها القدر الفاسى بكم، فقد شوهتم معالم فضيلتها وأذقتموها
من ويلات حضارتكم ألوان الشقاء والعذاب.

أما نحن فما نزال نذكر شهيدنا الخالد وإخوانه البواسل إلى يوم نتنصر
له منكم. وما ذلك على الله بعزیز اهـ.

وكعربى كرس حياته لخدمة الشعوب العربية جميعاً ويرى فى تقدم
أحدها وتحرره من قيود الاستعمار، أو نجاحه فى محاولة التحرر والخلاص من
هذه القيود، قوة للعالم الإسلامى والعربى عمومًا؛ قابل بشير السعداوى

بالبشر والترحاب العظيم نبأ قبول العراق فى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة فى (٣ أكتوبر ١٩٣٢) لا سيما وأن السعداوى كعديدين من المشتغلين بالقضايا العربية والقضية السورية خصوصاً فى تلك الحقبة، كان يرى فى قيام نوع من الاتحاد بين سوريا والعراق سبيلاً للخلاص من الانتداب الفرنسى الجاثم على صدور (العرب) فى هذه المنطقة، وذلك إذا عجزت سوريا عن الفوز باستقلالها والتحرر من هذا الانتداب الأجنبي نهائياً.

ولقد لاحظنا كيف أن السعداوىبقى مشتغلاً بالقضية السورية إلى جانب اشتغاله بقضية الوطن الطرابلسى البرقاوى منذ وفوده إلى الشام فى هجرته الثانية هذه، وكان اشتغاله بقضايا العروبة مصدر متاعب له من جانب فريق من إخوانه الذين انتهى الأمر بهم إلى الانشقاق على اللجنة التنفيذية فى الظروف التى شرحناها. ولذلك فقد كتب كتاب تهئة إلى "رجالة الملك فيصل" الأول، فى ١١ جمادى الثانى ١٣٥١ (١١ أكتوبر ١٩٣٢). وسأل صديقاً قديماً له هو الشريف محمد على بن بديوى الذى كان أميراً من قبل الحسين بن على على ينبع البحر عندما استولى الإنجليز عليها (١٩١٦)، أن يرفع كتاب التهئة هذا إلى ملك العراق.

أما كتابه إلى جلالة الملك فيصل فقد جاء فيه "وبعد فإننى لذو حظ عظيم بانتهازى هذه الفرصة الثمينة التى أتقدم فيها لجلالتكم برفع أسمى عبارات التهانى بمناسبة تبوأ العراق مقعداً فى "جمعية الأمم"، ولا غرو فى ذلك لأن تلك الجهود العظيمة التى تبذلونها لإعلاء منزلة مملكتكم ورفع شأنها لابد أن تقترن بهذه النتائج التى توصلها إلى مصاف الأمم ذات الشوكة والمنعة.

لذلك فالشعب الطرابلسى البرقاوى يتهج بهذا الفوز الذى أحرزه الشعب العراقى بفضل مساعى جلالتكم ويعدّه ظفراً للأمة العربية التواقّة لإعادة سالف عهدها الزاهر وماضى مجدها الغابر. ومن لها - فى سبيل

نهضتها نصيراً - غير عماد بيتها الرفيع وتاج فيصلها المنيع . وإن أول الناس سروراً بهذا الفوز الباهر هو الشعب الطرابلسي البرقاوى الذى رفع راية العروبة إحدى وعشرين سنة وضحى فى سبيلها بأعظم تضحية تضحيها الأمم عادة ولذلك فإننى باسمه أهنيئ جلالتكم بهذا النجاح الذى أضفتم به صحيفة لامعة فى تاريخ مجدكم الحافل بجلال الأفعال . زادكم الله شوكة ومهابة وأيدكم بنصر من عنده وهو خير الناصرين " .

وقد شرح السعداوى الدوافع التى حفزته إلى إرسال هذه التهنئة إلى عاهل العراق فى كتابه إلى الشريف بديوى . الذى كان منتظراً أن " يعرج على دمشق فى عودته إلى بغداد " ولكنه سافر رأساً إليها ، فكتب إليه السعداوى يرجو أن يرفع رسالته إلى الملك فيصل ، فكتب فى نفس التاريخ (١١ أكتوبر ١٩٣٢) : " فى حضرة الأخ إني مرسل إليك بكتاب يتضمن التهنئة لصاحب الجلالة بمناسبة دخول العراق إلى عصبة الأمم ، أرجو أن تتكرم برفعه لسدته العليا ، وإن هذا الفوز الذى ناله العراق بفضل مساعى مليكه المطاع سيجعل لبقية الشعوب العربية مكانة ، ويمهد لهم السبل فى سيرهم نحو الاستقلال الذى يستهدفه كل قطر من الأقطار العربية ، ويكفى جلالة الملك فخراً أنه أول سابق اجتاز بشعبه العقاب وذلل له الصعوبات .

وفى غضون شهر ديسمبر ١٩٣٢ ، انتهز السعداوى فرصة وجود الخديوى السابق عباس حلمى الثانى فى فلسطين لبعض شأنه ، وبعث إليه بالرسالة الآتية بتاريخ ٢٩ شعبان ١٣٥١ (٢٧ ديسمبر ١٩٣٢) :

لقد أسعدنى الحظ بالتشرف بسموكم ١٩٢٠ بالآيتانة - (وقد مرت بنا تفاصيل هذا التعرف) - يوم انتدبت من قبل السيد أحمد الشريف السنوسى للبحث مع سموكم فى شئون تتعلق بسلامة الأمة العربية . ولما كنت اليوم منصرفاً إلى تتبع القضية الطرابلسية البرقاوية التى هى جزء من القضية العربية العامة ، فإنى أنتهز فرصة تشريف سموكم إلى فلسطين لأرفع لمقامكم السامى

بعض النشرات والرسائل التى تصدرها الجمعية الطرابلسية البرقاوية التى
أتشرف برئاستها للدفاع عن قضية وطننا الشهيد الذى أوشك سكانه أن
يصبحوا أثراً بعد عين من جراء سياسة الإيطاليين العاشمة، وتفضلوا
بقبول.....

أما وجوه النشاط الأخرى خلال عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣ فسوف نقصر
كلامنا على مسائل معينة منها. أولها: الاحتفال بذكرى مرور عام على وفاة
الشهيد عمر المختار، فأقيم هذا الاحتفال بدمشق يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣٢.
وأصدرت جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى نشرة بعنوان: "ذكرى عمر
المختار شهيد الأمة العربية، حملت فيها حملة عنيفة صارمة على طغيان
الفاشيست الذين ظنوا "أن إعدامهم عمر المختار يمكنهم من اغتصاب تلك
الديار". وطالبت الشعب الطرابلسى البرقاوى أن يردد "ذكرى هذا اليوم الذى
أصيب فيه بأكبر فاجعة وأعظم مصاب (إذ) إن فى هذه الذكرى لعبرة تثير فى
النفوس روح الإقدام وتحرك ما كنت فى الصدور من حسن الانتقام ممن
اغتصب بلاده وسلبه كل حق من حقوقه وقضى على نخبة رجاله بالقتل
والتشريد والظلم الذى ما عليه من مزيد". وطالب رجال العرب "أباً الضيم
والخيف" أن يتذكروا شهيدهم، وأن "يحيوا ذكرى هذا اليوم - (الذى أعدم
فيه) - لكى يعلم الفاشيست أنهم لن يصبروا على الأذى يوجهه إليهم غواة
الاستعمار" ثم انتهى المنشور بتوجيه الوعيد والتهديد إلى الفاشيست فى
العبارات الآتية: "وأنتم أيها الفاشيست يا أرباب القمصان السود بيننا وبينكم
يوم نحاسبكم فيه الحساب الشديد، ذلك اليوم الذى ترونه بعيداً ونراه قريباً
يوم نسألكم عن دم عمر المختار وشهدائنا الأبرار إلى للباطل جولة وللحق
صولة، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون".

ومن المسائل الخطيرة التى واجهت بشير السعداوى، ما ظهر من تخاذل
فى صفوف المهاجرين فى القطر المصرى، أى استمرار حركة "التهافت" على

السلطات الإيطالية، ولكن بدلا من أن يكون الغرض منها مجرد الرغبة في العودة إلى الوطن، على نحو ما حدث عندما أراد فريق من المهاجرين في الشعور السابقة انتهاز فرصة صدور العفو العام - أو "العفو البارد" كما سماه أحمد السويحلي - لتحقيق هذه الرغبة، صار "التهافت" الآن من أجل الحصول على "الحماية" الإيطالية "للتمتع" بهذه الحماية في داخل القطر المصري، لأن قليلين أولئك الذين صاروا الآن يودون الرجوع إلى ليبيا، بعد أن صدر قانون التجنيد الإجباري، فوقفت حركة العودة السابقة أو كادت.

ويتحدث عن هذه المسألة أحمد السويحلي (الشتوي) في كتاب له إلى بشير السعداوي من الإسكندرية في ١٠ فبراير ١٩٣٣. وقد بدأ كتابه هذا بقوله: إنه تسلم خطاب السعداوي له المؤرخ في ٢٧ ديسمبر ١٩٣٢، كما تسلم معه "عدة جرائد" واطلع على رد السعداوي على "قوانين إيطاليا (الخاصة) بالتجنيد، وما أبدوه من سوء نواياهم، وبغضهم للطرابلسيين، ثم استطرد يقول: "وأما قولكم يا ليت إخواننا الطرابلسيين المهاجرين يجتهدوا معنا ويقوموا بالواجب من جهة الوطن وما تقتضيه إيطاليا في بلادنا من أنواع الاستبداد فهذا من الواجب. ولكن إخواننا الغالب عليهم لا يعرف هذا الإحساس. وتجد كثيرهم آيس (يائس) وكثيرهم لا يعرف شيء من هذا وكثيرهم متكاسل لأنه الجهل مصيبة وكل هذا من الجهل. وقسم منهم أمخلى (تارك) للصالح جانب. وكثيرهم صار يتهافت على أخذ الحماية ومن ضمنها أولا الصغير المريض أخذ حماية وأولاد عبد الصمد يدور (يبحث) على حماية وأولاد محمد بإشاعة أخذ حماية والطاهر بن المريض أخذ حماية وغيرهم من مصراتة أخذ حماية ومن ترهونة كثيرين وعلى كل حال في هذه المدة كفوا عن الرجوع إلى طرابلس لأنهم يخافون من أخذ العسكرية. كل حركة فيها بركة. وهذا كله وتهافتهم على الحماية ليس لضرورة لحقتهم من الحكومة المصرية ولا صار عليهم ظلم، إنما ضعف إيمان ومراعاة للمستقبل. إنما إخواننا المسلمون صاروا دائما يخربون بيوتهم بأيديهم. وقد عاد أحمد

السويحلى إلى هذا الموضوع مرة أخرى فى رسالته بتاريخ ٦ ذى الحجة ١٣٥١، الموافق أول أبريل ١٩٣٣، ذكر فيها تفاصيل بعض حوادث الفظائع التى ارتكبتها الطليان والأهم من ذلك أنه نقل إلى بشير السعداوى خبراً نشرته جريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ مارس من السنة نفسها، ذكرت فيه حسب تلخيص أحمد السويحلى: "خطبة وزير المستعمرات... ومن ضمن الخطبة مسألة الهاريين إلى بلد أخرى وقد قدر عددهم ٨٠ ألفاً والواقع لا يزيد على ١٥ ألف ولا شىء يمنع من العودة على شرط تقديم خضوعهم ومنها ولكن يمنعهم من العودة إلى مثل عمل الزعماء السابقين. ومنها تقديم طلب السيد صفى الدين إلى آخره وما قبل به من الحفاوة والكلام اللين هو يمكنه يتعدى الحدود ويقدم الطاعة يعنى الخضوع فى (بردى سليمان) أو صحراء برقة...

والنبا الذى نشرته الأهرام فى العدد المذكور، يدل على أن السيد صفى الدين السنوسى يتتهز فرصة زائرة ملك إيطاليا وملكها لمصر - وسوف نتحدث عن هذه الزيارة فيما بعد - وسعى لدى المفوضية الإيطالية بالقاهرة للتمكن من مقابلة الملك ولكن يقترح أن يتولى زعامة حركة رجوع ألوف من اللاجئين إلى بلادهم، وقد نشرت الأهرام هذا النبا على الوجه التالى، تحت عنوان: (موقف إيطاليا فى طرابلس وبرقة - تصريحات وزير المستعمرات فى مجلس الشيوخ - روما فى ٢٨ مارس): "كانت التصريحات التى أبدأها وزير المستعمرات فى مجلس الشيوخ الإيطالى باعثة على اهتمام الصحف التى تكلمت عن الفظائع المزعومة والمزعوزة إلى الإيطاليين لم يكونوا يضمرون حقداً وعداء نحو خصمهم، وكان من ضروب الافتراء أن يقال إن الأسرى كانوا ينقلون فى الطيارات ويقذفون منها إلى الأرض والأمر الذى اهتمت به بعض المقامات كثيراً هو مسألة الهاريين أو اللاجئين إلى بلد آخر وقد قدر عددهم بثمانين ألفاً والواقع أنهم لا يزيدون على خمسة وعشرين ألفاً ولا شىء يمنعهم من العودة إلى مواطنهم، ففى وسع الجميع أن يعودوا إليها على شرط تقديم خضوعهم للحكومة وهم يعلمون ذلك ولكن يمنعهم من العودة عمل

الزعماء السابقين الذين يريدون مفاوضة الحكومة فى أساليب العودة كما تقتضى مصالحهم، . وتحت عنوان: شررط تقديم الخضوع للسلطة الإيطالية، استمر الناشر يقول: "ثم قال الوزير إنه فى مناسبة زيارة صاحبى الجلالة ملك إيطاليا وملكتها لمصر سعى الزعيم صفى الدين لدى المفوضية الإيطالية بالقاهرة للتمكن من مقابلة جلالة ملك إيطاليا ولكى يقترح أن يتولى رعامه حركة رجوع ألوف اللاجئين إلى بلادهم على شرط أن تعاد إليه أملاكه المصادرة. فكان الرد الذى قوبل به هو أنه يمكنه أن يذهب إلى الحدود ويقدم خضوعه، وقال الوزير إنه قد قامت أدلة على أن فريقاً من اللاجئين إلى مصر لا يضمرون عداً لإيطاليا. فإن اللاجئين من أهل برقة نصبوا فى إحدى واحات الفيوم فى أثناء زيارة ملك إيطاليا قوس نصر وكتبوا بحروف بارزة "لتحى إيطاليا وليحى الملك". . وتحت عنوان زيارة ملك إيطاليا لبرقة جاء: "وقال الوزير إن جلالة ملك إيطاليا سيزور برقة، فأحدث هذا الخير تأثيراً حسناً جداً فى المقامات السياسية، وهى تتوقع أن تكون هذه الزيارة فى أواخر شهر أبريل وأن تستغرق أسبوعاً وسيكون جلالته مصحوباً بالجنرال ديونو.

وكان لنبا هذا المسعى من جانب السيد صفى الدين أسوأ الأثر فى نفس بشير السعداوى أسوأ الأثر فى نفس بشير السعداوى الذى استهول أن يكون من أعضاء البيت السنوسى المعقود عليه أمل الليبيين، من طرابلس وبرقاوين، فى رعامه البلاد وإرشادها، من يزل به القدم ليجعل من نفسه مثلاً سيئاً من المتوقع أن يحتذيه ضعاف النفوس والمتخاذلون من طراز الذين أشار إليهم السويحلى فى رسالته، بأنهم يتهافتون على طلب "الحماية" بعد أن كانوا يتهافتون على العودة إلى بلادهم فى ظل العفر الموهوم، قبل ذلك. وعندئذ لم يسع بشير السعداوى والألم يحز شديداً فى نفسه إلا أن يكتب إلى عميد البيت السنوسى العتيد فى مصر، السيد محمد إدريس السنوسى، حتى ينفى السيد صفى الدين هذا الخبر. وما يجب ذكره أن السعداوى وقف على هذا الخبر من البرقيات الإيطالية التى أذاعت تصريح وزير المستعمرات، ونشرتها

الصحف الدمشقية، ولذلك فقد كتب قبل أن تصله رسالة السيد أحمد السويلحي التي أثبتناها، إلى السيد محمد إدريس في ٧ ذى الحجة ١٣٥١ الموافق ٢ أبريل ١٩٢٣، الرسالة الآتية:

صاحب السمو أميرنا المعظم

تحية واحتراماً وبعد فقد تلقيت من سموكم كتابين وحمدت الله على دوام صحتكم.

سيدى الأمير نشرت الصحف السيارة خبراً لا أكتممكم أنه قد ساءنا جداً - إذا صح وقوعه - وهو أن السيد صفى الدين تقدم للسفارة الإيطالية بمصر بمناسبة زيارة ملك إيطاليا لها طالباً العفو وإعادة أملاكه إليه، وتجاه هذا يتعهد للإيطاليين بإعادة آلاف من المهاجرين إلى بلادهم. وقد أذاعت هذا الخبر البرقيات الإيطالية عن تصريحات وزير المستعمرات فى مجلس نوابهم. فبينما نحن نشيد بذكر العائلة السنوسية الكريمة والعالم الإسلامى فى حزن عميق لوفاة السيد أحمد (الشريف) ونحن والمسلمون نعلق كبير الآمال على بقية الأسرة إذ نبأ تفاجأنا به أن أحد رجالها يتقدم إلى مغتصبى البلاد الذين سلبوهم عز آبائهم ونفوذهم فى أوطانهم وقضوا عليهم بالتشتت فى بلاد الناس ملتمساً العفو والسماح له بأن يعود للبلاد تحت نفوذهم بلا قيد ولا شرط فيرد تلك الصورة التى لا تلتئم مع الكرامة والإباء. إننا لا نكاد نصدق هذا الخبر ونربأ بالسيد صفى الدين الذى جاهد فى سبيل الوطن جهاداً صادقاً أن يقع فى مثل هذه الورطة فنحن لم نخرج من بلادنا ونتحمل فى سبيلها كل الآلام لكي نعود إليها بلا قيد ولا شرط، والحكم الإيطالى الذى حاربناه والذى أبت نفوسنا أن تخضع له هو لم يتغير بل يزداد قسوة وعنفاً فى كل يوم - إننا فيما أخذنا على أنفسنا من جهاد فى سبيل البلاد وفاعاً عن قضيتها لا نألو جهداً فى النضال ضد الإيطاليين والتشهير بهم وبمن تسول له نفسه أن يشل قضية البلاد ويحمل المجاهدين الذين فى وجودهم مشتتين أكبر برهان

على فظاعة الحكم الإيطالى على العودة خانعين قبل أن تتأمن الحقوق القومية فى ظل راية سموكم . فيا سيدى الأمير إذا لم يكن ما نشر حقًا ولا نخاله إلا إفكًا، نرجو أن تكلفوا سيادة السيد صفى الدين بالكذيب وترسلوا لنا صورة لتتولى نشرها فى الصحف السورية، كما أننا نرجو أن يكون ذلك بأسرع ما يمكن حتى لا يبقى لهذا النبأ السئ من أثر فى النفوس، وترونى فى انتظار الجواب بفارغ الصبر وتفضلوا...

والمسألة الأخرى التى أثارت الاهتمام، كانت وفاة السيد أحمد الشريف السنوسى، الذى ذكرنا أنه توفى بالمدينة المنورة، وكانت وفاته يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة ١٣٥١، الموافق ١٠ مارس ١٩٣٣، فقد أقيمت صلاة الغائب على روحه، وقيلت فيه المرائى، وكتب بشير السعداوى فى ٢١ ذى القعدة ١٧ مارس إلى الأمير شكيب أرسلان ينعى إليه السيد أحمد الشريف، كما أرسل كتاب تعزية إلى السيد صفى الدين، ويطلب منه فيه معلومات وافية عن مولد السيد أحمد ونشأته الأولى، حتى يمكن كتابة سيرته. أما خطاب السعداوى إلى الأمير شكيب بتاريخ ٢١ ذى القعدة، الموافق ١٧ مارس ١٩٣٣، فيصف الحفل الذى أقيم لرثاء السيد أحمد، كتب السعداوى إلى "الأمير الجليل: ننعى إليكم - والأسف ملء فؤادنا - وفاة زعيمنا الكبير السيد أحمد الشريف السنوسى، وإنه لزرع عظيم لا للشعب الطرابلسى البرقاوى وحده بل للأمة الإسلامية جمعاء، وإنه لمصاب أثار فى قلوبنا كثيرًا من الأحزان تغمده الله بحرمته وأسكنه فسيح جناته. وما كاد يصلنا هذا النبأ المحزن حتى أعلننا فى الصحف لزوم صلاة الغائب على روح الفقيه فى عموم المساجد. وقد اكتظ الجامع الأموى بالمصلين يوم الجمعة الماضى وأدبنا صلاة الغائب ورثت الرجل بكلمة موجزة وتكلم أيضًا شاب من شبان دمشق، وبكاه الناس بكاء شديدًا. أحسن الله عزاءنا فيه وألهمنا الصبر. وإننا قد عزمنا - إن شاء الله - على إقامة حفلة تأبين له فى الأربعين من وفاته. إنا لله وإنا إليه راجعون.

أما آخر مظاهر نشاط جمعية الدفاع فى هذه المدة التى نبغى تسجيلها، فقد كان اهتمام السعداوى بأن تستمر على شدتها الحملة العنيفة التى أثّرت ضد الحكم الفاشيستي والاستعمار الإيطالى فى بلاده، فهو يطلب من محمود ناجى الأرنؤطى، مبعوث طرابلس فى البرلمان التركى القديم، أن يبعث إليه على وجه السرعة نسخة من كتاب كان وضعه هذا فى تاريخ طرابلس، فيقول السعداوى مخاطباً إياه فى رسالة بتاريخ ١٣ مارس ١٩٣٣: "إننا يا حضرة الأخ فى أثناء تتبع هذه القضية (والمقصود هنا القضية الطرابلسية البرقاوية) قد ألبأنا الحاجة إلى مراجعة الكتاب الذى وضعته فيتاريخ طرابلس الغرب لاستقصاء بحث يهمنى الوقوف عليه فى هذه الآونة". وهو يكتب للسيد عبد العزيز الثعالبى فى ١٥ محرم ١٣٥٢ الموافق ١٠ مايو ١٩٣٣، يذكر له طرفاً من نشاطه، ويكشف عن آماله التى عقدها على نجاح المؤتمر العربى الذى بقى السعداوى مثابراً الدعوة له فيقول بعد التحية والسلام، والاعتذار عن تأخر الجواب لتغيبه عن دمشق "منذ شهر" ما نصه: "إننى يا مولاي لم أزل أحث السير فى سبيل خدمة القضية الطرابلسية فهى شغلى الشاغل فى هذه الحياة لعقيدتى بأنى إن توانيت أو قصرت فى واجبها سيحاسبنى الله والتاريخ أشد الحساب خصوصاً بعد أن تبيننا مقاصد الإيطاليين التى ترمى إلى إبادة شعبنا واستخلافه بمن ضاقت بهم أراضيتهم من أبناء ملتهم. لذلك فمهما بذلنا من جهو تجاه هذه المقاصد نعد مقصرين لأن هذا الطراز من الاستعمار الذى تمشى عليه إيطاليا فى بلادنا لم تبتل به أمة أن بدأ الغربيون يشنون الغارة على البلاد الإسلامية. نعم إن الأعمال التى قمنا بها حتى الآن هى غير كافية لحمل الإيطاليين على تغيير مناهج سياستهم هذه، ولكن ماذا نصنع والمسلمون رغم ما يشعرون به من الخطر الداهم فى كل قطر من أقطارهم لم يوافقوا إلى عمل يقوى الرابطة الإسلامية فى نفوسهم لكى يتمكنوا من تفكيك الأيدى الأجنبية الشادة بخوانيتهم. وهذه لا تحتاج إلا إلى قليل من التضحية والتخفيف من نزعات الشهوة التى أذلتهم بين سائر الأمم. إننى متفائل خيراً

بالحركة المباركة التى أخذت تهز مشاعر إخواننا المغاربة فى شمال أفريقية . إن تلك الأمة التى توالى عليها النكبات والتى كان يظن أنها فقدت ميزات بسبب الاستعمار المرهق بدأت تتحفز للنهوض من كبوتها وتشعر بضرورة إعادة حررتها لها . فبلا شك إذا أعقب هذا الشعور تفكير صحيح وعمل منظم لا تلبث أن تتبوأ المقعد الذى يليق بها فى هذا المعترك الحيوى . ولا يخفى على سيادتكم أن المشتغلين بمعالجة القضية العربية يعدون العدة اليوم لعقد مؤتمر عرى سيكون البحث فيه بحكم الضرورة شاملا لجميع شئون البلاد العربية . أفلا يجدر بنا نحن سكان شمال أفريقية أن نتبادل الرأى نفكر فى الخطة المثلى التى يجب أن نتقدم بها لهذا المؤتمر ، لأن أوضاعنا السياسية والجغرافية تختلف اختلافاً بينا عن سائر البلاد العربية . ولقد كان هذا الموضوع يختلج فى نفسى وأود أن أستطلع رأى سيادتكم فيه من مدة لأجل وضع منهاج خاص يوحد وجهتنا فى بلوغ الغاية التى يجب أن نكون فى سيرنا نحوها متحدى الشعور والعقيدة وليس لنا من الفوارق ما يحول دون تحقيق هذه الأمنية ، وفى الختام تفضلوا . . .

وقد كنا ذكرنا شيئاً عن الأسلوب الذى يتبعه بشير السعداوى فى حملة دعايته الواسعة ضد الطليان فى بلاده ، وهو أن يبدأ يجمع المعلومات عن فظائعهم التى يريد التنديد بها ، حتى إذا تم له ما يبغي ، امتنع هو عن النشر بنفسه ، خوفاً من أن يبادر الوكلاء الإيطاليون إلى تكذيب ما يذاع عن هذه الفظائع ، أستناداً على أن المسئول عن إذاعتها بشير السعداوى وهو طرابلسى موتور ، يريد الانتقام لوطنه ، وقد تطنى هذه الرغبة على واجب تحرى الدقة فيما يأتيه من معلومات قد تكون خاطئة . ولكن الأمير شكيب أرسلان معروف عنه فى العالم الإسلامى والعربى أنه مشغول بقضايا الإسلام والعروبة ، وأنه غير موتور من الطليان ، ولم يقتصب هؤلاء وطنه ، وأن المعلومات الصحيحة تأتيه من مختلف المصادر ، ولا يشك إنسان فى أن ما يقوله هو الصدق دائماً . ولذلك فإذا بدأ شكيب أرسلان بإذاعة الأخبار التى

يمده بها السعداوى، ثم راح السعداوى بعد أن يتم النشر على يد الأمير شكيب يعيد هو الكرة بإذاعة ما كتبه وقاله الأمير شكيب، على اعتبار أن ذلك مصدره الأمير شكيب نفسه، كان الناس أكثر اقتناعاً بما يذاع عن فظائع الطليان أنها ارتكبت فعلاً في حق الشعب الطرابلسي البرقاوى. ولم يكن الدافع لسلوك هذا الطريق إلا بشاعة هذه الفظائع ذاتها التى فاقت كل ما يمكن أن يتخيله الذهن منها: كبقر بطون الحوامل واغتصاب السيدات، وقتل الأطفال، ودوس المصاحف عند "فتح" الكفرة، وإلقاء أسرى المجاهدين، والمشايخ من الطيارات، وتزريق أجسامهم بربطهم فى طرق سيارتين تطلقان للسير فى اتجاه مضاد، وهكذا من الأعمال الوحشية التى يستبعد تصديقها عن أمة معتبرة فى مصاف الأمم المتحضرة الراقية.

من أمثلة هذا الأسلوب إذاً، كان منشور أصدرته وقتئذ جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى، بعنوان: (أطماع إيطاليا فى طرابلس الغرب) - أمير البيان يدعو العالم الإسلامى إلى التعاون) وهو بيان إلى جانب أنه يشرح الأسلوب الإذاعى الذى ذكرناه، فهو يحوى تفاصيل عن أثر هذه الحالة التى قادها السعداوى وأرسلان ضد إيطاليا، فى حمل هذه الدولة على بذل كل ما وسعها من جهد وحيلة - دون جدوى - من أجل وقف هذه الحملة. وإليك نص هذا البيان:

أطماع إيطاليا فى طرابلس الغرب

أمير البيان يدعو العالم الإسلامى إلى التعاون

بعث الأمير شكيب أرسلان إلى الرصيفة "العرب" الغراء برسالة يتكلم فيها عن سياسة إيطاليا فى طرابلس، ويدعو العالم الإسلامى إلى التعاون فى سبيل إنقاذ البقية الباقية فى طرابلس الغرب فرأينا أن نثبتها على صفحات "الأيام" لأن فيها عبرة لمن يعتبر. قال الأمير:

ذكرتم فى أحد الأعداد الأخيرة من "العرب" استمرار سياسة

الاستئصال التي تتمشى عليها إيطاليا في طرابلس، وعمدها لمحو العنصر الإسلامي في ذلك القطر، ليخلو فيه الجو لمرتزة الطليان ويودوا فيحولوا طرابلس وبرقة بلاداً لا تينية بحتة بسلام وأمان. ولما كان هذا التفجير إليه تعالى هو أول من نبه العالم الإسلامي إلى هذه الفادحة الطرابلسية، وكشف أعمال الطليان في ذلك القطر البائس، وكنت لم أزل متابِعاً السعى فيما يكشف هذا البلاء أو يخففه عن إخواننا الطرابلسيين، جئت أفضى إليكم بالمعلومات الآتية:

إنى من أول الأمر لم أقصد التشفى ولا الانتقام بالكلام، ولا التجريس بالطليان في الجرائد عن أعمالهم الفظيعة في طرابلس. بل عمدت كما هو دأبى دائماً إلى العمل بدون ضوضاء وإلى السعى فى التنفيس عن خناق الطرابلسيين بدون إثارة قبل وقال.

ولما كانت بيننا وبين موسوليني معرفة قديمة وصداقة - يعرفها الأخ عبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين بمصر - منذ سنة ١٩٢٢ وكان الزعيم الفاشيستي الأعظم قد انتصر لنا فى قضية استقلال سورية، ونشرنا بإمضائه عدة مقالات فى جريدته "بوبولو ديتاليا" دفاعاً عن قضيتنا، رأينا فى أول الأمر أنه يكون الأولى بنا مراجعة السنيور موسوليني فى الكشف عن هذه الأعمال التى تشين الإنسانية، وتضر فعلاً بسمعة الدولة الإيطالية، وقلنا: لعله على غير علم بتفاصيل ما هو جار فى طرابلس لأن المأمورين هناك يخفون عنه الحقيقة أو أكثر الحقيقة، ولعلنا نقدر أن نفرج من كروب إخواننا المسلمين بدون طعن وتشهير وصراخ وتجريس لا يكون منه فائدة سوى زيادة الأضغان.

فنصحنا إذاً بطريقة خصوصية راجين الإمساك من العنان الذى أطلقه الطليان فى طرابلس وبرقة لأنفسهم، وطالبيين إعادة الثمانين ألف عربى الذين أجلوا عن أوطانهم إلى أوطانهم فى الجبل لأخضر لا سيما أنهم باعتراف

إيطاليا نفسها لم يكونوا ثائرين . وقصارى الأمر أنهم متهمون بالاتصال مع الثائرين وأن هذه التهمة قد تكون مجرد ظن وتخمين .

فلم نستفد من ذلك النصح الخاص شيئاً .

ثم رأينا الأمور تتفاقم والانتقام يزداد، فحررنا مقالة في جريدتنا "لانسبون آراب" نذكر فيها محبتنا للشعب الإيطالي وتمنينا له كل خير، ومزيد إجابنا الخاص بالقائد الأكبر لهذا الشعب اليوم، السنيور موسولينى الذى سبقت له مواقف محمودة فى قضيتنا السورية لا أنساها، وغير ذلك من الكلام اللطيف . ونصحنا بعده بإعادة الثمانين ألف عربى المحبوسين ضمن الأسلاك الشائكة فى صحراء سرت إلى أوطانهم وأملاكهم فى الجبل الأخضر وبالإقلاع عن السياسة المتبعة فى طرابلس وبرقة من ضغط وعسف وإرهاق وتحقير وإهانة للإسلام وقتل الناس رمياً من الطيارات أمام أعين ناسئهم وأولادهم إلى غير ذلك مما لا يزيد إيطاليا بل ينقصها .

وذهبت نصيحتنا هذه صرخة فى واد ونفخة فى رماد .

ثم حملنا بعد ذلك حملة شديدة فى مجلتنا "لانسبون آراب" وتجاونا فيها عن ألفاظ الرقة وأساليب المعاتبة المألوفة وذكرنا ما فى تلك الفظائع من العار على إيطاليا والإنسانية أجمع وسمعنا الأشياء بأسمائها :

ولم نستفد أيضاً فى هذه النوبة شيئاً .

وعند ذلك نشرنا تلك المقالة التى نشرناها فى "الفتح" وطبعوا منها فى مصر عشرة آلاف نسخة على حدة، وفى الشام عشرة آلاف نسخة، وحدثت من بعدها تلك المظاهرات فى جميع أنحاء العالم الإسلامى مما هو معلوم عند الجميع .

فعندها جعل الطليان يتوسلون بالواسطة لإقناعنا بأن الأخبار التى نقلناها غير صحيحة، أو أن فيها مبالغة عظيمة! وأخذت سفاراتهم فى الخارج تذيب

أن هذه الأخبار كلها باطلة وأن إيطاليا تدعو من شاء لزيارة طرابلس ليتحقق بطلانها!

وبلغ من بهتان مثلى إيطاليا فى الخارج أن قناصلها فى بلاد الجارى عندما حصل هناك ذلك الاجتماع العظيم من جميع المسلمين وملأوا الآفاق صراخاً وقرروا مقاطعة بضائع إيطاليا، زعموا أن إيطاليا دعت عصبة الأمم إلى إرسال وفد خاص إلى طرابلس ليتحقق كذب تلك الأخبار! فتأملوا فى هذه القحة على الكذب.

وهكذا قالوا لشوكت على ودعوه أن يمر بهم فى رومة ليؤكدوا له أن كل هذه الأخبار كذب!

ونسوا أن ستين ألف مهاجر من برقة هم الآن فى أرض مصر والسودان، وأنهم يقولون إن هذه الأخبار هى دون ما حصل.

ونسوا أنه لجأ إلى تونس عشرون ألف طرابلسى وإلى الجزائر ١٥ ألفاً، وأنهم يقولون إن كل وصف يقصر عن أعمال الطليان فى ليبيا.

ونسوا أن الثمانين ألف عربى الذين هم محصورون ضمن الأسلاك الشائكة فى صحراء سرت قد مات نصفهم لا يزالون فى مكانهم على أمل الطليان بموت النصف الباقي.

والخلاصة أنهم اعتمدوا على شىء واحد: أن يتابعوا عملهم فى طرابلس ثم يكذبوا أخباره فى الخارج. ولنا كانت أعمالهم غير معهودة فى البشر كان أناس كثيرون يستصعبون تصديقها كما كتب لى الشهيد عمر المختار قبل شهادته بقليل وقال ليل: "بل أنت لم تذكر كل ما فعلوه" ثم إننا لما رأيناهم مجتهدين فى التكذيب حاسبين حسابان مقاطعة المسلمين لتجارتهم أرسلنا إلى السنيور موسولينى مع أحد أصدقائه ممن هو صديق لنا أيضاً نقول له: "قد مضى الذى مضى فليعيدوا الآن بقية الثمانين ألف عربى إلى الجبل الأخضر فإن الثورة باعترافهم هم قد انتهت".

فكان كلام موسولينى: لم نعمل ما نسبوه إلينا. أى التكذيب الفارع
المجرد الذى لا يفيد شيئاً.

وبقى الذين لم يموتوا من الثمانين ألف عربى ضمن الأسلاك الشائكة
فى صحراء سرت.

ومن نحو شهرين كتبت إلى أحد إخواننا بمصر عن الحالة الراهنة هناك.
لأنه على اتصال دائم بالبرقاويين الذين أصله منهم. فأجابنى إن البقية الباقية
من عرب الجبل الأخضر لا تزال فى صحراء سرت ما تغير شىء. وإن جميع
الزوايا السنوسية وأراضيها وأراضى العرب المذكورين هى فى حوزة الطليان.

ثم قرأنا فى الجرائد أنهم عفوا عن ٥٠ شخصاً ممن هم فى سرت
ورجعوا إلى أراضيهم فى جهات طبرق. فتأملوا ٥٠ شخصاً من ٨٠ ألفاً.

ثم قرأنا فى الجرائد الإيطالية أنهم عفوا عن أربعة آلاف؟!

ولكن لا يقدر الإنسان أن يثق برواية من روايات الجرائد الإيطالية
أصلاً.

ثم أرادت إيطاليا أن تستميل المسلمين. فنشرت عند دخول رمضان نظاماً
بمعاقبة كل مسلم يأكل فى رمضان نهاراً، أو يعاقر الخمرة. أو ينتاب أماكن
المومسات، ويأقفال هذه الأماكن كلها طول النهار. وغير ذلك مما نشكرها
عليه ونتمنى أو تقتدى بها فيه الحكومات الإسلامية لأننا لسنا ممن يقول: إن
التدين شىء فى القلب بين العبد وربّه فلا حاجة إلى صيانة مظاهره. بل
مذهبنا أنه يجب فيه الباطن والظاهر معاً. وإن الدين الذى ليست له شعائر
تقام متداع منها بلا نزاع.

غاية ما نقول لإيطاليا: إنه لأجل أن يستفيد المسلم من هذا النظام
يجب أن يبقى مسلمون فى طرابلس. والحال أن قريباً من ثلثهم قد باد، وأن
إيطاليا ماضية فى سياسة استئصالهم فالمسلمون ليسوا بأغبياء إلى هذا الحد.

إننا نتقاضى إيطاليا إعادة بقية الثمانين ألف عربى الذين فى سرت إلى مساقط رءوسهم وأماكنهم فى الجبل الأخضر.

وإعادة الزوايا السنوسية وأرضها الوقفية إلى مشايخ الزوايا الذين كانوا نظاراً على أوقافها. وإعادة الأطفال والصغار الذين انتزعوهم من حجور والديهم إلى والديهم الذين هم الأوصياء عليهم فى جميع قوانين الأمم.

وإن لم تفعل إيطاليا هذا فى وقت قريب، فيجب على المسلمين يف كل قطر أن يؤلفوا لجناً خاصة لمقاطعة البضائع الطليانية والبواخر الطليانية وكل شىء طليانى، فلا دواء غير هذا، ولو كان المسلمون تبشوا عل مقاطعة الطليان منذ ثارت هذه المسألة لكانت انحلت من سنتين.

ولكن أضر ما ضر المسلمين هو سرعة نسيانهم للأذى والإهانة. وهذا الذى أطمع الأوربيين فيهم أكثر من سبب آخر، فيجب أن يعلموه.

جنيف: شكيب أرسلان

(جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى)

تتقدم للأمة العربية الإسلامية بهذا المقال الخطير الذى دبخته براعة عطوفة أمير البيان وعسى أن تصادف صرخات هذا الأمير المجاهد آذاناً (صاغية) وقلوباً واعية فى الأمة العربية الإسلامية.

جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى

هذا وعند مرور أربع وعشرين سنة على الاحتلال الإيطالى لطرابلس برقة، أصدرت جمعية الدفاع كراسة من ست عشرة صفحة، فى ٢٦ جمادى الثانية ١٣٥٣، ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٤، بعنوان: فاجعة طرابلس برقة - ٥ تشرين أول سنة ١٩١١، الذكرى الرابعة والعشرين للاحتلال الطليانى، وهو بحث يتألف من لافصول الآتية: الاستعمار الأوروبى فى الشرق، مقدمات الغارة الطليانية، الاحتلال، واجب الجاليات الطرابلسية البرقاوية، العالم الإسلامى العربى وطرابلس برقة.

وهذا البحث يسرد قصة الفتح ويصف الفظائع التي ارتكبتها الطليان أثناء العمليات العسكرية وبعدها، بما فى ذلك تشريد الأهلىن فى المنفى فى جزر إيطاليا، أو فى معسكرات الاعتقال، أو فى السجون.

وعند الكلام عن واجب الجاليات الطرابلسية البرقاوية، أهابت اللجنة بمواطنيها أن يذكروا "أن الحرب بيننا وبين الطليان لم تضع أوزارها بعد، فهى إن خمدت فى ميادين القتال مؤقتًا فليس معنى ذلك خضوعًا للقوة الغاشمة، بل إن لنا حقوقًا يجب أن لا نفتر عن المطالبة بها بجميع الوسائل فى كل وقت وحين. إنكم لم تخرجوا من دياركم وتحملوا آلام الغربة والتشريد فى مختلف البلاد إلا لعزلة نفوسكم وإيهائها عليكم أن تعيشوا فى بلادكم عيشة الذل والخنوع تشاهدون ما ينتهكه الغاصب فى وطنكم من حرمانات وما يأتى من جور وطغيان لا تستطيعوا لدفعها سبيلا ففضلتم الهجرة على الإثامة فى وكن لا ترعى لكم فيه ذمة ولا تصان لكم فيه حقوق. إن من الواجب على من كانت هذه أسباب هجرته أن لا ينسى أن بلاده لم تزل تن من وطأة الاستعمار الفاشيستي وأن له إخوانًا بها يلاقون من الاضطهاد ما يذيب الفؤاد ويفتت الأكباد. فيجب ألا يخفت لكم صوت ولا تفتر لكم عزيمة دون المطالبة بحقوق بلادكم. إن جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى التى أخذت على عاتقها مقاومة الاستعمار الفاشيستي بكل الوسائل تجدد بمناسبة هذه الذكرى الأيمة العهد أمام الله والوطن والتاريخ بأنها لن تألوا جهدًا فى خدمة هذا المبدأ مهما لاقى من صعوبات، وهى تتقدم بعقيدة ثابتة وأمل وطيد إلى العالم العربى والإسلامى تطلب مؤازرته فى مكافحة الاستعمار الأجنبى. وعند الكلام عن (العالم الإسلامى العربى وطرابلس برقة) حذرت الجمعية هذا العالم من "أساليب السياسة الاستعمارية الأوروبية الكاذبة"، وقالت: لقد حان الوقت ليعرف المسلمون ضرورة جمع الكلمة والسرى على خطة واحدة وسياسة مشتركة لمقاومة الاستعمار الأوروبى وعرقلة مساعيهِ وفضح أسرارهِ والكشف عن مكايده". ولقد ضربت الجمعية فى هذه النشرة مثلىن اثنين على

الأعيب الاستعمار الأوروبي وغدرت الفاشيست أحدهما نشاط الطليان فى سوريا. حيث قالت: "ونحن لا نعتقد أن هناك أحد يمكن أن ينخدع بأقوال حكومة الفاشيست عن الغاية من دعايتها الواسعة فى سورية منذ مدة غير قصيرة، فهى لا تقصد من وراء الدفاع عن حقوق السوريين إلا تمهيد الطريق لبسط نفوذها وجميع تصريحات رجال سياستها تدل على مطامعها فى جعل الانتداب على سورية فى أيدي الطليان، ولم يعلموا أن السوريين إنما يطلبون استقلالاً تاماً لا تبديل انتداب بانتداب، وأما المثل الآخر فهو ما حدث وقت قيام الحرب بين اليمن والمملكة العربية السعودية من محاولة الإيطاليين انتهاز الفرصة "لتنشئ مخالهم فى جسم البلاد العربية". فقالت النشرة: "إن تدخلاتهم فى شئون اليمن منذ سنين طويلة لم تكن تختلف فى شئ عن التأهبات التى سبقت إغارتهم على طرابلس برقة وقد تأكد العرب المسلمون من ذلك فى أثناء حوادث جزيرة العرب الأخيرة، فإنه ما كاد يظهر الخلاف بين الحجاز واليمن حتى رأوا حكومة الفاشيست تتحفز لتنشئ مخالبتها فى جسم البلاد العربية، ولولا حكمة العاهلين العربيين التى عرفت كيف تزيل هذا الخلاف بسرعة لرأينا حكومة الفاشيست لا تقف عند حد إرسال الأساطيل وإنزال حامية إلى (الحديدية) بل لكانت استرسلت فى تحقيق مطامعها وتوغلت جيوشها فى بلاد العرب".

لقد كان بشير السعداوى واقفاً على ما يجرى فى سوريا بفضل مساهمته مع زعمائها فى كفاحهم الوطنى منذ أن وطئت قدماه أرض سوريا. ثم إن السعداوى كان كذلك واقفاً على تفاصيل ماحدث بين "اليمن والحجاز"، والسبب فى هذا أنه كان أحد أعضاء الوفد الذى اختارته اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى، للتوسط فى الخلاف الذى نشب على تهامة والعسير بين الإمام يحيى حميد وجلالة الملك عبد العزى آل سعود، وإنهاء الحرب التى قامت بينهما بسببه.

لم يتمتع طويلا الحسين بن علي بالملك الذي اعتقد أنه نجح في تأسيسه في الحجاز بعد قيامه بالحركة التي أنهت من هذه البلاد حكم الدولة العثمانية، وصارت تعرف باسم (الثورة العربية الكبرى)، والتي كان من أحد آثارها اضطراب حاكم ينبع بشير السعداوي إلى الخروج من ينبع البحر، وفي النهاية مغادرة الحجاز في الظروف التي عرفناها. وكان العامل الأول في تقويض ملك الحسين بن علي، قيام دولة الوهابيين على يد مؤسسها في الأزمة القريبة، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، الذي خرج بجيشه من نجد لطرد الشريفين من الحجاز، وتواتلت انتصاراته عليهم حتى اجتاز جندة حدود الحجاز في أغسطس ١٩٢٤، فاستولى الوهابيون على الطائف، وطردها علياً بن الحسين من (حدا) فبادر الحسين بالتنازل عن الملك لولده علي في أكتوبر. ولكن شيئاً لم يستطع وقف زحف الوهابيين أو يعطل انتصاراتهم، فارتد علي بن الحسين إلى جندة، ثم سلمت ينبع البحر، وتبعتها المدينة المنورة. وفي ديسمبر ١٩٢٥ تنازل علي عن العرش وقصد إلى العراق ليقام مع أخيه فيصل. وكان الوهابيون قد استولوا كذلك على مكة منذ أكتوبر من العام السابق كما سلمت جدة قبل تنازل الملك علي بن الحسين عن العرش بأيام قلائل. وفي ٨ يناير ١٩٢٦ نودي بالملك عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز وسلطاناً على نجد وتوابعها. وكانت مسألة رسم حدود المملكة الجديدة من المسائل التي تطلبت علاجاً حاسماً وعاجلاً. وقد بدأ نظر مسألة الحدود فعلاً قبل الحوادث التي انتهت بإعلان تأسيس المملكة الجديدة. وكانت مسألة الحدود بذاتها السبب الرئيسي لتكدر العلاقات بين عاهل المملكة السعودية الجديدة، وعاهل اليمن الإمام يحيى بن حميد الدين.

ذلك أن الحدود لم تكن ثابتة المعالم من ناحيتي الشمال والشرق بين نجد وشرق الأردن، والعراق، والكويت. ومن ناحية الجنوب مع اليمن. فأمكن

رسم الحدود فى الجهات الأولى، بعقد اتفاقات ثلاثة: أولها اتفاق المحمرة فى ٥ ما يو ١٩٢٢، الذى تأكد فى اتفاقات أخرى فى ديسمبر من السنة نفسها بين نجد والعراق وبريطانيا. وثانيها اتفاق العفير فى ديسمبر ١٩٢٢ بين المعتمد السياسى البريطانى فى الكويت وابن السعود لتخطيط الحدود بين نجد والكويت، وثالثها لتخطيطها بين نجد وشرق الأردن والعراق فى اتفاقى حدا والبحرة فى نوفمبر ١٩٢٥.

أما فى الجنوب فقد ثار الخلاف بين ابن السعود وإمام اليلمن حول العسير، وهو إقليم يمتد إلى الجنوب من الحجاز حتى يصل إلى حدود اليلمن الشمالية، ويطل من جهة الغرب على البحر الأحمر، وتقع فى شرقيه بلاد نجران، وقاعدته أبها. وكان أهل العسير قد أقبلوا على أيام آل سعود الأولين على مذهب محمد بن عبد الوهاب، وأمر سعود الكبير الأمراء على العسير وصارت له السيادة عليها، وإبان الفتح المرى على أيام محمد على، تأمر على العسير بموافقة ابن سعود الكبير، عائض من آل عائض وآل يزيد، الذى لم يلبث ولده محمد. ويدعى محمد الفاتح أن بسط سيادة آل عائض حتى امتدت شرقاً إلى بيشة وشمالاً إلى حدود الحجاز وجنوباً بالغرب إلى المخافى تهامة. وترعزت فى عهده سيادة آل سعود. وكانت الدولة العثمانية قد عادت إلى اليلمن، فعملت على إخضاع العسير بإرسال حملة عسكرية أخضعتها، ومع أن محمد عائض لقى حتفه غدرًا أثناء هذه العمليات، وتأسست فى العسير متصرفية عثمانية، فقد ظلت الدولة العثمانية تحتفظ بنفوذ آل عائض وتستعين به، وكانت تعين من أمراء هذه الأسرة معاونين للمتصرفين الترك. وعندما قامت الحرب العالمية الأولى، جلا العثمانيون عن العسير، فتولى حسن بن على - حفيد محمد الفاتح - الإمارة واستقل بها. ولم يمض طويل وقت حتى كانت القبائل - خصوصاً قحطان وزهران - قد نفرت من حكمه لبطشه واستبداده، وذهبت الوفود إلى عبد العزيز بن سعود تشكو ابن عائض وتطلب وساطته، فبعث بستة من علماء نجد لهذه الغاية، ولكن (حسن) أبى

الوساطة "وتدخل ابن سعود في شئون قبائل عسير" وهدد إذا استمر ابن سعود يتدخل أن "يمشى إلى بيشة النخل (قلة بيشة) ويستولى عليها". عندئذ سير عليه ابن السعود جيشاً على رأسه ابن عمه عبد العزيز بن مساعد بن جلوى (مايو ١٩٢١)، الذى انتصر على غريمه، ثم لم يلبث أن دخل (أبها) واستولى على (السراة) وغيرها من النواحي التى تتصل بحدود السيد الإدريسي، وكان الإدريسي موالياً لابن سعود"، فاستأمن ابن عائض، وأرسله مساعد بن جلوى مع ابن عمه محمد إلى رياض. وأغدق عليهما ابن سعود وعاد الأميران إلى العسير، ولكن حسناً لم يلبث أن أثار الفتنة، وحاصر (أبها)، واضطر عبد العزيز ابن سعود "إلى إرسال حملة بقيادة ابنه فيصل على العسير (يونيه ١٩٢٢)، فدخل (أبها) ووجد أن آل عائض قد قروا منها. واستنجد محمد بن عائض بالملك حسين بن على فأنجده بحملة صغيرة، وتحصن حسن (بحرمة). فسير فيصل بن سعود جيشاً إلى حرمة استولى عليها ولم يجد حسناً بها، وسير جيشاً آخر إلى تهامة لوقف سير النجدة الآتية من الحجاز، أوقع بالزاحفين هزيمة كبيرة، فارتدت فلول الجيش الحجازى إلى القنفذة، وبعد فرار العائضين حسن ومحمد وهزيمة الجيش الحجازى أمر الأمير فيصل (بن سعود) فى أبها ابن عفتيان وأقام فيها حامية. ثم عاد بمن بقى من جيشه إلى الرياض، فوصلها" فى يناير ١٩٢٣.

أما تهامة فهى السهل الممتد على ساحل البحر الأحمر من الليث فى الشمال إلى عدن فى الجنوب، وتهامة عسير كانت تخضع لتنفيذ الأمانة، وعندما احتل عبد العزيز بن سعود عسير وما جاورها، حرص السيد محمد بن على الإدريسي على التقرب من السعوديين (١٩٢٣). وكان الإدريسي قد انتهز فرصة الحرب الإيطالية الطرابلسية وأعلن الثورة على الأتراك، واستطاع بمؤازرة الطليان له أن يؤسس نوعاً من الحكومة المستقلة، تدعم سلطانها خلال الحرب العالمية الأولى وهى الحرب التى أوجدت اليمن فى موقف لا تحسد عليه بسبب الاحتلال التركى لها، حتى إن موانئها تعرضت لضرب الأسطول

الإنجليزى لها بالقنابل لصالح الأدراسة فى الشمال والذين عزوها كذلك من العسير، ومنذ انتهاء الحرب تحررت اليمن من السيادة العثمانية نهائياً. ولكن الاحتكاك بينها وبين حكومة الإدريسى فى تهامة عسير ظل قائماً.

ومنذ أن تمت لعبد العزيز آل سعود السيطرة الكاملة من الناحية العملية على المنطقة الخاضعة للأدراسة، انتقل الاحتكاك - بسبب عدم تعيين الحدود - من بين الأدراسة والإمام يحيى مباشرة، إلى احتكاك أوسع دائرة - وإن كان لنفس السبب - بين عاهل نجد والحجاز وإمام اليمن. فقد وجد الإمام يحيى فى وفاة السيد محمد بن على الإدريسى (١٩٢٣) فرصة مواتية للاستيلاء على أجزاء من إمارة الأدراسة، بل والطمع فى الاستحواذ عليها بأسرها، فاحتلت القبائل الزيدية بعض الأقاليم. واضطر السيد على بن محمد الذى خلف أباه إلى التخلّى عن الحديدة وما جاورها من البلدان للإمام يحيى. وعقد السيد الحسن الذى خلف ابن أخيه على الإمارة بعد خلعه معاهدة مع العاهل السعودى فى أكتوبر ١٩٢٦ أخضعت هذه المنطقة "لحماية" عبد العزيز آل سعود. وذلك تخلصاً من سلطان أما اليمن. وفى سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) طلب السيد الحسن أن تضم البلاد إلى مملكة جلاله الملك عبد العزيز وأن يكون حكمه فيها مباشراً. ومن ذلك التاريخ أصبح ذلك القسم من عسير ملحقاً بمملكة نجد والحجاز التى يطلق عليها الآن المملكة العربية السعودية. وطويت صحيفة الأدراسة كما طويت صحيفة آل عائض من قبلهم".

ورضى عبد العزيز بن سعود بعد أن استمرت الاحتكاكات الحدودية مدة طويلة من الزمن أن يتخلّى عن ادعاءاته على منطقة العسير. فعقد مع الإمام يحيى معاهدة صداقة وحسن جوار فى ١٥ ديسمبر ١٩٣١. كان من بين شروطها أن يتعهد الطرفان بتسليم المذنبين السياسيين وغير السياسيين وعدم إيواء من تصدر عليهم أحكام ويكونون قد فروا من وجه العدالة. ولم يكن

الإمام يحيى حريصاً على ملاحظة شروط هذه المعاهدة، فوجد الملك عبد العزيز أن بعض العصاة السعوديين يلجأون إلى اليمن ليختبئوا به، بينما ينفي الإمام أن أحداً قد قصد إلى أرضه. ثم زاد من تكدير العلاقات بعد ذلك أن الأدارسة انقلبوا على السعوديين فحرك أميرهم القبائل على الثورة. وهاجم الثوار الحاميات السعودية (في نوفمبر ١٩٣٢)، ومع أن السعوديين أخمدوا الثورة واحتلت قواتهم (صبيا) وهي مقر أسرة الأدارسة بالعسير في فبراير من العام التالي، فقد هرب الحسن الإدريسي إلى أراضي الزيدية: ورفض الإمام يحيى تسليمه، ورضى العاهل السعودي - منعاً لاستفحال الخلاف - بأن يبقى الإدريسي في اليمن. ولقد زاد من حدة التوتر أن القبائل الزيدية أغارت كذلك على مواطن قبيلة يام التي كانت تدين بالولاء لابن سعود، في الشمال الشرقي من أراضي نجران وقامت مفاوضات طويلة في (أبها) وغيرها لتسوية الخلافات مع اليمن، ولكن دون طائل وطلب الملك عبد العزيز أن تثبت معاهدة صريحة بينه وبين الإمام يحيى، الحدود المتنازع عليها، وأن يسلم الإمام كذلك عبد الوهاب الإدريسي الذي كان أرسله إلى منطقة جبال العبادل وفيها وبني مالك وبلغازي في تهامة لاحتلالها ولإثارة بقية القبائل التي كانت لا تزال تابعة للسعوديين، كما طلب الملك أن تسوى مسألة نجران، وحشد عبد العزيز جيوشه. ولما لم تسفر المفاوضات عن شيء، أعلنت الحرب بين العاهلين في ٢٢ مارس ١٩٣٤.

تلك إذا كانت أسباب قيام الحرب اليمنية السعودية في سنة ١٩٣٤.

على أن الذي نريد أن نذكره أن وقت إعلان هذه الحرب، كان بشير السعداوى إلى جوار الملك عبد العزيز. أما كيف وجد بشير السعداوى هناك وماذا كان يفعل فذلك مرده إلى الرغبة الأكيدة التي ظهرت من جانب فادة الرأي والزعماء في العالم الإسلامي العربي خصوصاً في ضرورة حسم هذه الخلافات والخلولة دون وقوع الحرب بينهما، في وقت كان العالم الإسلامي والعربي قد عقد كل آماله على جمع كلمة المسلمين وتوحيد جهودهم،

وتوجيه نشاطهم نحو غاية واحدة كبرى هى تحرير هذا العالم الإسلامى العربى من "الاستعمار الأجنبى" بأن أنشأ ذلك (المؤتمر الإسلامى) الذى أخذ على عاتقه أن يبذل قصارى جهده لتحقيق هذه الرغبة، وذكرنا أن الحاج محمد أمين الحسينى كان رئيساً له وأن بشير السعداوى كان أحد أعضاء لجنته التنفيذية العاهلين.

ذلك أنه ما أن أخفقت مفاوضات (أبها) الأخيرة فى غضون شهر مارس ١٩٣٤ بين الوفد اليمنى برئاسة السيد عبد الله بن أحمد الوزير، والوفد السعودى، حتى اهتمت هيئات عدة بالتوسط لحقن الدماء، كان المؤتمر الإسلامى فى مقدمتها، فأبرق الحاج أمين الحسينى إلى كل من العاهلين فى أواخر مارس "بالرجاء بالهدنة ليتسنى لوفد المؤتمر الإسلامى العام التوسط بينهما.

وكان الحاج أمين قد طلب من بشير السعداوى المبادرة بالذهاب إلى مكة ليقترح على جلالة الملك عبد العزيز فكرة الوساطة ويرى إذا كانت تلقى قبولا منه. فقصده بشير السعداوى إلى مكة، واجتمع بالعاهل الكبير وحضر الحج معه فى ذلك العام (مارس - أبريل ١٩٣٤). وحضر المأدبة السنوية التى يقيمها الملك عبد العزيز بمكة المكرمة لكبار وفود الحجاج، واستمع إلى خطاب الملك الذى ألقاه بهذه المناسبة. وقد تناول أسباب الخلاف الذى نشب بينه وبين الإمام يحيى، وذلك بعد أن خطب كثيرون "يظهرون عواطفهم نحو الدولة السعودية فى حربها مع الإمام يحيى"، وكان خطاب الملك عبد العزيز خطاباً خطيراً استعرض فيه العلاقات بينه وبين أمراء العسير من آل عائض والأدارسة إلى أن توترت العلاقات مع الحسن الإدريسى بسبب تحريض إمام اليمن لهذا الأخير على نبذ ولائه للسعوديين وسرد الملك عبد العزيز تاريخ المفاوضات الشاقة الطويلة لتسوية الخلاف سلماً، والتى لم تسفر عن نتيجة حتى اضطر إلى إعلان الحرب على الإمام.

ولقد بذل السعداوى قصارى جهده لاستمالة الملك عبد العزيز إلى قبول الوساطة، وكان من بين مستشارى جلالته وقتئذٍ من يعتقد أن الحرب مع اليمن حرب توسعية فى صالح المملكة السعودية الناشئة. ولكن الملك عبد العزيز كان يرى أن المسألة أكبر من أن تكون مشكلة محلية وأنها تهم العالم الإسلامى أجمع. وبعد مداولات إذا قبلت الوساطة، ووافق الملك على حضور وفد من قبل المؤتمر الإسلامى لهذا الغرض.

وفى ٣ أبريل ١٩٣٤ أبرق جلالته إلى "سماحة رئيس المؤتمر الإسلامى، الحاج أمين الحسينى بالقدس" أنه بالرغم من نقض الإمام يحيى لعهدہ ولمعاهدته التى أبرمتها قبلاً، واعتداء عبد الوهاب الإدريسى الذى بعث به الإمام ليدخل "جبال فيفا وبنى مالك والعبادلة". فإن جلالته "يرغب فى السلم من صميم قلبه ما دام هنالك دليل للمحافظة على العهود وصيانة الشرف". وفى ٢٨ ذى الحجة ١٣٥٢ (١٢ أبريل ١٩٣٤) أبرق مكتب المؤتمر الإسلامى العام بالقدس إلى ديوان جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فى مكة وجلالة الإمام يحيى فى صنعاء: "تيمناً بالرغبة التى أبدىتموها بالسلام توجه وفد المؤتمر الإسلامى العام اليوم لمكة مؤلفاً من سماحة رئيس المؤتمر الإسلامى ومحمد على علوبة باشا وكيل المؤتمر والأمير شكيب أرسلان، ورئيس الكتلة الوطنية بسوريا هاشم بك الأناسى، وتوجهت معه قلوب المسلمين لاجئة لله بطلب التوفيق مؤملة بجلالتي العاهلين خير الأمل".

وكان الإمام يحيى حميد الدين. بسبب الانهزامات المتكررة التى لحقت بجيوشه، ولتمسكه دائماً بموقف من يريد الصلح وحسم الخلاف، قد أبرق إلى رئيس المؤتمر الإسلامى منذ ٣ أبريل يقبل الوساطة، ويطلب إفاد مفاوض من موثوق بنزاهته وعدم تحيزه لأحد الجانبين لمعاونة مندوبه عبد الله الوزير فى المفاوضة فى مكة.

وقد أذاع مكتب الاستعلامات السورى فى دمشق بياناً نشرته جريدة الجهاد فى مصر فى عددها الصادر فى ٢٦ أبريل ١٩٣٤، جاء فيه ما يأتى:

اتصل بمكتب الاستعلامات أنه ورد أحد الوطنيين كتاب من فلسطين حول التوسط لإنهاء الحرب الناشئة في أطراف الحدود اليمنية الحجازية وقد تضمن معلومات خطيرة، رأينا أن ننقلها للقراءة فيما يلي:

كان السيد بشير السعداوى رئيس الجالية الطرابلسية البرقاوية توجه إلى القدس في أواخر شهر ذى القعدة المنصرم (أى أوائل مارس ١٩٣٤) بينما كانت رائحة الخلاف بين الإمام والملك قد انتشرت منذرة باتقاد أتون الحرب، فاجتمع بسماحة الأستاذ السيد محمد أمين الحسينى رئيس المؤتمر الإسلامى وتداولوا معاً فى عوامل الخلاف ونتائجه، ولما افترقا أبرق بشير بك إلى رئاسة لجنة الدفاع عن الخط الحجازى (وكانت هذه من اللجان التى ألفها المؤتمر الإسلامى) بصفته عضواً فيها أن تفوضه بمراجعة جلالة الملك ابن السعود فى قضية الخط، فأرسلت له تفويضاً بذلك، فاتجه إلى مكة المكرمة وتقابل مع جلالة العاهل العربى فاستحسن جلالته أن يكتب السيد بشير السعداوى لسماحة الأستاذ الحسينى فى القدس لأجل تشكيل وفد إسلامى لإصلاح ذات البين، وكانت نيران القتال قد اندلعت فى أنحاء عسير بين الجيوش الوهابية والزيدية، فتم الأمر كذلك وسافر الوفد إلى الحجاز ومنها إلى اليمن لأداء هذه المهمة المتوجهة على كل عربى.

وقد وصل وفد المؤتمر الإسلامى العام إلى جدة يوم ٢ محرم ١٣٥٣ (٧ أبريل ١٩٣٤) ودارت المباحثات فى مكة والطائف وقد انتقل إلى الطائف الوفد اليمانى برئاسة عبد الله ابن الوزير من أبها، ولم تمنع المفاوضات من استمرار المعارك فى بعض الأنحاء على الحدود وفى نجران وعلى ساحل البحر، وتأزمت الأمور عندما تمسك الملك عبد العزيز بمطالبه الثلاثة: خروج قوات الإمام يحيى من نجران - ولهذا الإقليم أهمية استراتيجية كبيرة لأنه مطل على وادى الدواسر ومن حكم نجران فقد حكم الوادى، وهذا متصل بالرياض عاصمة نجد - وإخلاء الجبال مع إطلاق الرهائن، وحل مسألة

الأدارة بتسليمهم للسعوديين خصوصاً السادة الأدارة: الحسن وعبد العزيز وعبد الوهاب. وقد راوغ الإمام يحيى مراوغة طويلة بالرغم من هزيمة جنده، وساء حاله بسقوط الجديدة فى أيدى السعوديين (٣ مايو) وأشيع قيام ثورة داخلية فى اليمن. واحتل حبل الأمن من قطعاً فى داخلها وخشيت الحكومة الإنجليزية من تفاقم الحالة، فأرسلت مركباً حربياً من مباسا إلى عدن "احتياطاً للطوارئ، بمناسبة حرب ابن السعود مع إمام اليمن" وأبرق الإمام يحيى إلى ملك مصر فى ذلك العهد فؤاد الأول، يرجوه الوساطة، وقال فى برقيته له:

وإنه انسحب من الإقليم القائم بشأنه النزاع حقناً للدماء وقضاء على الخصومة بين المسلمين وكانت جيوشه منهزمة فى كل مكان. وكان بعد احتلال الجديدة على يد الأمير فيصل السعود أن انتصر هذا انتصاراً عظيماً على قوات اليمنيين فى معركة حامية دارت رحاها بالقرب من صنعاء. بينما كان جيش الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية يحتل نجران بعد أن أوقع الهزيمة بقوات سيف الإسلام أحمد فى أربع معارك كبيرة. وفى ١٠ مايو أبرق الإمام يحيى إلى مكة يطلب من جديد وقف القتال "والنظر فى تسوية ودية". وفى ١٢ مايو أذيع من جدة أن هجوم السعوديين قد وقف فى جميع الميادين بناء على أمر الملك ابن السعود. وقبل الإمام شروط الملك عبد العزيز، فقدت الهدنة وبدأت مفاوضات الصلح بين الوفود الثلاثة: السعودى واليمانى، ووفد المؤتمر الإسلامى ومع هذا الوفد الأخير بشير السعداوى. ورفض الإمام يحيى إجابة الملك ابن السعود إلى بعض مطالبه كتسليم الأدارة والتنازل عن تهامة وغير ذلك من الأمور التى رأى أن تنفيذها مضر بمصالحه وسمعته. ولكن لم تلبث أن انفجرت الأزمة عندما أعلن الملك عبد العزيز أنه متنازل من جهته عن تلك الشروط، وأبلغ الوفد اليمانى أنه لا يتمسك بها (٢٣ مايو) وبذلك اعتمد العاهلان المعاهدة التى كانت عقدت فى الطائف بعد وقف القتال بأيام قلائل فى ٦ صفر ١٣٥٣ (١٩ مايو ١٩٣٤)

ووقع عليها الأمير خالد بن عبد العزيز المفوض من قبل جلالة أبيه، وعبد الله الوزير نيابة عن جلالة الإمام يحيى. فصدق على المعاهدة جلالة عبد العزيز آل سعود ووقعها في الطائف في ٤ ربيع الأول الموافق ١٤ يونيو وتسلم مندوب الإمام يحيى صورة المعاهدة لتسليمها إلى الإمام في صنعاء، وقد وقع هذا بدوره عليها في ٧ ربيع الأول ١٣٥٣ الموافق ١٩ يونيو ١٩٣٤.

وانتهت معاهدة الطائف حالة الحرب القائمة بين مملكة اليمن والمملكة العربية السعودية وأنشأت "فوراً بين جلالة الملكين وبلاديهما وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة وأخوة إسلامية عربية دائمة"، واعترف كل من العاهلين باستقلال مملكة الآخر. "استقلالاً تاماً مطلقاً"، و"بأن يسقط كل منهما أى حق يدعيه فى قسم أو أقسام من بلاد الآخر خارج الحدود القطعية المبينة فى صلب هذه المعاهدة". ونصت المعاهدة (المادة الثانية) على "أن جلالة الإمام يحيى يتنازل بهذه المعاهدة عن أى حق يدعيه باسم الوحدة اليمنية أو غيرها فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية السعودية من البلاد التى كانت بيد الأدارسة أو آل عايض أو فى نجران وبلاد يام، كما أن جلالة الملك عبد العزيز يتنازل بهذه المعاهدة عن أى حق يدعيه من حماية واحتلال أو غيرها فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة لليمن من البلاد التى كانت بيد الأدارسة أو غيرها". وحسب تخطيط الحدود الذى أقرته المعاهدة فى مادتها الرابعة، احتفظ كل من الطرفين بالأقاليم التى كانت فى حوزته أو تحت سلطانه فى العسير وتهامة قبل سنة ١٣٥٢ هجرية. أى السنة التى استفحل فيها النزاع بالدرجة التى أدت إلى قيام الحرب بين العاهلين، وبذلك أصبحت عسير داخل المملكة العربية السعودية حسب هذه المعاهدة.

وكذلك تعهد الطرفان إذا نشأ بينهما خلاف أوجد من المشكلات ما تعذر عليهما حله "بالمراجعات الودية" بأن يلجأ كل منهما إلى التحكيم الذى

توضح شروطه " فى ملحق مرفق بهذه المعاهدة " ، وفى المكاتبات الرسمية التى دارت بين الطرفين والتى تعتبر جزءاً من المعاهدة تعهد إمام اليمن بتسليم الأدارة: السيد حسن. والسيد عبد العزيز بن محمد الإدريسي فوراً. والسيد عبد الوهاب عند قدومه من بلاد العبادل التى لا يزال بها. واتخذت الوسائل والوسائط لاستدعائه من تلك الأنحاء لتسليمه " .

وبذلك تكون معاهدة الطائف قد أنهت الحرب اليمنية السعودية. ويعزو بشير السعداوى الفضل فى إنهاء هذه الحرب إلى جلالة الملك عبد العزيز نفسه، الذى كان له من نفاذ البصيرة وقوة الملاحظة السياسية ما جعله يرى عبث الاستمرار فى الخصومة مع الإمام يحيى بسبب العسير وتهامة وخالف رأى الذى كان سائداً بين أكثرية مستشاريه والمحيطين به وقتئذ من حيث وجوب انتهاز الفرصة لتوسيع حدود المملكة السعودية الجديدة، فأثر أن تقوم بينه وبين اليمن صلات المودة وحسن الجوار. وقد حدث عند تأزم الأمور أثناء مباحثات أبها والطائف، وعندما كان الإمام يبرق إلى مختلف الهيئات الإسلامية والعربية يطلب التوسط لوقف القتال أن كشف جلالة الملك عبد العزيز عن ذات نفسه لمبعوث المؤتمر الإسلامى العام بشير السعداوى. فقد طلبه إليه جلالاته ذات مساء ليبلغه أنه قد قرر وقف القتال بينه وبين الإمام يحيى، ثم أخذ يعدد الأسباب التى جعلته يتخذ هذا القرار فقال: "إننى لم أشأ محاربة اليمنيين محاربة شديدة، لأننى أعرف شدة بأسهم. ولذلك فقد حاربت تهامة ولم أدخل إلى الجبال، ولو دخلتها لكان جائزاً أن يكون النصر لى أو أن تكون الهزيمة نصيبى. ونحن فى بلادنا مذهبنا سنى، بينما نحن نحارب أناساً زيدية المذهب، فلو فرضنا أنى تغلبت عليهم فكيف أحكم هذه البلاد التى يختلف مذهبنا عن المذهب أهلها؟ ومن أين أتى بالرجال الذين يكفون لإدارة هذه المملكة ومملكتى؟ والأهم من هذا كله، هل يقف الأجانب يا ترى موقف الحياد من هذه الحروب أم أنهم سوف يتدخلون. وتضيع عندئذ بلادنا وبلاد الإمام يحيى على السواء ويبتلعها الأجانب لقمة سائغة؟

هذه النتائج كلها استعرضنا فى ذهنى : وبعد تفكير طويل وجدت أن من العبث مواصلة الحرب، وقررت أن أكتب لأخى الإمام يحيى أن يوقف القتال. وقد أوقفت القتال من ناحيتى وانتهى الأمر، وأبرق جلالة الملك بالفعل إلى قواد جيشه بوقف القتال.

١٤ - العلاقة مع إيطاليا،

فى الوقت الذى شغل فيه بشير السعداوى بمسألة الوساطة لإزالة أسباب الخلاف بين المملكة العربية السعودية واليمن ووقف الحرب بينهما، كانت قد بدأت من مدة سابقة سلسلة من الحوادث، انتقل بفضلها كفاح جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى إلى مرحلة جديدة، تميزت بقيام محاولات للتفاهم مع الحكومة الإيطالية بطريق المفاوضة، على أمل الوصول إلى اتفاق كان يرجو منه بشير السعداوى أن يحقق المطالب الوطنية كما تضمنها (الميثاق القومى) المعروف.

ولقد جاءت هذه المحاولة عند ابتدائها من جانب حكومة موسوليني، وكان "الوسيط" فى المفاوضة الرجل الذى تعاون مع السعداوى فى قيادة حملة الدعاية العنيفة ضد الفاشيست والتنديد بأعمالهم والتشهير بالفظائع التى ارتكبوها فى طرابلس برقة. ونعنى به الأمير شكيب أرسلان. وسيرة هذه "المفاوضة" قصة طويلة، سوف يعيننا منا بيان أن الحكومة الإيطالية ما كانت أصلاً تفكر فى طرق باب التفاهم مع الوطنيين الذين يعملون برئاسة بشير السعداوى، لولا صيحات الاستنكار المدوية فى كل مكان ضد الحكم الغاشم الذى أقامته فى ليبيا، والذى كان مسئولاً عن ذلك هو بشير السعداوى.

وأما الأمر الثانى الذى سوف نعرض له فهو بيان "التنازلات" التى رضيت بها الحكومة الإيطالية كأساس للاتفاق المنتظر. والفرق الواسع بين هذه "التنازلات" ومطالب الوطنيين الذين انضووا من مختلف الأقطار تحت لواء السعداوى، ودور الأمير شكيب فى محاولة التقريب بين وجهات النظر. وهو

دور يبدو أن الأمير كان شديد الحرص على نجاحه حتى أنه لم يلبث أن أثار شكوك الكثيرين في نواياه، وعرضه للاتهام بالانحراف نحو إيطاليا وضد العرب، مما أقام عليه الدنيا وأقعداها، وجعل أصدقاءه وخصوصاً بشير السعداوى يبذلون كل ما في وسعهم من جهد وحيلة لتسكين العاصفة وتهدة الخواطر. ولقد انتهت هذه المفاوضة من غير الوصول إلى نتيجة. ثم جد من الحوادث ما جعل نشاط جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى يستمر في طريقه القديم. تربص الفرص بالإيطاليين. والمضى في "حرب الأقلام" العنيفة ضد الحكم الفاشيستي في ليبيا.

(أ) زيارة ملك إيطاليا لمصر:

وكان مما مهد لبدء مرحلة "المفاوضة" هذه اشتداد الدعاية ضد إيطاليا أثناء زيارة ملكها فكتور عمانويل (أمانويل الثالث) وملكها (هيلانة) لمصر، فقد استغرقت هذه الزيارة ثلاثة أسابيع من يوم وصولهما الإسكندرية في ٢٠ فبراير إلى يوم مغادرتهما لها في ٩ مارس ١٩٣٣. فقد شكا المهاجرون الليبيون التي اتخذتها ضدهم الحكومة المصرية وقتذاك من أجل المحافظة على سلامة الملك الإيطالي وقرينته، وانتهز السعداوى وإخوانه في مصر وغيرها الفرصة لإبلاغ احتجاجاتهم على الطغيان الفاشيستي في ليبيا إلى أسماع الملك والمسؤولين الطليان، وإثارة حملة من الدعاية الواسعة ضد الاستعمار الإيطالي.

وقد نقل إلى بسير السعداوى أخبار هذه الزيارة الملكية والإجراءات التي اتخذت ضد المهاجرين الطرابلسيين البرقاوين، أحمد الشتيوى (السويحلى)، وذلك في رسالتين أولاهما بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٣٣. وهى رسالة سبق أن أثبتنا منها فقرات كثيرة، والثانية في ٢٧ مارس بعد انتهاء الزيارة.

ففى الرسالة الأولى وهى قبل الزيارة: يكتب السويحلى أنه يتوقع أن يكون لدى السعداوى معلومات عن زيارة ملك إيطاليا المنتظرة لمصر بعد أيام

قلائل، ويسأله إذا كان " فى فكره أن يكتب للملك شيئاً أو يقدم له طلباً، باسم جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى، أو إذا شاء فله أن يكتب المطالب الوطنية فى بيان يبعث به إلى مصر حيث يوقع عليه المهاجرون ويقدمونه للملك الإيطالى. أما إذا كتب السعداوى " طلباً باسم (جمعية) الدفاع فله أن يبعث به إليهم ليتولوا هم تقديمه.

وفى حاشية يقول أحمد السويحلى: إن وكلاء السفارة الطليانية من ثلاثة أيام " يتحرون عن رؤساء الطرابلسيين والبرقاويين، وأين يجتمعون، خوفاً من أن يدبر هؤلاء مؤامرات لأن جواسيسهم ينقلون أخبار كاذبة عن هؤلاء الرؤساء. فيدعون أن عبد الحميد العبار، وأحمد الشتيوى، وصالح الأطيوش وأحمد المريض وغيرهم يجتمعون تارة فى حلوان، وتارة فى الجيزة.

وفى ٣٠ مارس، وبعد انقضاء الزيارة، بعث أحمد السويحلى من الإسكندرية إلى بشير السعداوى برسالة على جانب كبير من الأهمية، إذ أنها تصف بالتفصيل الإجراءات التى اتخذتها الحكومة المصرية ضد المهاجرين الليبيين أثناء الزيارة كنا تشير إلى الخطابات المفتوحة التى نشرتها الصحف الشامية على لسان بشير السعداوى وجمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بمناسبة الزيارة الملكية. وفيما يلى نص هذه الرسالة، وهى باللغة الدارجة التى لم نشأ تغيير شىء منها:

حضرة المحترم الفاضل أخينا البشير بك السعداوى... يوم الجمعة الموافق ١٠ مارس تسلمت عدة جرائد شامية وبداخلها مناشير أمير البيان، والجرائد فيها صورة خطاب موجه إلى ملك إيطاليا بارك الله فيكم، وكنا قبل هذا فى غيابات السجن من يوم ١٤ فبراير إلى يوم ٩ مارس ونحن معتقلين فى المحافظة تحت سطح الأرض زيادة على ٥ متر بحيث بقينا معتقلين ٢٢ يوم وفيها زيادة شوية، والسبب هو بمناسبة زيارة ملك إيطاليا إلى الديار المصرية

وكنا آمنين مطمئنين فما نشعر بشيء إلا يوم الأربعاء الموافق ١٤ فبراير قرب المساء هجمت علينا قوة مختلطة طليان ومخبرين وقسم من طرف قنصلية إيطالية وبوليس مصرى وبوصولها إلى محلنا دخلوا على طول البيت لم يشعر أحد بهم حتى دخلوا البيت وكانت قوة كثيرة كأننا مرتكبين أكبر جرم فى الدنيا وكنت أنا ليس حاضراً لأننى فى وجهة ثانية ولما دخلوا البيت وسمع بهم الجيران دخلوا معهم وفى هذه الحالة ضبطوا كل ما وجدوه من الأوراق والجوابات وكل المناشير والجرائد وكان قسم وافى من صنف المناشير البعض مطبوع فى مصر وكل ما طبعت فى الشام وأيضاً وجدوا مسدس وهو نملكه من طرابلس وكان معى من سنة ١٩١٧ من ضمن هدايا الأتراك فى الحرب العظمى ودخلت به القطر المصرى ولم معه خرطوش لأنه ما ألبأش الضرورة لرفعه، وبعد أخذ الغدارة والأوراق فتشوا بيت على خليل أخذوا منه غدارة غير أنه تبعية طليانى ومرخص عليها وبعدها فتشوا بيت حسن الجاويش لم وجدوا شيء وبعدها توجهوا إلى بيت الصغير المريض فتشوه لم وجدوا شيء وفى هذا الأثناء قبض على محمد مفتاح ابن أختى وقبض على ابنتا الشتيوى وعلى الفيتورى عمر، ومحمد عمر، ومحمد حسن الجاويش، ومحمد بن على، وسالم عبد الله وكلهم سواحلية، وقبضوا على الصغير بك المريض وابنه عبد السلام وقبضوا على محمد اعنيب من الشواهد وساقوهم إلى السجن وهذا كله وأحمد الشتيوى مختلف ويومها بات خارج المحل لأنه ما يمكنش بتقرب إليه من كثرة المخبرين والبوليس السرى على البيت والمعادة كبيرة والميت كلبه ويوم الخميس صباحاً توجهت إلى المحافظة ولما قابلت مفتش الأجانب وهو المأمور الموظف من طرف الأجانب وطلينانى الأصل إنما طيب وفى مقتها حضر معاون القنصلية الطليانية وسألنى المفتش عن الأوراق والجوابات والمناشير والغدارة وفيهم بعض من جوابتكم كلها اعترفت بها وسألنى على حوالة الخمسة عشرة جنية اعترفت بها ولعدها حولونى فى دار استراحة وخرج المحبوسين الذى قبض عليهم يوم الأربعاء وضمونا إلى بعضنا وشرعوا

فى تقييدنا كل أحد باسمه وهل هو حماية أو رعية كلنا كتبنا رعية إلا عبد
 السلام المريض وعلى خليل وبعدها أخذونا إلى محل التصوير . " وبعدها
 حضروا لنا عربية حكومية مخصوصة للمحاييس وشحنوها فيها إلى كركون
 مينا البصل تبع الحكومة المصرية . ووقتها كأنا انطلقنا لأنه قبلها خايفين
 يحولونا إلى القنصلية ولما بلغنا مأمور الكركون المذكور دخلنا على معاون
 ووقفنا قدامه أول مقابلته لنا سب جد والدنيا بسبب أحد الرفاق وضع يده على
 الدرايزين وصار العذاب فينا فى البوكس البعض إمصب (يعنى واقف)
 والبعض إمقعمز (يعنى جالس) من الساعة ١٢ إلى الغروب وأخذ علينا كفالة
 من شيخ الحارة وبعدها أحمد الشتيوى رجعوه إلى المحافظة بحيث دخل
 السجن الذى تحت الأرض، وباقى المسجونين باقى فى الكركون الذى هو مينا
 البصل على أوحش حالة لأنهم كلهم فى سوارى (ومعناها قمصان جمع
 قميص) وعلى البلاط وسيقوا (يعنى غسلوا) لهم السجن بالمية . ويوم الجمعة
 رجعوههم إلى المحافظة بحيث جمعونا على بعضنا إلى نصف النهار وبعد
 نصف النهار أطلق الصغير بك المريض وابنه عبد السلام وعلى خليل لأنهم
 حمايات وأطلق محمد اعنيب وعلى إبراهيم وسالم عبد الله وأبقوا معنا فى
 السجن أحمد الشتيوى، محمد مفتاح، فيتورى عمر، محمد عمر، محمد
 حسن، محمد ين على الدرناوى، بحيث أخذ اسم السويحلى، ومكثنا فى
 الحبس من ١٥ فبراير إلى ١٠ مارس يعنى ٢٣ يوماً . وقرب رجوع الملك من
 مصر إلى الإسكندرية رجع عبد السلام المريض، وعلى خليل، وعمر بودبوس
 وبو بكر بودبوس للسجن معنا لأنهم فى هذه الأثناء مراقبين وبقوا معنا ٥ أيام
 فى السجن حتى خرج الملك من الميناء يوم الخميس ٩ مارس تركونا مساء
 الساعة ثانية ليلة الجمعة ويوم السبت رجعنا إلى المحافظة وقابلت الحاكم
 الطليانى الذى كنا محبوسين من طرفه تسلمت منه الأوراق والدفاتر الذى
 ضبطوها من البيت وبالفعل سلمه إلى بتمامها عدا قسم المناشير بقى بيده أو
 ضاعت وبعض جوابات باسمك وجوابات الشيخ السنيوسى بن صالح لم

نعلم عليها ضاعت أو بقيت بيده. وسألت على الغدرية (أى الغدارة) أفادنى
بيكونه حولها إلى النيابة المصرية ولما رجعت مساء يوم السبت قابلتنى شيخ
الحارة وبلغنى صورة الحكم لكونها النيابة حكمت على غيابياً بجزاء ١٥٠
قرش فى محكمة قسم اللبان ويوم الأحد ١٢ مارس رجعت إلى النيابة
وعارضت الحكم لكونى ما حضرتهش وطلبت مهلة الجلسة ما قبلش
الباشكاتب وأفادنى لأنك كنت هارب وأرزل خلق الله الموظفين المصريين من
أصغرهم إلى أكبرهم وكأنهم يظنون ما فيش بلدان إلا مصر ولا عرب ولا
حكمة إلا فى مصر. كل كلام موظفيهم لنا بالغلظة والرزالة والغلطسة
الفارغة، وغاية ما فى الأمر قبل المعارضة فى التهمة وخلقى الجلسة من يوم
الأحد نصف النهار إلى يوم الاثنين الساعة تسعة صباحاً وهذا حد المكر على
كأننى قاتل جده وأفادنا إن شاء الله يزيدوك قسم وأفر من الجزء لأنه عارف
لكوننا مغضوبين من طرف الطليان وبيغوا نقتلوا ملك إيطاليا. والحال مهما
كانت الحالة للطلليان قابلونا مقابلة طيبة جداً بالنسبة إلى الموظفين المصريين
الملتجئين إليهم، لأنهم الطليان ماسبوناش والمفتش طيب جداً.

وأما المصريين يعنى الحكومة أولاًمكنوا الطليان من تفتيش محلاتنا
ونحن رعاياهم، ثانياً هجموا علينا هجوم مجرمين وممكنهم يبلغونا بالحضور
فى أى وقت على يد شيخ الحارة أو يطلبونا بالتذاكر لأننا قرييين من المراكز،
وبعض المراكز لا يتجاوز بعدها علينا ١٠٠ متر (ولكنهم) عاملونا بمعاملة
عدائية وبمعاملة مجرمين وأشقياء، من عسكريهم إلى المأمور إلى النائب إلى
الكاتب (وكان) بقانا معهم خطر عظيم ونحن لم نشعر به وبأنفسنا ولا حول
ولا قوة إلا بالله. كل اسم مغربى سواء فى الجيزة أو الفيوم راقبوههم
وغفروهم ما عدا أحمد الشتيوى ومن يليه أخذوه فى حبس تحت
الأرض....

هذا، أما الخطاب الموجه إلى ملك إيطاليا، والذي جاء ذكره فى هذه

الرسالة، فقد نشرته الصحف في الشام وفلسطين. وكانت (الجامعة العربية) الصحيفة التي تصدر في القدس، لصاحبها منيف الحسيني، من بين الصحف التي نشرت هذا الخطاب الموجه " لجلالة ملك إيطاليا من جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى " وذلك في عددها الصادر في ٢٩ شوال ١٣٥١، الموافق ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٣٣. وقد نقلنا عن (الجامعة العربية) نص هذا الكتاب وهو بتاريخ ١٩ فبراير.

أرسلت إلينا جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى في دمشق صورة الكتاب الذى أرسلته لجلالة ملك إيطاليا لمناسبة زيارته للقطر المصرى ننشره فيما يلى:

صاحب الجلالة ملك إيطاليا المعظم

يا صاحب الجلالة

إن جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى تنتهز فرصة زيارة جلالتكم إلى مصر - ذلك البلد الإسلامى العربى والقطر الشقيق المجاور لطرابلس المعذبة - لتتقدم إلى جلالتكم بشرح ما يلاقىه الشعب الطرابلسي البرقاوى من ويلات السياسة التى تتمشى عليها الحكومة الإيطالية فى ذلك البلاد الشهيد ولتعرب عن أمانيتها التى هى أمانى الشعب الطرابلسي البرقاوى بأجمعه.

إن الشعب الطرابلسي البرقاوى لم يركب متون الخطوب ويخوض غمار الحروب زهاء إحدى وعشرين سنة لأنه يرى فى مصارعة الموت لذة أو لأنه لا يعرف للحياة قيمة وإنما حمله على اقتحام الموت ما هو أمر منه، ولا أمر من الموت إلا الذل والهوان.

إننا يا صاحب الجلالة شعب عربى عريق فى المجد ولنا من تاريخنا الحافل بجلال الأعمال ما يجعلنا نرفع الرأس عالياً يوم تافخر الشعوب بتاريخها المجيد. وهذا ما ستفز هممنا لمجابهة الأخطار واقتحام الشدائد التى كلفنا خسائر عظيمة فى الأنفس والأموال ولقد برهنا على صلتنا بماضيينا

اللامع وعلى ما فى نفوسنا من عزة وإباء بأدلة سجلت وقائعها على صفحات الكون بدمائنا البريئة. ولا يخفى أن التغلب على الغرائز الموروثة من الأمور الصعبة المنال.

ولئن كان الطارلسيون البرقاويين فى داخل بلادهم لم يرفعوا إليكم اليوم أصواتهم بالشكوى فليس ذلك لأنهم راضون بحالتهم الحاضرة وإنما القوة القاهرة قد كمت أفواههم وأحكمت الخناق فى رقابهم ولم تترك لهم مجالا لرفع أصواتهم من أحكام لا قبل للبشرية على تحملها.

إن الاضطهاد الذى انتاب شعبنا طول هذه المدة قد رن صداه فى جميع الأقطار الإسلامية وجعل فى قلوب المسلمين عامة والناطقين بالضاد خاصة أثرا بليغا من الحزن على ما يلاقيه إخوانهم فى تلك البلاد من التيارات والشدائد. وبالرغم عن إذاعة هذا الشعور الذى جاش فى قلوب المسلمين عامة لم يتغير شئ من سياسة يراد بها إفناؤنا.

فيا صاحب الجلالة، ليس المقام مقام شكوى وتبسط فى القول فى هذا المعنى، وإنما أحببنا أن ننتهز هذه الفرصة لتتقدم إلى جلالتك معبرين عن أمانينا التى لم تستطع القوة أن تصدنا عن المطالبة بها، تلك الأمانى التى أقرها الشعب الطرابلسى البرقاوى فى مؤتمر (غريان) وطالب بها وفدنا فى عاصمة ملككم من بضع سنين. وإن توالى الأعوام وتعاقب المحن لم تزدنا إلا إيماناً بأحقية تلك الأمانى التى لا يهدأ لنا بال ولا يستقر لنا حال دون الوصول إليها. وكيف تطمئن نفوسنا وحقوقنا مغصوبة وحريتنا مسلوبة وليس لنا فى تصريف الأمور التى تعود إلينا أقل مشاركة ورأى.

إن الإدارة العسكرية الشديدة الوطأة التى تنفذ فى بلادنا اضطربت من مئات الألوف منا على هجر بلادهم وتفضيل الآم الغربية على الإقامة فى وطن لا ترعى لهم فيه حقوق ولا تصان لهم فيه حرية.

وإن هذه الجموع المنتشرة فى مختلف البلاد الإسلامية لا يوم لم تفتقر عن

الحنين إلى بلادها ومنبت عزها ومعادها رغم ما تلاقيه من الآلام والمحن خصوصاً عندما تشاهد الشعوب العربية المغلوبة على أمرها تتمتع بشيء من الحرية وتندرج للوصول إلى السيادة القومية، وإننا نرى أنه ليس من الحكمة أن تظل حكومة جلالتكم سادرة في اتباع سياسة لا تلتئم مع روح العصر الذى أصبحت فيه الأمم تتباهى بنيل أقصى غاية فى الحرية والاستقلال، ولا يعزب عن جلالتكم أن الجهود التى تصرفونها لتأسيس العلاقات الحسنة مع الشعوب الشرقية يتعذر الوصول إليها مع استمرار الحكمة الإيطالية فى سياستها الشديدة بطرابلس - برقة التى يتألم بها جميع الشرقيين. لذلك نؤمل أن تكون زيارة جلالتكم لذلك القطر المجاور لبلادنا فاتحة خير لعهد جديد يسود فيه السلام والطمأنينة بين الشعبين بنيل أمانينا القومية. وتفضلوا بقبول أسمى عبارات التعظيم والتبجيل.

رئيس جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى

بشير السعداوى

٢٤ شوال سنة ١٢٥١

وذاع خبر هذا الكتاب المفتوح "لجلالة ملك إيطاليا" بين أوساط المهاجرين الليبيين فى مصر. وكان هؤلاء - وعلى نحو ما أشار إلى ذلك أحمد السويحلى فى رسالته إلى السعداوى فى ١٠ فبراير - قد اعترضوا إعداد كتاب أو نشره يقدمونها إلى الملك. ولكن إذاعة كتاب بشير السعداوى جعلتهم يكتفون بهذه الخطوة، وفى رسالة من أحمد المريض فى غضون شهر مارس ١٩٢٣، يوجز (المريض) أسباب عدولهم عن فكرتهم فى قوله:

... كنت اتفقت مع أخونا الفاضل عبد الرحمن بك عزام على كتابة خطاب لملك إيطاليا أثناء زيارته القطر المصرى وأن يكون ذلك الخطاب بمطالبنا كاملة، ويوقعها معظم الأعيان الموجودين بالقطر المصرى. لكن عند إطلاعنا على الطاب الذى دبجه يراعكم اكتفيناه به، أولاً: لأنه عبر عما يكنه كل طرابلسى، ثانياً: نعتبر أن لجنة الدفاع التى ترأسها هى من الوجهة الأدبية

كوفد موطل من الأمة الطرابلسية لها ما للفسود الرسمية من التفويض والتعبير عن أمانى البلاد والطالبة بحقوقها. اطلعت على الخطاب الذى وجهتموه لرئيس الوزارة الإيطالية (وسوف يأتى ذكر ذلك فى موضعه) وقد أرسلت الصورة التى عندى لجريدة البلاغ الغراء لنشرها. إلى أن يقول: "اطلعنا على الخطاب الموجه من سماحة مفتى القدس أمين الحسينى لجلالة ملك مصر، فنرجو أن تكتب لسماحته وتشكره بالنيابة عن الطرابلسيين".

ولما كان السعداوى من أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى بالقدس، وكانت القضية الطرابلسية البرقاوية من القضايا التى استأثرت باهتمام المؤتمر من حين انتقاده، فقد قام المؤتمر باسم رئيس لجنته التنفيذية سماحة مفتى القدس بتوجيه كتاب كذلك، ولكن فى هذه المرة إلى "جلالة ملك مصر" - أحمد فؤاد الأول - يسأله أن يتوسط لدى ملك إيطاليا بمناسبة زيارته لمصر كي يرفع الظلم عن أهل ليبيا، هذا الكتاب نشرته الصحف فى البلاد الشامية وفلسطين، ومن هذه صحيفة النداء البيروتية، وفيما يلى نص الكتاب منقولاً عن عدد هذه الصحيفة الصادر فى ٢٤ آذار (مارس) ١٩٣٣:

كتاب أمين الحسينى إلى جلالة ملك مصر حول حالة أهالى طرابلس الغرب بمناسبة زيارة ملك إيطاليا مصر:

بعث إلينا رئيس جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى بنسخة من كتاب رفعه سماحة أمين الحسينى مفتى القدس إلى جلالة ملك مصر لمناسبة زيارة ملك إيطاليا لذلك القطر وهذا نصه:

حضرة مولانا صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم أيده الله واخلد ملكه آمين.

أرفع لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك أوفر الإجلال والإخلاص والتعظيم. وبعد فإن الروابط الدينية التى تربط المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها مهما اختلفت لغاتهم ونات ديارهم تجعلهم جميعاً يشعرون بشعور

واحد كما وصفهم الرسل الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بقوله: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجيد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"

وإن هذا الشعور الديني ليفيض في صدور المسلمين كلما ذكروا المصائب تصب على أبنائهم القاطنين في طرابلس الغرب وبرقة والمظالم تنزل بأرضهم كل حين بلا ذنب اجترحوه أو إثم ارتكبه. لذلك وبمناسبة وجود جلالة ملك إيطاليا في ضيافة جلالته.

رأى المكتب الدائم للمؤتمر الإسلامي العام أن هذه أنسب فرصة ليرفع فيها رجاءه الحار إلى سدتكم الملوكية العلية ملتسماً أن تفضلوا بشمول مسلمي طرابلس - برقة بعطفكم السامي وإفادات نظر جلالة ملك إيطاليا إلى قضيتهم هذه عله يأمر برفع الظلم عنه اكتساباً لقلوب أربعمئة مليون مسلم متضامنين معهم في السراء والضراء ويرجون لهم فرجاً قريباً وخلاصاً عاجلاً مما هم فيه من عسف وجور.

وإنما إزاء ذلك نبتهل إلى الله عز وجل في أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين أن يحرس مولانا صاحب الجلالة ملك مصر المعظم وينصره نصراً عزيزاً ويصون الكنانة ويرعاها بعين عنايته وينفع بطول بقاء جلالته المسلمين ويؤيد به الدين المبين آمين.

رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي

أمين الحسيني

(ب) السعداوى والعمل ضد إيطاليا:

والذي يلاحظ أن "كتاب" بشير السعداوى إلى ملك إيطاليا كان معتدل العبارة. ويدل على رغبة صحيحة في الوصول إلى حل ودى للقضية الطرابلسية البرقاوية بطريق التفاهم مع الحكومة الإيطالية. والذي تجدر

ملاحظته كذلك أن الأسس التي أراد السعداوى، وأراد المهاجرون، أن يقوم الاتفاق عليها، كانت لا تزال هي نفس الأسس التي بنيت عليها قرارات مؤتمر غريان المعروف قبل ذلك بثلاث عشرة سنة. والتي تضمنها الميثاق القومى للشعب الطرابلسى البرقاوى، وأهمها إنشاء الحكومة الذاتية فى ظل الإمارة الإسلامية التي كان واضحاً أن الأمير السيد محمد إدريس السنوسى هو أميرها المنتظر، فى اعتبار بشير السعداوى الذى بقى متمسكاً بهذه الإمارة السنوسية وضرورتها من أجل وحدة البلاد، ولو أنه كانت هناك أقلية فى القطر المصرى من المهاجرين الذى كانوا لا يريدون الإمارة السنوسية. وأظهروا انصرافهم من هذا الوقت البعيد عن تأييد الأمير السيد محمد إدريس. ولم يبذل انصار الأمير فى هذه البلاد وقتئذ شيئاً من الجهد لاستمالة هذه الفئة إليهم. ولم يكن من برنامج المهاجرين سواء فى سوريا أم فى مصر أم فى غيرهما من الأقطار، والذين كانت اللجنة، ثم جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى تعبر عن آرائهم، ويتولى بشير السعداوى - رئيس هذه الهيئة - ترويج الدعوة للمطالب الوطنية - نقول لم يكن من رنامجهم الانفصال عن إيطاليا، بل أرادوا عقد معاهدة معها، تؤمن لهم حرياتهم وحقوقهم كأمة عربية إسلامية تريد "المشاركة" فى تدبير شئونها، وأن يكون لها "رأى" وشأن فى حكومة بلادها، بينما تكفل المعاهدة - من ناحية أخرى - صيانة المصالح الإيطالية. ولم يجد الزعماء والقادة فى تلك الحقبة من التاريخ أى تعارض بين الموافقة على إبرام مثل هذه المعاهدة والمطالبة "بالاستقلال" و"السيادة القومية"، وكاتب غايتهم المباشرة أن يجرى حل القضية الطرابلسية البرقاوية على خطوط مشابهة لما جرى عليه حل القضية العراقية، بتنظيم علاقة العراق مع بريطانيا معاهدات أكتوبر ١٩٢٢، ويناير ١٩٢٦ وديسمبر ١٩٢٧، ثم فى ٣٠ يناير ١٩٣٠، وهذه المعاهدة الأخيرة هى التى مكنت من دخول العراق إلى عصبة الأمم فى أكتوبر ١٩٣٢.

ولم يكن الغرض إذاً من الدعاية الواسعة التى أدار حملتها السعداوى،

يؤازره شكيب أرسلان، ضد إيطاليا، والتشهير والتدديد بفظائعها فحسب. ولكن - كما ذكر السعداوى نفسه - إرغام الطليان على قبول المباحثة مع الوطنيين، للوصول معهم إلى اتفاق يحقق الغاية التى ذكرناها، أى إجابة المطالب التى ذكرها (الميثاق القومى).

ولقد ترتب على العمل من أجل هذه الغاية، أن صار السعداوى دائماً متهيئاً إما لتوجيه الدعوة إلى الحكومة الإيطالية "لتدخل فى مباحثات مع ممثلى المجاهدين القدامى الذين تغربوا من بلادهم، ويريدون العودة إليها فى ظل حكومة وطنية قومية، ينهض دليلاً على هذا التهيؤ خطابات السعداوى لرئيس الوزارة الإيطالية السنيور موسوليني، وكتابه المفتوح أخيراً إلى ملك إيطاليا. وإما لتلقى أية مقترحات قد تأتى من جانب الحكومة الإيطالية لتقليب وجوه الرأى فيها وبحثها، وآية ذلك تلك المفاوشة الطويلة التى دارت، وكان الوسيط فيها الأمير شكيب بينه وبين إيطاليا - وسوف يأتى ذكر هذه المفاوضة مفصلاً - وإما لأن يستبدل (بحرب الأقاليم) فعلاً مادياً، أى عمليات عسكرية على الحدود الليبية. قد يكون النجاح نصيبها فتحرر بلاده نهائياً من ربة الاستعمار الإيطالى، وذلك إذا أخفت محاولات المفاوضة، وأدت التقلبات السياسية فى أوروبا إلى نشوء أزمة تنذر بقيام الحرب ضد إيطاليا الفاشيستية، أو تسرع بإشعال الحرب فعلاً.

ولقد كان فى غضون الأعوام الثلاثة: ١٩٣٣، ١٩٣٤، ١٩٣٥، أن اجتمعت الأسباب التى جعلت ممكناً أن يضع السعداوى موضع الاختبار وفى وقت واحد كلتا الوسيلتين اللتين ذكرنا أنه كان متهيئاً لاستخدامهما فى الوصول إلى الغرض الذى استهدفه من جهاده الطويل: ونعنى بذلك (المفاوضة) أو (الفعل المادى) للوصول بطريقتيهما إلى حل لقضية طرابلس برقة. وأما مرد ذلك فإلى حالة التوير السياسى التى سادت فى القارة الأوروبية خلال أكثر السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى. والتى كان من عواملها - ولا ريب - (النظام الفاشيستى) تحت ديكتاتورية موسوليني.

ونحن لا يعنينا من الأحداث السياسية التي وقعت في هذه المدة إلا ما كان منها ذا أثر في توجيه نشاط بشير السعداوى وجماعته في الكفاح ضد إيطاليا. وأول هذه الأحداث السياسية كان توبر العلاقات الذي استمر قائماً، وإن كان بدرجات متفاوتة - بين يوغسلافيا وإيطاليا الفاشيستية حتى وقع الفريقان ميثاق ٢٥ مارس ١٩٣٨. وأما الحدث الهام الثانى فكان العدوان الإيطالى على الحبشة. وقد ترتب على توتر العلاقات اليوغسلافية الإيطالية، أن جد ما جعل السعداوى يعقد آمالاً كبيرة على إمكان القيام بفعل ماضى ضد الحكم الفاشيستي فى ليبيا. بعد (حرب الأقاليم) الطويلة السابقة.

بينما أن العدوان الإيطالى على الحبشة كان له أثر مزدوج، من حيث أنه جعل الإيطاليين أثناء مرحلة المناشوات التى سبقت الحرب خصوصاً، ثم خلال الحرب ذاتها. يميلون إلى الوصول إلى تفاهم مع المجاهدين فى المهجر، على أمل التخفيف من شدة حملة هؤلاء عليهم أو وقفها كلية، فى وقت تعالت ضدهم فيه صيحات الاستنكار من كل جانب والتنديد بعدوانهم الوحشى على الحبشة. ثم إن الطليان كانوا يريدون من اتفاقهم مع الوطنيين المجاهدين فى المهجر - إذا أمكن الاتفاق - الاحتياط، أكثر ما يكون الاحتياط من ان تنبت مشكلات فى طرابلس برقة، حينما كان التذمر سائداً من تجنيد أهل هذه البلاد وإرسالهم إلى ميادين القتال فى الحبشة، لو أن نشاط السعداوى وصحبه بقى على حدته، أو عمدت إحدى الدول المناوئة للفاشيست - والتي يغضبها عدوانهم على الحبشة - إلى تحريض هؤلاء الوطنيين فى المهجر على القيام بحركة عسكرية على الحدود الليبية، وإمدادهم بالعتاد والمال اللذان قد يكفيان لا لضمان هذه الحركة فحسب، بل ولإثارة الشغب وربما لإشعال الثورة فى داخل ليبيا ذاتها. فأبدت حكومة موسوليني لكل هذه الأسباب إذاً رغبتها فى غضون ١٩٢٤، ١٩٣٥ فى الوصول إلى تفاهم مع بشير السعداوى وصحبه. وأما الأثر الآخر لهذه المسألة الحبشية فهو أنها قد بعثت فى صدر السعداوى الأمل الذى ظل يداعبه طويلاً فى أن ينتقل

الجهاد من (حرب الأقاليم) إلى حرب الحديد والنار، حتى يتسنى له أن يجلب المغتصبين من الأرض التي اغتصبوها. وأن يكيل لهم بالكيل الذي كالوا به. وذلك كان نفس الأثر الذي أوجدته مسألة توتر العلاقات بين يوغسلافيا وإيطاليا: الاعتماد على عمل إيجابي أكثر من التهيؤ لمفاوضة سياسية.

ولقد سارت جنباً إلى جنب في بعض هذا الشوط مسألتا العلاقات اليوغسلافية الإيطالية والحبشة الإيطالية. وبالرغم من التوتر الذي ظل يسود العلاقات الأولى، فإن هذا التوتر لم يصل إلى درجة فصم العلاقات نهائياً بين يوغسلافيا وإيطاليا وقيام الحرب بينهما. وكانت قصة تأثر السعداوى في خطته بهذا الحادث قصيرة. وصار طبعياً أن يشغل تفكيره ويستغرق نشاطه العدوان الإيطالي على الحبشة، وكانت قصة هذا العدوان قصة أطول ومفعمة أكثر بالحوادث.

ومع أن هاتين القصتين تسيران إلى جانب بعضهما في بداية مرحلتيهما، فقد آثرنا أن نعالج كلا منهما على حدة بقدر الإمكان. حتى يسهل تتبعهما. فنبدأ بالمسألة اليوغسلافية الإيطالية، وننبعها بالمشكلة الحبشية الإيطالية، ويتفق هذا الترتيب كذلك مع الترتيب الزمني للحوادث لدرجة كبيرة.

فمن المعروف أن إيطاليا قبل الانقلاب الفاشيستي كانت صلاتها بالدولة الناشئة الجديدة - يوغسلافيا - صلات ود وصداقة. فأبرمت بين الدولتين معاهدة صداقة وسلام في ربالو Rapallo في ٢ فبراير ١٩٢١، وترتب على ذلك أن أصبحت (فيومي) مدينة حرة بعد أن كان قد احتلها الشاعر الإيطالي المشهور جبريل داننتزيو d. Annunzio الذي طرد منها (في يناير من السنة نفسها)، ولكن ما إن وصل موسوليني إلى الحكم (في أكتوبر ١٩٢٢) حتى راح يصف معاهدة ربالو بأنها اتفاق يبعث على الرثاء. وكان الفاشيستي قد احتلوا (فيومي) منذ مارس، وأخيراً أبرمت معاهدة جديدة بين يوغسلافيا

وإيطاليا فى رومة فى ١٩٢٤ لتسوية الحدود اليوغسلافية الإيطالية نهائياً وبمقتضاها تركت (فيومى) لإيطاليا. ولم تنه هذه التسوية المشاكل بين الدولتين، لأنه سرعان ما انتهجت إيطاليا نحو (ألبانيا) الدولة الجديدة الأخرى، سياسة ترتب عليها توتر العلاقات بين يوغسلافيا وإيطاليا بصورة مستمرة تقريباً. فقد ساعدت يوغسلافيا أحمد زوغو فى أول الأمر حتى استولى على السلطة فى ألبانيا فى ديسمبر ١٩٢٤، ولكن أحمد زوغو بمجرد انتخابه رئيساً للجمهورية الألبانية فى فبراير ١٩٢٥ ولمدة سبع سنوات جعل كل اعتماده على إيطاليا، فنالت هذه امتيازات مالية وسياسية كثيرة حتى غدت إيطاليا المسيطرة على ألبانيا، الأمر الذى أزعج يوغسلافيا، وأدى إلى وقوع الاحتكاكات على الحدود اليوغسلافية! مما ترتب عليه بدوره أن قطع أحمد زوغو كل علاقة مع بلغراد. ولما كانت إنجلترا فى اجتماع عقده وزير خارجيتها (أوستن تشمبرلن) مع (موسوليني) فى ليفورنه فى سبتمبر ١٩٢٦ قد صرحت بأن شئون ألبانيا لا نعينها، فقد عقد أحمد زوغو مع إيطاليا ميثاق تيرانا Tirana فى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦، الذى نص على التعاون بين الدولتين (لمدة خمس سنوات) على أساس المحافظة على الوضع السياسى والقانونى والإقليمى القائم فى ألبانيا. ولم تفد احتجاجات يوغسلافيا الشديدة على هذا الميثاق شيئاً فى إنجائه، كما لم يفد قطع العلاقات كذلك بين البلدين. بل إن معاهدة جديدة لم تلبث أن أبرمت فى (تيرانا) فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٧ تؤكد المعاهدة الأولى، وتكفل تجديد المحالفة بين إيطاليا وألبانيا كل عشرين عاماً مرة. وفى سبتمبر ١٩٢٨، انتخب المجلس الوطنى فى تيرانا أحمد زوغو ملكاً على ألبانيا، ومن ذلك الحين عظم هياج الخواطر فى يوغسلافيا ضد ألبانيا وإيطاليا، وتوترت العلاقات بين بلغراد وروما حتى بات يسخسى فى السنوات التالية أن تبلغ حدة الأزمة الدرجة التى نفضى إلى قيام الحرب. واستمر الحال على ذلك إلى أن سعت إيطاليا نفسها عندما بدأت تنكدر علاقاتها مع إنجلترا خصوصاً، للتحالف مع يوغسلافيا، فعقد وزير خارجيتها

(شيانو) Ciano مع (ستويادينوفيتش) Stoyadinovitch اليوغسلافي معاهدة في ٢٥ مارس ١٩٣٧، اعترفت بموجبها إيطاليا بسلامة يوغسلافيا الإقليمية، وهذا إلى جانب التزام الجانبين الحياد إذا اشتبك أحدهما في حرب مع طرف أو أطراف أخرى، إلى غير ذلك.

وكان في أثناء اشتداد حالة التوتر هذه في العلاقات بين يوغسلافيا وإيطاليا، وعلى وجه التحديد في الشهور الأولى من سنة ١٩٣٣. أن عرض أحد الوكلاء اليوغسلافيين على بشير السعداوى في دمشق، باسم الحكومة اليوغسلافية أن تمدّه هذه بالسلاح والعتاد إذا هو كان مستعداً للقيام بحركة إيجابية على الحدود الليبية ضد الحكم الفاشيستي في بلاده.

فقد حدث عند اشتداد حملة التشهير بفضائح الطليان في ليبيا. وكان السعداوى في اليوم الذي تحدد للاجتماع بالجامع الأموى بدمشق، لقراءة منشور "الاستغاثة" - الذي مر بنا ذكره (في ٢٧ أبريل ١٩٣١) - في طريقه إلى الجامع ليخطب الناس فيه وليخرج بهم منه في مظاهرة كبيرة أن أوقفه أحد رجال المباحث في دمشق، ويدعى (كراييت) - وهو أرمني الأصل، ولا يزال ساعة كتابة هذه السطور حياً يرزق - وانتحى به ناحية ليلغّه أنه جاءه من قبل المندوب السامي الفرنسي، ليحذره إذا هو قام بالمظاهرة ووقع في أثنائها أى حادث، اعتبرته السلطات مسئولاً عن ذلك. فلم يعبأ السعداوى بهذا التحذير، وأجاب الرجل بأن عليه أن يبلغ حكومته أن في وسعها أن تفعل ما تشاء. وأن تحذيرها له لا يهمه في كثير أو قليل. ومضى السعداوى في سبيله، واحتشد الناس في الجامع الأموى، وخطب فيهم السعداوى كما خطب غيره، وخرجت المظاهرة - وقد أشرنا إلى ذلك كله في موضعه - ولم يقع حادث. وكان (كراييت) من المترددين على إحدى الشخصيات الغربية التي ظهرت في حياة المجتمع السوري السياسية والأدبية في هذه الحقبة، ونعني بها شخصية محمد العصيمي باشا. وكان العصيمي - رحمه الله - أصلاً من نجد، واشتغل بالتجارة في البصرة ونشط ضد الإنجليز أيام الحرب

العظمى الأولى، ثم التجأ إلى الفرنسيين وأقام في سوريا. كان قصيراً بالغ القصر، ولكنه على درجة كبيرة من الدهاء، يعتمد في المحافظة على نفوذه ومركزه في البلاد، يجعل الفرنسيين من ناحية، والأهليين من ناحية أخرى يعتقدون جميعاً أنه على صلات وثيقة مع الأولين، باعتبار أن هذا التظاهر يزيد من ثقة الفرنسيين بإخلاصه لهم، فيتقوى شرهم ويظفر منهم ببعض الریح، ويستميل الأهين إلى مهادنته، أو يجعلهم يخشون بأسه، فيبقى - على زعمه - مرموق المكانة بينهم مهاب الجانب منهم. وكان بعد حادث الجامع الأموري بأيام. أن تقابل بشير السعداوى مصادفة مع (كراييت)، فطلب هذا أن يصفحه تقديرًا للشهامة والرجولة والوطنية التي أبداهها جميعاً بشير السعداوى في موقفه ذلك اليوم. وقال (كراييت) إن تمسكه "بالوظيفة" من أجل لقمة العيش لا يعنى أنه ينكر الوطنية ولا يعترف بالرجولة. وكان سهلاً بعد هذه المقابلة والمصافحة أن يسعى (كراييت) مرة أخرى بعد حوالى العامين للاجتماع بالسعداوى. وكان يصحبه في هذه المرة رجل يوغسلافي، عرف السعداوى أن (كراييت) متزوج من ابنته، ليعرض على السعداوى مشروعاً للعمل الإيجابي ضد إيطاليا.

وقد دارت بين الاثنين مباحثات هامة، وكانت الفكرة الأولية أن تأتي الحركة ضد الطليان في طرابلس برقة على الحدود الغربية من جهة تونس، وأن يتولى السعداوى نفسه قيادة العمليات العسكرية بهذه الجهة. وكان ظاهراً في الوقت نفسه أن البدء في تنفيذ هذه العمليات الحدودية مرتين بقيام الحرب بين يوغسلافيا وإيطاليا، وهي حرب كانت تنذر النذر بسبب توتر العلاقات المتسمة بين الدولتين أنها وقتئذ لا ريب واقعة، وقد سلم السعداوى هذا الوكيل اليوغسلافي كتاباً يذكر فيه استعداداته للعمل، كي يحمله إلى حكومته في بلغراد. وسافر الوكيل فعلاً. وأجاب على الرسالة التي حملها معه بكتاب فيه أن حكومته مهتمة جد الاهتمام بالمسألة، ووعده أن يكتب فور تقريرها البدء في العمل.

وكان بسبب هذه المباحثات إذًا، أن أخذ السعداوى يهوى أذهان "المجاهدين" في مصر وتونس خصوصًا، للعمل الإيجابي، فبعث بالكتب - التي أن أثبتنا أكثر أجزائها - إلى رئيس الفرع في تونس محمد أفندى شكرى، وإلى الشيخ محمد عباس المصراتى، ثم إلى محمد الفكينى فى قابس، ففى رسالته إلى محمد الفكينى فى ١٢ مايو ١٩٣٣ يقول له: "يمكننا أن نظمئنكم بأننا لم نال جهدًا فى اتخاذ الوسائل التى تخرجنا من هذا المأزق لساحة عمل يوصلنا إلى ما تصبو إليه نفوسنا فى إعادة وطن منهوب وحق مسلوب... ولا يبعد أن تظهر لنا بارقة أمل لهذا العمل... إننا لم نخرج من الوطن لتترك العدو يسرح ويمرح فيه بدون أن نفكر فى إعادته". وفى رسالته إلى محمد عباس فى ٢٥ مايو: "إننا وإن كنا نسعى فى الدعاية والنشر ونشهر بعدونا... هدفنا أسمى من ذلك والغاية التى نرمى إليها هى انتهاج طريقة توصلنا إلى إرغام أعدائنا على الاعتراف بحقوقنا وأمانينا القومية. وقد طرقت الأبواب التى نؤمل أن يأتى منها الفرج القريب لأمتنا"، وفى رسالته إلى محمد شكرى فى نفس التاريخ: "... وإننى أصارحكم بأننا آخذون فى تهيئة وسائل هامة إذا تكللت بالنجاح. ربما تقدم فى شأنها لطرفكم بالذات لأجل اتخاذ خطة حاسمة نسير عليها جميعًا.

ولعل أكثر كتب السعداوى توضيحًا لهذه المسألة - ولا نقول أكلمها، لأن من المتعذر تناول مثل هذه الموضوعات تفصيلًا فى المراسلة - كان كتابه إلى أحمد المريض فى ٢١ ذى الحجة ١٣٥١. المواقع ٢٥ أبريل ١٩٣٣. فقد جاء فيه ما نصه:

تحية واحترامًا وبعد فقد تشرفت بكتابك،.. أخى المفضال لا أرى حاجة للإفاضة والاسترسال فى بيان أهمية قضيتنا التى اكتسبت شكلًا ذا بال بين القضايا العربية المعنى بها فى سائر الأقطار وما ذلك غلا بفضل تلك الضحايا التى بذلت فى سبيلها عن صدق وإخلاص. ويمكننى أن أطمئنكم أن

الإيطاليين أخذوا يشعرون بما لحق بهم من الأضرار لافتضاح أمرهم بين العالم
لولكن الغرور الذى تمثلت به أدمغتهم يجعلهم يكابرون أمام المحسوس .
فإيطاليا اليوم قد أصبحت سمعتها مقرونة بكل ما يشين المدنية ويشوه وجه
الإنسانية . بيد أننا لا نكتفى بهذا القدر من العمل الذى نعدّه أضعف الإيمان .
وإنما الواجب يقضى علينا أن نوالى الجهود إلى أن نلحق بهم ضرراً مادياً
يجعلهم يعترفون لنا بحقوقنا التى اتخذوا من قوتهم مبرراً للتصرف فيها ظلماً
 وعدواناً . وإنا نسعى السعى الحثيث ونتحرى الوسائل التى تقرنا من تلك
الأمنية، وقد طرقنا الأبواب الموصلة إليها وأملنا وطيد بأننا سنأخذ الجواب
الذى يثلج القلوب، ويشفى ما فى صدورنا من غل . لا يخفى على سعادة
الأخ أن لإيطاليا دولا يزاحمونها النفوذ ويتربصون بها الدوائر . وأن لكل من
هذه الدول المتزاحمة غاية جعلت فى نفوسهم ناراً من الحقد لن يطفأ لهيبها إلا
بالوصول إليها . فنحن فكرنا وقدرنا هذا الأمر وطرقنا باباً نعتقد أنه يأتينا منه
فرج ، ومتى أنسنا فى هذا السبيل قسباً نبشركم بذلك ونتخذ الخطط اللازمة
للعمل المجدى وإننى لم أفض بهذا السر لأحد عملاً بقول أحكم الحكماء عليه
الصلاة والسلام "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان" . إن تكهرب الجو
السياسى فى أوروبا قد بلغ إلى خد جعلنا نعتقد أن الحرب فيها لا يمكن
اتقاء مهما حاول الساسة من ترقيع فى ذلك الخلق، فالحرب كائنة لا محالة،
وهذه هى الفرصة الوحيدة التى نترقبها لإنقاذ بلادنا . لذلك فقد وضعنا نصب
أعيننا الاستعداد لإعادة الكرة على أعدائنا، وما الحياة إلا (جلاد) ومغامرة
و"ما فاز فى هذا الوجود سوى الذى سمح الزمان له فसार أمامه" . إننى
أعلق على شخصكم الكريم كبير الآمال فى هذا الموضوع الذى لا حياة
للوطن بدونه، فأصبح من الواجب بل من المفروض عليكم وعلى كل وطنى
أن يطمئن الإخوان ويدعوهم للتريث والصبر وأن لا يتخذوا بدعاة سوء
وسماسة الإيطاليين الذين خدعوا أبناء البلاد فيما سبق حتى جعلوا الإيطاليين
يتمكنون منهم بعد أن استحوزوا عليهم، وأن تقاوموا الفكرة التى بدأ دعاة

السوء يثونها بين المهاجرين ليعيدوهم إلى النير الإيطالي الذي سيكون أقسى في معاملتهم الآن منه في أى وقت آخر. أخى العزيز: ترى أئننى تأخرت عن إرسال هذا الكتاب فى وقته - (وهو بتاريخ ٢٩ ذى الحجة ١٣٥١) - وسبب ذلك أن رجلا كبيراً قدم من أوروبا فى هذين اليومين فبعد المذاكرة معه فى خصوص مساعدتنا بالعود طلب منا وضع تقرير ليتوسط لدى حكومته فى تقديمه وقد نظمنا ذلك وقدمنا له وهذا الرجل لو أردنا أن نشد الرجال لعاصمة حكومته لما أمكننا أن نجد واسطة أكبر منه لإفهام رغائبنا إلى حكومته. فأنا قد اتخذت هذه الوجهة لاعتقادى أنها أنجع طريق توصلنا.

غير أن الحرب لم تقم بين يوغسلافيا وإيطاليا، وإن بقيت العلاقات بينهما متوترة ولم يأت من اليوغسلافى فى كتاب آخر إلى السعداوى. ولم يلبث السعداوى أن شغل بالتدبر فى أمر الوسيلة الثانية التى ذكرنا أنه كان لا مناص من اللجوء إليها إذا اتضح أن "العمل المجدى" - أى الإيجابى - متعذر، ونعنى بذلك طريق المفاوضة. ولطريق المفاوضة هذا قصة طويلة، وكان الوسيط فى المباحثات التى جرت الأمير شكيب أرسلان.

ج - الأمير شكيب والمفاوضة مع موسولينى

لقد سبق أن ذكرنا أن مسألتى "العمل المجدى" و"المفاوضة" قد سارتا جنب إلى جنب فى مرحلتهم الأولى: بل إن الصلة كانت بينهما وثيقة من حيث تفاعلهم فى تهيئة ذهن بشير السعداوى لأن يرسخ فيه الاعتقاد بأن الجهاد بالسيف والمدفع قد آن أوانه أخيراً، وبعد كل تلك السنين الطويلة التى ما كان فى وسعه وصحبه خلالها إلا أن يملأوا الفضاء بضجيج الاحتجاجات التى زعقوا بها على إيطاليا. والذى يبدو محققاً أن فكرة "العمل المجدى" كان مبعثها ما جاء فى ذلك الكتاب المطول الذى بعث به الأمير شكيب أرسلان فى ٢ نوفمبر ١٩٣٢ إلى بشير السعداوى، ويضمنه مفتاحاً للشفرة التى أراد شكيب من صاحبه اللجوء إليها عند التخاطب فى الأمور الخطيرة.

ولما كان السعداوى يتوق دائماً (للعمل المجدى)، فقد تبادر إلى ذهنه بسبب (ورقة الأرقام) هذه - عليحد تعبير بشير السعداوى - أن هناك مشروعاً خطيراً، لا يقل عن القيام بالعمل الحربى ضد الطليان فى ليبيا، قد اتصلت إحدى الدول المناوئة للفاشيست فى أوروبا بالأمر شكيب بشأنه، وعلى ذلك فقد أسرع السعداوى يعد خطة لهذا "العمل المجدى" ويبلغها لصديقه الأمير شكيب، ولم يكن يدور فى خلدته أن شكيباً إنما يبعد فى تفكيره كل البعد عن تفكير صاحب. وأنه كان يبغي الوصول إلى تسوية سليمة - وباختيار الحكومة الإيطالية ذاتها - للقضية الطرابلسية البرقاوية، بدلا من امتشاق الحسام لإرغام هذه الحكومة على الجلاء من ليبيا أو على الأقل الاستجابة إلى مطالب الوطنيين. فإذا حاول شكيب إرسال أن يوضح للسعداوى حقيقة مسعاه الذى كان لدى الزعيم الإيطالى موسوليني نفسه وأنه مختلف تمام الاختلاف فى جوهره وتفصيله عن العمل المجدى، الذى يريده ويتوق إليه السعداوى، لم يشأ السعداوى أن ينزل عن تفكيره الأول بسهولة. وكان سبب تشبهه بمشروع العمل المجدى أن المباحثات كانت قد بدأت بينه وبين الوكيل اليوغسلافى بالصورة التى عرفناها. فلم يتخل السعداوى عن مشروعه ويرضى بالمفاوضة فحسب إلا عندما انقطعت عنه أخبار ذلك اليوغسلافى، وتبين أن يوغسلافيا قد امتنعت عن الدخول فى حرب مع إيطاليا. ولم يكن فى قبول المفاوضة انحراف عن الغاية التى جاهد فى سبيلها، فقد كانت المفاوضة وسيلة من الوسائل التى كان يرجو السعداوى - كما عرفنا - أن يبلغ بها مقصده عند نجاح حملة الدعاية العنيفة، أو "حرب الأقلام" التى خاضها ضد إيطاليا.

وتبدأ قصة هذه "المفاوضات" فى كتاب من شكيب إرسال إلى السعداوى من جنيف فى ٤ شوال ١٣٥١ (٣١ يناير ١٩٣٣) - وهو كتاب سبق ذكره - جاءت فيه الفقرة الآتية: "كان أحد أصحابنا فى سويسرا ممن هو من حزب موسوليني وله معه اجتماعات فكلفناه أن يتكلم معه بشأن فظائع الطليان فى طرابلس وبرقة وبيننا له ما فى استمرار هذه الأمور من الأضرار

بإيطاليا، فحكى معه فأجابه بأن ما نسب عليهم من تلك الأفعال هو غير صحيح. وموسوليني يعلم أن هذا الرجل سيرد علينا هذا الجواب لأنه تكلم معه بلساننا، فلما رد الجواب الذى هو على نسق أجوبة الطليان - أكثرهم - قلنا لصاحبنا: الحقيقة لم تصل إليه على وجهها. فقال لى صاحبنا الوسيط بيننا وبينه: إذا شئتم اتخذوا واسطة غيرى. فعلمنا أنه عرف أن موسوليني يكابر ويتجاهل الحقيقة وربما إذا ألح عليه يغتاظ منه وهو لا يريد أن يغيظه. إذن ليس أماننا إلا متابعة الدعاية. وفى هذا العدد لصار غداً من (لناسيون آراب) مقالة شديدة جديدة عن طرابلس كتبها حتى أبعث منها نسخة خاصة إلى موسوليني.

وهكذا. إذا رفض موسوليني المباحثة فى شأن ليبيا بالرغم من حملة الدعاية العنيفة ضد الحكم الفاشيستي بها، فوسيلة الإقناع لدى شكيب أرسلان لحمل موسوليني على تغيير موقفه، هى الاستمرار فى حملة الدعاية. وكان هذا بخلاف ما صار بشير السعداوى يمنى به نفسه.

فقد كتب إلى الأمير شكيب فى ٤ ذى القعدة ١٣٥١ و ٢٨ فبراير ١٩٣٣ يشرح خطة "العمل المجدى".

كنت أخذت منك كتاباً ضمنه ورقة الأرقام، وأجبتك عنه ببعض ما يخالغ فؤادى، وما إننى أشفعه بهذه الرسالة لأفضى لك بما فى (نفسى) بكل صراحة ووضوح.

قلت يا سيدى الأمير إن ما قمنا به من الأعمال ضد الفطائع التى ترتبكها إيطاليا فى ذلك القطر هى غير كافية. والحق أنها كلمة كان لها وقع عظيم فى نفسى. كيف تكون تلك الأعمال كافية تجاه دولة غاشمة وطدت العزم على إفناء شعب إسلامى عن بكرة أبيه؟ كيف تكون كافية تلقاء من يريد إطفاء نور الإسلام من تلك الربوع بعد أن كان فيها ساطعاً وضاء مدة أربعة عشر قرناً؟ إن تلك المصائب لا يصير على تحملها من ذاق لذة الإيمان وعرف

معنى العزة الإسلامية. فكل عمل لا يحول دون تلك المقاصد السيئة بصورة فعلية فهو عمل ناقص لا يشفى فى صدورنا من غل.

إن إيطاليا لن ترتدع عن غيها وتؤوب إلى رشدها إلا إذا أصابها منا ضرر مادى وهذا لا نصل إليه إلا بأحد أمرين: الأول. الدعاية الشديدة التى تجعل المسلمين يقاطعون الإيطاليين مقاطعة فعلية، وهذه وإن كان المسلمون يشعرون بضرورتها. ولكن هذا الشعور - مع الأسف - لم يقترن بعزائم صادقة تخرجه من حيز التمنى إلى ميدان الفعل فالمسلمون يشتهون أشياء كثيرة ولكن روح التضحية لم تحتل فى نفوسهم مكاناً راسخاً، فالتجار لا تهمهم إلا المادّة، وإن انكبابهم على المادّة بهذا الطرز الفظيع جعلهم ينسون كل شىء.

أنا لا أقول إن المقاطعة لا يمكن تطبيقها، وإنما نحتاج - مع ضعف عقيدة تجارنا - إلى جهود متوالية والتكرار مفعوله فى النفوس لا ينكر ولكل مجتهد نصيب.

بقى علينا أن نأتى على ذكر الأمر الثانى الذى ينزل بالإيطاليين ضرراً أبلغ من الأول وهو الحرب. وأسمح لى يا سيدى الأمير أن أتويع فى هذا الموضوع، ولا تقل إن هذا الرجل كثير الخيال أو يحاول المحال فأعرنى حلمك وقل عنى ما شئت.

فيا سيدى الأمير إن كثيراً من العضلات المتكونة بين البشر - مما تحار العقول فى تفكيكها - لا يحلها إلا السيف. نعم يجب على من يمتشقه أن يلاحظ قوة خصمه ولكن موقفنا على حد قول الشاعر:

إذا لم يكن من الموت بد فمّن العار أن تموت جباناً

معلوم لدى عطوفتكم أن إيطاليا قد توغلت فى بلادنا، وتبعثر جندها فى أماكن مترامية الأطراف، فلها اليوم حاميات فى غدامس ومزودة وفزان والشاطئ وغات والحفرة وجالو أو جلة والجغبوب والكفرة. وإن ما بين هذه المراكز مفاوز واسعة ومراحل شاسعة ولن تستطيع إيطاليا مهما كانت ذات

حول وطول أن تجعل جنودها فى هذه المراكز فى مأمن من الطوارئ خصوصاً وأنها مضطرة أن تسوق إلى كل بلد من البلدان حاجيات الجنود من مأكول وملبوس وغيره إلى مئونة الحيوانات من تبين وشعير من المراكز الساحلية فلو أن قوة من المجاهدين مؤلفة من ٥٠٠ مسلح على الأقل رابطة بين (القربات) و(فزان) لأجل منع المواصلات وغزت قوافل الإيطاليين المرة بين المرة فلا شك أنها تلجأ للحامية العسكرية فى فزان إما أن تخرج من وراء الجدر المحصنة للحرب وهناك القضاء المبرم عليها - ولو كانت كثيرة العدد والعدد - وإما أن تبقى داخل الحصون حتى تهلك أو تضطر إلى التسليم. لأن وجود قوة من المجاهدين يحول دون مواصلاتهم أو يزعجهم فوق العادة. ولا يمكن للحكومة أن ترفق القوافل بقوة كبية لأن هذه القوة أيضاً تحتاج إلى حاجيات وافرة وإلا استنفدت ما هى مكلفة بسوقه إلى فزان مثلاً.

وإن قوة المجاهدين المتنقلة إذا حالت فى تلك الأماكن ووالت الغزو على القوافل لا بد أن ترغب إيطاليا على ترك بعض المراكز. وإذا تمكن العرب من احتلال مركز يتخذونه أساً للحركة فلا تلبث القافل أن تلتف حوله ولا تمضى مدة قليلة وتسعر نار الحرب فى كل مكان خصوصاً وقد أصبح الأهليون يعلمون بأنهم إذا لم موتوا فى سبيل الدفاع عن أوطانهم فإن الموت سيلاقهم وهم جنود للإيطاليين بعد سنهم قانون التجنيد الإجبارى.

ورد على ذلك أنه يوجد من الطرابلسيين فى القطر التونسى ما ينوف على المائة ألف نسمة كلهم قد خرجوا من ديارهم وأصبحوا يلاقون من آلام الغربة الأمرين، فهؤلاء ينتظرون فرصة تدفعهم إلى ميادين الحرب ليتخلصوا من عذاب الفاقة فى بلاد الناس.

بقى علينا أن نبحث فيما يحتاجه هذه القوة المؤلفة من ٥٠٠ مقاتل من التكاليف لمدة ستة أشهر، فهؤلاء لا يحتاجون بادئ ذى بدء لأكثر من ١٠,٠٠٠ جنيه إذ أنه يكفيهم فى كل شهر ١٥٠٠ جنيه بكل سخاء ورخاء،

وإذا أضفنا على هذا المبلغ خمسة آلاف جنيه لستة أشهر لمصاريف غير ملحوظة تبلغ القيمة التي تحتاجها هذه الحركة ١٥.٠٠٠ جنيه وبها تشب نار حرب في البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فتضطر حينئذ إيطاليا إلى رفع سيف نقيمتها عن رقاب أهالي تلك البلاد فحسب بل ترغم على إعطائهم حقوقهم التي تمكنهم أن يعيشوا بها سعداء في وطنهم مالكيين لحريتهم بكل معنى الكلمة.

إذا يا سيدى الأمير إن إنقاذ شعب من أخلص الشعوب الإسلامية لدينه ووطنه متوقف على ثلاثين ألف جنيه فى السنة - لمرة واحدة فقط - وبعده يمكن أن يؤسس موارد لتأمين ما يلزمه من النفقات من نفس البلاد ومما يغنمه من العدو. فما قيمة هذا المبلغ أضعاف أضعافه لو كان فى المسلمين رجال يعرفون قيمة التضحية ويغادرون على دينهم الذى تريد إيطاليا أن تمحو معالمه من ذلك القطر فى شمال أفريقيا بالجملة. ولا يخفأك أن سكان شمال أفريقيا رغم أن الاستعمار الأجنبي قد أرهقهم من عشرات السنين ولكنه لم يؤثر فى غرائزهم الموروثة كالشجاعة والشمم والإباء، فهم ولله الحمد - لم يزالوا محافظين على هذه المزايا العالية.

كنت مرة فى حرب مع الإيطاليين فى جهة الجبل الغربى فتوغلت حتى وصلت إلى حدود تونس فجاءتنى نجده تونسية من عمالة (مدنيين) ونجدة من جنوب الجزائر من عشيرة يقال لها الشعابنة فأرونى من الشجاعة ما يبهر العقول ويحير الألباب.

إننى أعلق الآمال الكبيرة على سكان تلك الأقطار أيضاً الذين لم يزالوا متصلين فى عقائدهم ولم تتعلب على نفوسهم البهرجة الأوروبية.

إن هذا الموضوع يا سيدى الأمير لم أقصد الخوض فيه لمجرد سرد نظريات قد يجوز تطبيقها أو لا يجوز، وإنما قد طرقت وأنا أعتقد عقيدة مقرونة بإيمانى أن كل ما ذكرته هو قابل للتنفيذ والتطبيق بصورة عملية. وهذا

العاجز الذى يخاطبكم والذى هو اليوم حبيس بيته لا يحرك ساكنًا ولا يدفع حائلًا قادر بمعونة الله على القيام بهذه الحركة . لأننى يا مولاي قد مارست الحروب وقضيت شطراً من حياتى فى اقتحام الخطوب وسبرت غور بنى قومى فى تلك البلاد وخضت معهم المعامع الطاحنة فى ميادين شتى . ولم يكن اسم هذا الفقير مجهولاً لدى قبيلة من القبائل ، كما أننى لم أزل فى اتصال مع أطرر رؤساء القبائل داخل القطر وخارجه وهذا ما يجعلنى أشعر بعظم المسؤولية فيما إذا توانيت أو قصرت فى الواجب الوطنى . فقلو كنت ممن لا يقدرّون على شىء مما ذكر حدثت نفسى بتجشم هذه الأهوال . وإننا لم نقصد بهذا النضال القلمى الذى نحن بصده إلا الوصول لهذه الغاية ، وإلا فإننى وإخوانى نعلم جيداً أن الإيطاليين لا تؤثر فيهم نشراتنا ودعاياتنا إذا لم نلحق بهم ضرراً مادياً .

كما أننا نعتقد أن هجرتنا إذا لم تكن مقرونة بنية إعادة الكرة على أعدائنا فليست بهجرة يقبلها الله منا ، أما إذا كنا جرجنا من ديارنا مولين وجوهنا عن الوطن وساكنيه منصرفين إلى ملاذنا ومعايشنا نقضى الحياة فى متنزهات الشام وحدائقها الغناء غير متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة يؤنا بغضب من الله وخسرنا الدنيا والآخرة . فلو فكرنا ملياً فى إنقاذ تلك البلاد بالصورة الأنفة الذكر . نعتقد أننا لن نعدم وسيلة توصلنا إلى ما تصبو إليه نفوسنا .

فيا سيدى الأمير ألا يوجد بين ٠٠٠,٠٠٠,٤٠٠ (أربعمائة) مليون من المسلمين من ينقذ شعباً بأسره من مخالب الموت ويعيد إليه حياة طيبة بمثل هذا المبلغ الزهيد .

عندما وصلت هنا ناولنى موزع البريد (مجلة العرب) فإذا بها تذكر أن ما صنع من الأعلام الإيطالية فى مصر لاستقبال ملك إيطاليا بلغ مائتى ألف ، فلو فرضنا أن كل علم كلف خمسة قروش مصرية فقط لكان مجموع ثمن

هذه الأعلام عشرة آلاف جنيه . وهذا لو نجادت به الأمة المصرية لكفانا في تأسيس الحركة التي نوهنا عنها، فتأمل يا سيدى الأمير، ثم إنه لا يعزب عن فكركم أن الجو السياسى فى أوروبا متكهرب بدرجة أن أقل شرارة توقد نار حرب عالمية فإذا شبت هذه الحرب ونحن على غير استعداد للقيام بما يحتمه علينا الواجب الدينى والوطنى فنكون قد أضعنا الفرصة الوحيدة التى نترقبها لإنقاذ البلاد. وها أنا أضع بين أيديكم هذا الموضوع الخطير لتشاركونى فى دراسته ولتبدوا الرأى السديد فى الوسائل التى تؤدى إلى إخراجه من التصور إلى حيز العمل. وترانى فى انتظار إشعاركم بفارغ الصبر سيدى.

فى هذا الكتاب كان بشير السعداوى صريحاً فى بسط المعانى التى تولدت فى ذهنه بفضل ما ذكره شكيب أرسلان فى رسائله من أن ما قام به هو والسعداوى من "أعمال" للتشهير بفضائع الطليان "هى أعمال غير كافية"، ولابد من إتمامها. وكان واضحاً أن القيام بالحركة التى ذكر تفاصيلها السعداوى فى كتابه هذا، كان - فى نظره - الوسيلة التى تكمل وحدها هذه "الأعمال" وقد فصل الأسباب التى يبنى عليها اعتقاده فى نجاح هذه الحركة إذا قامت، كما أوضح الحوافز التى تدفعه إلى العمل الإيجابى، من حيث أن المناوشات المستمرة على طول الحدود الغربية من تونس (القربا) إلى فزان "قمينة عند نجاحها - وذلك ما يتعهد السعداوى به - بإقناع الإيطاليين بضرورة التسليم بالمطالب الوطنية، غير أن هذه الحركة - التى كانت فى صميمها حرب عصابات واسعة النطاق أو الجبهة - لم تكن بحال من الأحوال مما يوافق عليه شكيب أرسلان لأسباب عديدة سوف يوضحها الأمير شكيب نفسه فى الرسائل القليلة التالية مباشرة التى تبادلها مع بشير السعداوى.

فقد بادر الأمير شكيب بالجواب على رسالة السعداوى الأخيرة فى خطاب أكثره بالشفرة، من جنيف فى ٧ ذى الحجة ١٣٥١ (الموافق ٣ أبريل ١٩٣٣)، وضعنا إلى جانب الشفرة معنى الفقرات التى كتبت بها - فى قوسين - وإليك نصه:

أخى البشير المحترم أخذ الله بيده .

أخذت كتابك المطول وفهمته كله . ولم أقدر لكثرة الشغل أن أعرفك وصوله لكنى كتبت إلى الأخ الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى بأن يخبرك عن وصوله . وترانى الآن مجاوبًا على مآله ومحبزًا غياك بشيء جديد ينبغى أن تعرفه وتكمله إلى أن ترى ماذا يكون؟ أتحصل نتيجة أم لا؟

أما مشروع ١٣ ٥ ١٤ ٥ ٧ ١٤ ٨١ ٣ (المقاومة) بال ١٣ ٧١ ٣٥ ٥ (سلاح) ففي الوقت الحاضر لا أراه ممكنًا لأن ١٣ ٥ ١٣ ٦٧ ٢٤ ٧٧ ٢٤ (الثلاثين) ألف ١٣ ٧٧ ٣٩٠ (ليرة) التى ١٣ ٣ ١٤ ٤٧ (تلزم) لهذا ١٣ ٥ ١٠ ١٤ ١٣ (العمل) هى ١٣ ٦ ٧٧ ٩٠ ١٤ ٨١ ٤٩ ٨١ ٣ ٥٢ (غير موجود) أصلا . نعم قد يمكن أن ١٣ ٣ ٨١ ٤٩ ٥٢ ١١ ٧٧ ١٣ ٥ ١٤ ١٣ ٩ ٧١ (توجد فى المستقبل) أما الآن فلا .

أنت تعلم أنى رجل عملى لا أقصد مجرد الشهرة ولا أحب أن يقال . فلان عمل كيت وكيت . وأنت تعلم أنك دعوتنى للنزول إلى الميدان مرارًا وذكرتك لك الأسباب التى كانت تحدونى إلى المداراة وكنت أعذر لك وأقول لك: أنتم اكتبوا واصرخوا وارفعوا صوتكم وأنا أعمل ما أقدر عليه بدون ضوضاء . وبالفعل كنت أراسل ١٤ ٨١ ٧١ ١٣ ٨١ ٧٧ ٢٤ ٧٧ (موسولبنى) وأقدم وأؤخر وأنصح بترك هذه السياسة وأقول: نحن ليس لنا مقصد إلا الخير ووو . وإن بقيت الحالة هكذا فلا نقدر أن نسكت . وما زلت أستعمل هذه السياسة حتى بلغ السيل الزبى وحصلت واقعة ١٣ ٥ ١٦ ١١ ٣٩٠ (الكفرة) بجميع فجائعها ، فعند ذلك نزلت إلى الميدان النزلة التى جميع الناس تعرفها والتى وجدتها ضرورية وآخر الدواء الكى . ولو أنى ١٣ ٥ ١٦ ١٣ ٨١ ٤٩ ٥٢ ٣ ١٣ ١٦ ٥ ٢٤ ٥ ١٣ ٥ ١٤ ٥ ١٠ ١٤ ٤٩ ١٣ ٥ ٢٤ ٥ (وجدت إمكانًا الجمع أموال) والقيام ٩ ٣٥ ٩٠ ٩ (بحرب) ما كنت تأخرت ١٣ ٨١ ١٦ ٢٤ (ولكن) أنت ٣ ١٠ ٩٠ ١١ ١٣ ٥ (تعرف ال) ح ١٣ ٥ (ال) .

ومن بعد أن ٧٣ ١٤ ٥٢ ٣ (خمدت) ٥ ١٣ ٦٧ ٨١ ٩٠ ٣ (الثورة)
تماماً ولم يبق ٥ ١٤ ١٣ ١١ ٧٧ ٧٤ ٧٧ (أمل فى شىء) فى الوقت الحاضر
رجعت إلى النصح الأول وأرسلت كلاماً مع الكولونيل ٨١ ١٣ ٧٧ ٢٤ ٧٧
(ولينى) وهو من أهل سويسرا فأبلغ الكلام الذى قلته فكان جوابه نحن لم
نفعل شيئاً مما نسبوه لنا، فعلمت حينئذ أن لا فائدة من المراجعة. وفى هذه
الأناء اشتدت ٥ ١٣ ١٤ ٢٤ ١١ ٥ ٧١ ٢٤ ٩٠ ١١ ٢٤ ٧٧ ٩ ٣ ٧١ ١١ ٥ ٢٤ ١٤ ١٣ ٥ ٨١
٥ ٧٧ ٥ ٤ ٧٧ ١٣ ٥ ٧٧ (الناقشة) بين فرنسا وإيطاليا وعلمت من مصدر أكيد
من ٩ ٥ ٩٠ ٧٧ ٨٠ (باريز) أن الخوف هناك شديد من دسائس ٥ ٤ ٧٧ ٥
١٣ ٧٧ ٥ (إيطاليا) فى ٥ ١١ ٩٠ ٧٧ ٧ ٧٧ ٣ (أفريقيا) وأنهم أوعزوا إلى
بعض الوطنين من ٥ ١٣ ١٤ ٦ (٩٠) ٩ (المغرب) ببث دعاية ٥ ٧٧ ٥ ٥٢ ٢ ٤
٥ ١٣ ٧٧ ٣ (ضد إيطاليا) وأن هؤلاء أجابوا ٥ ١٣ ٣٥ ١٦ ٨١ ١٤ ٣
(الحكومة) فى ٩ ٥ ٩٠ ٧٧ ٨٠ (باريز) بأنهم يعملون هذه الدعاية على شرط
أن ١١ ٩٠ ٢٤ ٧١ ٥ ٧٧ ٧١ ٥ ٧٧ ٣ ٣٢ ٥ (سياستها) مع
٥ ١٣ ١٤ ٧١ ١٣ ١٤ ٧٧ ٣٤ (المسلمين)، فأنا لم أشأ أن أضيع هذه
الفرصة. وكان شخص ٣٢ ٢٤ ٥٢ ٧٧ (هندي) فى الماضى واسطة بينى وبين
٥ ١٣ ٤ ١٣ ٥ ٧٧ ٢٤ (الطليان) وهو الذى جاءنى إلى سويسرا ٩ ٥ ٢ ٩ ٤
(بضابط اسمه) ٣ ١١ ٥ ٩٠ ٥ ٧٧ ٢٤ (تفرانى) وكان المقصود يومئذ وهذا
من أربع أو خمس سنوات عقد معاهدة بينهم وبين ٥ ٩ ٢٤ ٧١ ١٠ ٨١ ٥٢
(ابن سعود) فهذا الشخص جاءنى من باريز منذ مدة وقال لى إن صاحبه
المذكور يهدىنى سلامه، ثم جاء مرة أخرى وقال لى إن شخصاً آخر من هؤلاء
الجماعة يريد أن يواجهنى. وأنا لم أظهر الاكتراث، لكنى لما رأيت اشتداد
الأمر وأن ٥ ١٣ ١١ ٩٠ ٢٤ ٧١ ٧٧ ٧١ (الفرنسيين) مهتمون بهذه الدعاية
استدعيت المذكور وقلت له اذهب وأبلغ هؤلاء يصلحوا أعمالهم فى ٤ ٩٠ ٥
٩ ١٣ ٧١ (طرابلس) وإلا سدنا عليهم ٥ ١٣ ٩ ٥ ٨١ ٩ (الأبواب) كلها
وكلاماً كله نصح بالرجوع عن هذه السياسة وإعادة ٥ ١٣ ٦٧ ١٤ ٥ ٧٧ ٢٤

٢٤ ٥ ١٣ ١١ ١٠ ٩٠ ٩ ٧٧ (الثمانين ألف عربي) إلى ٨١ ٤ ٢٤ ٢٢ ١٤
٥ ١٣ ٤٩ ١٣ ٥ ١٣ ٧٣ (٢) ٩٠ (وطنهم الجبل الأخضر).

فبعد شهر من هذا البلاغ جاءني ٥ ١٣ ٣٢ ٢٤ ٥٢ ٧٧ (الهندي) وقال
لى أنه تلقى برقية بموافاة رجل من ٧٣ ٥ ٩٠ ٤٩ ٧٧ ٥ ٣ ٧٧ ١٣ ٥ ٧٧
٣ (خارجية إيطاليا) إلى ١٣ ٨١ ٥ ٢٤ (لوزان) وأخبرني عن أهميته ولم
يطلب مني أن أذهب إلى هناك ولكنه استأذن مني أن يأتي به إلى منزلي فقلت
له: أهلا وسهلا ودعوتهم للغذاء بهذا النهار عينه. وهما حضرا من أمس
وتكلمنا مدة أربع ساعات واليوم تكلمنا أيضاً مدة ثلاث ساعات فالكلام لا
يمكن إعادته ولا محل لإعادته، ولكن خلاصة آرائي أننا نشكر ٥ ٧٧ ٤ ٥
١٣ ٧٧ ٣ (إيطالية) على مساعدة ٥ ١٣ ١٠ ٩٠ ٥ ٧ (العراق) على تحرره
وعلى الاعتراض الذي أبدته على ١١ ٩٠ ٢٤ ٧١ ٥ (فرنسا) بشأن تجزئة
٧١ ٨٠ ٩٠ ٧٧ ٣ (سوريا) ولكن هذا لا يكفي لأجل أن نتصالح مع ٥ ٧٧
٤ ٥ ١٣ (إيطالية). وقد سأل الرجل عن مطالبنا لأجل أن يقع هذا التقارب
الذي فيه لنا فوائد كثيرة عددها، فقلت نحن لا نجهل هذه الفوائد ونحن نعلم
أهمية ٥ ٧٧ ٤ ٥ ١٣ ٧٧ ٣ (إيطالية) في الوقت الحاضر إلا أننا لسنا أنذالا
ولا يمكننا أن نترك ٥ ٧٣ ٨١ ٥ ٢٤ ٢٤ ٥ (إخواننا) في ٤ ٩٠ ٥ ٩ ١٣ ٧١
(طرابلس) في هذه الحالة من العذاب ولذلك نطلب تغيير هذه السياسة كلها
وإعادة أولئك الذين في ٢١ ٣٥ ٩٠ ٥ (صحراء) ٧١ ٩٠ ٣ (سرت)
بأجمعهم إلى بيوتهم وأراضيهم وإعادة ٨٠ ٨١ ٥ ٧٧ ٥ ٥ ١٣ ٧١ ٢٤ ٨١
٧١ ٣ ٧٧ (زوايا السنوسية) إلى مشايخها، والخلاصة بدون هذا وبدون تبدل
تام في السياسة فلا سبيل إلى ٥ ١٣ ٢١ ١٣ ٣٥ (الصلح) مهما كان من
فوائد ٥ ٧٧ ٤ ٥ ١٣ ٧٧ ٣ (إيطالية) لنا. فأبد صعوبات كثيرة من جهة ٥
١٣ ١٠ ٧١ ١٦ ٩٠ ٧٧ ٣ (٧٧) ٣ (العسكريين) وأنهم يخشون إن رجع هؤلاء
أن ٣ ١٠ ٨١ ٥ ٢ ١٣ ٣ ٨١ ٩٠ ٣ (وتعود الثورة) ويكون الشر قد ازداد
فأجبت أنه هذا أنا لا أكفله لأنه شيء في الغيب لكنني أستبعده جداً لأن أكثر

هؤلاء بل كلهم تقريباً لم يكونوا ٧٦ ٥ ٩٠ ٧٧ ٢٤ (ثائرين) وليس معهم شئ من ٥ ١٣ ٧١ ١٣ ٥ ٣٥ (السلاح) فكيف يمكنهم أن ٧٧ ٦٧ ٨١ ٩٠ ٥ ٨١ (يثوروا) هذا غير معقول أصلاً. قال هل تنصحوهم بالتزام السكون. قلت نعم إذا أعيدها بأجمعهم إلى بيوتهم وإلى أراضيهم وجرى إرجاع ١٣ ٥ ٨٠ ٨١ ٧٧ ٣ (الزوايا) وأراضيها إلى ١٣ ٥ ٧١ ٢٤ ٨١ ٧٧ ٣ (السكنسية) فنحن ننصح سرّاً وعلناً بالسكون ونتخذ خطة غير الخطة التي هي بخطتنا الآن، نحن نقابل كل شئ بمثله.

وعندما قال: على فرض أنه لم يمكن إرجاع الجميع. قلت: لا. لا بد من إرجاع الجميع فقال: أفإذا كان ذلك يقع تدريجياً؟ قلت يجوز لكن بشرط إرجاع الجميع بدون استثناء في ظرف ٤ إلى ٦ أشهر بالكثير وتغيير المعاملة فعندما سأل: هل يمكنني أن ٤٧ ٥ ٣٢ ٩ ١٣ ٥ ٧٧ ٩٠ ٨١ ٣ (أذهب إلى روما) قلت: إلى أن يتم إرجاع الجميع وتعود المياه إلى مجاريها وتغير المعاملة تغيراً يوجب رضى الأهالي والمسلمين أجمع فلا مانع. أما في مبدأ الأمر فلا لزوم للعجلة لأنى حتى الآن لم أر شيئاً فالحسنى تجد الحسنى وهذا يظهر بالفعل لا بالقول. الخلاصة هي هذه قصدت أن أخبرك عنها وأرجو منك أولاً أن تكتم هذا عن كل أحد الآن لى أملاً بإمكان إعادة هؤلاء المساكين إلى أوطانهم ورد أراضيهم لهم إفشاء هذا الخبر قد يضر وذلك لأن قسماً كبيراً من أولئك القوم لا سيما العسكرية يعارضون فى هذا الأمر حتى يتخلصوا من وجود هؤلاء القبائل من العرب هناك ولا يبقى لهم منازع فى الأراضي، غير أن منهم من يرضى برجعهم بشرط أن لا تحصل ٦٧ ٨١ ٩٠ ٣ ٦٧ ٥ ٢٤ ٧١ ٣ (ثورة ثانية) ثم أرجو منك أن تعطينى أفكارك وآرائك وما عندك من الملاحظات، فأنا لم أجد فى الوقت الحاضر أوفق من هذا والله الموفق والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، أخوك.

فى هذه الرسالة إلى جانب أنه قص كيف بدأت اتصالاته بالطليلان فى

موضوع طرابلس برقة، يذكر شكيب أرسلان "المسألتين" اللتين جعلهما محور المباحثة أو المفاوضة مع هؤلاء وهما مسألتا إرجاع العرب الموجودين فى المعتقلات فى صحراء سرت (والعقيلة). وقد قدر عددهم بثمانين ألفاً إلى "بيوتهم وإلى أراضيهـم"، وإرجاع الزوايا السنوسية وأراضيهـا إلى مشايخهـا.

وفى وسع القارئ أن يدرك مقدار خيبة الأمل التى شعر بهـا بشير السعداوى عندما فوجئ بأمر هذه المفاوضة التى اقترح فيها شكيب أرسلان أن يكون إطلاق سراح المعتقلين فى سرت والعقيلة، وإرجاع الزوايا السنوسية على مشايخهـا أساس الاتفاق أو "الصلح" مع المجاهدين العرب، فى نظير أن تبقى الأوضاع الراهنة فى طرابلس برقة على حالهـا ودون تغيير. لقد كان الغرض من حرب أو نضال الأقالام الذى أثاره السعداوى أن يكف الإيطاليون عن الفظائع التى يقترفونها يف حق الشعب الطرابلسى البرقاوى من أجل إبادته وإفناته، فتهدم معسكرات الاعتقال بالبغيضة، ويعود هؤلاء الأسرى من العرب المنكودين إلى "أوطانهم وأراضيهـم". ولكن إلى جانب هذا كله يجب أن ترتفع عن هذا الشعب سائر المظالم التى يثن منها، وأن يأمن على حياته وعرضه وماله، وأن يسترد الأراضى والأملك التى اغتصبها "المعمرون" الطليان منه، وأن يجلو هؤلاء المغتصبون عنها، وأن تعاد إليه حرياته وحقوقه المسلوبة حتى يسترجع شعوره بالعزة والكرامة، ويعيش عيشة "آدمية". وكل أولئك شرائط لم يظهر أنها كانت موضع اعتبار "المفاوضين" أثناء مفاوضاتهم فى جنيف، إلى جانب إطلاق سراح المعتقلين، والاشتراط على عودة زوايا السنوسية وأراضيهـا إلى مشايخهـا. أضف إلى هذا كله أن هذه "المفاوضة" لم تتعرض بقليل أو كثير للمطالب الوطنية التى ذكرها (الميثاق القومى)، والتى كان الغرض منها - على نحو ما أوضحنا مراراً - إنشاء الحكومة الوطنية والإمارة الإسلامية التى كان منتظراً أن يترأسها الأمير السيد محمد إدريس السنوسى، على أن يكون الحكم فى هذه الإمارة وفق دستور تسنه جمعية تأسيسية، وينص على وجود برلمان أو "المجلس النيابى الذى تنتخبه الأمة

ويكون حائزاً على الصلاحية التى يخوله إياها الدستور، ولا جدال فى أن شكيب أرسلان كان يعرف مطالب الوطنيين التى أعلنتها هذا (الميثاق القومى) حق المعرفة. زد على هذا أن هذه "المفاوضة" لم تذكر شيئاً عن المعاهدة الخاصة التى أراد الوطنيون عقدها مع إيطاليا "لتحسين العلاقات والمصالح بين الأمة الطرابلسية البرقاوية والدولة الإيطالية" والتى كان الغرض من النص عليها ضمن مواد (الميثاق القومى) ضمان حقوق الأمة الطرابلسية البرقاوية فى "السيادة القومية" بمقتضى إجراء يكفل صيانة هذه الحقوق، لما سوف يكون له من وزن فى محيط العلاقات الدولية. نقول إن هذا المطلب الأساسى المتعلق بكيان البلاد ووضعها السياسى المستقل لم تدر بشأنه مباحثات ما بين الأمير شكيب ووكلاء الإيطاليين ووسطائهم فى جنيف.

ولذلك فقد كان منتظراً أن يلفا السعداوى نظر شكيب أرسلان إلى كل هذه المسائل، وإلى أن إطلاق سراح المعتقلين - مع ضرورته - وإرجاع الزوايا والأملاك السنوسية مع أنه عمل طيب - ليسا بالخطورة التى تدل "مفاوضة" الأمير كشيب أنه يعزوها لهما، ولا يجب بحال من الأحوال أن يطغيا على المطالب التى ترتعن بتحقيقها حياة الأمة ذاتها، فهو لذلك يكتب للأمير شكيب هذه الرسالة العاجلة فى ٢٥ ذى الحجة ١٣٥١ (الموافق ٢١ أبريل ١٩٣٣).

سيدى الأمير الجليل - تحية واحتراماً وبعد فقد تلقيت بيد التعظيم كتابكم الكريم وفهمت فحوى أرقامه. سيدى أنه ليسرنا أن يفرج الإيطاليون عن من أبقت عليهم يد المنية من إخواننا الذين قذفوا بهم فى صحراء سرت وأن يعيدوا إليهم أملاكهم المصادرة وأن يرجعوا المشايخ السنوسية زواياهم وأوقافهم فإن ذلك - إن فعلوه - يدل على أنهم بدأوا يدركون أن صफलهم وغرورهم والسياسة الهوجاء التى ساروا عليها طيلة ٢٢ سنة لم تجر عليهم غير البغضاء والحق فى نفوس أبناء البلاد والكراهية وسوء السمعة فى العالم

الإسلامى . ولا شك فى أن حملاتكم الصادقة المتوالية . ولما أظهره المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها من العطف على وطننا المنكود والاستنكار لفظائع الإيطاليين فى أبنائه أثراً عظيماً فى بدء هذا الإدراك .

لكن لا يعزب عن فكر عطوفتكم أن جهاداً استمر كل هذه المدة وتضحية قل إن سبق لها مثل ليست لا غاية منهما الإفراج عن بقية الثمانين ألفاً أو إعادة أوقاف الزوايا السنوسية . فإننا أضفنا من هلك من أولئك المساكين إلى مجموع ضحايانا فى سبيل الله والوطن . كما أن أوقاف الزوايا ليست هى كل ما اغتصبوه من الأراضى . ففى طرابلس وبرقة ألوف قد اغتصبت أراضهم فأصبحوا لا يملكون شيئاً بعد ان كان كثير منهم من ذوى الأملاك الواسعة .

إن الغاية - يا سيدى الأمير - التى نسعى إليها والتى ضحينا فى سبيلها بكل مرتخص وغال ليست هذه المسائل البسيطة فى نظرنا ، بل إن لنا ميثاقاً لا نحيد عن المطالبة به ولا تهدأ نفوسنا قبل تحقيقه ، وهذا الميثاق هو خلاصة ما قرره زعماء الأمة فى مؤتمر غريان ١٣٣٩ من المطالب التى لا حياة لنا بدونها ، وقد سبق أن رفعت للإيطاليين فى ظروف مختلفة وعلموا بأننا لن يرضينا ولن نخلد لسكون دائم إذا لم نحقق لنا تلك الأمنى .

وإذن فأساس الخلاف بيننا وبين الإيطاليين ليس محصوراً فى هذه المسائل الثانوية . نعم إن قصة الثمانين ألفاً ومصادره الزوايا السنوسية وأوقافها ، وأعمالهم فى الكفرة كانت أشنع فظائعهم فى العهد الأخير . فاتخذناها مثاراً لشعور المسلمين لنجعل من ذلك التشنيع بأعمالهم وسيلة للوصول إلى مبدئنا الأساسى .

فيا سيدى الأمير ، إن لعطوفكم من النزلة السامية فى نفوس المسلمين عامة ما يجعل كل قطر من أقطارهم يعدكم زعيماً مفوضاً عنه فى الدفاع عن حقوقه والمطالبة بأمانيه . وإننا لنتربخ خيراً كثيراً لبلادنا بإدراك الإيطاليين هذه

الحقيقة وتقدم إليكم بالاسترضاء والبحث، وهذا ما حدا بنا لنستلفت نظركم في هذه المناسبة لحقيقة مطالبنا كى؟ الإيطاليون بها علماً بواسطتكم كما علموها قبلاً من وفدنا إلى روما سنة ١٩٢٢ ومن مختلف هيئاتنا السياسية فيعلموا بذلك أن المسلمين جميعاً إنما يدافعون عن قضية واحدة ومطالب متحدة لأى قطر إسلامى وأن أى زعيم منهم ملّم بقضية كل قطر وحقيقة أمانى أبنائه القومية. وما إننى أدرج لكم ذيل هذا صورة عن الميثاق الوطنى الذى عاهدنا الله أن يجعل حياتنا وفقاً على العمل لتحقيقه بجميع الوسائل. هذا وإننى أدعو الله أن يجعلكم عضداً للإسلام والمسلمين ودمتم سالمين سيدى.

وفطن شكيب أرسلان مما ذكره السعداوى فى رسالته هذه من أسباب تمنعه من الموافقة على أن يكون مسعى الأمير شكيب مقصوراً على هذين المقصدين: إطلاق سراح البقية الباقية من الثمانين ألفاً، وعادة أملاكهم المصادرة إليهم، وإرجاع الزوايا والأوقاف السنوسية المصادرة كذلك إلى مشايخها، وتذكيره بأن هناك مطالب معروفة معينة تضمنه الميثاق الوطنى الذى يبعث السعداوى بصورة منه إليه - نقول إن الأمير شكيب فكّن إلى أن أى اتفاق قد ينجح فى الوصول إليه مع الإيطاليين على هاتين المسألتين لا يكون مقبولا من المجاهدين وزعيمهم السعداوى، ولن يكون يف وسعه أن يجعل نؤلاء متقيدين به. وقد فطن شكيب أرسلان من قراءته لتلك الخطة لامفصلة التى شرحها له السعداوى فى رسالة ٢٨ فبراير، والتى ترسم برنامجاً "للعمل المجدى" أن السعداوى يعقد آمالاً عظيمة على إمكان الوصول إلى غاية وغاية المجاهدين جميعاً عن طريق القيام بالعمليات العسكرية التى تشبه حرب العصابات على مراكز حامياتهم وعلى خطوط تكوين هذه المراكز، فيجد الإيطاليون تحت هذا الضغط "العسكرى" أنهم مرغمون على الإذعان لمطالب الوطنيين.

ولم يكن شكيب أرسلان يرى أن في وسع المجاهدين، أو بالأحرى في وسع بشير السعداوى وصحبه مناوأة الحكومة الإيطالية مناوأة فعالة، أو أنهم يلقون من إحدى الدول المعادية لإيطاليا استعداداً لمدهم بالسلاح والمال اللازمين لتهيئة هذه المناوشات الحربية. هذا من جهة، ثم إن الأمير شكيب - على ما يبدو - كان لا يرى أن في وسعه إقناع حكومة الطاغية موسوليني وهى فى أوج سطوتها فى الميدانين الداخلى والخارجى على السواء، بأن من الخير لها التنازل عن كل سياستها الاستعمارية فى ليبيا دفعة واحدة، باعتبار أن الضحية التى اقتلعتها صيحات الاستنكار فى العالم الإسلامى ضد فظائعهم فى ليبيا قمينة وحدها بحمل الفاشيست على النكوص على أعقابهم، وإلغاء كل الشروط الذى ساروا فيه كل هذه السنوات العشر الماضية أو ما ينيف بجرة قلم واحدة. بل لعل الأمير شكيب كان يرى إذا قبل الطرفان هذا الأساس "المواضع" الذى ارتبطت به المحادثات فى هذه المرحلة لإنهاء الخصومة القائمة بينهما، أن فى استطاعته عند عودة الثقة بين الفريقين أن يتوسط من جديد لينال الطرابلسيون البرقاويون "حقوقاً" جديدة، أو أن فى وسع هؤلاء أن ينالوا حيثئذ هذه الحقوق من غير وساطة شكيب أرسلان، والوصول إلى الغاية التى يريدونها من حيث إنشاء الحكومة الوطنية والإمارة الإسلامية المنشودة.

ومهما يكن من أمر، فقد وجد شكيب أرسلان أن يبادر دون إبطاء، لينزع من ذهن بشير السعداوى وصحبه أى تفكير فى القيام بعمل جدى، أى تنفيذ ذلك، "البرغرام" الذى رسمه. فيقضى هذا التنفيذ - إذا شرع فيه السعداوى - على كل أمل فى تسوية سلمية، ونجاح المفاوضة.

ولذلك فقد كتب الأمير شكيب من جنيف فى ٧ محرم ١٣٥٢ (الموافق أول مايو ١٩٣٣) إلى بشير السعداوى، يشرح له فى تفصيل كثير الأسباب التى تجعله يؤثر قبول المفاوضة على الأسس التى عرضها فى كتابه السابق (فى ٣ أبريل)، وينصح صديقه السعداوى بقبولها ويحذره من التمدادى فى مشروع

(المقاومة بالسلاح). وما قد تجب ملاحظته أن هذه الرسالة مع خطورتها، لم يكن مكتوباً بها بالشفرة - أو الأرقام - فقرة واحدة. فكتب الأمير شكيب: أخى الأجل المحترم - أخذت كتابكم وفهمته وعليه أجيبكم فى الحال ملخصاً:

أولاً: يلزم بيان عما اقترفه الطليان من الفظائع وما أكلوه من حقوق أهالى طرابلس وبرقة. فإن لم يكن أحد كتب فى الموضوع غيرى لكفى. فكيف وقد امتلأ الشرق والغرب بهذه الأخبار.

ثانياً: الشكوى والأنين غير كافين فى وصول المظلوم إلى حقه إن لم يكن مسلحاً.

ثالثاً: المقاومة بالسلاح إن كانت ممكنة فلا رأى عندى بغيرها.

رابعاً: لا أرى فى طرابلس وبرقة إمكاناً للمقاومة بالسلاح فى الوقت الحاضر إلا إذا كانت هناك وسائل مقاومة لا أعلمها.

خامساً: لا يرجى أقل شىء من العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر. لأن كل قطر إسلامى مشغول بنفسه وخائف على نفسه والحالة معلومة عندكم كما هى، فمغالطتنا لأنفسنا بانتظار إمدادات إسلامية لطرابلس تكون كأفكار من يخادع نفسه بالأمانى، أما فى المستقبل فهذا علمه عند الله.

وسادساً: تعليق التفاهم فى قضية إعادة المبدعين إلى سرت وإرجاع أوقاف الزوايا المضبوطة على قبول إيطاليا بالمطالب التى ذكرتموها لى لا أراه موافقاً. أقول لكم هذا بكل صراحة لأن هذه المطالب لن تقبلها إيطاليا إلا مرغمة، وأية قوة اليوم ترغم إيطاليا؟

سابعاً: ظنكم أن إيطاليا هى فى مركز حرج وأنها مجتهدة أن ترضينا وما أشبه ذلك هو بعيد عن الواقع، ويا ليت هذا صحيح فكنا نطلب المطالب التى ذكرتموها وأكثر منها ولكن - مع الأسف - إيطاليا هى فى عظمة وغرور وخيلاء لا يعادلها شىء.

نعم كنا تكلمنا مع أناس حكوا لموسولينى أن هذه السياسة الظالمة الغاشمة فى طرابلس قد أضرت بهم وستضرهم، وهولنا وقصرنا وطولنا وأخيراً جاءنا هذا الذى أخبرناكم عنه أنه جاء من رومة إلى جنيف ولم يجئنا إلا قاصداً التفاهم، ولكنه لم يجئنا بصفة رسمية أولاً ولم يجئنا عن اضطرار من إيطاليا ولا عن شىء يقال له رائحة ضعف، بل جاء يقول: إنهم هم لم يفعلوا ما نسب إليهم، وإما حصلت تدابير عسكرية لابد لها، وأن هذه الثورة مضى عليها ٢٠ سنة وإيطاليا تصبر وتطيل بالها ولكن عيل صبرها فى الآخر الخ.

نعم قد سمع منا كلاماً مرّاً جداً تحمله منا ولكنه ما أظهر أدنى ضعف ولا وجدناه يبحث عن شىء سوى أن ننصح مسلمى طرابلس بأن لا يحدثوا أنفسهم بالثورات لأنها عقيمة، وإذا أخذوا للسكون يمكن أن يستريحوا وترقى البلاد وإلا فسفك دم بالفارغ وكلام كله من هذا القليل.

ثامناً: نحن لم نسبح معه فى هذا الموضوع لا سلباً ولا إيجاباً. ما قلنا له: نعم الحق معكم لابد أن يخضعوا لمشيئكم لأننا لا نقول هذا عن مسلم لغير مسلم مادام بنا عرق ينبض، ولكننا ضبطننا نفسنا ولم نقل له: لابد أن نكسر رؤوسكم ونأخذ ثأرنا منكم، بل لم نقل له: لا يمكن أن أهل طرابلس يخضعون ولا لابد من أن تحصل عليكم ثورات الخ.

هذا الموضوع تجنبنا الكلام فيه وذلك لأن أدنى كلمة منه يتخذها دليلاً على أننا نحن وبعض زعماء المسلمين نحرك الطرابلسيين وأنه لولا التحريك من الخارج ما ثاروا. وهو قد قال ذلك بالصراحة، أى أنه يوجد تحريك من الخارج، فقلنا له: لا نعقد أصلاً بتحريك من الخارج بل المحرك الأكبر هو سياسة الظلم التى اتبعموها، هو الفظائع التى ارتكبتها، هو كذا، هو كذا الخ. المسلمون غضبوا لأهل طرابلس الذين تحققوا ما هو جار عليهم لكنهم لم يحركوا أهل طرابلس. نحن من الناس الذين دعانا الطرابلسيون مراراً لأن

نتنصر لهم بالدعاية فى الجرائد فاعتذرنا لهم بسبب صداقة كانت بيننا وبين موسولينى وبمدافعاته السابقة عن قضية سورية، وبقينا سنين نكظم غيظنا لأجل هذه الصداقة ولكننا فى الآخر عيل صبرنا وزهقت انفسنا فقمنا نصرخ مثل غيرنا. الحالة فى طرابلس هى فى يدكم، اعدلوا أستقيموا، راعوا المسلمين يف حقوقهم، عاملوهم بالحسنى سكنون ويرضون ولو جاءهم تحريك من الخارج. أما مع هذه السياسة التى سرتم علياً ولا تزالون سائرين عليها فلا يسكنون ولا يرضون ولو نصحبناهم نحن وكل أحد، فإن الظلم لا تقبله النفوس الخ.

تاسعاً: لا ينبغي أن تبنيوا قضية محيى هذا الرجل لمذاكرتنا فى الموضوع على ضعف قليل ولا كثير من إيطاليا أو خوف من تجدد ثورة. هكذا نكون شخصنا المرض بغير حقيقته. الحقيقة أنهم يريدون الاسترضاء لكن بشرط أن لا يحمل ذلك منهم على ضعف وكذلك يريدون أن نعرف ماذا نقول؟

عاشراً: كما جاء هذا الرجل مفاوضاً يجوز أن يكون جاء متجسساً، لأن العدو يريد أن يعرف بقدر الإمكان ماذا عند عدوه.

حادى عشر: نحن ما تكلمنا بلسان الطرابلسيين ولا البرقاويين ولا قلنا: أعيّدوا الثمانين ألف عربى وأراضى السنوسية وتصل لمسلمى طرابلس حقوقهم، أو يسكنون ويستقرون. هذا ما جرى منه شىء أصلاً ولن يجرى. قلنا له: إننا من قبيل النصيحة ننصحكم، غيروا هذه السياسة، أعيّدوا هؤلاء العرب إلى ديارهم وأراضيههم، ردوا أوقاف الزوايا، لاطفوا المسلمين، عاملوهم بالكرامة الخ وهطذا تبدأ المحبة فى القلوب وتزول الضغائن شيئاً فشيئاً، فهذا ليس معناه أن أهل طرابلس رضوا بالحالة الحاضرة وانتهى كل طلب وكتبوا وصلاً بأنه وصل لهم كامل حقهم وما عاد لهم قبل إيطاليا شىء! الذى أشرت به أنا عليهم هو شىء والذى تذكرونه أنتم من مطالبكم شىء آخر وليس هذا يمانع لهذا.

ثانى عشر: لستم أنتم فى حالة تقدرّون أن تقولوا فيها: إما مطالبنا كلها أو لا شىء منها. هذه العراق ما نالت مطالبها إلا تدريجاً ولا يزال لها مطلب. هذه سورية ما نالت مطالبها إلى الآن، وإن فرضنا أنها اجتازت المرحلة الأولى فلن يبرح أمامها مراحل.

ثالث عشر: من قبل أن جاءنى هذا الرجل وفاوضنى فى هذا الموضوع كنتم أنتم أرسلتم لى صورة عريضة قدمتموها للملك إيطاليا تقدمون فيها مطالبكم فما عليكم إلا أن تداوموا المطالبة بالمعنى نفسه، وهذا ضرورى.

رابع عشر: أرجوا أن ترفعوا من فكركم أن الطليانى المعتمد هو اقترح على الصلح وإخلاء الطرابلسيين إلى السكون على أن إيطاليا ترد الثمانين ألف عربى إلى الجبل الأخضر وترد زوايا السنوسية. فوالله لا إله إلا هو وإن جاز القسم بغير الله فإبنى الوحيد، أصلاً لم يذكر شيئاً من هذا بل كنت أنا المقترح وأنا كنت أنا البادئ بهذه القصة قائلًا: إن هذا يكون مبدأ التفاهم ولم أقل له: إن عملتم هذا انتهى كل شىء. راجعوا مكتوبى الأول لكم أردت أن أخلص هؤلاء المساكين الذين انقرض نصفهم وسينقرض النصفهم الآخر إن لبثوا بعيدين عن أوطانهم.

خامس عشر: إن قصة إعادة الثمانى ألف عربى لا يجوز أن تكون أقصى مطالب الطرابلسيين، ولكنه لا يجوز أن تؤخذ بعين الإزدراء وأن يقال إنها لا تهمنا... بل تهمنا وتهمنا جداً وببهمنا أن يبقى مسلمون فى الجبل الأخضر. أنا أعرف الجبل الأخضر وأعرف أهمية وجود المسلمين فيه وأعرف أنه فى الحال الحاضرة ليس فيه مسلمون إلا ألفان أو ثلاثة بعد أن كان فيه نحو من ١٧٠ ألف نسمة. أرجوا منكم أن تبصروا فى أهمية هذه المسألة ولا تستصغروها ولا تتحملوا مسئولية تعطيلها. وكذلك قضية تسليم زوايا السنوسية وأراضيها لنظارها ليست بأمر لا يؤبه له.

سادس عشر: إن هذا الرجل ذهب وما وعد بإرجاع إيطاليا للثمانين

ألف عربى إلى أوطانهم وأراضيهم. ولكنه قال إنه سيقدم اقتراحى ويعضده إلا أنه يعلم شدة مقاومة العسكرية له ويعتقد أنه إن كان ممكناً فلا يجوز أن يقدم دفعة واحدة. فقلت له: حسن أن تجعلوا الرجوع تدريجاً ولكم فيه عذر بأن العسكرية تقاوم رجوعهم دفعة واحدة ولكن لا عذر لكم بإبقاء أحد منهم خارج بيته وأرضه. قلت له يمكنكم إعادتهم جميعاً فى ظرف شهرين إلى أربعة بالكثير.

سابع عشر: حاول أن يفهم ماذا تكون سياسة الوفد السورى تجاه إيطاليا إذا تم هذا الأمر بعد أن حملنا كل هذه الحملات عليها. فقلت له: برغم كل هذه الحملات عندما ساعدتم فى استقلال العراق شكرنا عملكم، وعندما اعترضتم على فرنسا بتجزئة سورية ذكرنا ذلك مع إظهار الشكر أيضاً. ولكننا قلنا إننا لا ننسى إخواننا أهل طرابلس الذين هم من دمنا ولحمنا وإننا لسنا بأنذال حتى ننساهم وننسى ما حل بهم من أجل مساعدة لسورية أو للعراق نحن نذكر كل عمل بما يستحقه إن خيراً أو شراً. إذا أعدتم هؤلاء الأهالى كلهم إلى بيوتهم وأماكنهم وأعدتم أوقاف السنوسية إلى أهلها نذكر هذا العمل مع الشكر وتعدده المرحلة الأولى فى طريق التفاهم وبعد ذلك كلما أرضيتم الأهالى هناك تكون نحن راضين.

فأنتم ترون أنى لم أقل له: قد انتهت مطالب الطرابلسيين عند إتمام هذين الطلبين. ومن هنا تعلمون أن البروغرام الذى ذكرتموه لى هو باق فى مسجله لم يحصل إهدار شىء منه. ولا أتذكر أنى كتبت لكن فى مكتوبى السابق: إذا أرجعوا عرب الجبل الأخضر إلى ديارهم فقد انتهى كل خلاف مع إيطاليا ولزم أن تقولوا لها وصلتنا حقوقنا كلها.

نعم يفترق نظرى عن نظركم فى هذه القضية وهى: إن لم يجيئونا إلى هذه المطالب كلها فلا تهمنا مسألة عرب الجبل الأخضر ولا نسأل عنها:

كلا هذه المسألة تهمنى وتهم كل المسلمين وإن عملتها إيطاليا تقول:

الرجوع عن الخطأ خير من التماذى فى ونشكر إيطاليا ضمن حدود ونشوفها إلى اطراد سياسة التفاهم مع المسلمين ولكننا لا نقول هذا كاف إلا أننا لا نظهر لإيطاليا أن هذه القضية لا يهم المسلمين أمرها سواء عملتها أم لم تعملها وتلك خشية أن ترى أن المسلمين مصممون على العداوة فحيث تبذل جهودها فى محو ما بقى من الإسلام فى طرابلس وبرقة على حين كل الوسائل لذلك متوافرة فى يدها وليس فى الميدان قوة تستطيع المقاومة. فالسياسة تقضى بأن لا تقطع أمل الطليان من مسالمتنا كما تقضى بأن لا تجعلها تظن أننا متنا أو أننا نسينا حقوقنا وأنها رضىنا بكل ما ترضاه. السياسة معناها أن يستعمل الإنسان الشدة إن أمكنت ويستعمل اللين إن لم تمكن الشدة ويتربص الظروف، هذه هى السياسة ولا تعيش الأمم التى ليست لها سياسة هذا هو رأى فتبصروا فيه وأنا لست مضطر للمفاوضة الطليان ومن أسهل الأمور أن أبعث لهم من الغد قائلاً: لا تنتظروا منى جواباً فى هذه القضية فقد سحبت نفسى منها. هذا ما لزم شرحه فتأملوا فيه والله يلهمكم الخير والسلام عليكم ورحمة الله - شكيب.

وهكذا استخدم شكيب أرسلان فى هذا الكتاب كل مهارته التى أكسبته لقب "أمير البيان" فى عرض حججه لإقناع بشير السعداوى بوجهه نظره. وكان واضحاً من التفاصيل الكثيرة التى تضمنها هذا الكتاب عن المفاوضات، كيف حصلت وماذا قيل فى أثنائها من الجانبين، وغرض كل واحد من هذين الجانبين منها، أن الأمير شكيب كان هو صاحب اقتراح إعادة الثمانين ألف عربى المعتقلين فى صحراء سرت إلى بيوتهم وأراضيهم، وإرجاع الزوايا والأوقاف السنوسية إلى مشايخها. كما يبدو من إصرار الأمير شكيب على أن لهاتين المسألتين أهمية بالغة باعتبار أن موافقة الطليان عليهما - إذا تمت - تؤذن بافتتاح عهد جديد من التفاهم يتسنى بفضل نيل الحقوق التى ذكرها "بروغرام" بشير السعداوى - والمقصود هنا البرنامج الذى تضمنه الميثاق القومى للشعب الطرابلسى البرقاوى - تدريجياً، وباعتبار أن رفض هاتين

المسألتين من جانب الوطنين - وعلى رأسهم بشير السعداوى - أو التظاهر بعدم المبالاة بأمرهما والنظر إليهما "كأشياء ثانوية"، سوف ينهض دليلاً لدى الإيطاليين على أن الزعماء الليبيين مصممون على المضي في عدائهم لإيطاليا، فيمعن الإيطاليون في إيذائهم لأهل طرابلس برقة، ويجدون في إفناء البقية الباقية من هؤلاء وإبادتهم - نقول يبدو من إصرار الأمير شكيب على ذلك أنه كان مشفقاً أعظم الإشفاق أن تنتهى "المفاوضة" التى بدأت فى جنيف إلى الإخفاق السريع، لا شك فى أنه يعتقد اعتقاداً صادقاً بأن استجابة الإيطاليين لهذين المطالبين غنم للمسلمين. ومن المحتمل أنه كان يحرص كذلك على "صدقة" حكومة موسوليني على أمل أن يستفيد من هذه الصداقة فى خدمة القضايا الإسلامية - وقد كانت هذه كثيرة - ولا يريد أن يفسد تشدد بشير السعداوى مساعيه مع إيطاليا، سواء ظهر هذا التشدد فى صورة رفض المباحثة فى هذين الموضوعين: إعادة الثمانين ألفاً والزوايا السنوسية كأساس لحل القضية الطرابلسية البرقاوية، أم فى صورة الإقدام على "العمل المجدى" الذى فصل السعداوى خطته فى رسالة ٢٨ فبراير. ولذلك فقد قاوم شكيب إرسال فكرة الحركة العسكرية مقاومة حاسمة، ظهرت آثارها فى كل فقرة من فقرات رسالته الأخيرة المهمة. ثم عرف كيف يسوق الحجيج لبيان أن المفاوضة فى مسألتى الثمانين ألفاً والزوايا السنوسية لا تمنع المطالبة فى الوقت نفسه أو بعد ذلك بكل بنود ذلك (اليوغرام) الذى يستمسك به بشير السعداوى، وأن هاتين المسألتين "مقدمة" وليستا "نهاية" وأنهما على درجة عظيمة من الأهمية بخلاف ما يبدو للسعداوى. وقد حذر شكيب إرسال من أن يتحمل مسئولية تعطيل هذه المفاوضة.

والذى نود أن نلفت النظر إليه أن كتاب الأمير شكيب بالرغم من طوله وكثرة "المواد" التى أتى بها لتأييد "مفاوضته" لم يشر إطلاقاً "للحكومة الوطنية" أهم أركان (الميثاق القومى) من غير نزاع، أو لتلك "المعاهدة" التى

وجب إبرامها مع إيطاليا ضماناً لاعتراف هذه بالحقوق التي تعيدها لأصحابها الذين اغتصبوها منهم.

ولم يكن اقتناع بشير السعداوى بكل هذه الحجج التي ساقها الأمير شكيب كبيراً، ومع ذلك فهو لم يكن يريد أن يفهم هذا من استمساكه بالمطالب الجوهرية في (الميثاق القومي) أنه لا يأبه لما يصيب إخوانه في المعتقلات أو لا يعنيه ما يحدث للزوايا السنوسية. ثم إن السعداوى في غضون شهر مايو من سنة ١٩٣٣، كان لا يزال يعقد الآمال على نجاح "مباحثاته" هو مع المندوب اليوغسلافي، ولذلك فقد بادر يتهدئة خاطر الأمير شكيب وإن وجد التزاماً عليه في الوقت نفسه أن لا يتفرد هو بالفصل يف مصير هذه المفاوضة التي ابتدأت في جنيف على يد الأمير شكيب، ولا يتحمل مسئولية تعطيلها إذا أريد لها التعطيل، كما لم يشأ أن يتحمل مسئولية قصر هذه المفاوضة على موضوعي الثمانين ألف معتقل في سرت والزوايا السنوسية المصادرة، بدون المطالب القومية الرئيسية. فكتب للأمير شكيب يطمئنه ويهدئ نفسه، وكتب للأمير السيد محمد إدريس، يعرض عليه ما وقع، ويسأله المشورة. أضف إلى هذا كله أنه لم يكن يرى من الحكمة إغلاق الباب الذي انفتح للمباحثة مع إيطاليا، فقد لا يتمخض (المشروع اليوغسلافي) عن شيء - ولم يمض طويل وقت حتى كان هذا المشروع، قد أصبح نسياً منسياً - وقد ثبت أن باب المفاوضة هو وحده الموصل لحل القضية الطرابلسية البرقاوية، وأن الاتفاق على مسألتى الثمانين ألفاً والأملك السنوسية إن هو إلا بداية لتفاهم أوسع مدى واتفاق أوفى.

في رسالته للأمير شكيب أرسلان في ٢٤ محرم ١٣٥٢ الموافق ١٨ مايو ١٩٣٣ كتب بشير السعداوى: "أخذت كتابكم الكريم وقرأته بانتباه مادة مادة فإذا بكم قد وفيتن الموضوع حقه من البحث والتحليل وأبديتن من الآراء الصائبة والنصائح الثمينة ما لا يسعنا إلا أن نشركم عليه وإضافته إلى مالكم

من مآثر وجهود فى قضيتنا . وليس لنا ما نعلق به على أية مادة من موادها
فجميعها مسلمة لدينا . ولكنى أحب أن أريكم إيضاحاً عن كتابى الماضى فقد
يكون فيه شى من الاختصار أوجب اهتمامكم وظنكم أننا فهمنا من كتابكن
الأول غير ما أردتم فى بعض جملة فنحن يا مولاي لم نعتقد قط أن الشخص
إنما أتاكم ليفاوضكم فى قضيتنا خاصة فاقصرتم فى التحدث إليه على قضية
الثمانين ألفاً وأملاك السنوسيين . هذا والله لم يخطر لنا ببال ونحن نعلم أنه
لو أتيحت لكم مثل هذه الفرصة ما تركتم مطلباً فيه مصلحة لشعبنا إلا
طلبتموه ولا حقاً مغتصباً من حقوقه إلا وقفتم فى الدفاع عنه موقفاً لا هوادة
فيه ولا لين بل الذى اعتقدناه وفهمناه من كتابكم من أول الأمر أن الرجل إنما
جاءكم ليحدثكم عن شئون إسلامية عامة - ومسألة طرابلس منها - فأبديتم
له استياء العالم الإسلامى من أعمال حكومته فى ذلك القطر . ولما كان قد
سبق لعطوفتكم معالجة الثمانين ألفاً وأملاك السنوسية فى مجلتكم الغراء ، أراد
أن يظهر لكم استعداد حكومته للتفاهم فى هاتين المسألتين إزالة لما علق بأذهان
المسلمين من سوء الظن بإيطاليا وأعمالها واسترضاء لكم ، هذا ما اعتقدناه
ونحن نقدر لكم هذا العمل حق قدره ولا نعهد تافهاً بل بالعكس نعهده
عظيماً ونراه أهم ما كنا نشكوه من مظالم فما غذا زال من طريقنا وفرغنا منه
(سرنا) للعسى فى إزالة غيره ونوال حقوقنا المغصوبة . وقد استهللت كتابى
الأول بهذه الجملة : إنه ليسرنا الخ إظهاراً لهذا التقدير . وأما الجملة التى أظنها
هى التى أثارت اهتمامكم وهى : فنحن قد أضفنا هؤلاء إلى من ضحينا الخ
فهذه جاءت فى صدد تبيان مطالبنا الأساسية وميثاقنا الوطنى وأرى أنكم
تشاركوننا الرأى فى أن توضيح هذا العدد وأكثر منه أمر لا تحجم عنه أمة فى
سبيل حريتها ومطالبها الأساسية ولكن استمسكنا بهذه المطالب واستعدادنا
للتوضيح بكل شىء فى سبيلها لا يمنعنا من الترحيب الاغتيال برفع أية ظلامة
مما نشكوه علماً منا بأن هذه المظالم إذا لم يكن فى مقدورنا أن نزيلها عن
شعبنا جملة فمن خطل الرأى أن لا نعد دفع بعضها فوراً نتقدم بالشكر الجزيل

لمن كان سبباً فيه وبشارة بيوم ترتفع فيه بقيتها. وثق يا شيدى الأمير بأننا نعول عليكم فى معالجة قضيتنا ونعدكم زعيماً مفوضاً عنا فى المطالبة بحقوق بلادنا بكل الوسائل كما هو شأنكم فى الدفاع عن بقية البلاد الإسلامية. أخذ الله بيدكم وأطال الله بقاءكم.

وفى نفس التاريخ (١٨ مايو ١٩٣٣) كتب السعداوى إلى سمو الأمير إدريس ما يأتى:

تلقيت من إحدى الشخصيات البارزة كتاباً يذكر لى فيه أن موظفاً كبيراً من وزارة الخارجية الإيطالية راجعة فى خصوص قضيتنا وأظهر له قلق حكومته من الدعاية الشديدة والحملات الموالية الموجهة من قبلنا ضدها. فأجابه إنكم أنتم المعتدون وأنتم الذين أغضبتم المسلمين بسبب الفظائع التى تقتربونها فى القطر الطرابلسى البرقاوى ووجه إليه عبارات النصيح بالعدول عن ترك الساسية الهوجاء التى تتمشى عليها حكومته، فأنكر ما نسبته إليها غير أن هناك تدابير عسكرية لم تر الحكومة بدا من الإتيان بها، وبعد بحث طويل اقترح عليه صاحبنا أنه يجب مبدئياً أن تعيد الحكومة الإيطالية بقية الثمانين ألفاً المبعدين فى جهة سرت إلى وطنهم الجبل الأخضر وان ترجع الزوايا المغصوبة إلى السادة السنوسية، فأجاب الشخص الطليانى أنه يعرض هذا الاقتراح على ذوى الحل من رجال الحكومة. وكتب إلينا صاحبنا يستطلع رأينا فى هذا الموضوع. فأجبناه فوراً: (إنه ليسرنا أن يفرج الإيطاليون عن إخواننا المبعدين عن أوطانهم وان يعيدوا للسادة السنوسية زواياهم المغصوبة، وأننا نعد هذا العمل منهم - إن فعلوه - مقدمتهم لإدارتهم الخطل العظيم فى معاملة شعب بتلك الشدة إلا أن هدفنا الأسمى الذى ناضلنا ولا نزال نناضل من أجله هو تحقيق ميثاقنا الوطنى وفى مقدمة مواده الاعتراف بإمارة القطرين الذى اجتمعت الأمة على المطالبة به كاملاً غير منقوص، وأنه لا يرضينا ولن يلوننا عن الكفاح سوى تحقيقه، وبدونه لا يهدأ لنا بال ولن يستقر بنا حال

الخ) ومع ذلك فقد تركنا أمر معالجة إعادة المبعدين والزوايا لصاحبنا ولذلك أحيينا أن نعرض لسموكم هذه القضية لتحيطوا بها علماً ولكي تفضلوا علينا بإبداء رأيكم الصائب فى هذا الموضوع وكل ما يجد نعرضه على سموكم لتبادل الراى ونسترشد بحكممكم السامية وإننا لا نرى حاجة لاستلفات نظركم بأن تكون هذه المسألة فى طى الكتمان إلى أن نصل إلى نتيجة إما بالسلب أو الإيجاب لأن أقل بادرة تظهر فى إفشاء هذا السر تعرقل المسعى وتجعل الخصم يحكم علينا بعدم النضوج فى السياسة التى من شرطها الكتمان فيما يجب كتمانها، وترونى فى انتظار إشعاركم بفارغ الصبر الخ.

وقد أيد الأمير السيد محمد إدريس الخطة التى سار عليها بشير السعداوى فى كتاب بعث به إليه فى غرة صفر ١٣٥٢ الموافق ٢٦ مايو ١٩٣٣، كما أن سمو الأمير السيد إدريس نقل إلى السعداوى فى هذه الرسالة خبر جماعة من أهل مصراته "كتبوا عريضة مع إرسال تلغراف لجلالة ملك إيطاليا يهتونه بحضوره لبرقة، كما أبلغه أن الحالة فى برقة "لا تزال كما هى فى الشدة والمحاييس لم يطلق منهم أحد سوى "قليلين. وفيما يلى نص هذه الرسالة:

حضرة صاحب العزة بشير بك السعداوى دام محفوظاً

بعد التحية والسلام. ورد لنا خطاييكم المؤرخان ٧، ٢٤ محرم سنة ٣٥٢ وما ذكرتم بهما علم وأشكركم على شعوركم الرقيق وعواطفكم الحسنة نحونا جميعاً جزاكم الله خيراً وبارك فيكم. كما أشكركم على كل المجهودات التى بذلتموها ولا زلتم تبدلونها فى سبيل تحقيق آمالنا وآمالكم وأغراضكم السامية سهل الله لكم كل سبيل وكلل خطاكم وسددها بالنجاح هذا وقد وصلتنا قصاصة جريدة فتى العرب واطلعنا على ما سطر بها ولكننا لم نجدوا لهذا الحزب أثراً بعد البحث عليه ولا للقائمين به. والله سبحانه وتعالى يقيناً وإياكم شر وكيد الكائدين ويوفق الجميع لما فيه الخير.

فيه جماعة من إخواننا مصراتة بلغنا بأنهم كتبوا عريضة مع إرسال تلغراف لجلالة ملك إيطاليا يهتونه بحضوره لبرقة فكل المهاجرين الموجودين هنا متأسفين جداً من هذا العمل ويعدونه فى غير محله . أضفتم إلى مجهوداتكم السابقة وسعيكم المتواصل مجهودات جديدة عظيمة أشكركم عليها وقد ذكرت أنه ورد لكن خطاب من أحد الشخصيات البارزة يذكر لكم فيه أن موظفًا كبيراً . الخ فنعم الاقتراح الذى اقترحه صاحب الخطاب على المفوض السالف الذكر ونعم ما أجيتموه به فهو عين الصواب ونحن موافقون عليه . وسيكون مكتوماً ومصلحة الوطن فوق كل شىء وهو شعارنا والميثاق الوطنى هو رائدنا وقبلة آمالنا وكل ما أتنا منهم وسائط فى السابق كالذى ذكرت من عنه الآن، جوابنا لهم أن الاتفاق يكون على أساس الميثاق الوطنى وهم يكابرون فى ذلك وأملنا يف الله أن يحقق كل آمالنا بسعادة الوطن ومساكينه (وللأيام حبالى يلدن كل عجيبة).

أخذنا خبر حقيقى يوم ٢٥ محرم سنة ٣٥٢ من برقة أن الحالة لا تزال كما هى فى الشدة والمحاييس لم يطاق منهم أحد سواء الذين بإيطاليا أو الذين ببرقة ولم تعاد لأحد أملاكه بل إن السلطة هناك أصدرت أمراً بعدم دخول العرب لمنطقة الجبل الأخضر من حدود برقة الحمراء إلى طبرق ومن يجوده بها يعاقب بأشد العقاب وطبعاً عندهم هو القتل وعلى ما بلغنا أن منطقة الجبل الأخضر قسمتها السلطة الإيطالية على العائلات الإيطالية لامتلاكه .

وأما ما ذكروه من إصدار عفو وطلق سراح ٣٠٠ سجين بمناسبة زيارة ملك إيطاليا كله هراء فى هراء والحدود من جهة السلوم وسيوة مقفولة كالسابق لا يأتى منها ولا يدخل لها أحد . والمولى سبحانه وتعالى أسأل أن يقيقن لخدمة البلاد ويكمل مساعيكم بالنجاح . وختاماً أدعو لكم بالتوفيق التام ودمتم والسلام، محمد إدريس المهدي السنوسى . غرة صفر سنة ٣٥٢ الموافق ٢٦ مايو سنة ١٩٣٣ .

اعتبر الأمير شكيب ما جاء فى كتاب السعداوى إليه فى ١٨ مايو، مسوغاً لأن يمضى فى مفاوضاته، مع الحكومة الإيطالية، واعتبر نفسه مفوضاً من قبل المجاهدين فى المهجر، وعلى نحو ما أبلغه السعداوى نفسه فى كتابه هذا، فى هذه المباحثة التى ارتضى أن تقوم على الأساسين اللذين اقترحهما هو نفسه - أى الأمير شكيب - لها، ثم إن الأمير شكيب لم يلبث أن راح يذيع عما سماه "برنامج" و"بروغرام" فى الصحف، ويدعو للتقرب إلى إيطاليا، وقد صادف فى الوقت الذى شرع يذيع فيه "بروغرام" فى قضية طرابلس برقة، أنه كان يدعو كذلك جهراً وعلانية للمشروع الذى أيده طويلاً، وهو الاتحاد بين سوريا والعراق، وكان هذا المشروع يلقي معارضة لها خطرهما حيثئذ. فنشأ من موقف الأمير شكيب فى هذين الموضوعين، أن أثرا عليه من خصومه حملة من الطعن والتجريح قوية. ونحن وإن كنا سنعرض لهذه الحملة قريباً فيما يتعلق منها بالقضية الطرابلسية البرقاوية، فإن الذى يعيننا ذكره الآن هو أن السعداوى إزاء توضيحات شكيب أرسلان فى الصحف عن "بروغرام" وقصر الاهتمام فى المباحثة مع الطليان على مسألتى "الثمانين ألفاً وأملاك السنوسية" وحدهما، ودون محاولة الكلام فى المطالب الوطنية التى لفت السعداوى نظر الأمير شكيب إليها، ولم يسعه إلا أن يزداد استمساكاً بضرورة أن يقوم كل تفاهم مع إيطاليا على أساس المطالب التى تضمنها (الميثاق الوطنى) بحذاقها. وأنه وإن بدأ الطليان بالتراضى على المسألتين المعروفتين، فلا مناص من أن يكون مفطوعاً به أن يلى ذلك فوراً التفاهم على سائر المطالب والاتفاق على إقامة الإمارة الوطنية الإسلامية فى طرابلس برقة، أى فى الأقطار اللبية موحدة وفقاً للقرارات المتخذة فى غريان وسرت. ولم يرض الأمير شكيب عن تصلب السعداوى، وراح يشكوه للسيد عبد العزيز الثعالبى، وأبلغ الثعالبى هذه الشكوى السعداوى. ودارت فى صدد ذلك كله مراسلات استغرقت الشهور الباقية من هذه السنة (١٩٣٣) وهى مراسلات توضح ما جرى من أحداث من ناحية، وتذكر من الوقائع ما

تمهد معرفته للموقوف على أصول حملة التجريح التي أثّرت في هذه الظروف ضد شكيب أرسلان، والتي استمرت مدة طويلة بعد ذلك.

وأول هذه الرسائل كتاب من شكيب أرسلان، إلى بشير السعداوى من جنيف في ٣ ربيع الأول ١٣٥٢ الموافق ٢٦ يونيه ١٩٣٣، يقول فيه: "أخذت كتابكم رقم ٢٣ محرم (وصحتها ٢٤ محرم) وفهمته وسررت بأنه لم يغرب عنكم ما أردت في كتابي السابق ثم إنكم لا تجهلون إن خدمة هذه الأمة تكون من باب واحد، فكما يجب أن يكون فيها قلم، وكما ينبغي أن يكون فيها صراخ ينبغي أحياناً أن تكون فيها نجوى وكل شيء لازم للوصول إلى الصلحة. ونحن الآن معالجون دوراً لا نعلم هل يتم معنا أم لا وهل يتم كله أو بعضه لأننا لا نصدق حتى نشهد بالفعل، ونحن هنا بإزاء قوم أنتم أدرى بهم منا فلا يمكننا أن نثق أصلاً إلا بأعمال بارزة. ولقد كتب إلينا من رومة بأنه حصل كيت وكيت فأجبنا بالصراحة نريد أن نصدق بأن كل هذا حصل لأنه مصلحة الفريقين ولكننا نحب أن نثبت الأخبار. وفعلنا كتبنا إلى مصر نستعلم عن الذين جرى إرجاعهم إلى الجبل الأخضر وعن السياسة الجارية الآن هناك.

نعم كتبت المقالة التي كتبتها (في الجامعة العربية) تحت عنوان المسلمون وإيطالية ولا بد من أن يكونوا اطلعت عليها. وبعد أن جاءت المقالة بعثت بها مع مقالة مؤيدة لها لصاحب الجامعة وذلك إلى ومة في ضمن كتاب أجبته به على كتاب وارد من هناك وقلت لهم يترجموا كلامي بالحرف فإن فيه ملخص برنامجي وهذا جرى من نحو جمعة. وسأرى ماذا يكون من جوابهم فإنهم قد عرفوا الآن بروغرامى الذى هو تحت إمضائى والذى هو منشور فى جريدة سيارة: نريد التقرب كما يريدون التقرب، نشكر على بعض أعمال سياسية بدت منهم لكننا لا نقدر أن نترك إخواننا الطاريلسيين ولسنا ممن يقول لا تهمنا الجامعة الإسلامية كما يقول كثيرون اليوم، ولسنا يقول علينا ببلادنا فقط كما

يقول بعض حمقى المسلمين الذين يظنون أنفسهم ممن يفهمون شيئاً وهل أضل من أولاد اليرابيع. كلا نريد أن يتغير طرز الإدارة فى طرابلس ويعاد المنفيون وتعاد الأراضى ويشارك الأهالى فى إدارة بلادهم. وهذا كله كلام إجمالى لم أدخل فيه بالتفصيل وبالاختصار هذه تجربة نجربها وخط الرجعة غير منقطع وعلى الله الاتكال.

وواضح أن شكيب أرسلان قد صار يذكر الآن ضرورة تغيير طرز الإدارة، وأن يشترك الأهالى فى إدارة بلادهم. وذلك كمان تقدماً على آرائه الأصلية، مبعثه ولا شك استمسال السعداوى بمطالب البلاد كما تضمنها الميثاق الوطنى. ولو أن الأمير شكيب فى هذه الموضوعات بالذات لم يكن قد خرج من مباحثاته مع الطليان، عن دائرة "الكلام الإجمالى".

وفى ١٨ ربيع الآخر ١٣٥٢ (الموافق ١٠ أغسطس ١٩٣٣) كتب الأمير شكيب أن "الطليان بعثوا لنا بأوراق تتضمن التدابير الجديدة التى اتخذتموها لأجل إعادة أهالى الجبل الأخضر إلى أوطانهم وغير ذلك من التدابير العائدة لمصالح المسلمين. ونحن أرسلنا إلى مصر استعلاماً من جملة جهات حتى نعلم الصحيح من هذه التدابير. نعم إنهم قائمون بدعاية لإظهار حسن معاملتهم للمسلمين ولكن الحقيقة لا يمكن أن تخفى لى سلباً ولا إيجاباً". وفى هذه الرسالة يذكر كذلك الأمير شكيب أن (حاضر العالم الإسلامى) قد صدرت طبعته الجديدة "وفيه مئة صفحة بالجزء الأول عن طرابلس الغرب وفيه كل ما يلزم من المباحث ومن ذكر فظائع الطليان وكذلك فى الجزء الثانى عدة صفحات من جملتها تقريركم بنصه...". وقد سبق إثبات هذه الرسالة.

وكانت "الحقيقة التى لا يمكن أن تخفى" أن الإيطاليين استمروا فى سياستهم، وأن أحداً من هؤلاء المعتقلين فى صحراء سرت، لم يعد إلى أوطانه أو تردد إليه أملاكه وأرضه المغتصبة. ولما أن كان الأمير شكيب قد

كتب إلى السيد عبد العزيز الثعالبي يشكو من "عناد" بشير السعداوى. فقد كتب هذا إليه فى ٥ رجب ١٣٥٢ و ٢٤ تشرين أول (أكتوبر) يطلعه على حقيقة الحال فى برقة وطرابلس، ويؤكد له استمرار الطغيان الفاشيستي على أشده، ولو أنه يعترف أن طريق "المفاوضة" للوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه به هو الوسيلة العملية الباقية. ويقر شكيب إرسال على وجهة نظره بأن الاحتجاجات - وذلك كل ما استطاع العالم العربى أن يسديه من تأييد لقضية طرابلس برقة - ليست سوى "جعجعة من غير طحن". وفيما يلي نص كتاب السعداوى:

... الأمير شكيب. اطلعت على صورة من كتابكم المرسل إلى السيد اليعالبى وكل ما تضمنه هو عين الصواب وليس لنا اليوم يا سيدى الأمير من وسيلة ندفع بها طغيان الإيطاليين سوى السعى فى تخفيف وطأة تسلطهم على أبناء قومنا المعذيين، والتحفظ بما فى نفوسنا من حس الانتقام إلى سنوح الفرصة التى نترقبها ترقب الظمان للماء البارد، فالإيطاليون قد استحوذوا على البلاد وأخذوا يعيشون فيها الفساد ولا يهمهم ما ينسب إليهم من همجية لأنهم يعلمون جيداً أن الذى يود أن يتصدى لزجرهم أو انتقادهم من الدول الأخرى هو كذلك يفعل بالأمم الضعيفة ما تفعله إيطاليا هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهم على يقين بأن الذين نستفزههم همهم بصيحاتنا لا تتجاوز أعمالهم الاحتجاج على صفحات الجرائد "وهى جعجعة بغير طحن" هذه حقبة وإن كانت مرة لكن عدم الاعتراف بها يعد مكابرة وإنكار للمحسوس لأن العالم العربى مشغول بمصائبه. وإننى قد تلوت الكتاب المار الذكر بكل دقة وإمعان فما وجدت فيه إلا كل ما هو منطقى ومعقول. فسر يا سيدى الأمير فى هذا السبيل على بركة الله عسى الله أن يجعل على يدكم فرجاً لذلك الشعب الذى لم أر من المسلمين من يهتم لأمره ويتوجع لمصابه سواكم حياكم الله وأبقاكم. وترانى يا مولاي عاجزاً عن إيجاد عبارة أترجم بها عما فى نفسى من ابتهاج وسرور بتضمينكم فصولاً ضافية لحاضر العالم الإسلامى الذى طبع

من جديد. فهذا الكتاب سيقراه ألف من المسلمين ويطلعون فيه على أعمال إيطاليا فى طرابلس ولا أعتقد أن أحداً رماها بسهم دام كهذا السهم الذى رميتها به هذه المرة. جزاكم الله عن المسلمين أحسن الجزاء. خرج هذه المرة من طرابلس رجل وصل إلى دمشق وأخبرنا بمظالم الإيطاليين فى ذلك القطر المنكود وأخذنا ندون ما يرويه لنا من الحوادث التى تنفطر منها الأكباد. فالحجر يقذف من طغام المستعمرين الطائفة والحكومة تسلمهم الأرضاء بسخاء حاتمى والفقر يفتك بالأهلين، ولم يترك لهم الإيطاليون باباً للرزق إلا وسد فى وجوههم، إنما الأمر الذى هو جدير بالذكر أن العنف والجور والتضييق الشديد الذى نول بالسكان ولد فى نفوسهم فكرة المقاومة، فبعد أن كان الرعب مستولياً على قلوبهم أخذت تدب فيهم روح الاستبسال وعدم المبالاة بالموت، فقد أخبرنى هذا الرجل أنه لا يمضى يوم إلا وتقع فيه حوادث عديدة بين الأهالى والإيطاليين من الجنود والمستعمرين (والمقصود هنا الطليان الذين جلبوا لتعمير الأرض، وعرفوا باسم المعمرين، وتجد قصة هؤلاء فى كتابنا (السوسية دين ودولة) وذلك كما ترى بدلا من إرجاع الثمانين ألف عربى إلى أوطانهم وأراضهم على نحو ما كان يؤمل شكيب أرسلان) فلقد كان المسلم يرى أخاه المسلم يحل به العذاب ولا يجسر أن ينبس ببنت شفة. أما اليوم فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى فقام فريق من الناس يدفعون عن بنى قومهم ذلك الشر المستطير. وكلما رأوا من إيطالى أدنى تجاوز ينقضون عليه انقضاضاً حتى صار الإيطاليون يخشون بأسهم وهذا الفريق من الناس لا يفعل غيلة أو خفية عن أعين السلطة وإنما يفتكون بالمتجاوزين من الإيطاليين عليهم وجهاً لوجه أمام السلطة ويأتون للسجن وهم فرحون وقد أكد لى هذا الرجل أن بعض الجنود وبعض المستعمرين إذا وجدوا من هؤلاء الفريق أناساً جالسين فى المقاهى لا يدخلونها خيفة بأسهم. ثم بشرنى بشيء آخر وهو أن طلبة العلم من الطرابلسيين الذين يتممون علومهم بالأزهر الشريف ويعودون إلى أوطانهم أخذوا يقيدون النشء الحديث، وقد أسسوا شبه معهد يعلمون فيه

أبناء البلاد وينفثون في روعهم روحاً طيبة . وإذا لم تتصد الحكومة الإيطالية لمنع هذا التعليم فستكون نتائجه حسنة أما في جهة برقة فالحالة تعيسة جداً وقد كتبت إلى بعض الإخوان أستفهم منهم عن الحالة الحاضرة في برقة ، وعندما نأخذ التفاصيل عما هو جار هناك نعرفكم لتكونوا على علم بالحالة الراهنة . أخذ الله ييدكم وكلل مساعيكم بالنجاح .

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٣ ، كتب بشير السعداوى إلى الأمير السيد محمد إدريس . يذكر له شكوى شكيب أرسلان منه ، وكتاب هذا الأخير إلى عبد العزيز الثعالبي في هذه المسألة . ويبعث للأمير السيد إدريس صورة من كتاب شكيب إليه هو نفسه في نفس المعنى . ويرجو الأمير السيد إدريس أن يقرأ يامعان كتاب أرسلان إلى الثعالبي الذى يعنى فيه على تجاهل الحقائق وعدم الاعتراف بالأمر الواقع ، ويدعو فيه للتفاهم مع الطليان على الأساسين اللذين قامت عليهما "المفاوضة" أصلاً بينه وبينهم . فكتب السعداوى ما نصه :

سمو الأمير إدريس . كان مكتب المؤتمر الإسلامى قد عهد إلى بالمفتشية العامة في البلاد السورية وبتأليف اللجان في جميع المدن . فمن مدة أربعة أشهر قد انهمكت في تعقب هذا العمل وطففت ببعض الأماكن لهذه الغاية . وهذا هو السبب الذى حال دون اتصالى بسموكم بالمكاتبة ، والآن وقد عدت إلى دمشق لاستئناف متابعة قضيتنا التى عاهدت الله وإخوانى على الجهاد في سبيلها إلى آخر نفس بلا كلل ولا مذب - كنت قبل هذا عرضت لسموكم أن مفاوضة جرت في إعادة الثمانين ألفاً الذين اعتقلوا في العقيلة ، وفي إرجاع أوقاف الزوايا السنوسية وهذه قد جرت بين عطوفة الأمير شكيب أرسلان وبين رجل إيطالى أوفدته وزارة الخارجية بصورة غير رسمية ، ولا تزال هذه القضية في أخذ ورد ، وقد أخذت في هذه المرة صرورة كتاب من الأمير المشار إليه كان بعث به إلى السيد الثعالبي ليطلعنى عليه . وكنت قبله (أخذت كتاباً) لم يكن بعيداً عن هذا (في معناه) فوددت تقديم صورتين عنهما لما فيهما من

معلومات هامة عن المحادثة التى نحن بصدددها أحبيت أن أقدمها لسموكم
لتحيطوا علمًا بذلك. وإنى قد أجبت الأمير شكيب وشكرته على اهتمامه
بهذه المسألة. إذا (من المحتمل) أن يوفق فى مسعاه للإفراج عن إخواننا
المبعدين فيكون قد حل إحدى العقد التى يهمننا تسويتها، أما نحن يا سيدى
الأمير - فكما بينت لسموكم فى كتاب قبل هذا - أننا لن يهدأ لنا بال ولا
يستقر لنا حال قبل أن نظفر بتحقيق أمانينا الوطنية، وحقوقنا التى ضحينا فى
سبيلها بكل مرتخص وغال. كيف يهدأ لنا روع والإيطاليون فى كل يوم
يتغلغلون فى أوطاننا ومعاولهم تعمل فى تحطيم كيانتنا، إننا كلما تعاقبت الأيام
والسنوات لم نزدنا إلا حرقه على ذلك الوطن الذى أصبح مسرحًا يمثل فيه
علوج الإيطاليين أفضع الأدوار المحزنة، وإننا كلما استعرضنا حالة شعبنا المنكود
الذى هضمت حقوقه وسلبت حريته ونهبت أمواله تكاد نفوسنا تزهق من
الحزن والأسى، ولولا الآمال المعقودة على حلول يوم نأخذ فيه بالثأر ونتنقم
فيه من أولئك الكفار لذابت قلوبنا حسرة ولتقطرت محاجرنا وقاضت
مرائنا. ولكن ظننا فى الله جميل. إن تلك الساعة التى نترقبها ليست ببعيدة
خصوصًا وأن جو السياسة فى أوروبا يزداد كل يوم تلبدًا واكفهرارًا وهذا ما
يبعث فى نفوسنا الرجاء ويجعلنا (نجمع) العزم ونتذرع بالصبر والحزم.
ولذلك ترانا يا سيدى الأمير نقابل الحوادث بقلوب عامرة بالإيمان والثقة
بالمستقبل والله مع الصابرين، هذا وإننا نرجو من سموكم - وأنتم محط
الآمال - أن تكونوا عند ظننا فيكم وأن تعرفونا عما هو جار فى ذلك القطر،
وهل الإيطاليون أعادوا إلى الجبل الأخضر من سكانه أحدًا؟ وهل غيروا من
سياستهم الهوجاء شيئًا؟ فأكرر رجاءنا أن تقرأوا كتاب عطوفة الأمير السيد
الثعالبي وتعرفوا بالحقائق الراهنة وبما أحدثه الإيطاليون من خير وشر وإن كنا
لا نعتقد فيهم الخير، ولكن لنقابل الحجة بالحجة وترانا يفت انتظار إشعاركم
المفصل بفارغ الصبر، ومن طرفنا عموم الإخوان يهدونكم عطر السلام ومنى
عليكم أتم السلام وأعمه.

د - استمرار المفاوضات مع إيطاليا "وقضية" الأمير شكيب

تضافرت العوامل العديدة إذا على إقناع بشير السعداوى بأن "المفاوضة" هى الطريق المفتوح للوصول إلى تفاهم إيطاليا. ولذلك فقد استمرت حملة الدعاية - السلاح الممهد للمفاوضة والموصل إليها - على أشدها فى غضون سنة ١٩٣٤، واستمرت محاولات التأثير على الحكومة الإيطالية كى تستجيب لمطالب الوطنيين من جهة، واستمسك السعداوى بضرورة أن تشمل مباحثات شكيب أرسلان مع مندوبى الحكومة الإيطالية هذه المطالب الوطنية من جهة ثانية، وإن كان السعداوى قد حرص فى كل الأحوال على مؤازرة شكيب أرسلان وتشجيعه والدفاع عنه.

وقد شغل السعداوى فى النصف الأول من هذه السنة بموضوع الحرب اليمنية - السعودية التى سبق ذكرها. فكان الأمير شكيب هو المصطلع بالمفاوضة وحده. وسوف نرى أن جعل اهتمامه منحصراً فى مسألتى إعادة الثمانين ألفاً لا يزالون فى معتقلات سرت والعقيلة - أو ما تبقى منهم فى هذه المعتقلات إلى أراضيهم ومظاعنهم فى الجبل الأخضر، وما يتبع ذلك من إجراء التحقيقات فى شأن هذه الأراضى المصادرة، ما سلم وأعيد لها فعلاً لهؤلاء العرب، وما بقى فى حوزة الطليان، وتلك كانت عملية شاقة، اقتضت من الأمير شكيب أن يبذل جهداً عظيماً، ولكن من غير جدوى.

وأما المسألة الثانية التى ظل مشغلاً بها فكانت إعادة الزوايا والأوقاف السنوسية المصادرة إلى مشايخها، وعندما قطعت المفاوضات شوطاً طويلاً دون أن تسفر عن تنفيذ شئ مما خيل للأمير شكيب أن الإيطاليين سوف يفعلونه حسب وعودهم له فى هاتين المسألتين، كان قد صار يجب أن يتجه إليه المسعى مع الحكومة الإيطالية قد أصبح خلافاً جوهرياً، وإن بقى بشير السعداوى يحرص على استرضاء الأمير شكيب ويدفع عنه الطعون التى وجهت إليه لما اعتبره كصيرون ميلاً ظاهراً نحو إيطاليا، ولم ير السعداوى من

الشهامة نكران صنيع شكيب أرسلان الذى خاص بكل ما لديه من قوة وسعة حيلة "حرب الأقلام" العنيفة التى أثارها السعداوى ضد إيطاليا.

بدأ النشاط إذًا فى مستهل هذا العام، بأن تستمر على حالها "المفاوضة" الجارية فى جنيف، وحاول بشير السعداوى من جانبه إبلاغ صوته وصوت إخوانه فى جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى إلى موسولينى، على أمل أن يلتقى فى ذلك الأمير شكيب مساعدة فى مباحثته واستطاع السعداوى أن يجد من بين الأصدقاء المقربين من رئيس الجمهورية السورية السيد محمد على عابد - وبين الرئيس العابد وبشير السعداوى صداقة كبيرة - أحد الإيطاليين من ذوى النفوذ لدى حكومته، من كان مستعداً لإسداء خدمة نافعة لقضيته، اعتقد أنها نافعة كذلك لبلاده.

وقد ترتب على ذلك، الاتفاق مع هذا الإيطالى على أن يبعث لرئيس الحكومة الإيطالية السنيور موسولينى، بالكتاب الآتى:

لى الشرف العظيم أن أتقدم بهذا الكتاب إليكم أيها الزعيم الكبير الذى يقدسه كل إيطالى ويجعله كل من عرف معنى البطولة والعبقرية، لأعرب لفخامتكم أننى وإن كنت لا أشغل بالسياسة ولكنى من المتفانين فى حب أمتى ومن الذين يتمنون لها المنزلة السامية بين الأمم، وقد دفعنى لكتابة هذه الأسطر أننى من مدة وأنا أسمع فى البلاد الإسلامية ضجة ودعاية قوية يقوم بها أناس ضد إيطاليا فأورثت ياف نفسى استياء وجعلتنى شديد الحرص على معرفة هوية القائمين بها وعلى السبب الدافع لهم على هذه الحركة العدائية، ونظراً لأننى أشغل مركزاً خاصاً لدى رئيس الجمهورية السورية فقد أعانى ذلك على معرفة القائمين بهذه الدعاية بسهولة وها أننى أحيط بفخامتكم علماً بما وصلت إليه من معلومات.

إن هذه الدعاية يقوم بها جماعة من الطرابلسيين تحت رئاسة بشير بك السعداوى، وهذا الرجل هو من أهالى مصراتة ومن الذين كانوا يقودون

القبائل فى الحروب الطرابلسية وقد فارق وطنه منذ عشر سنوات تقريباً واتخذ مركزاً لإقامته فى البلاد السورية، ووجد مساعيه مع رجالات العرب الذين يتطلبون للعرب الحرية والاستقلال. وقد تحققت بان هذه الجمعية لها اتصال بالجمعيات الإسلامية فى جميع البلدان الإسلامية ويزعم أعضاؤها أن فى طرابلس تجرى مظالم ترهق شعبهم، ولذلك فهم يثيرون المسلمين ضد إيطاليا بنشر الكتب والرسائل والنشرات خصوصاً ما يرسلونه من هذا القبيل فى كل سنة إلى الحجاز ويوزع على المسلمين فى موسم الحج، كما أن لهم فى كثير من الأقطار الإسلامية فروعاً متصلة بهم وتعمل بإشارتهم.

وهذه الحركة وإن لم تكن ذات تأثير فى كيان دولتنا المعظمة إلا أن استمرارها يחדش الأذهان ويصور الأمة الإيطالية بشكل لا يتناسب مع مكانتنا ومصالحنا الاقتصادية.

لذلك رأيت من واجبى أن أسعى لأن أجتمع برئيس هذه الجمعية وأقف على نواياه ومقاصده، وقد اجتمعاً به فسألته عن سبب قيامه بهذه الدعاية ضد الدولة الإيطالية، فأجابنى: إننى قبل كل شىء أبين لك أننا الطرابلسيين لا نشك فى أن إيطاليا من الأمم الأوروبية التى لها من المدنية قسط وافر وأنها أقرب الأمم الأوروبية إلى الأمة العربية، وأنا لا ناف من أن نتخذ من الأمة الإيطالية وسيلة توصنا إلى معارج الرقى فى العصر الحاضر وإنما نشكو من إيطاليا أنها لم ترع لنا حقاً ولم تحترمنا كشعب عربى له ماض تاريخى لا مع، مع أن بقية الشعوب العربية التى احتل الأجانب بلادهم كلهم يتمتعون (بحقوقهم وحررياتهم بلا خوف). وسبب هذه القسوة التى تعاملنا بها إيطاليا هو عدم معرفتها بنفسية العرب الذين أخذوا يشعرون بضرورة النهوض ويطالبون بالحرية والاستقلال.

وبعد أن عدد أشياء كثيرة يشكو من وقوعها فى طرابلس، قال: لو كانت إيطاليا أصغت إلى رغائبنا المحقة التى لا تتنافى مع المصالح الإيطالية

التي جاءت من أجلها إلى بلادنا لما حصل كل هذا التوتر. ثم قال: إن إيطاليا اليوم تسعى كل جهدها لأجل أن تتقرب إلى الشعوب العربية وهذا يمكن الوصول إليه إذا كنا نحن لا نشكو من السياسة الإيطالية وتجعل إيطاليا من بلادنا مثالا حسناً تبرهن به للعرب على نواياها الحسنة، وإلا فإنني أؤكد لكم أن الأمة العربية بأجمعها لا تطمئن للدعاية الإيطالية التي ترد منها التقرب إليها وفريق منها كالشعب الطرابلسي يشكو مم حل به.

ولما لم أكن حائزاً على صفة رسمية تخولني الخوض مع هؤلاء الأشخاص في هذه الموضوعات السياسية والأخذ والعطاء معهم. لذلك فقد اقتضت معهم عند هذا الحد، وإذا صدر أمركم بواسطة القنصل في البلاد السورية بأن أتوسع أكثر من هذا القدر فإنني مستعد وأملئ وطيد أن أصل إلى نتيجة حسنة أخدم بها أمتي التي أقدمها وأتمنى لها السعادة على يد فخامتكم وتفضلوا.

وهذا الكتاب يرسم - وإن كان في صورة موجزة - برنامج بشير السعداوي كمشروع مقابل للتفاهم مع إيطاليا، لمشروع أو بروغرام شكيب أرسلان. فإن السعداوي في كلامه الذي نقله كاتب هذه الرسالة إلى رئيس الحكومة الإيطالية، لم يذكر أنواع المظالم التي أوقعها الإيطاليون بالشعب الطرابلسي البرقاوي، ولم يتعرض في شيء ما لمسألتى الثمانين ألفاً والأملالك السنوسية، وهما ما كانت لا تزال تجرى بشأنهما المفاوضة في جنيف مع شكيب أرسلان، ولكنه تكلم عن حقوق العرب وحررياتهم والتي يجب أن ينالوها كما نالها غيرهم من الشعوب "التي احتل الأجانب بلادهم"، كما أنه تكلم عن "الحرية والاستقلال". ومعنى هذا كله أن السعداوي يبنى مشروعه على أساس (الميثاق الوطني - أو القومي - للشعب الطرابلسي البرقاوي) المعروف. وأهم الأغراض التي ذكرها هذا الميثاق إنشاء الإمارة الإسلامية التي تقوم بحكومة البلاد حكماً وطنياً على قواعد دستورية سليمة، وإبرام معاهدة مع إيطاليا تحفظ "مصالح" الطرفين.

ومع ذلك فقد استمر الأمير شكيب فى مباحثاته على الصورة التى بدأت بها هذه أصلاً أما ماذا تم فى شأن هذه المباحثة، وماذا ترتب عليها فذلك ما تكشف عنه رسائل الأمير شكيب إلى بشير السعداوى تارة من جنيف وأخرى من برلين - التى كان سافر إليها فى أواخر سنة ١٩٣٤ - ليستأنف كتابتها من جنيف مرة أخرى.

وأول هذه الرسائل التى لدينا، كتاب من جنيف فى ٣٠ جمادى الآخرة ١٢٥٣، الموافق ٩ أكتوبر ١٩٣٤ "لأخيه البشير" إليك نصه:

جاءنى الأخ إحسان سامى حقى من الشام وأبلغنى سلامك وسرني أنك ولله الحمد بالصحة، ولكن ساؤنى ما أخبرني عن لسانك نقلاً عن أناس حضروا من طرابلس وهو أن العرب أهل الجبل الأخضر لم يعادوا كلهم إلى أوطانهم؟ والحال أن زعيم إيطاليا نفسه لما طلبت منه إعادة المنفيين والمشردين بأجمعهم قال لى: لا أظن بقى منهم أحد ولكنى مع ذلك سأسأل. لهذا أرجو منك أن توافيني فى الحال بماحدث به هؤلاء القادمون من طرابلس عن الأحوال كلها لكن بعد الاستقصاء منهم وتحليفهم أن لا يقولوا إلا الحق، وأن تأخذوا منهم ومن غيرهم معلومات: من الذين من عرب الجبل الأخضر باق قى صحراء سرت؟ ومن أى القبائل هم؟ وما عددهم؟

إنى أريد أن أعرف كل هذا حتى أراجع رومة وأذهب بنفسى لتعقب هذه المسألة وغيرها مما يتعلق بطرابلس.

إنى عندما مررت بصوع وأسمرة ونحن رجوع من الميمن (وفى هذا إشارة إلى اشتراك الأمير الذى كان عضواً فى وفد المؤتمر الغسلامى لفض الحرب بين الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى) جاءنى كل أعيان المسلمين وذلك من حجازيين ويمانيين ومصريين ومسلمين أحباش، وبأجمعهم أثنا على معاملة إيطاليا من كل الوجوه. واستقصيت فى السؤال وأجابوا عن كل شىء.

ومن يومين قرأت في جريدة "البوبلار" لسان الحزب الاشتراكي في فرنسا رسائل عن حوادث تونس يقول كاتبها إن من جملة أسباب هيجان التونسيين على فرنسا هو أن إيطاليا بدأت تحسن معاملة المسلمين في طرابلس، وأن فرنسا في تونس لا تريد أن تغير خطتها فهذا كلام له معناه. ومع هذا فافحص لى أنت فحصاً مدققاً وأجنبى عن حقيقة الواقع لأعلم ماذا أقول. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته - أخوك شكيب أرسلان.

وواضح من هذا أن الأمير شكيب بدأ يأخذ على عاتقه الدفاع عن إيطاليا. الأمر الذى وإن كان لا يزال بصورة مستورة حتى هذا التاريخ، فإنه ما لبث حتى صار بصورة سافرة وكان من أسباب الحملة العنيفة التى قامت لتجريحه والطعن عليه.

ولم يجب بشير السعداوى على هذه الرسالة، وكا فى أثناء هذا الإبطاء فى الرد على شكيب أرسلان، أن الأمير بعد عودته من مصوع وأسمرة فى أرتريا الإيطالية (وقتئذ) أخذ ينشر فى الصحف المقالات التى يشئ فيها على سياسة إيطاليا مع "المسلمين" فى تلك الأصقاع، ويؤيد موقفها من الحبشة فى الوقت الذى أخذ يشتد فيه التوتر بين هذه الأخيرة وإيطاليا، وهو التوتر الذى أفضى إلى اشتباك الأحباش مع الإيطاليين على الحدود عند (وال وال) فى أواخر هذه السنة نفسها فى الظروف التى سوف يأتى ذكرها فى حينه..

فكتب الأمير شكيب رسالتين إحداهما فى أثر الأخرى، يستفسر عن سبب تأخير جواب السعداوى على رسالته الأولى، ويتناول كذلك مسألة الذين لا زالوا مبعدين عن أراضيهم فى الجبل الأخضر.

فكتب من برلين فى ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٤ ما يأتى :

أخى البشير المحترم وفقه الله - كان الأخ إحسان سامى حقى أخبرنى عن لسانك أن عرب الجبل الأخضر الذين قال لنا الطليان إنهم أعيدوا قاطبة إلى أوطانهم لم يزالوا أو يزل أكثرهم منفيين فى صحراء سرت - فمع كون

المعلومات التى عندى من سمو الأمير عمر طوسون ومن نفس الأمير السيد إدريس السنوسى هى مؤكدة رجوعهم إلى أوطانهم. نعم مع رواية أن المنطقة الوسطى فى الجبل الأخضر لم يزالوا ممنوعين عنها فقد أحبت أن أراجعك لتتحرى لى الخبر وتستحلف المخبرين على المصحف الشريف هل هذا صحيح أم لا؟ وإن كان صحيحاً فما عدد الباقين من عرب الجبل الأخضر فى النفى؟ وما أسماء قبائلهم؟ وقد مضى شهر ونصف على سؤالى هذا إياك ولم تجاوب. فإن كان عدم جوابك مبنياً على كوننا نحن متفقين مع إيطالية وأنا صرنا نستحسن كل ما تفعله فائدة من الكلام معنا فى هذا الموضوع فتكون مخطئاً وأى خطأ أنت وكل من يعتقد ذلك. فنحن ما تفاهمنا مع إيطالية على هضم حقوق المسلمين ولا على هضم ذرة منها. بل العكس نحن لم نتفاهم مع إيطالية إلا على توفير حقوق المسلمين ورفع كل ضغط عنهم ومعاملتهم بالعدالة التامة والمساواة الكاملة حتى مع أنفس الطليان، وزعيم إيطالية قد وعد بذلك وعداً قطعياً. نعم لم يعد أن إيطاليا ستخلى طرابلس ولا نحن بلغ منا الجهل بالسياسة أن نطلب منه هذا لأننا نعلم أنه غير ممكن فى هذا الزمان. إلا أننا اقترحنا إجراء العدالة ورفع الظلم واحترام الدين والعرض والملك الشخصى والوقت الخ مما أملتته عليك فى الطائف - (وهنا إشارة إلى المكان الذى عقدت فيه المعاهدة التى أنهت الحرب بين اليمن ومملكة نجد والحجاز، وقد ذكرنا أن السعداوى وشكيب أرسلان كانا من وفد المؤتمر الإسلامى الذى توسط فى الصلح بين الدولتين العربيتين) وهذا كله حصلنا فيه على مواعيد صريحة. ولما جاءنا هذا الخبر بأن عرب الجبل الأخضر لم يعادوا بأجمعهم إلى أوطانهم بادرت حالاً بالكتابة إلى رومة مستعلماً وقائلاً: هذا ضد العهد الذى جرى. فجاء الجواب بالسرعة قائلاً بالحرف: "إن جميع ما صدر لك الوعد به سينفذ بحذافيرة وكل الأوامر قد أعطيت بهذه الشؤون والآن جار البحث عن قضية تنفيذ هذه الأوامر، وهل هناك تأخير أو تعويق أم لا؟ وعلى كل حال المرجو منك أن توضح هذه المظالم الواقعة أو نقط الشكوى مع تعيين

الأشخاص والأمكنة وذلك لأجل إماطة المظالم التى لم يحصل الانتباه إلى إزالتها حتى اليوم، وأن نعتقد تمام حسن النية الخ. هذا هو الجواب بالحرف.

فيا أخى أرجو منك أن تحرر لى فى جدول جميع هذه المظالم والمخالفات التى لم يجر إصلاحها مع تعيين الأشخاص والأمكنة ومن الجملة قصة المنفيين والمشردين إلى الصحراء أو غيرها. ونحن بعد ذلك نراجع نستند فيها على حقيقة لا مرء فيها. وإن نحن رأينا أنهم يقولون ولا يفعلون فلا يمكن التفاهم. فأما إذا كنا نعرف الحقيقة ونتجاهلها أو نقول خلافها اعتماداً على أنها بروباغندا فأقول لك: لا يجوز أن نعتمد على بروباغندا غير مستندة على الحقيقة إذ بعد ذلك لو قلنا الحقيقة لا يصدقنا فيها الناس. وأنا فى انتظار جوابك بعنوانى إلى جنيف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أخوك شكيب أرسلان.

وفى اليوم التالى ٢٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٤ كتب الأمير شكيب من برلين ما يأتى:

سعادة الأخ الكريم. من يوم كتب لكم مكرراً الاستعلام عن قضية عرب الجبل الأخضر وهل بقى منهم أناس فى التشريد أم رجعوا كلهم إلى أوطانهم وعما إذ كانت هناك مظالم جارية ورجوت أن لا يكون الكلام عاماً مبهمًا بل يكون مقرونًا بتوضيح الحوادث وتعيين الأماكن والأشخاص. فالיום جاءنى فى كتاب وسررت به لتبشيريه بصحة البشير وقرأته بتأمل فوجدت فيه صدى أنين إخواننا فى طرابلس، ولست معتقدا أنهم فى نعيم زائد، ولكنى لم أجد فيه سوى الشكوى المرسلة والانتقاد المجمل. تقولون إن الحالة أشد من ذى قبل وإنه لم يحصل اعتدال ألبته ولكن لا تذكرون لى حادثة واحدة يصح أن تقدمها شاهداً وأن نبني عليها. ولم أجد سوى قضية ذلك الطرابلسى الذى قال إن طليانى مسح حذاء بيرنسة. فمن هو ذلك الطرابلسى؟ وأين وقعت الحادثة؟ وهل راجع الطرابلسى البوليس أو دائرة من دوائر الشرطة

وأصمت أذنها عن سماع شكواه؟ كل هذا يا أخى لابد من توضيحه إذا أردنا أن نقدم شكوانا. تقولون إنهم لا يزالون يضبطون الأراضى فهل ذكرت لى الأراضى التى ضبطوها؟ وأين هى ومن جرى ضبطها؟ وما هى أسماء المضبوطة أراضيههم؟ حتى تراجع بهذا الشأن. إذا راجعنا قائلين: ضبطوا الأراضى وطرّدوا أصحابها وعملوا وتركوا ولم نعين لا أرضاً ولا صاحب أرض ولم نبين من التفاصيل ما لا يمكن معه نعقب القضية كان جواب الحكومة المحلية للزعيم الكبير أن هذه كلها شكايات غير صحيحة مصدرها البغض والعداوة إننى لا أجهل صعوبة التعيين والتدقيق فى هذه المسائل، ولكن مع الأسف بدون تعيين وتبين وتعميق لا يمكننا أن نقنع الزعيم بصحة هذه الشكاوى وأنت يمكنك مع الاعتناء أن تحصل على المعلومات اللازمة بتحديد المواقع وتبيين الأشخاص لو أخذ ذلك من وقتك.

من قبل قلت نقلنا عن القادمين من طرابلس: إن أكثر عرب الجبل الأخضر وبرقة لا يزالون مشردين، فلما طلبت منكم الإيضاح عن الأسماء والأعداد ورجعتم تحقّقون السؤال من أوائل القادمين عادوا فرجعوا عن كلامهم الأول وقالوا نعم عفوا عنهم ولكنهم لا يقدرّون أن يعودوا إلى أوطانهم فلبثوا هائمين على وجوههم فى البلاد. وأنا أقول لك إن هذا أيضاً ليس بصحيح بالتمام. نعم إننى عملت أن منطقة فى أواسط الجبل الأخضر لا يزال الطليان يعارضون فى إسكان العرب فيها ومع ذلك فإنى مباشر التحقيق عن هذه المسألة بواسطة الأمير عمر طوسون والأمير إدريس النسوسى حتى أعلم ما هى تلك المنطقة ومن أين تبدأ وإلى أين تنتهى وما طولها وما عرضها وذلك حتى إذا قدمت الشكوى لذلك الزعيم أكون عرفت ماذا أقول لأننى كما قلت وكررت لك أن الشكوى المبهمة التى ليس فيها تعيين حوادث وتصريح بأسماء لا يرجى أصلاً أن يكون لها نتيجة. نحن هنا لسنا أمام حكومة إسلامية تعودنا أن نقول لها ما نشاء وأن نسمع لنا، بل نحن أمام حكومة أجنبية غاية ما نرجو منها أن ترفع الظلم عنا وتعاملنا بالقانون

وبالمساواة مع سائر سكان تلك البلاد. فإذا حصلنا على العدل فهذا غاية ما يمكننا أن نرجوه منهم. فأما قولكم إنهم لا يزالون يتواوردون ألوفًا مؤلفة إلى القطر الطرابلسي ويتملكون فيه، فهذا يا أخى لا يمكننا أن نتكلم فيه. وهذا لا دواء له إلا القوة والسيف، ونحن لو كان عندنا قوة وسيف لكننا طردناهم ولم تكن محتاجين إلى المصانعة وطلب العدل والمساواة فهؤلاء ما جاءوا إلى طرابلس وتحملوا كل تلك الخسائر حتى يخرجوا منها وإن يخرجوا منها إلا بالقوة كما دخلوا بالقوة وقد أوضحت لكم أن جميع ما نقدر عليه هو طلب النصفة والعدل لا أكثر. وهذا لا يكون إلا بالشكايات الموضحة الميينة المعينة التى نقدر أن نقدمها للزعيم ليقنتع بسوء الحالة هناك. وفى كتابى السابق ذكرت لكم بالحروف ما وردنى من الكتابة الخاصة فى موضوع إعطاء المعلومات عن المظالم والمخالفات التى يشكو منها الطرابلسيون فأما الكلام العمومى الذى يتضمن هول الفظائع وشدة الإهانات وفيض الدموع واحتراق الضلوع وجميع العبارات المؤثرة بدون تعيين ولا توضيح فقد يكون ذلك صحيحا ولكن لا يفيدنا ولا يقنع الزعيم به. فأما أن إيطاليا جندب من أهالى طرابلس عشرين ألف نسمة لأجل أن تقاتل بهم الحبشة وأن مصدها بذلك من جهة قتال الأحباش، ومن جهة أخرى إفناء الطرابلسيين فلا أعتقد أنه صحيحاً إذ لو كان ذلك صحيحاً فهو خير مهم تنشره جرائد أوروبا وإن كان لهذا الخبر أثر الصحة فلا يكون تجنيد عشرين ألفاً بل تجنيد عدد قليل يساقون إلى مستعمرة الأترى (أترى) احتياطاً للطوارئ وأنتم بذكائكم ينبغي أن تعلموا أن عشرين ألفاً هم جيش حقيقية يلزم له نفقات كبيرة وإيطاليا لا تجند مثل هذا العدد إلا إذا كانت على أهبة الحرب ولا شىء يدل على أنها ستقاتل الحبشة فى الوقت الحاضر ثم إننى أظن أن هؤلاء الطرابلسيين هم الذين طلبوا الدخول فى الجندية ليعيشوا نظراً لحالة الفقر الشديد فى طرابلس بل فى كل الدنيا. مع هذا سأسأل عن هذه القضية من روما نقسها كما أنى قادر أن أعرف صحتها من نفس مصوع بواسطة من هناك من المسلمين. أما الدعاية الإيطالية فى

سورية وسريانها فيا ليت شعري ما الذى يدعونا إلى الشكوى منها؟ هل سورية هي الآن في يدنا؟ كلا فإذا وقعت دعاية فتكون منافسة لفرنسا. وماذا رأينا من الخير من فرنسا ما شاء الله؟ نحن ينبغي أن يكون مبدأنا لا فرانسية ولا إيطالية ولا دولة أخرى أجنبية وليس عندنا مكان لأجنى أيا كان. أما إذا كان الأجنى واطئاً كل شيء بقدمه فلا يصح لنا الترجيح بين الأجانب فكلهم على حد سواء. فقولكم إن في الدعاية الإيطالية خطراً على الوطن والدين والعروبة هذا صحيح لو كانت البلاد في يد أهلها، فأما وهى من أولها إلى آخرها تحت الحكم الفرنسى فلم نفهم وجه هذه الشكوى. ولقد مررنا فى مستعمرة مصوع وأسمرة وشاهدنا المسلمين من جازيين ويمنانيين ومصريين وأحباش مسلمين وسألناهم بالتدقيق فى إدارة إيطاليا هناك فلم نجد منهم أحد قال لنا كلمة واحدة تتضمن الشكوى من إدارة الطليان وبديهي أنك ستقول خافوا فتكموا عنكم الحقيقة وأجيبك على هذا بأنهم مهما كتموا فلم يكن طمس الحقيقة عنا قالوا إن الإيطاليين لا يتحاملون على المسلمين أصلاً وأن من المسلمين (مأمورين) عددهم يتناسب مع عدد المسلمين من الأهالى وقالوا إن لهم أحد عشر قاضياً شرعياً هم مستقلون فى الأحكام الشرعية لا يضغط عليهم أحد. وقالوا إن الأوقاف هى فى أيدي المسلمين لا يدخل الطليان فى شئ منها. وقالوا إن إيطاليا تبرعت بمبالغ لبناء الجوامع ومساعدة المسلمين وإن جامعاً فى بلدة اسمها قرن بته إيطاليا من كيسها. وقالوا إنه يوجد مبشرين ولكن دائرة عليهم محصورة فى نصارى الحبشة وأن الحكومة تمنع المبشرين من أن يبشروا بين المسلمين ولم يعهد أن مسلماً واحداً تنصر فى كل تلك البلاد، وذكروا من جملة ما ذكروه لنا فى مجالس متعددة أن بعض قوادهم يأمرزون البوليس نهار الجمعة إذا رأوا مسلماً وقت الصلاة خارج المسجد يسوقونه إلى المسجد جبراً. وسألتهم عن الأراضى بكل تدقيق فقالوا: إنه لم يغتصب الطليان شبراً من أراضى المسلمين - وقد وقع هذا الكلام منهم لا فى مجلس واحد وكان يحضر هذه المجالس غالباً السيد الدباغ المتهم

بالتحريك على جلالة ابن السعود فى عسير لأنه مقيم فى أسمىرة من مدة طويلة. وكان يوافق على كلام الحجازيين واليمنيين والمصريين والأحباش نعم ستقول لى إن الأهل الإريتري خضعوا لإيطاليا بدون قتال فلم ينتقموا منهم فأما أهالى طرابلس وبرقة فقد قاتلوا إيطاليا عشرين سنة فانتقموا منهم عندما ظهروا عليهم فهذا لا شك فيه وأن أول من أعلن ذلك ولم يخالجنى شك فى كل الفظائع التى وقعت من إيطاليا ولكنى أقول لك أن حالتنا الآن هى حالة من يقول لإيطاليا: نحن راضون منكم بالعدل والمساواة وباحترام الدين والعرض والملك الشخصى والوقف ومقترحون عليكم معاملة المسلمين بالحسنى واشتراكهم بحكومة فى البلاد. هذا قلته لك الطائف فى وكتبت به إلى مصر.

وعندى أنه فى الوقت الحاضر أن حصلنا على هذه الأمور سنكون سعداء. ولأجل أن نحصل عليها لابد من الشكوى عند كل مظلمة تقع، ولكن لابد من الشكوى المفصلة كما قلنا وكررنا.

وأما المسألة السياسية فلا بد لها من ظروف ثانية لا تخفى عنكم وسلامى إلى الأخ عمر فائق أفندى "شنيب" وترانى بانتظار جوابكم ودمتم لأخيك شكيب أرسلان.

ذلك الخطاب - الذى كان عجيباً حقاً - يبين مدى الاختلاف الجوهرى فى وجهات النظر بين الأمير شكيب ويشير السعداوى، فالأول لا يزال متشبهاً بمسألة "الثمانين ألفاً" الذين وعد موسولينى بإرجاعهم إلى مواطنهم فى الجبل الأخضر، وهو يرى أنه لا يمكنه أن يتكلم فى موضوع المعمرين الطليان الذين جلبتهم الحكومة الإيطالية إلى طرابلس وبرقة "ليعمروا" الأرض التى اغتصبت من أصحابها العرب، فهذا "لا دواء له إلا القوة والسيف"، هو لا يصدق أن الإيطاليين جندوا عشرين ألفاً من أهل البلاد لسوقهم إلى الحرب فى الحبشة، بدعوى صعوبة تجنيد هذا الجيش الذى سوف يحتاج إلى عتاد وسلاح

ومؤن لا قدرة للطلليان على إمداده بها، ثم هو يسوغ هذا التجنيد إذا حصل، والذي توقع أن يكون بأعداد أقب كثيراً مما أذيع عنه، والغرب حقاً أنه ينفي أن الإيطاليين سوف يقاتلون الحبشة أو أن في نيتهم أن يفعلوا ذلك بينما حدث فعلاً، وكان معروفاً أن إيطاليا بدأت ترسل جيوشها إلى أفريقية منذ شهر سبتمبر ١٩٣٤، وأن حوادث الاحتكاك بين الأحباش والإيطاليين على الحدود كانت تقع من غير انقطاع تقريباً منذ العام السابق خصوصاً، ثم هو يلقب موسولينى، بالزعيم الكبير، ولا يشير إليه فى كتابته إلا بهذه الصفة ثم إنه يدعو إلى التسليم بالأمر الواقع، ويروج لتلك السياسة التى صارت تعرف باسم "الواقعية" فى تاريخ العلاقات بين دول الاستعمار والشعوب المستفيدة المتخاذلة، التى يؤثر ساستها وقادتها الخنوع مع النفع الشخصى على التضحية وإنكار الذات فى سبيل التحرر من السيطرة الأجنبية، فيقول أن إجراء العدل هو كل ما يمكن أن يطالب به إنسان، ويكون سعيد إذا ظفر به من حكومة الزعيم الكبير القوية. وأخيراً، فمع أنه سلم بأن مطالب الليبيين القومية ينبغي أن تستهدف "إشراك هؤلاء بحكومة البلاد" والحصول على لما يؤمن لهم حرياتهم الفدرية وحقوقهم الشرعية كمواطنين على قدم المساواة فى ممارسة هذه الحقوق على الأقل مع الإيطاليين الذين يحتلون بلادهم، فقد اعتبر أن من الضروري إرجاء هذه "المسألة السياسية" إلى "ظروف ثانية"، أى إرجاء النظر فى تلك المطالب التى كان بشير السعداوى وزملاءه يضعونها على رأى شرائط أى اتفاق يبرمونه مع إيطاليا. وأخيراً فإن شكيب أرسلان، قد انقلب فى هذا الخطاب م ن ذلك المحارب، الذى أقام الدنيا وأقعداها - كما قال ذات مرة - ضد إيطاليا، إلى داعية ينعنى بمحاسن الاستعمار الإيطالى فى أترتيا وبين "شعوب الحبشة المسلمين".

كل ذلك لم ينل شيئاً من تقدير السعداوى لشخص الأمير شكيب، ولم يكن فى مقدور السعداوى أن ينسى مساهمة الأمير شكيب الفعالة فى تلك الحملة من الدعاية العنيفة التى أثارها السعداوى. وهى الحملة التى كفل

اشترك الأمير شكيب فيها نجاحها وبالدرجة التي جعلت الإيطاليين وعلى رأسهم زعيمهم موسوليني، يقبلون المفاوضة مع تلك الجماعة من المجاهدين الذين تزعمهم بشير السعداوى يف المهجر، بينما كانت قد انتهت كل مقاومة ضد الحكم الإيطالي في ليبيا بأسرها. وقد حز في نفس السعداوى أن يعزو شكيب إرسال تأخر الأول في الكتابة إليه إلى ظنه أنه - أى شكيب - قد صار متفقاً مع إيطاليا، وأن السعداوى صار لا يثق في شخصه لهذا السبب، وأنه قد انضم في ذلك إلى زمرة الذين راخوا يلصقون بالأمير شكيب هذه التهمة. ومن المعروف أن الآراء التي دونها الأمير شكيب في رسالته هذه إلى السعداوى، عن معاملة الإيطاليين المسلمين الأحباش وعن حكم متهم العادلة، والمنصفة للمسلمين خصوصاً في أرتريا، لم يحتفظ هذا بها لنفسه أو يدلى بها لأصدقائه وأهل خاصته، بل بدار بإذاعتها في كل مكان حل به، ولكل إنسان قابله، ويبعث بها للصحف السيارة لنشرها، فأهاج الخواطر. وتعرض بسبب ذلك لحملة صارمة من الطهن والتجريح، لأنه وهو الذى شنع بالطلبان لفظائعهم في ليبيا، قد صار يتغنى بفظائعهم مع المسلمين في أرتريا. بيد أن هذا التقدير والعرفان بالجنيل لم يتحوّل دون أن يبدى السعداوى للأمير شكيب رأيه في الموضوعات التي ذكرها يف رسالته وأن يقارعه الحجة، لعله يفلح في استرعاء نظر الأمير شكيب إلى الغرض الأسمى الذى يبغي المجاهدون في المهجر تحقيقه من المفاوضة مع إيطاليا، وهو مطلب الحكومة الوطنية الذى تضمنه (الميثاق القومى).

وعلى ذلك فقد كتب السعداوى إلى الأمير شكيب فى ١١ رمضان ١٣٥٣ و ١٨ ديسمبر ١٩٣٤ يجيب على رسالتيه الأخيرتين: تلقيت بيد التعظيم كتابين من عطوفكم بتاريخ مختلفة ولكن جاءاً فى بريد واحد. فحمدت الله على دوام صحتكم الغالية. قبل كل شىء اسمحوا لى يا سيدى الأمير أن أجيئكم على فقرة جاءت فى كتابكم الأول وهى: ظنكم أن سبب تأخر كتابى ربما كان منبئاً على عدم الفائدة من البحث معكم فى قضيتنا

لأنكم تقرّبتم إلى إيطاليا. ففي الحقيقة عندما قرأت هذه العبارة اعترتني دهشة عظيمة من هذا الظن إذ كيف يخطر ببال أنكم - لا سمح الله - توالون إيطاليا التي لم تزل مسيطرة سيوف نقيمتها على شعب تحبونه حباً جماً وتقدرّون جهاده المبرور، وهل يمكن أن تتساهلوا في مصالحه أو مصالح غيره وأنتم الذين قضيتم معظم حياتكم في الذود عن حياض المسلمين والدفاع عن بيضة الدين، إنني أعلم من القديم شدة حرصكم على مصالح المسلمين، وقد تأكّدت ذلك عندما أسعدني الحظ بالاجتماع بكم حيث رأيت فيكم النبل المجسم وفرط التوجع على ما آل إليه أمر المسلمين، وفهم كل منا مقصد الآخر وما يتمناه من خير لهذه الأمة الإسلامية، فهذا التعارف يجب أن لا يترك بيننا مجالاً للظنون مطلقاً، فكيف ظننتم بنا هذا الظن، إنني أعتقد أن قضيتنا تهمكم كما تهمنا وأنكم ستوالون العمل والجهاد في سبيل الدفاع عنها بكل الوسائل. فهذا ما نعتقد في أميرنا المحبوب.

كانت الصحف السورية من بضعة أيام نشرت ما كتبتموه في مجلّتكم من الشناء على إيطاليا في سياستها مع المسلمين في بلاد الحبشة، فجاء أناس يسألونني عن هذا النبأ وكيف أن الأمير يشنّ على إيطاليا وهو الذي هز قلوب المسلمين بذطر فظائعها في طرابلس برقة، فقلت لهم إن عطوفة الأمير لم يقل خلاف ما قاله في سياسة إيطاليا في طرابلس، وإنما رأى ما يستحق الذكر في تلك البلاد فذكره.

ثم إنني قرأت كتابكم الثاني على إخوانه فوجدنا فيه أنكم تطلبون منا بيان الحوادث المدللة بالبراهين التي تكون حجة دامغة للإيطاليين. فنحن يا سيدي الأمير لم نرفع أصواتنا إلا في خبر يدمى قلوبنا، ولم نشك من حادث إلا بعد أن يبلغنا وقوعه، ولكن لبعثنا عن وطننا المفجوع، ولشدة الحصار الذي اتخذته إيطاليا حول إخواننا في تلك البلاد لكي لا يصل إلى العالم أنين شكواهم، فبعض الحوادث لا تصل إلينا بتفاصيلها. ونحن عندما يبلغنا كل

خير يهد الرواسى ويفلق الحجر القاسى تطير قلوبنا جزعاً له فتلجأ إليك
لعلمنا بأنك تحمل بين جنبيك قلباً رقيقاً يتأثر لمصائب المسلمين .

أما الحجة التى يقتضى أن نجابه بها الخصم فيجب أن تكون مدعمة
بالبراهين كما ذكرتم، ولذلك فقد قرنا إيفاد أحد إخواننا إلى القطر المصرى
ليتبين الحوادث عن كثب ويأتينا بالتفاصيل عن النقاط التى تكون حجة فى
المراجعة .

ولقد انبرى الأمير شكيب يشرح سياسته، فى القضايا العربية، والقضية
الطرابلسية خصوصاً إزاء إيطاليا، وذلك فى المراسلات التى دارت بينه وبين
لشير السعداوى . وكان الشرح الذى بسطه الأمير شكيب دفاعاً فى الحقيقة عن
تحوله الملحوظ من مناصبة إيطاليا العداء لخطتها الغاشمة فى طرابلس برقة،
إلى الإطئاب فى المديح والثناء عليها لسياستها "الإسلامية المستنيرة" فى أرتريا
- أو مع المسلمين فى الحبشة - على حد تعبير شكيب إرسال نفسه . ولقد
جاء دفاع الأمير شكيب عن سياسته الإيطالية هذه الجديدة، بعد حادث
الاشتباك الذى وقع بين الإيطاليين والأحباش عند (وال وال) على الحدود بين
الحبشة والصومال الإيطالى فى ٥ ديسمبر ١٩٣٤، ووقت أن كانت لا تزال
عنيفة ضجة الاستنكار التى أثرت ضد إيطاليا بسبب هذا الحادث .

وفى هذه المرة لم يجد السعداوى بداً - وإن ظل يحرص على شعور
الأمير ويذب عن سمعته - أن يناقشه بعض رأى الذى خالف فيه ما كان
يذهب إليه السعداوى وصحبه بصدد الغاية من كفاحهم، وأساليب هذا
الكفاح الموصلة إليها .

ولما كان من عادة الأمير شكيب الإسهاب فى الكتابة إسهاباً كثيراً، فقد
دأب على إظهار مكنون نفسه، والتدليل على مقصده فى استقامة وسهولة،
الأمر الذى جعل الرد عليه بمن يشاء مقارعة الحجة بمثلها سهلاً ميسراً .

وكانت أولى رسائل شكيب إرسال فى "الدفاع" عن سياسته هذه

إجمالاً، ومفاوضته مع موسوليني في القضية الطرابلسية خصوصاً، رسالته تلك التي بعث بها من جنيف بتاريخ ٢٧ رمضان ١٣٥٣ (الموافق ٣ يناير ١٩٣٥) إلى بشير السعداوى جواباً على كتابه الأخير، وفي هذه الرسالة يقول:

أخذت كتابكم رقم ١١ رمضان المبارك.. أحسن شيء أخبرتموني به هو أنكم قررتم إيفاد أحد إخوانكم إلى القطر المصري لتبين الحوادث عن كثب. ويكتب لنا موضحاً كل شيء، وذلك أن رئيس الحكومة الإيطالية أرسل إلينا أنه هو نفسه ليس على صفة من أن تكون جميع أوامره مفذة. وأنه يخشى أن تكون هناك مظالم لا يعلم بها نظراً لحيلولة السلطة وذوى الأغراض من المأمورين بينه وبين المسلمين. فنحن نريد أن نبين له هذه المظالم ونعين الأزمنة والأمكنة والأشخاص حتى لا يبقى للحكومة الإيطالية عذر ونكون نحن أبلينا العذر، ولتكن هذه على سبيل التجربة، فإذا وجدنا القول في واد والفعل في واد يبقى لنا الوقت الكافي للتبصر في المسألة. ولكن ما دام الرجل يقول. قدموا لى الشكايات وأوضحوها كما يجب وأنا أنصفكم وأنا ليس عندي فرق بين المسلمين وغيرهم. بل بالعكس أريد استجلاب مودة الإسلام. فليس من الحكمة أن لا نجيبه وأن نكتفى بالصراخ من بعيد ونترك المظالم سائرة في طريقها. إن إغاثة مسلم واحد في طرابلس أيها الأخ البشير، وإن إعادة ملك واحد، وإن إنقاذ واحد من السجن، هذا خير من مقالات متعددة ملأى طعناً وقذفاً وصراخاً وصياحاً.

ينبغي أيها الأخ أن نكون عمليين، فالأفرنج ما سادوا إلا بالأعمال. نعم إن الأقوال لها مكان بل هي المبدأ للأعمال، ولكن الأفعال مقدمة ومرجحة، فإذا قضينا حياتنا في الأقوال دون الأفعال وفي الجعاجع الفارغة دون المصالح الراهنة، فإننا نكون أخللنا بالواجب الذى علينا. اليوم طرابلس غير مستطبعة أن تطرد إيطاليا ولا أن تقاوم بالسلاح. العاقل يرى بعد ذلك أن الواجب السعى بقدر الإمكان في إزالة المظالم الواقعة على المسلمين والتفاهم

مع الطليان، فيما يعود بحفظ حقوق المسلمين، وذلك حتى يستريح المسلمون ويتنشقوا نسيم الفرج ولو بعض الشيء ثم يوجد فيما بينهم حركة وطنية كما هو حاصل فى تونس والمغرب الأقصى وفى الجزائر. لما عجزوا هناك عن المقاومة بالسلاح رجعوا إلى المقاومة بالسياسة أى قطر إسلامى يا بشير غلبه الإفرنج على أمره ولم يلجأ إلى السياسة لأجل استرداد حقوقه! هذه مصر أم البلاد العربية، هل استنكف سعد زغلول أن النحاس أو محمد محمود أو عدلى يكن أو أحد من كل أحزاب مصر أن يقصد إنجلترا وأن يتفاهم مع الحكومة الإنجليزية؟ أفعال المصريين: من حيث إنكم اعتديتم على بلادنا فاخرجوا فى الحال ونحن لا كلام لنا معكم؟ كلا لم يقولوا ذلك لأنهم يعلمون كونهم غير قادرين على نيل حقوقهم بالسيف فلذلك لجأوا إلى سلاح السياسة، وجردوا البرهان والتدليل. هل نحن السوريين عملنا شيئاً غير هذا؟ أية مرة دعتنا فرنسا إلى التفاهم معها ونحن رفضنا! مراراً ذهبنا إلى باريس على أمل التفاهم فإن كنا أخفقنا فليس لأننا رفضنا التفاهم بل لأننا لم نجدهم مستعدين لإعطائنا استقلال حقيقياً ولو أنهم ارتضوا بإيصالنا إلى حقنا لمألانا الدنيا مدحاً وثناء بحقوقهم ونشرنا ذلك بجميع اللغات أفلم يبق المملك فيصل رحمه الله إحدى عشرة سنة ذاهباً جائئاً يستعمل السياسة والكياسة والمصانعة وأقول بل المخادعة حتى حصل على تحقيق رغائب العراقيين الوطنية؟

نعم والله. ولو أن فيصل أو غير فيصل من العرب عرف أنه قادر على تحصيل حق العرب بالقوة ما لجأ إلى السياسة. ولما ساعدت إنجلترا العراق مساعدة حقيقية فى جمعية الأمم لأجل الاستقلال نشرنا لها راية الثناء وقلنا هذه هى المرة الوحيدة التى تشكرها فيها، وذلك لأننا اطلعنا على ما يجرى هنا. فحكومات كثيرة متعصبة للنصرانية بإغراء الآشوريين كانت غير مرتاحة إلى جعل العراق مملكة مستقلة، ولكن الإنجليز كانوا اتفقوا مع فيصل وقرروا إعطاء العراق الاستقلال فبدلوا مجهودهم فى إقناع جمعية الأمم بذلك ولما تم الأمر واطلعنا عليه، وبرغم أنى أعلم أن ثلاثة أرباع مصائب الإسلام جاءت

من سياسة إنجلترا ما خالفت وجداني ولا أنكرت أن تكون خطتها في القضية العراقية موافقة للعرب ونشرت في ذلك مقالة في جريدة الجهاد أغضبت كثيرين حيثئذ ولم أبال بغضب أحد لأن الحق أحق بأن يقال ولأن الباطل لا يصح أن يكون مستنداً ولأن الدعاية نفسها إذا كانت مبنية على باطل فإنها تنهار ولأن المظلوم إذا حصل على إنصاف في الأحايين ينبغي أن يذكره وبشهره حتى يعلم الناس أنه صاحب وجدان وأنه عندما شكا كان يشكو بحق وأنه عندما جرى إنصافه لم يستنكف عن الاعتراف بالحق، فأنا عندما مررت بمستعمرة الأريتريّة وسمعت من المسلمين ما سمعت من حسن معاملة إيطاليا لهم في الأمور الدينية ومن عدم إساءتها إليهم في الأمور الدنيوية، وجدت من الحق ومن المصلحة أن أعلن ذلك، وزادني تأكيداً لهذا الأمر أنني عندما قلت لك في الطائف إن السنيور موسوليني يقول ويؤكد أنه ليس عند إيطاليا أدنى دعاية دينية مسيحية بين المسلمين وأنه لا يوجد شيء من هذا في طرابلس. فإذا قابلت بين ما سمعته من مسلمي الأريتريّة وما أكدته أنت نفسك من كون إيطاليا سائرة على خطة احترام الدين الإسلامي ولا تسعى في تنصير أحد من المسلمين وقابلت ذلك مع أعمال فرنسا في الجزائر ومع تطويق ألف وسبعمئة مسلم نصرورهم من ستين وطاقفوا بهم في شوارع مدينة الجزائر، وقابلت ذلك مع مسألة الظهير البربري الذي قصدت به فرنسا إخراج عدة ملايين من المسلمين البربر من دينهم، لا شك يكون معنى الحق في أن أتوه بحسن سياسة إيطاليا في هذا الموضوع حتى تسمع فرنسا فتعلم أن المسلمين غير غافلين وترجع عن غيها وتعرف أن في الدول الأوروبية بل في الدول اللاتينية من لا يتعرض للمسلمين في عقائدهم.

فالذين تعجبوا أمامك من كوني مدحت إيطاليا في سياستها بالحبشة إما أن يكونوا سذجاً ليسوا على شيء من التعمق في أسرار السياسة، وإما أن يكونوا ذوي أغراض يقصدون تنقص الناس حسداً وعدواناً. فأنا أعرف ماذا أقول وأنا أعرف أيضاً ماذا أفعل وإنني أرى كوني خدمت طرابلس أكثر من كل

مسلم لم أخدمها بالقول فقط بل خدمتها بالفعل، وإن نيل العفو عن عرب الجبل الأخضر وردهم إلى أوطانهم ليس بأمر بسيط لأنهم كانوا بنقروضون بأجمعهم لو لبثوا في الصحراء، فأنا تمكنت من ذلك لا بصارم ولا بسنان بل بالإقناع وبحسن نية موسوليني وعلو أفكاره، فلو رفض إرجاع الثمانين ألف عربى إلى أوطانهم فماذا كمنا نقدر أن نعمل يا حضرة الأخ؟ وكذلك سائر المواد التى اقترحتها عليه وأنا واثق بأنه جار تطبيقها ولو تدريجيًا. أما أن المنفيين فى فقر شديد فقل لى بعيشك أى البلاد ليس فيها فقر شديد والمتمكنون فى بيوتهم صاروا فى فقر شديد فما ظنك بالمنفيين. على أننى ساع بكليتى فى تضميد جروح المذكورين وقد وعدنى زعيم إيطاليا مواعيد صريحة بشأن إعانتهم.

أكرر عليك بأننى مسرور من إرسالكم شخصًا إلى مصر لأجل التحرى عن المظالم الواقعة ومعرفة الأحوال الجارية حتى إذا شكونا لرئيس حكومة إيطاليا نكون شكونا عن بينة وتكون فى يدنا حجج ومستندات، قاضى الصلت - (وصحتها السلط والمقصود هو الشيخ السنوسى محمد بن صالح) كتب لى أنهم استأجروا منه بيتًا فى مسلاتا ثم اغتصبوه واغتصبوا أرضًا ثانية شخصية ففى الحال أجبته: اذهب بدون تأخر طرفة عين إلى الحاج أمين الحسينى فى القدس وتوجه أنت وإياه إلى قنصل إيطاليا فى القدس واذكر له القصة بتمامها فإنه فى الحال يراجع الحكومة الإيطالية وكلمة هذا القنصل مسموعة جدًا فى السياسة الإسلامية. ومع هذا فإن مضى وقت ولم تجد فائدة فأنا حاضر أن أكتب إلى موسوليني نفسه وإن شئت فأنا حاضر أن أكتب إليه الآن، إذا تمكن قاضى الصلت من استرجاع ملكه هذا الرجل الذى عنده عائلة كبيرة وأطفال لو توفى عنهم الآن ما عندهم ما يسد رمقهم، أفلا يكون أوفق للمصلحة من أن نصيح ونصرخ من بعيد ونترك ملكنا يذهب؟ ومثل هذا قضايا لا تعد ولا تحصى، فالسياسة العملية الإيجابية هى أن الرجل متى عجز عن نيل حقه بالقوة يلجأ إلى نيل حقه بالإقناع.

حيث إنك أعطيت بياناً لجريدة الأيام ظن منه بعضهم أنه جواب على كلامي والحال أن هذا غير ناقض لهذا فأنا أرجو منك أن تأخذ كتابي هذا بنفسه وتطلع عليه جريدة الأيام، كما أنى باعث إليك بمقالتي في المقطم التي فيها كل شيء صريح لأنني لست من أصحاب المواربة فإن كنت قرأت مقالتي هذه في المقطم فذاك وإن لم تكن قرأتها فاقراها الآن، وعلى كلا الحالين أرجوا إعادتها لى، وكذلك واصل لك العدد الأخير من مجلة (مغرب) لتطلع على ما فيها فهي صادرة في باريس وفيها قضية الظهير البربرى وكيفية تطبيقه في المغرب ومن أخبار المظالم الواقعة في ذلك القطر ما ليس بكلام في كلام بل هو وقائع محررة معززة بالأرقام، وهذا أريد منك أن تطلع عليه جريدة الأيام أيضاً وإن أمكنهم أن يأخذوا منه بعض المقالات ولو تلخيصاً فإنهم يحسنون عملاً. فهذه وأمثالها هي التي جعلتني أثني على إيطاليا في سياستها مع مسلمى الأريترية وما أثنت جزافاً بل عددت الأشياء التي قيلت لى وأكدها لى المسلمون، وكلما اضطلعت على حادث فيه إنصاف للمسلمين من إيطاليا أو من غيرها فإنى مستعد لذكره شاكر على الحسن منكر للقيح...

وقد أجاب بشير السعداوى على كل هذه المسائل التي أثارها الأمير شكيب بكتابين: أولهما في ١١ ذى القعدة ١٣٥٣ الموافق ١٣ شباط (فبراير) ١٩٣٥، والثاني في ١٨ ذى القعدة، الموافق ٢١ فبراير. وفي هذين الكتابين يرفض بشير السعداوى الوثوق بمواعيد موسولينى والإيطاليين، أو بحسن نواياهم نحو طرابلس برقة، ويستندى ذلك على ما كان الأمير شكيب نفسه قد ذكره منذ أكثر من عامين عن موسولينى وحكومته، فوصف الأول بالغرور والحمق، والثانية بالطغيان والاستبداد، هذا من جهة كما أنه يرفض قبل كل شيء أو يوصف بالمتعنت الذى لا يرى غير العنف والشدة طريقاً لحل قضية بلاده، لا سيما وأن السلاح والعتاد والمال، أى عصب الكفاح فى طريق العنف والشدة يعوزه. فإن السعداوى ما كان يتردد إطلاقاً فى كل مراحل الجهاد الذى سردنا قصته. أو يحجم عن محاولة التفاهم مع الطليان والوصول

إلى حل سلمى ينهى النزاع المستحكم معهم، كلنا وجد إلى ذلك سبيلاً؛ وذلك حينما كان لا يزال لدى الطرابلسيين من القوة ما جعلهم قادرين على امتشاق الحسام ضد الإيطاليين سنين عديدة. فلا يزعم السعداوى وفد انتهت كل مقاومة مسلحة في طرابلس وبرقة معاً، أن في مقدوره إغلاق باب التفاهم مع الإيطاليين بالطرق السلمية، هذا من جهة ثانية. ويريد أن يلفت نظر الأمير شكيب إلى أن ضياع الحقوق السياسية هو "علة العلل" ومثار الشكوى الكبرى، وأن المسعى الجدى يعود بالنفع على الأمة الليبية جمعاء لن يكون من أجل رفع المظالم الفردية أو فك إفسار المعتقلين وإنما بتأمين الشعب الليبي من الإبادة والفناء عن طريق إعادة حقوقه إليه كاملة في الحكومة الذاتية الإسلامية، هذا من جهة ثالثة. ثم إن السعداوى فى رسالته الأخرى يدفع عن الأمير شكيب أى اتهام بالتقصير فى خدمة القضية الطرابلسية، ومحاولة التقرب إلى إيطاليا على حساب هذه القضية أو قضايا الإسلام والمسلمين عموماً.

فهو يكتب فى رسالته الأولى (١٤ فبراير): "تناولت بيد التعظيم كتابكم الكريم المؤرخ ٢٧ رمضان ١٣٥٣ وحمدت الله على دوام صحتكم الغالية. وقد تأخرت فى رد الجواب لأننى منذ شهر كنت فى بيروت وعدت هذه المرة إلى دمشق فأرجوكم قبول معذرتى. إننا كما عرفناكم سابقاً على عزمنا فى إفاد إخواننا إلى مصر وأماننا بعض الموانع نسعى فى تذليلها وسنوفق إن شاء الله. مولاي، قرأت كتابكم بإمعان ودقة فوجدت فيه كل عظة وإرشاد. أشكركم الشكر الجزيل على اسدائهما لهذا العاجز الذى يكبر فيكم حب الخير الشديد للأمة الإسلامية، وإنما اود أن أتحدث مع سيدى الأمير فى بعض ما جاء فى كتابه المذكور من المباحث لأن هذه المراسلات المتداولة بيننا ربما يأتى يوم تدخل فى صحائف التاريخ فالأم على شىء وأنا برىء منه.

ذكرتم يا مولاي (أن طرابلس اليوم غير مستطاعة أن تطرد إيطاليا ولا أن تقاوم بالسلاح. العاقل يرى بعد ذلك أن من الواجب السعى بقدر الإمكان في إزالة المظالم الواقعة على المسلمين والتفاهم مع الطليان) ثم قلت (أى قطر إسلامى يا بشير غلبه الإفرنج على أمره ولم يلجأ إلى السياسة فى استرداد حقوقه. هذه مصر أم البلاد العربية هل استنكف سعد زغلول أو محمد محمود أو يكن أو أحد من كل أحزاب مصر أن يقصدوا إنجلترا وأن يتفاهموا مع الحكومة الإنجليزية؟ أفعال المصريون من حيث إنكم اعتديتم على بلادنا فاخرجوا فى الحال ونحن لا كلام لنا معكم؟). وضريرتم أيضاً الأمثلة بالسوريين والعراقيين كيف يعالجون قضاياهم بالسياسية والفتاهم. فنحن يا سيدى الأمير ما كنا يوماً من الأيام متطرفين فى خطتنا مع الإيطاليين بحيث لا نقبل منهم كلاماً إلا بعد الجلاء، بل بالعكس كنا نلجأ إلى السلم والتفاهم يوم نحلو بهم ونمزق جيوشهم فى ميادين القتال. وكنا أرسلنا وفداً إلى روما بقى أكثر من سنتين وهو يطرق أبوابهم فلم يعيروهم أذناً مصغية. وقد جاء إلى طرابلس ولى عهد إيطاليا سنة ١٩٢٢ وكنا فى هدنة فقابلته فى وفد يمثل جميع القطر وألقيت فى حضوره خطاباً أعربت فيه عن رغبة شعبنا الشديدة فى التفاهم، وصادف فى ذلك الحين أن جاء صحفى إيطالى كبير فطلب مقابلتى وأدليت له بتصريحات كلها رغبة فى إزالة الخلاف وحب فى التفاهم. ونشرت هذه التصريحات أمهات الصحف الإيطالية. وفى سنة ١٩٢٣ نشبت بيننا وبين الإيطاليين معارك شديدة فطلوا توقيف القتال وجاءنا منهم وفد يفاوضنا. فمع علمنا بأنهم لا يقصدون من ذلك سوى اغتنام الفرصة لجلب جيوش من إيطاليا، تغافلنا وقلنا ربما نجد سيلاً لحل قضيتنا وكنت يف ذلك الموقف اشد إخوانى حرصاً على التفاهم. ولو سردت لعطوفكم تفصيل ما أظهرناه من الرغبة فى التفاهم لأحوجنى الأمير إلى شرح طويل. وبعد أن أعوزتنا وسائل الدفاع وغلبنا على أمرنا وهاجرنا وقلنا لعل القوم لا يرغبون فى التفاهم معنا وسلاحنا فى أيدينا لزعمهم بأن ذلك لا يتناسب مع عظمتهم

وكبريائهم الدولى، فبعد أن احتلوا البلاد بأجمعها - إلا رقعة صغيرة ظل يجاهد فيها فقيدنا المرحوم السيد عمر المختار - كتبت لموسوليني كتاباً وأرسلت لعطوفتكم صورة منه نشرتموها آنئذ فى مجلتكم وكتبتم لى عنه ما يأتى: (ولكن من عرف حالة الرجل العقلية ومبادئ سياسته ومطامعه ومراميه علم أن هذا اللسان الذى تتكلمون معه به هو لا يفهم منه شيئاً أصلاً. فهو ينظر إلى الأهالى هناك نظرة إلى حيوانات إذا كان يبقى عليهم فيكون استبقاء لخدمتهم البدنية فى حقل إيطاليا لا غير. وما يفهم هذا الرجل شيئاً من مبادئ الحرية وحقوق البشرية حتى فى بلاده وبين أمته، فكيف تريدون أن يفهم من قوم أجانب عنه من كل وجه وهو لا يراهم إلا عبيداً).

ورغم اقتناعى بما تفضلتم به من تحليل نفسية موسوليني ومن على شاكلته قلت إن الواجب يحتم علينا طرق أبواب التفاهم فى كل فرصة شأن الضعيف الذى لا حيلة له. ففى السنة الماضية أيضاً بمناسبة ذكرى الاحتلال كتبت له كتاباً طويلاً، وسأكتب له فى كل فرصة تسنح.

فنحن يا سيدى الأمير لم نقصر فى إظهار رغبتنا فى التفاهم، ولم نخالف الشعوب العربية المغلوبة على أمرها فى معالجة قضاياهم بالسياسة والحكمة. وبالرغم من اعتقادى بأرجحية فكركم فى تحليل نفسية موسوليني - بأنه لا يفهم باللسان الذى نخطب به - وبالرغم من اعتقادى بأن رجالاً فرنسا وإنجلترا أيضاً على هذا النمط بيد أننى أقول ما دمتنا ضعفاء وغير قادرين على مقاومة أولئك الطغاة بالقوة فالواجب يقضى علينا أن نطالبهم بحقوقنا بحكمة ونسعى فى تخفيف ما يتأبنا منهم من الويلات بكل وسيلة وشروعة. هذه هى عقيدتى أبسطها لسيدى الأمير حتى لا أتهم بأننى لا أقول بالتفاهم إذا وجدت له سيلاً.

وفى الحقيقة أن التفاهم لا يتوقف على رغبتنا وميلنا، فموسوليني يعلم جيداً أننا أشد الناس رغبة فى التفاهم، ولكن ماذا يفيد وهو لا يريد. إن

موسولينى الذى الذى يتمشى على خطة إفناء شعبنا واستبدال من ضاقت بهم الأرض من أبناء أمته به ليجعل منهم كياناً يرتكز عليه فى شمال أفريقيا هل يرغب يا ترى فى التفاهم وهذه مقاصده ومراميه. هذا ما أستبعده، ولكن ما دام يقول إننى أصغى لسكوى الطرابلسيين وأنصفهم فالواجب يحتم علينا أن نسمعه ما يشكوه العموم.

ويا ليته يظهر هذا الاستعداد لسماع ما نشكوه من ضياع حقوقنا السياسية التى هى علة العلل ويكون بذلك كفانا وكفى نفسه مؤونة هذا التشاد. ولا أكون مغالياً إذا قلت لكم لم يخطر ببالى ولا يمر بخيالى أن أرجو من مستعمر إنصافاً أو عدلاً أو إحقاق حق. وأرى من اللغو إطالة البحث فى تحليل نفسية المستعمرين وأنتم والله أعرف الناس بهم وبدخائلهم. وصفوة القول أننا - إن شاء الله - سنوافيكم بما يشكوه شعبنا من إرهاب نكبة الأندلس.

أما نحن فلا يستقر بنا حال ولا يهدأ لنا بال إلا بنيل حقوقنا السياسية التى عاهدنا الله على النضال فى سبيلها والمطالبة فى سبيلها بها ما دمنا أحياء والله ولى الصابرين.

وقبل أن أختم كلامى أرجو من سيدى الأمير أن يثق بأننا لا نعول بعد الله فى جهادنا إلا علينا لعلمنا بأنكم تفكرون فى مصائب شعبنا كما فنكر نحن وتآلمون كما نتآلم وأرجو الله أن يأخذ بيد الجميع ويلهمنا وإياكم الصواب.

هذا وفى حاشية جاء ما يأتى: "سيدى الأمير - أنتم أقرب منا لمعرفة الخلاف المتكون بين إيطاليا والحبشة. أما التلغراف والصحف فيؤخذ منها أن الحرب قاب قوسين. لذلك نلفت نظر عطوفتكم فى هذه الظروف إلى التفكير فى إيجاد وسيلة للتحدث مع الإيطاليين فيما يتعلق بتحقيق برنامجنا السياسى إذا سنحت لكم الفرصة ورأيتم ألا مانع من ذلك.

وهكذا وبالرغم من كل الحجج التى ساقها شكيب أرسلان لتعزيز وجهة نظره "الإسلامية" التى جعلته يضع فى قائمة المطالب التى يجب فى نظره أن يخصص كل جهوده لنيلها مسألتى إعادة المعتقلين فى سرت والعقيلة - أو من تبقى منهم - إلى مظاعنهم فى الجبل الأخضر، وإعادة الأملاك السنوسية إلى مشايخها، إلى جانب الوعود من موسولينى باحترام الشعائر الإسلامية، بقى بشير السعداوى لا يتزحزح عن موقفه من حيث تقديم المطالبة (بالحقوق السياسية) - كما تضمنها الميثاق القومى على كل ما عداها، باعتبار أن الظفر بهذه الحقوق السياسية ينهى حتماً ومن تلقاء نفسه كل المظالم والإهانات التى يشكو منها الليبيون، ويوقف فوراً خطة الإبادة والإفناء التى سار عليها الإيطاليون فى ليبيا بالرغم من كل الوعود التى صدرت من "زعيمهم" إلى الأمير شكيب، وهى الخطة التى كانت قائمة فعلاً سواء عرف بها موسولينى أم أخفيت عنه.

أما فى رسالته الثانية (فى ٢١ فبراير) فيكتب بشير السعداوى إلى الأمير شكيب:

منذ يومين قدمت لكم كتاباً، واليوم وافانى كتابكم الكريم المتضمن ما أخبركم به عطوفة الأخ الأمير عادل (أرسلان) بأنه اجتمع بأحد الطرابلسيين وأظهر له عتباً الخ. فكم كنت أود أن أعرف من هذا الطرابلسى الذى يهرف بما لا يعرف. أمثالكم يا سيدى الأمير يوجه إليه العتاب وأنتم الذين أوقفتم حياتكم وضحيتم بلذيد أوقاتكم وأفنيتم وجودكم فى خدمة الأمة الإسلامية. فأى طرابلسى يجرؤ على عتابكم والقضية الطرابلسية هى قضيتكم وقد جاهدتم وستجاهدون فى سبيلها بكل مرتخص وغال. أنا على يقين بأن هذا الطرابلسى لو كان ممن له علاقة بممارسة قضية بلاده، ولو كان ممن يقدرון الجهود الوطنية، ويعرف كيف يعانى القوائم بها من ضروب المشاق وأنواع المضض والعذاب لما تكلم فى شخص أذاب جسمه فى خدمة القضايا العامة. هون على نفسك الطيبة أيها الأمير النبيل فإن لك فى رسول الله أسوة حسنة

يوم كان يلاقى من قومه ما يلاقى وهو يقول: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. إنك يا سيدى تدعو إلى نهضة، تدعو إلى يقظة، تدعو أمة لتعلمها كيف تسير فى هذه الحياة لتبلغ المستوى الأعلى، فإذا لاقيت فى ذلك عتاباً فإن أفضل الرسل - صلى الله عليه وسلم - لا قى فى سبيل دعوته أشد العذاب. إن إرضاء الخلق غاية لا تدرك ويكفيكم أنكم تعلمون بما يرضى ضميركم. وقصارى القول فإنى وإخوانى الذين أخذنا على عاتقنا معالجة القضية الطرابلسية البرقاوية باسمنا وباسم رجالات البلاد جميعاً المؤيدين لنا نتقدم لعطوفتكم راجين أن لا تعيروا أمثال هذه الأقوال أهمية، وأن تسيروا بما يوحى إليكم وجدانكم الطاهر فى معالجة قضيتنا وفى تخفيف ما حل بشعبنا من الويلات. وإننا نكرر القول بأننا على ثقة تامة واعتماد أتم على حسن نيتكم وصفاء سريرتكم لأنكم تحبون الخير للمسلمين عامة ولشعبنا بصورة خاصة. وكنا قبل هذا بمدة كتبنا إلى إخواننا بمصر وفى غيرها من الأمكنة وأفهمناهم لمحة من مساعيكم المبرورة ليكونوا على علم بذلك، وقد كتبنا لهم هذه المرة أيضاً بصورة مفصلة. لا زلتم عوناً للإسلام والمسلمين ودمتم...

لقد كتب السعداوى فعلاً إلى مصر وتونى يشرح أدوار المفاوضة، والدور الذى قام به شكيب أرسلان فيها، والنتائج التى انتهت إليها. وسوف نثبت هذه الرسائل بعد أن ندون تفاصيل أخرى عن هذه المفاوضة، مما أدلى به الأمير شكيب فى كتابه الذى أجاب به على رسالتى السعداوى الأخيرتين. فقد كتب من جنيف فى أول ذى الحجة ١٣٥٣، الموافق ٧ مارس ١٩٣٥ إلى "أخيه الحبيب البشير" ما يلى:

أخذت كتابيك الأخيرين وفهمتكما وإننى أشكرك من صميم فؤادى على ما فيهما مما يدل على أنك عارف جميع طوبتى ومقاصدى من التفاهم مع إيطاليا وهو من الأول إلى الآخر تخفيف آلام المسلمين فى طرابلس. سمو الأمير عمر (طوسون) الذى كنت كتبت إليه أرجو منه الاستعلام عن الحالة

الحاضرة فى بلادكم نظير ما كتبت إليك قد كتب إلى السيد إدريس السنوسى المقيم بحمام مريوط والسيد إدريس كان فى البداية مريضاً فتأخر نحو شهر عن الجواب، ثم أرسل التقرير اللازم وهو مستوف الشروط وبعد مدة سأبعث إليك بنسخة عنه. وقد كنت مسروراً بهذا التقرير على ما فيه من الأمور التى توجب الشكوى وذلك لأننى اطلعت من هذا التقرير على أشياء راهنة صار يمكننى أن أراجع فيها زعيم إيطاليا مستنداً على حقائق لا تقبل الرد. خال وصول هذا التقرير وهو ضافى الذيل باشرت ترجمته بقلمى إلى الإفرنسية واشتغلت به طول النهار والليل حتى أكملته وثانى يوم ضربناه على الماكنة وشفعته بمكتوب خصوصى منى إلى الزعيم بخط يدى لا على الماكنة وقلت له هكذا: أنا لا أشك فى حرف واحد من المواعيد التى وعدتنى إياها بشأن مسلمى طرابلس وأنت تريد أن تزيل كل ما يوجب شكواهم وأن تعاملهم بالمساواة التامة مع الطليان، وكذلك أنا معترف بأنه لولاك لا نقرض عرب الجبل الأخضر بأجمعهم فى الصحراء التى كان الجنرال غراسيائين وضعهم فيها، وأنا أيضاً معتقد أنك أخذت بيدك نظارة المستعمرات حتى تكون عالماً حق العلم بما يجرى على المسلمين وكنت أنت أشرت لى بأن كل من عنده ظلامة من المسلمين فليقدمها لك أو لى أنا حتى أقدمها لك. فالآن واصل هذا التقرير أرجو منك أن تطلع عليه بتمامه ولا شك أن أكثر ما فيه صحيح. نعم فيه أشياء ممكن إصلاحها بسهولة وغير مستغربة فى الوقت الحاضر مثل ان المهاجرين متى رجعوا إلى وطنهم يشددون عليهم المراقبة. فالسلطة الإيطالية فى بادئ الأمر لا بد لها من هذا، لكن متى مضى وقت واطمأنت فهذه المراقبة تزول بطبيعتها، ومثل أن التعليم الدينى لا يزال ضعيفاً لقة كفاءة المعلمين فهذا أيضاً ممكن إصلاحه بانتخاب معلمين أكفاء، ولكن المسألة المهمة التى لا يمكن المسلمين أن يسكتوا عنها والتى لا أقدر أنا أن أمارى فيها وهى أن الجبل الأخضر من زاوية مرطوبة شرقاً إلى المرج غرباً ومن البحر شمالاً إلى مراوة وجنوباً كله توزع على المستعمرين الطليان ولا يوجد فيه عربى واحد بصفة

مالك ما عدا قبيلة الحاسة التى أعطوها منطقة بين شحات وسوسة مكافأة لها على قتالها لعمر المختار. أما بقية القبائل فقد نزعت أملاكها من أيديها ولما عفوت أنت عنها ورجعت إلى الجبل الأخضر وضعوها فى أطراف الجبل، أما الأراضى هذه التى عليها المعول والتى فيها المياه والبساتين والتى يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب نحواً من خمسمائة كيلو مير، ومن الشمال إلى الجنوب مائة وعشرين كيلوا متر. فهذه كلها مع الأوقاف الخاصة بالزوايا قد توزعت على الطليان بدون أدنى تعويض على العرب ثم بدون بيع أو شراء، إنى لا أرى هذا لائقاً بدولة عظيمة مثل إيطاليا وإنى أظن أنك لا تعلم قصة نزاع هذه الأراضى بدون عوض. ولذلك حتى يكون عملك تاماً ويعلم العالم الإسلامى درجة أنصافك للمسلمين لا أرى لهذه المسألة إلا أحد حلين: الحل الأول: إن تشتري هذه الأراضى ما عدا الأوقاف وذلك بالثمن العادل ويرضى أصحابها والثانى: أن يعطى نصفها للمستعمرين ويبقى نصفها للعرب، وذلك لأنه وإن لم يكن هذا عدلاً فيجوز أن نقول للعرب إن أراضيكم بمجاورة أراضى الطليان تضاعفت أثمانها فليس بكثير إذا تنازلتم عن نصفها.

هذا المکتوب الذى كتبته إلى موسوليني حفظت صورته عندى بالإفرنسية وفى الوقت الحاضر لا أريد أن أطلع على صورته أحداً ولا أن يعلم الناس بخبره لأن ذلك ضد المصلحة فإن الذى أبتغيه إنما هو تحصيل هذه الأراضى للعرب والحال أن المستعمرين الطليان لا يرغبون إلا إذا أخذوها صفواً فالمسألة صعبة شاقة ولكنى لا يمكننى أن أرتكها. وقد ذكرت لموسوليني إنه يجب تأليف فومسيون مختلك من طليان وعرب لأجل فصل هذه القضية على ما يرضى الفريقين. فإذا علمت أنهم لم يعلموا شيئاً للعرب وبقيت أراضيهام نهياً مقسماً بين مستعمرى الطليان ومضى على ذلك عدة أشهر فإنى أكتب إلى رئيس الحكومة الإيطالية بأن هذا ليس من شأنه التقريب بين المسلمين وإيطاليا، وإنى لا يمكننى الدفاع عن إيطاليا فى حال كهذه. نعم كتبت إلى الأمير عمر حفظه الله للإسلام أخبره بأن تقرير السيد إدريس قد ترجم فى

الحال وتقدم للسنيور موسولينى مع مكتوب منى فيه كل ما يلزم وفيه أيضاً ترجمة جملة فى مكتوب الأمير عمر تؤيد تقرير السيد إدريس .

لقد مضى على إرسال هذه الأوراق إلى رئيس حكومة إيطاليا جمعة فقط ، ولا شك أن الجواب يأخذ وقتاً لا أقل من شهر وذلك لكثرة انشغاله اليو بمسألة الحبشة وربما يكون الجواب طلب حضورى إلى رومة ، فأنا برغم وفرة أشغالى حاضر أن أتوجه إلى رومة لأجل هذه المسألة . فى تقرير السيد إدريس ما يشير إلى أن الحالة على وجه الإجمالى هى أحسن من ذى قبل بكثير . ولكن قضية الأراضى هى هذه : أخذوا أواسط الجبل الأخضر وتركوا العرب فى الأطراف . نعم السيد إدريس يشكو من الضغط الواقع على العائلة السنوسية نفسها فى نفس مصر فلا يتركونهم يذهبون إلى سيوة للاعناء بأملآكهم ولا تقدر نظارة الأوقاف أن ترتب لهم معاشات وكل ذلك من الحكومة المصرية لأجل خاطر إيطاليا مع أنهم حاضرون للتعهد بأنهم لا يطلبون شيئاً من إيطاليا ولا يعاكسونها يف شىء بشرط أن تتركهم يتجنسون بالجنسية المصرية . فهذه المسألة أيضاً ذكرت أننى لا أجد لها مسوغاً ، فما دام هؤلاء الجماعة حاضرين لإمضاء التعهدات التى تترجها عليهم إيطاليا فلماذا اضطهادهم فى نفس مصر .

يمكنك أن تخبر من يعنى بشأن طرابلس أننا ساعون فى استنجاز مواعيد زعيم إيطاليا وفى عمل طريقة لأرضائى الجبل الأخضر ولكن بدون أن تذكروا لهم تفاصيل من الآن قد يضر نشرها ولغط الناس بها ونحن لا نريد التحجج بل نريد المصلحة الراهنة . أنا لا يفيدنى ولا هذا مذهبى أن يقال شكيب أرسلان فعل وترك وكتب وقاوم وخاصم إذا كان المسلمون لم يستفيدوا شيئاً راهناً وإننى أفضل أن لا يعلم أحد بأعمالى وأن ينفس من خناق المسلمين وتعاد إليهم حقوقهم المغصوبة . نعم إن مهاجمات أعدائنا لنا وهم معلومون عندنا . . قد أجبرتنا أن نبوح من مساعينا بأشياء كنا نكتمها وإن

رويناها فإنما نرويها لكم والأمير عمر والشيخ الثعالبي ولبعد الرحمن عزام، وذلك لتكونوا مطلعين على الحالة بتمامها لا لأجل أن يقال ما شاء الله عني . فالأعداء لم يظنوا أنهم سيجدون منا الأجوبة الصريحة السديدة التي تلقاها الرأي العام بالقبول ولم تخف على أحد منها لهجة الصدق ولا حبسوا أنه سينتصر لنا أناس كثيرون ويطعنون فيهم، بل ظنوا أنهم بمجرد ما يقولون أن شكيب أرسلان يقبض دراهم من إيطاليا لأجل جريدته وأنه يبيث الدعاية للاستعمار الإيطالي فتكون انتهت المسألة. فكانت عكس ما أملوا على خط مستقيم، وأصابهم مصداق قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

إنهم كانوا السبب في نشر فضائل كنا طوينا خبرها خشية أن ينسب إلينا حب التمدح . ولقد كان من جملة نتائج هذه الحركات أن أهالي فلسطين اجتمعوا في القدس وقرروا قرارات كثيرة، أحدها: "استنكار الحملة الدنيئة التي قام بها بعضهم علينا". فالآن أنا يا أخي في دور انتظار بعد أن كتبت ما كتبه إلى رومة . فأما تذكيرك إياي بما كنت كتبه لك منذ سنوات بأنه لا فائدة من مراجعته ذلك الرجل . الخ فهذا في وقته كان صحيحاً لأنه كان في مبدأ أمره وكان يريد أن يدوخ طرابلس حتى يعمل عملاً كبيراً في نظر أمته . ولم تكن عنده التجربة التي حصل عليها الآن، فأما الآن بعد أن أطاعت البلاد وبعد أن حصلت التجارب وبعد أن وجد حركة إسلامية حقيقية فقد تغيرت أحواله النفسية، وعلى كل حال لم نكن نحن الذين بدأنا بطلب التفاهم، بل جاء ذلك من قبله فصار كلامنا أفعال وأوقع مما لو كنا نحن البادئين بالرجاء والضراعة . فأنت ترى أنه ليس اختلاف بين قولنا الأول وقولنا الثاني لأن السياسة قد تختلف والظروف ليست واحدة . واهدوا سلامي .

وهكذا شرح الأمير شكيب مقصده من "التفاهم" مع موسوليني، والسبب الذي جعله يولى مسألة (الجليل الأخضر) كل عناية واهتمامه . ولكن

هذه الآمال التي عقدها شكيب أرسلان على وعود موسوليني له، وشرعته في تصديقها، حتى أنه بادر "سلفاً" يصوغ قلائد المديح والثناء على سياسة موسوليني الإسلامية التي قال إنه تأكد منها وشاهد آثارها في أريتريا، عندما مر - الأمير شكيب - بمصوع وأسمرة في طريق عودته من الحجاز بعد انتهاء الحرب اليمنية السعودية - لم يكن بشير السعداوى ليقر صاحبه عليها. فهو على خلاف شكيب أرسلان لا يمكن أن ينخدع بوعود موسوليني، وهو قد ساءه ألا يترث الأمير حتى يرى موسوليني قد نفذ شيئاً من الوعود التي وعده بها قبل أن يدبج براعة مقالات الميخ والثناء في شخص "الزعيم الإيطالي الكبير" - اللقب الذي صار شكيب يلقب به موسوليني في كتبه إلى السعداوى.

ولقد تعرض الأمير شكيب بسبب هذا الانقلاب الذي اعتبره كثيرون مفاجئاً، من الحملة على إيطاليا لفظائعها في طرابلس الغرب، وهي الفظائع التي لم يثبت أن الطليان قد كفوا عن ارتكابها - بل توفرت الأدلة على أن اغتصاب الأراضي من أصحابها العرب في الجبل الأخضر وفي غير ذلك من المناطق في برقة وطرابلس، وتوطين "المعمرين" الطليان في هذه الأراضي لا يزال جارياً، وأن انتهاك الحرمات وإماتة اللغة العربية، ومحاربة العقائد الإسلامية والتقاليد العمومية، كل ذلك لا يزال نافذاً - نقول إن الأمير شكيب قد تعرض لانقلابه المفاجئ من الحملة على إيطاليا، للدفاع عنها والإشادة بأعمالها، وغمرها بالمديح والثناء، إلى حملة قاسية من النقد اللاذع، انتهز خصومه الفرصة ليشنوها عليه دون هوادة. وأقضت هذه الحملة مضاجع الأمير شكيب، وشكا منها مر الشكوى، وإن تظاهر بأنه لا يبالي بها. ولكن السعداوى وقد آله كما ذكرنا أن يرى صديقه فريسة لكيد أعدائه له ولائتمار خصومه به، قد تعذر عليه أن ينبرى لمؤازرة الأمير في موقفه، لأن الأمير شكيب لم يكن محققاً في نظر السعداوى في أن "يسلف" المديح لموسوليني، الذي وصفه السعداوى دائماً "بالأفك الأثيم" قبل أن يرى بعين رأسه تبديلاً

فى سياسة الطليان فى طرابلس برقة، وقبل أن يملس بيده مدى تنفيذ الوعود التى قطعها على نفسه هذا "الطاغية" حتى فى المسائل - تخفيف المظالم أو رفعها - التى اعتبرها السعداوى ثانوية بالنسبة لمطالب البلاد الرئيسية كما تضمنها (الميثاق الوطنى). وعلاوة على ذلك فإن الدفاع عن شكيب أرسلان ومناصرته فى هذا الموقف، معناه أن الإيطاليين قد غيروا فعلا من سياستهم فى طرابلس برقة، وأن المجاهدين الذين أثاروا - بزعامة بشير السعداوى - كل هذه الدعاية القاسية ضد الحكم الإيطالى فى ليبيا، قد صاروا راضين عن الأحوال فى بلادهم، وأنهم نالوا كل مطالبهم، مما يترتب عليه جميعه وجوب إبطال نشاط (جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى)؛ فى حين أن شيئا مما وعد به موسولينى لم يتحقق - وما كان السعداوى يعتقد أصلا أنه سوف يتحقق - وأن كل النذر فى الجو السياسى الأوروبى كانت تنذر بقرب وقوع الحرب بين إيطاليا والحبشة، وهى الحرب التى اعتقد السعداوى أنها مفضية حتماً إلى أزمة دولية، قد تؤدى إلى حرب أوروبية عامة بالرغم من اتفاق بيير لا فال ريس الوزارة الفرنسى مع السنيور موسولينى ذلك الاتفاق المشهور فى رومة فى يناير ١٩٣٥ لتوكيد صداقة كل من الطرفين للآخر والتزام كل منهما الحياد إذا اشتبك أحدهما فى حرب مع طرف ثالث وتلك فرصة كان السعداوى يترقبها للعمل المثمر ضد إيطاليا فلا يرضى أن يحول انخداع الأمير شكيب وما قد يترتب على مناصرة السعداوى له فى موقفه - إذا فعل - من انخداع المجاهدين فى المهجر بوعود موسولينى، فتبسط الهمم وتنحل العزائم، وتضيع الجهود الماضية جميعها سدى. ولم يشأ السعداوى من ناحية أخرى أن "يكذب" الأمير شكيب، أو ينضم إلى خصومه فى الحملة عليه، وذلك ما كانت تأباه شهامته، وهو الذى لم ينفك يعترف للأمير شكيب بالفضل فى نجاح (حرب الأقاليم) التى أثبرت على إيطاليا وأقنعت طاغيتها "بالتقرب إلى الغرب" - ولأن السعداوى كان يعلم أن الأمير شكيب مخلص فى إيمانه بأن تخفيف بعض ويلات الشعب الطرابلسى البرقاوى - إذا لم يكن مستطاعاً فعل

شئ آخر - خير من ترك المسلمين فى هذه الأقطار يفنون عن آخرهم، وأن "إنقاذ" شخص واحد من الموت فى صحراء سرت - كما قال - كسب لا يجوز إغفال شأنه. ولذلك فقد بادر السعداوى ببيان نوايا الأمير شكيب ومقاصده من "سياسة التقرب إلى الإيطاليين" التى اختطها لنفسه، وذلك فى كتبه الخاصة بإخوانه الليبيين فى فلسطين، وتونس، والقطر المصرى. ولو أنه التزم "الحياة" عند الكتابة فى الصحف، فاكفى عندما سألته مراسلو الصحف فيما يكتبه الأمير شكيب ويذيعه عن "محاسن" الحكم الإيطالى - اكفى بأن يقرر فى تصريحاته لهم بأن الحال فى طرابلس الغرب لا تزال كما كانت عليه أبداً. وأن الإيطاليين لم يغيروا شيئاً من سياستهم وأساليبهم. ثم إن السعداوى راح يبذل قصارى جهده حتى يقنع الأمير شكيب بأن يمسك عن "الاسترسال" فى الثناء على الطليان على صفحات الجرائد، وتعهده له بأن يبعث أحد أضاء جمعية الدفاع إلى القطر المصرى لجمع معلومات مفصلة عن "المظالم" التى لا زالت ترتكب فى ليبيا، وعن الأراضى المصادرة، والأفراد المشردين والذين لم يعادوا إلى أوطانهم فى الجبل الأخضر فى برقة وفى غريان وغيرها من الجهات فى طرابلس، وقد أفلح فى مسعاه، حيث وعد الأمير شكيب بالكف عن النشر حتى تأتية البيانات المفصلة.

ولما كان الأمير شكيب قد طلب إليه استعجالاً لهذه المعلومات المفصلة أن يكتب إلى إخوانه، ليوقفهم على الأدوار التى مرت فيها "المفاوضة" بين شكيب أرسلان وموسولبنى، وضرورة جمع المعلومات عن "مظالم" الطليان حتى يتقدم بها أرسلان إلى موسولبنى ليستنجزه وعده، فقد كتب السعداوى إلى إخوانه فى مصر: إلى الأمير السيد محمد إدريس السنوسى، وإلى المشايخ: الفضيل باشا المهشيش، وعبد السلام الكوة، وعبد الحميد العبار، ثم إلى أحمد بك المريض، وأحمد الشتيوى (السويحلى)، كما كتب إلى الشيخ محمد عباس المصراتى فى تونس، وإلى عبد السلام افندى أدهم فى شرق الأردن.

وكل هذه كانت رسائل هامة تحوى تفاصيل كثيرة عن تاريخ المفاوضات بين شكيب أرسلان وموسوليني، كيف بدأت، وماذا كان موقف السعداوى منها، وكيف انحصر اهتمام الأمير شكيب فى المطالبة برفع "المظالم"، إلى غير ذلك مما هو متصل أيضاً بأسباب الحملة على الأمير شكيب. مما لا غنى عن معرفته كله، لوزن "الخطة السياسية" التى أراد بها شكيب أرسلان "التقرب إلى إيطاليا" وتقدير "خطة" السعداوى فى هذه المسألة. فقد كان واضحاً، وكما تذكر هذه الرسائل بصراحة كاملة، أن السعداوى ما كان يؤمن إطلاقاً بأن موسوليني جاد فى وعوده التى يبذلها للأمير شكيب، وأن الطليان لن يبدلوا من سياستهم فى ليبيا شيئاً، لسبب واحد هام، ذكره السعداوى، هو أنهم يريدون "إعادة مجد الرومان" مما لا يتسنى فى نظر موسوليني تحقيقه إلا إذا قضى على الشعب الطرابلسى البرقاوى بأسره وأما لماذا نزل السعداوى عند رغبة الأمير شكيب، وكتب يسأل إخوانه أن يبعثوا له بكل التفاضيل المطلوبة عن "مظالم" الإيطاليين، وحسب الموضوعات التى أوضحها لهم فى رسائله هذه، فقد ذكره السعداوى نفسه، وهو أن الأمير بعد مراجعة موسوليني فى هذه "المظالم" وتأكدته من أن الإيطاليين لم يفعلوا شيئاً "لتخفيف ويلات" الشعب الليبى، فإنه - أى الأمير شكيب - سوف يقلع من مناصرة موسوليني. ويرجع إلى ما كان عليه من قبل، من حيث الاشتراك الفعال فى مقاومة هذا الطاغية. فيكتب السعداوى فى رسالته للأمير السيد محمد إدريس: "وأنا على يقين يا مولاي أن موسوليني سيضرب بهذه الشكاوى عرض الحائط. حينئذ لا يمكن للأمير (شكيب) أن يقف موقف الحريص على مصالحنا والمصدق لما يقوله موسوليني فى آن واحد. ولا شك أنه سينفض يده من الإيطاليين ويرجع لناوأتهم معنا ومع الاستمرار لابد أن موسوليني سيندعن لمطالبنا الحققة" وكتب السعداوى مثل هذا للآخرين.

على أن هناك مسألة على جانب كبير من الأهمية، سبق أن أشرنا إليها

مراراً، وتأتى هذه الكتب لتوضحها وتبرزها، هى أن تخفيف المظالم، أو إرجاع المعتقلين فى العقيلة والمشردين فى سرت إلى مطاعنهم فى الجبل الأخضر، لا يعدو أن يكون فى نظر بشير السعداوى امرأ ثانوياً بالنسبة لمطالب البلاد التى أعلنها (الميثاق الوطنى)، من حيث ضرورة إنشاء الحكومة الذاتية والإمارة الإسلامية التى تحفظ للأمة سيادتها القومية. ولم تكن الحكومة الوطنية التى ذكرها (الميثاق)، وهدف إليها بشير السعداوى من جهاده الطويل، أن يشغل لفيف من الوطنيين فى طرابلس وبرقة بعض الوظائف الضئيلة القيمة التى قد يتنازل الإيطاليون لهم عنا. وإنما كانت الحكومة الوطنية التى أرادها السعداوى، وعلى نحو ما جاءت فى (الميثاق الوطنى)، الحكمة التى يتسلم مقاليد الأمور بها أبناء البلاد، فيكونون هم المسئولين عن إدارة شئونها ولا تربطهم بالظليان إلا تلك المعاهدة التى نص عليها (الميثاق) والتى كان الغرض منها تطمين الإيطاليين على أن هذه الحكومة الوطنية لن تهدر مصالحهم، ومن المفهوم أنها المصالح التى لا تتعارض مع حقه والحكومة الوطنية والإمارة الإسلامية، ووجهة نظر السعداوى كما أوضحنا فى رسائله هذه لا لبس فيها ولا إبهام. فهو لا يرى بأساً من أن يمضى شكيب أرسلان فى مسعاه للوصول إلى هذا "الخير" المحدود - إذا نجح الأمير شكيب فى مسعاه هذا - وذلك ما كان يشك السعداوى فيه - ولكنه يحذر إخوانه من التسليم بأن المقصد من كل جهادهم وكفاحهم ضد إيطاليا، لا يعدو الوصول إلى هذا الكسب الثانوى، ويريدهم أن يذكروا دائماً أن بلوغ "الأمانى القومية" كما رسمها (الميثاق الوطنى) هى الهدف الأوحد والأسمى من جهادهم:

وفى الرسائل التالية تفصيل لكل ما مر بنا إلى جانب أشياء أخرى مكملة لبعض الوقائع التى شردناها، مما لا غنى عن قراءته لاستجلاء وجهات النظر التى ذكرناها.

أما الرسالة الأولى فهي من بشير السعداوى إلى سمو الأمير محمد إدريس السنوسى بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩٣٥ ، وفيما يلي نصها:

حضرة صاحب السمو مولاي الأمير المعظم السيد إدريس السنوسى
حفظه الله .

تحية طيبة واحتراماً . وبعد فقد تشرفت بكتابكم الكريم وحمدت الله الذى عافاكم مما ألم بكم من الألم وقد زاد سرورى بأن وفقكم الله فى هذه السنة لأداء فريضة الحج فأهنتكم بذلك وأدعو الله أن يجعله حجاً مبروراً وذنباً مغفوراً ولا أكتممكم يا سيدى أنى متأسف لمجىء كتابكم فى وقت لا يمكننى أن ألحق بكم ولو كنت أعلم بقصدكم ومعى متسع من الوقت لكنت شددت الرحال فى هذه السنة أيضاً لتمكن من الاجتماع بسموكم ونفضى بما فى نفسى مما لا تفى به المراسلة ، ولكن الخيرة فيما اختاره الله لأن مقاصدنا كلها لله وهو الذى يسخرنا كيفما يشاء أو إننا لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا .

سررت جداً بالمعلومات التى بيتتموها لنا فى خصوص المعتقلين وهذا ما تحقق لنا أيضاً وكتبنا به لحضرة صديقنا الأمير شكيب أرسلان . ولكنه حفظه الله رجل نبيل صافى القلب يعتقد أن موسولينى لا يقول له خلاف الحقيقة يوم قال له إنه أعاد المعتقلين ولم يعلم أنه أفاك أثيم يفترى الكذب ولا يندى له جبين ، ثم يدعى وقومه المدنية ويوصموننا بالوحشية ولكن المدنية فى عرفهم هى المدفع ، هى القوة ، هى الحديد والنار ، أما الأخلاق فلا يقيمون بها وزناً .

كان عطوفة الأمير عقب اجتماعه بموسولينى كتب إلى ان موسولينى أكد له إعادة المعتقلين ، وأظهر له النوايا الحسنة نحو تلك البلاد ، فأجبت أنه لم يتغير شىء حتى الآن ، فدارت بيننا مراسلات عديدة فى هذا الصدد . ولما أن رأيت الأمير يكاد يقتنع بما يقوله موسولينى كتبت له راجياً أن لا يتسرع فى شىء قبل أن يحصل لنا الاقتناع ، لأن رب البيت أدرى بالذى فيه ، وقلنا له

أيضاً إننا سنرسل من قبلنا شخصاً إلى مصر ليتبين الحوادث عن كذب ويأتينا بالخبر اليقين. فاستحسن الأمير ذلك، لأننى خشيت أن الأمير يتسرع وينشر الأخبار التى تضطرننا أن نرد عليه ونخالفه فيما يكتب وهذا لا نوده. وبالفعل عولنا على أن نوجه أخانا عمر فائق أفندى شنيب إلى القطر المصرى وأخذنا نسعى له فى الحصول على جواز السفر. وقد وقفت فى وجهنا بعض العراقيلى وإن كنا سنذلها إن شاء الله. وقصدنا من ذلك أن تجمع كل ما تفعله إيطاليا فى هذه الآونة الأخيرة من المظالم وغصب الحقوق والإرهاق ونثبت ذلك بالرايين والحجج الدامغة تحت مسئوليتنا نحن. ومثال ذلك: كم اغتصبوا من الأراضي من أيدي أهلها، مقدارها وأماكنها، وكيف يتصرفون فى أوقاف الزوايا السنوسية بغير حق والوقف مقدس فى كل بلد من بلدان العالم، وكيف يسعون فى قتل الشعور الإسلامى بمحاولة اللغة وإذلال النفوس؟ وكيف أن المسلم مضطهد فى جميع حقوقه وأنه عبد بالنسبة إلى المستعمر؟ وكيف أن السجون تعج بأبناء البلاد ظلماً وعدواناً؟ وكيف أنهم يأخذون أطفال المسلمين ويرمون بهم فى المدارس التبشيرية وينصرونهم؟

نحن يا سيدى نعلم هذا كله بصورة إجمالية ولكن نريد أن نتحقق بالأرقام والزمان والمكان ونقول للأمير ما دام موسوليني يقول لك أسمعنى ما يشكوه الطرابلسيون وأنا أنصفهم فهذا هو بعض ما يشكوه الطرابلسى البرقاوى فلينصفهم إن كان من الصادقين. وأنا على يقين يا مولاي أن موسوليني سيضرب بهذه الشكاوى عرض الحائط. حيث لا يمكن للأمير أن يقف موقف الحريص على مصالحنا والمصدق لما يقوله موسوليني فى آن واحد ولا شك أنه ينقص يده من الإيطاليين ويرجع لمناواتهم معنا ومع الاستمرار لا بد أن موسوليني سيدعن لمطالبنا الحققة. ولهذه الغاية فإننا لم نزل على تصميمنا فى إرسال الأخ عمر أفندى لأننا لا يمكننا أن نقدم ما فى كتاب سموكم كحجة والحال أننا لا نرى من المصلحة أن يكون لكم ضلع فى أعمالنا لأنكم فى وضعية لا تسمح لكم الظروف فيها بالظهور، وكثير من الناس من يعلم

الأشياء الكثيرة ولكنه لا يستطيع أن يجاهر بها لظروف تحيط بهم. أما نحن فإننا واقفون للأعداء حاسرى الرؤوس مجردين للعمل غير مباليين بشيء. يأتيكم على هذا صورة عن المخابرة الأخيرة التي دارت بيننا وبين عطوفة الأمير لتحيطوا بها علماً. وربما أكون شغلتكم وأنتم تقومون بأقدس العبادات ولكن لا يغرب عن فكر سموكم أن خوض هذه المواضيع من العبادة المفروضة. وحبذا لو تتمكنون بعد عودتكم من زيارة البلاد السورية لتتشرف برؤية سحياكم ونسعد بلقياكم. الأخ عمر فائق يهشكم ويقدم لكم أخلص تحياته ومنى عليكم أتمها وأعمها سيدى. (١٢ شباط ١٩٣٥).

والرسالة الثانية إلى الشيخ محمد عباس المصراتى، فى حوالى هذا التاريخ نفسه: وإليك نصها:

تحية واحتراماً - وبعد فقد وافانى كتابك الكريم فحمدت الله على دوام صحتك، أشكرك أيها الأخ على ما أظهرته نحوى ونحو إخوانى من العواطف النبيلة والإحساس الشريف، وإننا كلما بذلنا من الجهود، وكدحنا فى سبيل قضيتنا نشعر بأن الواجب يحتم علينا مضاعفة العمل لأن أمامنا خصماً عنيداً لا يعرف للإنسانية معنى ولا يقدر للمروءة قدراً. فإذا لم نتواصل بالصبر ونتدبر بقوة الإيمان، ونتعاون على مناضلة هذا العدو الباغى فإن المسئولية التى تترتب علينا تجاه الله والتاريخ هى عظيمة جداً.

أخى، من مدة لم نكتب إليكم بما لدينا، وربما يذهب بكم الظن أننا فى حالة توقف عن الأعمال ولذلك نود أن نلخص لكم بعض الحوادث فيما يلى:

من مدة سنة ونيف تقرب الإيطاليون إلى عطوفة الأمير شكيب فرأى من المناسب أن لا يرفض هذا التقرب، وأن يجعل من جملة مقاصده تخفيف بعض الولايات عن شعبنا البائس، والسعى فى تخفيف الولايات وإن لم يكن هو الهدف الوحيد الذى نستهدفه بيد أننا نحبذ عنه قيد شعرة ولا نرضى عنه

بديلاً هو تحقيق ميثاقنا الوطنى الذى عاهدنا الله أن نبذل كل ما فى جهدنا من قوة فى تحقيقه وأن نضحي فى سبيله بكل مرتخص وغال.

كان الأمير كتب إلينا أن موسولينى أظهر له بعض الاستعداد فى معالجة ما يشكوه المسلمون من المظالم فى القطر الطرابلسى البرقراوى، فاقترح عليه تحقيق المواد الآتية:

١ - العفو عن جميع المعتقلين والمبعدين السياسيين وإعادة أملاكهم المصادرة.

٢ - إعطاء فرصة للذين أبعادوا عن مواطنهم وأعيدوا إليها ولم يجدوا ملجأ أو مدخراً - ويعنى بذلك الثمانين ألفاً الذين أبعادوا من الجبل الأخضر.

٣ - إعادة الزوايا السنوسية وربط أوقافها بلجنة إسلامية تدير شئونها.

٤ - جعل (احترام) العقائد الدينية شرطاً مع المحافظة على اللغة العربية.

٥ - المساواة التامة بين الأهالى والأجانب فى نظر القانون.

٦ - إشراك الأهلىين فى إدارة البلاد واستخدام مأمورين أى موظفين منهم.

٧ - احترام الملك الشخصى كاحترام الدين والعرض وإعادة الأملاك المغصوبة.

٨ - عدم استخدام مأمورين (أى موظفين من الطليان معروفين ببعض العرب والمسلمين).

فوعده موسولينى بتحقيق هذه المقترحات، واعتقد الأمير أنه لا بد أن يفى بوعده واسلفه شيئاً من المدح فى سياسة إيطاليا فى الأريترة (إريتريا)، وعلى أثر ذلك قامت ضجة فى الصحف ضد الأمير لأنه لا يخلو من أعداء له يتربصون به الهفوات، فنحن وقفنا تجاه هذه المشادة موقف الحياد ولم نتصر

للأمير لأننا لم مر مبرر لمدح إيطاليا وهى لم تغير من سياستها فى بلادنا شيئاً ولا أن نوافق على ما قاله فيه الأخصام لعلمنا أنها حركة يراد بها الكيد للأمير لا أكثر ولا أقل . وجل فى ما فى الأمر اننى أدليت بتصريحات لجريدة الأيام بينت فيها أن سياسة إيطاليا فى طرابلس برقة لم تزل كما هى قساوتها بل تزيد من سىء إلى أسوأ . فاتخذ خصوم الأمير من كلامنا حجة عليه ونحن لم نقصد إلا بيان الحقائق الراهنة . ثم إننا كتبنا للأمير أن المظالم لم تزل مستمرة من قبل الإيطاليين فى بلادنا وأن المعتقلين من أهالى الجبل الأخضر لم يعادوا إلى موطنهم ، وأن موسوليني يكذب فيس قوله إنه أفرج عنهم وأعادهم إلى أوطانهم . فأجابنا الأمير يستوضح ويطلب منا أن نتحقق الخير لأن موسوليني أكد له تنفيذ ما وعده به فكتبنا له أننا على يقين مما كتبنا به إليه وأن موسوليني أفاك أثيم ونلفت نظره أن لا يغتر بأقواله التى تتعارض مع الواقع وزدنا على ذلك أننا صممنا أن نوفد أحد إخواننا إلى القطر المصرى ليتين كلل المظالم التى تجرى وننظم له فى ذلك تقريراً صافياً . ورجونا من الأمير أن لا يتسرع فى التصديق بما يقوله له موسوليني خشية أن ينشر أن الحالة فى طرابلس تحسنت فنضطر أن نعارضه وهذا ما لا نتمناه . فكتب إلينا الأمير مستحسناً إيفاد أحدنا ليقف على الحقائق وأنه إذا تبين له أن الظلم باق وأن المعتقلين لم يعادوا وقف غير هذا الموقف وبالفعل نحن اعتدنا أن نوجه أمين سر الجمعية الأخ عمر قائف أفندى لأنه يستطيع القيام بهذه المهمة حق القيام . ثم جاء فى كتاب الأمير جمل تتضمن ضرورة التفاهم مع الإيطاليين ، إلى أن قال : (إن طرابلس اليوم غير مستطبعة أن تطرد الإيطاليين ولا أن تقاوم بالسلاح . فالعاقل يرى بعد ذلك أن من الواجب السعى بقدر الإمكان فى إزالة المظالم الواقعة) . وقال أيضاً : (أى قطر إسلامى يا بشير غلبه الإفرنج على أمره ولم يلجأ إلى السياسة لأجل استرداد حقوقه ، هذه مصر أم البلاد العربية . هل استنكف سعد زغلول أو النحاس أو محمد محمود أو عدلى يكن أو أحد من أحزاب مصر أن يقصد إنجلترا وأن يتفاهم مع الإنكليز؟ أفعال المصريون من

حيث إنكم اعتديتم على بلادنا فاخرجوا في الحال ونحن لا كلام لنا معكم؟)، وضرب لنا مثلاً بالسوريين والعراقيين وكيف يعالجون قضاياهم بالسياسة. فأجبتُه إن هذا القول لا يوجه إلينا ولا ينطبق علينا لأننا ما تطرفنا في خطتنا السياسية حتى يوم كنا نقهر الإيطاليين في ميادين القتال، ووعدت له عدة مواقف تبرهن على رغبتنا الشديدة في التفاهم على أساس المحافظة على أمانينا الوطنية، إلى أن قلت له إننا منذ أربع سنوات كتبنا لموسوليني كتاباً كله رغبة في التفاهم وأرسلنا لك صورة منه نشرتها في مجلتك وكتبت لنا عنه ما يلي بالحرف الواحد (إن من عرف حالة موسوليني العقلية ومبادئ سياسته ومطامعه ومراميه عرف أن هذا اللسان الذي تتكلمون معه به هو لا يفهم منه شيئاً فهو ينظر إلى الأهالي نظره إلى حيوانات إذا كان يبقى عليهم فيكون استبقاء لخدمتهم البدنية في حقل إيطاليا لا غير، وما يفهم هذا الرجل شيئاً من المبادئ الحرة وحقوق البشر حتى في بلاده وبين أمته، فكيف تريدون أن يفهم من قوم أجنب عنه وهو لا يراهم إلا عبيداً). وقلنا رغم اقتناعنا بما قلتم فإننا كتبنا إليه في السنة الماضية كتاباً يهز القلوب ولو كانت قدت من صخر، وسنكتب إليه في كل فرصة لنبرهن له وللعالَم أننا نسير كما تسير الشعوب المغلوبة على أمرها في معالجة قضاياها بالحكمة والسياسة. ولكن ماذا يفيد موسوليني لا يريد أن يفهم كلمة من مدلولها التفاهم. وقد أجبنا على ذلك بكتاب فيه شيء من الاقتناع بنظريتنا. ثم إننا كتبنا إلى من يهمهم هذا الأمر في القطر المصري، وقدمت إليه لائحة تحتوى على كثير من المظالم الجارية وأن التعتقلين لم يعادوا إلى أوطانهم، وفيها مقدار الأراضي التي اغتصبها الإيطاليون من أهلها في الجبل الأخضر وهذا يؤيد ما كتبنا به إليه، فنظم الأمير في ذلك تقريراً إضافياً وشفعه بكتاب إلى موسوليني ذكر له فيه أن بقاء هذه الحالة لا يجعل تحسناً في سمعة إيطاليا في ذلك القطر، ويذكر لنا الأمير أنه إذا تأخر الجواب يذهب بنفسه لمقابلة موسوليني ليطالبه بوعده.

وبالإجمال إن عطوفة الأمير يسعى في تخفيف المصائب عن شعبنا

فنشكره على ذلك ونتمنى له التوفيق. وإنما نحن هدفنا أن إيطاليا إذا لم تحقق لنا أمانينا الوطنية فلن يهدأ لنا بال ولن يستقر لنا حال ونظل نناصبهما العداء وتربص بها الدوائر ولا نترك وسيلة تكتن من الانتقام إلا واتخذناها والله ولى الصابرين. وإنما فى هذا النضال الذى نخوض غمراته نعول عليك وعلى إخوانك الأكارم ونعتقد أن قضية لها أشبال أمثالكم يدافعون عنها لابد أن يكون مآلها النصر بمعونة الله، وجدير بالذكر بأن نهئى أنفسنا والأمة بكم. حياكم الله وأبقاكم.

ذكرتم لنا فى كتابكم أن الطليان اغتصبوا فى غريان أرضاً واسعة المساحة فأرسلنا كتابكم بعينه لعطوفة الأمير ليطلع على ما جاء فيه من المظالم من جهة ومن جهة أخرى ليعلم الروح الوطنية التى تغلى مراجعها فى قلوب أبناء الشعب الطرابلسى ورجونا منه أن يعيده لنا ليحفظ ضمن أوراق الجمعية ولذلك نرجو منك ومن إخوانك الأفاضل أن تعرفونا.

أولاً - كم اغتصبت إيطاليا من الأراضى بأمكنتها ومقدار المسافة كما بينتهم لنا عن أراضى غريان.

ثانياً - أن تحققوا لنا عن الأصول المتخذة فى المحاكم ورؤية مصالح الناس فيها وبعض المظالم التى وصلتكم عنها.

ثالثاً - عن الضرائب والرسوم التى تحيىها من الأهالى.

رابعاً - عن البطالة ودجة الفقر.

خامساً - عن التعليم وعدم العناية بلغة القرآن حتى ينسوا الناس دينهم وقوميتهم ويفطعوا كل صلة تربطهم بالماضى.

سادساً - اضطهادهم الخلق والقسوة التى ينفذونها فيهم بدون حكم ولا محاكمة وتضربوا لنا فى ذلك الأمثال كإجبارهم الناس على التحية عند رفع العلم الإيطالى.

أرجو أن تعيروا هذه المسائل التي عرفناك عنها أيها الأخ ما تستحقه من الاهتمام وتجتمع بإخوانك وتبذلوا الجهد في سرعة الحصول على هذه المعلومات التي نحن في حاجة شديدة إليها في هذه الظروف ليتحقق الأمير شكيب ما يجرى هناك، لكي لا يغتر بوعود، وعندئذ يضطر أن يقف موقف المعارضة كما كان.

إننا باعتبار النتيجة بمعونة الله لا بد أن نرغم الإيطاليين على قبول مطالبنا الوطنية ولنا والله الحمد من قوة الإيمان وصدق العزيمة والاعتماد على النفس ما يجعلنا على ثقة بأننا سنأتي بأعمال توصلنا إلى الانتقام من عدونا وتبلغنا من نيل أمانينا الوطنية. ولذلك ترانا لم نترك باباً نؤمل منه فرجاً إلا ونطرقه وإنما الأمور مرهونة بأوقاتها ومن طلب الشيء قبل أوانه ابتلى بحرمانه، فما علينا إلا الصبر والمثابرة على العمل وأن نثبت أقدامنا ونتوكل على الله، والله من وراء القصد.

لا يخفاكم أن أوروبا اليوم في حالة اضطراب شديد وأن وقوع حرب يتوقف على شرارة تضطرم بها نار تلتهم الأخضر واليابس، وأنا أمام هذه الحوادث نترب فرصة يكون لنا فيها فائدة لوطننا، فترانا نتخذ الوسائل لكل ما يعود على أمتنا بالنفع، وكونوا على يقين بأن الزمن سيسمح لنا بأعمال كبيرة إن شاء الله، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون بحول الله وقوته.

والرسالة الثالثة إلى عبد السلام أفندى أدهم، بتاريخ ٢١ مارس ١٩٣٥ ونصها:

تحية واحتراماً - وبعد فإننا من مدة غير قصيرة نود أن نكتب إليك بما لدينا من مجريات الحوادث عن قضيتنا، وإنما أخرنا عن ذلك أملنا أن تأتي إلينا بمناسبة هذا العيد لنحيطك علماً بكل شيء، ولما جاء الأخ منصور بك (قдарه) فهمنا منه أنك لا تفكر في المجيء في هذه الآومة وحينئذ لزم إخبارك بما لدينا.

تعلم يا حضرة الأخ أن عطوفة الأمير شكيب منذ سنة اتخذ خطة سياسية فى التقرب إلى إيطاليا ويرى بهذه الوسيلة أنه يمكنه من جملة الأعمال أن يخفف الولايات عن شعبنا البائس، والسعى فى تخفيف الولايات وإن كان ليس هو الهدف الوحيد الذى نستهدفه إلا أنه من ضمن مقاصدنا وهدفنا الذى لا نعيد عنه هو تحقيق برنامجنا الوطنى .

لذلك قلنا إذا كان سعى الأمير يرفع عن قومنا بعض المصائب فلا بأس من ذلك، إلا أن الأمير عقب مقابلته لموسولينى وبعد أن أظهر له بعض الرغبة فى معالجة ما يشكوه الشعب الطرابلسى أخذ هذا القول كحجة واعتقد أنه لابد أن يفى بوعده، فسلفه شيئاً من المديح فى سياسة الإيطاليين فى الإريتره وعلى أثر ذلك قامت ضجة صحافية ضد الأمير لأن الرجل لا يخلو من أعداء يترصدون هفوة منه .

فنحن نجاه هذه المشادة وقفنا موقف الحياد فما استطعنا أن نتنصر للأمير لأننا لم نر مبرراً لمدح إيطاليا وهى لم تغير من سياستها فى بلادنا قيد شعرة ولا أن تقول ما قال فيه أخصامه لأننا نعلم أنها حركة يراد بها الكيد للأمير فحسب . لذلك التزمنا خطة التروى . وجل ما فى الأمر أن جريدة الأيام طلبت منى أن أدلى لها بحديث عن الوضعية الحاضرة فى طرابلس فصرت لها بأن الحالة لم يتغير فيها شيء وأن الظلم باق كما هو وأشد رغب ما يشيعه البعض من تحسن الحالة . فاتخذ الخصوم من هذا حجة على الأمير ونحن لم نقصد إلا بيان الحقائق .

ثم إنه قد صادف أن أحد إخواننا السوريين - (وهذا كان إحسان سامى حق الذى ذكره شكيب أرسلان فى خطابه بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤) - كان متوجهاً إلى جنيف فأفهمته أن يبلغ الأمير أن الحالة ماشية من سىء إلى أسوأ وأن عود موسولينى له كلها وعود عرقوب . فكتب إلى الأمير طلب منى الإيضاح عن المتقلبن الذى قال له موسولينى عنهم أنه أمر بإعادتهم إلى

أوطانهم فقلت له إنه لم يكن ثمة شيء من هذا وإن موسوليني يكذب ويقول خلاف الحقائق الملموسة، وهذا رويناه له عن بعض القادمين إلينا فى الآونة الأخيرة من طرابلس.

فكتب الأمير إلينا، أنه يشك فى صحة روايتهم وأنهم ربما يكونون غير واقفين على الحقيقة. وأن موسوليني يؤكد له صدق ما وعد، ويطرى لنا فى مدح موسوليني بحيث صرنا نحشى ان يعتقد قول ذلك الأفاك.

فكتبنا إليه على يقين مما كتبنا إليك به وعلى كال فإننا اعتمدنا أن نرسل أحد إخواننا للقطر المصرى، ليتبين الحوادث عن كتب، ويأتينا بالخبر اليقين، ورجونا أن لا يتسرع فى الحكم قبل أن يعود هذا الشخص، وقد أوجسنا خيفة، أن الأمير يسلم بما يقوله له موسوليني، فيسترسل فى نشر الأخبار بأن الحالة فى طرابلس حسنة، فنضطر أن نعارضه، وهذا ما لا نتمناه.

فكتب إلينا مستحسنًا إفاد أحدنا ليقف على الحقائق، وأنه إذا تبين له أن الظلم باق، فله موقف غير هذا الموقف. وبالفعل نحن صممنا أن نوفد الأخ عمر أفندى، لأنه يستطيع أن يقوم بهذه المهمة حق القيام، وأنه سيأخذ فى الحصول على جواز السفر فى هذين اليومين، وسنسى فى جمع مبلغ يكفيه فى هذه الرحلة. وقد جاء فى كتاب الأمير المار الذكر جمل، أنقلها إليك بالحرف الواحد. قال بعد مقدمة بحث فيها على ضرورة التفاهم والسعى إليه:

إن طرابلس اليوم غير مستطبعة أن تطرد إيطاليا ولا أن تقاوم بالسلاح. العاقل يرى بعد ذلك، أن من الواجب السعى بقدر الإمكان فى إزالة المظالم الواقعة.

ثم قال: "أى قطر إسلامى يا بشير؟ غلبه الإفرنج على أمره ولم يلجأ إلى السياسة لأجل استرداد حقوقه. هذه مصر أم البلاد العربية - (إلى آخر العبارة التى ذكرها السعداوى فى رسائله الأخرى وسبق إثباتها. وهذا القسم من كتاب السعداوى إلى عبد السلام أدهم مطابق لما كتبه فى رسالته إلى

محمد عباس المصراتى إلى أن يكتب) "ثم إنه جاء كتاب من مصر يحتوى على مظالم وأن المعتقلين الذين أفرج عنهم لم يعادوا إلى أوطانهم فى الجبل الأخضر، ويذكر له فيه الأراضى التى اغتصبها الطليان من أهلها وسلوها إلى المستعمرين، فنظم الأمير ذلك تقريراً ضافياً وشفعه بكتاب إلى موسوليني وقال له: إن بقاء الحالة لا يمكن أن يجعل تحسناً فى سمعة إيطاليا فى ذلك القطر. ويذكر أنه إذا تأخر عنه الجواب وأمر تنفيذ مقترحاته، فسيذهب إلى روما بالذات. وبالإجمال أ، عطوفة الأمير الآن يسعى فى تخفيف المصائب ويعتقد أن سعيه هذا أفضل من الاستمرار فى الطعن، فنحن نشكره على ذلك.

وإنما نحن هدفنا أن إيطاليا إذا لم تحقق لنا أمانينا الوطنية فلن يهدأ لنا بقل، ولن يستقر لنا حال. اتفاق إيطاليا وفرنسا، جعل الصحف تمتنع عن نشر شىء ضد إيطاليا وهذا أمر طبيعى ولكنه لا يكون مانعاً لتنفيذ مقاصدنا بواسطة النشر عند مساس الحاجة.

وإننا الآن ننتظر النتائج التى سيصل إليها الأمير مع موسوليني. فإذا ما قارنا بين الأعمال التى قام بها الفاشيست فى بلادنا حتى الآن، نقول أن الأمير سيضطدم وموسوليني لا محالة، لأن موسوليني نيته القضاء على شعبنا وإفناؤه عن بكرة أبيه، ليجعل من قومه عنصراً يستند عليه فى إعادة مجد الرومان فى شمال أفريقيا. ومن كانت هذه نواياه لا يميل إلى التساهل قط. ويعلم الأمير أنه يحاول محالاً، فيضطر إلى تغيير فكرته فى موسوليني ويحبذ خطتنا ويعود يحمل على سياسة الفاشيست كما كان. وإذا وفق - وهذا ما نستبعده - فنتركه يسير فى طريق تخفيف الويلات بالنصح والإرشاد وربما يصل إلى نتيجة لا نكره الحصول عليها، ونحن لا نشئ عن مزمننا فى المطالبة بحقوقنا السياسية، التى عاهدنا الله والأمة على النضال فى سبيلها ما دام فينا عرق ينبض.

إننا - كما ذكرت آنفًا - لم نزل على تصميمنا فى إيفاد الأخ عمر أفندى إلى مصر لتحقيق المظالم التى يجرى من غضب أراض وتسليمها إلى المستعمرين، ومن هضم حقوق وتجاوز على لغتنا وقوميتنا، وننظم فى ذلك تقريراً نجده كوسيلة لتأليف حلقة ثانية لكتاب الفظائع من جهة، ومن جهة ثانية فإنه ينبه أفكار إخواننا فى ذلك القطر ويشد عزائمهم، ويدعوهم إلى الأعمال التى تعود على قضيتنا بالفوائد الكثيرة. ومن هذا يتبين لحضرة الأخ أننا وإن سكتنا عن إعلان الضججات فى الصحف فما ذلك عن إهمال أو تقاعس وإنما ظروف كالظروف المارة الذكر هى التى جعلتنا نتعقب نتيجة الحوادث التى تمر فيها.

ثم إننا قد اتصلنا ببعض مواطنينا من طلبة الأزهر فألقينا فيهم روحاً طيبة وشعوراً وطنياً وقادراً وثقافة تبشرنا بخلق جديد جعلنا نعول عليهم فى المستقبل. وقد أرسلوا إلينا جدولاً بأسماء إخوانهم الذين يشاركونهم فى شعورهم الوطنى الصادق. وليس يخفى ما للشباب من الأعمال المثمرة فى الحركات الوطنية فزدناهم بما يلزم من الأفكار والعقائد التى نسعى فى نشرها فى الأذهان. وهذه نعدّها بادرة موفقة يجب أن نهئى بها أنفسنا والحمد لله.

ثم إن فرع جمعيتنا فى تونس نحن على اتصال (بأعضائه) بالمخابرة وهم أيضاً فى فعالية طيبة وقد علمنا أنهم مشتركون فى صحيفة وطنية تصدر باللغة العربية فى باريز يحرقها نخبة من شباب العرب وهم يرأسونها ويمدونها بالمقالات، وقد أظهروا لنا رغبة فى الاشتراك بصحيفة تصدر فى البلاد السورية فاخترنا لهم جريدة الأيام وعددناهم فيها مشتركين ليكونوا على صلة بالحركات الوطنية العربية العامة.

ثم إننا انتهزنا فرصة الخلاف المتكون بين الحبشة والإيطاليين فكتبنا إلى ملك الحبشة كتاباً أعربنا له فيه عن استنكارنا لنية الإيطاليين فى التجاوز على مملكته وأظهرنا رغبتنا الشديدة فى أى عمل يكون من شأنه مناوأة خصمهم

وخصمنا فى آن واحد وأخذنا الوصل المشعر بوصول كتابنا إلى البلاط الملكى وياشرنا فى المخابرة مع سفير الحبشة بمصر لهذه الغاية وحتى الآن لم نأخذ عن ذلك جواباً.

وصفوة القول أننا لم نر كل هذه الأعمال كافية لمكافحة خصمنا اللدود ونود أن تقوم بما هو أكبر من الأعمال التى تلحق به الضرر الفعلى، الضرر الذى يحسه ويتأثر منه ويجبره على تغيير سياسته فى بلادنا بل ويرغمه على إعطائنا حقوقنا ولكن تلك الأعمال تتوقف على وجود المال الذى لم نتخذ التدابير الفعالة لاقتنائه لهذه الغاية السامية، فلو وجدنا المال لكننا قمنا بأعمال كبيرة يكون لها صداها، ولكن ماذا نصنع؟ فالعين بصيرة واليد قصيرة هذه ناحية جديرة بالتأمل، جديرة بأن نفكر فيها التفكير الصحيح.

إننا أمام خصم قوى له من وسائل التنكيل بنا ما يجعله يصل إلى رغائبه بكل سهولة، ولكننا لا نياس ولا يجب أن نفتر لنا عزيمة لأن لنا من قوة الحق بفضل معونة الله ما يجعلنا نحن الغالبين وإن طال الأمد.

هذا بعض ما نشير به وبعض ما نقوم به من الأعمال بنسطها إليك لتحيط علمًا بما لدينا ولتزودنا برأيك وما يحول فى خلدك من الأعمال التى يجب أن نقوم بها. وفقنا الله وإياك لما فيه خير البلاد ونفع العباد.

السيد إدريس سافر للحجاز فى هذه السنة حسب ما كتبه لنا أخيراً وربما مر فى طريقه عند عودته على فلسطين لأننا كلفناه بذلك، منصور بك (قدارة) اطلع على جميع الأحوال بالتفصيل عساه أن يوضح لك أكثر من ذلك. أوضحوا هذا للأخ خليفة أفندى (ابن شعبان) وإلى مصطفى أفندى والإخوان الذين نعتمد على وطنيتهم. أحمد راسم وكامل عياد وعمر فاق يقدموا لك السلام ومنى عليك أتمه وأعمه.

والرسالة الرابعة إلى كل من الفضيل (باشا) المهشيش. وعبد السلام

(بك) الكزة. والشيخ عبد الحميد العبار، وهى بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٣٥،
ونصها كالآتى:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فإنكم تعلمون أننا عقب
مفارتنا للوطن رأينا أن نواصل الجهاد فى مكافحة الإيطاليين بالأقلام كما كنا
نحاربهم فى ميادين القتال، وإننا منذ سبع سنين ونحن ننشر الكتب والنشرات
والرسائل ونذيعها فى جميع الأقطار العربية الإسلامية ونبين للمسلمين ما قام
به رجالنا من الأعمال المجيدة فى الجهاد وما قدموا فى سبيل الله والوطن من
الضحايا الغالية. وقد جعلنا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يعلمون
أيضاً ما تفعله إيطاليا من مظالم فى بلادنا، وسبب ذلك نفرة وبغضنا فى
قلوب جميع المسلمين لإيطاليا حتى أنها قد أصبحت مضرب المثل فى
الوحشية وفى ارتكاب الفظائع وأخذ المسلمون يهتمون بقضيتنا الاهتمام التام
واتصلنا أيضاً ببعض الجمعيات والرجالات فى أوروبا وبسطنا لهم ما نقوم به
من الأعمال. وهذا بالطبع قد ألحق بالإيطاليين ضرراً لأنهم يودون أن تكون
سمعتهم حسنة يف كل البلاد لما لهم من المصالح السياسية والاقتصادية، وإننا
عاهدنا الله والوطن أن لا نألوا جهداً ولا ندخر قوة إلا ونبذلها فى خدمة
أوطاننا ومكافحة أعدائنا الذين اغتصبوا تراث آبائنا وظاهروا على إخراجنا.
وكيف لا نوالى العمل فى مناضلة الإيطاليين وهم قد استولوا على بلاد
مخضبة أرضها بدماء الفاتحين، بلاد هى قبور الصحابة والتابعين، بلاد هى
منبت عزنا ومهد فخرنا أخرجتنا منها تلك الدولة الباغية فأصبحنا مشردين فى
بلاد الناس لا يعرف منا الوضع ولا الرفيه، ذلك من جملة الأسباب التى
تجعلنا لا نفتر عن النضال ولا يهدأ لنا بال ولا يستقر لنا حال ما دام
الإيطاليون مغتصبين لحقوقنا وبما أننا نعتقد أنكم من تتخبة الرجال الذين
جاهدوا فى الله حق جهاده. والذين أخرجوا من ديارهم أودوا فى سبيل الله
والوطن، وأنكم من الذين فضلوا الغربة على تحمل الضيم فى بلاد لا ترعى
لكم فيها ذمة ولا تصان لكم فيها حقوق. فجدير بمن كانت هذه أسباب

هجرته أن لا ينسى تلك التربة التى أنبتته والبلاد التى أنشأته وأن لا ينسى ما أهرق فيها من الدماء وما ذفن فيها من الشهداء . وإننا لا نشك بأنكم فى كل آن تذكرون ذلك وتسعرضون ما يفعله الأعداء فى ذلك الوطن المنكود . كما أننا على يقين بأن حسن الانتقام من أولئك الطغاة المشام لا يزال يخلى فى صدوركم وأنكم تترقبون الفرصة لإعادة الكرة على الأعداء وهذا ما نعمل له ونترقبه وما ذلك ببعيد إن شاء الله فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلمون بحول الله وقوته .

فيا حضرة الأخ إن إيطاليا تسعى اليوم فى التقريب إلى الأمة العربية لتوسيع نفوذها وترويج مصالحها ولكنها لا تستطيع أن تتقرب إلى قلب واحد من قلوب العرب ما دمنا نحن ننشر فظائعها ونعدد ما ترتكبه من المظالم فى بلادنا . لذلك اضطرت إيطاليا أن تسعى فى تغيير شىء من سياستها بعد أن شوهدنا سمعتها فى العالم وأخذت الآن تطلب بواسطة بعض رجالات المسلمين البارزين الذى هم فى اتصال بنا أن نوافقهم بما يشكوه شعبنا من المظالم ليسيئوها لموسولينى الذى تعهد لهم بالنظر فيها . ونحن وإن كنا فى الحقيقة نسعى للوصول إلى برنامجها السياسى وما دونه فكله ثانوى بالنسبة إليه . وهذا البرنامج يأتىكم طى كتابنا فى ورقة مخصوصة لتحيطوا علماً به وإننا لا نرضى عنه بديلاً ، ولكن ما دام غيرنا يسعى فى تخفيف المظالم ففرى من الواجب أن نعلمه بما يجرى من المظالم ، ولذلك نرجوكم أن تعلمونا :

١ - كم اغتصبت إيطاليا من الأراضى فى جهاتكم ، مقدار مسافتها على حساب الساعات أو تقولوا اغتصبوا الأراضى الفلانية من المحل الفلانى إلى المحل الفلانى .

٣ (؟) قد بلغنا أن إيطاليا أخذت عدداً غير قليل من أبناء المسلمين الأيتام وساقتهم إلى روما لأجل تنصيرهم فأرجو أن تعلمونا عن عددهم إن أمكن ، ومن أى القبائل .

٤ (؟) أن تعلمونا عن كل مظلمة تفعلها إيطاليا وعن العسف والشدة التى تنفذهما فى البلاد بوجه التفصيل .

وبهذه الوسيلة لعلنا نوفق إلى رفع شىء من الظلم والجور الحاصل فى البلاد . وعليه نرجوكم كل الرجاء أن تعرفونا بما لديكم بوجه السرعة ، وإننا فى انتظار الجواب بفارغ الصبر ودمتم سالمين .

والرسالة الخامسة إلى كل من أحمد المريض (بك) والسيد أحمد الشتيوى (السويحلى) وهى بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٥ وإليك نصها :

تحية واحتراماً - وبعد فإنك تعلم يا حضرة الأخ أن عطوفة الأمير شكيب من مدة اتخذ خطة سياسية فى التقرب إلى إيطاليا ويرى بهذه الوسيلة أنه يمكنه من جملة مقاصده أن يقوم بعمل يخفف به بعض الويلات التى تجعل بشعبنا البائس ، وأنه انتهج هذه الخطة عندما آتس من موسوليني رغبة فى إزالة المظالم التى تجرى فى طرابلس وبرقة . فيود الأمير أن يبين له بعض ما يشكوه أهل ذلك القطر . ويفول لنا يجب أن تبيينوا لى المظالم وتعينوا الأزمنة والأمكنة حتى لا يبقى لموسوليني عذر وذلك على سبيل التجربة فإذا وجدت منه أذنًا مصغية وعملاً حقيقياً فذلك المطلوب وإلا فيبقى لى الوقت فى التبصر فى القضية .

فنحن وإن كنا لا نعتقد فى حسن نية موسوليني الذى يرى حياة شعبه فى موتنا وغناؤه فى فقرنا وسعادته فى شفائنا وأنه يود أن يبنى شعبنا عن بكرة أبيه ليستخلفه بأبناء أمتة المشردين فى الآفاق ويجعل منه قوة يرتكز عليها فى إعادة المجد الرومانى فى شمال أفريقيا ، كما أننا لا نطمئن لأى عمل لا يكون من شأنه تحقيق برنامجنا السياسى ولا يوصلنا إلى أمانينا الوطنية التى ضحينا ولا نزال نضحى فى سبيلها بكل مرتخص وغال وهذا هو الهدف الوحيد الذى نستهدفه ولا نحيد عنه قيد شعرة . بيد أننا نحيد من يسعى فى تخفيف الويلات عن شعبنا المنكود الحظ . لذلك قلنا إذا كان عطوفة الأمير يسعى فى رفع بعض المصائب التى تتاب إخواننا فى عقر دارهم فلا بأس

بذلك، خصوصاً وأن صديقنا الأمير عند مقابلته لموسوليني سمع منه بعض التصريحات التى جعلت الأمير يعتقد أن موسوليني لابد أن يفى بوعده، وقد طلب منا عطوفة الأمير يسعى فى رفع بعض المصائب التى تتاب إخواننا فى عقر دارهم فلا بأس بذلك، خصوصاً وأن صديقنا الأمير عند مقابلته لموسوليني سمع منه بعض التصريحات التى جعلت الأمير يعتقد أن موسوليني لابد أن يفى بوعده، وقد طلب منا عطوفة الأمير بإلحاح شديد أن نبين له كل ما تفعله إيطاليا فى هذه الآونة الأخيرة من مظالم. وأن تتحققوا وتعلمونا عن المسائل الآتية:

١ - كم اغتصبت إيطاليا من الأراضى (وقد كتب السعداوى فى رسالته إلى أحمد المريض يستعلم منه عن الأراضى المغتصبة) فى ترهونة وغريان والنواحي الأربعة وجفارة (ولأحمد الشتيوى فى) مصراتة وزليطن وسرت وأرئلة ومسلاتة وجفارة والزاوية وغيرها من الأماكن. مقدار مسافة الأراضى المغصوبة على حساب الساعات أو كيلومترات أو تقولوا أنهم اغتصبوا الأراضى الفلانية من المكان الفلانى مثل ما جاءنا من الأخبار أنهم اعتصبوا فى غريان من قرية (بوزيان) من جهة الغرب إلى منتهى غريان من جهة الشرق.

٢ - تحققوا لنا عن الأصول المتخذة فى المحاكم ورؤية مصالح الناس فيها وبعض المظالم التى وصلتكم عنها.

٣ - عن التعليم وعدم العناية بلغة القرآن حتى ينسوا الناس دينهم وقوميتهم ويقطعوا كل صلة تربطهم بالماضى.

٤ - اضطهادهم الخلق والقسوة التى ينفذونها فيهم وتضربوا لنا من ذلك الأمثال كإجبار الناس على التحية عند رفع الأعلام الإيطالية وغير ذلك.

وقصارى القول: أننا نرجو أن توافونا بكل ما يصل إلى مسامعكم من الظلم الذى يجرى فى بلادنا فى هذه الآونة الأخيرة لنرسل ذلك فى تقرير ضاف إلى عطفة الأمير شكيب وهو بدوره يرسله إلى موسوليني كمعلومات

حصل عليها الأمير من قلبه وخاطبه في شأنها لأننا نحن بصفتنا جمعية تدافع عن حقوق البلاد من الوجهة السياسية لا نجيز لأنفسنا أن نخاطب الإيطاليين في أمور هي دون أمانينا الوطنية بكثير، ولكننا دأبنا غيرنا بسعى في تخفيف الويلات رأينا من الحكمة أن نساعد.

إن موسوليني يبذل الجهود الكبيرة لأجل أن يتقرب إلى الشرق وذلك لتوسيع نطاق نفوذ دولته السياسي والاقتصادي، فتراه في كل سنة يسهل لمائة من الشبان زيارة إيطاليا بمصاريف زهيدة وسعى في عقد مؤتمر في روما لطلبة الشرقيين ويزيد في الراديو مقاصده أيضاً نحو الشرق باللغة العربية، يقو كل هذه الدعاية ليتقرب من الشرق، ولكن يجد في وجهه جماعة يقومون بدعاية شديدة تعرقل مساعيه، فلا تجد كاتباً يكتب عن السياسة الإيطالية إلا ويقول للإيطاليين إن كان ما تدعونه من رغبة في التقرب إلى الشرقيين حقبة فأرونا حسن نيتكم في طرابلس الغرب قبل كل شيء وهذه ربما تجعلهم يغيرون في بعض الأشياء البسيطة ولكننا إذا كنا أثراً في وجوههم الحملات الشديدة ووقفنا لهم بكل مرصد فلا نشك أنهم يضطرون أن يعيروا هذه المسألة ما تستحقه من الأهمية وأن توافقونا بهذه المعلومات بأسرع ما يمكن. كما أننا نرجوكم باسم الوطنية، باسم أرواح شهدائنا الأبرار، باسم الآباء والأجداد الكرام والفاحين العظام أن لا تنسوا تلك التربة التي أنبتكم وأن لا تنسوا تلك الأم الرؤوم التي ربّتكم. إننا نناشدكم الله، نناشدكم الإيمان وما جبلتم عليه من حب الأوطان أن تجعلوا انصب أعينكم إخوانكم الذين قضى الله عليهم بالبقاء تحت أيدي الأعداء. أولئك الإخوان الذين يلاقون أشد العذاب من القوم الظالمين وليس لهم من مغيث ولا مجير إلا الله. فأعينونا على ما عاهدنا الله عليه، وهو رفع ذلك الكابوس المخيم على رؤوسهم بقدر المستطاع. إن عليكم واجبات تجاه البلاد، فأرجو أن لا تهملوها وأنتم من نخبة رجالها الذين جاهدوا في الله حق جهاده، والذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وتحملوا آلام الغربة في بلاد الناس.

إننا نجد العهد أمام الله والناس أجمعين، بأننا لن نألوا جهداً في مكافحة أعدائنا الإيطاليين، فأعينونا على هذا الكفاح بقدر المستطاع ونحن نعلم أنكم في محيط لا تستطيعون فيه العمل الذى نستطيع القيام به، ولكنكم تستطيعون أن تمدونا بآرائكم وبمعلومات كالتى نطلبها منكم هذه المرة، فالمرء ضعيف بنفسه قوى بإخوانه، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

لقد كتب بشير السعداوى كذلك إلى فلسطين يطلب من أخصائه أن يبحثوا موضوع النقد الذى وحاه أحد الطرابلسيين هناك للأمير شكيب، وبادر الأمير عادل أرسلان بإعلانه إلى قريبه فى جنيف. وكان ممن كتب لهم السعداوى كذلك السيد أحمد حمدى عويدان الفيتورى الحسنى، وكان مقيماً فى حلب ويعلم بهذا الموضوع، بل ويعرف هذا المنتقد للأمير شكيب، وقد ظهر أنه شاب طرابلسى "له من العمر ثمان عشرة سنة جاء من طرابلس الغرب باسم التجارة، فمر فى طريقه على مصر ثم إلى بيروت، وإلى حلب (جاء لزيارة أحمد حمدى عويدان)، وبقي عنده فى بيته عشرين يوماً ثم خطر له السفر إلى فلسطين، ثم ذهب إلى مصر ومنها إلى طرابلس. ولم يكن قد وقف على وجهة نظر الأمير شكيب فى هذا التقرب إلى إيطاليا.

ومن أمثلة الحملة على شكيب أرسلان ما نشرته جريدة (الدفاع) التى تصدر فى يافا، وذلك فى عشرين متتاليين رقمى ٢٨٥، ٢٨٦ بتاريخ أول وثانى أبريل ١٩٣٥، للرد على مقالات الأمير التى يؤيد فيها العدوان الإيطالى على الحبشة، فنشرت (الدفاع) فى أول أبريل (كلمة العدد) بعنوان: (مرة أخرى - ما هذه النعمة الجديدة - كفى فلقد استيقظت الأمة وبلغت سن الرشد، فجاء فى هذه الكلمة ما يأتى:

نصالح القراء أن هناك دعاية منظمة تقام لإيطاليا ومن المؤسف أن يكون القائمون بها شخصيات معروفة فى العالمين العربى والإسلامى، وأن تساند هذه الشخصيات صحف تخدع قارئها وتسعى إلى التاريخ. وقد كنا نكتفى

بأن تسكت هذه الصحف عن عيوب الدولة الاستعمارية، لكنها مع الأسف جعلت نفسها منبراً يصرخ الخطباء عليه في وجوه المسلمين: إن ما عرفتموه عن إيطاليا في طرابلس، والجبل الأخضر كان مغلوطاً، وإن من المصلحة أن تنسوا استشهاد عمر المختار، وتشريد عشرات الألوف من قومه، وحرماً اصطلت طرابلس الشهيدة لها منذ عام ١٩١١ إلى أمس القريب. ولماذا؟ لأن إيطاليا بدلت من سياستها! ولأن إيطاليا ناصرت في عصبة الأمم العراق! أهذا هو الثمن الغالى الذى دفعته هذه الدولة الاستعمارية لتلك الدماء، وألوف الأرواح التى فاضت فى الحروب، أو عطشاً وجوعاً وعرياً فى الصحارى؟ أى ثمن دفعته إيطاليا للعرب والمسلمين حتى نأخذ بسياسة حسن الظن بها؟ أى عمل باهر قدمته إيطاليا دليلاً على حسن نيتها؟ تخربات؟

نقسم بالله أننا نعلم المهول مما لا نحب أن يقرأه الجمهور، حرصاً على البقية الباقية من ثقته. هل صارت إيطاليا من القربى لنا إلى حد أن نحمل على الحبشة الشريفة - ولماذا؟ قال لأنها ظلمت المسلمين قبل سبعين سنة! كفى، هذا قول يمشى على أمة جاهلة ليس فيها صحافة أو سبل أخرى للبحث عن الحقيقة. إن أعلامكم يا دعائنا الجدد كانت حتى أمس القريب تلهب إيطاليا، فما للأعلام تمشى فى أيديكم، ولا تكاد تستطيع إخفاء الغرض من هذه الدعاية. اتركوا الحبشة وشأنها، فإننا لم نسمع بأنها ظلمت المسلمين أو اضطهدتهم إلا منكم أما إيطاليا فلا يزال شخص عمر المختار ماثلاً فى فؤاد كل مسلم. وحسب الشرق من شعوبه وأمه هذا العدو المستعبد، حتى نضيف إلى قائمة العبيد أمة جديدة من أمه.

إن إيطاليا لم تقدم للعرب البرهان على أنها صارت معهم. وأخذت تكفر عن سيئاتها إلا إذا كنتم تخفون عنا "وعوداً" لإيطاليا قطعها لكم؟ وفى هذه الحالة نذكركم بأن الأمة لم تعطكم تفويضاً لعقد الاتفاقيات مع أعدائها الذين أثخنوها بالجراح.

هذه كلمة سريعة، وموعدنا بالتمة غداً.

أما عدد (٢ أبريل) فقد نشر "بقلم كاتب عربى معروف" التمة التى وعدت بها الصحيفة فى عدد الأمس. وكانت بعنوان: (مقال الأمير - كلمة هادئة حول سياسة إيطاليا) وجاء فيها ما يلى:

قرأنا لعطوفة الأمير شكيب مقالاً افتتاحياً فى الجامعة الإسلامية الغراء صدره بقوله: "بعض جرائدنا تحيز للحبشة على إيطاليا تحيزاً شديداً (بحجة) أنها دولة ضعيفة بإزاء دولة أوروبية استعمارية قوية. وهذا كله معقول ومقبول لم لم يكن هناك أشياء أخرى يجب أن نتنبه لها وان نعيها جانب الاهتمام اللازم، وإلا فنكون أخللنا بالمصلحة التى نزعم أننا نخدمها.

والأشياء التى يجب أن نتنبه إليها هى أن الحبشة اضطهدت المسلمين فيها قبل سبعين سنة، وأنها حرمت المسلمين من الوظائف، فى حين أنه "يوجد من الجزائريين المسلمين عدد كبير فى خدمة الحكومة الفرنسية"، ولأن إيطاليا انتصرت للعراق مرة فى عصبة الأمم، ولأن إنجلترا وفرنسا تعضدان لليهود باطنًا وظاهرًا، ولأن إيطاليا دولة عظيمة تستطيع أن تتكلم متى شاءت بدون محاباة فرنسا أو إنجلترا، وأنه من السياسة والحكمة أن لا يتورط العرب فى معاداة هذه الدولة.

إن العرب، يا عطوفة الأمير، يمقتون كل استعمار أوروبى، وإيطاليا دولة مستعمرة واستعمارها طرابلس كما عرفناه، استعمار فظيع للغاية. ومن الممكن أن إيطاليا قد نفست نوعاً ما فى المدة الأخيرة عن إخواننا الطرابلسيين، وعاملتهم بالنسبة للسابق معاملة حسنة، نقول هذا لا لأننا نعتقد اليوم أن إيطاليا تعامل الطرابلسيين معاملة حسنة، ولكن لنوافق جدلاً عطوفة الأمير على نظريته فى هذا الشأن، ونرى فيما إذا كانت بعض هذه الجرائد، الذى يقول عنها عطوفته. إنها تحيز للحبشة على إيطاليا تحيزاً شديداً، مخطئة فى خطتها أم مصيبة. ولنقل فى بادئ الأمر إن الاستعمار ممقوت كيفما كان. وإن

المستعمرين محقوتون كيفما كانوا، وإنه لمن شأن الأمم المستعبدة أن تمقت كل استعمار مهما كان نوعه. فإيطاليا، مثل إنجلترا وفرنسا وغيرها من دول الاستعمار دولة مستعمرة، وطبعاً جداً أن تمقت نحن معاشر العرب، سائر هذه الدول. . وإن عطوفة الأمير شكيب يسلم معنا تماماً بهذه النظرية الحقّة، غير أن عطوفته يقول إن "كل هذا معتزل ومقبول".

إننا نسلم مع عطوفته، بأن ليس للسياسة قلب، وأنه ليس للسياسيين أن يتقادوا للخراطيف بل للمصلحة، وأن المرء يلثم يد القاتل إذا كان في لثم هذه اليد ثمة نفع للمصلحة العامة. إننا نسلم حقاً مع عطوفته بكل هذا، ولكن الذى لا نوافقه عليه هي الحجج والدلائل التي أوردها في مقاله السالف الذكر، بشأن ضرورة وقوف العرب على الحياد على الأقل، بما يتعلق بالسياسة الإيطالية، قلنا أن من شأن العرب أن يمقتوا إيطاليا لأنها دولة مستعمرة، وذلك بقطع النظر عما إذا كانت شديدة الوطأة في سياستها الاستعمارية أو خفيفها، ولكن هل يكفي يا عطوفة الأمير أن نقلع عن سياستنا العدائية لإيطاليا أو أن يكيل العرب المديح جزافاً لها، وأن يبقى العرب حياديين على الأقل بكل ما يتعلق بشئونها لأن أحد ممثليها لفظ بعض الكلمات الطيبة بمناسبة استقلال العراق، أو أن السنيور موسوليني أعاد بعض من شردتهم إيطاليا من العرب إلى بيوتهم، أو لأن الحكومة الإيطالية شيدت مدرسة أو مدرستين جديدتين للمسلمين في طرابلس، إذا كان ما ذكر مما يرضى العرب، ويجعلهم أن ينقلبوا أصدقاء لهذه الدولة من أجل ذلك، فيجب القول، والحالة هذه، إن كل ما يتطلبه العرب من دول الاستعمار أن تمنح هذه الدول العرب بعض حقوقهم المدنية، وأن لا تعاملهم في ديارهم معاملة الحيوانات.

ويكفي أن تعنى بتشديد بعض المدارس في بلادهم وأن لا تشردهم من بيوتهم وأن تؤمنهم نوعاً ما على حقوقهم الدينية والمدنية فقط.

ولكن عطوفة الأمير يعرف أكثر من كل إنسان بأن مطمح كل عربي هو الاستقلال والحرية قبل كل شيء، وأن العرب لا يرضون من دول الاستعمار بأقل من ذلك.

ولكن قد يكون لدى عطوفة الأمير شكيب أشياء نجهلها وأن عطوفة لم يستطع حتى الآن إظهارها. وأنه لو عرفناها لكان لنا موقف آخر في سياستنا الحاضرة مع إيطاليا.

والخطأ أن يريد عطوفة الأمير أن نفهم عفوًا نحن في فلسطين ما عرفه هو في روما. أما الذي عرفناه نحن فهو أن عطوفة الأمير وزميله يف جنيف - (إحسان الجابري) - قد فهما أشياء كثيرة عن سياسة إيطاليا، وأنهما فهماها من نبعها، في روما، غير أنهما سامحهما الله يطلعًا أحدًا على ما عرفناه في هذا الخصوص. وربما اعتقد أنه كان على العرب أن يتبعا خطاهما، دون ما سؤال أو إيضاح. ولكن ليسمح لنا عطوفة الأمير أن نصارحه هنا القول بأن العرب الذين يحبونه ويقدرّون خدماته لا يكتفون منه بالإشارة والتلميح بهذا الشأن. وإننا نهيب به إذا كان لديه ما يفيد حقًا المصلحة العربية، أن يدعو - على الأقل - إخوانه في جميع الأقطار العربية وكل منهم معروف وموثوق به، ويذكّركم في كل ما يتعلق بسياسته الجديدة نحو إيطاليا بجلاء. عندئذٍ قد يكون تفاهم يؤدي إلى خطة مفيدة.

وفي الشهور التالية، وطيلة العدوان الإيطالي، شغل الأمير شكيب بالدفاع عن نفسه وعن سياسته، فنشرت له الصحف مقالات يسط فيها "فلسفته" في وجوب مواجهة الأمر الواقع والاعتراف بضرورة اللجوء إلى "السياسة" لنيل المطالب الوطنية من عدو أو أعداء لا قدرة للشعوب المغلوبة على أمرها على انتزاع حقوقها غصبًا من برائتهم. وكان من هذه المقالات ما نشرته جريدة (الأيام) بعدد ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٥، بقلم أمير البيان سعادة الأمير شكيب أرسلان "بعنوان" مقدمة لما نحن بصدده من خدمة الأمة

العربية - ليست الوطنية معناها استمساك الإنسان بمبادئ معلومة لا يحدد عنها في ظروف القاهرة". وهو مقال طويل، ساق فيه الأمير شكيب لتأييد وجهة نظره نفس الحجج التي ساقها في رسائله إلى بشير السعداوى، التي ينصح فيها باتخاذ سياسة التقرب إلى إيطاليا ويرد على اتهامات وانتقادات خصومه الذين ينعون عليه الانقلاب المفاجئ، من التشنيع بإيطاليا، وإذاعة فظائعها على الملأ في مشارق الأرض ومغربها إلى التسبيح بحمدها والثناء عليها، ودبج المقالات التي يمدح بها فعلها، ويسوغ فيها عدوانها على الحبشة. وعندما نشر الأمير شكيب في عام ١٩٣٧ كتابه عن صديقه الكبير (السيد رشيد رضا، أو إخوان أربعين سنة) حرص على أن يثبت في تعليقاته على بعض الرسائل المنشورة في هذه السيرة دفاعه عن سياسة التقرب إلى إيطاليا - على حساب الحبشة - التي أثارت عليه كل الضجة الشديدة. ويكفى أن نذكر كختام لهذه المأساة التي كدرت على الأمير شكيب صفو الحياة وقتئذٍ، موجز دفاعه عن نفسه وعن سياسته كما جاء في بعض تعليقاته على رسالة من السيد رشيد رضا إليه في يناير ١٩٣٥: لا شك في أننا ما قبلنا في حياتنا ولن نقبل التفاهم مع دولة أجنبية إلا على شرط معاونتها للأمة العربية، ولا يكون ودناً لها إلا بمقدار هذه المعاونة. والذي من العرب يظن أننا نقدر أن نعادي الدول بأسرها ونوسعها طعناً وقذفاً، وأننا سنرجع بالرغم من هذه العداوة الشاملة جميع الحقوق الضائعة للعرب فيكون إما جاهلاً لا يوجه إلى مثله خطاب، أو مرئياً يعرف في الحق ويتظاهر بجهله.

١٥ - العدوان الإيطالي على الحبشة:

في الوقت الذي كانت لا تزال دائرة فيه بشدة المعركة الكلامية بين الأمير شكيب وخصومه بسبب مناصرة الأمير للإيطاليين في عدوانهم على الحبشة، كانت الحوادث تجري مسرعة منذ الاشتباك الذي وقع بين الإيطاليين والأحباش عند (وال وال) - وتقع في الأراضي الحبشية نحو الجنوب الشرقي

بالقرب من حدود الصومال الإيطالي - فى ٥ ديسمبر ١٩٣٤ ، نحو ابتداء الحرب السافرة وقيام الهجوم الإيطالي الكبير على الحبشة . فقد رفضت الحكومة الإيطالية اقتراح الحبشة أن يعرض الخلاف على لجنة تحكيم ، وطالبت بتعويضات جسيمة عن الأضرار التى لحقت بقواتها ، واضطرت الحبشة إلى إبلاغ الحادث إلى عصبة الأمم ، وفى ٣ يناير ١٩٣٥ طلبت من العصبة تطبيق المادة الحادية عشرة من ميثاق العصبة الذى يحتم عليها فى حالة خطر الحرب أو قيام الحرب ضد عضو من أعضاء العصبة ، اتخاذ الإجراءات التى تراها ضرورية للمحافظة على سلام الأمم . وقد قرر مجلس العصبة بعد أن أقنع إيطاليا والحبشة بقبول التحكيم بمقتضى معاهدة للصداقة والتحكيم كانت أبرمتها الدولتان فى أغسطس ١٩٢٨ (لمدة عشرين سنة) ، قرر المجلس فى ١٩ يناير ١٩٣٥ تأجيل النظر فى مطلب الحبشة الخاص بتطبيق الميثاق إلى الجلسة القادمة . ومع أن لجنة للتحكيم قد تألفت ، فإن هذه لم تجتمع إلا فى ٢٥ يونيه ، ولكن لتتوقف عن الاجتماع مباشرة بسبب أن الممثلين الطليان رفضوا بحث مسألة الحدود . وفى أغسطس قرر مجلس العصبة فى جلسة غير عادية أن البحث فى ملكية (وال وال) لا يدخل فى نطاق أعمال لجنة التحكيم . وأصدرت هذه قرارها فى ٣ سبتمبر ١٩٣٥ ، أن أحدا لا تقع عليه مسئولية حادث (وال وال) لا الطليان ولا الألباش . ولكن فى سبتمبر كانت استعدادات الطليان العسكرية تدل على أن الحرب لا محالة واقعة .

فقد عقد بيسر لافال (عن فرنسا) وموسوليني ، عند اجتماعاتها فى رومة ، اتفاقاً فى ٥ يناير ١٩٣٥ سوى بعض المسائل بين فرنسا وإيطاليا المتعلقة بسكة حديد جيبوتى - أديس أبابا وبالحدود الجنوبية لكل من ليبيا وأريتريا ، وكان من المعروف أن تفاهما تم بين الرجلين على نوايا إيطاليا نحو الحبشة ، وكان رئيس وزراء بريطانيا (رامزى ماكدونالد) ووزير خارجيته (السير جون سيمون) ورئيس وزراء فرنسا (فلاندان) ووزير خارجيته (لافال) قد اجتمعوا برئاسة السنيور موسوليني فى أبريل ١٩٣٥ فى (ستريزا) Stresa للنظر فى

المشاكل الأوروبية العاجلة، ولم تطرح على بساط البحث مسألة الحبشة. ويبدو أن (لافال) على خلاف ما فعله زميله الإنجليزي (سيمون) الذي رفض الكلام فى موضوع الحبشة - قد جعل موسوليني يفهم أن فرنسا تعترف بمشروعية حقوق الإيطاليين ومطالبهم من الحبشة. وبالرغم من أن (لافال) لم يلبث أن نفى فى لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الفرنسى فى ١٩ يونيه أن الحكومة الفرنسية قد أطلقت يد إيطاليا فى الحبشة، فقد بقى موسوليني على كل الأحوال مقتنعاً أن يده قد أطلقت فعلاً فى الحبشة.

وكان الطليان قد برأوا يرسلون جيوشهم إلى أفريقيا منذ سبتمبر ١٩٣٤. وفى ٤ يناير ١٩٣٥، أى قبل توقيع اتفاق رومة مع فرنسا بيوم واحد، كان الجنرال ديونو Debono قائد قوات الحملة المنتظرة قد وصل سرّاً إلى أريتريا. ومنذ أغسطس ١٩٣٥ نزلت بها الجيوش "لحماية" المستعمرات الإيطالية. وفى أوائل أغسطس كان قد اجتمع حوال مائتى ألف جندى فى انتظار نهاية فصل الأمطار لبدأوا العمليات العسكرية. وبدأت من ثم حملة عنيفة فى الصحف وغير ذلك من وسائل النشر للتشجيع بالحبشة التى لا يزال فيها الرقيق مزدهراً وفى ٤ سبتمبر، بدأ مجلس عصبة الأمم ينظر جدّياً إلى خطر الحرب المتوقعة. واهتاج الرأى العام الإنجليزي خصوصاً ضد إيطاليا واعتبرت إنجلترا أن العدوان الإيطالى على الحبشة يهدد نفوذها فى حوض النيل بأسره يكون خطراً على طرق مواصلاتها الإمبراطورية وفى سبتمبر عزز الإنجليزي أسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط. وفى ١١ سبتمبر أكد وزير الخارجية الإنجليزية السير (صمويل هور) فى خطاب صار مشهوراً، أمام عصبة الأمم. أن بريطانيا تناصر ميثاق العصبة بروحه ونصه حيث يجب أن يكون القانون نافذاً فى العلاقات الدولية. ولم يجد هذا التحذير نفعاً فى إثناء إيطاليا عن عزمها؛ لأن موسوليني كان يعلم أنه قبل الخطاب بيوم واحد، أى فى ١٠ سبتمبر، جرى الاتفاق بين السير صمويل هور وبيير لافال على أن تمنع دولتهما عن اتخاذ أى إجراء مما تنص عليه المادة السادسة عشرة من الميثاق،

المتعلقة بإقدام أى عضو من أعضاء العصبة على خرق مواد الميثاق والدخول فى حرب ضد عضو أو أعضاء آخرين " والتزام سائر أعضاء العصبة باتخاذ الإجراءات والعقوبات التأديبية ضد هذا العضو. فاتفق (هور) و(لافال) على أن لا يشترك بلدهما فى أية عقوبات عسكرية أو حصار بحرى أو عمل يكون من شأنه إثارة الحرب مع الدولة المراد عقوبتها - أى مع إيطاليا - وقد كلف هذا الاتفاق عندما علم به الشعب الإنجليزى الذى ثارت ثائرتة على وزير الخارجية، السير صمويل هور، هذا الوزير استقالته من الوزارة. فاستقال فى ١٩ ديسمبر ١٩٣٥. ثم أن وزارة (لافال) لم تلبث هى الأخرى لأسباب متنوعة - أن أرغمت على الاستقالة فى ٢٢ يناير ١٩٣٦. ولكن هذه التغييرات لم يكن لها أثر على سير العمليات العسكرية فى الحبشة.

فقد عبر الإيطاليون حدود الإريتريا فى ٣ أكتوبر ١٩٣٥، وبدأوا زحفهم على عدوه بقيادة (ديونو) فى نفس الوقت الذى افتتح فيه الجنرال (غرسيانى) العمليات العسكرية ضد الأحباش من حدود الصومال الإيطالى. واستمرت الحرب سبعة شهور. وكان من أسباب إطالة الحرب أن المارشال (ديونو) رفض استخدام الغازات الخائقة، فخلفه بعد ستة أسابيع من بداية الحرب المارشال (بادليو) وأخيراً اضطر الإمبراطور (هيلاتاسى) إلى مغادرة البلاد. فوصل إلى جيبوتى فى أول مايو ١٩٣٦، ومنها أبحر على ظهر سفينة إنجليزية نقلته إلى فلسطين. وفى ٥ مايو دخل الإيطاليون أديس أبابا. وفى ٩ مايو ١٩٣٥ أعلن "الزعيم" قيام الامبراطورية الرومانية الجديدة، ونودى بالملك فكتور عمانويل الثالث امبراطوراً على الحبشة. وفى يولييه ١٩٣٦ أوقفت أو سحبت "العقوبات" التى كانت قررتها عصبة الأمم.

ولم تقع حرب أوروبية بسبب العدوان الإيطالى على الحبشة، ولم تشبك إنجلترا فى حرب مع إيطاليا بسبب هذا العدوان. وبالرغم من صيحات الاستنكار المدوية ضد الطليان من جانب الشعب البريطانى. وبالرغم من

الاستعدادات العسكرية، البرية والبحرية التى علم الناس بخبرها فى أنحاء المعمورة.

ومعرفة التفاصيل التى ذكرناها عن الحرب الإيطالية الحبشية ضرورية، لما كان لهذه الحرب من صلة وثيقة بنشاط بشير السعداوى وجمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى فى خدمة القضية الوطنية، فقد أشرنا إلى ما كان لهذه الحرب من أثر على موقف شكيب أرسلان من إيطاليا. فأوضحنا كيف انتهز خصومه فرصة انحيازه للطلليان ضد الحبشة، فشنوا عليه حرباً من النقد اللاذع المر، وقد جعل تقريب الأمير شكيب إلى الطليان بشير السعداوى متخذاً من عواقب "المفاوضة" التى قطع فيها الأمير شكيب شوطاً طويلاً - كما رأينا - دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة مع السنيور موسولينى الذى حذر السعداوى شكياً من الوثوق "بمواعيده". ولقد لاحظنا كيف انتهت هذه المفاوضة، بأن طلب شكيب تفصيلات عن "المظالم" فى الجبل الأخضر وغيره من الجهات، وبأن كتب السعداوى إلى إخوانه أن يبعثوا إليه بهذه التفاصيل لإرسالها إلى الأمير شكيب حتى "ينظم" منها تقريراً يقدمه إلى موسولينى، وبأن حذر السعداوى إخوانه الذين كتب لهم من الاعتماد على وعود موسولينى. واسترعى انتباههم إلى أن الهدف الذى يعملون له إنما هو تحقيق الأمنى القومية كما جاءت فى (الميثاق القومى)، وكان ذلك - كما مر بنا - فى غضون شهر مارس ١٩٣٥.

هذه "المفاوضة" لم تستغرق كل وقت السعداوى وكل جهده. فهو كان يعد المطالبة برفع المظالم - الأساس الذى قامت عليه المفاوضة بين شكيب أرسلان وموسولينى - أمراً ثانوياً بالنسبة للمطالب "السياسية". ثم إن بارقة من الأمل قد لاحت فى الأفق من جديد بسبب العدوان الإيطالى على الحبشة لإمكان الوصول إلى هذه المطالب السياسية إما عن طريق الضغط الأدبى - أى استمرار (حرب الأقلام) ضد إيطاليا، وإما عن طريق (العمل الإيجابى)، وقد

تبدو الآن الفرصة مواتية لذلك بسبب هياج الرأي العام الأوروبي. على إيطاليا، وخصوصاً إنجلترا.

ولقد ذكر السعداوى نفسه فى رسالته - التى أثبتناها - إلى السيد عبد السلام أدهم فى ٢١ مارس ١٩٣٥، أنه انتهاز فرصة الخلاف "المتكون" بين الحبشة والإيطاليين فكتب إلى إمبراطور الحبشة يعرب له عن "استنكار" الليبيين לנו إيطاليا العدوانية وأظهر رغبته الشديدة مع إخوانه فى القيام بأى عمل "يكون من شأنه مناوأة" خصم الأحباش. الذى هو خصم الليبيين أيضاً وبدأ يتصل "بمسفير الحبشة فى مصر" لهذه الغاية.

ولقد عرفت الهيئات التى تشكلت فى أوروبا للدفاع عن الحبشة أثناء هذه الأزمة قدر جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى، ورئيسها السعداوى، من ذلك الكفاح الطويل الذى خاض غماره السعداوى من سنوات عديدة ضد البطش الإيطالى، فكان سهلاً أن ينشأ بين هذه الهيئات وجمعية الدفاع ورئيسها صلات العمل المشترك من أجل تشديد حملة النكير على إيطاليا.

ومن الهيئات التى طلبت من السعداوى تعاونه معها لهذه الغاية، كان الحرب المناوئ للفاشيست (أنتى فاشيست) الذى سبق أن تكلمنا عنه، وأما جواب السعداوى على مطلب هذا الحزب فغداً ضمنه أحد كتبه إلى الحزب بتاريخ ٤ أبريل ١٩٣٥، وفيه يقول:

أخذت من البريد النشرات الاستعلامية التى أرسلتموها إلى، وقد علمت منها أنكم تقومون بمهام عظيمة، وهى مقاومة الاستعمار بصورة عامة، والطغيان الفاشيستي بصورة خاصة. وبما أن هذا المبدأ يأتلف مع مبدأنا فإننا نرحب به ونشكركم على ذلك ونمد إليكم يد التضامن والتعاون فى هذا الجهاد المبرور الذى وقفنا أنفسنا نحن أيضاً للعمل فى سبيله. إن جمعيتنا التى تمثل الشعب الطرابلسى البرقاوى قد أخذت على عاتقها واجب الدفاع عن شعبها المظلوم، وهى منذ سنين عديدة تعمل ضد الاستعمار بجهود جبارة

وتنشر الكتب والرسائل وتذيع النشرات وتكتب فى الصحف العربية الكبرى المقالات الضافية ضد مظالم الفاشيست، ولها صلة بجميع الأحزاب السياسية فى البلاد العربية. وقد وقفت أن أفهمت العالم العربى - الإسلامى ما يرتكبه الفاشيست من مظالم وأعمال لا تتفق مع المدنية حتى أصبح العرب والمسلمون ينفرون من ذكر الفاشيست لما اشتهروا به من أفعال ضد الإنسانية. إن حكومة موسولبنى لم تكتف بإرهاق الشعب الإيطالى وخنق حريته والتضييق على أفكاره بصورة تكاد تقتل مواهبه. ولم تكتف بالدماء التى تسبب إهراقها فى بلادنا حتى قبلتها إلى مجزرة بشرية. بل أراد هذه المرة أن يضيف إلى تاريخه صحيفة ملوثة بالدماء وذلك بالتعبئة الحربية و(الحشود) التى يقوم بها ضد الحبشة. إننا لا ندرى ما هو الذنب الذى ارتكبه الأمة الحبشية حتى جعلها عرضة لهذه الغارة المريعة كما أننا لا ندرى ما هو ذنب أبناء إيطاليا الذين يسوقهم موسولبنى لتلك المجزرة حتى يذهبوا ضحية مطامع شخص مستبد لا أرى للأمة فيما يفعله. أليس من المحزن أن يقذف موسولبنى بمئات الألوف من زهرة شباب إيطاليا والأمة اللاتينية يف حرب لا سبب لها. ثم إن الدولة الحبشية هى أقدم دولة فى الشرق حافظت على استقلالها وكيانها وهذا أكبر دليل على أنها قائمة على عدل وحق وإلا لكانت فى عصور تلاشت واضمحلت. أيجوز أن تذهب هذه الدولة التاريخية طعمة للفاشيست دون سبب. إن هذا أمر باطل يجب على كل إنسان أن يسعى فى رده.

إننا لا نرى سبباً للتجاوز على تلك الأمة التى لها فى قلوب الشرقيين منزلة عالية، لأن موسولبنى الذى ملأ الفضاء بصيحاته المتتابعة والذى أرهق شعبه منذ أن تولى الحكم، يود بسوقه لهذا الجيش على الحبشة أن يشغل أفكار الأمة الإيطالية شأن الحكام المستبدين الذين يخشون نتائج الضغط، وفيخلقون لهم مشاكل كهذه لأجل أن ينسوا ما يحيق بهم من ظلم وإرهاق. لذلك فإننا نستنكر هذا التجاوز على الأمة الحبشية ونرى من الواجب اتخاذ كل وسيلة لمقاومة هذا الطغيان الفاشيستى الذى هو ضد الحق والإنسانية.

ولقد كتبنا كتاباً منذ شهر لجلالة ملك الحبشة أعربنا فيه عن استيائنا من هذا التجاوز المريع وأظهرنا استعدادنا لكل عمل يقوِّع مساعى الفاشيست ولم نتلق من جلالته جواباً. ولكن ذلك لم يمنعنا من القيام بما يحتمه علينا الواجب.

ولذلك فإننا نشكركم على قيامكم بالدفاع عن الحق ونظمئكم أننا سننشر ما جاء فى نشرتكم المرسلة إلينا فى أمهات الصحف العربية ونتمنى أن تولوا إرسالها لنستمر فى نشرها على صفحات الجرائد العربية ليحيط الشريون علماً بظلم الفاشيست وتجاوزهم على الشعوب الضعيفة.

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٣٥، بعث بشير السعداوى بوصفه رئيساً لجمعية الدفاع الطرابلسى البقرقاوى إلى حزب (أتى فاشيست) التقرير الآتى:

تشرفنا بكتابكم المشعر بوصول تقاريرنا إلى جمعيتكم العادلة العظيمة، وكان سرورنا أعظم لما أظهرتموه من التدابير الفعالة عن حقوق الأمم الضعيفة ضد تيار الفاشيست الجارف وطغيان موسولينى الثرثار، الذى يلا يعرف للإنسانية معنى والذى يعد البشر شبه حيوانات يريد استخدامهم فى حقل خياله - الرومانى - والناوى على خراب العالم لإزواء مطامعه الاستعمارية.

إن كتاب الفظائع الذى أرمتمونا بتقديمه قد أودعناه البريد الجوى مع هذا الكتاب وسنقدم نسختين أيضاً فى البرد الثانى خشية من مصادرتة من قبل السلطات لأنها تحول دون النشر وتمنع أمثال هذه الكتب لاعتبارات سياسية. لذلك فنحن نتجنب الاصطدام مع السلطات المحلية ولكننا نعمل بكل جد واجتهاد فى سبيل أمتنا من النير الفاشيستى العاشم.

وتجدون مع هذا الكتاب التقرير الذى قدمناه إلى المؤتمر الإسلامى الأعلى - حسب طلبه - المنعقد فى القدس الشريف والذى بموجبه قرر المؤتمر الإسلامى اتخاذ كل الوسائل الفعالة للقيام ضد الفاشيست. أما الحلقة الثانية

من كتاب الفظائع فهي تحت الطبع ومتى أنجز طبعها ستوزع على العالم وتقدم لجمعيتكم الموقرة منها نسخاً كافية.

وتجدون أيضاً طيه صورة - فوتوغرافية - عن احتجاج السوريين على فظائع الإيطاليين، وهي من الوثائق التي تثبت لكم سخط العالم السورى على الإيطاليين الفاشيست.

جميع تقاريركم ترجمت وتوعدت إلى مراكزنا ونشرت بين إخواننا السنوسيين وتسلمت للمطبوعات للنشر وسيظهر أثرها الفعال.

١ - كل أحد يعلم أن الأمة الطرابلسية البرقاوية كانت تحتوى على مليونين من النفوس وذلك فى سنة ١٩١١ والآن بعد مضى عشرين سنة بلغ الإحصاء الرسمى الذى أجراه الجنرال غريانى سنة ١٩٣١ ستمائة وسبعين ألف نسمة (٦٧٠,٠٠٠) ومعنى هذا أنه نقص من أمتنا فى هذه المدة مليون وثلاثمائة وثلاثون ألف نسمة (١,٣٣٠,٠٠٠) مع أن المليونين فى ظرف عشرين لابد أن يزيد عددهم بنسبة المتولدات ومن هذا يتضح لهيئتكم المحترمة أن المليون وثلاثمائة وثلاثين نسمة كلهم ضحايا طغاة الفاشيست بالقتل والتعذيب والتشريد.

٢ - إن أعظم جناية يأتونها الفاشيست فى الوقت الحاضر هى وضعهم قراراً جديداً أضافوه على قانون التجنيد الإجبارى الذى فرض على طرابلس سبرقة وهذا القرار يقضى بتجنيد الأهالى من سن ١٣ إلى ٢٠ على أن يبقوا هؤلاء تحت التعليم التدريب العسكرى والخدمة فى البلاد ويقضى بتجنيد من سن ٢١ إلى ٦٠ لأحل السوق إلى الحبشة فوراً.

٣ - لم يكتف الفاشيست بذلك بل حولوا وجوههم لأخذ النساء قصرًا فقد أرسلوا (٥٣٠) امرأة مسلمة فى المرة الأولى ثم أرسلوا (٣٠٠) امرأة مسلمة فى المرة الثانية إلى الحبشة ليتمتع الضباط والجنود الإيطاليين

بأعراضهن، وهذا ثابت كما بيته ونشرته كافة الجرائد المصرية والفلسطينية واحتجت عليه الجمعيات الإسلامية.

وإذا يا حضرة الرئيس ويا أعضاء الهيئة المحترمة التي أخذت على عاتقها واجب الدفاع عن حقوق الحبشة وحقوق الأمم الضعيفة من سيقى في البلاد الطرابلسية البرقاوية بعد ذلك؟؟ وهل يوجد تفسير لأعمال الفاشيست هذا إلا تفسيراً واحداً وهو إفناء الشعب الطرابلسي البرقاوية نساء ورجلا عن بكرة أبيهم.

وهل هذه هي المدينة الغربية التي تساق إلى الشرق، وهل يعرف من هذه الأعمال أن الفاشيسا يعرفون مبادئ الإنسانية.

٤ - إن الثمانين ألف عربى الذين حصرهم الجنرال غرسيانى بين الأسلاك الشائكة - خلافاً للقوانين الدولية والحقوق الإنسانية والبشرية إلى أن أبادهم عن بكرة أبيهم، يقو عادة الفاشيست إن موسولينى أعادهم وأعاد أملاكهم وهذا خلاف الحقيقة لا يقصد من وراء هذه الإشاعة إلا التمويه على العالم وإغفاله، والحقيقة أنه أبادهم عن بكرة أبيهم وأن أراضيهم البالغ طولها (٥٢٠) كيلومتر وعرضها (١٣٠) كيلومتر فى أحسن بقعة فى طرابلس الغرب (الجل الأخضر) صادرها الحكام الإيطاليون ووزعوها على أبناء أمتهم الفاشيسا وهذه المنطقة محرم دخولها على العرب بتاتاً وهذا ثابت لدينا بالتفصيل والبرهان.

٥ - أخذ الإيطاليون فى هذه المدة الأخيرة (٦) ستة آلاف شخص من السجون وساقوهم إلى الحبشة بدون أن يعلموا بهم ذويهم، ولا يعرفون هم أنفسهم لأى جهة يساقون وهذا ثابت أيضاً لما لدينا من المعلومات وبما نشرته الجرائد.

٦ - احتقار الفاشيست للمسلمين تلخصه كما يلى: لا يجوز بأى

صورة كانت لسائق سيارة إيطالى أن يقبل فى سيارته عربياً وإذا أخذه طمعاً فى الأجرة يعاقب السائق .

٧ - الأطباء الإيطاليون فى بلادنا قد خصصوا غرفتين لكل منهم فى عيادته الأولى مفروشة على أحسن طراز مخصصة للإيطاليين الثانية خشب وبدون فرش مخصصة للعرب . ولا يجوز للعربى أن يدخل الغرف المفروشة مهما كان شأنه ومركزه فى الهيئة الاجتماعية .

٨ - إذا مر ضابط أو وكيل ضابط على قهوة أو مجتمع أو أناس ولم يقوموا له احتراماً يحق له أن يصريهم بسوط دون أن يجسر أحد على منعه والويل لمن يمنعه .

٩ - منعت الحكومة الفاشيستية عن الغنبيين ريع أملاكهم وحقوقهم وضبطها لنفسها بدون مسوغ شرعى ولا قانونى .

١٠ - منعت حتى عن الطلاب فى المعاهد الدينية فى مصر وفلسطين وتونس وسوريا والبلاد الإسلامية إرسال النقود إليهم من أهلهم حتى يذطروا لترك العلم من شدة الجوع والفقر ويعودوا إلى طرابلس برقة لتأخذهم جنوداً تسوقهم للحبشة .

١١ - أبطل الفاشيست جميع العادات الجارية والمألوفة بين الأهالى وأغفلوا الزوايا الداخلية والخارجية التى بها مساجد إسلامية وضبطوا الأوقاف الإسلامية .

١٢ - أرغموا الوجوه والذوات بالقوة والتهديد على نشر الرسائل المتضمنة الرضا عن كل عمل يأمر به الحكام الإيطاليون ولو كان مخالفاً لقواعد دينهم ومغاييراً لشريعتهم .

هذا عدد قليل من مظالم الإيطاليين وفضائعهم فى طرابلس برقة نعرضه على جميعتكم المحترمة التى جعلت عدد قليل من مظالم الإيطاليين وفضائعهم

فى طرابلس برقة نعرضه على جمعيتكم المحترمة التى جهلن هما محاربة مثل هذه الأشرمال الوحشية، ونحن لا نألوا جهداً فى نشرها هنا بين الناس ليعرفوا حقيقة الحكم الفاشيستي وأملنا منكم المساعدة اللازمة فى هذا الجهاد، واقبلوا يا سيدى الرئيس أنتم وأعضاء جمعيتكم المحترمة أسمى الاحترام.

وكانت (اللجنة الدولية للدفاع عن الشعب الحبشى) المشكلة فى باريس من الهيئات التى اتصلت بجمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى ورئيسها، وهذه اللجنة الدولية متصلة باللجان المؤلفة لنفس الغرض فى كل من أمريكا وكندا وإنجلترا وبلجيكا وسويسرا وهولندا. وفى كتاب من هذه اللجنة إلى بشير السعداوى فى ١٠ سبتمبر ١٩٣٥، قال سكرتيرها (ليووانر) Leo Wanner إنه تسلم كتابي السعداوى اللذين بادرت اللجنة بترجمتهما، لإرسال الترجمة مع صورة من الأصل بالفوتوغرافيا إلى كافة أعضاء الوفد الفرنسى لدى عصبة الأمم أيضاً. وقال (ليووانر) إن اللجنة يهملها الحصول على كل الوثائق التى نشرت حتى الآن عن الفظائع التى ارتكبتها الفاشيست فى طرابلس برقة، وذلك لإذاعة مقتبسات منها لتتوير الرأى العام فى كل أنحاء العالم. وقد بعثت اللجنة إلى جمعية الدفاع بصورة من القرارات التى اتخذتها فى المؤتمر الذى انعقد فى باريس يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٥ لتنسيق الجهود المبذولة من أجل السلام وفى صالح الشعب الحبشى.

ثم وعدت فى نظير أن تذيع جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى أعمال اللجنة الدولية عن طريق اتصالها بكل ما يوجد من هيئات ومنظمات فى الشرق الأدنى، أن تذيع هى كذلك كل النشرات والتقارير التى تبعث بها إليها جمعية الدفاع عن فظائع الطليان فى طرابلس برقة تذيع ذلك فى فرنسا وإنجلترا وأسبانيا وأفريقية الشمالية وغير ذلك من البلدان.

وقد أجاب السعداوى على ذلك بكتاب فى ٢٩ سبتمبر، جاء فيه، أن

جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى لاستنكارها الغدوان الإيطالى على الحبشة، ولأنها قد أخذت على عاتقها من سنوات مضت الكفاح ضد الفاشيست فى بلادها، "تعلن استعدادها لكل عمل ترى (اللجنة) ضرورة القيام به فى الشرق الأدنى ضد حكومة الفاشيست الذى أخذ رئيسها بيده شرارة نار يريد أن يشعل بها لهيب حرب الأرض، ليحرق ملايين من النفوس البشرية البريئة بدون رحمة ولا شفقة، ثم اختتم كتابه بقوله: "إننا مع مشاركتنا لحضراتكم فيما تقرررونه ننتظر أن توافونا بنتائج (قراراتكم) وبما يجب أن نقوم به من الأعمال فى البلاد العربية.

لقد ظل متوقعا فى غضون شهر سبتمبر أن يبدأ الإيطاليون عملهم العسكرى وهجومهم على الحبشة. وكانت الفكرة السائدة لدى فريق من أعضاء جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى أن السلطات الفرنسية فى سوريا لا تحول دون أى نشاط يظهر من جانب الجمعية لمناصرة قضية الحبشة. وكتب (أمين سر) الجمعية عمر فائق شنيب إلى بشير السعداوى فى ١٧ سبتمبر، وكان هذا فى بيروت، يطلب إليه العودة بسرعة إلى دمشق "للسعى" بها. إلا إذا كان السعداوى يعتزم البقاء فى بيروت ليتخذها مقراً للسعى. وأبلغه أن محمد العصيمي - والفمروض أنه يوافق على نوايا السلطات الفرنسية - قد أفهمه "أن لا بأس من خلق شيء" وذلك ما يجعل الفرصة مواتية للتعاون الفعلى مع (اللجنة الدولية للدفاع عن الشعب الحبشى)، على الأقل بإذاعة ما جاء بالتقارير التى أرسلوها فى الشام، وفلسطين. وانتهاز الفرصة كذلك لإذاعة ما تعده الجمعية من مقالات وبيانات وتقارير جديدة عن فظائع الحكم الفاشيستى ومظالم الإيطاليين فى ليبيا، لقتديمها للصحف الوطنية لنشرها. وكان هذا الاتجاه من جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى، كما هو ظاهر، على خلاف الموقف الذى اتخذه شكيب أرسلان من قضية الحبشة. وكان معروفاً وقتئذ أن الأمير شكيب يعقد المؤتمرات الصحفية فى روما "ضد المحلثرا" وضد الحبشة.

وكان من بين ما شغل تفكير (الجمعية)، وراحت تستعد له، عقد مؤتمر فى شرق الأردن، يجمع أعضائها، فى الشام وفى هذه البلاد الأخيرة، وكلهم من العاملين لقضية الوطن - ينظر فى الوسائل التى يمكن بها القيام بعمل إيجابى ضد إيطاليا، أو تشديد حملة الذكر عليها، إذا تبين أنه لا زال متعذراً تدبير أية حركات عسكرية لناوئتهم فى ليبيا.

ومنذ أن وقع الاعتداء، وقامت الحرب الرسمية فعلاً، باجتماعات الوفود الإيطالية حدود أريتريا للتوغل فى أراضي الحبشة فى أكتوبر ١٩٣٥، كان أمام بشير السعداوى أن يقرر الذهاب سريعاً، إما إلى شرق الأردن، إذا اتضح حان من المفيد عقد مؤتمر بها، وإما إلى القطر المصرى، إذا ثبت أن الإنجليز الذين كان سخطهم شديداً على إيطاليا، سوف يساعدون المهاجرين الليبيين، فى مصر وفى غيرها، على مناوشة الإيطاليين عند الحدود، أو تشكيل جيش منهم يشترك مع الإنجليز إذا وقعت الحرب بين إنجلترا وإيطاليا فى مهاجمة الجيوش الإيطالية فى ليبيا.

ومع أن فكرة عقد مؤتمر فى شرق الأردن أخذت تتلاشى تدريجاً حتى زوت نهائياً فقد بدا أن السعداوى سوف يضطر إلى الرحيل إلى القطر المصرى قريباً، لبحث الخطة الأخرى. وكان ضرورياً ذهاب بشير السعداوى إلى القاهرة، إذا تبين أن مصر سوف تكون هى نقطة الارتكاز فى تنفيذ مشروع مناوأة الإيطاليين فى ليبيا، لسبب هام، هو أنه كان لا مناص فى هذه الحالة من أن يجمع الطرابلسيون والبرقاوى أمرهم على اختيار زعيم واحد لتولى رئاسة العمليات المنتظرة.

وقد كان من رأى بشير السعداوى دائماً - وهو الرأى الذى أفصح عنه فى رسائله دائماً وفى أحاديثه - أن السيد محمد إدريس السنوسى الذى بوبع بالإمارة على قطرى طرابلس وبرقة معاً منذ سنة ١٩٢٢، والذى استهدف (الميثاق القومى) إنشاء الإمارة الإسلامية زعامته، وتأسيس الحكومة الوطنية فى

ظل هذه الإمارة ذاتها - كان في اعتبار بشير السعداوى دائماً أن صاحب هذه الزعامة العليا هو سمو الأمير السيد محمد إدريس. ولقد أشرنا عند الكلام عن بعض المشاكل التي كان على السعداوى معالجتها في غضون سنتي ١٩٣٢، ١٩٣٣ خصوصاً في القطر المصري، أن فئة من المهاجرين الطرابلسيين في هذا القطر كانوا لا يريدون الاعتراف بزعامة السيد محمد إدريس، ولذلك فقد لزم - إذا أريد توحيد الكلمة لضمان النجاح في العمليات المنتظرة - أن يبذل بشير السعداوى قصارى جهده لإقناع هذه الفئة بالتنازل عن معارضتها لزعامة الأمير إدريس، وتلك مشكلة ما كانت تعرض بصورة جدية إلا إذا استقر رأى الإنجليز على محاربة الطليان، أو على الأقل تشجيع المناوشات العسكرية ضدهم على الحدود الليبية. وفي رسالة من عمر فائق شنيب إلى السعداوى في ٣ أكتوبر. والسعداوى وقتئذ لا يزال في بيروت يشير عمر شنيب إلى موقف هؤلاء المناوئين لإمارة السيد محمد إدريس وزعامته، ويعقد مقارنة بينهم وبين بشير السعداوى وأخيه نوري السعداوى فيكتب. "لا ترتبط برقة وطرابلس ما دام هؤلاء الرجال. (ولم يكن شنيب راضياً عن أحمد المريض) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يا سبحان الله أنت ونوري بك كأنكما لستما من تلك الطينة... هذه نقطة اليوم شغلت بالي كثيراً. فأوى نوري لا تأخذه في الحق لومة لائم ويقدر الوطن فوق الحياة وأراك أنت تريد جمع الكلمة وتتغاضى عن السيئات وتضحى بكل شيء لإعلاء كلمة الله والوطن، وأنا والتاريخ نشهد أنكما خرجتما أنقياء الجبين من أدران الطليان وأموالهم.

يشرح بشير السعداوى الموقف من كل نواحيه إلى خليفة بن شعبان في يافا، وذلك في كتاب بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٣٥، يتحدث فيه عن فكرة السفر إلى القاهرة، وعن زعامة الأمير السيد محمد إدريس "وعن توجه السعداوى إلى فلسطين. فيقول:

١ - إن فكرة الإسراع بالسفر لأول وهلة يتبادر إلى الفكر أنها ضرورية خشية من قوات الفرصة التي نترقبها من سنين عديدة، بيد أننا نخشى أيضاً أن نسبق الحوادث قبل الأوان، ففي هذا ما فيه من الملاحظة ما يكفى دون غيره، والوضعية غير مهياة لمباشرة العمل بدليل أن فكرة التريث لا تزال سائدة فى الأوساط السياسية والعسكرية. ولا يغرنكم ما تتسرع به الصحف فى نشر الحوادث التى يقصد منها مسابقة صحيفة لبقية الصحف بنشر أخبار تكون فى الغالب هى من قبيل الخدس والظن لا أكثر ولا أقل. كنشرهم تقدم السنوسيين واجتيازهم الحدود ووصولهم إلى راحة جالو وغيرها، وهذا لا يقصد من إirاده التباطؤ والتقصاع بل يجب أن لا نخطوا خطوة إلا ونعلم أنها توصلنا إلى نتيجة، وإننا قد وصلنا كتاب من السيد إدريس يقول لنا فيه إنه باذل جهده للوصول إلى نتيجة يكون من ورائها صالح الأمة الطرابلسية وسيعلمنا بسرعة بما سيجد معه. ونحن بدورنا قد طلب منا تقرير نتظر ورود جواب عنه، ونحن نرقب مجرى السياسة فى أوروبا فإذا حدث ما يستدعى الإسراع لا نتظر إشارة بل نبادر إلى السفر حالاً بدون فوات يوم من الوقت وربما يحصل ما نترقبه فنسارع على السفر فى هذا الأسبوع، وعليه فإن مسألة السرعة ونهاز الفرصة فلا خلاف بيننا وبينكم فى أمرها.

٢ - ذكرت أن تعدد المترددين يفسح مجالاً للظن بأن ليس هناك وحدة شعور الخ. والجواب على ذلك أننا نعتقد عقيدة راسخة بأن ليس فى الميدان من يضارع السيد إدريس فى نفوذه وشهرته حتى يفسح المجال لغيره فى التردد الذى ربما ينشأ عنه اصطدام فى الأفكار وتشعب فى رأى وإننا على يقين من حكمة السيد وحنكته وبعد نظره وحرصه على جمع الكلمة، وأنه يتخذ الوسائل الكفيلة لأمانى البلاد عند سnoch أول فرصة. ولا بد أننا سنشاركه فى العمل يف هذا الموقف. وقد كتبنا إلى السيد كتاباً فيه ما يطمئن البال. كما أننا كتبنا إلى بعض الزعماء ما يجب أن يكتب وإننا بانتظار أجوبتهم.

٣ - إن اقراحكم فى أمر سفرى إليكم تلفيته بنظر الاعتبار . وإنما أنتظر أجوبة مهمة من مصر نؤمل ورودها إلينا فى القريب العاجل ، وعند ورودها أسعى جهدى للسفر إليكم لمبادلة الأفكار ولأطلعكم على ما قمنا به من المساعى .

٤ - يأتىكم طى هذا صورة عن الكتاب الذى أخذناه من المؤتمر المنعقد فى باريس للدفاع عن حقوق الحبشة ، وهذا (الكتاب) طبعاً يتعلق بالمهمة التى نحن بصددھا ، وهو موافق كل الموافقة لرغبة سمو الأمير .

أما الكتاب الذى كان ينتظر السعداوى وصوله من الأمير السيد محمد إدیس ، ففإنه لم يلبث أن جاءه ، وقد بعث به الأمير إدیس من الحمام مربوط بتاريخ ١٧ رجب ١٣٥٤ و ١٥ أكتوبر ١٩٣٥ :

حضره الماجد الفاضل المجاهد الكبير الوطنى الغيور الأخ بشير بك السعداوى دام محفوظاً .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، تناولنا خطابكم الكريم بكل سرور وما به علم وحمدنا الله الذى أنتم والإخوة محمد نورى (السعداوى) وعمر بك (فائق شنيب) بتمام الصحة نرجو دوامها لكم . هذا وأشكر عواطفكم الحسنة وشعوركم السامى وإخلاصكم لقضية وطننا المنكود الحظ الذى لعبت به الأهواء ، وعصفت به عواصف السياسة الهوجاء .

وإنه أيها الأخ لكما ذكرتم أن الفرصة الوحيدة لنا هى الفرصة الحاضرة . ولكنها لم تسنح بعد ، وإننا مترقبون سنوحها بفارغ الصبر . هذا ولم (نكن) مكتوفى الأيدي الآن أثناء هذا الارتقاب بل (نبذل) قصارى جهودنا للوصول إلى الغاية التى (نسعى) إليها حتى إذا سنحت كنا حينذاك على تمام الاستعداد للعمل المثمر النافع إن شاء الله .

أما عن اتحاد الزعماء الموجودين هنا وإسناد أمرهم إلينا فمع اعتقادنا بعدم مخالفة أحدهم للمصلحة الوطنية ، وكوننا لم نفتح أحد منهم فى هذا

الأمر حيث لم يطلب منا شيء ولو أن حسن الأمل والعشم خيراً، وإنما يوجد من الزعماء من خاطبنا شفاهياً أو كتابياً مؤيداً لخطتكم التي تتوخونها لصالح الوطن وهم عائلة عبد الملك الوجوديين بالحمام. وعمر بك أبو دبوس وعون بك سوف وعبد الجليل سيف النصر والشيخ الفضيل المشهش والشيخ صالح الأطيوش. خلاف هؤلاء لم يخطابنا أحد لا شفاهة ولا كتابة من الوجوديين بالقطر المصرى.

وأما من مشايخ العربان والأفراد العاديين من الوطنيين فكثيرون يترددون ولم نخاطب أحداً نحن للسبب الذى ذكر. وما ذكرتم عن قدومكم فأحب ما علينا ونحن نترقب الفرصة التى (تكفل) عمل شيء فيها ندعوكم حينئذٍ حالاً وقبل كل أحد والمولى سبحانه وتعالى يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه ويقدر لنا ولكم ما فيه الخير، كما أسأله تعالى لكم نجاحاً باهراً وفوزاً مضطرباً فى مساعيكم لقضية البلاد ويحفظكم لخيرها.

سلامنا إلى الإخوة محمد نورى بك وعمر فائق بك. كما أن من بالطرف مسلمون عليكم ودمتم سالمين والسلام.

محمد إدريس المهدي السنوسى

ولم يطل انتظار بشير السعداوى لما قد يسفر عنه تطور العلاقات بين إنجلترا وإيطاليا بسبب الحرب فى الحبشة. وإن كانت الفكرة السائدة أن الإنجليز لن يقفوا مكتوفى الأيدي أمام العدوان الإيطالى. وقد ذكرنا كيف أنهم بعثوا بأسطولهم فى مياههم الأهلية إلى البحر الأبيض، لتعزيز قواتهم للبحرية فى هذه المنطقة، ولتأمين طرق مواصلاتهم الإمبراطورية، وعلى ذلك فقد أثر السعداوى أن يذهب إلى القاهرة. حتى يكون قريباً من ميدان العمل إذا تقرر أن يقوم الليبيون بحركة عدوانية ضد الإيطاليين فى ليبيا، وليقف من الأمير السيد إدريس على نتيجة اتصالاته و"مسايعه"، فوصل القاهرة يوم ٦ نوفمبر ١٩٣٥، واستطالت إقامته بها إلى شهر أبريل من العام التالى.

وأثناء إقامته بالقاهرة عرف السعداوى باتصالاته الإنجليز مع الأمير السيد محمد إدريس وهى الاتصالات التى ذكرنا خبرها فى كتابنا (السنوسية دين ودولة) والتى بدأها الكولونيل برملو Bromlow بمقابلة السيد إدريس فى حمام مريوط ليبلغه أن أميرال الأسطول الإنجليزى الرابض بالإسكندرية ييغى مقابله والتحدث إليه فى أمور شتى، وذهب الأمير فعلا لمقابلة الأميرال الذى تحدث إليه عن المستقبل "الطيب" الذى ينتظر ليبيا، ولكن هذه الاتصالات لم تسفر عن شىء حاسم، ولم تدخل إنجلترا الحرب ضد إيطاليا. وظل الإيطاليون يحرزون الانتصارات المتوالية على الأحباش حتى باتت العاصمة (أديس أبابا) مهددة بالسقوط فى أيديهم.

وكان السعداوى صباح اليوم التالى لوصوله القاهرة - وقد صحبه فى هذه السفرة الشيخ خليفة بن شعبان - قد قصد إلى (المرحوم) حمد باشا الباسل لزيارته، وفى مساء اليوم نفسه، ٧ نوفمبر، صحبه حمد الباسل إلى قصر آل لطف الله بالجزيرة سماع الخطاب الذى ألقاه محمد محمود باشا فى نقد وزارة محمد توفيق نسيم باشا وسياستها. وقد خرج المجتمعون بعد هذا الخطاب فى مظاهرة كبيرة سرعان ما تصدى البوليس لتفريقها. فتشتت المتظاهرون ولم يستطع السعداوى العثور على أصحابه.

وقابل السعداوى أثناء إقامته بالقاهرة، لفيفاً من الطلبة الليبيين الذين يدرسون بالجامع الأزهر، والذين لم يكونوا يستطيعون المجيء إلى القطر المصرى للدراسة إلا إذا أوفدتهم الحكومة الليبية (الإيطالية) وتولت هى الاتفاق عليهم ووضعتهم تحت رقابتها الصارمة، ورصدت الجواسيس عليهم فى كل حركاتهم وسكناتهم.

وقد تحدث إليهم السعداوى طويلا لاستنهاض همتهم، ودفع الخوف عن نفوسهم. وكان بعد مغادرة السعداوى القاهرة أن كتب إليه الشيخ عبد الرحمن دقنق فى ٢١ محرم ١٣٥٥ و ١٣ أبريل ١٩٣٦ يرجوه أن يسعى فى

تخليصهم مما يعرض لهم فى المستقبل " لأننا - كما كتب الشيخ عبد الرحمن ددق - أصبحنا فى موقف حرج، وقد كثرت الجواسيس بعد سفركم وأصبحوا (يتعقبون) جميع حركاتنا وسكناتنا ولا ندرى ماذا نصنع وإذا اطمأننا من مسألة النفى إلى طرابلس، فكل ما سواها يهون... " وصار الشيخ وزميله الشيخ محمد بحيج يفكران فى الاندماج فى جنسية أجنبية أخرى إذا أمكن " تخلصاً من هذا المأزق وكان من الذين اجتمع بهم بشير السعداوى فى هذه السفرة المشايخ: الطاهر سبيطة والهادى المسلاتى الرومى والبشير الطوينى ومحمد الطزىنى ومحمد بحيج و(الحاج) مصطفى محمد رمضان، الذى صار فيما بعد سكرتيراً لهيئة تحرير ليبيا، ثم يفى على ولائه لنزعيم الذى وضع فيه ثقته. وغير هؤلاء... وقد أرسل عبد الرحمن ددق طى كتابه إلى بشير السعداوى صورة خطاب موجه من عدد من الطلبة الليبيين إلى (المرسال الباسل الحاكم العادل) بالبو Balbo، لشكره على ما قام به نحو وطنهم "ليبيا وبرقة" من الرقى المادى والمعنوى وإحياء العدل المفقود منه قروناً عديدة، وإزالته بعض البدع التى ليست من دين الإسلام فى شىء. وتشجيده معهداً إسلامياً يؤمه الطلاب ويدرسون فيه العلوم الإسلامية "ولأنه ملأ ليبيا عدلاً ورحمة كما أحيا الصناعات المتعددة المفيدة إلى غير ذلك من الأعمال التى تجعلهم يعترفون بالجميل. وسجل عبد الرحمن ددق أسماء الموقعين على هذا الخطاب.

أما السعداوى فإنه بادر عند وصوله إلى دمشق بإرسال كتائب الطلاب الذين قابلهم "والذين توسم فيهم الخير والإخلاص للوطن، يثبت عزائمهم. فكتب فى ٣٠ محرم ١٣٥٥ و ٢١ أبريل ١٩٣٦ :

أبناء وطنى الأعزاء

تحية واحترماً وبعد فإننى قد بارحت القطر المصرى والشوق ينازعنى البقاء يفه لأكون معكم وأمتع النفس بقربكم لأننى أشعر بأن كل فرد منكم هو فلذة من كبدى.

فيا بنى العروبة والإسلام كلمتى إليكم والخطوب عاصفة والأرض تموج
بالتفت ورجال الحاضر والمستقبل فى كل قطر قد نهضوا من سباتهم وأخذوا
يفككون القيود ويحطمون الأغلال ويناضلون فى سبيل الحرية والاستقلال.

إن لكم من ماضى أسلافكم الكرام ما يبعث فى نفوسكم روح النشاك
ويهيئكم لأن تكونوا خير الخلف لأولئك السلف، فاستثيروا بذلك الماضى
الوضاء واتخذوا من تاريخ أوائلكم القديم والحديث نبراساً تهتدون به فى
مدلهمات الحوادث، وافتحوا لكم طريقاً فى هذا المعترك الحيوى لتسيروا فيه
بدون خوف ولا وجل وذللو بعزم قوى وإيمان صادق ما تلاقون من عقبات
وما تصادفون من صعوبات فإن الحياة جهاد ومن قعد عن الحركة مات وهو
فى الحياة. تفقدوا ضمائرهم وتحروا ثنايا قلوبكم وطهروها من الأوهام
والشكوك وهيئوا أنفسكم للمستقبل لتكونوا من خيرة رجاله العاملين. ففى
نواصيكم تعلق الآمال، ومن سواعدكم المقتولة ترجى الآمال. إنكم تعلمون
علم اليقين أن ليس للشعب الطرابلسى نشء حديث وشباب يعول عليه فى
المستقبل غيركم فأنتم الفوج الاول الذى أوشك أن يصل إلى ساحة النضال
وأنتم طلائع الجيش الذى يقترب من ميادين الكفاح (والجلا)، بل أنتم
المسؤولون عن الدين وعن شريعة سيد المرسلين وعن تراث آبائكم الأولين،
فشمروا عن سواعدكم واستعدوا للقيام به. إن الواجب الملقى على كواهلهم
يا أبناء وطنى الأعزاء هو عبء ثقیل وليس لكم من حملة مناص ولا
خلاص، فتهيئوا لمجابهة الخطوب واقتحام الشدائد ومصارعة الأهوال، فإن
الشدائد هى مصعد للمعالى وسلم لبلوغ المجد، وثقوا بأنه

(لا يمتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الخذرا)

وإننى قد توسمت فيكم النجابة وأنست فيكم حمية تتأجج وغيره تتوقد
ومواهب تؤهلكم لأن تكونوا أنصار الله وحماة لشريعة محمد بن عبد الله،
وأرجو أن تتحقق فيكم الآمال للقيام بجلال الأعمال. إننا أمام نهضة

إسلامية، وأبناء كل قطر يتأهبون لوثة عربية وحركة قومية لا بد أن يكون لها أثرها في الشرق. لذلك فإنني أربأ بكم أن تكونوا في مؤخرة القوم، تتعشرون في أبواب الحرسول، وتمشون مشية المذلول، وأنتم تمتنون لشعب قد ضرب للناس أبلغ مثل في التضحية والشجاعة، وقاوم دولة من أعظم الدول وأكثرها عددًا وعددًا. ذلك الشعب الذي ظل إحدى وعشرين سنة يغامر الموت ويركب من الشدائد ولا يهاب صلثة الحديد ولا القذائف النارية التي كانت تنهال عليه من كل حذب وصوب فأنتم أبناء أولئك الأبطال الذين ييضوا وجوه المسلمين، وبرهنوا على أنهم من سلالة الفاتحين "فاستعرضوا وقائعهم واذكروا جلائل أعمالهم المملوءة بالمفاخر فإنها تبعث في نفوسكم الهمم العالية وتعلم كيف تكون العزائم الصادقة وكيف تكون الوطنية الخالصة.

أنا أعلم بما يحيط بكم من المصاعب وبما هو حولكم من العراقيل والقيود المرفقة، ولكن كل تلك الصعوبات وكل تلك العقبات تتذلل أمامكم إذا شددتم الحزم وتذرعتم بالصبر والحزم وقمتم قومة جبارة ووضعتم نصب أعينكم إنقاذ أمتكم وإعلاء شأنها بين الأمم، فالعزم الصادق لن تقف في وجهه العقبات، ولن تحول دون مرامه الصعوبات، وإذا كانت السبل معقدة ولا مخاوف ولا محاذير إذا فالأمر هين، وكل امرئ يستطيع أن يدعى البطولة والرجولة، وتذهب الفوارق والميزات، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فلو لم تكن المخاوف لما وجدت الشجاعة، ولولا المحاذير لما ذكر الإقدام. بل إنني لا أغالى إذا قلت لكم إن الذى يسلمه الدهر وتصفو له الحياة يف الغالب لا تتكون منه شخصية عبقرية وهذه سيرة الرسل وفى مقدمتهم نبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم كلها مملوءة بالمشاق والعناء. ولكن ليس معنى ما أقوله أن الإنسان يتصدى لخلق المصاعب ويستجلب النوائب، لا. أنا لست أقصد ذلك، وإنما إذا كان يسير فى سبيل جهاده وابتلى بشيء من المحن يتجلد ويقاوم بكل عزم وحزم، وعندئذ تتوطد نفسه على مغالبتها، فتخلق فيه روح الرجولة وتنو حتى تستحيل إلى بطولة وهذا ما نريد أن ترضوا أنفسكم عليه

وما يرغب أن تصلوا إليه من الصفات العالية والسجايا الممتازة التى تجعلكم رجال نهضة وقادة أمة وما ذلك على الله بعزيز .

وصفوة القول فإننى أستطيع أن أطمئن نفسى وأبشرها بأنكم أنتم دعامة نهضتنا وأنتم رجال المستقبل وأنتم الذين سنراكم قريباً تخوضون المعامع وتناضلوا عن الحقوق المغصوبة والحرية المسلوبة .

وفى أواخر العام نفسه، حضر السعداوى إلى القاهرة مرة ثانية، يرجو أن تنهى الفرصة للعمل، وفى هذه المرة تعرف السعداوى إلى كثيرين، وكان من بين الذين أسسوا جماعة إحياء مجد الإسلام التى تألفت برئاسة المرحوم أحمد محمد خشبة (باشا)، ولقد أحييت هذه الجماعة ذكرى غزوة بدر. بأن ألفت المحاضرات فى قاعة محاضرات جمعية الشبان المسلمين فى مساء أول ديسمبر ١٩٣٦ الموافق ١٧ رمضان ١٣٥٥، احتفالاً بهذه الذكرى وكان من بين خطباء الحفل المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل والمرحوم الدكتور عبد الرحمن شهنبر، ومحمود هدهد، وكان شاباً متحمساً ذا قدرة عجيبة على الخطابة، وغير هؤلاء. ثم حضر السعداوى لصلاة الجمعة اليتيمة فى جامع عمرو بن العاص يوم ٢٥ رمضان الموافق ٩ ديسمبر) وأتاب الملك فؤاد الأول عنه رئيس ديوانه محمد توفيق نسيم (باشا)، الذى استقبله رئيس الوزارة (مصطفى النحاس) والوزراء وكبار رجال الدولة. وكان السعداوى مكلفاً من قبل جماعة الكتلة الوطنية فى دمشق أن يسعى لدى الدكتور عبد الرحمن شهنبر فى إزالة الخلاف بينه وبينهم.

أما فى نهاية هذا العام نفسه، فقد كان الإيطاليون قد فرغوا من عزو الحبشة، ثم لم يلبث أن رفعت عن إيطاليا العقوبات الاقتصادية نهائياً فى ٤ يوليه ١٩٣٧. وعلى ذلك لم يتجدد البحث مع الأمير السيد محمد إدريس فى ذلك "المستقبل الطيب" الذى كان ينتظر الأقطار الليبية، ولم تسنح الفرصة التى عقد السعداوى آمالاً كبيرة عليها للقيام بالعمل الإيجالى ضد الإيطاليين فى ليبيا.

ولقد شهد العام التالي (١٩٣٧) نشاطاً كبيراً من جانب السعداوى، الذى لم يفقد الأمل بالرغم من ضياع فرصة العمل المجدى أثناء الحرب الإيطالية الحبشية، فى أن يفضى تلبد الجو السياسى فى أوروبا بسبب أحداث الحرب الأهلية فى أسبانيا (منذ يوليو ١٩٣٦)، والتقرب بين موسولنى وهتلر (فى سبتمبر ١٩٣٧)، وما كان معروفاً عن مطامع ألمانيا النازية فى النمسا وغيرها من دول أوروبا المستضعفة - نقول إن السعداوى لم يفقد الأمل فى أن يفضى كل هذا إلى حرب أوروبية عامة، قد يجد فيها الليبيون الفرصة للخلاص من النير الإيطالى، ويكون فى وسع السعداوى وصحبه القيام بالحركة العسكرية التى كان يرجو القيام بها ضد الإيطاليين فى ليبيا أثناء الحرب الإيطالية الحبشية. ثم إن تلبد الجو السياسى فى أوروبا جعل السعداوى من ناحية أخرى يتوجس خيفة من أن يعمد الاستعمار الأوروبى إلى تشديد قبضته على الشعوب الواقعة تحت سلطانه فى الأقطار العربية، فيسلب هذه الشعوب البقية الباقية من حرياتهما وحقوقهما، فلا تقدر هذه على الانفكاك من إसार الاستعمار البغيض، وتبقى ليبيا بدورها ترسف فى أغلال الاستبداد الإيطالى، ويتبدد كل أمل فى العمل الإيجابى الذى بقى السعداوى يمنى به النفس دائماً، ولقد بقيت فكرة الوحدة الإسلامية مسيطرة على ذهنه فكان مما استأثر بقسط كبير من تفكيره ونشاطه المسعى من أجل توحيد كلمة العرب، والعمل لأن تقف الشعوب العربية وحكوماتها فى صف واحد وفى جبهة واحدة ضد الاستعمار الأجنبى. وكان فى غضون سنة ١٩٣٧ أن نشط السعداوى ليحقق هذه الغايات. وأدرك نجاحاً ملحوظاً، من حيث إنه تضافر مع نخبة من قادة الرأى فى العالم العربى الإسلامى والمشتغلين بالقضايا العربية على استرعاء انتباه هذا العالم إلى ضرورة الوحدة العربية. ثم إن العمل فى القضايا العربية كان معناه أن يشترك السعداوى فى أهم قضايا

العرب العاجلة وقتئذ، قضية فلسطين الكبرى. وقد أتاح الفرصة لأن يقوم السعداوى بهذا النشاط كله إنشاء (المكتب العربي).

ويبدأ التفكير في إنشاء ما صار يعرف باسم (المكتب العربي)، منذ أن تسلم رجال الكتلة الوطنية زمام الحكم في سوريا، فقد قبلت في ديسمبر ١٩٣٦، استقالة رئيس الجمهورية السيد محمد العابد، وانتخب، في مكانه السيد هاشم الأتشي، فتألفت أول وزارة وطنية من رجال الكتلة في ٢٢ ديسمبر ١٩٣٦ برئاسة السيد جميل مردم، ومن أعضائها: السادة شكرى القوتلى، وسعد الله الجابرى، وعبد الرحمن الكيالى، وهؤلاء جميعاً ممن توطدت صلات الود والصداقة بينهم وبين بشير السعداوى. وكان تأليف هذه الحكومة الوطنية حافزاً للسعداوى على زيادة انغماسه في الشؤون العربية. وفي وقت كانت قضية فلسطين تشغل فيه الأذهان، كما صار التفكير في إنشاء (المكتب العربي).

وكان الغرض من إنشاء هذا المكتب الدفاع عن الأقطار العربية جميعها عن طريق معالجة قضية كل قطر معالجة فنية، أى البحث فى النواحي التى يمكن بها تقدم البلاد سياسياً أو اقتصادياً أو علمياً أو اجتماعياً. فيؤسس المكتب له فروعاً فى كل الأنحاء مهمتها الاتصال بالهيئات العاملة فى مختلف البلدان حتى تزوده هذه ببرامجها، فيعمل المكتب على تأييد هذه البرامج بمختلف وسائل النشر والإذاعة، ويبدل قصارى جهده فى خدمة القضايا الوطنية، ويسعى لأن ينسق بقدر المستطاع مساعى الهيئات. طالما أن الهدف الأعلى هو تحرير الشعوب العربية من ربة الاستعمار الأجنبى.

ناقش فكرة المكتب العربية مع بشير السعداوى، أحد الشخصيات العربية الوطنية فى دمشق السيد فخرى البارودى، الذى كرس كل وقته وجهده وماله لخدمة قضايا العرب. وكان فخرى البارودى هو الذى وضع فكرة المكتب العربى، وهو الذى أعد مواد أو نظام العمل به. ولم يلبث السعداوى أن آمن

بهذا المشروع بمجرد أن عرضه عليه البارودى . وبين الاثنين غذاً أمكن إخراج هذا المشروع إلى حيز الوجود .

ولقى المكتب العربى نجاحاً ملحوظاً . وسرعان ما اتسعت دائرة أعماله وكثر موظفوه ، فبلغ هؤلاء فى أواسط سنة ١٩٣٧ ثلاثين موظفاً . وتطوع عديدون للعمل فى المكتب لقاء أجر ضئيل ، مدفوعين بشهورهم الوطنى . وكان أحد المتطوعين فى هذه الخدمة ، أحد أساتذة الكلية الأمريكية فى بيروت ، الأستاذ فؤاد مفرج الذى بمجرد أن عرف بأمر (المكتب العربى) صمم على التخلّى عن عمله كأستاذ فى العلوم السياسية بهذه الكلية ، وجاء من بيروت إلى دمشق يعرض خدماته بالمكتب ولما سكن قد مضت أسابيع قليلة على تأسيسه . فأثار إعجاب و(دهشة) بشير السعداوى وصاحبه . وأطلعه فخرى البارودى على برنامج المكتب ووافق عليه فؤاد مفرج الذى عاد إلى بيروت ليستقبل من وظيفته بالكلية الأمريكية ويعود إلى دمشق ، لبدأ العمل بأجر ضئيل بالنسبة لما كان يناله فى عمله الأول . وكان من المشتغلين بالمكتب العربى ، السادة فريد زين الدين ، وإبراهيم الأسطوانى وغيرهما كثيرون من الأطباء والمحامين .

واتسعت أعمال المكتب ، فاتخذ مقراً له منزلاً تزيد حجراته على الثلاثين حجرة بجهة القنوات فى دمشق ، وقد وزع العمل على أقسام ، اختص كل منها بقضية من قضايا البلاد العربية ، يتلقى عنها المعلومات والأخبار والصحف ويهىء لشئونها أضيائير منظمة . ومن مهمة القسم الاتصال برجالاات وقادة البلاد التى يختص بقضاياها . وعنى المكتب العربى بإنشاء العلاقات الوثيقة مع الجاليات اللبنانية والسورية فى المهجر (أمريكا) . وغطى المكتب نفقاته من الاشتراكات والهبات التى صارت تاتيه من العرب المتحمسين لقضايا أوطانهم . كما أمدت الحكومة السورية المكتب بمعونة مالية ، وأعفت مراسلات المكتب من رسوم البريد . وقد استمر هذا المكتب يعمل حتى قيام

الحرب العالمية الثانية، وعندئذٍ أغلقت السلطات الفرنسية، وصادرت كل ما كان فيه من أوراق ووثائق.

وكانت قضية فلسطين في هذه الآونة تحتل المكانة الأولى من بين القضايا العربية، فاستأثر الاهتمام بها كل نشاط (المكتب العربي): ينشر أخبار "الحرب" ويحتج على أعمال الحكومة الإنجليزية، وكان بشير السعداوى على وجه الخصوص على اتصال مستمر بسماحة المفتى الحاج محمد أمين الحسينى، وكان جماعة من شباب الفلسطينيين يعملون مع رجال المكتب في دمشق.

فقد كانت الأحزاب العربية في فلسطين قد اتحدت كلمتها على تقديم مذكرة في نوفمبر ١٩٣٥ إلى المندوب السامى يطلون فيها تأسيس حكومة ديمقراطية، ومنع انتقال أراضى العرب إلى اليهود ووقف هجرة اليهود إلى فلسطين فوراً، والبحث فى قدرة البلاد على امتصاص العناصر المهاجرة إليها، والبحث كذلك فى موضوع الهجرة غير القانونية. وقد أجابت وزارة المستعمرات البريطانية على هذه المطالب فى يناير ١٩٣٦ بما يفيد أن مشروعاً لدستور جديد كانت نقدت به فى ديسمبر من العام الماضى، كفى عند تنفيذه بالاقتراب خطوة أخرى منم الحكومة الديمقراطية، وأنها تعتزم وضع تشريعات تمنع العرب من بيع أراضيهم إلا إذا احتفظوا بقسم منها، وأن تقدير عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين قد تحدد بعد البحث بعناية فى قدرة البلاد على قبولهم أو امتصاصهم. ولكن مشروع الدستور المنتظر لم يؤذن له بالنجاح حيث تكاتف الأعضاء اليهود وأنصارهم فى مجلسى العموم واللوردات الإنجليز لإحباطه (فبراير ومارس ١٩٣٦). وفى ٢ أبريل دعت الحكومة الإنجليزية وفداً من العرب للحضور إلى لندن للمباحثة معه، ومع أن هذه الدعوات لقيت قبولا إلا أن الوفد لم يذهب إلى لندن، لأن الاضطرابات سرعان ما قامت فى فلسطين فى ١٨ أبريل. ونحن لا يعنينا الدخول فى تفاصيل هذه الحوادث وإن كان من الواجب ملاحظة: أن اللجنة العربية العليا

برئاسة مفتى القدس الحاج أمين الحسيني تأسست فى ٢٥ أبريل، وأن الحكومة البريطانية أعلنت فى ١٨ مايو إيفاد لجنة ملكية للتحقيق فى أسباب هذه الاضطرابات وفى شكايات العرب أو اليهود على السواء، وفى ٣٠ يونيه قدم كبار الموظفين العرب إلى المندوب السامى البريطانى مذكرة يقولون فيها إن الأهلىن العرب أياسهم استسلام الحكومة تحت الضخط الصهيونى وأنهم ما عادوا يثقون فى الوعود الرسمية. وكان قد أعلن الإضراب العام فى فلسطين منذ ٢٥ أبريل ١٩٣٦، وبقي هذا الإضراب قائمًا، فتوسط بعض رؤساء العرب فى العراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن لإنهاء ذها الإضراب الذى أعلنت اللجنة العربية العليا إنهاءه فى ١١ أكتوبر، وفى ٥ نوفمبر روصلت اللجنة الملكية (وكانت برئاسة اللورد بيل (وليم روبرت بيل) إلى فلسطين فى نوفمبر ١٩٣٦، ثم أتمت مهمتها وغادرت البلاد إلى إنجلترا فى ١٨ يناير ١٩٣٧، ثم نشرت تقريرها (تقرير بيل) فى يولييه من العام نفسه. وكان أهم ما جاء فى (تقرير بيل) اعتباره أن الوعود التى قطعت للعرب ولليهود، إنما هى وعود متضاربة لا يمكن التوفيق بينها، واقترحت كحل للمشكلة إنهاء الانتداب البريطانى وتقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق لإنشاء دولة عربية، وأخرى يهودية، ولإقامة حاجز محايد يشمل الأماكن المقدسة ويستمر خاضعًا لإدارة الانتداب. وأعلنت الحكومة البريطانية موافقتها على هذه المقترحات على أن يقف بيع الأراضى كإجراء أثناء الانتقال، بينما يسمح لثمانية آلاف يهودى بالدخول إلى فلسطين فى فترة الثمانية شهور التالية.

وكان فى هذه الظروف إذاً أن سعى بشير السعداوى لمقابلة الحاج أمين الحسينى بالقدس. وذلك عقب تأليف الحكومة الوطنية بدمشق منذ ديسمبر ١٩٣٦ ليسأله عن خطة العمل التى يريد بها من الوطنيين بدمشق، خصوصًا بعد أن تسلم هؤلاء شئون الحكم فى سوريا. واتجه الرأى وقتئذ إلى إعلان مقاطعة البضائع اليهودية، وأشار مفتى القدس بإنشاء لجنة من تجار دمشق

وأعيانها لتنفيذ هذه المقاطعة. ووفق السعداوى فى إقامة هذه اللجنة. ومع أن السوق كان مملوءاً بالبضائع اليهودية، فقد قرر أصحاب المتاجر تصفية ما لديهم والامتناع عن جلب بضائع جديدة ونجحت الحركة فى رد غزو اليهود الاقتصادى فى سوريا.

وأما المشروع الآخر الذى كان موضع تفكير الحاج أمين الحسينى، وتبشير السعداوى، ورياض الصلح فى هذه الآونة كذلك، فكان الدعوة لإقامة الوحدة العربية، ولما كانت سوريا واقعة تحت الانتداب الفرنسى. والإنجليز يحتلون فلسطين وشرق الأردن والعراق، وسماثر الدول العربية لا تزال غير متحررة من سيطرة النفوذ الأجنبى، ويشذ عن هذا المملكة العربية السعودية. فقد عول ثلاثتهم على عرض هذا المشروع على جلالة الملك عبد العزيز آل سعود. وبالفعل قصد ثلاثتهم إلى الحجاز فى موسم حج هذا العام (١٣٥٥)، فى غضون شهرى فبراير ومارس ١٩٣٧، وبعد الحج عرضوا على العاهل العربى مشروعه، وطلبوا من الملك الموافقة على تأليف لجنة تدعو إلى الوحدة العربية، وذلك بعد أن أسهبوا فى بيان الفوائد التى يجنيها العرب من هذه الوحدة إذا نجحت. وبعد أن أصفى الملك لأقوالهم، صارحهم برأيه فى المسألة برمتها، وفحوى هذا رأى أنه يشكر لهم تفكيرهم فيما يعود بالنفع على الأمة العربية، ولكنهم - كما قال الملك رحمه الله - قد أخطأوا اختيار الطريق الذى يجب أن يسيروا فيه للوصول إلى غايتهم، وهو - إذا كانوا حقيقة يريدون عملاً مجيداً فى صالح جلالمة العربية - أن يسعوا فى جمع كلمة الشعوب العربية ذاتها، وليس ملوكها وأمرائها. لأن هؤلاء الملوك والأمراء قد يكون هناك من الدواعى السياسية ما يقعدهم عن العمل، وما لا يدعو إلى رجاء الخير منهم، ولكن الشعوب إذا تيقظت لأمانيتها، وتبتهت لمزايا الوحدة المنشودة، فإنها لا تلبث أن ترغم ملوكها وأمراءها على تحقيق الوحدة، ونصح الملك أن يبذل هؤلاء الثلاثة جهدهم لاستمالة رجالات العرب وأهل رأى منهم فى سائر الأقطار العربية لتأييد مشروع الوحدة،

وأشار باختيار القطر المصرى ميداناً لهذا العمل ، وبغير هذا المسعى مع الشعوب ذاتها لن يرجى نجاح لهذه الفكرة .

وخرج الثلاثة من هذه المقابلة وهم مقتنعون بأن الملك عبد العزيز قد رسم لهم الطريق الصحيح التى يجب أن يسيرا فيها ، وإن كانوا قد أدركوا كذلك أن المهمة جد عسيرة وتحتاج إلى زمان طويل وجهود كبيرة . ومع أنهم صموا على السعى ، إلا أن تأزم الموقف فى فلسطين وبداية الاضطرابات بها (أبريل) سرعان ما شغلاهم عنه .

وكانت اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسينى ، بعد أن أذاعت الحكومة البريطانية (تقرير بيل) قد أعلنت أنها سوف تمسك عن إبداء الرأى فى هذا التقرير إلا بعد الإصغاء إلى وجهات نظر الدول العربية ، وراحت تستعد لعقد (مؤتمر عربى) لهذه الغاية ، ووقع الاختيار على بشير السعداوى - وكان عضواً باللجنة الفلسطينية - ليذهب إلى القاهرة ، يسأل رئيس حكومتها وقتئذ السيد مصطفى النحاس أن يساعد العرب على عقد المؤتمر المطلوب فى القطر المصرى . وحمل السعداوى كتاباً من رئيس حكومة سوريا السيد جميل مردم إلى النحاس (باشا) فى هذه المسألة ، فنزل السعداوى بالإسكندرية وطلب مقابلة (الأمير) عمر طوسون ، لينال مساعدته فى موضوع اعتقد السعداوى أن هذا الأمير لن يتردد عن إسداد كل معونة من أجل إنجاحه . ووسط السعداوى الأمير السيد محمد إدريس لإتمام هذه المقابلة . وعرض على عمر طوسون المسألة التى جاء من أجلها ، ولكن هذا الأخير رفض الفكرة من أساسها ، بدعوى أن المعاهدة التى عقدها مصر مع بريطانيا فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ لم يكن قد جف مدادها بعد ، ولا يريد أن يخلق العرب بسبب قضية فلسطين مشاكل لمصر ، فلما لفت السعداوى نظره إلى قضية فلسطين تهيم كل مسلم ، انطلق (الأمير) عمر طوسون يوجه إليه اللوم وإلى إخوانه - بحسبانه فلسطينياً - لأنهم يبيعون أملاكهم إلى اليهود ، ويسأله عن السبب الذى يجعلهم

يبيعونها لهم. فأجاب السعداوى إن من المتعذر وقف هذا البيع طالما بقيت السلطة فى أيدى الإنجليز، وهم الذين تصدر عنهم التشريعات والقوانين فى البلاد، وطالما يدفع الراغبون فى شراء الأراضى من اليهود أو غيرهم الأثمان المغرية لها، فلو أنه كانت هناك حكومة وطنية لأمكنها استصدار التشريعات اللازمة، واتخاذ الإجراءات التى تكفل استبقاء الأراضى فى أيدى أصحابها العرب، ولما لم يجد عمر طوسون ما يجب به على هذه الملاحظة أخذ يتحدث إلى السعداوى بحسبانه سورياً فى هذه المرة - ليلوم السوريين جميعاً على ما فعلوه مع الأتراك فى الحرب العالمية الأولى، وانقلابهم عليهم. فأجاب السعداوى إن العلاقات بين السوريين والأتراك قد صارت الآن ودية، وإن الحوادث التى يشير إليها (الأمير) وقعت فى الماضى، ومن قبل أشخاص معينين، لا يمكن أن يعتبر الشعب السورى بأجمعه مسئولاً عن أعمالهم.

وخرج السعداوى وهو فى أشد حالات الغضب، وقصد من فوره إلى مقر جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية، فوجد بالجمعية "رئيسها (المرحوم) محمد فهمى الناضورى (باشا) - الذى كان رئيس شرف لها، وكان عمر طوسون هو راعى هذه الجمعية - فشكا إليه السعداوى ما لقيه من عمر طوسون، وبلغ من تأثره عندما شاهد رسماً للأمير عمر طوسون يزين أحد الجدران بالجمعية أن طلب إزالته، لأن صاحبه - كما قال - "لا علاقة له بالمسلمين" فأخذ الناضورى (باشا) يهدئ من روعه حتى سكنت ثأثرته، ثم قصد الناضورى الجمعية فى القاهرة، وذهب السعداوى إلى القاهرة وهو لا يزال يحمل معه كتاب جميل مردم إلى الرئيس النحاس.

وقبل أن يستطيع السعداوى مقابلة النحاس (باشا)، علم أن سمو الأمير سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية سوف يصل إلى السويس فى أواخر شهر يوليه (من سنة ١٩٣٧) فى طريق عودته إلى بلاده بعد زيارته لبريطانيا - وكان الأمير سعود قد حضر حفلات تتويج الملك جورج السادس (فى يوم ١٢

مايو ١٩٣٧) - ومع أنه كان امتنع عن الإدلاء بأية تصريحات فى مسألة فلسطين لوجوده فى ضيافة الإنجليز، ولأنه على كل حال "يتبع خطة أبيه الملك فى الاحتفاظ برأيه فى هذا الموضوع ريثما يتضح شهور الشعب الفلسطينى نفسه" فقد كان من المنتظر أن يدلى بآرائه فى هذه المسألة عند وصوله إلى السويس أوضح الأمير سعود هذه النية بمجرد أن وصلت الباخرة التى نقله إلى بورسعيد فى الصباح الباكر من يوم ٢٨ يوليو. وقد صرح عزم السعداوى على مقابلة سمو الأمير سعود بالسويس للوقوف على آرائه فى القضية الفلسطينية، فاستقل واثنان من صحبه هما السيد أسعد داغر وسامى السراج سيارة يسافرون بها إلى السويس. ولكنهم ما كادوا يصلون إلى (مصر الجديدة) حتى صدمتهم سيارة أخرى، وانقلبت بهم سيارتهم، وأصيب السعداوى بجروح بليغة، حتى إنه فقد الوعي، ونقلته سيارة الإسعاف إلى المستشفى. ولقد استطاع بالرغم من حالته الخطيرة أن يتبعه لما كان يريده رجال الإسعاف الذين رأوا الذهاب به إلى المستشفى الإيطالى، فرجاهم أن يأخذوه إلى المستشفى الفرنساوى. وأبرق سمو الأمير سعود عند وصوله إلى حدة، وعلمه بالحادث، يهنئ السعداوى بالسلامة والنجاة، وتردد أعضاء الجالية الطرابلسية البرقاوية على المستشفى لزيارته، وكان (الحاج) مصطفى محمد رمضان، أكثر هؤلاء مثابرة على الزيارة.

أما كتاب حميل مردم، فقد حملة حمد باشا الباسل، إلى الرئيس النحاس، وبقي السعداوى قرابة ثلاثة شهور طريح الفراش. ولم ينعقد المؤتمر العربى فى القطر المصرى وكان اليهود قد عقدوا (مؤتمراً صهيونياً، فى زيورخ بسويسرا فى أغسطس ١٩٣٧ للنظر فى (تقرير بيل)، ورفضوا أكثر المقترحات التى تضمنها هذا التقرير والتتائج التى وصلت إليها اللجنة الملكية. وأخيراً عقد العرب مؤتمرهم يف (بلودان) فى سوريا. وبدأ المؤتمر اجتماعاته يوم ٨ سبتمبر ١٩٣٧، وحضر المؤتمر مندوبون من كل البلاد العربية بما فى ذلك

مصر، وأصدر المؤتمر قراره باعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي، وأن العرب سوف يناضلون من أجل استقلال فلسطين العربية.

وفي أثناء هذه كله، استمر نشاط (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى) كما هو العهد به دائماً، ولعل المسألة التي أثارت اهتمام السعداوى وقتئذ كانت زيارة موسولينى المشهورة للقطر الطرابلسي البرقاوى فى غضون شهر مارس ١٩٣٧، وما ترتب على هذه الزيارة من الإجراءات التي قصد بها الإيطاليون استمالة أهل ليبيا إلى الحكم الإيطالى بزعامة (موسولينى) الذى أعطى لقب (حامى الإسلام) أثناء الزيارة التي بدأت من يوم نزوله فى طبرق (فى ١٨ مارس)، وانتهت يوم مغادرته مدينة طرابلس فى ٢١ مارس ١٩٣٧. وقد وعد موسولينى بأن تعترف الحقوق الرومانية بحقوق الأهلىن العرب، وأن يوقف تنفيذ الأحكام الصادرة على الثوار، وأن يعلن العفو العام عنهم وغير ذلك من الوعود الكثيرة "الخيالية" ولقد اغتر بهذه الوعود وصدقها كثيرون من أصحاب الصحف العربية ومراسليها الذين رافقوا (الزعيم) فى هذه الرحلة. وكان صاحب جريدة (الجزيرة) الدمشقية، السيد محمد تيسير ظبيان الكيلانى، من الذين دعتهم الحكومة الإيطالية.

وكان طبعياً أن يبذل السعداوى وسائر أعضاء جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى كل ما وسعهم من جهد وحيلة، لمقاومة أثر الدعاية المترتبة على الوعود والتصريحات التي صدرت عن (الزعيم) الإيطالى، والتي أخذ المراسلون يذيعون أنباءها. وقد أثبتت هذه المسألة عقب عودة السعداوى من مناسك الحج، ومقابلته مع زميله الحاج أمين الحسينى ورياض الصلح لعاهل المملكة العربية السعودية، فقد نشرت الأهرام يوم ١١ أبريل نقلاً عن رومة فى ١٠ منه: أن "السنور موسولينى قد عمد إلى البر السريع بوعده لأهالى ليبيا أثناء زيارته الأخيرة لهم، فأعلن فى اجتماع الوزراء اليوم أن ليبيا ستنال دستوراً جديداً، ويعفى عن عصاتها السابقين وترمم الأراضى الخربة، وتعاون

الزراعة وتمنح قرضاً بـ ٢٤ مليون ليرا (فرنك إيطالي) لإنشاء بيوت سكن في المستعمرات الأفريقية. وستكون لوبيا ذات إدارة مستقلة وجيش وأسطول، ويكون لها مرفأ جديد في خلال أربع سنوات بقيمة ٨٥ مليون ليرا. أما وزارة المستعمرات الإيطالية فيبدل اسمها باسم، وزارة أفريقيا الإيطالية، وتنشأ ليها دار واسعة جديدة في روما، ثم ذكرت الجريدة القرارات التي اتخذها مجلس الوزراء، ومنا وضع مشروع بقانون بإنشاء معهد إسعاف إقليمي في كل مقاطعة، وإنشاء قيادة بحرية وفرقة وطنية في ليبيا، وتعديل النظام السياسي الإداري في ليبيا "بالنسبة لما بلغته من متقدم بفضل النظام الفاشيستي، كما وافق مجلى الوزراء الإيطالي على مشروع يقضى بأن تصبح الأملاك المصادرة ملكاً للبلديات اللوية ولمصلحة الشعوب الإسلامية، وصدق (المجلس) أيضاً على مشروع مرسوم بالعفو العام عن الأهالى اللوبيين بالنسبة للسكينة السائدة في جميع أنحاء المستعمرة، وغير ذلك.

وتلك كانت وعود هي في صالح المستعمرين الإيطاليين وحكومة موسوليني، وما كان يجب أن ينخدع أحد الليبيين بوعود العفو العام، أو ما كان يذاع عن إرجاع أملاكهم المصادرة إليهم، وقد أثبتت الأيام - وعلى نحو ما فصلناه في كتابنا (السنوسية دين ودولة) أن سياسة انتزاع أملاك وأراضي العرب منهم لتوطين المعمرين الطليان بها، والعمل على إبادة العرب وإفنائهم قد زادت في سيرها شدة على شدتها.

وعلى ذلك فقد بادر بشير السعداي إلى تنبيه الأذهان إلى الخطر الكامن في هذه التشريعات - أو مشاريعها - التي أذاعت جريدة الأهرام خبرها. وعقدت جمعية الدفاع "اجتماعاً هاماً حضره أعضاءها المقيمون بدمشق وغيرها من المدن السورية" واتخذوا عدة قرارات هامة، لم يلبثوا أن أذاعوها في "نداء" وجهوه إلى الأمة العربية "وإليك نصه:

نداء إلى الأمة العربية

لم تزل جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوى تؤيدها الجاليات الطرابلسية المنتشرة فى كل الأقطار آخذة على عاتقها معالجة القضية الوطنية والدفاع عنها بتشى الوسائل، ساعية لتوحيد صفوف أبناء الوطن المشتتين فى أقطار العالم العربى، وإثاء روح الوطنية والمقاومة فى نفوسهم، وتحذيرهم من الدعاية الإيطالية التى تحاول التغرر بهم وضمنهم إلى الحظيرة الإيطالية. وترغيبهم فى العودة إلى بلادهم التى تزعم أنها أصبحت - بفضل إيطاليا - جنة ينعم أبناؤها بالنعيم المقيم والحرية التامة.

ومنذ الرحلة الموسولينية الأخيرة لطرابلس الغرب - التى اقترنت بكثير من مظاهر القوة والغطرسة الفاشستية، واتخذت منها شركات البرق الإيطالية وسيلة نشر دعاية واسعة النطاق للتأثير فى رأى العام العربى وإثارة اهتمامه بشئون تلك البلاد، وإيهامه بأن أحداثًا خطيرة أعدت لتغيير حالتها وتبديل السياسة المتبعة فى إدارتها بما سيسدل الغطاء عما كان متبعًا فيها حتى الآن من نظم كان لها أسوأ الأثر فى النفوس بما اقترنت به من قسوة وفظاعة استنكرها العرب والمسلمون، ولا يزال صدى ذلك الاستنكار عالقًا فى النفوس حتى اليوم.

منذ بدأت الدعاية الإيطالية تحاول هذا - وجمعية الدفاع - تتبع ما ينشر باهتمام منتظرة ما ستمخض عنه هذه الدعاية من قرارات وما سيكون لها من نتائج فى حالة وطنها. ولكنها لم تسرع فى إبداء آرائها وتقرير موقفها حتى لا تتهم بالتسرع، وأنها ليست إلا جمعية شغب ومعارضة سلبية لا تنشأ أملا معيّنًا ولا تسعى لتحقيق مطلب مشروع.

حتى انجلى الموقف وظهرت حقيقة ما وراء تلك الضجة التى أثارته وسائل الدعاية الإيطالية بظهور قرارات رومة الصادرة والتى نشرتها الأهرام فى ١١ نيسان (أبريل) ١٩٣٧ وباقى الصحف فى الأقطار العربية، والمتضمنة

سلسلة من المشاريع والنظم السياسية والعسكرية والإدارية والاجتماعية والعمرانية التي وصفها المصادر الإيطالية بأنها منحة رومانية غاية فى السخاء والتسامح تكفل للطرابلسيين البرقاويين المساواة بأبناء إيطاليا أنفسهم، وتجعل لهم استقلالاً إدارياً يضمن لهم الحرية الدينية والسياسية ويحفظ لهم تقاليدهم القومية الخاصة.

بعد صدور هذه القرارات لم تجد جمعية الدفاع بدءاً من دعوة أعضائها إلى اجتماع عام لبحث هذه القرارات من وجهة النظر الوطنية وهل فيها حقيقة ما يحقق للطرابلسيين أملاً أو ينيلهم مطلباً من مطالبهم المشروعة، فعقدت لهذا الغرض اجتماعاً حضره أعضاؤها المقيمون بدمشق وغيرها من المدن السورية، وتناولوا فى اجتماعهم القرارات الإيطالية، الأخيرة فدرسوها مجتمعين بعد أن درسها كل منهم منفرداً، وكانت نتيجة بحثهم إصدار قرارهم الاجتماعى الآتى:

١ - استنكار تعرض موسولنى للإسلام واستهائته بشعور المسلمين، بادعائه حماية الإسلام. هذا اللقب السامى الذى لم يجرؤ غير مسلم على ادعائه منذ ظهور الإسلام إلى اليوم.

٢ - استنكار قرارات روما الأخيرة وعدم الاعتراف بما وضع فى دائرتها للقطر الطرابلسى البرقاوى من أنظمة، وعدّها وسيلة لتحقيق برنامج إيطاليا الاستعمارية الذى يرمى إلى القضاء على عروبتة وإسلاميته وجعله جزءاً لا يتجزأ من إيطاليا فى لغته وتقاليده.

٣ - إعلان تمسك الأمة الطرابلسية البرقاوية بأمانيتها القومية، التى تضمنها ميثاقها الوطنى، وعدم الاعتراف بأى حل لقضية البلاد لا يتفق وهذا الميثاق.

٤ - استنكار كل عمل لحل القضية أو وساطة من غير الطرابلسيين

البرقاوين، وعد ذلك مداحة شائنة فى شئونهم ومساومة على حساب ضحاياهم وشهادتهم.

٥ - شكر كل عربى مسلم يعطف على قضية بلادهم عطفًا مجردًا عن الغاية والأهواء.

٦ - تحذير العرب والمسلمين من الاغترار بدعاية إيطاليا التى تستتر وراءها الأهواء والمطامع الفاشستية فى البلاد العربية.

٧ - تحذير الطرابلسيين البرقاوين فى جميع أنحاء العالم من أن ينخدعوا بدعاة السوء وسماسرة إيطاليا الذين يسعون للتغير بهم واستدراجهم للعودة إلى بلادهم، دون قيد ولا شرط لتجد منهم إيطاليا جنودًا فتستفيد منهم فى تحقيق غاياتها الاستعمارية.

٨ - عدم الانخداع بمظاهر الحفاوة التى قوبل بها موسولنى من بعض أبناء طرابلس برقة الذين أرغموا عليها، وبعض الذين أفقدهم خضوعهم الطويل للحكم الإيطالى بفظائعه وأهواله - حرية الإرادة، وجعل منهم يلات تسخر وابواقًا تنفخ فيها الدعاية الإيطالية ما تشاء من خطب وأوقال من غط ما أذاعته البرقيات الإيطالية فى إبان الزيارة الموسولينية.

٩ - تختم الجمعية قرارها بإعادة ميثاقها الوطنى الذى هو وليد إرادة الأمة الطرابلسية البقاوية المتمثلة فى مؤتمرها العام المنعقد فى (غريان) وإعلان أنها لا تحيد عنه ولا ترضى لقضية بلادها حلالا يحقق ما تضمنه من أمان وآمال.

الميثاق

١ - تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس برقة، يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.

٢ - دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.

- ٣ - انتخاب الأمة مجلساً حائزاً الصلاحية التي يخوله إياها الدستور.
 - ٤ - اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم.
 - ٥ - المحافظة على شعائر الدين الإسلامى وتقاليده القطر فى جميع أرجائه.
 - ٦ - العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة إسلامية.
 - ٧ - العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.
 - ٨ - تحسين العلاقات بين الأمة الطرابلسية البرقاوية وبين الدولة الإيطالية بمعاودة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابى.
- رئيس جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى

بشير السعداوى

هذا وقد وجه مفتى الموصل، الشيخ حبيب العبيدى، خطاباً مفتوحاً إلى موسولينى، وكان الشيخ وقتئذٍ ببغداد، بتاريخ ٢٧ محرم ١٣٥٦ و٨ نيسان (أبريل ١٩٣٧)، بذل السعداوى وإخوانه قسارى جهدهم لإذاعته فى كل أنحاء سوريا، هذا نصه:

إلى صاحب السعادة السنيور موسولينى. زعيم الفاشيست ورئيس الوزراء الأفخم:

يا صاحب السعادة: نشرت لك الصحف خطباً عديدة ولك ملء الحرية فيما يقول، ولكن ينتهى حقك حيث يبدأ حق غيرك. لقد أكثر من البحث عن العرب والمسلمين ولست عربياً ولا مسلماً، وكم كان لبحثك هذا أثره العميق فى النفوس. لو نمت أساليه ودلت مضامينه على تلافى ما فات، وضمد جروح داميات، بغية التقارب بعد التباعد، والصدقة بعد العدا، ولكن كانت النتيجة معكوسة لهاتيك المقدمات:

إنك بتصديق لحماية الإسلام لم تأت بشيء جديد، ولو كنت تعلم أن مثل هذه الكلمة قد أوغرت صدور المسلمين على ما سبقوك بها من قبل، لالتمست الصداقة من غير هذه الطريق المربوة بالحق، والاشمئزاز. إن المسلم، يرحب بكل صداقه ويمقت كل حماية ولا يفرق القصاب استسلام بعض النعاج.

ومن الخطل فى الرأى إذا ما وقع عصفور فى شبكة صياد أن يرى نفسه قد اصطاد كل الطيور حتى العقبان والنسور.

وقد جرت أسود طرابلس وبرقة فلعموكم هزل الكفاح وجده زهاء عشرين عاماً. إذا كنت ترغب فى اكتساب صداقة العرب والمسلمين، فالتمسها من غير تلك الطريق. ثم ماذا عسى أن تكون قيمة الأقوال إذا لم تصدقها الأعمال؟

إن إقليم طرابلس الغرب مسلم وعربى، وقد مضى زهاء ربع قرن على تحكم روما بمقدرات العرب والمسلمين فى هذا القطر المنكود الطالع، فماذا أفاضت عليه روما من أنوار التمدين الحديث غير الحديد والنار؟ وماذا خلعت عليه من مطارف العلم والعرفان والحضارة والعمران، غير الاستبداد والاستعباد؟ فهل هذه هى صداقة روما للعروبة والإسلام؟.

ربما كان يصيب سهمك مرماه، حين تحديد بعض دول الاستعمار، أو ترسمت خطاها فى سياستك الجديدة نحو العرب والمسلمين لو أنك قد نهجت فى هذا القطر المظلوم منهج الإنكليز فى العراق وفرنسا فى سوريا ولبنان، فى الزمن الأخير بعد دروس قاسية وتجارب فاشلة. أما الاكتفاء بالكلمات الجوفاء فى حفلات رائعة وخطب ذائعة فلا يزيد القلوب إلا حقداً ولا النفوس إلا نفوراً.

كلا لعمر الحق لم نعد أولئك البسطاء ولقد والله أيقظت النيام.

إن الذين أهدوا إليك "سيف الإسلام" لا يملكون حق التمثيل لأربعمائة مليون فهم إنما أعادوا عليك السيف الذى حكمتموهم بحد غراره .
ولقد دعوت هذا السيف برمز القوة والعدل، فكيف يجتمع الضدان؟
إنما العدل حليف الحق، والقوة رائد الاستعمار، فمتى كان الاستعمار عدلا؟
أى استعمار كان؟ دماء تسفك وحرمان تهتك، وأطفال تذبح فى حجور الأمهات، ومن وراء تلك أعماق السجون المظلمة والتبديد والتشريد، حتى فقدت البلاد ربع سكانها عدداً. تلك حقائق لا يجهلها العرب والمسلمون، وإنما هى ملء الأذان والعيون، وما نرى الفاشستية كفرت عن هذه السيئات بعمل جديد، فلو كان شئ من هذا لكنت موفقاً بعض التوفيق، ولكن آخر ما كان منك انتحالك حماية الإسلام، فجاء عملك هذا ملحاً على جرح.

لقد اعترفت فى خطبك بفضل الجنود المسلمين فى النصر الذى أحرزته فى حربر الأحباش إذن أنت فى حماية المسلمين وليس (المسلمين) فى حمايتك. فانظر إلى مدى هذا الاعتراف وذاك الادعاء، ولكن لك أن تقول: وهل المسلمون فى طرابلس الغرب، غير ضحايا التاج الإيطالى؟
وهنا يضعف الحق أمام القوة ثم يقول بلسان الحقيقة: قاتل الله السياسة أنها لا لون لها، ولكنها تنفض من الألوان ما تشاء.

وفى حملتك الشعواء على من يسيئون الظن فى ذاكرة الإيطالى ويتهمونه بالنسيان، تحاول أن تثبت خطأهم بأخذك ثأر عدوه بعد أربعين سنة.
فاسمح لى هنا يا صاحب السعادة أن أذكرك بأن لا تسيء الظن فى ذاكرة العربى فإنه إنسان مثلك. فإذا ما كان الإيطالى لم ينس عدوه بعد أربعين سنة. فليس فى استطاعة العربى أن ينسى عمر المختار فى بضع سنين.
والعربى من عرفه التاريخ، بفرط الصبر لأخذ الثأر وحسن الوفاء وحفظ

الذمام وحسبه أسطورة "الهامة" فى تقاليد القومية فسل إن شئت - عن قول الشاعر العربية "حتى تقول الهامة اسقونى"، والعربى الذى تحاول العبث به اليوم هو حفيد ذاك العربى الذى عرفته أنت، كما عرفه التاريخ وعرفته بلادك يوم كان بطل الفتح ورسول الحضارة وأستاذ الأمم وكان أرحم الفاتحين.

وبعد فإذا ما قصر بواجبهما العربى والمسلم حتى دالت منا الأياد، فلا يعنى هذا تبدل مزاج العنصر ومسوخ الروح، وانطفاء الغرائز الكامنة فى التصميم كمون النار فى الزناد والقوة الكهربائية بين النفى والإثبات. فإن الجارى فى العروق ما زال ذاك الدم المتقل من الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد. وللشعوب نومة ثم هبة كما للأفراد، ومهما طال دجى الليل فالمصير إلى الصباح. فليخفف من غلوائه كل طائش مغرور. فإنما الأيام دول والحياة أدوار والدهر تصاريف وما ألد الحياة لو أمن الإنسان كيد أخيه الإنسان.

ولقد خدمنا الإنسانية من دون نخيانة وأدينا رسالة العلم والحضارة بأمانة يوم فبضنا على ناصية الزمان. وبعض بلادك وبلاد الأسبان بعض الشهود.

هذا وبالرغم من كون المسلم جندياً بالعقيدة والعربى جندياً بالطبع فإنهما فى مقدمة من يحترمون السلام ويودون المصافاة بين الأمم والأقوام ويميلون إلى التسامح بحسن نية، ومن تعاليم الإسلام أن الإنيان يقدس الإنسانية ويرعى الجميل ويحفظ حق الإخاء ولا يعكر الصفاء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. والله المسئول أن يلهم هذه الخلال من عباده إذا أظغتهم النعمة لا يبالون بإضرار النار ولو عم بلاؤها وأكلت الأخضر والهشيم وقضت على حضارة قرن العشرين.

وفى الختام أرجو يا صاحب السعادة أن لا تقع كلمتى هذه من نفسك أكثر من أنها وسيلة لحسن التفاهم فى تصوير الحقيقة بشكلها البرىء ولونها الثابت الأمر الذى ترتاح إليه الأحرار وأن لا تنظر إلى صاحبها أكثر من أنه

يملك حرية القول، كما (أرجو) في الختام أن تتفضلوا بقبول فائق التحية والاحترام.

بغداد: ٢٧ محرم ١٣٥٦ (نيسان ١٩٣٧) حبيب العبيدي

ولقد كان لحادث زيارة موسوليني هذه ذيول. نذكر منها أن أمين سر جمعية الدفاع، السيد عمر فائق شنيب، ساءه أن يكتب صاحب (الجزيرة) الدمشقية مقالات عن هذه الزيارة، ومشاهداته أثناءها، في وقت كانت راجت فيه الشائعات تكيل الاتهامات للسيد محمد بشير ظبيان جزافاً وبلا حساب أنه من صنائع إيطاليا، على غلط الاتهامات التي كانت ذائعة ضد الأمير شكيب أرسلان، والتي سبق أن تعرضنا لمناقشتها في دراستنا هذه، مما جعل عمر فائق شنيب يسخط عليه سخطاً شديداً، خصوصاً وأن السيد ظبيان بعد انتهاء الزيارة بقي بعض الوقت في ليبيا - على نفقته الخاصة - يدرس الأمور عن كثب، ولم يلبث أن قصد إلى روما، ليقدّم إلى موسوليني "مذكرة ضافية تنطوي على مطالب حقه، جاءت - كما قال - نتيجة دراسة صحيحة بعيدة عن جميع المؤثرات والعوامل وذلك كله نزولاً على رغبة وإلحاح بعض الإخوان الذين قابلوه في طرابلس وكلفوه أن ييسط شكاويهم ورغائبهم إلى المقامات المسئولة في روما. وقد طلب محمد تيسير ظبيان أن يعرف رأى بشير السعداوى بما نشره وأذاعه عمر شنيب في حقه باسم جمعية الدفاع. واستطاع السعداوى أن يجلي الوقف بإصدار ذلك (البيان إلى الأمة العربية) الذي أثبتناه في موضعه، وكانت صحيفة (الجزيرة) نفسها من الصحف التي نشرته وذلك في عددها الصادر يوم ١٠ أيار (مايو) ١٩٣٧.

وأما الأمر الثاني، فهو مسعى القنصلية الإيطالية يف دمشق لمحاولة تشويه سمعة السعداوى فكتبت جريدة (الأيام) الدمشقية في عددها الصادر أول آذار (مارس) ١٩٣٧ مقالا تحت عنوان "احتجاج لا يشرف موقعه" تبين منه أن بعض وكلاء الطليان قد جمعوا توقيعات أكثرها مزورة، وقسم منها

لأشخاص توفاهم الله من مدة. ليضعوها على احتجاج أعلنوا فيه " أن المكتب الوحيد الذى نعتز به ونرجع إليه هو دار القنصلية الإيطالية بدمشق الذى لم يقصر يوماً من الأيام فى واجباته نحونا من الوجهتين الأدبية والمادية، وقد نقلت خبر هذا "الاحتجاج" إلى دمشق شركة التلغراف الإيطالية، وغنى عن البيان أن أحداً لم يأبه لهذه المفتريات ولو أن محمد نورى السعداوى فى بيروت، وعمر فائق شبيب ومحمد الكامل التونسى فى دمشق قد اهتموا جميعاً بدحضها وتكذيبها. وقد اتضح أن فوزى النعاس بالرغم من عداوته للسعداوى لم يكن له يد فى هذه "الأكاذيب المضللة" وكان السعداوى نفسه لا يزال وقتئذٍ بالحجاز.

وأهم عمل أنجزته جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى فى هذه السنة، من أعمال الدعاية للقضية، كان نشر رسالة من ٣٨ صفحة من القطع العادى، بعنوان (فظائع الاستعمار الإيطالى الفاشستى فى طرابلس - برقة) بقلم بشير السعداوى. وقد تعاون أعضاء اللجنة فى إعداد مواد هذه الرسالة وكتابة فصولها. وكانت هذه الفصول بعد المقدمة، تتحدث بالتوالى عن: ما هى الفاشستية، الفاشستية والاستعمار، الفاشستية وبلاد العرب، طرابلس الغرب فى العهد العثمانى، مناورات إيطاليا قبل احتلالها طرابلس - برقة، نضال طرابلس - برقة فى بدء الاحتلال الإيطالى، طرابلس - برقة فى ظلال طغيان موسولينى، الدعاية الإيطالية الفاشستية، ثم اختتمت هذه البحوث بتوجيه (نداء) من بشير السعداوى إلى (إخوانه أبناء طرابلس - برقة) يذكرهم بأن "تاريخ الشعوب تاريخ نضال، وأن ما من شعب نال حريته واستقلاله إلا بفضل نضاله، وأنه إذا راعهم طول مدة الكفاح دون أن يصلوا إلى نتيجة محسوسة فإياهم أن يأسوا، فاليأس من موجبات الشيطان والأمل من موجبات الرحمن، وما دخل اليأس قلب أمة غلا وضرب الله عليها الذل والمسكنة.

ولقد استمرت جمعية الدفاع عن طرابلس برقة قائمة بنشاطها فى كل السنوات التالية، تصدر النشرات والمطبوعات، خصوصاً فى "ذكرى" احتلال

إيطاليا طرابلس برقة. وكان مما أصدرته بمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لهذا الاحتلال فى ٥ أكتوبر ١٩٣٨ طائفة من الصور الشمسية لمناظر المشانق التى نصبها الطليان فى طول البلاد وعرضها لإعدام المجاهدين الذين يقعون فى أسرهم، وللأبرياء نساء وأطفالاً وشيوخاً الذين كانوا يسوقونهم "على المجازر الإيطالية" أو وهم سائرون بهم إلى "مرقدهم الأخير". وكان من بين الصور فى هذه المجموعة رسم الشهيد عمر المختار.

وما ذكرته هذه النشرة المصورة فى سبيل التدليل على أن موسولنى لا يمكن أن يكون صادقاً فى العفو العام الذى وعد به قول؟ الأمير شكيب أرسلان، قبل أن يأخذ بسياسة التقرب إلى إيطاليا، فجاءه بالصحفيين السادسة والسابعة من هذه النشرة ما يأتى:

وما العفو الذى ذكرته إيطاليا إلا وهم وخيال - ولقد صدق الأمير شكيب أرسلان فى جوابه على سؤال وجه إليه فيما مضى يتعلق بتخفيف الولايات عن أهل طرابلس برقة حيث قال: (إن موسولنى ان ابقى على أهل طرابلس برقة لا يبقى عليهم إلا كما يبقى على الحيوانات التى تعمل فى الحقل الرومانى، فهو لا يعرف الرحمة ولا الشفقة ولا المروءة ولا يقيم للإنسانية وزناً فى بنى قومه فكيف تطلبون منه أن يمنحكم بعض الحقوق، فهو لا يفهم بهذه اللغة.

وقد استطردت النشرة يقول: "فلا زالت الأملاك بيد المستعمرين والأراضى موزعة بين الإيطاليين، وإخوانكم يرسفون فى السلاسل وفى السجون بواسطة الأحكام العرفية، وإخوانكم هناك يريدون الفرار بأنفسهم ولا يجدون له سبيلاً وهم فى فقر وبؤس وشقاء فإياكم ثم إياكم أن تغتروا بالآقوال المزيفة المنمقة.

الهجرة الثانية، المستشار لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود (١٩٣٨ - ١٩٤٩)

كان السعداوى - كما رأينا - رسول حكمة دمشق "الوطنية برئاسة" جميل مردم إلى مصر، عند اشتداد الأزمة الفلسطينية، لاستمالة حكومة مصطفى النحاس لعقد مؤتمر عربى فى هذا القطر، لبحث القضية الفلسطينية، والنظر فى (تقرير بيل). وقد أصيب السعداوى بحادث ألزمه الفراش مدة. وانعقد المؤتمر فى بلودان فى سبتمبر ١٩٣٧ فى سوريا.

وسوف يكون السعداوى كذلك رسول هذه الحكومة الوطنية بدمشق مرة أخرى، وإنما إلى عاهل المملكة العربية السعودية، وفى مهمة ذات شأن وخطورة، فى وقت تلبدت فيه سحب السياسة الدولية وأنذرت بعاصفة حرب عالمية ثانية، أشد هولاً من الحرب العظمى الأولى. ولقد كان عند تأديته هذه المهمة أن دعاه جلالة الملك عبد العزيز إلى خدمته. ومن ذلك الحين إلى أن تفى الله العاهل العظيم بعد ذلك بنيف وخمس عشرة سنة، ظل بشير السعداوى يشغل منصب "المستشار" لجلالته.

وكان مبعث إيفاده من قبل حكومة دمشق إلى الرياض، توقع قيام الحرب، بعد أن اشتدت أزمة السلام العام فى أوروبا بسبب سياسة ألمانيا الهتلرية (أو الرايخ الثالث) العدوانية. فقد كان أودلف هتler قد غزا النمسا وضمها إلى ألمانيا منذ مارس ١٩٣٨، ويتأهب لاجتياح تشيكوسلوفاكيا، التى عولت فرنسا من ناحيتها على نجدها، وما كان فى وسع الإنجليز بعد اعتداءات ألمانيا النازية المتكررة فى الحقل الدولى منذ ١٩٣٦، أن يقفوا مكتوفى الأيدي. وعلى ذلك فقد توقع الجميع قيام الحرب.

وخشى الوطنيون فى سوريا أن تفاجئ الحرب الحكومات العربية، ولم تكن هذه قد جمت كلمتها بعد على خطة مشتركة سداها ولحمتها التضامن الوثيق فى أية خطة للعمل، ينتهى إليها رأى هذه الحكومات. وكان موضع

اهتمام الحكومة السورية وقتئذ حمل الفرنسيين على تنفيذ معاهدة ٩ سبتمبر ١٩٣٦ ، والتصديق عليها كما أساءهم اتفاق فرنسا مع تركيا فى يوليه ١٩٣٨ بشأن سنجق الإسكندرية . وترتب على عدم تصديق فرنسا على المعاهدة انقسام فى صفوف الكتلة الوطنية نفسها .

وأما مهمة السعداوى فكانت من أجل التفاهم والاتفاق مع جلالة عبد العزيز آل سعود على ما يجب عمله فيما إذا نشبت الحرب العالمية . وذلك حتى يتسنى "للأمة العربية" مواجهة هذه الحرب ، وهى متفقة على ما فيه المحافظة على كيائها .

غير أن سحب الحرب لم تلبث أن تبددت عندما طار رئيس الوزارة الإنجليزى (نيفل تشمبرلين Neville Chamberlin "وهو سن السادسة والستين" فى ١٥ سبتمبر ١٩٣٨ من لندن إلى (برختسجادن) لمقابلة هتلر ، ثم فى ٢٢ سبتمبر إلى (جودسبرج) لتسوية مشكلة (تشيكوسلوفاكيا) ومنع وقوع الحرب . ومع أن هذه الدولة الأخيرة رفضت المذكرة التى قدمت إليها لسلخ إقليم السويد منها ، وتلقت فى نظير هذا الرفض إنذاراً من ألمانيا فى ٢٧ سبتمبر ، وعبأت إنجلترا أسطولها ، وأعلنت فرنسا وروسيا استعدادهما للوقوف بجانب تشيكوسلوفاكيا ، فقد طار (تشمبرلين) مرة ثالثة ، وفى ميونخ فى ٢٩ - ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨ وافق رؤساء وزارات : فرنسا وبريطانيا وإيطاليا على تفويض هتلر ضم الأراضى التى تكون أكثرية سكانها من الألمان فى تشيكوسلوفاكيا ، أى الاستيلاء على السويد . وبذلك أمكن اجتناب الحرب العالمية .

عندما كان يجرى هذا الاتفاق فى ميونخ ، كان بشير السعداوى يواصل السفر بطريق البحر الأحمر إلى جدة . وفى جو من الهدوء النسبى بعد انفراج الأزمة الدولية ، هذا الانفراج المؤقت ، أمكن بشير السعداوى أن يعرض على جلالة الملك عبد العزيز المسألة التى وفد عليه من أجلها .

وقد تلقى الملك مقصد التضامن بين العرب بقبول حسن طيب ، وزود

السعداوى بالنصائح والإرشادات لإخوانه فى سوريا. فجلالته على أتم استعداد لهذه الغاية التى يسعى إليها هؤلاء، وأنه مهتم جد الاهتمام دائماً بسوريا، لأنه يعتبرها - كما قال جلالته - المركز الحساس فى جسم الأمة العربية.

ويقص بشير السعداوى كيف حدث بعد الفراغ من تأدية مهمته أن طلبه جلالة الملك إلى خدمته، فيقول: "وبعد بضعة أيام من هذه المقابلة كلف جلالته خالداً أبا الوليد أن يفهمنى أن جلالته يرغب فى بقائى فى خدمته. فأجبت: إنه لشرف عظيم أن ألتقى أوامر جلالته بالقبول والامتنال، ولكنى لم أعطه رداً شافياً، لأننى وقتئذٍ كنت أشرف على (المكتب العربى) الذى أسنانه بفضل عبقرية صديقى فخرى البارودى فى دمشق، وأعتقد أننا فى هذا المكتب نؤدى خدمات جليلة الشأن للأمة العربية، فما كنت أريد أن أقطع صلتى به، وإلى جانب هذا كله، كانت هناك جمعية الدفاع عن طرابلس برقة. فلما تأخر خالد أبو الوليد فى الجواب على جلالة الملك، رأى جلالته أثناء وجودنا بمجلسه أن يفتحنى فى الموضوع بنفسه، فقلت إن ذلك شرف عظيم لى، ولكن جلالته أصر على أن أعاهده على القبول. وعندئذٍ ذكرت لجلالته أنى موفد من قبل إخوانى فى مهمة، يجب على أن أبلغهم أوامر جلالة الملك بشأنها. فقال جلالته: لا بأس بذلك، حيثئذٍ تذهب إلى إخوانك فى سوريا ثم تعود إلينا عند موسم الحج فنتقابل، وكنا حيثئذٍ فى شهر رمضان ١٣٥٧ (وفى أواخر أكتوبر ١٩٣٨).

وبالفعل عدت إلى سوريا، وأبلغت الإخوان رسالة جلالة الملك. وقبل الحج رجعت إلى الحجاز فى أواخر شهر ذى القعدة (يناير ١٩٣٩) وحضر جلالته إلى الحجاز، وبعد الحج باشرت عملى كمستشار لجلالته، وتوجهت صحبته إلى الرياض فى فبراير ١٩٣٩.

وقد يكون متعذراً أن نتناول بتفصيل كثير تاريخ السنوات التى قضاها

بشير السعداوى "مستشاراً" لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود، من وقت التحاقه بخدمته إلى وقت أن استأذن من جلالاته أن يجيز له التفرغ للاضطلاع بقضية بلاده، ليبيا، منذ ١٩٤٦ فى الظروف التى سيأتى ذكرها. ومع ذلك ففى وسعنا ذكر بعض الموضوعات على سبيل المثال لما كان يشترك فى معالجته السعداوى "المستشار" من شئون، أو يشهده ويسجله فى ذاكرته، ويستخلص منه دروساً فى تجارب الحياة السياسية، التى مهما كثرت تجارب المرء فيها، فهو أبداً فى حاجة إلى تجارب أخرى تزيد من معرفته بشئون السياسة وخبرته بها.

وأول ذكريات السعداوى هى عن مهمة جديدة، أوفد فيها من قبل جلالة الملك عبد العزيز إلى إخوانه الوطنيين فى سوريا. فقد ترتب على مراوغة الفرنسيين وتضييقهم على الحكومة الوطنية، أن اضطر جميل مردم إلى الاستقالة فى ١٨ فبراير ١٩٣٩، واضطرب الموقف الداخلى بدرجة أن استقالت وزارتان على التوالى من بعد وزارة جميل مردم، حتى وجد رئيس الجمهورية نفسه، السيد هاشم الأناسى، من المتعذر عليه الاستمرار فى العمل، فقدم استقالته فى ٧ يوليو. ومنذ ١٠ يوليو عطل (غبرائيل بيو) Ga-beiel Pueaux الدستور وحل البرلمان وأقام مجلس مديرين غير سياسى تحت سلطته لإدارة شئون الحكم فى سوريا.

فى هذه الظروف إذاً أوفد بشير السعداوى من قبل جلالة الملك عبد العزيز إلى الوطنيين "ليثبت قلوبهم، ولينصحهم بالتمسك بالحكمة، وليؤكد تأييده لهم فى السعى من أجل استقلال بلادهم". وأمثر السعداوى من الاجتماع بأعضاء الكتلة الوطنية. ويذكر أنه كان فى أثناء أحد هذه الاجتماعات التى كانوا يعقدونها فى سوق الغرب بالقرب من عاليه، مع رياض الصلح، وعفيف الصلح، ولطفى الحفار وكثيرين من الإخوان أعضاء الكتلة الوطنية، أن نقل إليهم الأثير فى إذاعة ما بعد الظهر من يوم أول سبتمبر ١٩٣٩ خبر اجتياز الجيوش الألمانية لحدود بولندا. وفى ٣ سبتمبر

أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا. وبذلك اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية. وقد بقي السعداوى بسوريا بضعة أسابيع.

وعاد السعداوى عن طريق العراق من سوريا إلى الرياض. فلقى في بغداد الحاج أمين الحسيني مفتى القدس، والسيد جمال الدين الحسيني وصفوت الحسيني، وكان الحاج أمين قد غادر فلسطين إلى سوريا منذ أكتوبر ١٩٣٩، إلى العراق. ومن المعروف أن الحاج أمين كان قد خرج من فلسطين بعد أن أصدرت الحكومة البريطانية (كابتها الأبيض) في مايو ١٩٣٩، الذي أنهى إصداره "الثورة"، وخلف هدوءاً نسبياً في البلاد يشبه الهدوء الذي ساد في أوروبا عقب (اتفاق ميونخ). وقد رحب العراقيون (وحكومة السيد نوري السعيد في دست الأحكام) بالحاج أمين الحسيني، بفتى العراق وأما السيدان جمال وصفوت الحسيني فقد وجدوهما بشير السعداوى يريدان الذهاب إلى الرياض، فكانت رحلتهم واحدة.

وفي غضون عام ١٩٤٠، حضر إلى الحج في شهر يناير، (ذى الحجة ١٣٥٨) سيف الإسلام حسين أحد أبناء الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، لتأدية فريضة الحج وللزيارة. ودلت هذه الزيارة على أن الإمام حريص على استبقاء مودة أخيه "جلالة الملك عبد العزيز دائماً"، وكان المسئولون في العراق يريدون توثيق العلاقات مع اليمن، فأرسلوا إليها من سنوات قليلة مضت بعثة من بعض رجالات العراق المعروفين، وأرسل الإمام عدداً من الطلاب اليمنيين إلى معاهد التعليم في بغداد. ثم أذيع الآن أن بعثة عراقية تتأهب للذهاب إلى صنعاء. فصار بهم جلالة الملك عبد العزيز أن تسبق بعثة سعودية هذه البعثة في الوصول إلى عاصمة اليمن.

وتألفت البعثة من سمو الأمير محمد بن عبد العزيز، وبشير السعداوى، وقد رافق البعثة كذلك السيد طاهر رضوان، ويتحدث بشير السعداوى عن مهمته فيقول: "كانت الرحلة شاقة عسيرة بدأت من الرياض إلى جدة

بالسيارات، ومن هذه إلى الحديدية ثم إلى صنعاء، ومدتها بالسيارات اثني عشر يوماً. وكانت قافلة كبيرة من حوالى العشرين سيارة.

وناولت جلالة الإمام كتاب جلالة الملك، فأخذ يقرأه، ويردد القول الفينة بعد الأخرى: "كتاب كريم من رجل عظيم". بل يكاد عند كل سطر من سطوره يردد هذه العبارة. وبقينا في ضيافته خمسة وعشرون يوماً.

وتحدث مع جلالة الإمام طويلاً، وترددت عليه كثيراً، حتى إذا أدت مهمتى، وشرع الإمام "يردد الجواب" على جلالة الملك، قال إن مهمتك قد انتهت من قبل جلالة الملك أخى عبد العزيز، وأنت قد أبلغتني رسالتك فالآن إنما أنت ستكون مكلفاً من قبلى بحمل الرسالة التى بها جوابى، وإننى أريدك أن تكتب الجواب المنتظر منى إلى أخى عبد العزيز. فاعتذرت بأنى لست مؤهلاً لأمسك قلمه أمام ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، فأصر على أن أبدى رأى فيما يحسن كتابته. وأخيراً ألزمنى بكتابة الجواب وهو كتاب يعبر فيه الإمام يحيى عن شعور الصداقة والأخوة الذى يجيش فى نفسه نحو أخيه الملك عبد العزيز.

أما الموضوعات التى تناولها السعداوى فى أحاديثه ومباحثاته مع جلالة الإمام يحيى، فكانت تدور حول توثيق عرا الصداقة السعودية اليمنية، المؤسسة على المعاهدات السابقة، والتى كانت ترسى قواعدها من أيام معاهدة الطائف - التى مر بنا ذكرها - فى ١٩ يونيه ١٩٣٤ - وهى المعاهدة التى كان السعداوى من بين الذين توسطوا فى إبرامها. ثم إن هذه المباحثات كانت تدور كذلك حول موضوع الوحدة العربية. ومع أنه كان ميسوراً الوصول إلى الغرض الأول سريعاً، فقد لاحظ السعداوى أن عقبات كثيرة تحول دون اطمئنان الإمام يحيى وقتئذ لفكرة الوحدة العربية فهو أولاً لا يطمئن لرؤساء الدول العربية، ثم إن النفوذ الإيطالى فى بلاده كان ملحوظاً، وهو يخشى من السياسة الإنجليزية بدرجة كبيرة.

أقام السعداوى مدة خمسة وعشرين يوماً، وعندما شرع يتأهب للعودة بنفس الطريق البرى الذى جاء منه إلى صنعاء، وجد أن السيارات بعد رحلتها الشاقة السابقة لم يعد أكثرها فى حالة تمكّنها من إتمام العودة بسلام. وأراد السعداوى عدم التوقف. ولكن القافلة لم تلبث أن صادفت قبل الوصول إلى الحديد "خليجاً"، أو مجرى بسيط العمق من الماء، خيل إلى الجماعة أن فى وسع السيارات اجتيازه، فما أن دخلت هذه فى المجرى حتى غاصت فى الماء عجالاتها، وكان بعد مشقة عظيمة أن أمكن الوصول إلى الحديد. وكتب السعداوى إلى جلالة الملك عبد العزيز يعلمه بالحادث ويرجو إرسال باخرة إلى الحديد لتنقل البعثة إلى جدة.

ويروى السعداوى ما حدث بعد ذلك، وكان قد عاد إلى صنعاء، فيقول: "وسمع جلالة الإمام بما وقع لنا، فكتب إلى جلالة الملك عبد العزيز. أنه توجد باخرة إيطالية بالقرب من الحديد مستعدة لنقل البعثة، وأبلغ الإمام السعداوى برغبته هذه. وكان المعتمد الإيطالى فى صنعاء قد اقترح على الإمام أن تأمر حكومته الإيطالية بارجة حربية كانت فى مياه البحر الأحمر، لتأتى إلى الحديد لنقل السعداوى وزملائه إلى جدة. فكتب السعداوى إلى جلالة الملك عبد العزيز، أن الإمام يحىي يقترح عليه الانتقال فى باخرة إيطالية، ولكنه لا يستطيع الركوب فى دارعة إيطالية، لأن الطليان كانوا أصدروا عليه حكماً بالإعدام من سنوات مضت. وعلى ذلك فقد جاء جواب الملك عبد العزيز على كتاب الإمام يشكره. ويعتذر إليه من عدم إجابة رغبته بسبب حكم الإعدام الصادر على بشير السعداوى، وعندئذ عرض الإمام يحىي أن يكتب إلى موسوليني ليستصدر منه عفواً عن السعداوى. ورفض السعداوى ذلك، مؤكداً للإمام أن فى صدور هذا الحكم ضده شرف عظيم له، لأنه من طاغية يستبعد وطنه الذى هو مستعد للتضحية بحياته دائماً فى سبيله. وعلى ذلك فقد استأجرت الحكومة السعودية إحدى البواخر

وكانت آتية من الهند، فنقلت البعثة من الحديدية إلى جدة، ثم قصد لسعداوى إلى الرياض.

ويستتر السعداوى فى روايته، فيقول: «لما ناولت جلالة الملك كتاب الإمام، قال هذا كتاب لا شك أن له قيمته حيث إنه من أخى الإمام يحيى، ولكن حدثنى أنت بما رأيت وسمعت. فشرعت أبين لجلالة الملك ما لمست من الإمام يحيى والانطباعات التى حصلت لى من مقابلاته. وقلت إنه يكره الإفرنج ويخشى من الوقوع فى شباكهم، وهو يخاف من الإنجليز أكثر من خوفه من الطليان، لأن هؤلاء الأخيرين يأتون إلى بلاده كأطباء وفنيين ثم وصفت الإمام بأنه رجل عظيم، وعالم لا يغشى مجلسه إلا العلماء وأهل الأدب، وهذا إلى جانب أنه وديع الخلق، هادئ الطبع، وقد سر جلالة الملك لأننى تحدثت عن الإمام بما قال جلالة الملك إنه يعتقد من صفات الرجل، ولا يعرف الرجال إلا الرجال».

وكانت الحرب حينئذ قد قطعت شوطاً كبيراً، وصارت أحداثها تقع متلاحقة، وتأخذ بتلايب بعضها بعضاً. فبولندة انتهى أمرها، واقتسمتها ألمانيا وروسيا بعد أقل من شهر من غزوها. وفى ربيع ١٩٤٠، اكتسحت جحافل الألمان خمس دول مستقلة: الدانمرك، والنرويج، وبلجيكا وهولندة، ولكسمبرج، وسقطت باريس فى أيدي الألمان فى يونية واحتل هؤلاء أكثر فرنسا. وفى أغسطس ١٩٤٠ بدأ (معركة بريطانيا)، وفى الشهور التالية خضعت رومانيا، ثم تبعتها فى فبراير ١٩٤١ بلغارية ثم يوغسلافيا واليونان (بالاشتراك مع الإيطاليين فى أوائل أبريل)، وفى مايو احتل الألمان جزيرة كريت، وفى يونية ١٩٤١ بدأ الغزو الألمانى لروسيا.

وتلك جميعها ولا ريب أحداث عظيمة، وحرص جلالة الملك عبد العزيز على تقصى أخبار الحرب وتتبع أدوارها. فكان يستمع إلى (الإذاعة)

تنقل إليه أنباء القتال مرات ثلاث كل يوم على أن يسعى العاملون في الإذاعة لاستقصاء الأخبار من أكثر عدد مستطاع من محطاتها.

وغنى عن البيان أن تجنيب بلاده خطر الحرب كان كل ما يهتم به، حتى أنه رفض عندما طلب إليه الإنجليز الاشتراك في الحرب إجابتهم إلى رغبتهم، وذلك في الوقت الذي طلبوا فيه ذلك من الحكومة المصرية - وزارة الدكتور أحمد ماهر (باشا) أكتوبر ١٩٤٤، إلى فبراير ١٩٤٥ - فكان الملك عبد العزيز يرفض الدخول في الحرب على أساس أن وجود الأماكن المقدسة ببلاده يقتضيه المحافظة عليها من الأخطار التي سوف تهددها إذا اشترك في الحرب الدائرة.

وأما أهم الأنباء التي تلقاها جلالته في أوائل العام الثاني من الحرب، فكان متعلقاً بذلك الانقلاب الذي حدث في العراق وقام به رشيد عالي الكيلاني في أبريل ١٩٤١. فقد حلت في العراق منذ شهر مارس من العام السابق (١٩٤٠) وزارة ألفها رشيد عالي، محل وزارة نوري السعيد. ومن المعروف أن الأول كان عدواً للإنجلترا. وعلى ذلك فقد تركت الهزائم التي منيت بها بريطانيا في البلقان في ربيع ١٩٤١ والزحف الإيطالي الألماني في ليبيا، أثراً في بغداد زاد من خطورته على قضية الحلفاء الغربيين، مؤامرات المحورين حيث كان لاجئاً في بغداد الحاج محمد أمين الحسيني، وعديدون من السوريين. ولكن في يناير ١٩٤١ خرج رشيد عالي من الحكم، وحل طه الهاشمي مكانه، فطلب رشيد عالي الانتقام فتآمر مع جماعة (المربع) الذهبى. وقام بانقلاب ٤ أبريل ١٩٤١، الذي أعطاه رئاسة الوزارة والحكم. وجعل الوضى على العرش، وقتئذ الأمير عبد الإله، ونورى السعيد وأكثر أعضاء الوزارة المنحلة يهربون إلى سوريا وفلسطين وشرق الأردن، واستطاعوا أن ينقلوا معهم الملك الصغير (جلالة الملك فيصل الثانى). ولم تستمر حكومة رشيد عالي الكيلاني طويلاً. فإن قوة هندية إنجليزية لم تلبث أن نزلت في

البصرة فى أواخر أبريل نفسه . ونشب القتال بين الإنجليز والعراقيين فى أول مايو، وأحاطت المدفعية العراقية بقاعدة الطيران الإنجليزية فى الحبانية، وأحاطت قوات عراقية أخرى بالسفارة الإنجليزية ببغداد. وأوفد رشيد على وزير حريته السيد ناجى شوكت إلى أنقرة ليطلب من السفير الألمانى فى تركيا، فون بابن Von Papen مساعدة عسكرية، ولم يسفر هذا المسعى عن شىء لأن ألمانيا لم تكن متهية لحدوث مثل هذا الانقلاب فى العراق من جهة. ولأن أنقرة بالرغم من الضغط الشديد عليها رفضت أن تميز مرور الأسلحة والجنود إلى العراق فى أرضها من جهة ثانية، ولأن السلطات الفرنسية فى سوريا، والتي بقيت موالية لحكومة فيشى، مع أنها أذنت للألمان فى استخدام سكة حديد حلب - الموصل، والمطارات الفرنسية فى سوريا، إلا أنه تعذر على هؤلاء الاستفادة من هذه الخطوط الفائدة الكاملة فلم تصل العراق فى آخر الأمر غير حوالى خمسين طائرة ألمانية، وسيطر الألمان بعض الوقت على الموصل. أما الإنجليز فقد نقلوا بكل سرعة النجدة من فلسطين ومن شرق الأردن فلم يلبثوا أن خلصوا الحبانية، وسقطت فى أيديهم بغداد فى آخر مايو. وقضى على الثورة نهائياً وفى الأسبوع الأخير من مايو ١٩٤٢، غادر الوزراء مع أسرهم العاصمة، ففر جماعة منهم إلى إيران وإلى تركيا، وقصد الحاج أمين الحسينى - وكان أعلن حرب الجهاد ضد الإنجليز - إلى طهران. وفى ٢٨ مايو قر رشيد على نفسه من بغداد قاصداً إلى إيران.

ولقد كان جلاله الملك عبد العزيز لا يقر رشيد على وإخوانه على الانقلاب الذى قاموا به، وبوجه الانتقادات اللاذعة "لسياسة" هذا الانقلاب المحورية، وهو الذى تمسك بموقف الحياد دائماً، مع الميل الظاهر نحو الحلفاء الغربيين. حتى أن مندوب رشيد على الذى أوفد إلى الرياض - وكان ناجى باشا السويدي - لقى عنتاً من "صراحة" جلاله الملك عبد العزيز فى الادلاء برأيه.

ومع ذلك فقد أبت الشهامة العربية إلا أن تنجد رشيد عالي الكيلاني نفسه عندما لجأ هذا محتمياً بالملك عبد العزيز آل سعود. وتفصيل الخبر - كما يرويهِ بشير السعداوى - أنه وصلت ذات يوم برقية من أمير الحدود عند شرق الأردن أن نجيب الجابى المحامى من دمشق، وكان يريد اجتياز الحدود السورية السعودية يطلب مقابلة جلالة الملك. وكان جلالتِه يتهيأ للسفر من أنريمن إلى الحجاز. فسأل عن مهمتهم، وماذا تكون؟ ولماذا لا يرجع الجابى ومن أتى معه السيد شكرى القوتلى فى سوريا، وتلك المراجعة كانت ضرورية قبل حضورهم إلينا، فالسيد القوتلى موضع ثقة جلالتِه، واعتقد الملك عبد العزيز أن وفداً من السوريين حضر يريد مقابلته فى شأن من الشؤون المتعلقة بالموقف فى سوريا وشارك السعداوى وسائر المستشارين جلالتِه فى هذا الاعتقاد، وانهقد رأى على أن يسمح جلالتِه لهذا "الوفد" بالمثل، لمعرفة ما إذا كان هناك شيء ضد القوتلى نفسه قد يكون من الخبر تلافيه بكل سرعة. وعلى ذلك فقد أذن الملك لنجيب الجابى بالمجيء إلى الرياض. ووصل نجيب الجابى فى صباح اليوم المعين لبدء السفر. وكان فى صحبته رشيد عالي الكيلانى، الذى كان نجيب الجابى أخفى اسمه، وأبلغ أنه مجرد أحد إخوانه، فقابل رشيد عالي جلالة الملك الذى أمر بأن يقيم فى ضيافته، ثم برح الرياض تاركاً بها رشيد عالي. ووصل الملك بعد أن قطع مرحلة السفر الأولى إلى (مرات) حيث وافيته بها فى اليوم التالى. فأخذ يسألنى إذا كنت علمت من هو الضيف الذى جاء إلينا؟ فلما نفيت علمى بشيء من هذا، قال جلالتِه إنه رشيد عالي. ثم استطرد يقول أن التجاءه إلينا سيسبب لنا مشاكل مع العراق ومع الإنجليز، ولكنى لا أسلم هذا الشخص وأنا على قيد الحياة لأنه شيفى. ثم أمر على الفور باستدعاء الوزير المفوض الإنجليزى (جرافتى سميث) فجاءنا بالطائرة إلى مكان يسمى (الدوادمى) فى منتصف الطريق بين الرياض ومكة، وعندئذ أخبره جلالتِه "أن رشيد عالي قد جاء ملتجئاً إلينا وإنى استدعيتك حالا لتبلغ حكومتك أن هذا الرجل ضيفى، ولتعلمها أنى لا

أسلم ضيفي وأنا بقيت الحياة، وكان انفعال الملك شديداً وهو يتحدث، فاندش الوزير البريطاني. وقال أنه سيرفع إلى حكومته ما سمعه من جلالة وأمام إصرار الملك، وبعد مراجعات متعددة، رأت الحكومة البريطانية أن تسلم بالأمر الواقع وتركت المسألة للعراقيين ليحلها هؤلاء مع الملك عبد العزيز.

فكتب جلالة إلى الوصي على عرش العراق، الأمير عبد الله، أن رشيد عالي الكيلاني ضيفه. وأنه مضطر إلى قبوله، وأن الوصي على العرش نفسه عربى، ويعرف "الدخالة" ولذلك فهو يرجو أن لا يتلقى هذه المسألة بشيء من الحرج والاضطراب. فكان جواب عبد الله رقيقاً.

ولكن ما عاد نور السعيد من تركيا، وشكل وزارته (فى ٩ أكتوبر ١٩٤١)، وهى الوزارة التى استمرت إلى (٣ يونيو ١٩٤٤) حتى كتب إلى الخارجية السعودية، يطلب تسليم رشيد عالي، وعندئذ دخلت المسألة فى دور قانونى، وكان السعداوى منذ أن أبلغه جلالة الملك رغبته فى حماية رشيد عالي الذى لجأ إليه، قد ذكر لجلالته أن المعاهدة القائمة بين العراق والمملكة العربية السعودية، وهى التى أبرمت تفى مكة فى أبريل ١٩٣١ لا تخول تسليم اللاجئين السياسيين، فاستند المسئولون السعوديون على هذه المعاهدة فى مباحثاتهم مع العراق، وانتهى الأمر بسكوت العراق، وبقي رشيد عالي الكيلاني فى المملكة العربية السعودية إلى وقتنا هذا.

وأما المسألة الهامة التالية، فكانت مراقبة السعداوى عن كثب تأسيس جامعة الدول العربية، فهو كمستشار لجلالة الملك عبد العزيز، كان بوسعه كسائر مستشاريه أن يدلى برأيه فيما يسأل عنه ويطلب منه النصيح والمشورة بشأنه، وهو بهذه الصفة نفسها مكلف من قبل الملك بالمباحثة مع مندوب أو رئيس الحكومة المصرية وقتئذ السيد مصطفى النحاس، الذى أوفد ليبلغ الملك عبد العزيز آل سعود، أن اتفاقاً قد حصل بين الرئيس المصرى، ورئيس

الوزراء العراقي السيد نوري السعيد على إنشاء جامعة الدول العربية ويطلب منه أن ينضم إليها.

وهو بحكم منصبه أيضاً كستشار، يمكنه أن يعرف "سياسة" مليكه: أمانيه وأهدافه ومخاوفه وهواجسه في الحقل السياسي، وهو ميدان أبداً مليء بالعقبات والعثرات، ينبغي لمن يلجأ أن يكون متيقظاً حذراً؛ وذلك في وقت لم يكن العاهل السعودي يطمئن لثواب أو مرامي الهاشميين، ويحذر من "سياسة" نوري السعيد، وأياً ما كان الأمر، فقد انتقلت تلك الحقبة من التاريخ بأحداثها، وتبدل الحال بحال، ولم يبق إلا أن يسجل المرء بعض الحقائق المتصلة بإنشاء جامعة الدول العربية هذه، كأمنية طالما سعى لتحقيقها بشير السعداوي نفسه إلى جانب عديدين غيره من قادة الرأي والمستغلين بالقضايا العربية بين العرب، ولعل (المكتب العربي) الذي تضافر مع السيد فخرى البارودي على إنشائه في دمشق - كان أقرب صورة مصغرة، وفي إنكنايا هذا المكتب المحدود - من هذه المؤسسة العنيدة. وثمة سبب آخر، هو أن هذه الجامعة العربية، التي شهد السعداوي مولدها، لم تلبث أن ترعرعت واشتد ساعدها، فقامت بدور على جانب عظيم من الخطورة - سبق أن ذكرناه مفصلاً في موضعه - في قضية بلاده، لا جدال في أنه كان ذا أثر - مهما كان شأنه - في تقرير مصير ليبيا.

وليس سرّاً مجهولاً أن إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية كانت الدولة الأكثر اهتماماً بأن يتعاون العرب فيما بينهم تعاوناً يؤدي إلى اتحادهم، ثقافياً أو اقتصادياً أو سياسياً. ولو أنه كان من الواضح أن "مشروعاً" لتحقيق هذه الوحدة العربية، يجب أن يأتي من العرب أنفسهم.

ومن المعروف أن وزير الخارجية البريطانية المستر أنتوني إيدن، في ذلك الحين، قد أدلى بترصيح يف هذا المعنى ذاته في ٢٤ فبراير ١٩٤٣، في صورة جواب على سؤال من أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني، وقال إن حكومته تنظر بعين العطف إلى أي حركة تقوم بين العرب تهدف لهذه الغاية.

أما الدولتان اللتان بدأتا "التفكير" فى هذا المشروع فكانتا العراق ومصر. حيث اجتمع رئيساهما مصطفى النحاس ونورى السعيد لبحث المسألة فى القاهرة بين ٣١ يولييه و٥ أغسطس ١٩٤٣. وبعد أسابيع قليلة، أعلن المسئولون أن الاتفاق قد تم بين مصر والعراق وشرق الأردن، وأن مندوباً مصرياً قد ذهب لمقابلة جلالة الملك عبد العزيز، وأن من المنتظر قريباً أن يحضر وفد سورى إلى القاهرة لبحث موضوع الوحدة العربية. وحضر رياض الصلح رئيس الوزارة اللبنانية إلى القاهرة فى يناير سنة ١٩٤٤ للمباحثة مع الرئيس النحاس، وجرت المباحثات كذلك فى بغداد بين الرئيسين العراقي والسورى. وفى فبراير من السنة نفسها، جاء وفد سورى إلى الرياض، ليبحث مع الملك عبد العزيز موضوع التعاون المنشود بين الدول العربية. وبذلك تكون قد تقدمت المباحثات من أجل إنشاء (الجامعة العربية) تقدماً ملموساً.

أما ما تلا ذلك من خطوات فكان سهلاً هيناً. اجتمع المؤتمر التمهيدى للدول العربية بالإسكندرية برئاسة مصطفى النحاس بين ٢٥ سبتمبر، و ١٠ أكتوبر ١٩٤٤. ووقعت خمس دول، هى: مصر وسوريا وشرق الأردن والعراق ولبنان على (بروتوكول الإسكندرية) فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤، وكان مفهوماً أن اليمن والمملكة العربية السعودية توافقان على (البروتوكول)، ومنع من توقيع مندوبيهما، أن الإمام يحيى والملك عبد العزيز لم يكن قد عرض عليهما بعد رسمياً نص هذا البروتوكول. ومن المتفق عليه أن كليهما لم يطمئن إلى "الطريقة" التى جرى "التشاور" فى هذه المسألة. وبمهمهما معرفة مآل السيطرة على هذه (الجامعة العربية) عند قيامها، لمن تكون من الدول؟ وعلى ذلك فقد استغرقت (المفاوضة) مع هذين العاهلين لاستمالتها إلى تأييد البروتوكول كل الوقت، من حين توقيع هذا الأخير بالإسكندرية إلى وقت توقيع (ميثاق جامعة الدول العربية) بالقاهرة فى ٨ ربيع الآخر ١٣٦٤،

الموافق ٢٢ مارس ١٩٤٥. ولم يكن قد حضر مندوب اليمن ليوقع مع زملائه.

وقبل التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية بشهرين، أي في يوم ٢٤ يناير ١٩٤٥ حصل اجتماع رضوى، بين الملك عبد العزيز آل سعود، وملك مصر السابق (فاروق الأول)، فقد غادر الملك السابق السويس على ظهر إيلخت (فخر البحار) ويرافقه في رحلته إلى جانب رجال الحاشية، السيد عبدالرحمن عزام "الوزير المفوض بوزارة الخارجية" ووصل إلى ميناء ينبع، ثم أقيم لاجتماع الملك عبدالعزيز به (مخيم) في رضوى. وكان من الذين "قدمهم" العاهل العربى إلى ضيفه: أصحاب السمو الأمراء، وكبار رجال دولته مستشاره، ومن هؤلاء الأخيرين بشير السعداوى.

وأذاعت مفوضية المملكة العربية السعودية بتاريخ ٢٨ يناير، بلاغاً عن الديوان الملكى العربى السعودى فيه:

تجلت الإخوة الإسلامية والرابطة العربية بأجلى مظاهرها فى الاجتماعات المتبادلة والأحاديث الودية المتعددة بين (الملكين) فى المخيم فى سفوح رضوى.. مما سيكون له الأثر الطيب فى تمتين عر المحبة بين الشعبين الشقيقين".

وقد اعتبر رأى العام فى بلاد الإنجليز خصوصاً، أن هذه المقابلة فى رضوى، قد جاءت "علامة جديدة" على نحو ما قالت جريدة (الأوبزرفر) اللندنية فى ٢٨ يناير سنة ١٩٤٥ - "علامة جديدة على الرغبة فى الوحدة بين جميع البلاد العربية فى الشرق الأوسط، وهى علامة لم تكن متظرة، لأن الروابط بين مصر وبين الوهابيين، الذين ينتمى إليهم آل سعود كانت متراخية على أثر الحروب التى نشبت فى القرن الماضى".

وصحب بشير السعداوى جلالة الملك عبد العزيز فى أول رحلة قام بها جلالته خارج مملكته أو بارح فيها بلاده منذ زار البصرة، قبل ذلك بحوالى

ثلاثين سنة (١٩١٦). وكان ذلك عند مقابلة الملك عبد العزيز لرئيس الولايات المتحدة الأسبق فرانكلين ديلانو روزفلت على ظهر الطراد الأمريكى (كوينزى) الراسى بالبحيرات المرة.

فإن روزفلت بعد اجتماعه برئيس الوزارة البريطانية (ونستون تشرشل) والرئيس الروسى ستالين) فى مؤتمر يالتا فى القرم بين ٧ و١٢ فبراير ١٩٤٥، كان قد قرر فى طريق عودته من يالتا أن يجتمع بملك مصر، وإمبراطور الحبشة (هيلا سلاسى) وملك المملكة العربية السعودية، فاجتمع بالاثنين الأولين يوم ١٤ فبراير، وفى اليوم التالى، كان جلالة الملك عبد العزيز، قد حضر من جدة ومعه مستشاروه، ومنهم بشير السعداوى على ظهر مدمرة أمريكية. فانتقل مع مرافقيه إلى ظهر الطراد (يوم ١٥ فبراير) ودارت المحادثات حول اعتقاد الرئيس الأمريكى "بأن رؤساء حكومات العالم ينبغى أن تتاح لهم فرصة تبادل الآراء، لكى يزداد تفاهمهم وتقدير كل مهم لمشاكل الآخر، وبحث المشاكل المشتركة التى تمس كلا من الدولتين.

ويقول بشير السعداوى الذى حضر هذه المقابلة إن: "جلالة الملك عبد العزيز تكلم مع الرئيس روزفلت كلاماً شديداً جداً بشأن فلسطين. وفى اعتقادى - كما استمر بشير السعداوى يقول - لو عاش روزفلت لما كانت تمت قصة اليهود بالشكل الذى هى عليه اليوم. ومن ضمن ما قال روزفلت لجلالة ابن سعود: أنت بلادك زراعية، وإنى أرغب أكيداً فى زيارتك يف الرياض وأساعدك على توسيع الزراعة فى نجد. فأجاب جلالة ابن سعود: أنا لا أريد زراعة، بل ولا أريد الحياة ذاتها إذا استمر اليهود فى فلسطين. وقد صدم روزفلت بهذا الجواب.

ومما يدل على جدية الأثر الذى تركه بيان الملك عبد العزيز يف نفس الرئيس روزفلت أن هذا الأخير لم يلبث أن ذكر: "أنه تبين من الملك ابن السعود فى خمس دقائق ما لم يتبينه قط من قبل من شئون العلاقات بين العرب واليهود".

بعد المقابلة - وكان روزفلت أعد مأدبة للعاهل العربى - قصد جلالة الملك عبد العزيز إلى الفيوم، بينما أبحر الرئيس روزفلت إلى الإسكندرية.

وكان الموعد التالى لمقابلة رئيس الوزراء الإنجليزى المستر تشرشل ووزير خارجيته أثنونى إيدن، ووصل جلالة الملك يوم ١٦ فبراير إلى الفيوم، ونزل مع مستشاريه بفندق البحيرة (أوبرج دولاك).

أما تشرشل وإيدن ومن معهما فقد غادروا القاهرة إلى الفيوم يوم ١٧ فبراير، وكان من الإنجليز الذين جاءوا إلى الفيوم، السفير البريطانى فى مصر اللورد (كيلرن)، وجرت المباحثات بين تشرشل والملك عبد العزيز، وقام بالترجمة بينهما السيد عبد الله بالخير.

ويقول بشير السعداوى: "إن البحث كله كان يدور حول قضية فلسطين "ويبذل جلالة الملك عبد العزيز قصارى جهده ليعين لهم أن فلسطين بلاد عربية، وأنه لا يجب أن ينتصر لليهود على العرب، لأن العرب يعتبرون هذا الانتصار لليهود عملاً عادياً ضد العرب". وكان من بين الذين زاروا الملك عبد العزيز يف الفقيوم الملك السابق فاروق، ورئيس حكومة سوريا وقتئذ السيد شكرى القوتلى، كما كان من بين مستشارى العاهل العربى الذين حضروا اجتماع الفيوم، السيد حافظ وهبه.

أما تشرشل فإنه عند افتتاحه المناقشة فى مجلس النواب البريطانى فى موضوع مؤتمر (يالتا) يوم ٢٧ فبراير، أدلى بالبيان التالى: "لقد اغتبطت أيما اغتباط بمقابلة الملك ابن السعود سيد المملكة السعودية العربية الشهيرة ونلت شرف تكريم هذا الرجل الذائع الصيت فى مأدبة غداء أقيمت فى الفيوم. ولقد أعربت له عن شكر بريطانيا العظمى على ثباته وإخلاصه الوثيق الراسخ لبلادنا وللغرض المشترك. هذا الأخلاص الذى كان أكثر ظهوراً وتألقاً فى أحلك ساعات الخطر الفادح. وإننا وإن لم نصل إلى حل لمشاكل العالم العربى ومشكلة يهود فلسطين، إلا أننى آمل أنه عندما تضع الحرب أوزارها

سيكمن اتخاذ تدابير لتأمين السلم وتقدم العالم العربى والشرق الأوسط عامة .

وقد انعقد الرأى وقتئذ، أن هذه الاجتماعات - وقد اجتمع كذلك المستر تشرشل بالسيد شكرى القوتلى، واجتمع رجالات الإنجليز والأمريكان عموماً بالقادة والزعماء العرب فى الوقت نفسه - نقول إن الرأى كان مجتمعاً على أن " التفاهم " الذى حصل سوف يعجل لا محالة بتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية، الذى مهد له بروتوكول الإسكندرية قبل ذلك بأربعة شهور تقريباً.

وفى فبراير ١٩٤٥، كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الانتهاء . فقد انهزمت قوات المحور، وغزا الحلفاء ألمانيا (الروس من الشرق والأمريكيون من الغرب)، وفى ٢٣ أبريل دخل الجيش الأحمر برلين، بينما أخضع الأمريكان والبريطانيون إيطاليا، وفى ٢٥ أبريل ضرب سلاح الطيران البريطانى قصر الهر هتلر فى برختسجاردن بالقنابل . وفى ٢٨ أبريل أعدم موسولينى وعشيقته وستة عشر من أنصاره الفاشيست فى قرية صغيرة على شاطئ بحيرة كومو (قرية دونجو)، وفى أول مايو يلقى أودلف هتلر حتفه، ويعثر الروس على جصته مسودة من الحريق (فى ٢٦ يونيه) فى مركز مقاومته الأخير تحت دار المستشارية فى برلين . وفى يوم ٢٨ مايو ١٩٤٥، احتفلت الولايات المتحدة بيوم النصر فى أوروبا . أما اليابان، فقد أُلقيت على هيروشيما أول قنبلة ذرية لأول مرة فى تاريخ الحروب، وذلك يوم ٦ أغسطس، ثم أعقبها إلقاء قنبلة ذرية ثانية على نجازاكى يوم ٩ أغسطس، فطلبت اليابان الصلح فى اليوم التالى وعلى الشروط التى يشترطها الحلفاء (١٤ أغسطس)، وفى ٢ سبتمبر يوقع رئيس حكمتها وزعمائها العسكريون رسمياً على شروط التسليم . وبهذا تكون الحرب العالمية الثانية قد وضعت

أوزارها، ولم يشهد روزفلت نفسه نهايتها، حيث إنه كان قد توفي بعد الاجتماعات التي ذكرناها بأسابيع قليلة، في ١٢ أبريل ١٩٤٥.

تأسيس هيئة تحرير ليبيا:

آذن انتهاء الحرب العالمية الثانية بأن عهد جديدًا سوف يبدأ في حياة الشعوب التي خلعها انتصار الحلفاء الغربيين من سلطان الإيطاليين الذين انهزموا مع حلفائهم الألمان في هذه الحروب، وكان لا مفر من أن يفقدوا كل مستعمراتهم في أفريقية، ومن هذه المستعمرات ليبيا.

لقد كانت الحقبة الأخيرة مليئة بالأحداث الجسيمة حقًا، فإن بشير السعداوى ما كاد يمضى في خدمة جلالة الملك عبد العزيز شهورًا معدودة، حتى اندلع لهيب الحرب، التي كان متوقعًا أن ينصهر في بوتقتها مصير كل الشعوب، وويل للمغلوب منها حيثذا! وكان واضحًا أن مصير بلاده ليبيا مرتهن بما تسفر عنه هذه الحرب الضروس من نتائج. ولا جدال في أن بشير السعداوى ما كان بحال من الأحوال يستطيع أن يكون "محوريًا" في ميوله وعواطفه، أو يتيه به الوهم والخيال فيتوقع خيرًا للأمة العربية، أو لقضية بلاده، إذا قدر (للمحور) أن ينتصر. فإن أحد قطبي هذا المحور، إيطاليًا. وذلك وحة يكفي لإقناعه - وعلى خلاف ما كان يزعمه لأنفسهم طائفة من الزعماء متفرقون في مختلف البلدان العربية - بأن لا خير يرجى من انتصار الألمان وحلفائهم للقضايا العربية، وكثيرون هم الذين مع بشير السعداوى وقتئذ كانوا يعتقدون آمالًا عظيمة على تصريحات الرئيس الأمريكي وعوده المشهورة عن (الحريات الأربع) التي لخصها في رسالته إلى (الكنجرس) الأمريكي يوم ١٤ يونيو ١٩٤٢، في أنها حرية الكلام والتعبير عن الرأي وحرية العبادة والدين والتحرر من العوز والحاجة، والتحرر من الخوف، ومثل ذلك، ما اعتقد السعداوى وكثيرون ممن عاصروا هذه الحوادث أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا كانتا جادتين حقًا عندما أعلن روزفلت وتشرشل

(ميشاق الأطلنطى) فى ١٤ أغسطس ١٩٤١. وفيه تحترم حكومتاهما حق الشعوب فى اختيار نوع الحكومة أو نظام الحكم الذى ترضاه لنفسها. وتعلنان رغبتهما فى أن تسترد الشعوب التى اعتدى عليها بالقوة استقلالها وسيادتها، وتؤكدان أنهما لا تطمعان فى توسيع رقعة بلادهما بضم أراض جديدة إليها أو بغير ذلك وتنفيان أنهما تريدان إحداث تغييرات إقليمية من غير موافقة الشعوب المختصة. وبشرطة أن تعطى هذه الشعوب الحرية الكاملة للتعبير عن رغباتها.

ولم يقطع السعداوى صلته بإخوانه أعضاء جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى فى دمشق. فقد أعيد تشكيل هذه الجمعية من جديد بسبب ظروف الحرب، وتغيب رئيسها فى المملكة العربية السعودية، وذلك فى غضون سنة ١٩٤٠، وانتخب رئيساً لها الدكتور كامل عياد، وبقي من أعضائها القدامى السيد عبد الغنى الباجقنى، وأبو بكر قدورة، ولم يلبث عمر شبيب أن ذهب إلى (درنة) ثم جاء إلى القاهرة.

وفى مصر كان النشاط قائماً على قدم وساق بعد اندلاع الحرب، لجمع صفوف المهاجرين فى جبهة واحدة برئاسة سمو الأمير السيد محمد إدريس السنوسى منذ أكتوبر ١٩٣٩، ليتصل سموه بالمسؤولين الإنجليز، تمهيداً لتكوين جيش سنوسى يشترك فى العمليات العسكرية المتوقعة عند دخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا - وقد أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء الغربيين فى يونيو ١٩٤٠. ويجد القارئ تفصيلات وافية لهذا النشاط فى كتابنا (السنوسية دين ودولة). ومما تجدر ملاحظته أن عديدين من الرؤساء الطرابلسيين خالفوا ما ذهب إليه أكثرية إخوانهم البرقاوين، فلم يشاءوا الاشتراك فى هذه الحركة من دون أن يسبق ذلك من الإنجليز وعد صريح بأن بلادهم سوف تنال استقلالها. حيث قد اكتفى الذين عملوا على تأليف هذه الجبهة بزعامة الأمير أن أعلنوا فى قراراتهم التى اتخذتها (جمعيتهم الوطنية الليبية) يوم ٩ أغسطس ١٩٤٠،

أنهم "وضعوا ثقتهم فى دولة بريطانيا العظمى التى مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسى البرقراوى من براثن الاستعمار الإيطنالى العاشم؁ وتفويض سمو الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقات والمعاهدات السياسية والمالية والحربية (!) التى توفى هذه الغاية وتضمن للوطن حرته واستقلاله .

على خلاف ذلك كان موقف بشير السعداوى . فإنه عندما اشتد الزحف الإيطنالى الألمانى الذى اضطّر البريطانيين إلى الانسحاب من بنغازى فى أبريل ١٩٤١؁ ثم استطاعت قوات المحور بقيادة الجنرال (إروين روميل) التوغل فى الحدود المصرية مسافة ٥٠ ميلاً؁ حتى بات فى ٢٥ يونيه ١٩٤٢ على مسيرة مائة ميل فحسب من الإسكندرية . اتصل الإنجليز بجلالة الملك عبد العزيز كى يسأل بشير السعداوى إذا كان مستعداً للتعاون معهم فى الحرب الدائرة ضد الإيطنالين خصومه . فأجابهم جلالته على لسان السعداوى أنه يقبل التعاون ولكن بشرط أن يعترف الإنجليز أولاً بإعطاء ليبيا بعد تحريرها وهزيمة قوات المحور استقلالها . فلم يأت من هؤلاء رد على هذا الجواب . ومضت شهور كان تبدل فيها الموقف فى صالح الإنجليز وحلفائهم فى ليبيا . فقد انتصر هؤلاء على (روميل) فى معركة العلمين المشهورة فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ وتقهقر روميل مسرعاً إلى طرابلس ثم إلى تونس . ثم إلى بلاده؁ ولم يات شهر مارس حتى كانت قد انتهت معركة شمال أفريقيا . أضف إلى هذا أن (الجيش السنوسى)؁ كان قد تألف؁ واشترك فى كسب هذه الانتصارات السريعة . وأصدر (إيدن) تصريحه المشهور فى مجلس العموم البريطانى فى ٨ يناير ١٩٤٢ وهو التصريح الذى كان مما جاء به "أنه ينتهز الفرصة ليعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السنوسى وأتباعه فى المجهود الحربى البريطانى . . وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب فلن تسمح بوقوع السنوسيين فى برقة تحت النير الإيطنالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال .

وعلى ذلك فإن بشير السعداوى عندما قابل المستر إيدن يوم اجتماع جلالة الملك عبد العزيز بالمستر تشرشل وبه فى الفيوم (فى فبراير ١٩٤٥)، سأله - وكان المترجم بينهما السيد عبد الله بالخير - "لماذا أنتم عندما دخلتم برقة صرحتكم بأن برقة لن تعود تحت الحكم الإيطالى. وأغفلتم ذكر طرابلس مع أنكم طردتم كذلك قوات المحور منها" فكان جواب إيدن أن برقة وحدها هى ما يحق لنا الحديث عنها، أما طرابلس فالتصريح بشأنها من اختصاص حلفائنا جميعاً! ثم أخذ إيدن يتخلص من الإطالة فى هذا الموضوع بأن راح يظهر إعجابه بالزى العربى!!

لقد أتاحت الفرصة لأن يدرس السعداوى الموقف فى القاهرة عن كثب بين إخوانه الليبيين، عندما جاء جلالة الملك عبد العزيز آل سعود لزيارة مصر، واستمرت هذه الزيارة من ١٠ يناير إلى ٢٢ يناير ١٩٤٦، وقد وجد السعداوى الانقسام كبيراً بين (اللجنة الطرابلسية) ودعاة الإمارة السنوسية. ثم حضر مرة أخرى فى فبراير من العام نفسه، ثم كان مع سمو ولى العهد الأمير سعود فى اجتماع ملوك العرب فى إنشاص فى مايو ١٩٤٦، ثم استأذن من جلالة الملك أن يتفرغ لخدمة قضية بلاده. وفى مارس ١٩٤٧ تأسست بزعامته (هيئة تحرير ليبيا).

أما تفاصيل ذلك كله، فهى مذكورة جميعها فى الفصول الأولى من هذا الكتاب.



تلك إذا كانت الأصول التى تستند عليها زعامة بشير السعداوى: فهو قد جاهد بالسيف والحديد ضد العدو الذى جاء ليغتصب بلاده، وهو قد هاجر من وطنه هجرتين، وهو قد أشعل حرباً هوجاء ضد إيطاليا - هى التى سماها (حرب الأقاليم) - فأبقى قضية طرابلس برقة، وشغل بها أذهان العالم الإسلامى العربى، بعد أن انقضت تماماً كل مقاومة فى ليبيا، فرسخ فى

ضمير العالم أن الطليان قد ارتكبوا فى حق الليبيين من الفظائع ما لا يحى أثره أبداً، حتى إنه بعد انتهاء الحكم الإيطالى من ليبيا، لم يعد فى مقدور هؤلاء جميعاً أن يعيدوا الحكم الإيطالى فى أية صورة من الصور إلى ليبيا.

أما ذلك القدر الكبير من التجارب السياسية وغيرها التى مر بها السعداوى، وأوجدت شخصية الزعيم الذى من حقه وحده قيادة شعبه إلى ما فيه تحقيق أمانيه القومية الصحيحة، فسوف يتضح أثرها فى تلك المبادئ الوطنية الخالصة التى استرشد بها السعداوى فى مرحلة جهاده القريبة. وهى المرحلة التى تميزت بحصول ليبيا على استقلالها.